

النبي محمد ﷺ  
وَقِيَادَةُ الْعَالَمِ

ونماذج من حكومات الخلفاء الراشدين

هذا الكتاب

رسالة علمية نال بها الباحث درجة الماجستير بتقدير ممتاز

تأليف الباحث

عاطية محمد رواسي

ماجستير في الحديث الشريف وعلومه  
جامعة الأزهر

الناشر

مكتبة بحر العلوم

١٢١ / ٢٢ ٢٠٤٥  
٧٦ ٢٠٧٦٤ / ١٢ - ٥٤ ٠١ ٥٩٤ / ١٠  
دمنهور - أمام البريد العمومي

المؤلف  
عطية محمود رواش  
الطبعة الاولى  
رقم الإيداع  
٢٠٠٨ / ١٦٤٦٣

اسم الكتاب  
النبي محمد وقيادة العالم  
القاهرة  
٢٠٠٨

### حقوق الطبع والنشر والتوزيع

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة بحر العلوم للنشر والتوزيع

### تحذير

لا يجوز نشر أو طبع أو إعادة طبع أو إختزال أو إقتباس أى من أجزاء هذا الكتاب أو مادته العلمية أو الفكرية وكذلك الغلاف الخارجى بأى طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير وخلافه إلا بموافقة كتابية ومختومة بختم الناشر المنوط له نشر هذا الكتاب وذلك حفاظا على جميع حقوق الملكية الفكرية .  
الناشر

الناشر

مكتبة بحر العلوم

٠٤٥ / ٣٣ ٢٠ ١٢١  
٠١٠ / ٥٤ ٠١ ٥٩٤ - ٠١٢ / ٧٦ ٢٠ ٧٦٤  
دمنهور - أمام البريد العمومى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

بقلم دكتور / محمد بن عوض زايد الحرياي - مدرس القراءات بكلية المعلمين بالرياض

جامعة الملك سعود - بالمملكة العربية السعودية

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... وبعد ،،،

فقد أطلعت على هذا البحث الموسوم بـ « النبي محمد ﷺ وقيادة العالم »

والذي كتبه أخونا الباحث الشيخ / عطية محمود على مبروك رواش فالفيتة بحثا قيما في فكرته عميقا في مجاله منفردا في بابيه حيث أنه يتعرض لأعظم شخصية عرفها التاريخ منذ أن خلق آدم عليه السلام إلى وقتنا هذا بل وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ألا وهو رسولنا محمد ﷺ ولقد تطرق الباحث في هذا البحث إلى جانب مهم من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو الجانب السياسي والإداري والقيادي في حياته ﷺ فرسولنا صلوات الله وسلامه عليه كانت له جوانب سياسية حكيمة قاد بها دولة الإسلام في بداية نشأتها سواء في مكة حيث الكفر والشرك والمعاندة والإستكبار وكيف تعامل مع من ناصبوا دعوته العدا من أول وهلة فبسياسته الحكيمة عاملهم باللين تارة وبمفاوضتهم ومحاولة إقناعهم تارات أخرى إلى أن أذن الله بالهجرة لينتقل إلى مجتمع آخر أرسى فيه قواعد إقامة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة وكيف استطاع أيضا بسياسته الحكيمة أن يتعامل مع نوع آخر من البشر وهم اليهود بعدل وحكمة وسماحة في التعامل مع تركه لهم حرية المعتقد وحق الحياة والأمن ، كما أن استطاع أن يتعامل مع فئة أخرى ظهرت في المدينة ألا وهم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر فتعامل معهم أيضا بلين ورفق تارة وبشدّة وحزم تارة أخرى كما تطرق الباحث جزاه الله خيرا إلى جانب آخر من حياة الرسول ﷺ وهو الجانب الإداري العسكري الذي لم يكن يعرفه أحد من قبل ، فسبق بذلك كل قادة العالم حيث أرسى قواعد الشورى في الإسلام ، كما أهتم بالإستطلاع والاستخبار وقت ملاقات الأعداء مع تعبئة الجنود المعنية وغيرها .

وأخيرا فهذا البحث بحق هو إثراء للمكتبة الإسلامية حيث إنها تفتقر لمثل هذه الجوانب الخفية من حياة الرسول ﷺ

نسأل الله تعالى أن يجزي الباحث خيرا الجزاء وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته

وأن يجزي خيرا كل من ساهم في نشره وطباعته

إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

٦ من شهر شعبان ١٤٢٩ هـ .

كتبه

د / محمد بن عوض زايد الحرياي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة حق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أكرم النبيين سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد

لقد ظهر في عصرنا من ينادي بالتجديد في الخطاب الإسلامي، والتجديد في الأحكام الشرعية، وكأن دين الإسلام عجز عن الوفاء بحاجات العصر الحديث، وما طرأ عليه من تطورات علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية.

ولا نشك أن أصحاب هذه الفكرة بعيدين عن قراءة تراث علماء الإسلام، ومبهورين بالحضارة التي اشتعلت حديثاً في الغرب، مما دفع كثيراً من المثقفين إلى الانشغال بحفظ الثقافة الغربية، والتظاهر معها غروراً بالمستحدثات العلمية التي ظهرت في البلاد الغربية.

ولو أن أهل الإسلام رجعوا إلى علوم القرآن والسنة النبوية، لأيقنوا بكفايتهما للكون كله، ولكنهم وفروا أنفسهم على الهندسة والطب والفلك والفلسفة من غير النظر في علوم الإسلام، تاركين علوم الكتاب والسنة للمتخصصين فيهما فقط.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يلقي الضوء على مسألة هي من أشد مسائل المجتمع تعقيداً، ألا وهي: المنهج الإسلامي للقيادة شاملاً السياسة والحكم والإدارة والاقتصاد.

وكل مسألة في هذا الكتاب هي ترجمة لنص شريف من القرآن الكريم، أو السنة النبوية المصونة، مما يعلى من شأن ذلك البحث، ويكشف ويجلي الحقيقة التي لا مرأى فيها، وهي أن دين الإسلام العظيم هو منهج الله العزيز الحكيم لجميع الخلق، وهو الصراط المستقيم الذي لو التزمه المسلمون بدقة وإيمان وأمانة لسادوا الدنيا،

ولكفاهم الله تعالى كل مكروه.

إن القارئ حينما يطالع عناوين هذا الكتاب، ثم يقرأ محتوى كل عنوان يوقن بأن الله ﷻ قد بين للإنسان كل خطوة من خطى حياته على الصراط المستقيم.

يبدأ هذا الكتاب بإعداد الإنسان الخليفة إعدادًا خاصًا يتناسب مع مهامه التي حمّله الله تعالى إياها، ورسول الله ﷺ هو المثال الكامل لذلك الإعداد حيث نشأ يتيمًا معتمدًا بالله تعالى، غير معتمد على عون أحد، فكان ﷺ يتلمس الفضائل حتى كان إمام الخفاء قبل أن يوحي إليه، وكان يحضر الأحلاف في الجاهلية، ويساهم في صياغة بنودها، وهكذا تبوأ ﷺ المركز الأسمى بين فتيان مكة، ثم تزوج من أشرف نساها.

ثم بعثه الله ﷻ للناس كافة على رأس الأربعين، فتلطف في دعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، مَهْدِيًا بقول الله تبارك وتعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وحرصًا على نشر الإسلام في العالم، فإنه ﷺ قد اتخذ من مواسم الحج والعمرة إلى مكة مناسبات مواتية للتبشير بدين الإسلام، حتى فشا أمر الإسلام في جزيرة العرب.

ولما ضيق الكافرون على الدعوة في مكة، فتح باب الهجرة إلى الحبشة، إعلانيًا للعالم بمنهج الإسلام المؤسس على السلام، وفرصته لنشر الدين خارج حدود جزيرة العرب، ولقد دخل النجاشي ملك الحبشة في دين الإسلام بسبب تلك الهجرة المباركة، وكانت تلك الهجرة سابقة جديدة على العالم تقرر بها حق اللجوء إلى بلاد الحرية وإقامة الحق، وهو ما عرف في أعصارنا هذه: «باللجوء السياسي».

ولقد اهتم رسول الله ﷺ بالإنسان مسلمًا كان أو غير مسلم، فدعا إلى الحفاظ على مقومات حياته وهي: «النفس والعقل والعرض والمال والأهل»، وسوى بين الناس على اختلاف عقائدهم وأجناسهم وأنسابهم في الحقوق والواجبات.

إن هذا الكتاب المبارك يشتمل على الوثيقة النبوية التي وضعها رسول الله ﷺ بالمدينة عقب هجرته إليها، وهي حُرِّيَّةُ بالدراسة، فقد خصصها للحقوق والواجبات على أهل المدينة جميعًا مسلمين، ويهود، ومشرّكين، فلقد وضع فيها رسول الله ﷺ مبدأ التآخي بين أفراد المهاجرين، ثم بين الأنصار، ثم بين المهاجرين والأنصار، ثم

حقوق أهل الكتاب وواجباتهم، وكذلك أهل الأوثان، ووضع فيها بنود الحقوق الإنسانية والمالية والاجتماعية لكل طوائف أهل المدينة، ثم وضع فيها شروط الحفاظ على ما في المدينة من نفوس، وأموال وأعراض، وحقوق، وأن جميع أهل المدينة ملتزمون بالوفاء بالحفاظ على المدينة، وهم جميعاً يد على من عاداهم.

والمرثقة النبوية دستور بديع لمبدأ التعايش الكريم بين طوائف المجتمع المختلفة ديناً وجنساً ومرتبة، وكل بند فيها هو نصّ شريف من مبادئ الإسلام في كتابه الكريم، وحديث رسول الله ﷺ.

هذا الكتاب يقدم نموذجاً مثالياً لإدارة الدولة في أمنها وفي حربها، في سياستها وإدارتها واقتصادها، وهو يبين أن الأمة بأسرها مكلفة باتباع هذا المنهج؛ لأنه أولاً وأخيراً منهج عبّاديّ يسعد به الناس في الدنيا والآخرة.

نسأل الله تعالى أن يبارك فيه، وأن ينفع به.

وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، والحمد لله رب العالمين.

د/ عبد الرحمن الرفاعي

أستاذ الحديث الشريف بجامعة الأزهر

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد العالمين نبينا محمد ﷺ، لقد انبهر الناس ببعض الزعماء السياسيين والقادة العسكريين، وعلق في أذهانهم أنهم زعماء الإصلاح ونسجوا حولهم الأساطير، وألفوا من أجلهم الكتب التي تبرز حسن قيادتهم. وعظم سياستهم وصوروا للعالم أن القيادة بدأت وانتهت عند هؤلاء الزعماء لا تتعداهم إلى غيرهم، ولا تتخللهم إلى أي فرد من بني جنسهم، والعجيب في هذا الأمر أن بعض المسلمين انساقوا خلفهم، وساروا وراءهم، وافتنوا بكلامهم فجاء هذا البحث ليثبت للعالم أجمع زيف ما يدعون، وبطلان ما يقولون، ويقيم الحجة وينصب البرهان أن النبي ﷺ كان سابقاً في هذا الميدان، وأنه قائد لا يبارى، وأنه كان يعمل لصالح البشرية قاطبة، ولم يكن همّه في قيادته لجيوش المسلمين أن يذل الناس أو يقهر الشعوب، أو يحتل الأوطان، أو يسلب الأطيان، وإنما كان كل همّه أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الواحد الديان.

جاءت هذه الرسالة المميزة فنبهتنا وذكرتنا، فهي تقول لنا يا من تنتسبون إلى الإسلام، عودوا إلى الإسلام، وقد تميزت هذه الرسالة بميزات كثيرة منها: دقة التخريج، وأمانة النقل، وعزو الأقوال إلى مصادرها ومراجعها بكل أمانة، وكان الباحث موفقاً غاية التوفيق في عرض قضاياها وعرض رسالته، ولقد بذل فيها الطالب جهداً عالياً يذكر فيشكر فجزاه الله خيراً ونفع به وبأمثاله الإسلام والمسلمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العلمين.

أبو محمد محمد رياض بن سيد أحمد قناوي آل سعد

أستاذ الحديث الشريف وعلومه بجامعة الأزهر الشريف

## الإهداء

إلى من كان يلقي القرآن الكريم من لدن حكيم عليم، إلى من علمه ربه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيماً، إلى إمام المجاهدين وسيد الأولين والآخرين وقائد الغر المحجلين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أهدى هذا العمل المتواضع سائلاً الله تعالى أن يتقبله منى وأن يجعلنى فى رفقة الصالحين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].



## شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، لا أحصى ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه، فقد أسبغ على نعمه ظاهرة وباطنة، ووفق وأعان، فله ربي الحمد والثناء، يا خير من أعطى وأكرم من سئل، والصلاة والسلام على حبيب الحق وسيد الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، القائل فيما ورد عنه : «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»<sup>(١)</sup>.

## وبعد

فإنه لمن تمام شكر الله شكر من أجرى الله الخير على أيديهم، فكانوا سبباً في إخراج هذا البحث، فأقدم خالص الشكر والتقدير والإجلال إلى أستاذي الجليل فضيلة الأستاذ الدكتور الطبيب / عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعي أستاذ الحديث الشريف وعلومه بالكلية، حيث تفضل باختيار هذا الموضوع والإشراف عليه، فوسعني صبراً، وفتح لي بيته وقلبه، وكان لي أباً ومشرفاً ومعلماً، وأحاطني بعطفه ورعايته، وما أحسب أني موفيه حقه بهذه الكلمات، فقد عشت معه تجربة بحث طالما تقت إليها وتمنياتها، وأحسست من خلالها بعظيم تواضعه وغزارة علمه، وسداد منهجه ونفاذ بصيرته، فالحمد لله

(١) أخرجه الإمام أبو داود في السنن : كتاب الأدب : ١٢ باب في شكر المعروف، عون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ٣١٦/١٣ ح ٤٨٠٣ والكتاب طبعة دار الفكر بيروت سنة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، والترمذي في السنن : كتاب البر والصلة : ٣٥ باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح. تحفة الأخوذ بشرح جامع الترمذي للإمام الحافظ أبي العلاء محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ٦/٦١ ح ١٩٥٤، والكتاب طبعة دار الفكر بيروت ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م كلاهما عن أبي هريرة ؓ.

وغزارة علمه، وسداد منهجه ونفاذ بصيرته، فالى تعالى أسأل أن يمتعه بالصحة والعافية، وأن يجزيه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء. كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير والإجلال إلى أستاذى الجليل فضيلة الأستاذ الدكتور/السيد أحمد إبراهيم حمور أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بالكلية، حيث تفضل بالإشراف على رسالتى هذه، فكان نعم الأستاذ ونعم المربى فتح لى صدره وأعطانى من وقته، وشملى بعطفه ورعايته، ووجدت فيه علم العلماء، وعمل المجاهدين وإخلاص الأتقياء، فالى تعالى أسأل أن يبارك فى عمره، وأن يجزيه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

كما أتقدم بخالص شكرى وتقديرى إلى أبى وأمى وإخوتى وجميع أهلى، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم عني خير الجزاء إنه تعالى سميع قريب مجيب الدعاء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



بسم الله الرحمن الرحيم

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صدق الله العظيم

( الآية ٦٥ من سورة النساء )



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### أصل هذا الكتاب

هو رسالة ماجستير حصلت بتوفيق الله وبِعونه ثم بها على نيل درجة التخصص (الماجستير) في الحديث الشريف وعلومه بكلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر بالقاهرة ، وكانت بعنوان : المنهج السياسي والإداري لرسول الله ﷺ في حكومته للأمة ونماذج من حكومات الخلفاء الراشدين وبيان ذلك من خلال السنة النبوية .

وقد أشرف علي هذه الرسالة عالمان كبيران هما : فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعي . أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر ، وفضيلة الأستاذ الدكتور : السيد أحمد إبراهيم حمور أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الأزهر .

وقد كانت مناقشة هذه الرسالة يوم الثلاثاء الموافق ٢٠ / ٥ / ٢٠٠٣ م وكانت لجنة المناقشة والحكم على الرسالة مكونة من المشرفين على الرسالة ومن عالمين كبيرين آخرين هما : فضيلة الأستاذ الدكتور : محمد رياض سيد أحمد قناوى أستاذ الحديث وعلومه بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بجامعة الأزهر بالقاهرة . والأستاذ الدكتور : عبد الموجود محمد عبد اللطيف أستاذ الحديث وعلومه بكلية أصول الدين بالقاهرة .

وحصلت فيها علي تقدير ممتاز.



### توطئة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق و سيد المرسلين  
سيدنا محمد بن عبد الله.

وبعد : إن الدولة الإسلامية الأولى التي أقامها النبي ﷺ في المدينة كانت قاعدة القيادة للمنطقة كلها، وقد اتسعت رقعة هذه الدولة وزادت مساحة حكمها ومناطق نفوذها حتى بسطت سلطانها على الكثير من البلاد التي كانت تحت قبضة الروم، وكذلك التي كانت ترزح تحت نيران احتلال الفرس، وأصبح الكثير من المناطق في الجزيرة العربية وما حولها خاضعة للدولة الإسلامية تأتمر بأمرها وتنتهي بنواهيها، ولما توفي النبي ﷺ سار الخلفاء الراشدون على دربه، وسلكوا طريقه فكثرت الفتوحات، واتسعت الممالك، وأصبح معظم ممالك الأرض يعيش في كنف الدولة الإسلامية وتحت قيادتها .

ولقد طوفت في هذا البحث ببعض مظاهر القيادة الحكيمة للنبي ﷺ في بناء دولة الإسلام وبعض جوانب العبقرية السياسية والعسكرية والإدارية للنبي ﷺ وخلفائه الراشدين التي انتهجوها في قيادة البلاد والعباد مما جعل دولة الإسلام قدوة عليا ومثالا يحتذى في قيادة العالم بالعدل والإنصاف والحكمة حتى دان لهم العالم وخضعت لهم الدنيا بأسرها.

وسوف يتضح لك جلياً أيها القارئ الكريم مظاهر العظمة ومواطن البراعة وحسن سياسة الأمور في بناء دولة الإسلام والسير بها على طريق الجادة حتى شهد الأصحاب والمنصفين من الأعداء أن النبي ﷺ كان قائداً منقطع النظير، مع الوضع في الاعتبار أن اصطفاء النبوة والرسالة هو أعظم ما ينعت به النبي ﷺ ، فالنبوة أعلى المراتب البشرية وأعظمها على الإطلاق .



## المقدمة

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله<sup>(١)</sup>، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا \* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

(١) هذه الخطبة تسمى خطبة الحاجة وقد أخرجها الإمام ابن ماجه بهذا اللفظ كجزء من حديث عن ابن مسعود رضي الله عنه سنن ابن ماجه: كتاب النكاح: ١٩ باب خطبة النكاح ١٧١/٢ ح ١٨٩٢ طبعة دار الحديث بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

وأخرجها بالفاظ متقاربة الأئمة:

أ- أبو داود في السنن: كتاب النكاح: ٣٣ باب في خطبة النكاح ١٢١/٧ ح ٢١١٨

ب- والترمذي في السنن كتاب النكاح ١٦ باب ما جاء في خطبة النكاح ١٧٨/٤ ح ١١٠٥ وقال أبو عيسى: حديث عبد الله حديث حسن.

ج- والنسائي في السنن كتاب الجمعة باب كيفية الخطبة ٣/١٠٤، ١٠٥ طبعة دار الريان للتراث بالقاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - وفي كتاب النكاح باب ما يستحب من الكلام عند النكاح ٨٩/٦

د- والدارمي في كتاب النكاح ٢٠ باب في خطبة النكاح ١/٦٢٦، ٦٢٧ ح ٢٢٠٢ والكتاب طبعة دار الحديث بالقاهرة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

هـ- والإمام أحمد في المسند ١/٣٩٣، ٣٩٢ ط مؤسسة قرطبة بالقاهرة بدون تاريخ.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار<sup>(١)</sup>.

### وبعد

فقد أرسل الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ لهداية البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور، وأنزل عليه القرآن الكريم هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فأزال به ما ران على قلوب الناس من الشرك والضلال والانحلال، وتكفل الله بحفظه، فصانه عن التحريف وعصمه من التبديل تحقيقاً لوعده ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وجعل السنة المطهرة التي هي صنو القرآن العظيم والأصل الثاني من أصول الإسلام جعلها مبينة له تفصيلاً لمجمله وتوضيحاً لمبهمه وتخصيصاً لعامه وتقييداً لمطلقه ورداً لبعض ما تشابه منه إلى محكمه بالإضافة إلى ما أضافته السنة من الأحكام الشرعية الكثيرة التي لم ينص عليها القرآن الكريم.

وبالقرآن الكريم والسنة المطهرة استطاع رسول الله ﷺ أن يؤسس أمة الإسلام فكانت أمة عظيمة ذات سيادة، وقيادة ومجتمع فاضل وأساس متين.

ومن خلال السيرة الذاتية للنبي ﷺ ظهر تأثيره في الناس لاسيما الصحابة وسلف الأمة الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

فالنبي ﷺ لا يوزن به رجل من العالم شرقاً ونبلاً وفضلاً إلا رجح به فلم تعرف له هفوة، ولم تحص عليه زلة، ولقد نما وتربى ونشأ وعاش وشب وشاب

(١) أخرجه كجزء من حديث الإمام النسائي: كتاب صلاة العيدين: باب كيف الخطبة ٣/١٨٨، ١٨٩ عن جابر واللفظ له.

وأخرجه بالفاظ متقاربة:

أ- الإمام مسلم في الصحيح: كتاب الجمعة: ١٣ باب تخفيف الصلاة والخطبة ٣/٤١٨ ح ٨٦٧ مكرر. والكتاب طبعة دار الحديث بالقاهرة الطبعة الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٨م

ب- والإمام ابن ماجه السنن: المقدمة: ٧ باب اجتناب البدع والجدل ١/٤٦، ٤٧ ح ٤٥.

ج- أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/٣١٠ جميعهم عن جابر بن عبد الله ﷺ.

يحوطه سبحانه وتعالى بعنايته ويحفظه من أقدار الجاهلية فصار، أفضل رجال الدنيا مروءة، وأكرمهم وفادة، وأحسنهم خلقاً، وأزكاهم نفساً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم حِلماً وأكثرهم أمانة وأبعدهم من الفحش والأخلاق الرذيلة التي تدنس الناس، ولذلك أحكم قيادة الدولة الإسلامية، ودانت له الدنيا، وأحكم قيادة الخصوم والأتباع.

لذلك كان لزاماً علينا، أن نحفظ سنته، ونتدارس سيرته التي هي جزء من سنته. فإن خير ما يتدارسه المسلمون، ولاسيما الناشئين والمتعلمين ويعنى به الباحثون والكتابون، دراسة السنة النبوية إذ هي خير معلم ومثقف ومهذب ومؤدب وأفضل مدرسة تخرج منها المسلمون والمسلمات الأوائل الذين قلما تجود الدنيا بأمثالهم، ففيها ما ينشده المسلم وطالب الكمال من دين ودنيا، وإيمان واعتقاد، وعلم وعمل، وآداب وأخلاق وسياسة وكياسة، وإمامة وقيادة وعدل ورحمة وبطولة ورجولة وكفاح، وجهاد واستشهاد في سبيل العقيدة والشرعية والمثل الإنسانية الرفيعة والقيم الأخلاقية الفاضلة والهمم العالية الماضية.

ولقد كانت السنة النبوية مدرسة تخرج فيها أمثل النماذج البشرية وخير أهل الأرض وأنفع الناس للناس، وهم صحابة رسول الله ﷺ فكان منهم الخليفة الراشد، والقائد المحنك والبطل المغوار، والسياسي الحكيم، والعالم العامل، والفقيه البار، والعامل الحازم والحكيم الذي تتفجر من قلبه ينابيع العلم والحكمة، والتاجر الذي يحول رمال الصحراء ذهباً، والصانع والزارع اللذان يريان في العمل عبادة والكادح الذي يرى في الاحتطاب عملاً شريعاً يترفع به عن التكفف والتسول، والغنى الشاكر الذي يرى نفسه مستخلفاً في ماله ينفقه في الخير والمصلحة العامة، والفقيه الصابر الذي يحسبه من لا يعلم حاله غنياً من التعفف، وكل ذلك كان من ثمرات الإيمان بالله وبرسوله ﷺ وبهذا كانوا الأمة الوسط وكانوا خير أمة أخرجت للناس.

وكان السلف الصالح في هذه الأمة الإسلامية يدركون ما لسنة النبي ﷺ وسير الصحابة النبلاء من آثار حسنة في تربية النشء وتنشئة جيل صالح يحمل رسالة الإسلام ويضحى في سبيلها بالنفس والمال.

فما أحوج المسلمين في حاضرهم ومستقبلهم رجالاً ونساءً وشباباً وشيخاً أن يتعلموها ويعلموها غيرهم ويتخذوا منها نبراساً يسرون على ضوئه في تربية الأبناء والبنات وتنشئة أجيال تؤمن بالله ورسوله وتضحى بكل شيء في سبيل نصرته الإسلام ورفعته لا يثنيهم عن هذه الغاية الشريفة بلاء أو إيذاء أو أطماع أو إغراء.

ولما كان للسنّة النبوية الشريفة أهمية كبيرة في هداية الأمة الإسلامية واستقامتها والسير بها على طريق الجادة أردت من خلال دراستي لها أن أبرز للعالم أجمع سياسة النبي ﷺ الحكيمة في إدارة الدولة الإسلامية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً واجتماعياً إدارة حكيمة وراشدة، بلغت أعلى درجات التميز والتفرد، وقد سار الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم على هذا النهج الكريم، وسوف يظهر ذلك من خلال هذا البحث الذي نحن بصدد.

### أسباب اختياري هذا الموضوع

كان لي في اختيار هذا الموضوع عدة أسباب أجملها فيما يأتي:  
 أولاً: توفيق الله تعالى ومشيتته العلية فهو الذي شرح صدرى لهذا العمل وحببه إلى نفسي وذلّل لي الصعاب في معالجته.  
 ثانياً: أن هذا الموضوع - فيما أعلم - لم يطرق من قبل بالدراسة العلمية المتخصصة.

ثالثاً: إبراز منزلة رسول الله ﷺ ومكانته في النواحي السياسية والعسكرية والإدارية وبيان أن النبي ﷺ كان مع توقيه الحروب والقتال يحسن من فنون الحروب ما لم يكن يحسنه أعداؤه، وإنه لم يكن ليتجنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف ممن حاربه ووقف ضد دعوته، ولكنه اجتنبه لأنه نظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغیضة يلجأ إليها حينما لا تكون له حيلة في اجتنابها إلى أن تنشرح صدور الناس للحق ودين الإسلام أو حتى يكفوا عن صد الناس عن سبيل الله.

رابعًا: حاجة الأمة - لاسيما في هذا الزمان - إلى من يبصرها بسياسة نبينا محمد ﷺ في إدارة دولة الإسلام سياسيًا واقتصاديًا، وفي إقامة الدولة الناجحة والمجتمع الفاضل حتى تعود الأمة إلى سالف عهدها وتهتدى بهدى نبينا محمد ﷺ في هذا الجانب المهم.

خامسًا: إزالة ما علق في أذهان بعض الناس أن النبي ﷺ كان ينتصر في غزواته بالتأييد المحض من الله ﷻ، وإثبات أن النبي ﷺ كان يأخذ بكل الأسباب المادية التي تحقق له النصر، وبعد ذلك يتضرع إلى ربه يطلب منه العون والمدد.

سادسًا: بيان أن الدين والدولة مرتبطان، وأنهما كالوجهين للعملة الواحدة فلا يجوز فصل أحدهما عن الآخر.

سابعًا: أردت أن أبرز سماحة النبي ﷺ ورحمته بأهل الذمة، لاسيما في هذا الزمان الذي اتهم فيه الإسلام ظلمًا وعدوانًا بأنه دين إرهاب لا يراعى الحرية الدينية.

ثامنًا: أردت أن أبرز استفادة أشهر ملوك وقادة وحكام الأرض من النبي ﷺ في سياسة المجتمعات في السلم والحرب، وتنظيم الجوانب الإدارية والعسكرية للدولة وكيف أنهم لم يأتوا بجديد، بل كان النبي ﷺ سابقا عليهم في هذا الميدان مع مراعاة الفارق الكبير بين النبي ﷺ وهؤلاء فالنبي ﷺ لا يدانيه أحد من أهل الأرض.

تاسعًا: خلو المكتبة الإسلامية من بحث يتناول هذا الموضوع.

عاشرًا: تشجيع بعض أساتذتي الكرام لي على الكتابة في هذا الموضوع وعلى رأس هؤلاء أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور / عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعي حفظه الله وأمد للمسلمين في عمره.



### منهجى فى البحث

وقد سرت فى هذا الموضوع على الخطوات التالية:

- ١- اعتنيت بذكر الآيات القرآنية التى تتصل بموضوع البحث وقمت بتفسير بعضها من كتب التفسير المشهورة.
- ٢- قمت بالتمهيد للأحاديث النبوية والآثار قبل ذكرها.
- ٣- قمت بكتابة الأحاديث النبوية الشريفة بأسانيدھا من كتب السنة الأصول، والى تناول النواحي السياسية والإدارية فى حكومة النبي ﷺ، إبان حياته، وكذلك الأحاديث والآثار التى تتناول المبادئ الرئيسية للدولة الإسلامية، والآثار المتعلقة بنشاط الخلفاء الراشدين فى حكوماتهم أسوة فى سلوكهم بالنبي ﷺ.
- ٤- اعتنيت بذكر الأحاديث والآثار المتصلة بالموضوعات التى تناولتها ولم أذكر منها إلا ما هو صالح للاحتجاج من حديث صحيح أو حسن أو ما هو فى حيز المقبول ولم أذكر شيئاً من الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات المكذوبة أو الروايات الشديدة الضعف.
- ٥- قمت بتخريج الأحاديث والآثار التى استدلت بها من معظم الكتب التى وردت فيها.
- ٦- قمت بنقل تعليقات بعض شراح الأحاديث وذكر آرائهم التى تتوافق وموضوع البحث وذلك عند الحاجة.
- ٧- قمت بتفسير الكلمات المبهمة والغريبة فى الأحاديث والآثار من كتب الغريب ومعاجم اللغة وكتب الشروح.
- ٨- قمت بالجمع بين الأحاديث التى يوهم ظاهرها التعارض ذاكراً أقوال العلماء فى ذلك.
- ٩- اعتمدت فى بحثى على الاستدلال بالقرآن الكريم والأحاديث الثابتة فى الصحاح والسنن والمسانيد وعلى كتب التاريخ والسير قديمها وحديثها بعد البحث والتمحيص والموازنة بين الروايات والأخذ بما يصلح للاحتجاج منها وتركت ما



عداه. وفي مقدمة كتب السير التي اعتمدت عليها كتاب شيخ كتاب السير وإمام أهل المغازي - محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى. - وذلك فيما نقله عنه تلميذه ابن هشام - وهذا إن لم تعارض روايته ما هو أصح منها كرواية صاحبى الصحيحين فإنى أرجح ما فيهما.

١٠ - وقد حرصت قدر استطاعتي على التزام التسلسل الزمني، فأقدم ما حقه التقديم تاريخياً بذكر السنوات والأحداث فيها، إن لم تقض الحاجة تقديم بعض الأمور على بعض.

١١ - كما أننى لم أترك حدثاً مهماً، أو موقعة مشهورة أو سرية مهمة أو عملاً بارعاً، أو سياسة راشدة، أو قيادة حكيمة، أو تخطيطاً محكماً إلا قدمته في صورته المناسبة ووقفت عنده وقفة متأنية، ليتبين للقارئ الكريم [فرق ما بين] الأخلاق الإسلامية النبيلة والسياسة الإسلامية الحكيمة الرشيدة في السلم والحرب، ومع الأصدقاء والأعداء، وسياساته ﷺ ومعاملاته لأصدقائه وأعدائه وبين أخلاق غيره مهما بلغ ذلك الشخص من العقل والعلم والكياسة والسياسة والقيادة والحكمة والعدل، والرحمة كى أخلص إلى ضرورة السير على نهج النبي ﷺ واقتفاء أثره، حتى تعود إلى الأمة الإسلامية عزتها وكرامتها.

١٢ - ترجمت لمعظم الصحابة الكرام الوارد ذكرهم في البحث.

١٣ - قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة وستة أبواب وخاتمة.

## المقدمة

وتشتمل على أهمية هذا البحث وأسباب اختياري له

## الباب الأول

العهد المكي (النشأة، البعثة، الهجرة)، وفيه خمسة فصول:

## الفصل الأول

إعداد النبي ﷺ لتحمل الرسالة الخالدة وتأهيله ﷺ لها

ويتضمن النقاط الآتية:

١- المقومات البشرية لقيادة العالم:

وتشمل على ما يأتي:

أ- رعى الأغنام.

ب- توسيع آفاقه بالسفر.

ج- الخلوة بنفسه.

د- حضوره الأحلاف والاجتماعات المهمة وبعض المعارك

٢- تأهيل الله ﷻ رسوله ﷺ لقيادة العالم.

وتشمل على ما يأتي:

أ- تسليم الشجر والحجر عليه.

ب- الرؤيا الصادقة.

٣- تسلم النبي ﷺ قيادة أمة الإسلام.

## الفصل الثانى

### جوانب عملية فى السياسة المكية

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- بناء الأمة فردًا فردًا وإعداد القواعد البشرية لقيام دولة الإسلام وسياسة النبي ﷺ فى ذلك.
- ٢- الإصرار بالدعوة وسياسة النبي ﷺ فى ذلك
- ٣- سياسة النبي ﷺ فى المفاوضات:  
وتشتمل على ما يأتى:  
أ- مفاوضة عتبة بن ربيعة.  
ب- سياسة النبي ﷺ فى مفاوضة رؤساء قريش وعدم قبوله المساومة

## الفصل الثالث

### الهجرة إلى الحبشة وحق اللجوء السياسى

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- التخطيط السليم لهجرة الحبشة.
- ٢- الأهداف التى أرادها النبي ﷺ من هجرة الحبشة.

## الفصل الرابع

### التمهيد لبناء الدولة الإسلامية خارج مكة ببيعتى العقبة الأولى والثانية

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- بيعة العقبة الأولى على التوحيد.
- ٢- بيعة العقبة الثانية على النصر.

وتشتمل على ما يأتي:

أ- النبي ﷺ يطلب من الأنصار أن يخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ليكلّمهم ويكلّموه.

ب- شروط بيعه العقبة الثانية، وملامح قيام الدولة الإسلامية.

ج- النبي ﷺ يحمل النقباء المسؤولية.

### الفصل الخامس

#### الهجرة تخطيط وتنظيم

ويتضمن النقاط الآتية:

١- التخطيط الدقيق للهجرة واختيار أنسب الأماكن.

٢- دراسة ميدانية لموقع المدينة المنورة.

وتشتمل على ما يأتي:

أ- الرؤية العسكرية للنبي ﷺ في اختيار المدينة بالذات.

ب- الرؤية الاقتصادية.

ج- الرؤية الاستراتيجية.

٣- دقة التخطيط النبوي للهجرة.

٤- جوانب التخطيط السليم والتدبير الحكيم من النبي ﷺ لإنجاح الهجرة.

وتشتمل على ما يأتي:

أولاً: الدقة في اختيار العناصر البشرية وتوظيفها على أكمل وجه.

ثانياً: استخدام عنصر التمويه لإنجاح أمر الهجرة.

ويحتوي على ما يأتي:

أ- التمويه باستخدام الزمان.

ب- التمويه باستخدام المكان.

- ج- التمويه باستخدام الأشخاص.
- د- التمويه باستخدام الطريق.
- ٥- السرية عامل مهم في نجاح خطة الهجرة.
- ٦- الهجرة نقطة تحول كبرى في حياة المسلمين.

## الباب الثانى

الإعداد لإعلان قيام دولة الإسلام، وإعلان قيامها، وإبراز بعض الجوانب السياسية العظيمة للنبي ﷺ في تلك الفترة

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: القواعد الأساسية التى قامت عليها الدولة الإسلامية

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- صلة الأمة بالله ﷻ.
- ٢- صلة الأمة ببعضها.
- ٣- الأهداف التى أراد النبي ﷺ تحقيقها من خلال المؤاخاة.
- ٤- صلة الأمة بالذين لا يدينون بدينها ولا يؤمنون بمبادئها وتدوين وثيقة سياسية وبيان الهدف منها.
- ٥- نص الوثيقة النبوية.
- ٥- دراسة الوثيقة النبوية.
- وتشتمل على ما يأتى:
- أ- تعيين شخص رئيس للدولة
- ب- الفرد ومسئوليته.
- ج- المواطنة بين الحقوق والواجبات.

- د- الحقوق والواجبات في نقاط.
- هـ- حقوق المسلمين على ضوء ما ورد في الوثيقة النبوية.
- و- واجبات يهود المدينة على ضوء ما ورد في الوثيقة.
- ز- حقوق يهود المدينة المنصوص عليها في الوثيقة.
- ح- تحديد أسس المواطنة في الدولة.
- ط- تقرير مبدأ العدل والمساواة.
- ى- تقرير مبدأ التكافل.
- ك- تحريم الظلم.
- ل- تقرير مبدأ الانضمام إلى المعاهدة بعد توقيعها.
- م- الوثيقة تنص في بعض مبادئها على أمور غير سياسية.
- ن- الوثيقة تبقى على بعض الأعراف القبلية.
- س- الوثيقة تمنع عقد أى صلح منفرد مع أعداء الأمة.
- ٦- الدولة الإسلامية تمارس وظائفها على أساس تلك الوثيقة.
- ٧- الوثيقة مازالت تعطى ثمارها إلى الآن.
- الفصل الثانى: إعلان قيام الدولة الإسلامية سياسياً
- الفصل الثالث: دعوى «لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين» بين الحقيقة والباطل

الفصل الرابع: سياسة النبي ﷺ مع غير المسلمين  
ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- حكم رسول الله ﷺ فى المحاربين من أهل الكفر
- ٢- حكم رسول الله ﷺ فى المرتد وفيما إذا أعلن الحراة
- ٣- أهل العهود.

الفصل الخامس: أهل الذمة داخل ديار الإسلام

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - سياسة النبي ﷺ مع أهل الذمة.
  - ٢ - بعض الحقوق التي أعطاها النبي ﷺ لأهل الذمة.
- وتشتمل على ما يأتي:

أولاً: حق الحماية ويحتوى على ما يأتي:

أ- الحماية من الاعتداء الخارجى.

ب- الحماية من الاعتداء الداخلى.

ج- حماية الأموال.

ثانياً: حق الأمن.

ثالثاً: حرية الدين والعقيدة.

رابعاً: حق الحياة.

٣- ضمان الوفاء بهذه الحقوق.

٤ - بعض الحقوق الواجبة على أهل الذمة.

وتشتمل على ما يأتي:

أ- الجزية والخراج.

ب- مقدار الجزية كما حددها رسول الله ﷺ

ج- الحكمة من أخذ الجزية.

الفصل السادس: إبراز بعض جوانب العبقرية السياسية للنبي ﷺ في سياسة

الخصوم والأتباع في السلم والحرب

ويتضمن النقاط الآتية:

١ - الحديبية وبيان السياسة الحكيمة للنبي ﷺ .

وتشتمل على ما يأتي:

أ- أهداف الطرفين.

أولاً: أهداف المسلمين.

ثانياً: هدف المشركين.

ب- النبي ﷺ يستخلف على المدينة ويخرج قاصداً للعمرة.

ج- النبي ﷺ يأخذ بمشورة أبي بكر في ترك القتال.

د- خالد بن الوليد يخرج من مكة يستطلع أخبار المسلمين ليصدّهم عن بيت الله الحرام.

هـ- اللجوء إلى سياسة المفاوضات.

و- النبي ﷺ يبعث مفاوضين إلى قريش.

ز- قريش تبعث إلى النبي ﷺ من يفاضه.

ح- كتابة شروط الصلح.

ط- تأملات في شروط الصلح.

ي- لماذا تساهل النبي ﷺ في بنود العهد وأسلوب الصياغة؟

ك- مناقشة شروط الصلح.

ل- بقية الشروط كانت فتحاً مبيناً وعادت على المسلمين بالنفع والخير.

٢- النبي ﷺ هو رسول السلام.

٣- عالمية الإسلام (مراسلة الملوك).

وتشتمل على ما يأتي:

أ- مراسلة ملوك الأرض ودعوتهم إلى الإسلام.

ب- نموذج من كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك.

نص كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم.



- ٤- سياسة النبي ﷺ مع المؤلفة قلوبهم.
- ٥- سياسة النبي ﷺ مع عرب القبائل من البدو ونحوهم.
- ٦- توجيه بعض السرايا لتأديب الأعراب.
- وتشتمل على ما يأتي:
- أ- غزوة بنى سليم.
- ب- غزوة ذات أمر.
- ج- غزوة بنى لحيان.
- د- غزوة ذات الرقاع.
- هـ غزوة دومة الجندل.
- ٧- سياسة النبي ﷺ في استقبال الوفود.

### الباب الثالث

#### الإدارة المدنية والأعمال التنظيمية

- ويتضمن ستة فصول:
- الفصل الأول: الوزارة
- ويتضمن تمهيداً وثلاث نقاط:
- ١- تعريف الوزارة.
  - ٢- أهمية الوزارة والحاجة إلى الوزير.
  - ٣- النبي ﷺ والوزارة.
- الفصل الثاني: الإمارة
- ويتضمن النقاط الآتية:
- ١- تعريف الإمارة.
  - ٢- أعمال الأمير ومسئوليته.
  - ٣- النبي ﷺ والإمارة.

- ٤- أمراء النبي ﷺ .
- ٥- معايير اختيار الأمراء.
- ٦- النبي ﷺ يحذر من طلب الإمارة لمن لم يقدر عليها.
- ٧- النبي ﷺ يحذر من طلب الإمارة ويبين شدة تبعاتها.
- ٨- توجيهات النبي ﷺ وتعاليمه للأمراء.
- ٩- النبي ﷺ يرسل أمراءه إلى اليمن ويوصيهم بالرفق واليسر.
- ١٠- وجوب طاعة الأمراء والصبر عليهم وعدم مفارقة الجماعة.
- ١١- توجيه الأمراء والقضاة والمعلمين إلى أنحاء شبه الجزيرة العربية.

#### الفصل الثالث: السفارة

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- الحاجة إلى السفارة.
- ٢- بعض التقارير التي كان يقدمها السفراء.
- ٣- مصعب بن عمير سفير جدير بالتعيين.

الفصل الرابع: ضبط الأسواق وما يتعلق بها من الموازين والمكاييل والتسعير والرقابة على عملية البيع والشراء

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- بناء الاقتصاد الإسلامي.
- ٢- النبي ﷺ يقوم بتنظيم الأسواق وإدارتها «شروط البياعات الإسلامية».
- ٣- تحريم بيعات الغرر والجهالة.
- ٤- تحريم الخداع في البيع والشراء.

- ٥- السماحة في البيع والشراء.
  - ٦- الرقابة على الأسواق.
  - ٧- المكايل والموازن.
  - ٨- التسعير ورأى الشرع في ذلك.
  - ٩- الرقابة على عملية البيع والشراء.
  - ١٠- سياسة النبي ﷺ أثناء الحصار الاقتصادي والمقاطعات.
- الفصل الخامس: القضاء وإقامة الحدود  
ويتضمن النقطتين الآتيتين:
- ١- أهمية القضاء العادل في حياة الأمة واستقامتها.
  - ٢- بعض مبادئ وآداب القضاء التي وضعها النبي ﷺ .  
وتشتمل على ما يأتي:
- أ- وجوب إزالة الشبه ودرء الحدود بالشبهات.
  - ب- إقامة الحق والعدل بين كل طبقات المجتمع.
  - ج- تحذير المتخاصمين من رفع القضايا الظالمة.
  - د- القضاء حالة الغضب.
  - هـ- التحذير من الحيف والجور في الحكم.
  - و- التحذير من أخذ الرشوة.
- الفصل السادس: تنمة في جوانب إدارية مهمة  
ويتضمن ما يأتي:
- ١- البواب.
  - ٢- اهتمام النبي ﷺ بنهضة التعليم ومحو الأمية.
  - ٣- اتخاذ الخاتم شعارًا للدولة الإسلامية في المكاتبات والعهود.

## الباب الرابع

### السياسة والإدارة العسكرية

وفيه سبعة فصول

الفصل الأول: فضل الجهاد في سبيل الله

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- النبي ﷺ يبين فضل الجهاد في سبيل الله.
- ٢- الجهاد لا يعدله شيء.
- ٣- فضل من يجاهد في سبيل الله بنفسه وما له «التجارة الرباحة».
- ٤- أهداف الجهاد في الإسلام.

الفصل الثاني: الشورى وما لها من أهمية في السياسة النبوية

ويتضمن تمهيداً وست نقاط:

- ١- الشورى تحسم أمر دخول معركة بدر.
- ٢- مشورة سعد بن معاذ بإعداد مركز القيادة لرسول الله ﷺ.
- ٣- الشورى تحسم قضية أسرى بدر.
- ٤- الشورى واختيار موضع القتال في غزوة أحد.
- ٥- رأى حكيم ومشورة صائبة لأحد الصحابة تحرز النصر للمسلمين.
- ٦- النبي ﷺ يستشير أصحابه في الحديبية.

الفصل الثالث: الاستطلاع والاستخبارات

ويتضمن تمهيداً وإحدى عشرة نقطة:

- ١- سرية عبد الله بن جحش تستطلع أخبار قريش.
- ٢- النبي ﷺ يستطلع الأخبار بنفسه.
- ٣- التماس المزيد من الأخبار بواسطة نفر من الصحابة الكرام.

- ٤- الاستخبارات قبيل غزوة أحد.
  - ٥- استخدام الاستخبارات للحصول على كثير من المعلومات.
  - ٦- النبي ﷺ يحض الصحابة على استطلاع جيش المشركين في غزوة الأحزاب
  - ٧- الاستخبارات تكشف خروج قريش لصد النبي ﷺ عن البيت الحرام في الحديبية.
  - ٨- الاستخبارات تنقل إلى النبي ﷺ خبر نقض قريش لعهد الحديبية.
  - ٩- الاستخبارات والهزيمة ثم النصر في حنين.
  - ١٠- ماذا استفاد المسلمون من غزوة مؤتة؟
  - ١١- عمل النبي ﷺ في جمع المعلومات عن أعدائه وأثر ذلك.
- الفصل الرابع: التعبئة المعنوية وأهميتها في إحراز الهدف ويتضمن تمهيداً وثلاث عشرة نقطة:
- ١- تذكير الجنود بالجزاء الذي ينتظرهم.
  - ٢- تثبيت الجنود بإخبارهم بأن الله تعالى معهم وأنه سوف يمدّهم بقوته وملائكته.
  - ٣- تهوين القائد لجنوده من شأن العدو.
  - ٤- إلقاء الرعب في قلوب الأعداء.
  - ٥- المعنويات في بدر.
  - ٦- ما حل بالمشركين من وهن ورعب.
  - ٧- التعبئة المعنوية في غزوة أحد.
  - ٨- الهمة العالية في غزوة بدر الثانية.
  - ٩- النبي ﷺ يعمل على تحفيز هم المسلمين عند الاستعداد لغزوة الأحزاب ((الخذق)).

١٠- مشاركة القائد جنوده في كل موقف من مواقف القتال والاستعداد للمعارك.

١١- حرص النبي ﷺ على زلزلة نفوس أعدائه في عمرة القضاء.

١٢- المعنويات عقب الانسحاب من مؤتة.

١٣- كيف استفاد قادة العالم من رسول الله ﷺ في هذا الجانب. (أهمية التعبئة المعنوية للجنود قديماً وحديثاً).

الفصل الخامس: عامل المباغته والمفاجأة وأثره في إحراز النصر ويتضمن النقاط الآتية:

١- حرص النبي ﷺ على السرية في غزواته، وأساليب التعمية على العدو.

٢- إخفاء الخطط العسكرية.

٣- المباغته في المكان.

٤- التعمية والإخفاء في التوقيت.

٥- التفنن في تنظيم الجيش حسب حالة المعركة.

٦- التفنن في الأساليب وطرائق القتال.

الفصل السادس: تنمة في سياسات عسكرية مهمة ويتضمن النقاط الآتية:

١- سياسة النبي ﷺ مع من ينقل أخبار المسلمين إلى أعدائهم

٢- سياسة النبي ﷺ مع من تهرب من الجندية وتخلف عن الغزوات.

٣- سياسة النبي ﷺ في تجنب وقوع الفتن والانشقاقات لاسيما أثناء الغزوات

٤- اهتمام النبي ﷺ بأرض فلسطين.

٥- إمارة أسامة وأبيه من قبله أعظم درس في (الديمقراطية).

الفصل السابع: الإدارة العسكرية (إدارة الجيش) وبيان السياسة الحكيمة للنبي

ﷺ في هذا الأمر

ويتضمن النقاط الآتية:

١- إعداد العدة والتأهب التام قبل الغزو والجهاد.

(كيف أعد النبي ﷺ لملاقاة أعداء الإسلام).

وتشتمل على ما يأتي:

أ- الأمر بالتسليح.

ب- صناعة الأسلحة.

ج- الأمر باختيار أفضل الأسلحة.

د- تعلم الرمي.

هـ- تعلم الفروسية وإعداد الخيل.

و- الحرص على اقتناء أنواع ممتازة من الخيل.

ز- اختيار أفضل العناصر البشرية وأقواها.

ويحتوى على ما يأتي:

١- شروط القبول للجندية.

أولاً: الإسلام.

ثانياً: البلوغ.

ثالثاً: سلامة المجاهدين من العيوب والأمراض.

رابعاً: الشجاعة والإقدام.

٢- الإعفاء من الجندية.

ح- التدريب العالى.

٢- تولية الأمراء على المدن أثناء الحروب.

٣- إعداد مركز القيادة.

٤- اتخاذ الحراس.

٥- أعمال الإسعاف فى المعارك (التطبيب ومداواة الجرحى، وسقاية الماء

وقيام النساء بذلك).

- ٦- تقسيم الفئ والغنائم عقب السرايا والغزوات.
- ٧- الرضخ للعمال الذين يقدمون الخدمة للجيش.

### الباب الخامس

#### العوامل التي ساعدت النبي ﷺ على النصر في الحروب

ويتضمن تمهيداً وثلاثة فصول:

##### الفصل الأول: القيادة العظيمة للنبي ﷺ

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- تقدير الأمور تقديرًا صحيحًا.
- ٢- عبقرية التخطيط.
- ٣- الشجاعة الشخصية.
- ٤- التحكم في النفس في حالتى النصر والإخفاق.
- ٥- سبق النظر.
- ٦- الفراسة ومعرفة الوجهات وأثرها في حسن تقدير المواقف.
- ٧- الثقة المتبادلة بين القائد وجنوده.
- ٨- المحبة المتبادلة.
- ٩- قوة الشخصية.
- ١٠- اللياقة البدنية.
- ١١- الماضى الناصع المجيد.
- ١٢- معرفة وتطبيق مبادئ الحرب.

##### الفصل الثانى: شجاعة جنود النبي ﷺ وإخلاصهم له وجبن أعدائه

ويشتمل على النقطتين الآتيتين:

- ١- جنود أوفياء متميزون.



٢- جبن الأعداء.

الفصل الثالث: الحرب العادلة

ويتضمن النقاط الآتية:

١- معنى الحرب العادلة.

٢- حروب الإسلام لم تكن مبادأة بالهجوم.

٣- بعض أديبات الحرب العادلة في الإسلام.

ويحتوى على ما يأتى:

أ- الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

ب- النهى عن المثلة بجثث القتلى.

ج- تحريم قتل النساء والصبيان.

د- النهى عن انتهاك حرمت البشر.

هـ- حسن معاملة الأسرى.

و- النهى عن قتل الأسرى.

ز- فداء الأسرى مقابل أموال يدفعونها أو خدمات يؤدونها.

ح- تبادل الأسرى.

ط- المن على الأسير دون مقابل.

ي- حسن معاملة السبى والمن عليهم بدون مقابل.

### الباب السادس

نماذج من نشاط الخلفاء الراشدين فى حكوماتهم أسوة

فى سلوكهم بالنبي ﷺ

ويتضمن تمهيداً وأربعة فصول

التمهيد ويشتمل على ما يأتى:

أ- تعريف الخلافة.

ب- أهمية الخلافة ومنزلتها.

ج- خلفاء ساروا على الدرب فغيروا مجرى التاريخ.

الفصل الأول: مظاهر من أنشطة الخليفة أبي بكر ﷺ

ويتضمن النقاط الآتية:

١- التعريف بأبي بكر الصديق ﷺ.

وتشتمل على ما يأتي:

أ- اسمه.

ب- لقبه.

ج- كنيته.

د- ذكر مولده ووفاته.

هـ- نشأته.

و- إسلامه.

٢- توليته خلافة المسلمين.

٣- عمر بن الخطاب ﷺ يرشح أبا بكر ﷺ للخلافة.

٤- تطبيق مبدأ البيعة (الأمة الإسلامية تختار الخليفة وتبايعه).

٥- البيان السياسي لأبي بكر (منهج الحاكم).

٦- بعض الأحاديث التي أشارت إلى خلافة أبي بكر ﷺ والتي أهلته لخلافة

المسلمين.

٧- نماذج من حكومة أبي بكر الصديق ﷺ وما وقع في أيامه من الأمور الكبار.

وتشتمل على ما يأتي:

أ- قضية استئناف بعث أسامة بن زيد - رضي الله عنه - إلى الروم.

ب- حكومة أبي بكر تنجح في أول عمل لها.

ج- قتال أهل الردة وما نعى الزكاة وأهميته في ضبط، وتقويم النظام العام في

دولة الإسلام.

٨- نماذج من الأمور الإدارية في حكومة أبي بكر ﷺ.

وتشتمل على ما يأتي:

أ- زاتب الخليفة.

ب- تولية الأمراء على أقاليم الدولة الإسلامية.

ج- المهام التي كلف بها أبو بكر ﷺ الأمراء.

٩- وظائف ومهام إدارية وضعها أبو بكر ﷺ في عاصمة الخلافة.

وتشتمل على ما يأتي:

أ- تعيين نائب للخليفة في حال سفره.

ب- وظيفة الحاجب.

ج- وظيفة الكاتب.

د- وظيفة المؤذن.

هـ- الوزارة والقضاء إبان خلافة أبي بكر.

و- الإفتاء.

ز- بيت المال.

ح- العطاء في حكومة أبي بكر ﷺ.

الفصل الثاني: مظاهر من أنشطة الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ

ويتضمن النقاط الآتية:

١- التعريف بعمر بن الخطاب ﷺ.

ويشتمل على ما يأتي:

أ- اسمه ونسبه.

ب- كنيته.

ج- لقبه.

- د- مولده وإسلامه.
- هـ- وفاته.
- و- وظيفته قبل الإسلام.
- ٢- عمر بن الخطاب ﷺ يتولى خلافة المسلمين.
- ٣- البيان السياسى لعمر بن الخطاب ﷺ.
- ٤- الفتوحات فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ.
- ٥- عمال عمر على الأمصار التى فتحت إبان خلافته وقبلها.
- ٦- عمر بن الخطاب ﷺ يرسم الطريق لولاته ويوصيهم بالمسلمين خيرًا.
- ٧- سياسة القضاء وتدير الحكم فى حكومة عمر ﷺ.
- ٨- تدوين الدواوين.
- ٩- سياسة عمر بن الخطاب ﷺ فى توزيع الفئ على المسلمين.
- ١٠- رفض عمر ﷺ تقسيم الأرض المفتوحة على المقاتلين وفرض الخراج عليها.
- ١١- نماذج من عدل عمر ﷺ فى حكمته.
- ١٢- حكومة عمر ﷺ تتخذ دارًا للدقيق.
- ١٣- عمر بن الخطاب ﷺ وحذره من المظالم.
- ١٤- عمر بن الخطاب ﷺ أول من أعطى أجازة للجنود.
- الفصل الثالث: مظاهر من أعمال عثمان بن عفان ﷺ أمير المؤمنين إبان خلافته ويتضمن النقاط الآتية:
- ١- التعريف بعثمان ﷺ وتشتمل على ما يأتى:
- أ- نسبه.
- ب- مولده وإسلامه.

- ج- مناقبه.
- د- وفاته.
- ٢- توليته خلافة المسلمين.
- ٣- قرار أهل الحل والعقد، ثم الدعوة إلى البيعة العامة.
- ٤- أول بيان لعثمان بن عفان ﷺ بعد توليه الخلافة.
- ٥- أول أعمال عثمان بن عفان ﷺ.
- ٦- عثمان بن عفان ﷺ يرسم الطريق لولاته ويوصيهم بالرعية خيرًا.
- ٧- عثمان بن عفان ﷺ يوصي عمال الخراج ويحدد لهم خطة عملهم.
- ٨- عثمان ﷺ يرفع الظلم عن أهل الأمصار.
- ٩- حزم عثمان ﷺ في سياسة الأمة.
- ١٠- أعطيات عثمان ﷺ ورواتبه للمسلمين.
- ١١- اتخاذه بعض الإجراءات الأمنية.
- ١٢- وفاء حكومة عثمان ﷺ بالعهود.
- ١٣- رؤية جديدة في السياسة العسكرية لعثمان ﷺ.
- (بعض الابتكارات المهمة لحكومة عثمان ﷺ).

الفصل الرابع: مظاهر من أنشطة الخليفة على بن أبي طالب ﷺ

ويتضمن النقاط الآتية:

١- التعريف بعلي بن أبي طالب ﷺ

وتشتمل على ما يأتي:

أ- نسبه.

ب- كنيته

ج- مولده.

- د- إسلامه.
  - هـ- مناقبه.
  - و- وفاته.
  - ٢- توليته خلافة المسلمين.
  - ٣- تفريق عماله على الأمصار.
  - ٤- بيت المال والمحافظة على أموال المسلمين.
  - ٥- حكومة علي عليه السلام تلتزم بما التزمت به الحكومات التي سبقتها.
  - ٦- قضاء الإمام علي عليه السلام وبرايعته في ذلك.
  - ٧- نموذج من إدارة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.
- الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها.
- ويلى الخاتمة التوصيات ثم ثبت المصادر والمراجع مرتبة ترتيباً أبجدياً ثم فهرس الموضوعات
- والله حسبي وهو اعتمادي.

## الباب الأول العهد المكي المنشأ البعثة الهجرة

ويتضمن خمسة فصول:

الفصل الأول: إعداد النبي ﷺ لتحمل الرسالة الخالدة وتأهيله ﷺ لها.

الفصل الثاني: جوانب عملية في السياسة المكية.

الفصل الثالث: الهجرة إلى الحبشة وحق اللجوء السياسي.

الفصل الرابع: التمهيد لبناء الدولة الإسلامية خارج مكة ببيعتي العقبة الأولى والثانية.

الفصل الخامس: الهجرة تخطيط وتنظيم.

### الفصل الأول

إعداد النبي ﷺ لتحمل الرسالة الخالدة وتأهيله ﷺ لها

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - المقومات البشرية لقيادة العالم.
- ٢ - تأهيل الله ﷻ رسولاً ﷺ لقيادة العالم.
- ٣ - تسلم النبي ﷺ قيادة أمة الإسلام.



## الباب الأول

### الفصل الأول

#### إعداد النبي ﷺ لتحمل الرسالة الخالدة وتأهيله ﷺ لها

النبي محمد ﷺ نبي صنعه الله على عينه واختاره من بين خلقه ليكون النبي الخاتم الذي يحمل آخر وحى من السماء لهداية أهل الأرض، وآخر من ينذر الناس من عقوبة الإله الحق، ويتحمل أعباء الرسالة وتبعات المسؤولية، ولذلك كان لابد من إعداده إعدادًا خاصًا فضلًا عما فطره الله عليه من الخصال الحميدة والفطرة السليمة لاستكمال أهليته لتسلم القيادة بكل جدارة.

والمعلوم أن كل قائد يتولى أمور الناس ويتحمل مسئوليتهم لابد أن يستجمع بعض الصفات التي تجعله أهلاً لهذا الأمر وتعينه عليه. والنبي ﷺ استجمع كل صفات العظمة التي تؤهله لقيادة العالم في أمور الدين والدنيا فكان أحق بها وأهلها.

فإذا أردنا أن نبحث الآن عن رجل يتحمل أعباء الرسالة ويكون كاملاً في نفسه مؤثراً تأثيراً تاماً في غيره، لم نجد مثل محمد ﷺ فأى طراز عظيم من الرجال ﷺ إننا لم نر رجلاً عظيماً على مر العصور والأزمان في مثل رقة شمائله<sup>(١)</sup>، وكرم أخلاقه وعفة نفسه إنه يختلف عن الناس جميعاً فكراً وسلوكاً.

فهو عف اللسان إذا تحدث، وفي إذا عاهد أو وعد، عادل يعطى كل ذي حق حقه، نقى السريرة لا يكن حقداً أو ضغينة، أمين تتنزه أقواله وأفعاله عن الشبهات، جم التواضع كامل الرجولة، من رآه هابه، ومن خالطه أحبه، جواد لا يرد السائل بل يعين

(١) أى كرم أخلاقه ورقتها [لسان العرب لابن منظور مادة «شمل»] ٤/ ٢٣٣٢ بتصرف طبعة دار المعارف.

على نوائب الدهر بلغ الغاية القصوى والنهية العظمى والدرجة العليا في كل ناحية من نواحي حياته.

والمعلوم أنه قد انتهت بحوث البصراء بطبيعة النفوس إلى تلخيص عناصر العظمة في أمور أربعة:

- ١- الأخلاق الرفيعة التي يتميز بها العظيم.
  - ٢- سمو المبادئ التي يدعو إليها.
  - ٣- قدرته على التأثير وتكميل غيره بعد كمال نفسه.
  - ٤- نجاحه في صياغة جيل يتمثل بمبادئه، ويتحمل الأمانة من بعده والمتأمل في سيرة رسول الله ﷺ يخرج بيقين جازم أن رسولنا الكريم ﷺ - من خلال استقراء سيرته العطرة - قد استجمع هذه الخصائص جميعاً وعلى أو في معانيها.
- لقد تجمع فيه من خصائص القيادة كل ما تفرق في نفوس العظماء من سمات.
- فإذا جال فكرك وأردت أن تتأمل شخصيته الفذة بهرتك أضواؤها حتى لكأنك منها في بستان مورق مثمر فيه من كل زوج بهيج.
- وإذا اشتهر زعيم أو قائد بمقدرة فائقة في ناحية فإنك تراه من ناحية أخرى ساقطاً في القاع.
- وهذا نابليون - الذي ذاعت بطولته - ونسجت حولها الأساطير (لقد أكره أمة كاملة بحكومتها ووجوه شعبها على أن يكونوا «قوادين») له يوصلونه إلى الفتاة البولونية التي أحبها وزاد على ذلك فاضطر أباهما على أن يلزمها الإثم الذي أراده منها وجعل استقلال «بولونيا» رهناً بتحقيق هذه الرغبة النجسة الفاجرة.
- من أجل ذلك كان من الظلم أن نقيس النبي ﷺ بواحد من هؤلاء العظماء والجبابرة فشتان بين مشرق ومغرب ولقد حاول كتاب مخلصون أن يرفعوا محمداً ﷺ إلى السموات العلا وفقاً لواء: هو عبقرى - أو بطل الأبطال.

ولكن قصارى هذا الوصف كما أشار بعض الباحثين أنه واحد من أفراد قلائل وربما كان ذلك مندوحة إلى التشكيك في تفرد رسالته بالهيمنة مادام هناك مثله عبارة وأبطال لهم مذاهب ولهم مبادئ وهيئات.

والحق أنه سماء ما طاولتها سماء:

فإن من العظماء من كان عظيم العقل، ولكنه فقير في العاطفة، وفي البيان، ومن كان بليغ القول وثاب الخيال، ولكنه عادي الفكر، ومن برع في الإدارة أو القيادة ولكن سيرته وأخلاقه كانت أخلاق الفجار، ولكن ومحمدًا ﷺ هو وحده الذي جمع العظمة من أطرافها»<sup>(١)</sup>.

### ١- المقومات البشرية لقيادة العالم:

المعلوم أن النبي ﷺ عمل على اكتساب بعض صفات العظمة التي أهلته للقيادة بنفسه وبعضها الآخر أعدها الله فيه. ومن صور العظمة التي اكتسبها بنفسه من خلال بعض الأعمال التي قام بها:

#### أ- رعى الأغنام:

وتلك مهنة تعلم غنام منها النبي ﷺ الصبر والقيادة «فلقد عمل النبي ﷺ - عندما اشتد عوده برعى الأغنام، فكان يخرج بأغنামه إلى المرعى ويعيش في أحضان الطبيعة الجميلة الهادئة الموحية، فلا يقع بصره إلا على بديع خلق الله الذي لا أثر فيه ليد الإنسان، فيتأمل ويفكر، فيكون مردود تأمله وتفكره صفاء في النفس، وشفافية بالروح ومسحة صادقة من الإيمان، يعيش طيلة يومه مع أغنামه، فيرد الشارد منها إلى الجماعة، ويعلمها برفق الطاعة، ويحرسها من الذئب الطاغى الظالم يرتحل بها عن مواقع الجذب ويوردها موارد الخير والرخاء تمامًا كما يفعل القائد البار بشعبه»<sup>(٢)</sup>.

ولا شك أن الراعي الصغير الذي يبدأ حياته برعى الأغنام يستطيع أن يتولى قيادة

(١) تأملات في السيرة النبوية د/ محمود محمد عمارة ص ١٠، ١١ بتصرف ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

(٢) قراءة سياسية للسيرة النبوية د/ محمد رواس قلعه جي ص ٣٥ بتصرف ط دار النفائس بيروت.

أمة وهو كبير.

فإطعام الأغنام يعلمه كيف يتولى أطعام الأمة وحمايتها من الفقر والجوع، واختيار أفضل أماكن الكلاء، يعلمه كيف يختار لأئمة أنسب المواقع التي تدر عليها أكثر الخيرات.

كما أن الارتحال بالأغنام عن مواقع الجذب وإيرادها موارد الخير والرخاء تعلمه كيف يرحل برعيته عن أماكن الجذب والفقر والظلم والتعذيب، والتشريد إلى أماكن خصبة تورق فيها دعوته وتعطى أفضل ثمارها. وحماية الأغنام من الذئاب تعلمه كيف يحمي رعيته من فتك الأعداء التي هي أشد خطرًا من الذئاب على مستقبل الأمة ومصيرها.

وصبره على بعض النعاج التي تكثر الهروب إلى مواضع الكلاء<sup>(١)</sup>، وتسبق غيرها إليها، يعلمه الصبر على بعض أفراد الأمة التي تشذ عن غيرها وتطمع في حقوقهم وتعلمه حسن السياسة معهم.

ورد أغنامه عن مراعى غيره، تعلمه كيف يرعى حول الحمى ولا يواقعها وكيف يراعى حرمان الله وحرمان شعبه فلا ينتهك حرمة ولا يهتك عرضًا ولا يكشف سترًا لغيره.

ورد الشارد من أغنامه إلى بقية القطيع يعلمه كيف يرد المفارق للجماعة إلى روح جماعته ويعلمه حسن السياسة في عقاب المتخلفين عن بعض الغزوات.

كما أن إرجاع الشارد من الأغنام دون تعذيب لها يعلمه الرفق بالرعية والصبر عليها والرحمة بها.

ورعى الأغنام هي مهنة الأنبياء قبل النبي ﷺ تعلموا منها الصبر والتواضع والرحمة والعطف على الآخرين، والشجاعة وعلمتهم كيف يسعدون الناس ويقدمون

(١) هو النبات والعشب، وسواء رطبه ويابس [النهاية في غريب الحديث لابن الأثير. مادة (كلا) ٤ / ١٩٤ طبعة دار الفكر بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

المساعدة لهم.

يقول الإمام البخارى رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد المكي حدثنا عمرو بن يحيى عن جده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فقال أصحابه: «وأنت؟» فقال «نعم كنت أرهاها على قراريط<sup>(١)</sup>، لأهل مكة»<sup>(٢)</sup>.

يقول الإمام ابن حجر في الفتح في معنى قوله ﷺ «على قراريط لأهل مكة» قال سويد أحد رواة الحديث: «يعنى كل شاة بقيراط، يعنى القيراط الذى هو جزء من الدينار أو الدرهم»<sup>(٣)</sup>. اهـ

ومن الحديث السابق يتبين لنا مدى الذوق الرفيع والإحساس الرقيق اللذين تجمل بهما النبي ﷺ في سعيه لاكتساب القوت والرزق.

ورعى الأغنام عمل شاق قام به النبي ﷺ مقابل أجر قليل عندما أنس في نفسه القدرة على العمل والكسب محاولاً تخفيف العبء عن عمه أبي طالب الذى كثرت أولاده وقل ماله.

فضلاً عن أن هذا العمل كان بمثابة الإعداد للنبي ﷺ حتى يحسن سياسة الناس وقيادة العالم كما أسلفت من قبل (ففى رعى الأغنام كثير من الكياسة فى السلوك والسياسة فى الأخلاق والإعداد الإلهى على الجلد والاحتمال والإغضاء والصفح، والحلم والتسامح، واليقظة والانتباه، وهى كلها معان يحتاج إليها الراعى وتكمل بها قيادة القائد، ودعوة الداعى، وزعامة الزعيم<sup>(٤)</sup>).

(١) قراريط: جمع قيراط: والقيراط جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عشرة فى أكثر البلاد وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين [النهاية (قرط) ٤/ ٤٢].

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الإجارة: ٢ باب رعى الغنم على قراريط / ٤ / ٥٤١ ح، ٢٢٦٢ وابن ماجه فى كتاب التجارات ٥ باب الصناعات ٢ / ٢٦٥ ح ٢١٤٩ والبيهقى فى السنن الكبرى: كتاب الإجارة ٤ باب جواز الإجارة ٦ / ١١٨ ح ١١٦٤١ جميعهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) فتح البارى ٤ / ١٤٢ بتصرف.

(٤) من مقال للدكتور / إبراهيم على أبو الحشب فى مجلة منبر الإسلام ص ٥٠ عدد ربيع الأول ١٤٢١ هـ يونيو سنة ٢٠٠٠ م والمجلة صادرة عن وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

## ب- توسيع آفاقه بالسفر:

كثرة الرحلات والتنقلات توسع آفاق الإنسان، وتجعله على دراية تامة بالطرق والمسالك، وتوقفه على أحوال البلاد والعباد.

«والنبى ﷺ سافر إلى بلاد الشام مع عمه أبى طالب، ثم سافر بتجارة خديجة إلى بلاد الشام أيضاً، وأقام فى كل مرة مدة فى تلك البلاد، أطلع فيها على أحوال العباد والبلاد، ورأى نماذج من الناس يختلفون عن الناس الذين رآهم فى الحجاز وكان هذا التصرف أمراً لا بد منه لأن النبى ﷺ لن يكون قائداً لأهل الحجاز وحدهم بل سيكون قائداً لجميع الأمم فكان لا بد أن يتعرف على نماذج منهم»<sup>(١)</sup>

## ج- الخلوة بنفسه:

كان النبى ﷺ قبل البعثة يعتزل الناس بعض الأوقات ويختلى بنفسه ويعيش فى خلوته يقظ القلب فى أحضان الطبيعة الهادئة الموحية التى لا أثر فيها ليد الإنسان وإنما الذى أبدعها على هذا النمط الجميل هو الله.

يجلس ينظر ويظلم النظر إلى بديع خلق الله تعالى، ويفكر ويظلم التفكير، ويقول فى نفسه لا بد لهذا الكون العجيب من خالق أبدعه على هذا النسق العجيب والترتيب الغريب. «وقد كان النبى ﷺ يستعين بصمته الطويل، الموصول بالليل والنهار، صمته المطبق على الرمال الممتدة والعمران القليل، كان يستعين بهذا الصمت على طول التأمل، وإدمان الفكر، واستكناه الحق، ودرجة الارتقاء النفسى التى بلغها من هذا النظر الدائم أرجح يقيناً من حفظ لا فهم فيه، أو فهم لا أدب منه ومثله فى احترام حقائق الكون والحياة أولى بالتقديم من أولئك الذين اعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها»<sup>(٢)</sup>.

يقول الدكتور محمد رواس قلعه جى: كانت عبادة الحنفيين من العرب خلوة بالنفس وتأملاً بالآء الله، ولما قرب عهد تسلم رسول الله ﷺ القيادة، حبب له الخلوة

(١) قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ٣٥ بتصرف.

(٢) فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٨٠ بتصرف يسير طبعة دار الدعوة بالإسكندرية الطبعة الثانية سنة ١٤٠٩ هـ.

بنفسه، فكان يخرج إلى غار حراء<sup>(١)</sup>، ذلك المكان المرتفع المنقطع عن الناس، حيث الهدوء المساعد على التأمل، والإشراف على الجبال والوديان، فيخلو فيه في كل سنة شهراً يصفى نفسه، ويسمو بروحه بعيداً عن الأصنام وجوهاً الخائق وبعيداً عن صخب<sup>(٢)</sup>، المدينة بكل ما فيها من تسلط الأقوياء على الضعفاء واحتيال الأذكياء على الأغبياء، ونصب الشراك ليسقط فيها كل سليم القلب فإذا ما انتهت خلوته نزل من غار حراء إلى الكعبة المشرفة، فطاف حولها ما شاء الله له أن يطوف، ثم ينصرف إلى بيته.

إن هذه الخلوة كان لابد منها لرسول الله ﷺ الذي سيتسلم القيادة عما قليل، حيث تصبح القوة والسلطان بيده، قوله هو الفصل، وكلمته هي النافذة، ورجل هذا شأنه، كان تطهير قلبه أمراً لا بد منه، ليعامل شعبه بالرحمة أكثر من معاملته له بالسلطان وليقبل من المحسن منهم إحسانه ويتجاوز عن المسيئ ولذلك أرشد الله رسوله ﷺ إلى ممارسة هذه الرياضة الروحية قبل توليه القيادة ليكون بالناس رؤوفاً رحيماً من اليوم الأول الذي يتسلم فيه القيادة<sup>(٣)</sup>، ١هـ ولا شك أن الخلوة بالنفس وإعمال العقل وإطالة التفكير تصنع الرجال وتجعلهم أهلاً لتحمل المسؤولية.

#### د- حضوره الأحلاف والاجتماعات المهمة وبعض المعارك:

كان النبي ﷺ يحرص على حضور الأحلاف التي يتعاهد فيها الناس على تجنيد أنفسهم للحق والعدل والمساواة ونصرة المظلوم وفي ذلك تدريب له على القضاء وتولى أمور الناس وسياستهم.

«فمهما قيل في المعجزة الإلهية التي يؤيد الله سبحانه وتعالى بها أنبياءه ورسوله فإن الرسول الذي أرسله ربه إلى خلقه في حاجة ماسة إلى التعامل مع هؤلاء الناس الذين كانت رسالته فيهم ودعوته إليهم، ولا بد أن يكون على بصيرة من سياستهم، أو

(١) الغار هو الكهف أو المكان المنخفض في الجبل [لسان العرب «غور» ٥: ٣٣١٣] وحراء: جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال وكان النبي ﷺ قبل أن يأتيه الوحي يتعبد في غار من هذا الجبل [معجم البلدان لأبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦: ٢: ٢٦٩، ٢٧٠ ط دار الكتب العلمية الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

(٢) الضجة واضطراب الأصوات للخصام [النهاية «صخب» ١٤/٣].

(٣) من كتاب قراءة سياسة للسيرة النبوية ص ٣٦ بتصرف يسير.

السلوك معهم حتى لا يقع في العنت، أو يصطدم بما لم يكن في حسبانته، أو يجلب بخاطرهم وهناك لا تسير الأمور على سنن الحياة المألوفة أو تخرج عن طوق الداعي<sup>(١)</sup>. ومن الأحلاف التي شهدها النبي ﷺ فأفادته كثيرا في سياسة الناس بعد ذلك (حلف المطيين) الذي شهدته النبي ﷺ قبل نزول الوحي.

يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله تعالى: حدثنا بشر بن المفضل عن عبد الرحمن ابن إسحاق عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم<sup>(٢)</sup>، عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف<sup>(٣)</sup>، عن النبي ﷺ قال: «شهدت حلف المطيين<sup>(٤)</sup>، مع عمومتى وأنا غلام فما أحب أن لي حمر النعم<sup>(٥)</sup>، وأن أنكثه<sup>(٦)</sup>،<sup>(٧)</sup>».

(١) من مقال بعنوان الأعداد الألهى للرسول ﷺ للدكتور إبراهيم على أبو الخشب في مجلة منبر الإسلام ص ٥٠ عدد المحرم لسنة ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م.

(٢) هو الصحابي الجليل: جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي، كان من أكابر قريش وعلماء النسب، وأسلم يوم الحديبية وقيل في الفتح ومناقبه كثيرة رحمته الله مات في خلافة معاوية [الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ١/ ٤٦٢] طبعة دار الجليل بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

(٣) عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري أبو محمد أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى الذين أخبر عمر عن رسول ﷺ أنه توفي وهو عنهم راض. هاجر الهجرتين وشهد بدرًا والمشاهد مات رحمته الله سنة إحدى وثلاثين وقيل سنة اثنتين [الإصابة ٤/ ٣٥٠].

(٤) حلف المطيين: الحلف: المعاقدة والمعاودة على التعاقد والتساعد والاتفاق، وحلف المطيين حلف عقد في الجاهلية قبل بعثة النبي ﷺ على نصرة المظلوم وصلة الأرحام (النهاية «حلف» ١/ ٤٢٤) وسمى المطيين لأن امرأة من بنى عبد مناف أخرجت جفنة مملوءة طيبًا فأخذها بنو عبد مناف فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها وتعاهدوا وتعاهدواهم وحلفواؤهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفسهم فسموا المطيين [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٢١ بتصرف] وذكر السهيلي في الروض الأنف: أن المرأة التي أخرجت جفنة الطيب هي أم حكيم. البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه [الروض الأنف ١/ ١٥٣ - ط الكليات الأزهرية].

(٥) حمر النعم: هي الحمر من الإبل، والإبل الحمر هي أصبر الإبل على الهواجر (لسان العرب «حمر» ٢/ ٩٩٠ طبعة دار المعارف).

(٦) النكث نقض العهد: وأنكثه يعني أنقضه (النهاية «نكث» ٥/ ١١٤ بتصرف).

(٧) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٩٣، ١٩٠. وابن حبان في كتاب الإيمان باب ذكر خبر فيه شهود المصطفى ﷺ حلف المطيين: ٦: ٢٨٢ وزاد ابن حبان والمطيون: بنو هاشم وأمية، وزهرة، ونخزوم) طبعة دار الكتب =



«وهذا حلف تعاهدت فيه قريش وغيرها من أهل مكة على أن يجندوا أنفسهم للحق والعدل، والإنصاف وكف الأذى عن الناس، وأن يكون أساس التعامل بالبر والمعروف، ومنع الظلم، والوقوف إلى جانب المغلوب وكان ذلك في أثر ثورة طائشة في داخل مكة بين قريش وقيس كادت تطيح بالأخضر واليابس، ولما أن تدارك الله الطرفين برحمته، وكف كل منهما يده عن أخيه رأيا أن يردفا هذا الحلف بحلف آخر يكون بمثابة ضمان دائم بكف الأذى ورفع الظلم، وإنصاف المغلوب، وتوفير الأمن والسلام، لمن تقله أرض مكة من أهلها أو غير أهلها.

ومما لاشك فيه أن حضوره ﷺ هذه الأحلاف وشبهها من التدريب العملي على الفصل في القضايا، والحكم في الخصومات، والإدلاء بالرأي، والإصلاح بين الناس، وليست مهمة القواد والرواد والمصلحين شيئا وراء ذلك.

ولعل هذا الأعداد الذي تلقاه ﷺ مبكرا كان عاملا من عوامل الارتياح إلى حكومته فيما كان يجد من نزاع بين العرب يتولى هو فضه، أو الفصل فيه ويذكر المؤرخون أنه ﷺ شارك في الحياة العامة في مكة منذ طفولته مشاركة عامة كان لها أثرها في حياته، فقد اشترك في الحياة السياسية في حلف الفضول<sup>(١)</sup>، وكان هذا الهدف سياسيا

= العلمية بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤٧ هـ ١٩٨٧ م. وأخرجه الحاكم في المستدرك كتاب المكاتب ٢/ ٢١١، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي والكتاب طبعة دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١١-١٩٩٠ م. والبخاري في الأدب المفرد: باب حلف الجاهلية: ص ١٧٢ رقم ٥٦٧ طبعة دار الكتب العلمية الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م. والبيهقي في السنن الكبرى كتاب قسم الفئ والغنيمة: ٦٢ باب إعطاء الفئ على الديوان ومن يقع به البداية ٦/ ٣٦٦ ج ١٣٠٧٧ جميعهم عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(١) حلف الفضول: تداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان، بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي لشرفه وسنه، وكان حلفهم عنده: بنوا هاشم، وبنوا المطلب وأسد ابن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة. فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجذوا في مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف «حلف الفضول» (السيرة النبوية لابن هشام (موضوع حلف الفضول ١/ ١٢٣) طبعة دار الحديث بالقاهرة الأولى سنة ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م وسمى بحلف الفضول تشبيها بحلف كان قديما بمكة أيام جرهم، على التناسف، والأخذ للضعيف من القوى، وللغريب من القاطن، قام به رجال من جرهم كلهم يسمى الفضل، منهم الفضل بن الحارث، والفضل بن وداعة، والفضل بن فضالة (النهاية «فضل» ٣/ ٤٥٦).

لم تألفه القبائل المعترزة بعصبيتها من قبل، هذا الهدف هو نصره المظلوم، بصرف النظر عن قرابته وقبيلته، ومن قبل كان قد اشترك مع أعمامه في حرب الفجار<sup>(١)</sup>، فاكسب إلى جانب خبرته السياسية خبرة حربية<sup>(٢)</sup>.

## ٢- تأهيل الله ﷻ لرسوله ﷺ لقيادة العالم:

وهناك جوانب للعظمة أعدها الله في نبيه ﷺ ليكون أهلاً لقيادة العالم، فهو سبحانه صنع محمدًا ﷺ على عينه وأيده بمعجزاته التي هي أقصر الطرق وأقواها لإثبات النبوة - ومنها.

### أ - تسليم الشجر والحجر عليه:

وهذا جانب عظيم من جوانب الإعداد الإلهي للنبي ﷺ ليتحمل قيادة العالم وأعباء الدعوة وتبعات المسئولية بقلب راسخ ويقين ثابت قال ابن إسحاق: حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي وكان واعية عن بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة - كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر<sup>(٣)</sup> عنه البيوت ويفضي<sup>(٤)</sup> إلى شعاب مكة أو بطون أوديتها فلا يمر ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال «السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت النبي ﷺ حوله وعن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى أحدًا إلا الشجر والحجارة فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ثم جاءه جبريل ﷺ بما

(١) حرب الفجار: قال ابن إسحاق: هاجت حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وكان النبي ﷺ يرد على أعمامه نبل عدوهم إذا رموهم بها. وسميت «حرب الفجار» بما استحل هذان الحيان، - كنانة وقيس عيلان -، فيه من المحارم بينهم، وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة حتى إذا كان وسط النار كان الظفر لكنانة على قيس (السيرة النبوية لابن هشام. موضوع: حرب الفجار ١/ ١٦٤، ١٦٥ بتصرف).

(٢) من مقال للدكتور / إبراهيم على أبو الخشب بعنوان. الإعداد الإلهي للرسول ﷺ في مجلة منبر الإسلام ص ٥٠، ٥١ بتصرف. عدد المحرم لسنة ١٤٢١ هـ لسنة ٢٠٠٠ م.

(٣) أي تبعد [النهاية «حسر» ١/ ٣٨٣ بتصرف].

(٤) أي يتسع. والفضاء: الخال الفارغ الواسع من الأرض [النهاية «فضا» ٣/ ٤٥٦].

جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان<sup>(١)</sup>.

ويقول الإمام مسلم رحمه الله حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يحيى بن أبي بكير عن إبراهيم بن طهمان حدثني سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»<sup>(٢)</sup> وهذا أمر خارق للعادة أراد الله أن يقوى به عزيمة النبي ﷺ وأن يشد من أزره، ويجعله دليلًا قويًا على صدق نبوته.

#### ب- الرؤيا الصادقة:

وهذه صورة من صور الإعداد والتي أعدها الله في نبيه محمد ﷺ لتؤهله إلى تحمل مسئولية قيادة العالم فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا الصادقة تزيده ثقة بنفسه لاسيما في ذلك الوقت الذي كانت الرؤى تلعب فيه دورًا خطيرًا في حياة الناس وتصرفاتهم، فنحن لا نزال نذكر أن جد النبي ﷺ لما رأى في منامه أنه يحفر زمزم أقبل على تنفيذ ما رآه في منامه دون تردد.

#### ٣- تسلم النبي ﷺ قيادة أمة الإسلام:

##### بداية الوحي:

لم يتسلم النبي ﷺ القيادة وسط احتفال مهيب، يصفق له الناس ويرفع أنفه إلى السماء يصطنع مظاهر العظمة والشموخ والكبرياء وإنما تسلمها وهو في كنف الله ورعايته، في احتفال ملائكي عام حضره جمع من ملائكة السماء يحفظونه ويحرسونه في

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع «مبعث النبي ﷺ تسليمًا» (السيرة النبوية لابن هشام) ١/١٩٩ والبيهقي في دلائل النبوة باب مبتدأ البعث والتنيل وما ظهر عند ذلك ٢/١٤٦ من طريق ابن إسحاق وأخرجه عن برة بنت أبي تجراه الحاكم في المستدرک کتاب معرفة الصحابة باب ذكر برة بنت أبي تجراه ٤/٧٠ وضعفه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الفضائل ١ باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ٨/٤٣ ج ٢٢٧٧ عن جابر بن سمرة. والترمذي في أبواب المناقب ٥ باب ما جاء في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله ﷻ به ١/٧٧ ح ٣٦٣٣ عن جابر بن سمرة وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب والدارمي بألفاظ متقاربة في كتاب المقدمة ٤ باب ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر به والبهائم والجن ١/١١١ ح ١٦ عن عبد الله بن عمر. والإمام أحمد في المسند ٥/٨٩، ٩٥، ١٠٥. عن جابر بن سمرة.

فرحة غامرة وبهجة نادرة. تسلمها وهو في موقف عبودية وتواضع وخوف من الله تعالى، وانقطاع عن الناس، وزهد في الدنيا وزخارفها وإقبال على الآخرة ونعيمها، تسلم القيادة ولم يكن يحرص عليها، أو يعمل لها، ولم تكن تخطر له ببال، ولكن ﴿الله أَغْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وهو سبحانه أعلم بالناس وبقدراتهم التي أوجدها فيهم، وكان المعدل والمسلم إليه الرسالة هو رب العزة سبحانه، ولم يتسلم النبي ﷺ القيادة في مكان مزخرف من جميع جوانبه كما يصنع للقادة اليوم، ولكنه تسلمها على رأس جبل منعزل لأن هذه القيادة لا يراد بها الجاه في الأرض بقدر ما يراد بها رضوان الله تعالى، ولا يبغي بها السيادة على الناس بقدر ما يبغي بها العبودية الخالصة لله تعالى، ولا يراعى فيها جانب الإشهاد بقدر ما يراعى فيها جانب الإخلاص.

وعن جوانب العظمة في حياة النبي ﷺ قبل البعثة والتي اكتسبها بنفسه أو أعدها الله فيه فأهلهته لقيادة العالم وإخراجه من الظلمات إلى النور، وعن تفاصيل تسلم النبي ﷺ مقاليد القيادة الدينية والدنيوية للعالم كله، يروى لنا الإمام البخاري رحمه الله تعالى حديثاً جامعاً في هذه الجوانب.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا يحيى بن بكير قال: حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة<sup>(١)</sup>، في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح<sup>(٢)</sup>، ثم حجب<sup>(٣)</sup>، إليه الخلاء<sup>(٤)</sup>، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث<sup>(٥)</sup>، فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع<sup>(٦)</sup>، إلى أهله

(١) الرؤيا الصالحة: هي التي ليس فيها ضغث (فتح الباري ١/٢٩).

(٢) ضوءه وإنارته (النهاية «فلق» ٣/٤١٧).

(٣) حجب: لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك وإن كان كل من عند الله أو لينبه على أنه لم يكن من باعث البشر أو يكون ذلك من وحي الإلهام (فتح الباري ١/٢٩).

(٤) الخلوة وفراغ القلب، والتخلي: التفرغ يقال: تخلى للعبادة وهو تفعل من الخلو والمراد التبرؤ من الشرك، وعقد القلب على الإيمان (النهاية «خلا» ٢/٧٤ بتصرف).

(٥) يتعبد (النهاية «حنث» ١/٤٤٩).

(٦) يعود وينجذب ويميل (النهاية «نزع» ٥/٤١ بتصرف).

ويتزود<sup>(١)</sup>، لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك<sup>(٢)</sup>، فقال: «اقرأ قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني<sup>(٣)</sup>، حتى بلغ مني الجهد<sup>(٤)</sup>، ثم أرسلني<sup>(٥)</sup>، فقال: اقرأ، قلت ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد» ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾<sup>(٦)</sup>، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده<sup>(٧)</sup>، فدخل على خديجة بنت خويلد ﷺ فقال: زملوني<sup>(٨)</sup>، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع<sup>(٩)</sup>، فقال لخديجة وأخبرها: الخبر (لقد خشيت على نفسي)<sup>(١٠)</sup>، فقالت خديجة: (كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل<sup>(١١)</sup>، وتكسب المعدوم<sup>(١٢)</sup>، وتقري

(١) أى يحمل معه طعاماً (النهاية «زود» ٣١٧/٢ بتصرف).

(٢) الملك: واحد الملائكة، وهم جنس نوراني لطيف من خلق الله كجبريل وعزرائيل (المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ٥٩٠ طبعة وزارة التربية والتعليم سنة ٩٤١٤ هـ ١٩٩٣ م).

(٣) الغط: العصر الشديد والكبس (النهاية «غطط» ٣٧٣/٣).

(٤) المشقة: أى بلغ مني غاية وسعى (النهاية «جهد» ٣٢٠/١).

(٥) أطلقني (فتح الباري ٣١/١).

(٦) العلق: ٣-١.

(٧) أصل الرجف: الحركة والاضطراب، أى يضطرب قلبه نتيجة انفعال حصل له من مجيئ الملك (النهاية «رجف» ٢٠٣/٢ بتصرف).

(٨) أى لفوني في ثوبي، يقال تزل بثوبه إذا التف فيه (النهاية «زمل» ٣١٣/٢ بتصرف).

(٩) الفزع أو الخوف (النهاية «روع» ٢٧٧/٢ بتصرف).

(١٠) الخشية المذكورة ذكر الإمام ابن حجر اختلاف العلماء في المراد بها على اثني عشر قولاً ورجح منها ثلاثة آراء هي ١- المراد بالخشية: الموت من شدة الرعب. ٢- المرض. ٣- دوام المرض (فتح الباري ٣١/١ بتصرف).

(١١) الثقل من كل ما يتكلف والكل: العيال (النهاية «كلل» ١٩٨/٤) وقال ابن حجر الكل: هو من لا يستقل بأمره كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ (فتح الباري ٣١/١).

(١٢) يقال: فلان يكسب المعدوم إذا كان مجدوداً محظوظاً أى يكسب ما يحرمه غيره وقيل: أرادت تكسب الناس الشئ المعدوم الذى لا يحدونه مما يحتاجون إليه وقيل: أرادت بالمعدوم الفقير الذى صار من شدة حاجته كالمعدوم نفسه (النهاية «عدم» ١٩١/٣).

الضيف<sup>(١)</sup>، وتعين على نوائب<sup>(٢)</sup>، الحق) فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرءًا تنصر<sup>(٣)</sup>، في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني<sup>(٤)</sup>، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى، فقالت له خديجة (يا بن عم اسمع من ابن أخيك) فقال له ورقة: (يا بن أخي ماذا ترى؟) فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: (هذا الناموس<sup>(٥)</sup>، الذى نزل الله على موسى، يا ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك) فقال رسول الله ﷺ: (أو مخرجى هم؟) قال: (نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا)<sup>(٦)</sup>، ثم لم ينشب<sup>(٧)</sup>، ورقة أن توفي، وفتر الوحي<sup>(٨)</sup>،<sup>(٩)</sup>.

(١) يقال قرى الضيف قرى: أى أضافه وقدم له الطعام وأكرمه (المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية «قرا») ص ٥٠٠ بتصرف) طبعة وزارة التربية والتعليم.

(٢) النوائب: جمع نائبة، وهى ما ينوب الإنسان أى ينزل به من المهمات والحوادث (النهاية «نوب») ١٢٣/٥. (٣) معناه: صار نصرانيا، والجاهلية ما قبل رسالته ﷺ سموا بذلك لما كانوا عليه من فاحش الجهالة والله أعلم (شرح النووى على مسلم ١/٤٨٢).

(٤) يعنى أنه تمكن من معرفة دين النصارى بحيث إنه صار يتصرف فى الإنجيل فيكتب أى موضع شاء منه بالعبرانية إن شاء وبالعربية إن شاء والله أعلم (شرح النووى على مسلم ١/٤٨٢، فتح البارى ١/٣٢).

(٥) الناموس صاحب سر الملك والمراد بالناموس فى الحديث: جبريل عليه السلام (النهاية «نمس») ١١٩/٥ بتصرف. (٦) أى بالغًا شديدًا (النهاية «أزر») ١/٤٤.

(٧) أى لم يلبث «وحيقيقته لم يتعلق بشئ غيره، ولا اشتغل بسواه أو لم يتعلق بشئ من الأمور حتى مات» (النهاية «نشب») ٥٢/٥ بتصرف.

(٨) أى تأخر مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان عليه ﷺ وجده من الروح، وليحصل له الشوف إلى العود (فتح البارى ١/٣٤، ٣٥).

(٩) أخرجه البخارى فى الصحيح كتاب بدء الوحي ٣ باب بدون ترجمة، فتح البارى ١/٢٨ ج ٣ ومسلم فى كتاب الإيمان ٧٣ باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/٤٧٤ ح ٢٥٢ والإمام أحمد فى المسند ٣/٣٧٧، ٢٣٣. والبيهقى فى السنن الكبرى كتاب السير ٢ باب مبتدأ البعث والتنزيل ٩/٦ ح ١٧٧٢١ جميعهم عن عائشة رضي الله عنها.

## الفصل الثاني جوانب عملية فى السياسة المكية

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - بناء الأمة فردًا فردًا وإعداد القواعد البشرية لقيام دولة الإسلام وسياسة النبي ﷺ فى ذلك.
- ٢ - الإسراع بالدعوة وسياسة النبي ﷺ فى ذلك.
- ٣ - سياسة النبي ﷺ فى المفاوضات.

## الفصل الثاني

### جوانب عملية فى السياسة المكية

١ - بناء الأمة فردًا فردًا وإعداد القواعد البشرية لقيام دولة الإسلام، وسياسة النبي ﷺ فى ذلك:

كان النبي ﷺ هو اللبنة الأولى فى بناء الإسلام الشامخ فحينما أوحى إليه لم يجد جماعة تؤمن به من أول وهلة ولم يجد جيشًا يحميه من أول لحظة، وإنما أخذ يدعو الناس للدخول فى دين الله فردًا فردًا، منتهجًا فى ذلك أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، فأخذ الناس يدخلون فى دين الله الواحد تلو الآخر ويجتمعون مع النبي ﷺ، ويلتفون حوله، وأصبح الإيمان بما جاء به من مبادئ سامية يجذب إليه خيار الناس (كالمغناطيس) الذى يمرر فوق التراب فيلتقط المعادن ولا يلتقط غيرها وكانت دار الأرقم بن أبى، الأرقم<sup>(١)</sup> مركز إعداد وتدريب لقن فيه النبي ﷺ المسلمين مبادئ الإسلام وأصوله وتعهدهم فيها بالتربية حتى كون منهم أناسًا أوفياء مخلصين تحملوا كل ألوان البلاد والآلام فى سبيل دينهم وعقيدتهم فكان جُلَّ اهتمامه ﷺ ببناء البشر على العقيدة الصحيحة فالإنسان إذا صح بناؤه وحسنت عقيدته كان أعظم بناء من الدروع والأساطيل، ومن هنا يظهر الفارق الكبير بين النبي ﷺ وغيره من القادة والزعماء والمصلحين الذين زاع صيتهم، وأعجب الناس بهم، فهؤلاء حينما تولوا القيادة، وجدوا دولًا تهميهم فيها ملايين الجنود المدربين على أحدث أنواع الأسلحة فى عصورهم، ووجدوا موطنًا يؤويهم، واقتصادًا ضخمًا يساعدهم على تنفيذ ما يريدون، ومع ذلك فشلوا فى بناء دول عادلة وقوية، بل دنسوا تاريخهم وهدموا حضاراتهم بسبب الظلم والحقم الذى كانوا يرتعون فيه ولم يذكرهم التاريخ إلا عندما يريد أن يحصر مآسيهم ويقدر حجم الدمار الذى خلفوه والدماء التى سفكوها

(١) الأرقم بن أبى الأرقم اسمه عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم يكنى أبا عبد الله كان من السابقين الأولين قيل أسلم بعد عشرة وكانت داره على الصفا وكان يجلس فيها النبي ﷺ فى بداية الإسلام وتوفى ﷺ فى خلافة معاوية وقيل سنة ثلاث وخمسين وهو ابن خمس وثمانين سنة [الإصابة ١/ ٤٣].



والشعوب التي أذلها والبلاد التي أهلكوها والدول التي دمروها والفساد الذي نشره في ربوع الأرض وإذا وضعت يدك عبثاً على خريطة الدول التي احتلها لم تر إلا ممالك مغصوبة وشعوباً مقهورة وثروات منهوبة وأموالاً مسلوقة وأعراضاً مهتوكة ودماء مسفوكة وأشلاء منثورة ، وهذا بخلاف ما قام به النبي ﷺ الذي بدأ بمفرده ولم يجد دولة تؤويه، أو قوة تحميه، أو قبيلة تحوطه وتمنعه أو جماعة تؤمن بما جاء به في بادئ الأمر، فأخذ يعمل على بناء الأمة الإسلامية، وقام ببناء الاقتصاد الإسلامي في المدينة المنورة، ثم أعد الجيوش وزودها بأحدث الأسلحة في عصره لحماية حرية نشر العقيدة الإسلامية بعد أن أذن الله له بالجهاد، وأقام دولة ملأت الدنيا عدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً ، وأرست معالم الحق ومبادئ المساواة

## ٢- الإسرار بالدعوة وسياسة النبي ﷺ في ذلك:

بدأ النبي ﷺ الدعوة سرّاً بين أهل بيته ثم أصدقائه المقربين إليه وتلك سياسة رشيدة انتهجها النبي ﷺ في تلك الفترة، والحكمة في ذلك: أنه ﷺ علم أن دعوة الإسلام وما جاءت به من عدل وتسوية بين السادة والعبيد، لن ترضى بها قريش التي كانت متعصبة لجاهليتها وإلحادها ووثنياتها.

والمعلوم أن عدد المسلمين كان قليلاً، ولم تكن لهم قوة تحميهم أو منعة تحيّرهم أو حماية تنجيهم في ذلك الوقت العصيب، فهل يعلن النبي ﷺ دعوته من أول يوم ويسير بالمسلمين القلائل في طريق مخوف بالمخاطر؟

إنه لو فعل ذلك لفاجأ أهل مكة بما يصدم مشاعرهم، ويسلب عقولهم وينسيهم رشدهم وحكمتهم فيقضون على دعوة الإسلام في مهدها ولذلك رأى النبي ﷺ أنه من الحكمة أن يسر بالدعوة في بدايتها.

«وبمجرد أن نزل قول الله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] انطلق رسول الله ﷺ إلى أقرب الناس إليه، وألصقهم به يدعوهم إلى الله في سرية تامة حتى يكون القاعدة البشرية المؤمنة للدولة الإسلامية المرتقبة ويرسى في صدور هذه القاعدة الإيمان بالمبادئ والأهداف التي ستقوم من أجلها هذه الدولة.

وتعتبر هذه السرية في التحرك بين الأفراد، الذي فرضته هذه الآية فريضة أخرى

لثلاثا يقهر الداعى والمدعوون قبل إدخالهم مبادئ الدعوة إلى الصدور، ولتعلن الدعوة يوم تعلن ومعها عشرات الأصوات مؤيدة لها ومدافعة عنها، فهى حين تعلن وقد سارت فى مدارج القوة خير ألف مرة من أن تعلن وهى فى مهد الضعف، ولذلك جعل رسول الله ﷺ يصطفى من يدعوهم إلى الإسلام حتى يقبلوا عليه، ويأخذوا به»<sup>(١)</sup>

يقول الدكتور البوطى: بدأ النبى ﷺ يستجيب لأمر الله، فأخذ يدعو إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، ولكنه كان يدعو إلى ذلك سرًا حذرًا من وقع المفاجأة على قريش التى كانت متعصبة لشركها ووثنيتها.

فلم يكن عليه الصلاة والسلام يظهر الدعوة فى المجالس العامة لقريش، ولم يكن يدعو إلا من كانت تشده إليه قرابة أو معرفة سابقة.

وكان الصحابة يلتقون بالنبى ﷺ سرًا، وكان أحدهم إذا أراد أداء عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفى فيها عن أنظار قريش.

ثم لما أربى الذين دخلوا فى الإسلام على الثلاثين ما بين رجل وامرأة - اختار لهم رسول الله ﷺ دار أحدهم، وهو الأرقم بن أبى الأرقم، ليلتقى بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم، وكانت حصيلة الدعوة فى هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلًا وامرأة دخلوا فى الإسلام، عامتهم من الفقراء والأرقاء ومن لا شأن له بين قريش.

ويتحدث الدكتور البوطى عن وجه السرية فى بدء دعوة الرسول ﷺ قائلا: لا ريب أن تكتم النبى ﷺ فى دعوته إلى الإسلام، خلال هذه السنوات الأولى لم يكن بسبب الخوف على نفسه، فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١، ٢]. علم أنه رسول الله إلى الناس، وهو لذلك كان يوقن بأن الإله الذى ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر على أن يحميه ويعصمه من الناس، على أن الله ﷻ لو أمره من أول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علنًا، لما تأخر عن ذلك ساعة، ولو كان يتراءى له فى ذلك مصرعه.

ولكن الله ﷻ ألهمه - والإلهام للرسول نوع من الوحي إليه - أن يبدأ الدعوة فى

(١) قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ٤٠ بتصرف.

فترتها الأولى، بسرية وتكتم، وأن لا يلقي بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيذعن لها ويؤمن بها تعليمًا للدعاة من بعده، وإرشادًا لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيلة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير السديد والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها.

على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهبًا يعطيها معنى التأثير والفعالية في تصويره وتفكيره.

وهذا يخالف أصل الإيمان بالله تعالى، فضلًا عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام.

ومن هنا تدرك أن أسلوب دعوته عليه الصلاة والسلام، في هذه الفترة، كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إمامًا، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيًا.

وبناء على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية، في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة - من حيث التكتم والجهر، أو اللين والقوة - حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه، وهي مرونة حددتها الشريعة الإسلامية، معتمدة على واقع سيرته ﷺ من حيث الإسرار بالدعوة ثم الجهر بها، على أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية<sup>(١)</sup> أهـ

ويقول الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس عن وجه الحكمة في سرية الدعوة في تلك الفترة: «إن بدء الدعوة النبوية بالسرية فيه حكمة جليلة ومصلحة عامة تهم الدعوة في ذلك، لأن الدعوة في بدايتها لا يكون لها أنصار، والناس أعداء لكل جديد وإن كان خيرًا، وأعداء لما يجهلون، فإذا بدأ الرسول بإعلان دعوته قبل أن يؤمن بها أحد سيواجه أهل الصولة والجولة والقوة فيقضون عليه وعلى دعوته قبل وجود

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٦٨، بتصرف طبعة دار الفكر بدمشق الطبعة الحادية عشرة سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

الأنصار الذين يقفون إلى جانبه، ويقومون بتبليغ دعوته، ولذلك بدأ هذه المرحلة السرية بتكوين الأنصار ثم أعلن بعد ثلاث سنوات عن دعوته بأمر الله ﷻ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

وخلاصة القول: إن الدعوة الإسلامية في مكة كانت في هذه المرحلة سرية، في التنظيم، وفي الدعوة والحركة.

فتنظيم الجماعة المسلمة قيادة وقاعدة كان سرّيًا، لم تطلع على أسرارها وأفرادها وقيادته أى جهة معادية - سواء أكانت تنظيمًا معاديًا أو أفرادًا معادين، - ولم يكن أحد من هؤلاء يعرف المسلمين الذين يدخلون هذا الدين ولا أماكن تجمعاتهم.

وعلى هذا كانت الجماعة الإسلامية والدعوة الإسلامية تعيش في أمن وأمان لا تصطدم مع غيرها، ولم تتعرض لمضايقة أحد من الزعماء وأصحاب النفوذ، لأنهم لم يشعروا بها ولم يعرفوا أهدافها ومراميتها في بدايتها<sup>(١)</sup>

ومما سبق تتجلى لنا السياسة الحكيمة للنبي ﷺ في إسراره بالدعوة الإسلامية في بداية الأمر وكيف أنه حافظ على مشعل الإسلام مضيئًا لا تصل إليه أيدي العابثين الأقوياء من قريش وكيف أحسن قيادة سفينة الدعوة بالحكمة والتمهل حتى وصلت إلى بر الأمان، وعاشت الجماعة الإسلامية والدولة الإسلامية في أمن وأمان وخير واطمئنان.

### ٣- سياسة النبي ﷺ في المفاوضات:

أخذ الإسلام ينتشر بين الناس، ويظهر أمره، ويقوى عوده، وأصبح الناس يدخلون في الإسلام من كل صوب وحذب، وازداد عدد المسلمين في ذلك الوقت إلى الحد الذي أقلق قريشًا، وجعلها تسلك كل السبل، في سبيل العمل على إيقاف المد الإسلامي، والحد من انتشاره، أو زيادة عدد معتنقيه، وذهبت جمهرة قريش إلى أبى طالب يطلبون منه أن يكف محمدًا عنهم فقال لهم قولاً ليناً ورد عليهم ردًا جميلًا.

(١) السيرة النبوية دراسة تحليلية ص ١٣٤، بتصرف طبعة دار الفرقان بالأردن الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

ثم لجأت قريش إلى أسلوب التهديد لأبى طالب وابن أخيه إن لم يكفه عنهم<sup>(١)</sup>، ولكن النبي ﷺ لم يعبأ بقولهم، ولم تلن له قناة أو تضعف له عزيمة، وظل يدعو إلى ربه بكل ثبات ويقين.

ولما فشلت المفاوضات مع أبى طالب، استخدمت قريش أسلوب التعذيب البدنى للنبي ﷺ ولأصحابه، ولكنهم لم يستطيعوا إطفاء نور الإيمان الذى ملأ قلوب المسلمين.

وبالرغم من وقوع الأذى البدنى والنفسى بالنبي ﷺ وأصحابه إلا أنه كان صابرا على كل ألوان العذاب، ساكتا لا يبدى جزعا ولا يصطدم مع قريش فى ذلك الوقت، ولم يكن هذا الصبر أو هذا السكوت رضا بالذل أو خوفاً من قريش ولكنه كان سياسة حكيمة من النبي ﷺ فى تلك الأوقات الحرجة.

«ولم يكن سكوت رسول الله ﷺ وتحمله أذى المشركين فى هذه المرحلة من الدعوة عن خنوع أو ذل، ولكنه سكوت خاضع لتخطيط دقيق وضعه قائد المسيرة محمد ﷺ، إنه سيقى متحملاً للأذى، لا يبدى أية مقاومة حتى يصلب عوده، ويستكمل قوته، ويقيم دولته، وعندئذ يبدأ الصدام بقوة تمكنه من انتزاع النصر بفضل الله، وقد تم تنفيذ هذا المخطط بكثير من الحرص، ولو أن أية مقاومة بدت من الرسول ﷺ فى فجر الدعوة، لكانت هذه المقاومة الشرارة التى تقع فى برميل البارود، لتفجر الموقف تفجيراً عنيفاً، ولن يكن ذلك فى صالح النبي ﷺ ولا لصالح الدعوة، نظراً لقلّة أصحابه وضعفهم، وكثرة عدوه وقوته.

وتحمل رسول الله ﷺ .. وتحمل ... وما أن حان التوقيت الذى اختاره الله ﷻ لقتال الأعداء نزل بأمر ربه إلى الساحة يبادل عدوه ضربة بضربة وكان له النصر بإذن الله ... وبفضل هذه السياسة الحكيمة بنيت دولة الإسلام ورفعت راياته فوق الآفاق<sup>(٢)</sup>.

ولما لم تستطع قريش إيقاف المد الإسلامى أو الحد من زيادة عدد المسلمين بأسلوب التعذيب البدنى أو النفسى لجأت مرة أخرى إلى المفاوضات المباشرة مع النبي ﷺ .

(١) ينظر السيرة النبوية لابن هشام. موضوع (مباداه الرسول ﷺ قومه بالإسلام وما كان منهم) ٢١٦/١.

(٢) قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ٤٧ بتصرف.

## أ- مفاوضة عتبة بن ربيعة:

حاولت قريش إقناع النبي ﷺ بترك ما يدعو إليه عن طريق المفاوضات المباشرة، واختاروا لهذه المهمة رجلاً من زعمائهم يعرف بقوة الحججة وحسن العرض وطلاقة اللسان، وهو عتبة بن ربيعة.

فجاء إلى النبي ﷺ وكلمه بمعسول الكلام قائلاً: له فيما رواه ابن إسحاق قال وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي، قال حدثت أن عتبة بن ربيعة قال: فذكر حديثاً طويلاً وفيه فقال عتبة للنبي ﷺ «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة<sup>(١)</sup>، في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به أهلتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها»، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع».

قال: (يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت تريد به شرفاً سودناك<sup>(٢)</sup>، علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع<sup>(٣)</sup>، على الرجل حتى يداوى منه)، أو كما قال له حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال! «فاسمع مني» قال (افعل) فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمْدٌ \* تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ \* وَقَالُوا فُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ١-٥] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال «قد سمعت يا أبا

(١) الشرف أى من أوسطهم حسباً ونسباً [النهاية «سطة» ٢/ ٣٣٦].

(٢) جعلناك أميرنا وشریفنا ورئيسنا [النهاية «سود» ٢/ ٤١٨ بتصرف]

(٣) الجنى [النهاية «تبع» ١/ ١٨٠].

الوليد ما سمعت فأنت وذاك»<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن عتبة بن ربيعة لم يكن صادقاً في هذه العروض وإنما أراد إغراء النبي ﷺ ببعض العروض التي يسيل لها اللعاب وتهواها القلوب وتتطلع إليها النفوس فإذا ما قبلها النبي ﷺ استغل عتبة هذا الموقف بالقيام بحملة إعلامية واسعة النطاق للتشهير بالنبي ﷺ والإعلان على الملأ بأن محمداً يبتغي فيما يدعو إلى الدنيا.

ولكن النبي ﷺ بحنكته السياسية فوت على عتبة هذا الأمر واستغل الموقف لصالحه في عرض مبادئ الدعوة الإسلامية على عتبة وبين له حقيقة الإسلام حتى إنه كاد أن يسلم.

يقول الدكتور محمد رواس:

(وأكبر ظني أن عتبة بن ربيعة لم يكن جادا فيما يعرض على رسول الله ﷺ من المال والملك وإنما هو عرض سياسي من إنسان ذكي حتى إذا ما رضى الرسول ﷺ بواحد من بنود هذا العرض كانت الفضيحة بأن محمداً يبتغي فيما يدعو إليه الدنيا، ويكون بذلك القضاء على محمد وعلى ما يدعو إليه، وإن رفض تأكد لديه أن محمداً رجل دعوة وليس برجل دنيا).

وقد كان رسول الله ﷺ أذكى من أن يقع في هذه المصيدة السياسية، بل كان عليه الصلاة والسلام أنبل هدفاً وأسمى مقصداً إنه ماض لتنفيذ أمر ربه في تبليغ ما عهد إليه بتبليغه، ولذلك فإنه ما إن فرغ عتبة من كلامه حتى قال له: (أقد فرغت يا أبا الوليد قال (نعم) قال: فاسمع مني قال: (افعل) فتلا عليه أوائل سورة فصلت<sup>(٢)</sup>، أهـ.

ومما سبق يتجلى لنا حسن سياسية النبي ﷺ في المفاوضات وكيف أنه كان يتلاشى المصائد السياسية التي كان يخطط لها أعداؤه ويريدون أن يوقعوه فيها.

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع: قول عتبة بن ربيعة من أمر رسول الله ﷺ (السيرة النبوية لابن هشام

١/ ٢٤١، ٢٤٢).

(٢) قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ٤٩ بتصرف.

ب- سياسة النبي ﷺ في مفاوضة رؤساء قريش وعدم قبوله المساومة:

رأت قريش أن عتبة بن ربيعة قد أخفق في مفاوضة محمد وأنه قد سحر بما جاء به محمد - على حد قولها - فقررت أن تجتمع وتفاوضه حتى إذا ما قصرت الحجة بأحدهم لقننها إياه صاحبة، لأنها تعمل جاهدة على وقف المد الإسلامي. ومنع الناس من الدخول في دين الإسلام. قال ابن إسحاق: «ثم إن الإسلام جعل يفشوا بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين، ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة. كما حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعن عكرمة مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث (بن كلدة) أخو بني عبد الدار، وأبو البختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان، وأمّية بن خلف، أو من اجتمع منهم.

قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصّموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم<sup>(١)</sup>. حتى جلس إليهم، فقالوا له يا محمد، أنّا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة وسفّهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئت فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا (له) - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً نراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رثياً - فربما كان ذلك بذلنا (لك)

(١) المشقة والفساد، والهلاك والإثم [النهاية «عنت»] ٣/ ٣٠٦.



أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بى ما تقولون ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل على كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وأن تردوه عليّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم: (١) اهـ»

ولقائل أن يقول - بعد كل هذه العروض التى عرضتها قريش على النبي ﷺ - إن كل هم النبي ﷺ أن يبلغ الدعوة، ويبنى الدولة، وقد لاح له الفرصة لتحقيق ما يريد، والحياة فرص، فلماذا لم ينتهز هذه الفرصة ويصل إلى مقصوده من أقرب طريق؟ ولكن هذا رأى الذى لا ينظر إلا تحت قدميه فقط، أما النبي ﷺ - ببعد نظره، وبفكره الثاقب، وعقله الواعى - لم يقبل هذا الكلام، وتلك سياسة رشيدة للنبي ﷺ فى معالجة هذا الموقف، فالنبي ﷺ لم يكن همه تحقيق مكاسب مادية أو أغراض دنيوية من المنصب والجاه والسلطان، وغيرها ولم يقبل المساومة فى دعوته فى يوم من الأيام.

«فالنبي ﷺ لم يقبل هذه العروض ويتخذها أساسا لقيام الدولة لما يأتى: أولا: إن أية دولة لا تقوم على قاعدة بشرية مؤمنة بها ومخلصة لها تنتهى حيث تبدأ ولن تتمكن من الوقوف منتصبة القامة، وهذه القاعدة لم تتوفر بعد للدولة التى يبتغيها الرسول ﷺ ولذلك رفض رسول الله ﷺ الملك.

ثانيا: إن الدولة بحاجة إلى قاعدة بشرية هي أشد ما تكون إيمانا وأكثر ما تكون إخلاصا وفى الوقت الذى عرض فيه على رسول الله ﷺ الملك لم يكن ﷺ قد أعد الأجهزة الكافية التى يطمئن إليها لإدارة هذه الدولة وتولى أمرها، ولا تقوم دولة

(١) ذكره ابن إسحاق فى السيرة النبوية موضع (ما دار بين رسول الله ﷺ وبين رؤساء قريش وتفسيره لسورة الكهف) (السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٣/١) وذكره ابن كثير فى التفسير ١١٦/٥، ١١٧ طبعة دار مصر للطباعة. وفى البداية والنهاية ٣/٢٠-٥٢ عن ابن إسحاق والكتاب طبعة دار الحديث بالقاهرة الطبعة الخامسة سنة ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

بسواعد من لا يؤمن بها ولا يخلص لها.

ثالثاً: إن قيام الدولة في وسط أعدائها وهي عاجزة عن بسط سلطانها عليهم هي مجازفة بسمعة هذه الدولة، وطالما أن رسول الله ﷺ غير قادر في هذه المرحلة على بسط سلطانه على قريش فمن الخير أن يؤخر قيام الدولة حتى يصبح قادراً على ذلك.

رابعاً: ثم إن رسول الله ﷺ يريد لها دولة من صنعه هو، ومن صنع أبناء الإسلام، لا دولة صنيعة لأعداء الإسلام، ويريد لها رئاسة يصنع المسلمون له عرشها بأيديهم لا رئاسة يكون فيها أجيراً لأعداء الله ومحاربي مبادئه، لأن دولة هذا شأنها لا تستطيع ممارسة سيادتها على الوجه الأكمل، وإقامة مبادئها على الوجه الذي تحب ومن أجل هذا كله رفض رسول الله ﷺ الملك الذي عرضه عليه المشركون<sup>(١)</sup>.

(١) قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ٥١ بتصرف.

### الفصل الثالث

#### الهجرة إلى الحبشة وحق اللجوء السياسي

ويتضمن النقطتين الآتيتين:

- ١ - التخطيط السليم لهجرة الحبشة.
- ٢ - الأهداف التي أرادها النبي ﷺ من هجرة الحبشة.

### الفصل الثالث

#### الهجرة إلى الحبشة وحق اللجوء السياسي

رأى النبي ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء والإيذاء الذي كاد يستأصل شأفتهم، وينهى وجودهم، فأى نار تلك التي كانت توقد في أحشاء المشركين من شدة الغيظ إزاء انتشار الإسلام وازدياد عدد المسلمين! الأمر الذي جعلهم يعملون جاهدين على التفتن في إيذاء المسلمين، لعلهم يصدونهم عن الدخول في دين الإسلام بينما كان النبي ﷺ - على ما وقع به من إيذاء - في رعاية الله وحماية عمه أبي طالب.

ولكن كيف يعيش مستريح البال وقريش تسيم الصحابة سوء العذاب!

لذلك سرعان ما فكر النبي ﷺ في حيلة سياسية تكون حلاً مؤقتاً لحماية أصحابه من الإيذاء وإبعادهم عن التعذيب فأخذ يجول بعقله ويبحث بفكره عن مكان آمن يأمن فيه الصحابة على دينهم وعلى أنفسهم ويمارسون فيه شعائر الدين، ويكونون العلاقات الطيبة ليضيفوا موطناً آخر للإسلام والمسلمين.

وبعد تفكير عميق هداه الله إلى اختيار أرض الحبشة لتكون مهاجر أصحابه قال ابن إسحاق: وحدثني الزبير بن عكاشة بن عبد الله بن أبي أحمد أنه حدث أن رجلاً من بنى مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد: فذكر حديثاً وفيه فقال ﷺ: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»<sup>(١)</sup>

وسرعان ما استجاب الصحابة لأوامر نبيهم ﷺ فخرجوا أفواجاً أفواجا، ولم يخرجوا جميعاً في وقت واحد وكان عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً، وتسع عشرة امرأة خرجوا متسللين في الخفاء حتى لا تشعر بهم قريش فتمنعهم من الهجرة وكان على رأس مهاجري الحبشة عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ والزبير بن

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة النبوية موضوع: ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة [السيرة النبوية لابن هشام

٢٦٦/١] وذكره ابن كثير في البداية والنهاية موضوع هجرة أصحاب رسول الله ﷺ من مكة إلى أرض

الحبشة ١٥/٣.

العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم ﷺ خرجوا تاركين وراءهم الأوطان والأموال فارين بدينهم إلى الله تعالى فوق أجرهم على الله فكان لهم أجران وهجرتان يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن العلاء حدثنا أبو أسامة حدثنا بريد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى<sup>(١)</sup>، ﷺ بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فركبنا سفينة، فألقنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه حتى قدمنا، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر فقال النبي ﷺ: «لكم أنتم يا أهل السفينة هجرتان»<sup>(٢)</sup>

### ١ - التخطيط السليم لهجرة الحبشة:

لم يكن اختيار أرض الحبشة لهجرة المسلمين إليها فكرة طارئة خطرت ببال النبي ﷺ ولم تكن من قبيل المصادفة أو كان الأمر بالهجرة إليها اعتباطاً. ولكنها جاءت نتيجة تفكير سليم وترتيب حكيم للنبي ﷺ.

«لأن قريشاً كانت كلما فشلت في مناهضة الدعوة، وكف رسول الله ﷺ عنها، أمعنت في تعذيب المسلمين وإيذائهم، فلما رأى رسول الله ﷺ ما أصاب أصحابه من البلاء - بينما هو في حفظ الله ورعاية عمه أبي طالب، - وأيقن من عجزه عن حماية أصحابه جمعهم في مجلس عام للتشاور في أمرهم. وكانت أذهان المسلمين قد اتجهت إلى مغادرة مكة فراراً من الإيذاء، وحفاظاً على دينهم. ولكنهم لم يستريحوا إلى بلد يهاجرون إليه، وكان رسول الله ﷺ قد فكر في هذا الأمر طويلاً، وقلبه على جميع وجوهه. فوجد أن مواطن القبائل العربية في الجزيرة لا تصلح لمهاجرة أصحابه لأنهم

(١) هو الصحابي الجليل عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن غنم بن بكر بن عامر بن عذر ابن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر أبو موسى الأشعري مشهور باسمه وكنيته معاً هاجر إلى الحبشة، وقدم المدينة بعد فتح خيبر، واستعمله النبي ﷺ على اليمن واستعمله عمر على البصرة وعثمان على الكوفة ثم كان أحد الحكمين بصفين ثم اعتزل الفريقين مات سنة اثنتين وقيل أربع وأربعين وهو ابن نيف وستين [الإصابة ٤/ ٢١١].

(٢) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار: باب ٣٧ هجرة الحبشة ٨/ ٢٥٣ ح ٣٨٧٦ ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ٤١ باب من فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس، وأهل سفينتهم ﷺ ٨/ ٣٠٣ ح ٢٥٠٣ كلاهما عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

كانوا يرفضون دعوته في مواسم الحج، إما مجاملة لقريش وإما احتفاظاً بدينهم الوثني. كذلك رأى ﷺ أن مواطن أهل الكتاب من اليهود والنصارى في خير ونجران وغيرها لا تصلح لهذا الغرض، لأن كلا من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى، وتنافسها في الفوز الأدبي ببلاد العرب فهما والحالة هكذا - لا تقبلان منافسا ثالثا له مبدأ جديد وعقيدة يبذل نفسه في سبيلها.

ففكر النبي ﷺ في الهجرة إلى اليمن:

ولكنه لم يطمئن إليها لأنها كانت - في ذلك الوقت - مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوى.

وكذلك لم يأمر أصحابه بالذهاب إلى الشام أو الحيرة بالعراق لأمرين أحدهما: بعد هذه الأماكن بعداً شاسعاً عن مكة.

ثانيهما: أن هذه البلاد كانت أسواقاً لتجارة قريش ولهم بها صلة ومصالح متبادلة وزيارات في أوقات منظمة، فإذا علمت قريش بوجود المسلمين في بلد منها، كان من السهل أن تطلب قريش إلى أهل هذا البلد أن يردوهم ويخرجوهم من بلادهم كما حاولوا مع النجاشي وبعد أن استعرض رسول الله ﷺ جميع البلاد المجاورة لم يجد منها ما يصلح لإقامة أصحابه واطمئنناهم على دينهم إلا بلاد الحبشة<sup>(١)</sup>

وهذا يدل على أن النبي ﷺ لم يقع اختياره على أرض الحبشة عبثاً ولكن جاء هذا الاختيار بعد تفكير عميق وترتيب دقيق وبعد دراسة الموقف من جميع وجوهه. وفي اختياره ﷺ لأرض الحبشة بالذات لتكون مهاجر أصحابه دليل على أن رسول الله ﷺ درس الموقف جيداً، وعرف أحوال دول العالم آنذاك، وتبين له من دراسة الموقف أن أنسب مكان للهجرة - في ذلك الوقت - هي الحبشة لأن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد وبذلك يظهر لنا أن رسول الله ﷺ كان يفكر على مستوى دولة ويعمل على مستوى دولة قبل أن تكون له دولة، بينما يظهر لبعض الناس أنه مجرد

(١) في رحاب الهجرة النبوية الشريفة للدكتور: إبراهيم على شعوط ص ٢٩، بتصرف طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مركز السيرة والسنة بالقاهرة ١٤١٠هـ، ١٩٨٩.

محدث أفراد»<sup>(١)</sup>.

## ٢- الأهداف التي أرادها النبي ﷺ من هجرة الحبشة:

كانت هناك أهداف سعى النبي ﷺ لتحقيقها من خلال أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

أولاً: البحث عن مكان آمن يأمن فيه المسلمون على دينهم وعلى أنفسهم ويستطيعون تأدية شعائر الإسلام فيه بحرية تامة.

ثانياً: البحث عن مكان آمن لدعوة الإسلام، وإقليم للدولة الإسلامية وقد ثبت أن مكة لا تصلح أن تكون ذلك المكان ولا ذلك الإقليم للدولة الإسلامية آنذاك.

ثالثاً: وأن يقوم بدراسة الحبشة دراسة ميدانية ويعرف مدى صلاحيتها وذلك بواسطة من هاجر إليها من المسلمين والدليل على ذلك أن مهاجري الحبشة الذين دفع بهم رسول الله ﷺ إليها كانوا من أصحاب الرأي الحصيف، والنظر الثاقب، والعقل الواعي وكانوا من أشرف قريش من أمثال عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وهؤلاء لهم مقدرة فائقة على دراسة أحوال البلاد والعباد.

رابعاً: شرح قضية الإسلام وبيان شعائر الدين، وحقيقة الإيمان وبيان موقف قريش العنيد من الإسلام ودعوته وإقناع الرأي العام بعدالة قضية الإسلام، وسمو مبادئه، مثلما تفعل الدول في هذه الأيام من تحرك سياسى بقصد شرح قضاياها وكسب الرأي العام العالمى لصالحها<sup>(٢)</sup>.

ومما سبق يتبين لنا مدى التوفيق الذى حالف النبي ﷺ ومدى المكاسب التى حققها من الهجرة إلى الحبشة بفضل الله ثم بفضل حسن سياسته وبعد نظره وتقديره السليم للأمور.

(١) قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ٥٧ بتصرف.

(٢) كتاب السيرة النبوية دراسة تحليلية د. محمد عبد القادر أبو فارس ص ١٥٠. بتصرف.





## الفصل الرابع التمهيد لبناء الدولة الإسلامية خارج مكة ببيعتي العقبة الأولى والثانية

ويتضمن النقطتين الآتيتين:

- ١ - بيعة العقبة الأولى على التوحيد.
- ٢ - بيعة العقبة الثانية على النصر.

## الفصل الرابع

### التمهيد لبناء الدولة الإسلامية خارج مكة ببيعتى العقبة الأولى والثانية

مهد النبي ﷺ لقيام الدولة الإسلامية في المدينة، فبايع أهلها قبل أن يصل إليها، وأخذ عليهم العهود والمواثيق قبل أن ينتقل إليهم والمعلوم أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج لعله يجد رجلاً يحمل به إلى قومه فيبلغ عن الله ما أرسله به وكانت بعض القبائل تؤمن بالمبادئ التي يدعو إليها النبي ﷺ إلا أنها كانت تتحرج من أن تحمله إلى ديارها لأنه كان يدعوهم إلى التوحيد ويشترط عليهم النصرة والمنعة، فإذا ما انتقل إليهم، فعليهم أن يمنعوهم مما يمنعون منه أبناءهم وعشيرتهم، وعليهم أن ينصروه على كل من أراد به سوءاً وعلى ذلك فهم بمقتضى حمله إلى ديارهم مستعدون لحرب الأحمر والأسود ولأن ترميهم العرب كلها عن قوس واحدة.

وكيف يقبل هذه المخاطرة من لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه!

كيف يقبلها من ليس عنده إيمان راسخ، وقلب صادق، ويقين ثابت!

فمعظم القبائل لا تزال حديثة العهد بالإسلام، لم تتأثر به فضلاً عن أن تضرب بسيفه، وتتكلم بلسانه، وتدافع عنه بكل ما تملك فعندما اتصل النبي ﷺ ببني عامر بن صعصعة، وأراد منهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه، وافقوا في بداية الأمر، وهموا أن يبايعوه، إلا أن أحد رجالهم وهو (بيحرة بن فراس القشيري)، نظر إلى عواقب هذه المبايعة وما يترتب عليها من تبعات، فمنع قومه من مبايعة النبي ﷺ وحمله إلى ديارهم وقال لهم: « ما نعلم أحداً من أهل هذا السوق يرجع بشئ أشد من شيء ترجعون به، بدأنتم لتنابدوا الناس، وترميكم العرب عن قوس واحدة، قومه أعلم به، لو أنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به، أتعمدون إلى زهيق<sup>(١)</sup>، طرده قومه وقد

(١) الهالك أو الذي يرمى ولا يصيب هدفه [النهاية «زهق» ٢/ ٣٢٢ بتصرف].

كذبوه، فتؤونه وتنصرونه؟ فبئس الرأى ما رأيتم»<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان حال معظم القبائل:

ولذلك رأى النبي ﷺ أنه من السياسة أن يطوى مطلب النصر والمنعة مؤقتاً إلى أن تتشرب القلوب الإيمان ويخالط وجدانها وتشعر بحلاوته. فاكتمى النبي ﷺ بالدعوة إلى التوحيد، وعمل على تعميق الإيمان بالله الواحد في قلوب الناس، وإلى نبذ عبادة ما سواه، ووطى مطلب النصر مؤقتاً، لأنه كيف يطلب من الناس أن ينصروه ويعادوا قريشاً من أجله، أو من أجل دينه ودعوته التي لم تدخل في قلوبهم بعد؟ فصرف النبي ﷺ كل همه وهمته إلى الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده وعمل على ترسيخ ذلك في قلوب الناس، وفي وسط هذا الإعراض والنكول ظهرت بارقة من الأمل وفي موسم العام الحادى عشر من البعثة الموافق ستمائة وعشرين من الميلاد خرج النبي ﷺ كعادته يقدم دعوته لقبائل العرب كما كان يفعل، وبينما هو عند العقبة بين منى ومكة قابل رهطاً من الخزرج - سكان يثرب فتحدث إليهم وعرض عليهم دعوة الإسلام فقد جاء في سيرة ابن إسحاق: أن النبي ﷺ تقابل مع وفد من الخزرج في موسم الحج في العام الحادى عشر من البعثة عند عقبة منى فقال لهم ﷺ: «(من أنتم؟) قالوا: من الخزرج قال: «أمن موالى يهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلمكم»، قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله ﷻ وعرض عليهم الإسلام وتلى عليهم القرآن ولم يشترط عليهم منعة ولا مناصرة فسرعان ما بادروا بتصديقه وعاد هؤلاء - الستة - إلى المدينة يذكرون رسول الله ﷺ ودعوته إلى الإسلام، حتى لم تبق داراً من دور الأنصار إلا وفيها ذكر عن رسول الله ﷺ.

#### ١ - بيعة العقبة الأولى على التوحيد:

وفي العام التالى - الثانى عشر من البعثة (الموافق إحدى وعشرين وستمائة من الميلاد) جاء إلى الموسم اثنا عشر رجلاً من الأنصار وتقابلوا مع النبي ﷺ عند العقبة

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ١٦١، ١٦٢ بتصرف طبعة مطبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ

وبايعوه على غرار بيعة النساء<sup>(١)</sup>، وقد أخرج الإمام البخارى. حديثاً ذكر فيه شروط هذه البيعة:

قال: حدثني إسحاق بن منصور أخبرنا يعقوب ابن إبراهيم حدثنا ابن أخي ابن شهاب عن عمه قال: أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله «أن عبادة بن الصامت<sup>(٢)</sup> - من الذين شهدوا بدرًا مع رسول الله ﷺ ومن أصحابه ليلة العقبة - أخبره أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، قال: فبايعناه على ذلك»<sup>(٣)</sup>

ولما تمت المبايعة على التوحيد، وآن أوان انصراف الأنصار إلى المدينة، بعث النبي ﷺ معهم الصحابي الجليل «مصعب بن عمير»<sup>(٤)</sup> ليعلمهم الإسلام، ويدعو

(١) على بيعة النساء: أى على الأمور التي ذكرت خاصة ببيعة النساء لأنها تشبهها من كل الوجوه. ولم يكن القتال قد أذن فيه بعد، وهذه البيعة - بيعة النساء - جاء ذكرها في قول الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرُكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهَاتٍ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الممتحنة آية ١٢].  
(٢) هو الصحابي الجليل عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عمرو ابن عوف بن الخزرج الأنصاري الخزرجي أبو الوليد شهد بدرًا وكان أحد النقباء بالعقبة وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي مرثد الغنوي وشهد المشاهد كلها بعد بدر ومات بالرملة سنة أربع وثلاثين [الإصابة ٣/ ٦٢٤].  
وانظر سيرة ابن هشام ٤١/٢

(٣) أخرجه البخارى في كتاب مناقب الأنصار ٤٣ باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة ٧/ ٢٧٣ ح ٣٨٩٢ والنسائي في كتاب البيعة باب البيعة على فراق المشرك ٧/ ١٤٧، ١٤٨ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الجراح ١ باب قبل الولدان ٨/ ١٨ ح ١٥٨٤٢ جميعهم عن عبادة بن الصامت .

(٤) هو الصحابي الجليل مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي بن كلاب العبدري أحد السابقين إلى الإسلام ويكنى أبا عبد الله أسلم قديماً والنبي ﷺ في دار الأرقم، وكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه فعلمه عثمان بن طلحة فأعلم أهله فأوثقوه فلم يزل محبوساً إلى أن هرب مع من هاجر إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة فهاجر إلى المدينة وشهد بدرًا ثم شهد أحدًا ومعه اللواء فاستشهد [الإصابة ٦/ ١٢٣].

الناس إليه وليفقه المسلمين في الدين، ويقرءهم القرآن، ويؤمهم في الصلاة. ومكث مصعب بن عمير عامًا كاملاً يدعو الناس برفق وأناة وحكمة إلى التوحيد ويعمق الإيمان في قلوب المؤمنين، ويغرس فيهم الفداية.

وفي العام التالي رجع سفير الإسلام الأول، مصعب بن عمير إلى مكة قبل موسم الحج في العام الثالث عشر من البعثة (الموافق لستمائة واثنين وعشرين من الميلاد) ووفد معه من أسلم من الأنصار، جاءوا مستخفين مع حجاج مكة من أهل الشرك فكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين أو سبعين رجلاً وامرأتين كما جاء في رواية الإمام أحمد.

## ٢ - بيعة العقبة الثانية على النصر:

ولما وصل هذا العدد من مسلمي الأنصار إلى مكة للحج وأرادوا مقابلة النبي ﷺ رأى ﷺ أنه من السياسة أن يتحرك بسرية تامة لئلا ينكشف أمر تحركه فتفسد خطته، ولذلك واعد الأنصار للاجتماع بهم وأخذ البيعة منهم عند العقبة، ولزيادة من الأخفاء والتعمية على المشركين اتفق النبي ﷺ مع الأنصار أن يقابلوه حين يمضي ثلث الليل، من ثانی أيام التشريق قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب قال ثنا أبي إسحاق قال فحدثني كعب بن مالك<sup>(١)</sup>، بن أبي القين أخو بنی سلمة أن أخاه عبد الله بن كعب وكان من أعلم الأنصار حدثه أن أباه كعب بن مالك وكان كعب ممن شهد العقبة وباع رسول الله ﷺ بها قال: فذكر حديثاً طويلاً وفيه: ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق: فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه، وقلنا له يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون

(١) هو الصحابي الجليل كعب بن مالك بن أبي بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد ابن علي بن أسد بن ساردة أبو عبد الله الأنصاري السلمي شهد العقبة وباع بها وتخلف عن بدر، وشهد أحدًا وما بعدها، وتخلف في تبوك، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، ومات ﷺ أيام قتل علي بن أبي طالب [الإصابة ٥/ ٦١٠].

حطباً للنار غداً، ثم دعوته إلى الإسلام، وأخبرته بميعاد رسول الله ﷺ، فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً قال: فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل مستخفين تسلل القطا<sup>(١)</sup>، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن سبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائهم نسيبة بنت كعب أم عمار، إحدى نساء بنى مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن ثابت إحدى نساء بنى سلمة، وهى أم منيع قال فاجتمعنا بالعشب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه يومئذ عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له<sup>(٢)</sup>.

أ- النبى ﷺ يطلب من الأنصار أن يخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ليكلّمهم، ويكلّموه:

ولما وجد النبى ﷺ أن العدد كثير والجمع غفير رأى أنه من السياسة والحكمة في التعامل مع هذا الموقف أن يخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ليتحدث إليهم فقال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلي منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس<sup>(٣)</sup>، فليس من الحكمة أن يوجه الكلام إلى كل هذا الجمع، إذ من المحتمل أن يكون بين هؤلاء الأعداد الكثيرة من لا يعنى تمام الوعي أبعاد كلام رسول الله ﷺ، فيكثر النقاش وترتفع الأصوات ويفسد الأمر بسببه، كما أنه ﷺ كان لابد أن يستمع إلى رأى من يريد أن يدلى برأيه أو يقول شيئاً، ولو فعل ذلك لطال المقام لأن الجمع غفير والأمر لا يحتمل التطويل، لأن ما أراه النبى ﷺ من هذه المبايعة يجب أن يتم بسرعة لئلا ينتبه المشركون إلى هذا الاجتماع فيفسدوا عليه الأمر فلهذا وغيره رأى النبى ﷺ أنه من الحكمة أن يتكلم مع النقباء فقط، وتلك سياسة رشيدة للنبي ﷺ لأنه أراد أن يحيط أمر هذا الاجتماع بسياج من السرية والكتمان.

(١) القطا: طائر معروف سمي بذلك لثقل مشيه، واحده قطاه (اللسان «قطا») (٥/ ٣٦٨٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٦١/٣ والطبرانى في الكبير ١٩: ٨٧ - ٩٠ رقم ١٧٤ كلاهما عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٣) جزء من الحديث السابق.

وتمكن النبي ﷺ من اللقاء مع الأنصار وتفاوض معهم، وبايعهم ونجحت المبايعة، وبدأت وانتهت دون أن يشعر بها أحد من المشركين، لأنها نفذت نتيجة تخطيط عميق وتنفيذ دقيق. ولقد ظهر هذا التخطيط المحكم من النبي ﷺ من خلال اختيار المكان المناسب (وهو الشعب الأيمن من العقبة بعيداً عن الأعين وعن أنظار من يستيقظ من النوم لحاجة) وزمن الانطلاق المناسب إلى المكان المتفق عليه، وذلك بعد ثلث الليل في الليلة الأخيرة من ليالى الحج ولا شك أن جموع الحجيج في ذلك اليوم كانوا قد أنهكهم التعب بعد الانتهاء من المناسك وخضعوا لنوم عميق، وثمة خطة راشدة أخرى في اختيار آخر ليلة من ليالى الحج بالذات حيث سيرجع الحجاج إلى بلادهم صباح اليوم التالي لهذه البيعة، فعلى فرد انكشاف أمر هذه البيعة فستضعف الفرصة أمام قريش في إعاقه أمر هذه البيعة أو اعتراضها أو الحيلولة دون تطبيقها بإلحاق الضرر بأهلها أو تحزيب الأحزاب ضدها، لأن كل من بايع ومن لم يبايع مشغول في ذلك اليوم بعودته إلى وطنه ورجوعه حيث كان وهذا ما كان. ، كما يتجلى لنا حسن سياسة النبي ﷺ في كيفية الوصول إلى المكان المتفق عليه، والسرية في مداورات اللقاء، وكتماها عن الآخرين فلم يشعر بها أحد رغم كثرة عدد المشركين وحرصهم على إفشال كل حركة لتقدم دعوة الإسلام، وكذلك السرية في الانصراف، وكون المخطط ﷺ والمنفذين في غاية الحرص على تحقيق أهدافهم، دون وقوع أية خسائر، وكذلك حيلولتهم دون وجود أى معوقات تفسد أمرهم، أو تحول دون تنفيذه.

#### ب- شروط بيعة العقبة الثانية، وملامح قيام الدولة الإسلامية:

بعد أن بايع النبي ﷺ الأنصار في البيعة الأولى على التوحيد حتى يرسخ الإيمان في قلوب الناس، بايعهم في البيعة الثانية على النصرة والمنعة والحماية للنبي ﷺ وأصحابه فور انتقاله إليهم، فالإنسان بفضل إيمانه الثابت وبقينه الصادق وعقيدته الراسخة، يستطيع أن يضحي بنفسه وأمواله ووطنه من أجل عقيدته، ويقاوم كل من وقف في طريق دعوته التي يؤمن بها دون أن يخشى في الله لومة لائم.

«وبهذه البيعة أخذت خيوط من نور تظهر في الأفق السياسي، تشير إشارة غير خفية للمخطط السياسي للرسول ﷺ، في كونه لا يهدف بالهجرة من مكة إلى المدينة التخلّص من العذاب والاستهزاء، ولكنه يهدف إلى إقامة مجتمع جديد في بلد آمن

تشرف عليه وتنظمه دولة تستمد نظامها من الله - تلك هي دولة الإسلام - واشترط النبي ﷺ على أهل المدينة عدة شروط ليأخذ حيطة ويستوثق لنفسه، فأمر الانتقال إلى المدينة ليس سهلاً، ولكنه نقطة تحول كبرى في حياة جماعة الإسلام، والتي مهد لها بيعتي العقبة الأولى والثانية بهدف تكوين موطن ثان آمن للإسلام والمسلمين يأمنون فيه على أنفسهم، وأموالهم، وذرائعهم.

قال ابن إسحاق (وكانت لبيعة الحرب، حين أذن الله لرسوله ﷺ في القتال شروطاً سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى، كانت الأولى علىبيعة النساء، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة<sup>(١)</sup>) ويقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن خثيم عن أبي الزبير عن جابر... فذكر حديثاً طويلاً وفيه. فرحل إليه من سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا يا رسول الله نبايعك قال تباعونى على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة فقمنا إليه فبايعناه<sup>(٢)</sup>.

ويقول الإمام مسلم رحمه الله: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عبد الله بن إدريس عن يحيى بن سعيد وعبيد بن عمر عن عباد بن الوليد بن عباد عن أبيه، عن جده قال بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره وعلى

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة: موضوع: شروط البيعة في العقبة الأخيرة (السيرة النبوية لابن هشام) ٦١/٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/٣٢٢ عن جابر بن عبد الله ﷺ وأخرجه بالفاظ متقاربة الإمام البخاري في الصحيح كتاب الأحكام ٤٣ باب كيف يبايع الأمم الناس ١٣/٢٣٣ ح ٧١٩٩ والإمام مسلم في الصحيح كتاب الإمارة ٨ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ٦/٤٦٨ ح ١٧٠٩ والإمام النسائي في السنن كتاب البيعة باب البيعة على السمع والطاعة ٧/١٣٧ وابن ماجه في السنن كتاب الجهاد ٤١ باب البيعة ٢/٥٣٦ ح ٢٨٦٦ جميعهم عن عبادة الله.



أثره<sup>(١)</sup>، علينا وعلى أن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم<sup>(٢)</sup>.

وسرعان ما استجاب الأنصار للنبي ﷺ وأعلنوا عن قبولهم لبنود البيعة وشروطها، وكان البراء بن معرور<sup>(٣)</sup>، أشد الناس حماساً فكان أول من أخذ بيد النبي ﷺ وقال: «نعم، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أزرنا<sup>(٤)</sup>، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة<sup>(٥)</sup>، ورثناها كابراً عن كابر، قال فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان<sup>(٦)</sup>، حليف بنى عبد الأشهل فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبلاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم

(١) من أثر يؤثر إثاراً إذا أعطى والمعنى: يؤثرونه على أنفسهم (النهاية «أثر») ٢٢/١ بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ٨ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ٦/٤٦٨ ح ١٧٠٩ وأخرجه بنحوه البخاري في كتاب الأحكام ٤٣ باب كيف يبايع الإمام الناس ١٣/٢٣٣، ٢٣٤ ح ٧١٩٩، ٧٢٠٠ والنسائي في كتاب البيعة باب البيعة على السمع والطاعة ٧/١٣٧ وابن ماجه: في كتاب الجهاد: ٤١ باب البيعة ٢/٥٣٦، ح ٢٨٦٦ - والإمام مالك في كتاب الجهاد باب الترغيب في الجهاد ١/٣٥٧ والكتاب طبعة دار الحديث بالقاهرة، الطبعة الرابعة سنة ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م ٢٨٦٦ والإمام أحمد في المسند ٣/٤٤١، ٥/٣١٦ جميعهم عن عبادة ﷺ.

(٣) هو الصحابي الجليل البراء بن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة ابن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصاري الخزرجي السلمي أبو بشر كان من النفر الذين بايعوا البيعة الأولى بالعقبة وهو أول من بايع وأول من استقبل القبلة، مات ﷺ قبل الهجرة فوجه قبره إلى الكعبة وكان قد أوصى لرسول الله ﷺ فقبل وصيته ثم ردها على ولده وصلى عليه - يعني على قبره - وكبر أربعاً، [الإصابة ١/٤٨٢].

(٤) أي نساءنا وأهلنا، كنى عنهم بالأزر. وقيل: أراد أنفسنا وقد يكنى عن النفس بالإزار (النهاية «أزر») ١/٤٥.

(٥) الحلقة: بسكون اللام: السلاح عاماً وقيل: هي الدروع خاصة (النهاية «حلق») ١/٤٢٧.

(٦) أبو الهيثم: مالك بن التيهان بن بكر بن عمرو بن الحاف بن قطاعة الأنصاري حليف بنى عبد الأشهل. قال الواقدي: كان أبو الهيثم يكره الأصنام في الجاهلية ويؤثر بها ويقول بالتوحيد هو وأسعد بن زرارة، وكان من أول من أسلم من الأنصار بمكة ويجعل في الثمانية الذين لقوا رسول الله ﷺ بمكة ويجعل في السنة وفي أهل العقبة الأولى الاثنى عشر آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون، شهد بدرًا والمشاهد بعدها (سير أعلام النبلاء ١/١٨٩) طبعة مؤسسة الرسالة بيروت.

رسول الله ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم<sup>(١)</sup>، الهدم أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»<sup>(٢)</sup>

قال ابن هشام: ويقال: الهدم الهدم (يعنى الحرمة): أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم<sup>(٣)</sup>، ومن شدة حماس المبايعين القليلي العدد للنبي ﷺ إزاء عدد المشركين في العالم في ذلك الوقت قالوا للنبي ﷺ: لئن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا، فقال: «لم أؤمر بذلك، ارجعوا إلى رحالكم»<sup>(٤)</sup>.

### ج- النبي ﷺ يحمل النقباء المسئولية:

ولزيادة من التوثيق وإبداء الجدية في الأمر، حمل النبي ﷺ النقباء مسئولية قومهم، إذا رجعوا إليهم، بحيث تكون البيعة سارية على من آمن من الأنصار سواء حضر البيعة أم لم يحضر. قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي»<sup>(٥)</sup>، - يعنى المسلمين - قالوا: نعم «وهكذا كانت بيعتا ((العقبة)) مهذا مريخاً في مسيرة الدعوة الإسلامية وكانت نقطة تحول رشيدة، بدأت بهما الدولة الإسلامية، فحمل المسلمون دعوتهم وفروا بها حاملين مبادئ الإسلام وتعاليمه السامية إلى المدينة فكان في الهجرة حياة فعلية، وأخذت تتحول المبادئ النظرية إلى أعمال، بعد أن توفر لها

(١) سبق تخريجه.

(٢) الهدم بالتحريك: القبر يعنى إنى أقبر حيث تقبرون وقيل هو المنزل أى منزلكم منزلى أى لا أفارقكم والهدم بالسكون وبالفتح أيضاً: هو إهدار دم القتيلى يقال: دماؤهم بينهم هدم: أى مهدرة والمعنى. إن طلب دماؤكم فقد طلب دمي، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي لاستحكام الألفة بيننا، وهو قول معروف للعرب يقولون: دمي دمك وهدمي هدمك، وذلك عند المعاهدة والنصرة [النهاية «هدم» ٥/٢٥١].

(٣) السيرة النبوية لابن هشام. موضوع عهد الرسول الله ﷺ على الأنصار ٥١/٢.

(٤) البداية والنهاية ٣/١٦٤ / سيرة ابن هشام ٥٦/٢.

(٥) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع نقباء الأوس (السيرة النبوية لابن هشام ٥٤/٢، ٥٥ وأورده الطبري في تاريخه ٢/٣٦٣ ط دار المعارف وذكره ابن كثير في البداية والنهاية في موضوع (قصة بيعة العقبة الثانية ٣/٢٠٦ وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ذكر النقباء الاثنى عشر رجلاً الذين اختارهم رسول الله ﷺ من الأنصار ليلة العقبة بمنى ٣/٤٥٢ بسند فيه الواقدي عن محمود بن لبيد.

الموطن والسيادة والحرية وضمت عناصر جديدة، وتنفس المسلمون الصعداء، وآن لهم أن يتخلصوا مما كانوا فيه من ويلات وبلاء وضيق<sup>١</sup> والذى يطالع تاريخ هؤلاء الثلاثة والسبعين الذين بايعوا النبي ﷺ في العقبة الثانية على المنعة والنصرة يعلم أنهم صدقوا في وعودهم وكانوا بجوار النبي ﷺ في جميع غزواته فكان منهم قرابة السبعين في غزوة بدر واستشهد قرابة ثلثهم في حياة النبي ﷺ ومنهم من بقى حتى شارك في الفتوحات الإسلامية بعد وفاته ﷺ حتى إن المبايعات من النساء وهن نسيبة بنت كعب (أم عمار) فكان من أمرها أنها كانت تسقى المسلمين في غزوة أحد مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب، فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ فكانت تبشر القتال وتذب عنه بالسيف وقد أصيبت بجراح عميقة وشهدت بيعة الرضوان، وشهدت معركة اليمامة في حروب الردة مع خالد بن الوليد فقاتلت حتى قطعت يدها وجرحت اثنا عشر جرحا وقطع مسيلمة الكذاب ابنها إرباً إرباً فما وهنت وما استكانت.

وكذلك أسماء ابنة عمرو فقد بليت في الإسلام أعظم البلاء<sup>(١)</sup>.

لقد أذن الله ﷻ لشمس الإسلام أن تشرق نقية صافية فقد هيا للمسلمين مكانا آمنا يمارسون فيه عبادتهم، ويقيمون دولتهم، ويؤدون شعائرهم ويبنون مجتمعهم بكل الأمن والأمان<sup>(٢)</sup>.

وعلى ذلك فبعيتا العقبة كانتا خير استهلال لقيام الدولة الإسلامية وسط جماعة آمنت بمبادئها وعقدت العزم على بذل كل ما في وسعها في سبيل قيام هذه الدولة والحفاظ عليها وأنبأتا عن مخطط سياسى رشيد للنبي ﷺ كان هدفه التمهيد لقيام دولة الإسلام.

(١) انظر الإصابة لابن حجر ٨/ ١٤٠ / أسد الغابة ٥/ ٣٩٥ / سيرة ابن هشام ٢/ ٨٠.

(٢) من مقال بعنوان «الهجرة النبوية الشريفة مقدماتها، أحداثها وشئ من مغزاها للدكتور/ عبد الله محمد جمال الدين في مجلة منبر الإسلام الصادرة عن وزارة الأوقاف المصرية والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية السنة (٥٨) العدد (١) المحرم ١٤٢٠ إبرایل مايو ١٩٩٩ (ص) ٥١ بتصرف.

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

## الفصل الخامس الهجرة تخطيط وتنظيم

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - التخطيط الدقيق للهجرة واختيار أنسب الأماكن.
- ٢ - دراسة ميدانية لموقع المدينة المنورة.
- ٣ - دقة التخطيط النبوي للهجرة.
- ٤ - جوانب التخطيط الصحيح والتدبير الحكيم من النبي ﷺ لإنجاح الهجرة.
- ٥ - السرية عامل مهم في نجاح خطة الهجرة.
- ٦ - الهجرة نقطة تحول كبرى في حياة المسلمين.

## الفصل الخامس

### الهجرة تخطيط وتنظيم

لم تكن هجرة النبي ﷺ هروباً أو ضعفاً أو خذلاناً، ولم تكن تغييراً في الموقف وإنما كانت تغييراً في الموقع ولم تكن فراراً وانكساراً ولكنها كانت عزاً من الله وانتصاراً. كما أنها لم تكن خوفاً لأن النبي ﷺ كان لا يهاب أحداً إلا الله، يدل على ذلك طمأننته ﷺ لأبي بكر حينما كان يخشى رؤية المشركين لهما وهما في الغار، قال الإمام البخاري: حدثنا محمد بن سنان حدثنا همام عن ثابت عن أنس عن أبي بكر ﷺ قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما<sup>(١)</sup> وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم هذه القصة فقال تعالى ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

«ولكنه لم يكن هناك بد وقد أفرغت قريش كل ما في جعبتها من التنكيل والإيلام والأذى والمطاردة والصد، والإعراض، من أن يترك محمد ﷺ هو ومن كان معه من المسلمين مكة بعد أن أصبحت الحياة فيها مليئة بالقلق والاضطراب والمطاردة والخوف، والعنت والإرهاق والكيد والتعذيب لكن كيف يقدم على ذلك أو يفكر فيه؟ وهم لا يغمضون أعينهم عنه. كأنما كانوا موكولين بحراسته، إذا نام أو استيقظ أو تحرك أو سكن أو نطق أو سكت أوراخ أو بعد.

حتى البيت الذي يأوى إليه لا يفوتهم أن يعرفوا إن كان يحتويه أو خالياً منه، ينظرون من فرجة منه ليروه ملتفاً ببرده الحضرى الأخضر مستغرقاً في النوم، فإذا لم يكن على مقربة منهم، وفي الأمكنة التي يعهدونها ثارت نفوسهم، واختل توازنهم، وأخذوا يبحثون عن مكانه، ليطمئنوا على أنه في قبضة أيديهم، وفي مناطق نفوذهم، لهذا كان من الصعب عليه أن يختفى عنهم، أو يغيب عن أعينهم، أو لا يكون لهم علم

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب: مناقب المهاجرين وفضلهم ١١/٧ ح ٣٦٥٣ عن أبي بكر ﷺ.

بمكان وجوده، وكل واحد منهم يراقب داره، ومناطق تحركه ومجالات نشاطه لبث دعوته، وإعلان دينه، وهذا هو السر في أنه لم يخرج إلى البلاد المجاورة طيلة هذه المدة التي أقامها بينهم مع ما كانوا يصنعونه معه، وقد هاجر المسلمون إلى الحبشة فرارًا بدينهم، لكنه لم يخرج معهم، وربما كان في خروجه غنم له وللدعوة التي ينادي بها، إلا أن هذا البقاء الذي كان على غير رغبته كان خارجا عن إرادته ولو استطاعه لبادر إليه على الرغم من أن فراقه لمكة لم يكن يسيرا عليه، أو مما تقرّبه عينه، لأنها مجال صباه، ومراد طفولته، وموطن أهله وعشيرته ولهذا فإن الظروف التي ساعدته على أن يفارقها لم تتح له إلا بعد تفكير طويل ودراسة واعية، وتخطيط دقيق، شارك فيه مجموعة من الناس كان لكل منهم فيه دوره الجاد، وجهده المشكور<sup>(١)</sup>.

#### ١ - التخطيط الدقيق للهجرة واختيار أنسب الأماكن:

أخذ النبي ﷺ يبحث عن مكان آمن يكون موطنًا للدعوة الإسلامية تورق فيه وتعطي أفضل ثمارها. ففكر أولاً هل يستقر في مكة ويحاول إصلاح فساد أهلها؟ ولكنه بعد تفكير طويل.

(استقر في روعه ﷺ أن مكة لا تصلح أن تكن محضًا للدعوة الإسلامية ولا إقليمًا لدولة الإسلام المرتقبة، فقد وقفت مكة قيادة وقاعدة تتصدى للرسول ﷺ وتعوق عمله الدعوى وتتصدى لكل مسلم يعتنق الإسلام بالتنكيل والمطاردة والأذى لقد وقف أقرب الناس إلى الرسول ﷺ - وهو عمه أبو لهب - يكذبه ويصد الناس عن دينه، ويشوه سمعته، ووقفت سائر القبائل في مكة نفس موقف أبي لهب لعنه الله وتبت يده، أما عدد الذين استجابوا لدعوته من مكة، فكانوا قلة مستضعفين، فكان لابد أن يبحث عن أرض غير أرض مكة تصلح أن تكون إقليمًا للدولة وموطنًا للدعوة.

وسرعان ما فكر النبي ﷺ في مكان آخر لكي يهاجر إليه هو وصحابته ووقع

(١) من مقال للدكتور/ إبراهيم على أبو الخشب في مجلة منبر الإسلام ص ٥٩ بتصرف العدد ١ السنة ٥٨ شهر المحرم ١٤٢٠ إبريل مايو ١٩٩٩ م وهي صادرة عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

اختياره على الحبشة ولكنه بعد تفكير طويل ودراسة متأنية وجد أن الحبشة لا تصلح أن تكون موطنًا لدولة الإسلام الوليدة وذلك لما يأتي:

أولاً: لبعدها المسافة بعداً شاسعاً بين مكة وأرض الحبشة والنبي ﷺ أراد أن يهاجر إلى بلد قريب من مكة التي فيها بيت الله الحرام.

يقول ابن حجر: أرض الحبشة بالجانب الغربي من بلاد اليمن ومسافتها طويلة جداً<sup>(١)</sup>.

ولبعد مسافتها عن مكة عدل النبي ﷺ عنها إلى غيرها:

ثانياً: النظام الحاكم في الحبشة نظام ملكي ضعيف وغير مستقر ولا سيما بين النجاشي الحاكم وبين مخالفه من أسرته الحاكمة الذين ينازعونه الملك وقد وصل هذا النزاع إلى حد القتال، ولقد عانى المسلمون من هذه الحالة القلق والاضطراب وكانت ساعات حرجة لأنها تقرر مصيرهم.

ثالثاً: إن الملك، وإن كان حاكماً على الحبشة لم يكن قد بسط نفوذه على الناس، ولم يكن ليجرؤ على إعلان عقيدته وإيمانه، بل كان ينكر ذلك بلسانه حينما يسأل عن ذلك ولم يعلم المسلمون بإسلامه في المدينة إلا يوم موته عن طريق الرسول ﷺ حين نعه إلى المسلمين وصلى عليه صلاة الجنازة. إن حاكماً لم يجرؤ على إعلان عقيدته أمام شعبه لا يصلح أن يحول هذا البلد إلى إقليم للدولة الإسلامية ولا موطناً لدعوتها ولا يستطيع أن يسير الجيوش لخدمتها وحرية نشرها والمحافظة على دعائها. رابعاً: إن للبطارقة<sup>(٢)</sup>، نفوذاً ملموساً في الدولة وهذا النفوذ يعادى الإسلام ويعادى التوحيد، بل هو متضامن مع المشركين.

خامساً: إن شعب الحبشة لم يقبل الإسلام على الرغم من وجود عشرات الدعاة بل بقي على عاداته واعتقاداته وقيمه لم يتغير، والتاريخ لم يخبرنا أن هذا العدد الضخم من المسلمين الذي استقر في الحبشة خمسة عشرة عاماً، من العام الخامس

(١) فتح الباري ٧/٢٣٦.

(٢) البطريق: هو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم، وهو ذو منصب وتقدم عندهم [النهاية «بطريق» ١/١٣٥].



للبعثة وحتى فتح خيبر في العام السابع من الهجرة أنه قد أثر في أهل الحبشة، ودخل الإسلام عن طريقه بعدد أعضائه<sup>(١)</sup>.

ومما سبق يتضح لنا مدى الدراسة العميقة من النبي ﷺ لمجريات الأمور داخل بلاد الحبشة ومدى الجدية والاهتمام في البحث والتنقيب عن أنسب الأماكن لتكون قاعدة صلبة لدولة الإسلام.

### التفكير في الهجرة إلى اليمن:

ولمزيد من البحث الدؤوب والتفكير الطويل في اختيار مكان مناسب للدولة الإسلامية، فكر النبي ﷺ في الهجرة إلى اليمن، وبعد دراسة متأنية للموقف والموقع رأى النبي ﷺ أن اليمن أيضًا لا تصلح للهجرة إليها.

لأنه لما دعاهم إلى الإسلام لم يستجيبوا له ولكنهم ردوا عليه رادًا قبيحًا فضلًا عن أن اليمن كانت مستعمرة للفرس التي لا تعترف بإله ولا تدين بدين سماوى فهى والحالة هكذا لا تصلح لأمر الهجرة.

### التفكير في الهجرة إلى بنى عامر بن صعصعة

وبعد ذلك اتصل النبي ﷺ ببني عامر بن صعصعة يطلب منهم النصرة والمنعة فوافقوا في بادئ الأمر، وبينما هم جالسون مع النبي ﷺ أتاهم ببحرة بن فراس القشيري، ومنعهم من معاهدة النبي ﷺ على النصرة والمنعة وقال لهم إنكم بذلك بدأتُم لتنابدوا الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة<sup>(٢)</sup>، فامتنعوا عن نصرته وعاملوه معاملة قاسية.

ولاشك أن هذه القبيلة بعد الذى حدث منها لا تصلح أن تكون أرضها موطنًا آمنًا للدعوة ولا إقليمًا تقام عليه الدولة.

(١) السيرة النبوية دراسة تحليلية ص ١٥٥ بتصرف.

(٢) ينظر السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ١٦١، ١٦٢.

### الطائف لا تصلح أن تكون داراً للهجرة:

فالتجأ النبي ﷺ إلى الطائف يطلب من أهلها المنعة والنصرة حتى يبلغ عن الله ما أرسله به.

إلا أن أهل الطائف كانوا أشد قبحاً وإيذاء للنبي ﷺ من غيرهم فشتموه بأقذع الألفاظ وسلطوا غلمانهم وأطفالهم فرموه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان فهي والحالة هكذا لا تصلح أن تكون مكاناً مناسباً تبني فيه دولة الإسلام<sup>(١)</sup>

الله ﷻ يهدي رسوله ﷺ إلى أنسب المواقع لإقامة الدولة ونشر الدعوة: وبعد ما قلب النبي ﷺ الأمر على جميع وجوهه واستعرض معظم المناطق التي حوله، توصل في النهاية إلى أنها لا تصلح للهجرة إليها، فهداه الله أخيراً إلى مكان مناسب يصلح لإقامة دولة الإسلام المرتقبة وهو المدينة المنورة.

مؤهلات المدينة المنورة لأن تكون داراً للهجرة دون غيرها من البلاد: اختار النبي ﷺ المدينة دون غيرها لعدة أسباب توصل إليها بفضل الله أولاً ثم بنظره الثاقب، وعقله الواعي، وتخطيطه البارِع وبحثه المتواصل وعمله الدؤوب وسيره الحثيث.

فأهل المدينة كانوا يعيشون وسط اليهود، واليهود أصحاب دين سماوي. إذن أهل المدينة لديهم دراية بالأديان السماوية، فإذا هاجر النبي ﷺ إليهم وأراد إرساء قواعد الدين الإسلامي بينهم، فسوف يقبلون الإسلام، لأنه دين سماوي، والأديان السماوية ليست غريبة عليهم.

كما أن النبي ﷺ مهد لإقامة دولة الإسلام في المدينة ببيعته العقبة الأولى والثانية مع أهل المدينة من الأوس والخزرج وبايعهم على النصر والحماية له إذا وصل إليهم والتمس فيهم الصدق والوفاء بما عاهدوا عليه، وكأنه ﷺ أراد اختبار أهل المدينة ومعرفة مدى جديتهم واستعدادهم لحماية المسلمين ومدى مقدرتهم على

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام. موضوع (عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل) ٣٤ / ٢ والسيرة النبوية دراسة تحليلية ص ٢٢٨.

ذلك، حينما أرسل نفرًا من الصحابة إليهم للاستكشاف والتأكد من صدقهم، فقد هاجر جماعة من الصحابة قبل هجرة النبي ﷺ، منهم، أبو سلمة<sup>(١)</sup> بن عبد الأسد وهو أول من هاجر إلى المدينة، وكذلك عامر بن ربيعة<sup>(٢)</sup>، وامراته ليلى بنت حثمة، وعبد الله بن حنش، وعمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة<sup>(٣)</sup>، المخزومي فوجدوا أن الأنصار صدقوا في وعدهم ووفوا عهدهم ووجدوا الحماية والنصرة وعاشوا حياة طيبة بين الأنصار، وبذلك علم النبي ﷺ أن الأنصار صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فاطمأن النبي ﷺ إلى الهجرة إليهم واطمأن على من هاجر وتأكد من تنفيذ الاتفاقات التي أبرمت بينه وبين سكان المدينة، وبذلك أيقن النبي ﷺ أن أهل المدينة سوف يقدونه وأصحابه بأنفسهم وأموالهم، ويبدلون كل غال ونفيس من أجل حمايته وإسعاده هو ومن معه، لأنهم في أشد الاحتياج إليه ﷺ، لأن الحروب قد أنهكتهم، والصراعات التي كانت بين الأوس والخزرج كادت تفنيهم، فالنبي ﷺ سيكون هو المخلص والمنقذ لهم.

كما أنهم كانوا يتطلعون إلى السيادة على اليهود الذين كانوا يعيرون أهل المدينة من الوثنيين، بأن اليهود أصحاب دين سماوى والأوس والخزرج وثنيين لا يعترفون بالإله الحق خالق السموات والأرض، فإذا ما اعتنق الأوس والخزرج دين الإسلام كانت لهم السيادة على اليهود.

وبعد هذه الدراسة المتأنية لأحوال العباد في المدينة، رأى النبي ﷺ أنهم أنسب الناس لكي يهاجر إليهم.

(١) وهو الصحابي الجليل: عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم المخزومي، أبو سلمة أخو النبي ﷺ من الرضاعة وابن عمته برة بنت عبد المطلب كان من السابقين، شهد بدرًا ومات في حياة النبي ﷺ وذلك في جمادى الآخرة سنة أربع بعد أحد فتزوج النبي ﷺ بعده زوجته أم سلمة [الإصابة ٤ / ١٥٢].

(٢) هو الصحابي الجليل عامر بن ربيعة بن كعب بن مالك الغنزي صحابي مشهور أسلم قديما وهاجر الهجرتين وشهد بدرًا ومات ﷺ سنة اثنتين وثلاثين [الإصابة ٣ / ٥٧٩].

(٣) عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي واسم أبيه عمرو ويلقب ذا الرمحين أسلم قديما، وهاجر الهجرتين وكان أحد من يدعو له النبي ﷺ من المستضعفين واستشهد باليمامة وقيل باليرموك وقيل مات سنة خمس عشرة [الإصابة ٤ / ٧٥٠].

يقول الدكتور محمد رواس قلعة جى :

«ولكن رسول الله ﷺ لم يلبث أن تحولت أنظاره عن القوم كلهم وتركزت حول أهل المدينة المنورة لأسباب منها.

١- أن أهل المدينة المنورة يعيشون بجوار اليهود، واليهودية دين سماوى، فلا بد من أن يكون عندهم من التفتح الفكرى بتأثير الجوار ما يجعلهم أكثر من غيرهم قبولاً للإسلام، لأن أصول الأديان واحدة.

٢- إن أرض المدينة المنورة تعتبر أصلح أرض لإقامة الدولة الإسلامية، وهى الدولة التى يعمل النبى ﷺ على إقامتها ليتمكن من تطبيق شريعة الله تطبيقاً كاملاً. وإنما كانت المدينة أنسب أرض لأن رسول الله ﷺ كان يعلم أن المدينة يقيم فيها طائفتان من الناس: العرب الوثنيون، واليهود الكتابيون وبينهما نزاع وتطلع إلى السيادة، فإذا استطاع رسول الله ﷺ أن يجذب إليه وإلى مبادئه إحدى هاتين الطائفتين أمكنه السيطرة على الموقف وامتلاك زمام الأمور، ورأى رسول الله ﷺ أن العرب سيكونون أعون له من اليهود لأن الحقد القومى لليهود، باعتبارهم من بنى إسرائيل سيمنعهم من الخضوع لما جاء به لأنه نبي عربى، ولذلك فإنه عليه الصلاة والسلام ما إن سمع بأن نفرًا من أهل المدينة - الخزرج - ينزلون عند العقبة حتى أسرع إليهم، وعرض عليهم الإسلام، دون أن يذكر شيئاً عن الحماية، لأنه رأى أن طلب الحماية سيحول بينهم وبين الإسلام ولاسيما أن الخزرج كانت غارقة في بحر من الدماء في نزاعها مع الأوس - القبيلة العربية الثانية التى تسكن المدينة المنورة - فهى لا تقبل أن تزيد مشاكلها بمناصبه قريش أيضاً العداء.

وكان الخزرج وغيرهم من أهل المدينة يعلمون أنه قد قرب زمن بعثة نبى، وقد حصل عندهم هذا العلم من اليهود الذين يعيشون معهم في المدينة المنورة، فقد كان اليهود يهددون العرب دائماً ويقولون لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أظلم زمانه، وإننا إذا ما بعث ستبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم. ولذلك فإنه ما أن كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر - من الخزرج - ودعاهم إلى الله، حتى قال بعضهم لبعض: تعلمون والله إنه للنبي الذى توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، لأنهم إن سبقوكم إليه ليقتلنكم قتل عاد وإرم فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام،

وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا وهم ستة نفر من الخزرج: أسعد بن زرارة<sup>(١)</sup>، وعقبة بن عامر<sup>(٢)</sup>، وعوف بن الحارث<sup>(٣)</sup>، وقطبة بن عامر<sup>(٤)</sup>، ورافع بن مالك<sup>(٥)</sup>، وجابر بن عبد الله، فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ<sup>(٦)</sup>

## ٢- دارسة ميدانية لموقع المدينة المنورة:

وبعد دراسة أحوال العباد قام رسول الله ﷺ بدراسة أحوال البلاد:

كان للنبي ﷺ - بفضل سياسته الرشيدة، وقيادته الحكيمة - رؤية سياسية، واقتصادية وعسكرية، واستراتيجية في اختيار المكان الذي سوف يهاجر إليه، ويؤسس فيه دولة الإسلام.

(١) هو الصحابي الجليل: أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار أبو أمامة الأنصاري الخزرجي النجاري قديم الإسلام شهد العقبتين وكان نقيباً على قبيلته وكان أصغر النقباء سناً وهو أول من مات من الصحابة بعد الهجرة [الإصابة ١/ ٥٤].

(٢) هو الصحابي الجليل عقبة بن عامر بن نابت بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي شهد العقبة الأولى وبدرا وأحدا وشهد الخندق وسائر المشاهد واستشهد ﷺ، بالإمامة [الإصابة ٤/ ٥٢١].

(٣) هو الصحابي الجليل عوف بن الحارث هو ابن عفراء أخوه معاذ ومعوذ من بنى النجار شهد بدرا واستشهد بها ﷺ [الإصابة ٤/ ٧٣٩].

(٤) هو الصحابي الجليل قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري الخزرجي شهد العقبة وبدرا والمشاهد وكانت معه راية بنى سلمة يوم الفتح وتوفي ﷺ في خلافة عمر وقيل في خلافة عثمان [الإصابة ٥/ ٤٤٤].

(٥) هو الصحابي الجليل رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق الأنصاري الزرقى شهد العقبة وكان أحد النقباء وشهد بدرا [الإصابة ٢/ ٤٤٤].

(٦) السيرة النبوية لابن هشام موضوع - بدء إسلام الأنصار - ٣٩/٢ وقراءة سياسية للسيرة النبوية ص ٨٥، ٨٦ بتصرف.

## أ- الرؤية العسكرية للنبي ﷺ في اختيار المدينة بالذات:

المعلوم أن المدينة كانت لا تنتهى فيها الحروب قط، فالحروب بين الأوس والخزرج كانت تقوم لأتفه الأسباب من أمثال حرب بعاث<sup>(١)</sup>، التى دارت رحاها بين الأوس والخزرج، فأهل المدينة كانوا دائماً على أهبة الاستعداد للحروب وكانوا من المحاربين الأقوياء الذين صقلتهم الحروب، وأعطتهم الخبرة الكافية لخوض أى معركة، وبذلك كانت عندهم المقدرة التامة على حماية الدولة الإسلامية، والدفاع عنها وعندهم الاستعداد التام لفتوحات أخرى خارج المدينة.

## ب- الرؤية الاقتصادية:

كما أن النبي ﷺ اختار المدينة داراً للهجرة وقاعدة للدولة لأسباب اقتصادية فالجانب المادى مطلوب لتلك الدولة الوليدة، والمال هو عصب الحياة، وهى تحتاج إليه لأغراض البناء والتعمير، والتسليح، وإقامة المرافق، وتحقيق الاكتفاء الذاتى لأبناء الدولة كما أنها تستطيع بفضل مواردها الاقتصادية أن تصمد أمام الحصار إذا ما حوصرت أثناء الحروب.

والمدينة كانت غنية بمواردها الاقتصادية وكانت بلداً زراعياً كثير المحاصيل والخبرات، وعلى ذلك فالنبي ﷺ كان موفقاً غاية التوفيق فى رؤيته الاقتصادية للمدينة وفى اختيارها داراً للهجرة.

## ج- الرؤية الاستراتيجية:

كانت للنبي ﷺ رؤية استراتيجية حكيمة فى اختيار موقع المدينة المنورة لتكون قاعدة للدولة الإسلامية المرتقبة.

فالمدينة ذات موقع حصين، وهى من أمنع المواقع فى جزيرة العرب فهى تقع بين حرتين من الناحيتين الشرقية والغربية وهما: حرة واقم<sup>(٢)</sup>، وحرة الوبرة<sup>(٣)</sup>، ويجدها

(١) حرب بعاث - كانت بين الأوس والخزرج قبل هجرة النبي ﷺ إليهم وكان النصر فيها للأوس. وبعث اسم حصن للأوس (النهاية «بعث» ١/ ١٣٩ بتصرف).

(٢) إحدى حرتى المدينة وهى الشرقية [معجم البلدان ٢/ ٢٨٧].

(٣) وهى على ثلاثة أميال من المدينة [معجم البلدان ٢/ ٢٨٨].

من الشمال جبل سلع<sup>(١)</sup>، ومن الجنوب بساتين كثيفة، فالمدينة على ذلك يصعب مدهمتها من أى جانب من جوانبها الأربعة.

وقد أشار النبي ﷺ إلى موقع دار الهجرة وأشار إلى حرتى المدينة في الحديث الذى رواه البخارى بسنده المتصل عن عائشة رضي الله عنها. يقول الإمام البخارى رحمته الله «حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب فأخبرنى عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: فذكرت حديثاً طويلاً وفيه - فقال النبي ﷺ للمسلمين: «إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين<sup>(٢)</sup>. وهما حرتان»<sup>(٣)</sup> كما أن المدينة كانت في غاية الخطورة والأهمية من الناحية الاستراتيجية: حيث إنها واقعة على طريق المسافرين من مكة إلى الشام فإذا ما أقيمت دولة الإسلام في هذا المكان استطاعت هذه الدولة قطع طريق التجارة على مشركى مكة، وفرض الحصار الاقتصادى عليها، إن أرادت ذلك وقطع طريق تجارة الشام على قريش هو ضرب لتجارة اليمن أيضاً، لأن تجار قريش كانوا يحملون سلع اليمن إلى الشام وبالعكس، فإذا ما امتنعت على قريش تجارة أحد القطرين الشام أو اليمن امتنعت أو تأثرت بذلك تجارتهم في القطر الآخر وبهذا الأمر سوف يحصل تجار المسلمين على السلع بسهولة، وسوف تقوم قريش بتحسين علاقاتها بدولة الإسلام حفاظاً على مصالحها الاقتصادية.

ولهذه الأسباب وقع اختيار النبي ﷺ على أرض المدينة باعتبارها من أحسن المواقع وأمنعها وأحصنها في جزيرة العرب وتلك سياسة رشيدة ورؤية مستقبلية

(١) جبل بسوق المدينة وهو قرب المدينة [معجم البلدان ٣/ ٢٦٨].

(٢) اللابة: الحرة، وهى أرض ذات حجارة سود قد ألبستها لكثرتها (النهاية «لوب» ٤/ ٢٧٤).

(٣) جزء من حديث أخرجه البخارى في الصحيح كتاب مناقب الأنصار ٤٥ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ٧/ ٢٨٥ ح ٣٩٠٥ والإمام أحمد في المسند ٦/ ١٩٨ كلاهما عن عائشة رضي الله عنها والحاكم في المستدرک کتاب معرفة الصحابة رضوان الله عليهم باب ذكر مناقب صهيب بن سنان مولى رسول الله ﷺ عن صهيب وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبى في التلخيص صحيح المستدرک ٣/ ٤٠٠ والبيهقى في دلائل النبوة/ باب ذكر ما رأى رسول الله ﷺ في منامه من شأن الهجرة وما جاء الله به من الفتح بعد ٣/ ٢٠٣ عن أبى موسى والكتاب طبعة دار الريان للتراث الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م وأخرج البيهقى في السنن جزءاً منه في كتاب اللقطة: ١٧ باب ذكر بعض من صار مسلماً بإسلام أبويه أو أحدهما ٦/ ٢٠٤ ح ١٢١٤٦ عن عائشة رضي الله عنها.

حكمة للنبي ﷺ .

### ٣- دقة التخطيط النبوي للهجرة:

كانت هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة حدثاً مهماً في حياة أمة الإسلام ولذلك وقعت تحت تدبير حكيم وتخطيط دقيق ولم تكن فكرة طارئة أو مصادفة مفاجئة، وإنما كانت بتقدير الله تعالى ثم بتدبير النبي ﷺ .

كما أنها لم تكن شيئاً عشوائياً قام به النبي ﷺ والمسلمون معه بل كانت نتيجة تخطيط دقيق، صاحبة إيمان قوى واتصال عميق بالله ﷻ، ولولا ذلك ما نجحت الهجرة.

لقد شارك في الإعداد للهجرة والاشتراك فيها رجال ونساء وشباب وفتيات وأفراد كانوا على جانب كبير من الثراء والغنى وآخرون من عامة المسلمين، كان فيها الكهول كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان فيها الشباب كعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما وكان فيها الفتيات كأسماء وعائشة رضي الله عنهما، وكان فيها الرعاة كعامر بن فهيرة<sup>(١)</sup>، راعي غنم أبي بكر الصديق، وكان فيها من المشركين عبد الله بن أريقط<sup>(٢)</sup>، وهو الدليل الذي صحب الرسول ﷺ وأبا بكر من غار ثور إلى المدينة<sup>(٣)</sup>.

### ٤- جوانب التخطيط السليم والتدبير الحكيم من النبي ﷺ لإنجاح

الهجرة:

أولاً: الدقة في اختيار العناصر البشرية وتوظيفها على أكمل وجه:

كان من حسن سياسة النبي ﷺ ودقة تدبيره في الهجرة أنه استخدم عدة أفراد مختلفين في أمر الهجرة، فهو قد استخدم الشباب، والشيخوخ والرجال والنساء

(١) هو الصحابي الجليل عامر بن فهيرة التيمي مولى أبي بكر الصديق أحد السابقين واستشهد ﷺ ببئر معونة [الإصابة ٣/ ٥٩٤].

(٢) عبد الله بن أريقط دليل النبي ﷺ وأبي بكر لما هاجرا إلى المدينة وأنه كان على دين قومه لم يذكره في الصحابة إلا الذهبي في التجريد وجزم عبد الغنى المقدسي في السيرة له بأنه لم يعرف له إسلاماً [الإصابة ٤/ ٥].

(٣) من مقال للأستاذ/ السيد أحمد أبو الفضل عوض الله في مجلة منبر الإسلام ص ٥٩ العدد ١ المحرم ١٤٢١ هـ إبريل لسنة ٢٠٠٠ م - وهي صادرة عن وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.



والمسلمين والمشرّكين، وكأنه أراد إشراك جميع طوائف المجتمع كلها فهذه الأفراد المختلفة تمثل المجتمع بأسره.

استخدم النبي ﷺ عبد الله بن أريقط في أمر إعداد الراحلتين وإطعامهما، واستخدمه في أمر معرفة الطريق كدليل للنبي ﷺ يوصله إلى المدينة من طريق غير معهودة. وجاء في جزء من حديث البخاري السابق: «... واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدليل، وهو من بني عبد بن عدى هادياً خريّاً (والخريت: الماهر بالهداية) قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث»

واستخدم عبد الله بن أبي بكر في أمر الإتيان بأخبار قريش ومعرفة كل ما يدور في مكة ويخطط للنبي ﷺ.

واستخدم أسماء بنت أبي بكر في أمر الإمداد بالطعام كل يوم واستخدم عامر بن فهيرة في أمر المشي بالأغنام إلى الغار في وقت الليل لكي يحلب للنبي ﷺ ولأبي بكر الأغنام ويمدّهما باللبانها وكذلك لكي يخفي آثار أقدام عبد الله وأسماء وإذا نظرنا إلى هذا الترتيب في اختيار الأشخاص من جانب النبي ﷺ نجده يعلن عن سياسة حكيمة للنبي ﷺ فهو ﷺ قد رتبها على هذا النحو حتى تؤدي دورها على أكمل وجه. وهو ﷺ قد وضع الرجل المناسب في المكان المناسب فلو غيرنا شخصاً مكان آخر لاختل النظام وانكشف الأمر.

وكان على كل واحد من هؤلاء دور حدده له النبي ﷺ لا بد أن يؤديه بإتقان محكم، وفي توقيت دقيق لا ينبغي له أن يتجاوزته وأي اهتزاز أو خلل من أحد من هؤلاء في أداء مهمته كان كفيلاً بفشل الهجرة.

فعبد الله بن أريقط مهمته إعداد الراحلتين وإطعامهما وكذلك أمر معرفة الطريق إلى المدينة.

ولا شك أن الكثير من العرب كانوا خبراء بهذه الطرق كلها، وكان المسلمون خبراء بالطرق أيضاً، ومع ذلك لم يستخدم النبي ﷺ واحداً من المسلمين في أمر

إعداد الراحلتين أو في أمر الإرشاد على الطريق واستخدم الرجل المشرك ((عبد الله بن أريقط)) لأنه كان نوعاً من التخطيط المحكم والترتيب الدقيق من رسول الله ﷺ لزيادة التمويه على قريش، لأنه علم أن جميع الأعين ترصد كل حركات وتنقلات المسلمين بعد خروجه من مكة، فلو استخدم النبي ﷺ رجلاً من المسلمين فرعى له الراحلتين لشك المشركون في أمر إعداد الراحلتين وراقبوهما وتتبعوا تحركاتهما حتى وصلوا إلى مكان النبي ﷺ وانكشفت الخطة.

ولذلك استخدم النبي ﷺ عبد الله بن أريقط حتى يبدو الأمر عادياً لأنه كان مشركاً مثلهم فهو من بنى جلدتهم ولا يشكون في أمره. ومن خلال هذا الأمر يتجلى لنا حسن سياسة النبي ﷺ وحكمته في التخطيط لهذا الأمر

فإن المتأمل في هذه القطعة من التاريخ الإسلامي والناظر في هذا الأمر ربما يقول: كيف اطمئن النبي ﷺ لرجل مشرك وأشركه في هذا الأمر الخطير الذي يتحكم في مصير دعوة الإسلام؟ والحقيقة أن دور عبد الله بن أريقط لا يصلح فيه غيره وإن كان مشركاً، بل إنه لم يكن مشركاً فحسب ولكنه كان قد غمس يديه في حلف مع آل العاصي بن وائل وهم أشد الناس كفراً وسفهاً وإيذاءً للنبي ﷺ بل إن بنى الدليل (قوم عبد الله بن أريقط) تحالفوا مع المشركين ضد خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، فاجتمع في هذا الرجل ثلاثة أمور كل واحد منها على انفراده يحمله على الخيانة للنبي ﷺ وصاحبه ولكن لماذا لم يخن الأمانة ويكشف سر الهجرة لقريش التي كانت ترصد كل الطرق وتفتش في كل الثغور وتنقب جبال مكة وكهوفها وأوديتها بحثاً عن النبي ﷺ، وثمة داع آخر من دواعي الخيانة يحمل عبد الله بن أريقط عليها، وهو المائة ناقة التي جعلتها قريش مكافأة لمن يأتيهم بمحمد حياً أو ميتاً أو يخبرهم بمكانه، فما الذي جعل عبد الله بن أريقط يطيح بكل هذه الفرص التي قد لا تأتيه مرة أخرى في عمره؟، وما الذي سوف يستفيده ابن أريقط من محمد وصاحبه؟ ألم يناديه مناد في داخله يقول له: إن محمداً هذا هو عدو لك ولقومك ولدينك، وإنك بمساعدته تكون خائناً لقومك وناكثاً لعهدك مع آل العاص بن وائل وهم أشد الناس عداوة لمحمد؟ وبالرغم من هذه الأمور التي تحمل ابن أريقط على الخيانة إلا أنه لم يخن وذلك للأسباب الآتية:

١ - إنها العناية الإلهية والمعجزة الربانية فالنبي ﷺ كان يأخذ حذره ويتأهب لأمره

ويفرغ جهده ويستنفد وسعه في سبيل إنجاح ما أقدم عليه ويترك نتيجة عمله على الله سبحانه وتعالى. وإنى لا أجد شبيها لهذا الأمر إلا ما كان من أمر نبي الله موسى عليه السلام مع فرعون ، فالله ﷻ أوحى إلى أم موسى عن طريق الإلقاء في الروع. قال تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. فلو قسنا الأمور بمقاييسنا لقلنا: إن الله تعالى سوف يقول لها فإذا خفت عليه فبالغي في إخفائه أو اهربي به أو حافظي عليه، لكن الذي يبعث على التأمل والعجب أن الله قال لها: ﴿فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾. فهل تأمين خوف الأم على ولدها الصغير يكون بالإلقاء في البحر؟ نعم طالما أن الله هو الذي سيرعاه فلا خوف عليه ولا وجل وإن ألقته في البحر.

ومن العجيب أن الذي أخرجه من البحر هم آل فرعون والأعجب من ذلك أن يمتنع فرعون عن قتل موسى وأن يربيه في قصره وتحت رعايته وأن يستأجر أم موسى لكي ترضع ولدها وتأخذ أجرا على ذلك يعينها على أمور الحياة .

فالذي حدث لنبينا ﷺ هو ضرب لهذه العناية الإلهية والمعجزة الربانية التي ثبت الله بها قلب نبيه وكانت من أدلة صدق نبوته ﷺ ، وكأن الله تعالى أراد أن يخبر المشركين خلال هذا الحدث أنهم مع قوتهم ونفوذ سلطانهم وشدة حرصهم على منع النبي ﷺ من الهجرة بالمحاصرة أو القتل أو النفي إلى مكان بعيد لن يضره شيئا بل سوف تشارك عناصر منهم في معاونته في أمر هجرته والعمل على سلامته وإفلاته من بين أيديهم ، وكأن عبد الله بن أريقط سلاح من أسلحة المشركين رجع وباله عليهم ورد الله به كيدهم في نحورهم وصدق الله إذ يقول ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فمن الممكن أن تنزع سلاح المشرك وتضربه به فتقتله بنفس سلاحه لكن المهم أن تحسن انتزاع السلاح .

ماذا لو أخبر عبد الله بن أريقط عن مكان النبي ﷺ ؟

لقد أجاد النبي ﷺ في التخطيط للهجرة وحسب حساب كل شيء قبل أن يقدم عليه ، فلو كشف عبد الله بن أريقط عن سر الهجرة فلن يصل المشركون إلى النبي ﷺ بفضل عناية الله تعالى ، وإن علموا بمكانه وأجمعوا أمرهم وقوتهم فلن يجدتهم ذلك

فتيلاً ، وإن وصلوا إليه فلن يروه ولن يضره شيئاً ، كالذى كان من أمر فتيانهم على باب داره وما كان من أمر جحافلهم وطغاتهم عند الغار، ثم ماذا فعل سراقة بن مالك الذى علم مكانهم ولحق بهم وكان مسلحاً غاية التسليح؟

فقد لاحظ لكل واحد من هؤلاء فرصة للإمساك بالنبي ﷺ أعظم من فرصة إخبار عبد الله بن أريقط ، لو أخبر عن مكان النبي ﷺ .

### إلى الذين يقيسون الأمور بالمقاييس المادية:

إننا نلاحظ أن النبي ﷺ وثق بعبد الله بن أريقط وأمن مكره والمعلوم أنه ﷺ كان يعرف نفسيات الناس ووجهاتهم وطباعهم فلو توقع خيانة لما استأمنه على أمر الهجرة .

وهناك شيء آخر لابد أن نعرفه حتى لا يظن ظان من الذين يحبون أن يقيسوا الأمور بمقاييس الحس والمادة ، وهو أن عادة العرب قبل الإسلام أنهم كانوا لا يخونون العهد وكان الوفاء بالعهد صفة من الصفات الحسنة التى امتدح بها العرب قبل الإسلام، وقد أخبرتنا كتب الصحيح أن الكثير من المسلمين كانوا إذا سافروا إلى بلاد المشركين وأحرق بهم الخطر كانوا ينزلون فى جوار أناس من المشركين من سكان تلك البلاد ممن كانوا قد عقدوا معهم عهداً أو كانت لهم عليهم يدا ، ومن أمثلة ذلك: أن سعد بن عبادة رضي الله عنه لما أمسك به المشركون عقب بيعة العقبة الثانية وأذوه وضربوه ، استطاع أن يحمى نفسه منهم بواسطة نزوله فى جوار الحارث بن حرب بن أمية وجبير ابن مطعم لأن سعدا كان يحمى تجارتهم بالمدينة ، فقد أنقذته أعراف الجاهلية ولم تنقذه سيوف المسلمين.

وهناك دواعى أخرى غير دواعى الاتفاق فى الدين قد تحمل الإنسان على الوفاء بالعهد وعدم الخيانة كدواعى الجوار أو المعرفة القديمة ، أو عمل معروف كان قد قدمه إنسان لآخر ولو كان على غير دينه ، وكذلك دواعى القرابة والرحم قد تجعل الإنسان يقف إلى جانب ذوى رحمه وإن كان يختلف معهم فى الدين والدليل على ذلك: أن بنى هاشم وبنى المطلب دخلوا مع النبي ﷺ مسلمهم ومشركهم فى شعب بنى هاشم أثناء المقاطعة التى فرضتها قريش على النبي ﷺ وأصحابه قبل الهجرة

إن المنصفين من المشركين كانوا يأتونون النبي ﷺ ويثقون به ويعرفون ذمته ووفاء عهده ويدل على ذلك: أنهم كانوا يضعون أماناتهم وكرائم أموالهم عنده وكان هذا الأمر شائعاً في مكة قبل الهجرة فربما حفظوا العهد معه ووقف بعضهم بجانبه في بعض الأمور ودعم موقفه اعترافاً له بالجميل واحتراماً لشخصه ﷺ وإن اختلف معه في دينه، فربما ما فعله عبد الله بن أريقط كان ضرباً من هذا الوفاء.

وعبد الله بن أبي بكر كانت مهمته جمع الأخبار عن قريش وهي مهمة حددها له النبي ﷺ ولو قام أحد غيره بهذه المهمة لاختل النظام وانكشف أمر الهجرة. وعامر بن فهيرة كانت مهمته السير بالأغنام وإخفاء آثار أقدام عبد الله وأسماء ابني أبي بكر. فلو غيرنا مثلاً مهمة عامر بن فهيرة وجعلناه يأتي بالأخبار بدلاً من عبد الله لاستدل المشركون على مكان النبي ﷺ لأن الكفار سوف يستنكرون هذا الأمر ويقولون: ما بال هذا الراعي يجلس معنا نحن عظماء قريش فكأنه يتحسس بعض الأخبار وينقلها لغيرنا، وعلى ذلك يتبعون تحركاته ويعرفون مكان رسول الله ﷺ. أما عبد الله فجلوسه بينهم ليس مستغرباً وليست فيه ريبة لأنه كما جاء في حديث البخاري السابق:.....«هو غلام شاب ثقف لقن<sup>(١)</sup> فيدلج<sup>(٢)</sup> من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش كبائت<sup>(٣)</sup>، فلا يسمع أمراً يكتادان<sup>(٤)</sup> به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام»

وكانت مهمة أسماء حمل الطعام، فلو غيرنا دورها وقام به رجل كعبد الله بن أبي بكر مثلاً لتتبعه كفار قريش واستنكروا منه هذا الأمر وذهبوا وراءه وعرفوا مكان النبي ﷺ أما أسماء فكانت تخفي الطعام في نطاقها وبذلك يكون النبي ﷺ قد استخدم

(١) أي حاذق سريع الفهم [فتح الباري ٧/ ٢٧٩].

(٢) فيدلج: بتشديد الدال: أي يخرج من عندهما آخر الليل إلى مكة [النهاية ٢/ ١٣٩-فتح الباري ٧/ ٢٧٩ بتصرف].

(٣) كبائت: أي مثل البائت، يظنه من لا يعرف حقيقة أمره أنه بائت عندهم لشدة رجوعه متأخراً بليل [فتح الباري ٧/ ٢٧٩ بتصرف].

(٤) أي يطلب لهما فيه المكروه وهو من الكيد [فتح الباري ٧/ ٢٨٠].

العناصر البشرية وحدد أدوارها وقام بتوظيفها على أكمل وجه.

ثانيًا: استخدام عنصر التمويه لإنجاح أمر الهجرة: والتمويه كان بالزمان والمكان والأشخاص والطرق.

أ- التمويه باستخدام الزمان:

استخدم النبي ﷺ عنصر الزمان في التمويه على قريش لإنجاح أمر الهجرة حتى لا ينكشف الأمر ويمنع النبي ﷺ من الهجرة فهو ﷺ حينما ذهب إلى بيت أبي بكر ذهب إليه في وقت لا يتوقعه أحد - وهو وقت القيلولة - زيادة منه ﷺ في التمويه على قريش، فوقت القيلولة ترتفع فيه درجة الحرارة إلى حد كبير ولا يخرج فيه أحد من بيته فيمشي تحت حرارة الشمس المحرقة والإمام البخاري يحدد لنا وقت مجئ النبي ﷺ إلى بيت أبي بكر في الحديث الذي رواه بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت .... «فبينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ متقنعا<sup>(١)</sup>، في ساعة لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر<sup>(٢)</sup>».

يقول ابن حجر في معنى قول عائشة «نحر الظهيرة» أي أول الزوال وهو أشد ما يكون في حرارة النهار. والغالب في أيام الحر القيلولة فيها وفي رواية ابن حبان «فأتاه ذات يوم ظهرا» وفي حديث أسماء بنت أبي بكر عند الطبراني «كان النبي ﷺ يأتينا بمكة كل يوم مرتين بكرة وعشية فلما كان يوم من ذلك جاءنا في الظهيرة، فقلت: يا أبت هذا رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup>» وزيادة منه ﷺ في التورية والتمويه جاء «متقنعا» كما ورد في الحديث.

واستخدم النبي ﷺ عامل الزمن أيضًا في التمويه على قريش عقب اختفائه مباشرة حينما حدد زمن الاستقرار في الغار بثلاثة أيام فقد ظل في الغار ثلاثة أيام حتى تفشل كل حركات المتحمسين في البحث عن رسول الله ﷺ لأن حركات

(١) مغطيا رأسه [النهاية «فنع» ٤/ ١١٤ بتصرف].

(٢) جزء من حديث سبق تخريجه.

(٣) فتح الباري ٧/ ١٩١.

المتحمسين عقب اختفائه مباشرة تكون على أكمل وجه ثم تقل بمرور الأيام. كما أنه من السياسة الرشيدة والترتيب المحكم، والتفكير الدقيق ألا يمكثا في الغار أكثر من ثلاثة أيام لأن كثرة تردد عبد الله وأسماء - اللذين كانا يتحسسان الأخبار وينقلان الطعام - بين مكة والغار وكثرة الذهاب والإياب سوف تلفت الأنظار إليهما، وتشكل خطراً كبيراً، إذ أنه من الممكن أن ينكشف أمرهما لاسيما أن المشركين كانوا يرصدون كل تحركاتهم فإذا أفلت عبد الله وأسماء من الرصد ثلاثة أيام فمن الصعب أن يفلتا أكثر من ذلك، فلهذا وغيره رأى النبي ﷺ أن المدة المناسبة للمكث في الغار ينبغي ألا تزيد على ثلاثة أيام وبعدها لابد من الترحال وتغيير المكان وهذا ما كان.

#### ب- التمويه باستخدام المكان:

ويتمثل التمويه بالمكان في اختيار الغار<sup>(١)</sup>، وقد استخدمه النبي ﷺ واستقر فيه لأنه كان مكاناً مهجوراً، ولا يصل إلى تفكير قريش أنه مستقر فيه.

والمعلوم أن الغار كان ناحية الجنوب في طريق اليمن وليس في جهة الشمال التي هي طريق المدينة، والنبي ﷺ براءة تخطيطه عندما خرج لم يذهب إلى الشمال مباشرة - وهو الطريق المعهود للمدينة - وإنما ذهب إلى جنوب مكة ناحية اليمن وذلك لزيادة التمويه والتعمية على قريش.

تقول السيدة عائشة في جزء من الحديث السابق. «ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال»<sup>(٢)</sup>.

#### ج- التمويه باستخدام الأشخاص:

ويتمثل ذلك في أمر النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب أن ينام في فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة فإذا ما نظر الكفار من ثقب الباب وجدوا شخصاً نائماً ملتحفاً برد النبي ﷺ الحضر مى الأخضر فيظنون أنه رسول الله ﷺ فيطمئنون أنه مازال تحت سيطرتهم

(١) الغار هو الكهف، وهو نقب في الجبل فتحت إلى أعلى ومعظمه إلى أسفل [النهاية «غور» ٣/ ٣٩٥ بتصرف].

(٢) جزء من حديث سبق تخريجه.

وفي قبضة أيديهم وفي مناطق نفوزهم بينما يسير النبي ﷺ إلى غار ثور في اطمئنان. وكذلك عمل النبي ﷺ على التمويه على قريش باستخدام الأشخاص حينما أمر على بن أبي طالب أن يبقى في مكة أياما بعد هجرة النبي ﷺ ليرد الأمانات إلى أصحابها، ولو ردها النبي ﷺ بنفسه لشكت قريش في هذا الأمر، وقالوا إن رده للأمانات دليل على أنه يريد مغادرة مكة وبذلك ينكشف أمر الهجرة.

#### د- التمويه باستخدام الطريق:

لقد سلك النبي ﷺ طريقا غير مألوف يوصله إلى المدينة زيادة منه في التمويه والتعمية على قريش التي وضعت الأرصدة والأكمنة في الطريق الرئيسي الموصل بين مكة والمدينة، ولو سلك النبي ﷺ الطريق العام لتتبعه المشركون ولأمسكوا به بكل سهولة.

يقول ابن إسحاق: فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أريقط، سلك بهما أسفل مكة ثم مضى بهما على الساحل «حتى عارض الطريق» أسفل من عسفان<sup>(١)</sup>، ثم سلك بهما على أسفل أمج<sup>(٢)</sup>، ثم استجاز بهما، حتى عارض بهما الطريق، بعد أن أجاز قديدا، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما الخرار<sup>(٣)</sup>، ثم سلك بهما ثنية المرة<sup>(٤)</sup>، ثم سلك بهما لقفا<sup>(٥)</sup>.

(١) عسفان: سميت عسفان لتعسف السيل فيها، وعسفان منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة. وقيل بين المسجدين وهي من مكة على مرحلتين (معجم البلدان للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ١٢١/٤ طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان سنة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م) والمرحلة عند الحنفية والمالكية ٥٢٠،٤٤ كم وعند الشافعية والحنابلة ٩٤،٨٩ كم [المكايل والموازن الشرعية للأستاذ الدكتور على جمعة ص ٧٤ طبعة دار الرسالة بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٢م].

(٢) أمج: بلد من أعراض المدينة منها حميد الأبحي (معجم البلدان ١/٢٤٩).

(٣) الخرار: موضع بالحجاز يقال هو قرب الجحفة وقيل: واد من أودية المدينة وقيل: ماء بالمدينة وقيل: موضع بخير (معجم البلدان ٢/٣٥٠).

(٤) ثنية المرة: موضع بين مكة والمدينة (معجم البلدان ٢/٩٩).

(٥) لقفا: هي ثنية بين مكة والمدينة وقيل لقف: ماء آبار كثيرة عذب ليس عليها مزارع ولا نخل فيها الغلظ موضعها وخشونته (معجم البلدان ٥/٢١).



ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاج ثم سلك بهما مرجح مجاج<sup>(١)</sup>، ثم تبطن بهما مرجح من ذي الغضوين<sup>(٢)</sup>، ثم تبطن ذي كشر<sup>(٣)</sup>، ثم أخذ بهما على الجداجد<sup>(٤)</sup>، ثم الأجرد<sup>(٥)</sup>، ثم سلك بهما ذا سلم<sup>(٦)</sup>، من بطن أعداء مدلجة تعهن<sup>(٧)</sup>، ثم على العبايد<sup>(٨)</sup>، ثم أجاز بهما الفاجة<sup>(٩)</sup>.

قال ابن هشام: ثم هبط بهما العرج<sup>(١٠)</sup>، وقد أبطأ عليهم بعض ظهرهم<sup>(١١)</sup>، فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم، يقال له: أوس بن حجر، على جمل له يقال: ابن الرداء إلى المدينة وبعث معه غلاما له يقال له: مسعود بن هنيدة، ثم خرج بهما دليلهما من العرج، فسلك بهما ثنية الغائر، عن يمين ركوبه<sup>(١٢)</sup>، حتى هبط بهما بطن رئم<sup>(١٣)</sup>، ثم

(١) مرجح مجاج: موضع ذكره ياقوت ولم يبين موضعه ولعله في الطريق بين مكة والمدينة (ينظر معجم البلدان ١٠٢/٥).

(٢) ذو الغضوين: موضع ذكره ياقوت ولم يبين موضعه ولعله في طريق الهجرة أيضًا (معجم البلدان ٢٠٦/٤).

(٣) ذو كشر: هو مكان بين مكة والمدينة (معجم البلدان ٤٦٢/٤).

(٤) الجداجد: قال ياقوت: يجوز أن يكون جمع جدجد وهي البئر القديمة وأظنها على هذا آبار قديمة في طريق ليس يعلم (معجم البلدان ١١٢/٢).

(٥) الأجرد: هو اسم جبل من جبال القبلية والأشعر والأجرد جبلا جهينة بين المدينة والشام (معجم البلدان ١/١٠٢).

(٦) ذو سلم: واد ينحدر على الذنائب والذنائب في أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة (معجم البلدان ٣/٢٤٠).

(٧) مدلجة تعهن: اسم عين ماء سمى به موضع على ثلاثة أميال من السقاييا بين مكة والمدينة وكانت في طريق الهجرة [معجم البلدان ٤١/٢ بتصرف] والميل عند الحنفية والمالكية ١٨٥٥ م وعند الشافعية والحنابلة ٣٧١٠ م [المكاييل والموازين الشرعية ص ٧٤].

(٨) العبايد: موضع في طريق الهجرة بعد «تعهن» وهو مياه تعب عابا وتعب عبا [معجم البلدان ٨٢/٤].

(٩) الفاجة: أو -فج الروحاء- هي مدينة على ثلاث مراحل من المدينة قبل السقاييا بنحو ميل [معجم البلدان ٢٦٧/٤].

(١٠) العرج: هي عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج تذكر مع السقاييا (معجم البلدان ٩٩/٤).

(١١) الظهر: الإبل التي يحمل عليها وتركب [النهاية «ظهر» ١٦٦/٣].

(١٢) ركوبة: هي ثنية بين مكة والمدينة عند العرج صعبة (معجم البلدان ٦٤/٣).

(١٣) رئم: هو واد المدينة قرب المدينة يصب فيه وركان وقيل هو موضع على أربعة برد من المدينة (معجم البلدان ١١٤/٤) والبريد عند الحنفية والمالكية مقداره ٢٢٢٦٠ م وعند الشافعية والحنابلة مقداره: ٤٤٥٢ م [المكاييل

والموازين الشرعية ص ٧٤].

قدم بهما قباء<sup>(١)</sup>، على بنى عمرو بن عوف، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، يوم الاثنين، حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل<sup>(٢)</sup>

وهكذا لم يغب عن بال رسول الله ﷺ أن يوجه الدليل لأن يسلك بهم طريقا غير الذى يسلكه الناس عادة، وبفضل الله تعالى ثم التخطيط الدقيق للنبي ﷺ نجحت خطة الهجرة ووصل النبي ﷺ ومن معه إلى المدينة بسلام.

#### ٥ - السرية عامل مهم في نجاح خطة الهجرة:

حينما أراد النبي ﷺ أن يهاجر أحاط نفسه بسياج تام من السرية حتى تتم عملية الهجرة بسلام فلم يكن يعلم بأمر الهجرة أحد إلا بعض الأشخاص الذين كان يثق فيهم ثقة كبيرة كأبى بكر الصديق رضي الله عنه وبعض الأشخاص الذين عهد لهم النبي ﷺ بالقيام ببعض الأدوار في الهجرة.

ومبالغة منه ﷺ في السرية لم يشأ أن يحدث أبا بكر رضي الله عنه أمر الهجرة أمام أهل بيته حينما جاءه في وقت القيلولة.

تقول عائشة رضي الله عنها «فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبى بكر: «أخرج من عندك» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله قال: «فإني قد أذن لي في الخروج»<sup>(٣)</sup>

#### ٦ - الهجرة نقطة تحول كبرى في حياة المسلمين:

«ولنا أن نقول بحق: أن الهجرة منحت المسلمين دولة ووطنا وأحاطتهم بسياج من إمكانيات القوى والتنظيم والسيادة ونشر الدعوة في أوسع نطاق حتى صار العالم كله مدينا لتلك الهجرة الناجحة فكل مسيح ومصل وذاكر لا ينسى مكانة اليوم الذى استطاع فيه رسول الله ﷺ أن ينجو من تدبير قريش وأن يقيم تلك الدولة المثالية التى

(١) قباء: قرية على ميلين من المدينة يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير وهناك مسجد التقوى عامر قدامه رصيف وفضاء حسن وآبار ومياه عذبة (معجم البلدان ٤/ ٣٠٢).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام. موضوع: طريق الهجرة ٢/ ٩٨، ٩٩ بتصرف.

(٣) جزء من حديث سبق تحريجه.

يحاول المصلحون أن يعيدوا إليها نشاطها وعزها وسيادتها تلك التي كانت في عهد رسول الله ﷺ وعهد خلفائه ولعل السر في نجاح هذه الهجرة، وتلك الدعوة أن الله سبحانه وتعالى كان يعلم أن رسول الله ﷺ لو بقى في مكة واستجاب له أهلها الذين هم أهله - سيقول خصوم الإسلام إن دعوة محمد صادفت هوى في نفوس أهله فوقفوا معه بدافع العصبية لتكون لهم الهيمنة على قبائل العرب ومن أجل ذلك جعل الله سبحانه أشد الناس عداوة وخصومة للدعوة هم أهله وأقرباؤه. وظلت العداوة تغلى في قلوبهم حتى فكروا في قتله ليرتاحوا منه. فلما فتح الله له قلوب أهل المدينة الذين يعيشون في بلد بعيد عن مكة، وليس بينه وبينهم صلة ولا يعلمون عنه شيئاً قبل إعلان دعوته وجعل نصر دعوته على أيدي هؤلاء الذين أووا ونصروا انقطعت بذلك حجة الذين حاولوا أن ينسبوا لأهله وقبيلته الفضل في مؤازرته»<sup>(١)</sup>

كما أن الهجرة كانت إيذاناً بفجر جديد في تاريخ دعوة الإسلام، فقد صار بعدها للإسلام دولة قوية ميز الله فيها بين المسلمين والمشركين، وانطلقت مواكب الدعوة من قيودها التي كانت مكبلة بها في مكة فبعد أن كان المسلمون مضطهدون في مكة صاروا في المدينة مكرمين، وكانوا في مكة يعبدون الله متخفين خوفاً من إلحاق الأذى بهم فصاروا في المدينة يرفعون الأذان عاليًا مدويًا خمس مرات في اليوم لا يخافون إلا الله تعالى، وبعد أن كانوا في مكة فاقدى الأمن أصبحوا في المدينة آمنين.

(١) في رحاب الهجرة النبوية د. إبراهيم على شعوط ص ٨٤ بتصرف يسير.



## الباب الثانى

### الإعداد لإعلان قيام دولة الإسلام وإعلان قيامها، وإبراز بعض الجوانب السياسية العظيمة للنبي ﷺ فى تلك الفترة

ويتضمن ستة فصول:

الفصل الأول: القواعد الأساسية التى قامت عليها الدولة الإسلامية.

الفصل الثانى: إعلان قيام الدولة الإسلامية سياسياً.

الفصل الثالث: دعوى (لادين فى السياسة ولا سياسة فى الدين) بين الحقيقة والباطل.

الفصل الرابع: سياسة النبي ﷺ مع غير المسلمين.

الفصل الخامس: أهل الذمة داخل ديار الإسلام.

الفصل السادس: إبراز بعض جوانب العبقرية السياسية للنبي ﷺ فى سياسة الخصوم والأتباع فى السلم والحرب .

## الفصل الأول

### القواعد الأساسية التي قامت عليها الدولة الإسلامية

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - صلة الأمة بالله ﷻ.
- ٢ - صلة الأمة ببعضها.
- ٣ - صلة الأمة بالذين لا يدينون بدينها ولا يؤمنون بمبادئها وتدوين وثيقة سياسية وبيان الهدف منها.
- ٤ - نص الوثيقة النبوية.
- ٥ - دراسة الوثيقة النبوية.
- ٦ - الدولة الإسلامية تمارس وظائفها على أساس تلك الوثيقة.
- ٧ - الوثيقة ما زالت تعطي ثمارها إلى الآن.

## الباب الثاني

### الفصل الأول

#### القواعد الأساسية التي قامت عليها الدولة الإسلامية

أنزل الله ﷻ الوحي على رسوله ﷺ متضمنا قواعد ومبادئ دولة الإسلام. وأقام النبي ﷺ ليليل تلك المبادئ والقواعد إلى العالمين، ولينهض ﷺ بتطبيقها وإظهارها بين الناس بأوامره ونواهيه، وتوجيهاته البالغة الحكمة، وبسيرته العملية الرشيدة، وألزم الله ﷻ الناس جميعا باتباع نبيه ﷺ في قوله وفعله، ولقد سارع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إلى العمل بما أنزل الله سبحانه وتعالى كما حرصوا على التأسي والافتداء بالنبي ﷺ فيما يقول ويفعل، فكان من نتاج ذلك أن ظهرت إلى الوجود خير أمة أخرجت للناس أمة قامت على الحق المطلق، والعدل الشامل الكامل، والبر والخير والمعروف ومكارم الأخلاق.

ولهذا ارتفعت على سائر الأمم والشعوب بدينها الحق الذي علمها ونورها وهداها وقواها وطهرها من رذائل الأخلاق، ومساوئ العادات، وقد جمعت شريعة الإسلام مبادئ سامية قيمة تشتمل على حقوق الله ﷻ مثل توحيده ﷻ، والإخلاص له في السر والعلن، وطهارة القلب والجسد، وجهاد الباطل حيثما كان، والنصح للناس أجمعين، كما اشتملت على قواعد ومبادئ تحكم علائق الناس بعضهم ببعض كالبر والإحسان، وتحريم مال الآخرين وأعراضهم ودمائهم، وقد اشتملت أيضًا على أسس حكيمة رشيدة فيما يتعلق بعلاقة المسلمين بغيرهم من سائر طوائف أهل الشرك.

وأن أية دولة في العالم يريد أهلها تأسيسها على التقوى والصلاح من أول يوم تقام فيه، ويأملون تقدمها وشموخها، ويتطلعون إلى انتشار مبادئها واتساع رقعتها، لا بد أن يقيموها على ثلاث مبادئ وأسس مهمة.

وسنين إن شاء الله تعالى تلك القواعد والمبادئ فيما يلي:

١ - صلة الأمة - أو الدولة - بالله.

٢ - صلة الأمة ببعضها.

٣ - صلة الأمة بالذين لا يدينون بدينها ولا يؤمنون بمبادئها.

وأقام النبي ﷺ دولته في المدينة على أساس هذه المبادئ الثلاثة.

١ - صلة الأمة بالله ﷻ:

وهذا المبدأ من أهم المبادئ التي قامت عليها دولة الإسلام، لأن غرضها الأساسي هو إقامة الدين، والأخذ بيد الناس إلى الإيمان برب العالمين، وهي ليست دولة جباية أو دولة دنيوية كل همها هو زيادة رقعتها ومواردها وتحقيق ملذات شعبها، ورعاية مصالحهم وإنما غرضها الأساسي، هو الأخذ بيد الخلق إلى الإيمان بالله الحق. وصلة الأمة بالله تحتاج إلى المسجد، الذي يجدد صلة المسلمين بربهم بتجدد الزمن، لذلك كان أول عمل قام به النبي ﷺ بعد الهجرة هو بناء مسجد قباء، ثم قام ببناء مسجده بعد ذلك.

يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا مسدد حدثنا عبد الوارث ح. وحدثنا إسحاق ابن منصور أخبرنا عبد الصمد قال سمعت أبي يحدث حدثنا أبو التياح يزيد بن حميد الضبعي قال حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، قال فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى ملا بني النجار، قال فجاءوا متقلدي سيوفهم، قال وكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه وملا بني النجار حوله حتى ألقى<sup>(١)</sup> بفناء أبي أيوب، قال فكان يصلي حيث أدركته الصلاة ويصلي في مرابض<sup>(٢)</sup> الغنم، قال: ثم إنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملا بني النجار، فجاءوا فقال: «يا بني النجار ثامنوني<sup>(٣)</sup>،

(١) ألقى: أي نزل أو المراد ألقى رحله [فتح الباري ٧/ ٢٣٧]

(٢) الموضع الذي تربض فيه، أي تقيم فيه (النهاية (ربض) ٢/ ١٨٥).

(٣) أي قرروا معي ثمنه ويعونه بالثمن (النهاية «ثمن» ١/ ٢٢٣).



بحائطكم هذا»، فقالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، قال فكان فيه ما أقول لكم: كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب<sup>(١)</sup>، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب، فسويت وبالنخل فقطع قال: فصفوا النخل قبله المسجد قال وجعلوا عضادتيه<sup>(٢)</sup>، حجارة قال جعلوا ينقلون ذاك الصخر وهم يرتجزون<sup>(٣)</sup>، ورسول الله ﷺ معهم يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة<sup>(٤)</sup>

ولم يكن غرض النبي ﷺ من بناء المسجد هو إقامة الصلوات أو إيجاد مكان للعبادة فقط، فمن خصائص أمة الإسلام أن الله جعل لها الأرض مسجداً وطهوراً، ولكنه ﷺ أراد أن تكون مهمة المسجد أبعد وأوسع من ذلك فلم تبدأ مهمة المسجد وتنتهى عند كونه مكاناً للعبادة فقط، ولكنه ﷺ أراد أن يجعل من المسجد بيتاً للمسلمين يجتمعون فيه، ومدرسة جامعة يتعلم فيها المسلمون ما يلقيه عليهم النبي ﷺ من تعاليم الدين الإسلامى ثم هو دار تناقش فيها الآراء ويدور فيها الحوار حول ما يتعلق بشئون المجتمع المسلم في الدين والدنيا والحرب والسلام وهو دار للفتوى ومجلس للشورى في كل ما يهم المجتمع من شئون مما يعود على المسلمين بالخير، فالمسجد الذى أسسه النبي ﷺ أصبح كل شيء في حياة المسلم فهو مكان الصلاة وهو البرلمان والمحكمة وهو دار القيادة التى تصدر منها قرارات الحرب وترسم فيها

(١) خرب: جمع خربة، وهو المكان المهدم البالى (النهاية «خرب» ١٧/٢).

(٢) ثنية عضادة: وهى الخشبة التى على كتف الباب، ولكل باب عضادتان، وأعضاد كل شيء ما يشد جوانبه (فتح البارى لابن حجر ٣٢٧/٧).

(٣) يرتجزون: يرددون أبياتاً من بحر الرجز، وهو بحر من بحور الشعر معروف، ونوع من أنواعه يكون كل مصراع منه مفرداً وتسمى قصائده أراجيز وأحدها أرجوزة (النهاية «رجز» ١٩٩/٢) بتصرف.

(٤) أخرجه البخارى في كتاب مناقب الأنصار ٤٦ باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة ٣٢٦/٧ ح ٣٩٣٢ ومسلم في كتاب المساجد ١ باب ابتناء مسجد النبي ﷺ ٨/٣ ح ٥٢٤ وأبو داود في كتاب الصلاة باب «في بناء المساجد ٩٣/٢، ٩٤ ح ٤٤٩ والنسائى في كتاب المساجد باب نبش القبور واتخاذ أرضها مسجداً ٣٩/٢. وابن ماجه في كتاب المساجد والجماعات ٣ باب أين يجوز بناء المساجد ٣٠٣/١ ح ٧٤٢ والإمام أحمد في المسند ٢١٢/٣ والبيهقى في السنن الكبرى كتاب الصلاة باب ٥٣٦ في كيفية بناء المساجد ٤٣٨/٢ جميعهم عن أنس رضي الله عنه.

مناهجها وخططها وهو مركز تجمع الجيوش الإسلامية ومركز انطلاق لها تنطلق منه بقيادة النبي ﷺ وبتوجيهاته وتوصياته، وهو منبر للحركات التصحيحية في مجتمع المسلمين، وهو منبر إعلام وإشعاع فكري للمسلمين - وهو دار للقضاء يقضى فيه النبي ﷺ بين المتخاصمين بالحق والعدل، لا تأخذه في ذلك لومة لائم.

## ٢ - صلة الأمة ببعضها:

وبعد أن بنى النبي ﷺ المسجد في المدينة ووطد علاقة العبد بربه بالصلاة التي هي المظهر الأساسى الذى يحقق ويظهر هذه العلاقة لأنها عماد الدين وركنه الركين عمل النبي ﷺ على توطيد علاقة المسلم بأخيه المسلم وربطهما بأخوة الإيمان التي هي أقوى من أخوة النسب، ولعل قيام النبي ﷺ ببناء المسجد قبل أن يقوم بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار يعد من قبيل السياسة الشرعية وهو بمثابة التمهيد لعقد أسرة الأخوة بين المسلمين لأن عبادة الصلاة واجتماع المسلمين في مسجد واحد من أهم العوامل التي تقوى أواصر الأخوة والترابط بين المسلمين وهى البوتقة التي تنصهر فيها أرواح أصحاب النبي ﷺ وتذوب خلالها فوارق العصبات والألوان والأنساب، وكل هذا إنما تفعله الصلاة على أكمل وجه وأدقه والمعلوم «أن أهل كل مجتمع يحتاج بعضهم إلى بعض، كما جرت بذلك سنة المعيشة فمنهم الفقير والغنى، والعالم والجاهل، والقوى، والضعيف فيجتمعون في الصلاة لتتحد كلمتهم، وتتوثق فيما بينهم مودتهم، وتتم في الله أخوتهم، ويتعاونون على ما يجلب لهم الخير، ويرفع عنهم الضرر لأن الجيران إذا اجتمعوا في المسجد خمس مرات في اليوم والليلة لعبادة ربهم، وإصلاح نفوسهم، تيسر لهم إصلاح أمر دنياهم إذ حصول التعارف والمودة. بينهم، يستدعى الرحمة والشفقة، وحب بعضهم بعضاً: فلا يجدون بينهم محتاجاً إلا نفصوا عنه غبار الحاجة ولا مضطراً لإعانة إلا مدوا إليه يدا المساعدة، ولا غائباً إلا بحثوا عن أسباب غيبته: فإن علموه مريضاً عادوه، أو مشرفاً على خطر أنقذوه أو متقاعداً لكسل عاتبوه<sup>(١)</sup>.

(١) محمد ﷺ المثل الكامل تأليف/ أحمد جاد المولى/ تحقيق عبد الرحيم مار دينى ص ٢٣٥ بتصرف. طبعة مكتبة دار المحبة بدمشق الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م.

وقد اتسع المسجد الذي أسسه النبي ﷺ لذلك كله، فذكر فيه اسم الله سبحانه وتعالى، وأقيمت فيه صلاة الجماعة، وكان مجمع المسلمين بنبيهم ﷺ للتعليم والتربية، وبأخوتهم في الله للوقوف على أحوالهم، والنظر في شئونهم، وكان موئل أفراحهم ووفودهم ومنطلق جهادهم، وكان نواة لتوثيق الصلة وبين أفراد الأمة الذين تتلاقى أرواحهم وأجسامهم كل يوم خمس مرات في الصلاة.

والمؤاخاة التي قصدها النبي ﷺ هي أن يأخذ كل واحد من المهاجرين والأنصار لنفسه أخا تربطه به رابطة كرابطة أخوة النسب فيقاسمه ما له وأرضه وداره وإن كان لأحدهما زوجتان طلق إحداهما ليتزوجها أخوه، والمعلوم أن الأخ من النسب لا يتنازل لأخيه عن هذه الأشياء، ولكن أخوة العقيدة والإيمان فاقت كل أنواع المؤاخاة وكان هذا تبرعاً وإيثاراً ظهر من الأنصار على سبيل التطوع لأعلى سبيل الإلزام والإمام البخاري يروي لنا حديثاً عن النبي ﷺ في هذا الشأن.

يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن يوسف حدثننا سفيان عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال: قدم عبد الرحمن بن عوف فأخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه<sup>(١)</sup> أن يناصفه أهله وما له فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق فربح شيئاً من أقط<sup>(٢)</sup>، وسمن، فراه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر<sup>(٣)</sup>، من صفرة، فقال النبي ﷺ: «مهم»<sup>(٤)</sup>، يا عبد الرحمن؟ قال يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار قال: فما سقت<sup>(٥)</sup>، فيها؟ فقال وزن نواة<sup>(٦)</sup>، من ذهب،

(١) أي عرض سعد على عبد الرحمن.

(٢) الأقط: هو لبن مجفف يا بس مستحجر يطبخ به (النهاية «أقط» ١/ ٥٧).

(٣) أي لطنخا من خلوق، أو طيب له لون، وذلك من فعل العروس إذا دخلت على زوجها. والوضر: الأثر من غير الطيب (النهاية) و«ضر» ٥/ ١٩٦.

(٤) أي ما أمرك وشأنك وهي كلمة يمانية (النهاية «مهم» ٤/ ٣٨٧ بتصرف).

(٥) أي كم أمهرتها (النهاية «مهر» ٤/ ٣٧٤ بتصرف).

(٦) النواة في الأصل عجمة التمر، والمراد بها في الحديث: اسم لخمس دراهم وقيل: أراد قدر نواة من ذهب كان قيمتها خمسة دراهم (النهاية «نوا» ٥/ ١٣١، ١٣٢ بتصرف).

فقال النبي ﷺ: أولم<sup>(١)</sup>، ولو بشاة<sup>(٢)</sup>.

### الأهداف التي أراد النبي ﷺ تحقيقها من خلال المؤاخاة:

كان النبي ﷺ يهدف من خلال هذه المؤاخاة إلى أن يقوى الروابط بين المسلمين إلى أكبر حد، وأن ينهى الخلاف القائم بين الأوس والخزرج، فعمل جاهداً على تأليف قلوبهم وإزالة العداوات وإنهاء الخلافات التي كانت بينهم في الجاهلية وذلك لتحقيق هدف سياسي حكيم هو إقامة دولة الإسلام بين أفراد متحابين متعاونين، فالدولة لا يرتفع شأنها، وتقوى شوكتها، وتكون لها مكانة وهيبة إلا إذا قامت بسواعد متحدة، وقلوب متحابية تعمل في نطاق واحد وتسعى لهدف واحد، ويكون أفرادها عوامل بناءة في كيانها.

كما كان الإخاء وأدًا وقتلاً لمعنى العصبية القومية والقبلية

«ذلك أن الله جل شأنه علم أن النفوس لا تتم ولا تعتر جامعتهما، إلا إذا كانت القلوب مطمئنة بعضها إلى بعض، مرتبطة برباط حقيقى محكم وليس أشرف من رابطة الإسلام ووصلته: تلك هي الأخوة المقدسة، ولا يوجد أحكم من نسجها، ولا أقوى توثقاً من عروتها: فهي أقوى من البنية الصليبية، لأنها لا تصل الإنسان إلا إذا كانت مشفوعة بالبنوة الشرعية وهي تنقطع بالكفر، فإذا كفر الولد انقطع من أبويه، وإذا كفر الوالدان انقطع عنهما الولد: فلا يرثانه ولا يرثهما - مع ثبوت البنية الصليبية في كلتا الحالتين.

(١) الوليمة: هي الطعام الذى يصنع عند العرس (النهاية «ولم» ٥/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه البخارى في الصحيح كتاب مناقب الأنصار: ٥٠ باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه. ٣٣٤/٧ ج ٣٩٣٧ ومسلم في الصحيح كتاب النكاح ١٣ باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد: ٥/ ٢٢٩، ٢٣٠ ح ١٤٢٧ وأبو داود في السنن: كتاب النكاح ٣٠ باب قلة المهر ١١٠/٦ ح ٢١٠٩ والترمذى في السنن كتاب النكاح ١٠ باب ما جاء في الوليمة. ٤/ ١٦٠ ح ١٠٩٤ وقال أبو عيسى: حديث أنس حديث حسن صحيح. والنسائي في السنن كتاب النكاح باب التزويج على نواة من ذهب ١١٩/٦ وابن ماجه في السنن كتاب النكاح ٢٤ باب الوليمة ١٧٧/٢ ح ١٩٠٧ والإمام مالك في الموطأ كتاب النكاح ٢١ باب ما جاء في الوليمة ٤٣٠/٢ والدارمي في السنن: كتاب النكاح ٢٢ باب في الوليمة ١/ ٦٢٧ ح ٢٢٠٤ والإمام أحمد في المسند ٣/ ١٦٥، ١٩٠، ٢٥٠، ٢٧١ جميعهم عن أنس ؓ.

ومن هذا وجب أن نجزم بأن مرتبة الرابطة بالحكم الإلهي، فوق مراتب ذوى القربى والأخوة، ثم إن الله تعالى أوجد الأخوة الشرعية بين عموم المسلمين على اختلاف أجناسهم، وتباين مواطنهم، وتغاير قبائلهم، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وقد عبر بلفظ الأخوة الذى لا يقال إلا لأخوة النسب دون (الإخوان) الذى يشمل إخوة الصحبة والصدقة<sup>(١)</sup>

فالنبي ﷺ أراد بعقد المؤاخاة إيجاد الأمن والاستقرار فى الداخل حتى يتفرغ هو وأصحابه لبناء الدولة، وحتى لا تشغلهم القلاقل الداخلية أو تعوقهم وتحول بينهم وبين بناء دولة الإسلام.

وهذا النظام الذى شرعه النبي ﷺ للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكذلك الإصلاح بين الأوس والخزرج هو أسمى ما وصل إليه الفكر البشرى فى الربط بين مجموعة من الناس تجمعهم عقيدة واحدة، فضلاً عن كونه واجب إسلامى أمر الله به المسلمين قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وأمر به النبي ﷺ وقام بتطبيقه فى مجتمع المسلمين.

يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: حدثني أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قضى النبي ﷺ على العصبية القبلية، والنصرة الجاهلية المقيتة وقام بتوثيق العلاقات بين أهل البلاد الأصليين وبين الطارئین عليهم من المهاجرين حتى

(١) محمد ﷺ المثل الكامل ص ٣١٤.

(٢) أخرجه البخارى فى الصحيح كتاب الأدب ٥٦ باب قول الله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ ٥٨٣/١٠ ح ٦٠٦٥ عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ومسلم فى الصحيح كتاب البر والصلة والآداب ٩ باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش، ونحوها ٨/٣٦١ ح ٢٥٦٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه وأبو داود فى السنن كتاب الأدب ٥٦ باب فى الظن ١٣/٢١٢ ح ٤٩٠٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه والترمذى فى السنن كتاب الدعوات ١٠٦ باب من أبواب الدعوات ٣/١٠ ح ٣٥٥٨ عن أبي بكر رضي الله عنه وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه عن أبي بكر. وابن ماجه فى كتاب الدعاء ٥ باب الدعاء بالعفو والعافية ٣/٣٥٧ ح ٣٨٤٩ عن أبي بكر والإمام أحمد فى المسند ٢/٢٨٨، ٣/١١٠، ١١٩، ٢٠٩، ٢٧٧، عن أبي هريرة.

يكونوا وإياهم يدًا واحدة وصفًا واحدًا، فضلا عن أنه أصلح بين الأوس والخزرج الذين وقعت بينهم حروب كثيرة، وعداوات شديدة وضعائن كبيرة في الجاهلية كحرب حاطب<sup>(١)</sup>، وبعث<sup>(٢)</sup>، وغيرهما من الحروب التي اقتتل فيها الأوس والخزرج قتالاً شديداً فأصلح النبي ﷺ بينهم بحسن سياسته وعظيم حكمته في التأثير في الأفراد والجماعات وإنهاء الخلافات وهكذا عاش الأنصار تحت حكم رسول الله ﷺ برضاهم وأعلنوا عن ولائهم لدولة الإسلام ورسول السلام ﷺ بكل حب وصدق واقتناع بعد حروب طالت ودماء سفكت.

فكم من أطفال يتمت، ونساء رملت، وبيوت خربت، وأسر شردت وأبنية هدمت، وأعراض انتهكت، وكم من دموع ثكلى تكاد تحرق المقل انحدرت فوق الحدود تبكى فقيدها وتندب موتها، وكم من دموع ماتت في الأحداق غيظاً وانتظاراً لأن تأخذ بثأرها وتشفى غليلها من جراء تلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة.

وإذ بها اليوم بعد ذلك الصلح، وتلك المؤاخاة تنسى كل ما أسلفت في ذلك الزمان المظلم، وتبدأ صفحة جديدة نقية بيضاء ناصعة البياض، تسطر فيها بحروف من ذهب أسمى معاني الأخوة والحب والإيثار.

وبهذا تتجلى لنا السياسة الرشيدة للنبي ﷺ في قيادة الأتباع والتأثير في الأفراد وإصلاح المجتمعات، وتلك مهمة صعبة نجح فيها النبي ﷺ باقتدار.

ولا شك أن الصلح نعمة امتن الله بها على الأوس والخزرج قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(١) حرب حاطب: وقعت بين الأوس والخزرج فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان الظفر للخزرج على الأوس (السيرة النبوية لابن هشام موضوع: حرب حاطب ١/٢٣٧).

(٢) حرب بعث: أو يوم بعث: هو يوم اقتتل فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج (السيرة النبوية لابن هشام موضوع: يوم بعث ٢/١٦٢، ١٦٣) • وبعث موضع في نواحي المدينة كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية [معجم البلدان ١/٥٣٥].

### ٣- صلة الأمة بالذين لا يدينون بدينها ولا يؤمنون بمبادئها وتدوين وثيقة سياسية وبيان الهدف منها:

حينما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة وجد فيها أعدادا كثيرة من اليهود ومشركى العرب الذين أبوا أن يدخلوا في دين الإسلام، فلم يرغمهم ﷺ على الدخول في دين الإسلام ولم يفكر لحظة في إخراجهم من البلاد أو إقصائهم عنها، أو معاملتهم معاملة سيئة حتى يخرجوا منها مرغمين.

ولم يخطر له هذا الأمر ببال وتقريراً المبدأ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ترك لهم حرية الديانة، وتحقيقاً لسماحة الإسلام ومساواته، وعدلة وسمو مبادئه وحسن معاملته، لم يخرجهم النبي ﷺ من المدينة ولكنه أحسن جوارهم. يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:

أما الأمر الثالث، وهو صلة الأمة بالأجانب عنها - الذين لا يدينون بدينها - فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سن في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في عالم ملئ بالتعصب والتغالي، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط، هو رجل مخطئ بل متحامل جريء.

فعندما جاء النبي ﷺ إلى المدينة، وجد بها يهوداً توطنوا ومشركين مستقرين فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام، بل قبل - عن طيب خاطر - وجود اليهودية الوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاھدھم معاهدة الند للند، على أن لهم دينهم وله دينه<sup>(١)</sup> ١٠هـ.

أراد النبي ﷺ كذلك أن يوادعهم ويعاھدھم حتى يعيش معهم في أمن وأمان فأوجب لهم من الحقوق إزاء ما فرض عليهم من واجبات.

وقد نظم النبي ﷺ الصلة والعلاقة بين شعب المدينة من المسلمين وغيرهم

(١) فقه السيرة للغزالي ص ٢٥١.

بكتابة وثيقة دستورية<sup>(١)</sup>، هي من أقدم الوثائق السياسية في العالم في رسم منهج كامل للحياة وفي الربط بين جماعة من الناس يجمعهم موطن واحد وإن اختلفت دياناتهم وألوانهم وأنسابهم وعلى أساس هذه الوثيقة التي وضعها النبي ﷺ قامت دولة الإسلام على أمتن ركن وأقوى أساس، وأعظم رباط بينها وبين الذين يعيشون في محيطها ولا يدينون بدينها.

وعلى أساس تطبيق هذه الوثيقة والاهتداء بما فيها والتمسك بأحكامها ازدادت رقعة الدولة الإسلامية وترامت أطرافها وانتشرت مبادئها وكانت دولة قوية راسخة تقدم للناس أروع ما عرفته الإنسانية من مظاهر الحضارة والتقدم والمدنية الصحيحة. وحينما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وجد نفسه بين عداوتين وبين عدوين لدودين هما: المشركون في مكة من قريش وغيرهم وهذا العدو مع أن النبي ﷺ تركه وراءه وارتحل عن مكانه إلا أن هذا العدو اللدود لا تزال الدماء تغلي في عروقه من شدة الغيظ والغضب والحزن على إفلات النبي ﷺ من تحت أيديهم وخروجه من مناطق نفوذهم بدون علمهم.

أما العدو الآخر فقد وجده النبي ﷺ أمامه في المدينة المنورة، - وهم اليهود - وهو عدو أشد ضراوة وخبثاً وحقدًا من المشركين فأراد النبي ﷺ أن يوادع العدو الداخلي وأن يعاهده على حسن المعاملة والجوار من خلال هذه الوثيقة حتى لا يتصل أحد العدوين بالآخر ويتحالف معه ضد المسلمين، لاسيما وأن الدولة الإسلامية كانت لا تزال وليدة صغيرة في ذلك الوقت فأراد النبي ﷺ أن يؤمن قيام الدولة الإسلامية، ويهيئ لقيامها في مناخ مفعم بالأمن والأمان، والهدوء والاستقرار حتى لا يتلاقى عليها الأعداء من شتى بقاع الأرض ويحذق بها الخطر من كل صوب وحذب. وأراد النبي ﷺ كذلك: وجود الاستقرار والأمن الداخلي وعدم وقوع الصدامات أو وجود الخلافات الداخلية بين المسلمين وغيرهم والتي قد تعوق مسيرة الدولة الإسلامية أو تطيح بها وهي ما زالت في مهدها.

(١) هذه الوثيقة ستأتى بالنص قريباً.



وأراد النبي ﷺ أن يعمل من خلال هذه الوثيقة على حماية ظهره ونسائه وذرائه إذا خرج إلى الغزوات وتركهم في المدينة مع المشركين واليهود.

وأراد النبي ﷺ كذلك أن يظهر للكفار عدل الإسلام وسماحة المسلمين، ويضرب لهم أروع الأمثال في حسن المعاملة والجوار لعلهم يدخلون في الإسلام فتزداد أعداد المسلمين وتتسع رقعة الدولة الإسلامية.

«ففي موسم حج السنة التي سبقت هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة كانت بيعة العقبة التي عقدت بين الرسول ﷺ وممثلي سكان المدينة، من الأوس والخزرج وكانت هذه البيعة هي عقد التأسيس للدولة العربية الإسلامية الأولى، تلك الدولة التي بدأت تمارس سلطانها، عقب الهجرة في المدينة المنورة ثم اتسعت حدودها بغزوات الرسول ﷺ وفتوحات الإسلام.

ومنذ اللحظات الأولى، في حياة هذه الدولة كان لها «دستور» ينظم علاقات الرعية، ويحدد الحقوق والواجبات.

والمصادر التاريخية القديمة بدءًا من سيرة النبي ﷺ التي وضعها ابن هشام (٢١٣هـ-٨٢٨م) تسمى هذا الدستور «الصحيفة» و«الكتاب» وتسميتها هذه مأخوذة من صلب هذا الدستور فهو كما جاء في إحدى مواده «كتاب من محمد النبي رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم» وبين غيرهم من أهل يثرب المدينة - الذين، دخلوا في رعية الدولة الجديدة دون أن يدخلوا في الإسلام الدين وفي جماعة المؤمنين والمسلمين - والرعية المحكومون بهذا الدستور يوصفون - في إحدى مواده بأنهم «أهل هذه الصحيفة».

وإذا كان مصطلح «الدستور» هو من المصطلحات المعربة، التي دخلت العربية من اللغات الأخرى، وإذا كان هذا المصطلح يعني حديثاً: «مجموعة القواعد الأساسية التي تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها، ومدى سلطتها إزاء الأفراد<sup>(١)</sup>، فإن هذه «الصحيفة» هي «دستور» الدولة العربية الإسلامية الأولى بكل ما يعنيه حديثاً - مصطلح «الدستور» من مضامين.

(١) المعجم الوجيز «مادة دست» ص ٢٢٧ ط خاصة بوزارة التربية والتعليم سنة ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

## مبدأ الشورى والدستور:

وإذا كانت مصادر التاريخ لا تذكر لنا كيف «وضع وصيغ» هذا الدستور فإننا بحكم القاعدة الإسلامية الشرعية، نميل إلى أن وضعه وصياغته هي ثمرة لمشاورة الرسول ﷺ لوجوه الرعية، الذين يسمون فيه «أهل هذه» (الصحيفة) فهو نص ينظم شئون الدولة ويقنن العلاقات الدنيوية بين رعيتهما بالدرجة الأولى: ومن ثم فإن موضوعه مما تجب فيه الشورى الإسلامية وفق منطوق ومفهوم القرآن الكريم. ولقد صيغ هذا الدستور، لينظم القواعد الأساسية للدولة المدينة ورعيتهما بعد أن نزل الوحي بقسم كبير من القرآن الكريم فكان ذلك دليلاً على أن «القرآن» بالنسبة لدستور الدولة، هو الإطار فيه «المبادئ» وبه الروح والمقاصد والضوابط والغايات، وليس هو نص الدستور وذات مواده وعين قوانينه فلا بد أن يوجد بجانب القرآن الكريم دستور يطبق القواعد وينظم الحقوق ويحكم العلاقات ويصوغ جميع ذلك صياغة دستورية محكمة الدلالة بينة الحدود.

وإذا كانت الدولة التي صيغ هذا الدستور مع تأسيسها قد قامت في السنة الأولى من سنى الهجرة (سنة ٦٢٢ م) فإن حقيقة وجود دستور مكتوب لهذه الدولة، عرفته حضارتنا العربية الإسلامية، هي سنة من سنن الإسلام السياسى، لا تدعو إلى الفخار فحسب، وإنما تدعو - قبل ذلك وفوقه - إلى العض عليها بالنواجز كي لا تغيب هذه السنة الحسنة والضرورية من قسّمات «الدولة» ومقوماتها في دنيا الإسلام السياسى وواقع السياسة عند المسلمين فغيابها شكلاً أو فعلاً، عار لا يليق بخلف عرف أسلافهم هذه السنة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان!! وفي هذه الدستور، الذى قامت على أساسه دولة متحضرة في الحاضرة (يثرب) التى تحيط بها بيئة تغلب عليها البداوة والذى كان ثمرة إسلامية للشريعة التى أخرجت العرب من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام»<sup>(١)</sup>.

(١) من مقال للدكتور/ محمد عمارة بعنوان «وثيقة دستور دولة النبي في المدينة في مجلة منبر الإسلام» ص ٥٣، ٥٤

بتصرف عدد ٣ ربيع الأول سنة ١٤٢١ هـ يونيو ٢٠٠٠.

#### ٤ - نص الوثيقة السياسية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١ - هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] بين المؤمنين والمسلمين من قريش و(أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.
- ٢ - أنهم أمة واحدة من دون الناس.
- ٣ - المهاجرون من قريش على ربعتهم<sup>(١)</sup>، يتعاقلون<sup>(٢)</sup>، بينهم وهم يفدون عانيهم<sup>(٣)</sup>، بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٤ - وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين
- ٥ - وبنو الحارث (الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٦ - وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٧ - وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٨ - وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٩ - وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى

(١) أى أمرهم وشأنهم الذى كانوا عليه. أو على سكناتهم ونزلاتهم، أو على الحال التى جاء الإسلام وهم عليها (لسان العرب لابن منظور «ربع» ٣/ ١٥٦٧) بتصرف طبعة دار المعارف.

(٢) إعطاء المعاقل وهى الديات. أى: يكونوا على ما كانوا عليه من إعطاء الديات وأخذها (لسان العرب «عقل» ٤/ ٣٠٤٧ بتصرف).

(٣) الأسير أو المحبوس (لسان العرب «عنا» ٤/ ٣١٤٤، ٣١٤٥ بتصرف).

عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠- وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢أ- وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً<sup>(١)</sup>، بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل<sup>(٢)</sup>.

١٢ب- وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣- وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم، أو ابتغى دسيسة<sup>(٣)</sup>، ظلم، أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

١٤- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.

١٥- وأن ذمه الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

١٦- وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٧- وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

١٨- وأن كل غازية<sup>(٤)</sup>، غزت معنا يعقب بعضها بعضاً<sup>(٥)</sup>

(١) المثل بالدين: (لسان العرب «فرح» ٥/٣٣٧٢).

(٢) الدية (لسان العرب «عقل» ٤/٣٠٤٨).

(٣) الدفع والعطية، وفي لسان العرب: أى طلب دفعا على سبيل الظلم (لسان العرب «دسع» ٢/١٣٧٣، ١٣٧٤).

(٤) الجماعة تخرج للغزو والغزو: هو السير إلى قتال العدو (لسان العرب «غزا» ٤/٣٢٥٤ بتصرف).

(٥) أى يكون الغزو بينهم نوباً، فإذا خرجت طائفة ثم عادت لم تكلف أن تعود ثانية حتى تعقبها أخرى غيرها (النهاية «عقب» ٣/٢٦٧).

- ١٩- وأن المؤمنين يبيء<sup>(١)</sup>، بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.
- ٢٠أ- وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.
- ٢٠ب- وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن.
- ٢١- وأنه من اعتبط<sup>(٢)</sup>، مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود<sup>(٣)</sup>، به، إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل) وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.
- ٢٢- وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه<sup>(٤)</sup>، وأن من نصره، أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل<sup>(٥)</sup>
- ٢٣- وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد.
- ٢٤- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.
- ٢٥- وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ<sup>(٦)</sup>، إلا نفسه وأهل بيته.
- ٢٦- وأن لليهود بنى النجار مثل ما لليهود بنى عوف.
- ٢٧- وأن لليهود بنى الحارث مثل ما لليهود بنى عوف.
- ٢٨- وأن لليهود بنى ساعدة مثل ما لليهود بنى عوف.

(١) أى يتعادلون. وهو من البواء أى المساواة يقال: باوأيت بين القتل أى ساويت (النهاية «بوأ») ١/ ١٦٠ بتصرف).

(٢) أى قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله، فإن القاتل يقاد به ويقتل (لسان العرب «عبط») ٤/ ٢٧٨٦.

(٣) القصاص فى القتل، تقول: أقدت القاتل بالقتيل أى قتلت به (لسان العرب «قود») ٥/ ٣٧٧١ بتصرف).

(٤) أى من نصر جانبا أو آواه أو أجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يقتص منه، ومعنى الإيواء: الرضى به والصبر عليه (النهاية «حدث») ١/ ٣٥١. يقول الدكتور محمد سليم العوا: وقد فسر بعض الباحثين المحدثين كلمة «محدث» فى هذا النص بـ «وثنى» وهذا خطأ إذ المراد بالمحدث هنا مرتكب الجريمة وهذا من المبادئ القانونية التى تضمنتها هذه الصحيفة النبوية مبدأ تحريم إيواء المجرمين أو مساعدتهم (كتاب فى النظام السياسى للدولة الإسلامية هامش ص ٥٢ طبعة دار الشروق بالقاهرة).

(٥) العدل: أى الفداء، والصرف أى: التوبة (لسان العرب «صرف») ٤/ ٤٢٣٥.

(٦) يوتغ: أى يهلك (لسان العرب «وتغ») ٥/ ٤٧٦١.

- ٢٩- وأن لليهود بنى جشم مثل ما لليهود بنى عوف.
- ٣٠- وأن لليهود بنى الأوس مثل ما لليهود بنى عوف.
- ٣١- وأن لليهود بنى ثعلبة مثل ما لليهود بنى عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.
- ٣٢- وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.
- ٣٣- وأن لبنى الشطبية مثل ما لليهود بنى عوف، وأن البر دون الإثم<sup>(١)</sup>
- ٣٤- وأن موالى ثعلبة كأنفسهم.
- ٣٥- وأن بطانة يهود كأنفسهم.
- ٣٦أ- وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ .
- ٣٦ب- وأنه لا ينحجز<sup>(٢)</sup>، على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا.
- ٣٧أ- وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر<sup>(٣)</sup>، على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.
- ٣٧ب- وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.
- ٣٨- وأن يثرب حرام جوفها<sup>(٤)</sup>، لأهل هذه الصحيفة.

(١) وأن البر دون الإثم: أى أن الوفاء بما جعل على نفسه دون الغدر والنكث (النهاية «برر» ١/ ١١٧) أو أن البر بين أهل هذه الصحيفة يحول بينهم وبين الإثم (الروض الأنف للسهيلى ٢/ ٤١٧).

(٢) منعه وحال بينه وبين غرضه (النهاية «حجز» ١/ ٣٤٥ بتصرف).

(٣) النصر هنا بمعنى المناصرة، ونصره أى أعانه على عدوه وشد منه (النهاية «نصر» ٥/ ٦٤ بتصرف).

(٤) الجوف: المطمئن من الأرض والجمع أجواف، وذكر المطرى فى تاريخ المدينة (ومنه نسخة خطية فى مكتبة عارف حكمت فى المدينة المنورة) أن الرسول ﷺ أرسل بعض أصحابه أن يبنوا أعلاما على حدود حرم المدينة بين لابتيتها شرقا وغربا، وبين جبل ثور فى الشمال، وجبل عير فى الجنوب، ووادى العقيق داخل فى الحرم (كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة تأليف/ محمد حميد الله ص ٥٩٤ ط دار النفائس - بيروت - وكتاب فى النظام السياسى للدولة الإسلامية ص ٥٤).

- ٣٩- وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
- ٤٠- وأنه لا تجار حرمة<sup>(١)</sup>، إلا بإذن أهلها.
- ٤١- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث<sup>(٢)</sup>، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.
- ٤٢- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.
- ٤٣- وأن بينهم النصر على من دهم يشرب.
- ٤٤أ- وإذا دعوا إلى صلح يصلحون ويلبسونه<sup>(٣)</sup>، فإنهم يصلحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.
- ٤٤ب- على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.
- ٤٥- وأن يهود الأوس، مواليتهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.
- ٤٦- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وآثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد

(١) قال محمد حميد الله: أظن أن المراد بالحرمة هنا حرمة الجوار، فلا يجوز إعطاء الجوار إلا لأهل قوم أو بإذنهم فلا يجير الجار مستجير إلا بإذن مجيره، وفي القرآن ((وهو يجير ولا يجار عليه)) (الوثائق السياسية ص ٥٩٤)، يقول الدكتور محمد سليم العوا: ذهب ظافر القاسمي في كتابه نظام الحكم في الشريعة والتاريخ ص ٤٠ إلى أن معنى هذا النص ألا تجير امرأة إلا بإذن أهلها، وأظن فهم حميد الله أقرب إلى الصواب والله أعلم، ويؤيده ما ذهب إليه قول الرسول ﷺ ((قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ)) بعد أن شكت إليه أن أخاها علي بن أبي طالب أراد أن يقتل رجلاً من المشركين أجارته بأمانها. والحديث متفق عليه وسيأتي تحريجه ص ١٠٩ وجاء في كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢/ ٢٧٠ روايات تؤيد هذا المعنى أيضاً ثم رأيت خليفة المحفوظ ص ١٩٦، ينقل عن ابن الأثير تفسيرها بما لا يحل انتهاكه، ولا شك أن من ذلك حرمة الجوار (كتاب في النظام السياسي للدولة الإسلامية بتصرف هامش ص ٥٤).

(٢) الأمر الحادث: المنكر والمراد هنا الخلاف والنزاع (النهاية «حدث» ١/ ٣٥١ بتصرف).

(٣) إذا خالطه واشترك فيه (النهاية «لبس» ٤/ ٢٢٥ بتصرف).

رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

وإذا قرأنا هذه الوثيقة قراءة متأنية وتأملنا نصوصها، تبين لنا مدى الفقه السياسي الرشيد للنبي ﷺ في سياسة الخصوم والأتباع.

واتضح لنا كيف كان النبي ﷺ يمسك بزمام الأمور في المدينة المنورة - قاعدة الدولة الإسلامية - وكيف أنه نجح في إدارتها باقتدار بعد وضع هذه الوثيقة الدستورية الهامة التي نظم فيها شعب المدينة على اختلاف أديانهم وبين فيها بوضوح حقوق اليهود وواجباتهم مع الإشارة إلى حقوق المشركين وإلحاقهم باليهود في كثير من البنود. وقرر فيها حقوق المسلمين وواجباتهم، فضلاً عن تضمينها لكثير من القواعد العامة لجميع فئات الناس.

«وفي هذا الدستور يستطيع المتأمل أن يرصد الكثير من المبادئ والقواعد التي مثلت معالم على درب تطور وتقدم وتحرر وتحضر إنسان ذلك العصر، بل والتي لا تزال تحمل كثيراً من الخير لإنسان العصر الذي نعيش فيه.

ففيه تقنين لخروج الإنسان من إطار «القبيلة والقبلية» إلى رحاب الدولة والأمة فبعد أن كانت القبيلة هي «الأمة والدولة» غدت مجرد لبنة في كيان الدولة الجديدة والأمة الوليدة، والرعية السياسية التي أقامت بناءها الاجتماعي على أساس هذا الدستور»<sup>(٢)</sup>.

وبذلك يتضح لنا كثير من مبادئ الحضارة والتقدم والشمولية التي احتوتها بنود

(١) النص الذي أثبتته هنا أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٢٧١، ٢/ ٢٠٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص وذكره ابن إسحاق في السيرة موضوع (الرسول يوادع اليهود) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٩ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية بعنوان: في عقده ﷺ للألفة بين المهاجرين والأنصار بالكتاب الذي أمر به فكتب بينهم والمؤاخاة التي أمرهم بها وقرروا عليها وموادعته اليهود الذين كانوا بالمدينة ٣/ ٢٦٣. وأورده الدكتور محمد حميد الله في كتابه «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة» تحت عنوان «كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود، وهو دستور الدولة البلدية بالمدينة» ص ٥٩ وهذا النص عنده مأخوذ من مصادر عدة قام بدراسة مختلف الروايات التي وردت بها هذه الوثيقة. وحقق صحة نصوصها وقام بتحقيقها وتحريرها في رسالة حصل بها على درجة الماجستير تحت إشراف الدكتورة: عائشة عبد الرحمن سنة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م.

(٢) من مقال للدكتور / محمد عمارة في مجلة منبر الإسلام ص ٥٤ عدد ربيع الأول ١٤٢١ يونيو لسنة ٢٠٠٠ م.



هذه الوثيقة، فهي قد ربطت المجتمع ببعضه ببعض وألغت الفوارق وأذابت الحواجز بين أفراد الدولة وقضت على العصبية القبلية المقيتة.

«وحسبنا هذا الدستور الذي وضعه رسول الله ﷺ بوحي من ربه واستكتبه أصحابه، ثم جعله الأساس المتفق عليه فيما بين المسلمين وجيرانهم اليهود حسبنا ذلك دليلاً على أن المجتمع الإسلامي قام منذ أول نشأته على أسس دستورية تامة وأن الدولة الإسلامية قامت - منذ أول بزوغ فجرها - على أتم ما قد تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية والإدارية.

وظاهر أن هذه المقومات، أساس لا بد منه لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في المجتمع.

إذ هي في مجموعها إنما تقوم على فكرة وحدة الأمة الإسلامية، وما يتعلق بها من البنود التنظيمية الأخرى، ولا يمكن أن نجد أرضية يستقر عليها حكم الإسلام وتشريعه ما لم يقيم هذا التنظيم الدستوري الذي أوجده رسول الله ﷺ، على أنه في الوقت نفسه جزء من الأحكام الشرعية نفسها»<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - دراسة الوثيقة النبوية:

فيما يلي نقوم إن شاء الله بدراسة بعض بنود هذه الوثيقة السياسية النبوية مبرزين أهم المبادئ والحقوق والواجبات التي احتوتها مواد هذا الدستور:

##### أ - تعيين شخص رئيس للدولة:

نصت هذه الوثيقة النبوية في بعض موادها على تعيين شخص رئيس للدولة، تكون له الولاية الزمانية والسلطة التشريعية، والقدرة على التنفيذ، بحيث يمسك بيده زمام الأمور، ويرجع إليه الأمر والحكم في كل صغيرة وكبيرة، ولذلك كان لا بد من وجود وال يتولى أمور الناس، حتى تستقيم الأمور، وتسير في نصابها الصحيح.

يقول الإمام ابن تيمية رحمته الله:

يجب أن يعرف أن ولاية الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا

(١) فقه السيرة للبوطي ص ١٥٢.

بها. فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس<sup>(١)</sup>.

ولذلك رأى النبي ﷺ ببصيرته الواعية وسياسته الحكيمة أنه لا بد من وجود رئيس لكل جماعة من الناس يجمعهم مكان واحد حتى تستقيم الأمور وتدور عجلة الزمان.

يقول الإمام أبو داود رحمه الله تعالى: حدثنا علي بن بحر بن بري أخبرنا حاتم بن إسماعيل أخبرنا محمد بن عجلان عن نافع عن أبي سلمة عن أبي سعيد الخدري<sup>(٢)</sup>، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»<sup>(٣)</sup>.

فالنبي ﷺ أوجب الإمارة في الاجتماع القليل العارض وهو السفر تنبيها منه لأمته على اتخاذ الأمير في كل جوانب الحياة.

ولهذا نص النبي ﷺ في بعض بنود الوثيقة السياسية على اتخاذ رئيس للدولة وهو النبي ﷺ وجاء ذلك في البندين رقم ٢٣، ٤٢ فالأول قال فيه «وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

والبند الثاني: (٤٢) قال فيه «وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره».

يقول الدكتور محمد سليم العوا:

كذلك حددت نصوص الصحيفة شخص رئيس الدولة وهو رسول الله ﷺ بنصها على أن ما اختلف فيه «من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد» (م/٢٣) وبنصها

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. للإمام ابن تيمية ص ٢١٧ ط دار الإيمان بالإسكندرية.

(٢) هو الصحابي الجليل سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري، أبو سعيد الخدري له ولأبيه صحبة استصغر بأحد ثم شهد ما بعدها، ومات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين لله [الإصابة ٣/٧٨].

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد: ٨٧ باب في القوم يسافرون ويؤمرون أحدهم، ٧/٢١٥ ح ٢٦٠٥ عن أبي سعيد الخدري رحمه الله والإمام البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الحج ٣٦٨ باب القوم يؤمرون أحدهم إذا سافروا ٥/٢٥٧ ح ١٠٣٤٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كذلك على أن ما وقع بين أهل الصحيفة (أى القبائل والبطون المذكورة فيها) من حدث أو اشتجار «يخاف فسادَه فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله» (م/٤٢) ويبدو أن هذا النص يجعل الأحداث أو الخلافات بين أهل الصحيفة لا ترفع إلى رسول الله إلا إذا خيف من تفاقم الفتنة بين المواطنين في الدولة الجديدة بينما يجعل النص السابق أى اختلاف مهما كان نوعه راجعا إلى سلطة رسول الله ﷺ ليحكم فيه. ولعله لا تعارض بين الأمرين، إذ فهمنا النص الأول على أن المقصود به الخلاف فى تفسير نصوص الصحيفة نفسها أو تطبيقها فذلك - مهما هان شأنه - لا بد أن يفصل فيه الرسول ﷺ بنفسه.

أما النص الثانى: فيكون متعلقا بالخلافات التى تخرج عن نطاق تفسير نصوص الصحيفة وتطبيقها، أو بعبارة أخرى الخلافات بين الأفراد والجماعات ممن شملتهم نصوص الصحيفة ودخلوا فى حكمها، وعلى هذا الأساس فإن الخلافات المعتادة بين الأفراد والجماعات ممن شملتهم نصوص الوثيقة لا ترفع إلى الرسول ﷺ إلا إذا شكلت نوع خطورة على كيان الدولة واستقرارها.

أما النص الوارد فى الفقرة رقم (٣٦) التى تقرر أنه (لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ) فهو يشير إلى أن الرسول ﷺ قد تولى سلطة الرئاسة فى الدولة الإسلامية والهيمنة على إقليمها وفق نصوص الوثيقة، وباتفاق أهلها<sup>(١)</sup>.

#### ب- الفرد ومسئوليته:

وحددت هذه الوثيقة فى بعض بنودها ذاتية الفرد ومسئوليته حتى لا يلقي عبء مسئوليته على غيره، ولا يحمل غيره تبعاته وأخطائه فهذه الوثيقة أصبح ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥]. وجاء ذلك فى البند رقم ٢٥ الذى يقول فيه النبي ﷺ «من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته».

ونصت الوثيقة كذلك على أن لا تلحق إثم الحليف بحليفه وذلك فى البند رقم ٣٧ ب والذى ينص على «أنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم».

(١) فى النظام السياسى للدولة الإسلامية ص ٥٧ بتصرف.

«وقبل هذا الدستور ودولته، كانت شخصية الفرد ذائبة في كيان القبيلة شرفه لها. ووزره عليها وتبعاته مطلوبة منها - وعليها عقوبات الجرائم التي يقتربها - فجاء هذا الدستور ليقنن لطور جديد في تطور الإنسان العربي - «فروض الكفاية» الاجتماعية - جعلها الإسلام على «الأمة» و«فروض العين» الفردية - أوجبها على الفرد بدلا من القبيلة» التي سعى الإسلام إلى تذويبها في الأمة - وبذلك برزت ذاتية الفرد ومسئوليته، ووقفت الآثار، في أحيان كثيرة عند أهل بيته فنص الدستور على أن «من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ - يهلك - إلا نفسه وأهل بيته» وبعد أن كانت: القبيلة» تلحق إثم «الحليف» بحليفه جاء هذا التطور، الذي قننه هذا الدستور، عندما نص على «أنه لا يأثم امرؤ بحليفه» وكذلك الحال مع «الجار» فنص على (أن الجار كالنفس - غير مضار ولا آثم).

لقد برزت ذاتية: الفرد، المسئول المكلف.. ونص الدستور على أنه «لا يكسب كاسب إلا على نفسه»<sup>(١)</sup>

#### ج - المواطنة بين الحقوق والواجبات:

لقد راعت هذه الوثيقة حقوق كل مواطني المدينة المنورة على اختلاف دياناتهم فلم تهتم بأحدهم وتهمل الآخر ولم تحاب أحدهم على حساب الآخر ولكن فرضت لكل واحد من الفريقين من الحقوق إزاء ما عليه من واجبات.

«ولقد استخدم هذا الدستور مصطلح «الأمة» بمعنى الرعية السياسية وهو يعبر عن هذا البناء «السياسي - الاجتماعي» الجديد لقد نص على أن المسلمين «أمة واحدة من دون الناس» فهم «أمة الدين» وجماعته المؤمنة به - ثم نص على (أن يهود بنى عوف ومن مائلهم من اليهود العرب) أمة مع المسلمين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم - فقرر التسوية في «المواطنة» وحقوقها وواجباتها بين هذه «الرعية السياسية» وأقر التمايز الديني القائم في داخل هذا الإطار «القومي - السياسي» - (وأنه من تبعنا من يهود فإن له: النصر والأسوة).

(١) من مقال للدكتور محمد عمارة في مجلة منبر الإسلام ص ٥٤ بتصرف يسير عدد ربيع الأول لسنة ١٤٢١ يونيو لسنة ٢٠٠٠ م.

إنها إذن دولة إسلامية قومية القيادة العليا فيها للمسلمين والإطار الحاكم و«الجامع المانع» في تحديد «الرعية» وتمييزها عن الغير قومي، ولا يستبعد غير المسلمين الذين ارتضوا الحياة داخل هذه الدولة الواحدة، والذين جمعتهم بالمؤمنين سمات القومية الواحدة فهم رعية واحدة بالمعنى السياسى يحكمها وينظم علاقاتها هذا الدستور<sup>(١)</sup>.

والوثيقة لم تحصر المواطنة في الدولة الإسلامية في المسلمين وحدهم بل اعتبرت أن اليهود المقيمين في المدينة من مواطنى الدولة وحددت ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات جاء ذلك في البند الخامس والعشرين من بنود هذه الوثيقة حيث إنها قررت أن (يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم).

ولم يقتصر الأمر على يهود بنى عوف وحدهم. وإنما نصت الوثيقة من الفقرة السادسة والعشرين إلى الفقرة السادسة والثلاثين على أن ما تقرر لليهود بنى عوف فإنه ينطبق على كل قبائل اليهود ولم يقف الأمر على اليهود وحدهم وإنما أشارت الوثيقة إلى واجبات وحقوق المشركين من أهل المدينة وفي ذلك إشارة إلى أنهم دخلوا في حكم الدولة الإسلامية وأصبحوا عن رعاياها وخضعوا لأسس تنظيمها وأصبحوا ملزمين بنصوص وثيقتها.

وهذا واضح في نص الفقرة (٢٠ ب) الذى يقرر (أنه لا يجير مشرك مألًا لقريش، ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن).

#### د- الحقوق والواجبات في نقاط:

واجبات المسلمين وفقا لما تضمنته الوثيقة السياسية النبوية:

- ١- المسلمون في المدينة سواء كانوا مهاجرين أو أنصار أمة واحدة متراسة متكافلة متحابية.
- ٢- من لحق بالمسلمين في المدينة بعد كتابة هذه الوثيقة فإن عليه ما على

(١) المرجع السابق ص ٥٥ بتصرف.

المؤمنين من واجبات.

٣- المهاجرون من قريش يتكافلون فيما بينهم في دفع الديات المترتبة على أى واحد منهم.

٤- المهاجرون من قريش يتكافلون فيما بينهم في فك من يؤسر منهم في الحرب أو في غير ذلك، فيبذلون من أموالهم فداء لهذا الذى وقع في الأسر.

٥- تحدد المساعدة في فك الأسير وغيره بما تعارف عليه الناس، على ألا يصادم العدل من عادات قبل الإسلام. وقبل نزول التشريع الإسلامى، فإن التشريعات المفصلة لم تنزل إلا بعد كتابة هذه الوثيقة، ولم يكتمل التشريع إلا بعد ثلاث وعشرين سنة من بعثة الرسول ﷺ وبعد أحد عشر عاما من هجرته ﷺ.

٦- كل قبيلة من قبائل المدينة تتكافل فيما بينها في دفع الديات المترتبة عليها وتتكافل كذلك في بذل الفداء لفك الأسير من الأسر.

والدية بين المؤمنين واحدة لا فرق بين قبيلة وقبيلة، وكذلك الفداء، تأمل قول رسول ﷺ (وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيه بالمعروف والقسط بين المؤمنين).

وقد تكرر هذا النص مع بنى ساعدة وبنى الحارث، وبنى جشم، وبنى النجار وبنى عمرو بن عوف، وبنى النبيت، وبنى الأوس، وتكرر هذا النص من قبل ذلك مع المهاجرين من قريش رضوان الله عليهم أجمعين.

٧- يتكافل المؤمنون فيما بينهم ويساعدون المثقلين بالديون نتيجة كثرة العيال أو التزام بالدية أو فكاك أسير.

٨- وجوب اجتماع قوة المسلمين للتصدى لكل من أراد إلحاق ظلم أو عدوان بالآخرين، أو إفساد بين المؤمنين، ومطاردته وإن كان من أبناء المسلمين.

٩- عدم القصاص من المؤمن إذا قتل كافراً، لأنه لا يقتل مؤمن بكافر، وتأمل قوله ﷺ «(ولا يقتل مؤمن مؤمناً بكافر)».

١٠- حرمة نصر المؤمن لأى كافر على أى مؤمن، وإن كان الكافر من أصول أو

فروع أو أقارب المؤمن.

١١ - المسلمون يتناصرون فيما بينهم ولا ينصرون أحداً من غيرهم على أحد

منهم

١٢ - عهد المسلمين واحد فإن الجميع متساوون في ذلك، وكل واحد يعطى العهد لا تخفر ذمته ولا يلغى عهده، ولا يتعدى على من أجاره، تأمل قوله ﷺ (وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم) أى أن المسلم إذا أعطى بعهد الله الأمان لأى كافر فعهد ماض ولو كان فرداً في جيش أو امرأة من نساء المؤمنين فقد أجاز النبي ﷺ إجارة أم هانئ لرجل مشرك من أقاربها وقال ﷺ : «أجرنا من أجرت يا أم هانئ»<sup>(١)</sup>

١٣ - عقد المسلم الذى يعقده الحاكم المسلم أو القائد أو غيره ملزم لجميع المسلمين لأن سلم المؤمنين واحد كما أخبر الرسول ﷺ .

١٤ - يجب مراعاة مصلحة المسلمين وتقديرها في إعطاء العهود بالأمان لغير المسلمين في القتال.

١٥ - الغزو الكفائي يتناوب الناس فيه، ويتناوب أفراد كل قبيلة أو كل حى ولا يلزم خروج الجميع دائماً فالفئة التى تذهب للغزو تستريح في الغزوة الثانية وتخرج للغزو التى لم تخرج في الغزوة الأولى تأمل قوله ﷺ «وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً»<sup>(٢)</sup> .

١٦ - يجب أن يكون المسلمون على أحسن حال واستقامة وعدالة.

١٧ - وجوب قتل القاتل عمداً إلا أن يعفو ولى المقتول، والواجب على المسلمين أن يقيموا القصاص والعقوبة على القاتل إذا قامت البينة على ذلك.

١٨ - وجوب الاحتكام إلى الله وكتابه ورسوله ﷺ عند الاختلاف.

(١) أخرجه البخارى: في كتاب الصلاة: ٤ باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحقاً به: ١/ ٨٥٧ ح ٣٥٧ عن أم هانئ رضى الله عنها.

(٢) أى يكون الغزو بينهم نوباً فإذا خرجت طائفة ثم عادت لم تكلف أن تعود ثانية حتى تعقبها أخرى غيرها (النهاية «عقب» ٣/ ٢٦٧) .

١٩- وجوب الامتناع عن نصره المحدث وإيوائه، فإن نصره المحدث وإيوائه تستحق لعنة الله تبارك وتعالى وغضبه يوم القيامة.

٢٠- وجوب الوفاء بما ورد في هذه الصحيفة من بنود تأمل قوله ﷺ (وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره).

٢١- الامتناع عن إجارة كافرين من قريش، وكذلك الامتناع عن إجارة كل حلفاء قريش والامتناع عن مناصرتها والمتعاطفين معها ضد المسلمين<sup>(١)</sup>.

هـ- حقوق المسلمين على ضوء ما ورد في الوثيقة النبوية:

إن دراستنا لنصوص الوثيقة المتعلقة بالمسلمين تهدينا إلى استخلاص الحقوق التالية لهم:

١- ما يترتب للمسلمين سواء كانوا مهاجرين أو أنصار من حقوق وواجبات ينطبق على كل مسلم لحق بالمسلمين في المدينة وجاهد معهم.

٢- المسلمون يتكافلون فيما بينهم ولكل فرد حق في العون والمساعدة إذا تعرض للضيق والشدة والأسر والأزمات المالية.

٣- الحرية الدينية عند المسلمين مكفولة، يكفلها رئيس الدولة الإسلامية (رسول الله ﷺ) وما فرض الجهاد إلا للدفاع عن حرية الناس في اختيار الدين، الذي يرتضونه دون الوقوع تحت أى ضغط مادي أو معنوي.

٤- حق المسلم في الدولة الإسلامية في الأمن والأمان، وعدم ترويعه والاعتداء عليه، بل المحافظة على دمه وعرضه وماله.

٥- حق المسلم والمسلمين في المدينة على غير المسلمين الذين يقيمون في كنف المسلمين في الدولة الإسلامية في المدينة أن ينصروهم ضد من يعتدى عليهم أو يبغيهم شرًا.

٦- من حق المسلمين على اليهود: الإسهام في النفقات الحربية.

(١) السيرة النبوية دراسة تحليلية ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١ بتصرف.



٧- من حق المسلمين على يهود المدينة الذين هم من رعايا الدولة الإسلامية أن يدافعوا عن المدينة تجاه أى معتد أو غاز، فاليهود يدافعون من الجهة التى يسكنونها والمسلمون كذلك.

و- واجبات يهود المدينة على ضوء ما ورد فى الوثيقة:

لو تأملنا بعض النصوص التى تتعلق باليهود نجد أنها قررت عليهم الواجبات التالية:

- ١- وجوب مشاركة يهود المدينة المسلمين فى النفقات الحربية.
- ٢- وجوب الوفاء بما ورد فى هذه الوثيقة من بنود.
- ٣- وجوب المحافظة على أمن المجتمع الإسلامى وأمن أفراد.
- ٤- وجوب معاقبة الغادر والناقض للعهد.
- ٥- الواجبات المترتبة على اليهود تجب على مواليهم وبطانتهم وحلفائهم.
- ٦- وجوب الاستئذان من الرسول ﷺ - وهو رئيس الدولة الإسلامية - عند الخروج من المدينة، فإن أعطى الأذن لأحد خرج، وإن لم يعط أحداً إذنًا بالخروج لم يخرج.
- ٧- الغادر الفاتك المروع للآمنين يجب معاقبته ومعاقبة من يخضع له من أهل بيته ويوافقه على ذلك وهذا ينطبق على يهود بنى قينقاع وبقيّة اليهود فى المدينة بعامّة.
- ٨- نفقات اليهود الخاصة تجب عليهم دون غيرهم وكذلك نفقات المسلمين الخاصة لا يتحملها أحد غيرهم.
- ٩- الوقوف ضد أى عدوان على المدينة.
- ١٠- الإسهام فى الخير العام ووجوهه.
- ١١- العدوان الشخصى يقتضى القصاص على المعتدى ولا يتعدى ذلك إلى غيره من أقاربه.
- ١٢- وجوب معاداة قريش العدو لللدود للمسلمين مهاجرين وأنصار.

- ١٣ - عدم مساعدة قريش أو إجارة واحد من القرشيين أعداء الرسول ﷺ الساعين لتفويض أركان الدولة الإسلامية، بأى وجه من وجوه المساعدة.
- ١٤ - معاداة نصراء قريش وحلفائها وعدم مساعدتهم مادياً ومعنوياً وبأى وجه من وجوه المساعدة والعون.
- ١٥ - وقوف اليهود مع المسلمين فى وجه كل من يهاجم المدينة.
- ١٦ - وجوب دخول اليهود فى أى صلح يعقده المسلمون يتعلق بالمدينة ويجب على اليهود أن يلتزموا بما جاء فى هذا الصلح من بنود.
- ١٧ - وجوب دخول اليهود فى أى صلح يطلبه الرسول ﷺ والمسلمون منهم ويلتزمون بما جاء فى بنود هذا الصلح، هذا وقد طلب الرسول ﷺ من يهود بنى النضير الدخول فى صلح مع المسلمين بعد نقض كعب بن الأشرف - أحد زعمائهم - العهد، وعاقبه الرسول ﷺ بالقتل، وقد هددهم بنفس العقوبة إن اقترفوا ما اقترف، ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه فكتبوا بينهم كتاباً تحت العذق<sup>(١)</sup>، فى دار رملة<sup>(٢)</sup>، بنت الحارث، فحذرت<sup>(٣)</sup>، اليهود وخافت وذلت من يوم قتل ابن الأشرف<sup>(٤)</sup>.
- ١٨ - لا يصالح اليهود من كان عدواً للمسلمين.
- ١٩ - كل قبيلة يهودية تدافع عن المدينة من جهتها.
- ٢٠ - الإنسان مأخوذ بجريرة عمله.
- ز - حقوق يهود المدينة المنصوص عليها فى الوثيقة:
- عند قراءتنا لنصوص الوثيقة النبوية نجد أنها قررت لليهود الحقوق التالية:

(١) العذق بالفتح: النخلة، والعذق: بالكسر: العرجون بما فيه من الشماريخ (النهاية «عذق» ٣/ ١٩٩)

(٢) رملة بنت الحارث بن ثعلبة بن الحارث بن زيد الأنصارية النجارية كانت من المبايعات وزوجها معاذ بن ثابت ابن رفاعة [الإصابة ٦٥١/ ٧].

(٣) حذرت: تيقظت واستعدت وخافت (المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية بمصر «حذرت» ص ١٤١).

(٤) المغازى للواقدي ١٩٢/ ١ طبع فى كلكتا سنة ١٨٥٦، الناشر الجمعية الآسيوية فى البنغال.

- ١- اليهود من رعاية الدولة الإسلامية في المدينة المنورة فتابعيتهم لهذه الدولة.
  - ٢- لليهود الحق في نصرمة المسلمين والدفاع عنهم إذا تعرضوا لأى عدوان سواء كان ذلك العدوان على دمائهم أو على أعراضهم أو على أموالهم.
  - ٣- يحرم الاعتداء على اليهود في المدينة من أى إنسان كان.
  - ٤- يمنع أى إنسان من ظلم اليهود وأكل أى حق من حقوقهم، والسلطة المسلمة مكلفة بإنصاف المظلومين وإعادة حقوقهم المهضومة لهم.
  - ٥- لليهود حرية العقيدة والعبادة والتدين وليس لواحد أن يكرههم على دين الإسلام.
  - ٦- لموالى اليهود وحلفائهم نفس الحقوق التى قررتها الوثيقة لليهود أنفسهم.
  - ٧- بذل النصيح لمستحقه. وكذلك التظلم والتشكى.
  - ٨- لا تتعدى العقوبة إلى غير الجانى ولا يملك أحد مطاردة غير الجناة ولا سيما فى العدوان الشخصى والخصومات الفردية والمنازعات الشخصية فى التعامل والعقود المدنية.
  - ٩- جميع ما ذكر من حقوق فى هذه الوثيقة الدستورية تسقط إذا نقض العهد بالغدر والخيانة والاعتداء<sup>(١)</sup>
- وهكذا منح النبي ﷺ يهود المدينة كثيرا من الحقوق التى كفلت لهم معيشة آمنة مستقرة داخل الدولة الإسلامية.

وهذه الوثيقة تدل على مدى العدالة والمساواة التى اتسمت بها معاملة النبي ﷺ لليهود، وكان من المؤكد أن يعيش اليهود آمنين يتمتعون بكل ما كفل لهم من مزايا وحقوق لو لم تتغلب عليهم طبيعتهم من حب المكر والخيانة والخديعة ونقض العهود. فمن المعلوم أنهم سرعان ما ضاقوا ذرعا بما ورد فى هذه الوثيقة وخرجوا على رسول الله ﷺ بالغدر والخيانة ونقضوا عهودهم بعد أن التزموا بهذه الوثيقة من قبل، فأنكروا بعد أن أقروا وأدبروا بعد أن أقبلوا وكانوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة

(١) السيرة النبوية دراسة تحليلية ص ٤٤٢، ٤٤٣، بتصرف.

انكاثا لذا كان جزاء النبى ﷺ لهم من جنس عملهم.

#### ح- تحديد أسس المواطنة فى الدولة:

نصت الوثيقة السياسية فى أحد بنودها على اعتبار دين الإسلام أساسا للمواطنة فى الدولة الإسلامية، وألغت هذه الوثيقة الرابطة القبلية المقيتة وأحلت مكانها الرابطة الدينية فوصفت المسلمين بأنهم «أمة من دون الناس» وهذا النص يجعل من المسلمين أمة واحدة متماسكة يجمع بين أفرادها الإيمان بالدين الإسلامى دون النظر إلى الروابط القبلية أو النسبية وهذه ظاهرة استحدثتها الإسلام ولم تعرف فى المجتمع العربى من قبل حيث إن الرباط الذى كان يجمع بينهم قبل الإسلام هو رباط القرابة والنسب.

«فالبند الأول من هذه الوثيقة النبوية يدلنا على أن الإسلام هو وحده الذى يؤلف بين المسلمين وهو وحده الذى يجعل منهم أمة واحدة، متماسكة ويعمل على إذابة الفوارق والمميزات فيما بينهم ويجعلها تضحل وتنتهى ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة نفهم هذا واضحا جليا من قوله ﷺ «المسلمون من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس» وهو أول أساس لا بد منه لإقامة مجتمع إسلامى قوى متماسك سليم.

#### ط- تقرير مبدأ العدل والمساواة:

يقول الدكتور البوطى:

«يدل البند الخامس عشر على مدى الدقة فى التسوية بين المسلمين لا من حيث إنها شعار براق للزينة والعرض، بل من حيث إنها ركن من الأركان الشرعية الهامة للمجتمع الإسلامى، يجب تطبيقه بأدق وجه وأتم صورة، وحسبك مظهرا لتطبيق هذه المساواة بين المسلمين ما قرره النبى ﷺ فى هذا البند بقوله «ذمة الله واحدة، يجير عليهم أديانهم»، ومعنى ذلك أن ذمة المسلم أيّا كان محترمة، وجواره محفوظ لا ينبغى أن يجار عليه فيه، فمن أدخل من المسلمين أحدا فى جواره فليس لغيره حاكما أو محكوما أن ينتهك حرمة جواره هذا والمرأة المسلمة لا تختلف فى هذا عن الرجل إطلاقا غير أن المهم أن تعلم الفرق بين هذه المساواة الإنسانية الرائعة التى أرسنها شريعة الإسلام والمظاهر التقليدية لها مما ينادى به، عشاق المدنية الحديثة اليوم. تلك

شريعة من المساواة الدقيقة القائمة على الفطرة الإنسانية الأصيلة، يتوخى منها سعادة الناس كلهم نساء ورجالا، أفرادا وجماعات، أما ما ينادى به عشاق المدنية الحديثة اليوم فهي نزوات حيوانية أصيلة يتوخى من ورائها اتخاذ المرأة مادة تسلية ورفاهية للرجل على أوسع نطاق ممكن دون أى نظر إلى أى شيء آخر<sup>(١)</sup>.

#### ي- تقرير مبدأ التكافل:

«ولقد استن هذا الدستور سنن «التكافل» بين رعية الأمة وجماعتها في مختلف الميادين مادية أو معنوية كانت تلك الميادين. فالأمة متكافلة ومتضامنة في «الحق» (وأن النصر للمظلوم) وهى متكافلة ومتضامنة في المساواة القانونية (ذمة الله واحدة.. والمؤمنون يجير عليهم أدناهم) الأمر الذى يعنى رفض «الطبقية» الجاهلية، عرقية كانت أو اجتماعية وهذه الأمة متكافلة متضامنة كذلك في المعاش والأموال فهى مع (المفرح) - أى المثقل بالدين - حتى يتحرر من الدين الذى يثقل كاهله<sup>(٢)</sup>.

#### ك- تحريم الظلم:

وهذا الدستور النبوى الحكيم الذى أوجب الواجبات وتكفل بالحقوق فضمنها للرعية قد استثنى الظلم والإثم وقرر أنه لا حماية لأى ظالم أو آثم مهما كان وضعه وبهذا يكون قد حرم الظلم بكل ألوانه بين جميع الطبقات في نصه على «أنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم».

#### ل- تقرير مبدأ الانضمام إلى المعاهدة بعد توقيعها:

«ولعل دستور المدينة هو أول وثيقة في التاريخ تقرر مبدأ جواز الانضمام إلى المعاهدات بعد توقيعها ذلك المبدأ الذى أصبح من مسلمات قواعد المعاهدات الدولية في العصر الحديث. فقد نصت مادتها الأولى على أن نصوصها منطبقة على أطرافها الأصليين «ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم» وتكرر ذكر ذلك أيضًا في المادة (السادسة عشر) من هذه الوثيقة.

(١) فقه السيرة النبوية للبوطى ص ١٥٣ بتصرف.

(٢) من مقال للدكتور محمد عمارة في مجلة منبر الإسلام ص ٥٥ عدد المحرم ١٤٢١ هـ يونيو لسنة ٢٠٠٠ م.

## م- الوثيقة تنص في بعض مبادئها على أمور غير سياسية:

إن هذه الوثيقة النبوية وضعت وكانت بمثابة نظام متكامل ومنهاج حياة، نظمت الحياة بكل جوانبها الاجتماعية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والدينية، ومع أنها وثيقة يغلب عليها الطابع السياسي إلا أنها نصت في بعض بنودها على مبادئ غير سياسية وذلك لإبراز أهميتها وإلزام جميع الأطراف الذين تشملهم هذه الوثيقة بالنزول على حكمها ومن ذلك إلزام اليهود أن يساعدوا المسلمين بأموالهم أثناء الحروب مقابل نصيب من الغنيمة يعطى لليهود ونصت كذلك على وجوب القود أو القصاص في القتل ونصت كذلك على منع إيذاء المجرمين والآثمين، وعلى تخصيص العقوبة على مرتكب الإثم وحده.

## ن- الوثيقة تبقى على بعض الأعراف القبلية:

إيماناً بأن الله فطر الناس على طاعته، وعلى العدل والمساواة، رفع الإسلام من شأن العرف السليم طالما أنه لا يخالف روح الدين وجعله مصدراً من مصادر التشريع، ولذلك نجد أن النبي ﷺ في وثيقته السياسية أبقى على بعض الأعراف القبلية، وكأنه يريد أن يوافقهم في بعض مبادئهم استمالة لقلوبهم حتى يقوى إيمان المؤمنين ويشق الإسلام طريقة إلى قلوب الجاحدين طالما أن هذه الأعراف لا تخالف روح الشريعة ولكنها تتفق مع حقائق الدين، وأراد النبي أن يعلم الرعية أنه لا يريد الإطاحة بكل ما تعارفوا عليه إذا كان يتفق مع روح الدستور الجديد ولذلك أبقى النبي ﷺ ما يتعلق بأمر الديات كما هو فقال في بعض بنود الوثيقة «يتعاقلون معاقلهم الأولى» أى يسيرون في الموقف من «الدية» «العاقلة» على ما كان معروفاً عندهم قبل الإسلام.

## س - الوثيقة تمنع عقد أى صلح منفرد مع أعداء الأمة:

«نصت الوثيقة في فقرتها السابعة عشر على أن «سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم»». وهذا النص يقتضى عدم جواز إبرام صلح منفرد مع أعداء الأمة الإسلامية. وهذا الحكم موجه أساساً إلى الحكام في الأمة الإسلامية إذ هم الذين يتولون عقد المعاهدات في أثناء الحروب وبعدها، فلا يجوز لحاكم أن ينفرد بإبرام صلح مع أعداء الأمة المحاربين لها، سواء

أكان هذا الحاكم رئيسًا للدولة، أم قائدًا لجيوشها أم مسئولًا في أى قطاع في قطاعاتها. ولا تعارض بين الحكم الوارد في هذا النص من نصوص الوثيقة وبين الحكم الذى قرره حديث نبوى شريف: يقول الإمام أو داود رحمهما الله تعالى: حدثنا قتيبة بن سعيد أخبرنا ابن أبى عدى عن ابن إسحاق هو محمد ببعض هذا ح وأخبرنا عبيد الله ابن عمرو بن ميسرة قال حدثنى هشيم عن يحيى بن سعيد جميعا عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»<sup>(١)</sup>، يسعى بذمتهم أدناهم<sup>(٢)</sup>، ويحير عليهم أقصاهم<sup>(٣)</sup>، وهم يد على من سواهم<sup>(٤)</sup>، يزد مشداهم على مضعفهم<sup>(٥)</sup>، ومتسريهم<sup>(٦)</sup>، (ومتسرعهم) على قاعدتهم لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده»<sup>(٧)</sup>.

- (١) أى تتساوى في القصاص والديات (النهاية «كفاً» ٤ / ١٨٠).
- (٢) يسعى بذمتهم أدناهم: أى إذا أعطى أحد لجيش العدو أماناً جاز ذلك على جميع المسلمين، وليس لهم أن يخفروه ولا أن ينقضوا عليه عهده وقد أجاز عمر رضي الله عنه أمان عبد على جميع الجيش (النهاية «ذمم» ٢ / ١٦٨).
- (٣) ويحير عليهم أقصاهم: قال الخطابي: معناه أن بعض المسلمين وإن كان قاصى الدار إذا عقد للكفار عقداً لم يكن لأحد منهم أن ينقضه وإن كان أقرب داراً من المعقود له (عون المعبود ٧ / ٣٣٧ النهاية «جور» ١ / ٣١٣).
- (٤) وهم يد على من سواهم: أى هم مجتمعون على أعدائهم، لا يسعهم التخاذل بل يعاون بعضهم بعضاً على جميع الأديان والملل، كأنه جعل أيديهم يداً واحدة، وفعلهم فعلاً واحداً (النهاية «يد» ٥ / ٢٩٣).
- (٥) المشد: الذى دوابه شديدة قوية والمضعف الذى دوابه ضعيفة يريد أن القوى من الغزاة يساهم الضعيف فيما يكسبه من الغنيمة (النهاية «شدد» ٢ / ٤٥١).
- (٦) المتسرى: الذى يخرج في السرية وهى طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو، وجمعها السرايا، سموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم، من الشئ السرى النفيس، وقيل سموا بذلك لأنهم ينفذون سرّاً وخفية، وليس بالوجه لأن لام السراء وهذه ياء ومعنى الحديث: أن الإمام أو أمير الجيش يبعثهم وهو خارج إلى بلاد العدو، فإذا غنموا شيئاً كان بينهم وبين الجيش عامة لأنهم ردء لهم وفئة، فأما إذا بعثهم وهو مقيم، فإن القاعدين معه لا يشاركونهم في المغنم، فإن كان جعل لهم نفلاً من الغنيمة لم يشاركهم غيرهم في شيء منه على الوجهين معا (النهاية «سرى» ٢ / ٣٦٣).
- (٧) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ١٥٩ باب في السرية ترد على أهل العسكر ٧ / ٣٣٧ ح ٢٧٤٨ والترمذى في كتاب الولاء الهبة ٣ باب في من تولى غير مواليه أو دعى إلى غير أبيه ٦ / ٢٦٧، ٢١٢٧ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب الدييات ٣١ باب المسلمون تتكافأ دماؤهم ٢ / ٤٦٣ ح ٢٦٨٣ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢ / ١٩٣ جميعهم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

ولا تعارض بينه وبين الحكم النبوي الذي بمقتضاه أجاز النبي ﷺ أمان المرأة<sup>(١)</sup>، على الرغم من أنها لم تكن مقاتلة، فالدولة يجب أن تلتزم بالأمان الفردي الذي يمنحه فرد من المسلمين لفرد آخر وهو موضوع هذين الحديثين، ولكن لا يجوز لأحد أن يلزم المسلمين بصلح له صفة الدوام والاستمرار مع أعدائهم إلا إذا رضوا به جميعاً، أو رضى به ألوا الرأي فيهم. وكانت شروطه عادلة تضمن للمسلمين حقوقهم وهذا هو معنى قول النص: «لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهما» ومعنى السواء هنا الاتفاق الذي يقبله جميع المسلمين أو جميع ذوى الشأن منهم. ومعنى العدل ألا يتضمن الصلح حيفاً على أحد من المسلمين أو انتقاصاً من حقه الثابت له شرعاً<sup>(٢)</sup>.

## ٦- الدولة الإسلامية تمارس وظائفها على أساس تلك الوثيقة:

«وعلى أساس النصوص السابق ذكرها تكونت الدولة الجديدة وأخذت تباشر مهامها التي شملت كل نواحي النشاط السياسى المعروفة آنذاك في مجالاتها المختلفة فنظمت الدفاع وسياسة الحروب في الغزوات التي باشرها الرسول ﷺ بنفسه أو بواسطة قواد سراياه وبعوثه وبثت التعليم بين رعاياها، ومن انضم إلى الدين الجديد خارج المدينة

(١) جاء ذلك في الحديث الذي رواه الإمام البخارى بقوله: حدثنا إسماعيل بن أبى أويس قال حدثنى مالك بن أنس عن أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله أن أبا مرة مولى أم هانئ بنت أبى طالب أخبره أنه سمع أم هانئ بنت أبى طالب تقول: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره قالت: فسلمت عليه فقال: من هذه؟ فقلت أنا أم هانئ بنت أبى طالب: فقال: مرحباً بأم هانئ فلما فرغ من غسله قام فصلى ثمانى ركعات ملتحفاً في ثوب واحد، فلما انصرف قلت يا رسول الله زعم ابن أمى أنه قاتل رجلاً قد أجرته فلان بن هبيرة. فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرنا يا أم هانئ: وذلك ضحى» وأجارتها: أى أمنتها من الإجارة بمعنى الأمن (عون المعبود ٧/ ٣٥١) والحديث أخرجه البخارى في كتاب الصلاة ٤ باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحفاً به ٨٥٧/١ ح ٣٥٧ ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ١٣ باب استحباب صلاة الضحى ٣/ ٢٤٨، ٢٤٩ ح ٣٣٦ مكرر وأبو دوداد في كتاب الجهاد ١٦٧ باب في أمان المرأة ٧/ ٣٥١ ح ٢٧٦٠ عن أم هانئ والإمام مالك في الموطأ كتاب قصر الصلاة في السفر ٨ باب صلاة الضحى ١/ ١٤٢ والدارمى في كتاب الصلاة ١٥١ باب صلاة الضحى ١/ ٣٦٧ ح ١٤٥٣ والإمام أحمد في المسند ٦/ ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤ والبيهقى في السنن الكبرى كتاب السير ٧٦ باب أمان المرأة ٩/ ٥٩ ح ١٨١٧٣ جميعهم عن أم هانئ رضي الله عنها.

(٢) في النظام السياسى للدولة الإسلامية ص ٥٩ بتصرف.



كما حدث في اليمن والبحرين وغيرهما، ونظمت موارد الدولة المالية بتنظيم الزكاة وطرق جبايتها وفق ظروف العصر وعقدت المعاهدات مع الجماعات التي كانت محاربة لها، أو التي اختارت طريق السلم إزاء دعوتها، وأنفذت السفارات إلى العالم الخارجى فوضعت بذلك أساسًا للعلاقات الدولية حين تكون الدولة الإسلامية طرفًا فيها.

وعلى هذه الصورة ثبتت دعائم النظام السياسى، فى المدينة، ورسخ قدم الدولة الناشئة التى ضمت بعد نحو عشر سنوات معظم أنحاء الجزيرة العربية ودخل فى عقيدتها، وخضع لحكومتها، معظم سكان الجزيرة العربية وقد مارست هذه الدولة الجديدة السلطات التى تمارسها أى دولة فى العالم قديمة وحديثة - وهى سلطات التشريع والقضاء والتنفيذ. رغم أن هذه التعبيرات من ابتداع النظم الدستورية والقانونية فى العصر الحديث إلا أنه من المسلم به أن الدولة الإسلامية - منذ قيامها - قد عرفت هذه السلطات الثلاث وأن ممارسة هذه السلطات قد نظمت وقعدت القواعد الضابطة لها، فى ضوء المبادئ الأصولية والفقهية التى شرحها وبينها - فيما بعد - الفقهاء المسلمون<sup>(١)</sup>.

وقد تكونت القواعد الأساسية التى تحكم سلطات الدولة الإسلامية وطريقة مباشرتها لوظائفها ابتداء من هذا العهد النبوى - بعد تأسيس دولة الإسلام الأولى فى المدينة - وخلال عهود الخلفاء الراشدين. فكانت الأعمال والمواقف التى وقعت فى هذه الحقبة التاريخية هى التى تكون - بالإضافة إلى نصوص القرآن والسنة ذات الصبغة الدستورية أو المتعلقة بسياسة الدولة - معيار الحكم على ما تلا ذلك العهد من عهود، والأساس، النظرى لجميع الآراء والنظريات المتعلقة بحياة المسلمين فى جانبها السياسى<sup>(٢)</sup>.

## ٧- الوثيقة مازالت تعطى ثمارها إلى الآن:

هذه الوثيقة التى وضعها النبى ﷺ فى السنة الأولى من الهجرة لا تزال تعطى

(١) فى النظام السياسى للدولة الإسلامية نقلًا عن كتاب (السلطات الثلاث فى الدساتير العربية وفى الفكر السياسى

للدكتور سليمان الطماوى ص ٦٠١ وما بعدها بتصرف ط القاهرة ١٩٧٤م.

(٢) فى النظام السياسى للدولة الإسلامية ص ٦١.

ثمارها إلى الآن، بشرط أن نعمل بما فيها، ونجعلها منهاج حياة ومشعل هداية نهتدى به وسط الظلام، وهى خير شاهد على أن شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان، فالمشكلات التى عاجلتها هذه الصحيفة فى ذلك الوقت هي عين المشكلات التى نعيشها فى هذه الأيام، والأعداء هم الأعداء وإن تطاولت بيننا وبين أولئك الأيام، فما أشبه اليوم بالأمس وما أشبه الأخلاف بالإسلاف والوثيقة مازالت لسانا ناطقا وقلبا نابضا يدلان على أن كلامه ﷺ لم يتقادم ولم يخلق على كثرة الرد أو يعفو عليه الزمان، فتبدو كأنها وضعت بالأمس القريب.

«وإذا كان تطور المجتمعات، وتعقد شئون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، قد فرض ويفرض التطور فى الآفاق وفى الصياغات اللازمة للدساتير المعاصرة. فإن قراءة هذا الدستور الأول للدولة العربية الإسلامية الأولى هي من الضرورات النافعة للأمة رغم تجاوز واقعنا للملايسات التى قننها ذلك الدستور.

لقد حدد لنا اقتداء بالقرآن الكريم - أن المرجع عند الاختلاف هو كتاب الله وسنة رسوله، ففيهما «المبادئ» و«الفلسفات» و«الأطر» الحاكمة للواقع المتغير دائما والمتطور باستمرار (وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ).

كذلك تعلمنا منها ويجب أن نتعلم أن أمة اقترن تأسيس دولتها الإسلامية الأولى بالدستور المكتوب المنظم للعلاقات والحقوق والواجبات لا يليق بها أن تنكص على أعقابها، فيحكمها الاستبداد، متحللا من ضوابط الدستور «شكلا» و«فعلا» كما يحدث حيناً - و«فعلا» رغم وجود «الشكل» - كما يحدث فى كثير من الأحيان»<sup>(١)</sup>.

وإنى أوصى جميع المسلمين فى كل بقعة من بقاع الأرض، أن يعملوا بما ورد فى هذه الوثيقة النبوية طالما أنهم أعلنوا أن دين الإسلام هو الدين الرسمى لمواطنهم فشرية الله المتمثلة فى كتابه تعالى وسنة رسول الله ﷺ هي الحكم، العدل والطريق السليم، والصراط المستقيم، والمنهاج القويم الذى لا يجوز للمسلمين أن يهرعوا إلى

(١) من مقال للدكتور محمد عمارة فى مجلة منير الإسلام ص ٥٦ عدد ربيع الأول ١٤٢١ هـ يونيو لسنة ٢٠٠٠ م.

غيره، في سائر خصوماتهم وخلافاتهم وشئون حياتهم ومهما بحثوا عن حلول لمشكلاتهم بعيدا عن هذين المصدرين فإنهم لن يهتدوا، لأن حلولهم وإن أفادت في بعض الجوانب فإنها تضر بمقدار ما تفيد أو أكثر في جوانب أخرى. ثم هم آثمون معرضون أنفسهم للشقاء في الدنيا والآخرة.

وإني قد أطنبت في دراسة هذه الوثيقة لأهميتها في بناء الكيان السياسي، للدولة الإسلامية ولدلالاتها على الحنكة السياسية الرشيدة للنبي ﷺ «فلا يفوتنا التنبيه هنا إلى أن هذه الوثيقة «دستور المدينة» تبين في وضوح وجلاء عبقرية رسول الله ﷺ في السياسة والصياغة على السواء. فقد كتبت هذه الوثيقة على غير مثال سبقها، وشملت نصوصها مع ذلك - أغلب ما كانت تحتاج إليه الدولة الناشئة في تنظيم شئونها السياسية، وصيغت هذه الوثيقة صياغة بالغة الدقة، يعرف ذلك كل من تعود قراءة نصوص المعاهدات الدولية والدساتير الحديثة وأدرك ما تثيره نصوصها من خلاف في الفهم أو التطبيق فقارنه بما ورد في هذه الصحيفة من نصوص. ولا تزال المبادئ التي تضمنتها هذه الصحيفة - في جملتها معمولا بها - والأغلب أنها ستظل كذلك - في مختلف نظم الحكم المعروفة إلى اليوم والتي وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها في أول وثيقة سياسية دونها - أو بالأحرى أملاها - النبي ﷺ»<sup>(١)</sup>.

والوثيقة تعتبر أهم عمل سياسي واضح كان عليه المدار في بناء كيان الدولة السياسي، وتعتبر من أول الوثائق السياسية التي عرفها العالم في تنظيم شعب من الشعوب تجمعهم بقعة واحدة وإن اختلفت بينهم الديانات والأنساب والأجناس. ويتضح لنا من خلال دراستها أن النبي ﷺ كان يفكر على مستوى دولة، ويعمل على إسعاد العالم كله على اختلاف أديانه وأوطانه ويقوم بتحقيق العدل والمساواة بين كل أفراد وشعوب الدنيا لكي يعيش هو ومن معه في أمن وسلام.

وبهذا يكون النبي ﷺ قد أقام الدعامة الثالثة من دعائم بناء الدولة الإسلامية في المدينة بعد الهجرة، وقد أسهبت الحديث، وكتبت بإفازة في هذا الموضوع لأبين أنه كان أمرا صعبا بذل فيه النبي ﷺ أقصى جهده وتفكيره «ولا يخفى أن تكوين أي

(١) في النظام السياسي، للدولة الإسلامية ص ٦١ بتصرف يسير.

مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يستتب في يوم واحد أو شهر واحد أو سنة واحدة، بل لابد له من زمن طويل، يتكامل فيه الشريع، والتفنين مع الثقيف والتدريب والتربية تدريجيًا، وكان الله كفيلاً بهذا التشريع وكان رسول الله ﷺ قائماً بتنفيذه والإرشاد إليه وتربية المسلمين»<sup>(١)</sup>، ﴿مو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ [الجمعة: ٢].



(١) الرحيق المختوم في السيرة النبوية لفضيلة الشيخ صفى الرحمن المباركفوري ص ١٧٦ طبعة دار الإيمان بالإسكندرية.

## الفصل الثاني

### إعلان قيام الدولة الإسلامية سياسياً

بعد أن أقام النبي ﷺ المقر الرسمي للدولة الإسلامية وأصلح الأوضاع الداخلية، ووضع دستور المدينة وخضع الناس لحكم الله وقيادة رسوله ﷺ وبدؤوا في تنفيذ نصوص تلك الوثيقة، قامت دولة الإسلام، منذ ذلك اليوم ولم يبق إلا الإعلان الرسمي عن قيامها.

والمعلوم أنه لما استحكم أمر الإسلام، وأحل الناس الحلال وحرّموا الحرام فأقيمت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام، جعل النبي ﷺ يفكر في وسيلة يجمع بها الناس للصلاة وتكون وسيلة إعلام عن مجئ وقتها.

وكان عبد الله بن زيد بن ثعلبة يفكر في وسيلة يدعو بها الناس للصلاة ويهمه ما أهم رسول الله ﷺ فنام في ليلة وهو يفكر في هذا الأمر فرأى رؤيا حق وصدق فقد طاف به رجل في منامه وعلمه كلمات الأذان.

قال الإمام أبو داود رحمته الله:

حدثنا محمد بن منصور الطوسي حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن محمد بن إسحاق حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه حدثني أبي عبد الله بن زيد<sup>(١)</sup>، قال: لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يعمل ليضرب به للناس لجمع الصلاة طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده فقلت: يا عبد الله أتبيع الناقوس؟ قال وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة، قال أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت له: بلى، قال فقال: تقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، قال ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: ثم تقول إذا

(١) هو الصحابي الجليل: عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن زيد من بني جشم بن الحارث بن الخزرج الأنصاري رآني الأذان مات سنة اثنتين وثلاثين، وهو ابن أربع وستين وصلى عليه عثمان رضي الله عنه [الإصابة ٤ / ٩٧].

أقمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله،  
 حتى على الصلاة، حتى على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة. الله أكبر الله  
 أكبر لا إله إلا الله فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت فقال: «إنها  
 لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به فإنه أندى صوتاً  
 منك»، فقمتم مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به قال: فسمع ذلك عمر بن الخطاب  
 رضي الله عنه وهو في بيته فخرج يجرد رداءه يقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت  
 مثل ما رأى فقال رسول الله ﷺ «فلله الحمد»<sup>(١)</sup>

وكان هذا الأذان الذي يدوى في كل مكان بمثابة الإعلان الرسمي للقيام  
 السياسي لدولة الإسلام في المدينة، فالمؤذن يعلن فيه بأعلى صوته بأن الله أكبر من كل  
 شيء أكبر من كبرياء الظالمين وظلم المعتدين وكيد الحاقدين، ثم ينادي المؤذن بأعلى  
 صوته أنه لا إله إلا الله، فلا معبود بحق سواه، وهو إعلان عن الدين الرسمي لدولة  
 الإسلامية وهو التوحيد، والإسلام لرب العالمين، ثم يعلن المؤذن بصوت مرتفع أن  
 محمداً رسول الله. فيعلم كل شعوب المدينة أنه رسول حقاً وصدقاً، وأنه هو الحاكم  
 لدولة الإسلام، ثم يعظم الصلاة بقوله «حتى على الصلاة»، فيعلن عن عظمة الصلاة  
 التي هي أساس الدين وحبله المتين وركنه الركين تلك العبادة التي توثق صلة البعد  
 بربه وتقوى صلة العبد بإخوانه من خلال اجتماعه معهم كل يوم خمس مرات في مكان  
 واحد، ثم يجيء الفلاح الذي أخبر عنه من قبل فالفلاح كل الفلاح في الإيمان بهذه  
 للأشياء وتعظيمها ثم ينهي الأذان بالتكبير وشهادة التوحيد، فالأذان هو الإعلان  
 الرسمي، عن قيام دولة الإسلام في المدينة.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ٢٧ باب كيف الأذان ١٢٩/٢ ح ٤٩٥ والإمام أحمد في المسند ٤/٤٣ وابن  
 خزيمة في كتاب الصلاة ٣٧ باب ذكر الخبر المفسر لللفظة المجملة التي ذكرتها والدليل على أن النبي ﷺ إنما  
 أمر بأن يشفع بعض الأذان لا كلها وأنه أمر بأن يوتر بعض الإقامة لا كلها... إلخ ١/١٩٣ والكتاب طبعة  
 المكتب الإسلامي الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م. وابن حبان في كتاب الصلاة باب ذكر الخبر المصرح بأن  
 النبي ﷺ هو الذي أمر بلالاً بتثنية الأذان وإفراد الإقامة ٣/٩٣، ٩٤ ح ١٦٧٧ طبعة دار الكتب العلمية الأولى  
 ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م والبيهقي في كتاب الصلاة: باب ٣٩ بدء الأذان ١/٣٩٠/٣٩١ ح ١٨٣٥. جميعهم عن  
 عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

يقول الأستاذ الدكتور محمد رواس قلمهجي:

«وإني مع إقرارى بهذا كله، ومع اعترافى وإيماني بأن الأذان هو دعوة للصلاة إلا أنني أسمع بأذن داخلي صوت عقلي يقول: إن للأذان معنى آخر ومهمة أخرى غير مهمة الدعوة للصلاة، إنه إعلان رسمي صادر عن مقر الدولة الرسمي - المسجد - وبواسطة أداة إعلام رسمية - هي المؤذن الذي عينه رسول الله ﷺ رئيس الدولة - بقيام دولة الله في الأرض بقيادة محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، بعد أن تجاوزت كل العقبات التي وضعها العتاة الظلمة في طريق قيامها، وفاق تدبير الله كل تدبير، وفاقته قوته كل قوة تأمل إن شئت أول كلمات الأذان «الله أكبر الله أكبر» إنها تعني أن الله تعالى أكبر من أولئك الطغاة، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره «أشهد أن لا إله إلا الله» فلا سيادة في دولة الإسلام لغير الله ولا حكم إلا له ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

«أشهد أن محمدًا رسول الله» «أسلمه الله تعالى القيادة، فليس لأحد أن ينتزعها منه فهو ماض بها إلى أن يكمل الله دينه، بما ينزل على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إياه من سنة» «حى على الصلاة حى على الفلاح» أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدولة التي أخلصت لله، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين الإنسان وخالقه، وتمتين العلاقة بين الإنسان والإنسان على أساس من القيم الإنسانية السامية «قد قامت الصلاة» نعم قد قامت الصلاة بقيام هذه الدولة، ولولا قيامها لما جرؤ أحد على عبادة الله، الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ثم يعود ليؤكد في نهاية الأذان أن السيادة في دولة الإسلام لله تعالى وحده، وأن الحكم فيها لشريعته»<sup>(١)</sup> اهـ.

(١) قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ١١٤ بتصرف يسير.

### الفصل الثالث

#### دعوى «لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين» بين الحقيقة

#### والباطل

يقول بعض المغرضين: إنه لا علاقة بين السياسة والدين، وأن دين الإسلام جاء لينظم علاقة العبد مع ربه، فلا علاقة له بسياسة المجتمع أو بتنظيم أمور الحياة.

يقول الدكتور عبد العزيز محمد سرحان:

(ولعل من غير المرغوب فيه دفع رجال الدين، والجيش، والبوليس للمبايعة فهذه الجهات لا يجب توظيفها سياسيا، عملا بمبدأ أرساه الرئيس السادات هو «لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين»<sup>(١)</sup>، هـ).

والواقع أن السياسة جزء من أجزاء الدين لا تنفك عنه أبد الآبدين، وأن القول بفصل الدين عن الدولة أو السياسة هو عين ما تدعو له العلمانية التى تريد أن تجعل الدين فى واد والدولة فى واد آخر.

والحقيقة أن قولهم هذا باطل مردود عليهم من كل باب دخلوه وعلى أى وجه أرادوه، فالإسلام دين ودولة، عبادة وسياسة والذى يقول غير ذلك فهو يهرف بما لا يعرف، لأن هذه الدعوى تخالف آيات القرآن الكريم وتضرب بها عرض الحائط، والذى يتلو القرآن الكريم يجد آيات كثيرة تنظم حياة الأمم والشعوب وتضع القواعد الأساسية التى تقوم عليها الدولة الإسلامية، وتتولى أمور السياسة والحكم، وترسم الطريق لولاية أمور المسلمين، وتبين أن السياسة من صميم الدين. ومن ذلك قوله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ خَصِيْمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

(١) من كتاب أزمة المنظمات العربية والإسلامية — فى عصر الهيمنة الأمريكية الإسرائيلية، دراسة مقارنة مع نظرية التنظيم الدولى الإقليمى وآخر تطورات الصراع العربى الإسرائيلى ومشاكل الأقليات والإرهاب والأمن الاستراتيجى والاقتصادى. للدكتور عبد العزيز محمد سرحان. أستاذ ورئيس قسم القانون الدولى العام، جامعات عين شمس، وليبيا، والكويت ٣٦/١ طبعة القاهرة سنة ١٤٢١ هـ سنة ٢٠٠٢ م.



مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ.... ﴿[المائدة: ٤٨]،  
وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ...﴾ [المائدة: ٤٩]  
وكذلك الآيات التي نصت على أن الحكم لله وحده قال تعالى ﴿إِن الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ .  
[الأنعام: ٥٧].

والآيات التي أمرت بطاعة الله ورسوله ﷺ وولاية أمور المسلمين من العلماء  
والأمرأ فيما أمروا به من طاعة الله لا في معصيته وأمرت برد التنازع والخلاف في أى  
أمر من أمور الحياة إلى الله ورسوله ﷺ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ  
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ  
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وكذلك الآيات التي  
جعلت الرضا بحكم الرسول الأمين شرطاً في إيمان المؤمنين، قال تعالى: ﴿فلا وربك  
لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجرك بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت  
ويسلموا تسليماً﴾ [النساء: ٦٥] يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية يقسم تعالى بنفسه  
الكريمة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو  
الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا  
قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أى إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم  
حرجاً مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من  
غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة<sup>(١)</sup> ا.هـ.

وهناك آيات كثيرة فصلت أحكام الديات والقصاص والحدود وكثير من القواعد  
والأحكام التي نظمت المجتمع على الصراط المستقيم والطريق القويم، وكذلك  
أحكام السرقة والقتل والزنا والحقوق المالية والعينية، وعلى ذلك فلا حجة لمن قال  
بالفصل بين الدين والسياسة كما أن هذه الدعوى تناقض واقع الإسلام وتخالف  
حقائق تاريخية، فالمعلوم أن النبي ﷺ بنى مسجده في المدينة بعد الهجرة مباشرة، ولم  
يقتصر دور المسجد على كونه مكاناً للعبادة فقط ولكنه كانت له مهمات أخرى كما

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٠.

أسلفت من قبل<sup>(١)</sup>.

«فقد تجلت رسالة المسجد النبوي الشريف وقد شهدنا نشاطات المسلمين في كافة المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقيام المسجد النبوي في المدينة كان نقطة تحول في حياة المدينة المنورة، ففي المسجد كان النبي ﷺ يعلم المسلمين أمور دينهم ودنياهم.

ومن هنا كان المسجد النبوي أول جامع للمسلمين، وأول برلمان للإسلام فيه يناقش المسلمون قضاياهم، وفيه يعقد مجلس الشورى، وفيه يعقد لواء الحرب، وفيه تعقد المعاهدات، وتستقبل الوفود<sup>(٢)</sup>.

وعلى ذلك فالمسجد نفسه كان له دور سياسى بارز، ومن داخله كانت تنظم شئون المسلمين وتدار أمور حياتهم، وبهذا يظهر أن الإسلام ليس دعوة إلى الكهنوت أو الصومعة ولكنه منهاج كامل وشامل لكل أمور الدنيا والدين.

وإذا كان الدين لا علاقة له بالسياسة، فماذا يقول هؤلاء المغرضين في سياسة النبي ﷺ في مكة وما قام به من أمر بيعتى العقبة الأولى والثانية، ومبايعته الأنصار على الإيواء والنصرة، وإعداده لقيام دولة الإسلام في المدينة المنورة؟ وماذا يقولون في سياسة الهجرة من ترتيب وتنظيم؟ وماذا يقولون في مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار وإصلاحه بين الأوس والخزرج وأهدافه السياسية في هذا الجانب<sup>(٣)</sup>؟ وماذا يقولون في فصله في الخصومات بين الناس؟ وتوليته أمر القضاء بينهم؟ وإقامة الحدود؟ وبناء الاقتصاد الإسلامى وتنظيم الأسواق؟ وماذا يقولون في إرساله السفراء والمفوضين؟ وفي كتبه ورسائله إلى الملوك والأمراء؟ وفي استقباله الوفود وسياسته معهم؟ وفي تنظيمه أمور الجهاد والإمارة وغيرها؟ أليست هذه الأمور من صميم السياسة والعمل التنظيمى لإصلاح أمور الحياة؟

(١) وذلك في موضوع الأهداف التى أراد النبي ﷺ تحقيقها من خلال المؤاخاة.

(٢) تطور الفكر السياسى فى الإسلام تأليف د/ فتحية النبراوى، د/ محمد نصر مهنا ٧٣/٢، ٧٤ طبعة دار المعارف الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤ م.

(٣) انظر موضوع: الأهداف التى أراد النبي ﷺ تحقيقها من خلال المؤاخاة.

ثم إن وثيقة دولة النبي ﷺ في المدينة تعد من أروع الأعمال السياسية التي تنظم أمور الشعوب في دولة تجمعهم، وهي وثيقة سياسية تصدر عن أتقى الرجال لله وأعظمهم قياماً بأمر دين الله، فكيف يكون الفصل بين الدين والسياسة؟

((ومن هنا تسقط دعاوى أولئك الذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم عن هذه الحقيقة البديهية، ثم يزعمون أن الإسلام ليس إلّا ديناً قوامه ما بين الإنسان وربه، وليس له من مقومات الدولة والتنظيم الدستوري شيء. وهي أحبولة عتيقة، كان يقصد منها محترفوا الغزو الفكري وأنصار الاستعمار، أن يقيدوا بها الإسلام كي لا ينطلق فيعمل عمله في المجتمعات الإسلامية ولا يصبح له شأن قد يتغلب به على المجتمعات المنحرفة الأخرى، إذ الوسيلة إلى ذلك محصورة في أن يكون الإسلام ديناً لا دولة وعبادات مجردة، لا تشريعاً وقوانين، وحتى لو كان الإسلام ديناً ودولة في الواقع فينبغي أن ينقلب فيصبح غير صالح لذلك ولو بأكاذيب القول.

غير أن هذه الأحبولة تقطعت سريعاً، لسوء حظ أولئك المحترفين، وأصبح الحديث عنها من لغو القول، ومكشوف الحقد والضغائن.

ويكن مهما يكن، فينبغي أن نقول: ((أن مولد المجتمع الإسلامي نفسه إنما كان ضمن هيكل متكامل للدولة، وما تنزلت تشريعاته إلّا ضمن قوالب من التنظيم الاجتماعي المتناسق من جميع جهاته وأطرافه))<sup>(١)</sup>.

وعلى ذلك فإنه توجد علاقة وطيدة بين الدين والسياسة، فالسياسة جزء لا يتجزأ من الدين الإسلامي.

ويقول الدكتور محمد عمارة، في معرض حديثه عن الوثيقة السياسية النبوية مبيناً أن دولة النبي ﷺ في المدينة لم تكن دولة دينية فحسب.

(ورغم أن الحاكم للدولة كان النبي ﷺ وعليه ينزل وحى السماء بالقرآن الكريم أي أنه قد جمع «الولاية الزمنية» إلى النبوة والرسالة إلّا أن هذه «الدولة» لم تكن «دولة دينية» بالمعنى الذي عرفته مجتمعات غير إسلامية وفلسفات غير إسلامية،

(١) فقه السيرة النبوية للبوطي ص ١٥٢ بتصرف.

والذى تسربت بعض من مقولاتها إلى بعض من فرق الإسلام.

فهذا الدستور قد «تميز» عن القرآن، وإن لم يخالف روحه ومبادئه و«رعية» هذه الدولة لم تقف عند «الجماعة» - الأمة - المؤمنة بل كانت «رعية سياسية» اتخذت من المعيار السياسى والإطار «القومى» ميزانا حددت وميزت به الرعية عن الأغيار، فهى قد شملت إلى جانب الجماعة «المؤمنة» بالإسلام - سكان يثرب ومن خالفهم ووالاهم وتبعهم ولحق بهم، بمن فيهم من العرب الذين كانوا قد تهودوا ومن الأعراب الذين «أسلموا» بمعنى أنهم انخرطوا فى الرعية السياسية - ولما يدخل «الإيمان» بالدين الإسلامى بعد إلى قلوبهم - وكذلك ضمت هذه «الرعية السياسية» الذين نافقوا» النبي والمؤمنين فأظهروا الإسلام وأخفوا كراهية الإيمان بالدين الجديد»<sup>(١)</sup> ١٠هـ.

والنبي ﷺ على ذلك كان يحسن القيام بأمور السياسة كما كان يحسن القيام بتبليغ دعوة الله إلى الناس متتهجا فى كلا الأمرين أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة. «وقد كانت هذه الوثيقة التى مر ذكرها دليلاً على أن الإسلام دين ودولة وهى واحدة من الأسس، بل يمكن أن نعتبرها إحدى الدعائم الرئيسة التى أقام عليها رسول الله ﷺ دولته فى المدينة، وهى تعكس قدرة النبي ﷺ وحكمته السياسية التى استطاعت أن تخلق أمة جديدة اختفت فيها الروابط القبلية القائمة على الدم والعصبية وحلت محلها نصوص الصحيفة التى خلقت مجتمعاً متكاملًا متوازنًا»<sup>(٢)</sup>.

«فالذين زعموا أن الدين لا علاقة له بالسياسة من قبل، والذين اخترعوا أكذوبة «لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين» من بعد كانوا أول من كذبوها بأقوالهم وأفعالهم. فطالما لجأ هؤلاء إلى الدين ليتخذوا منه أداة فى خدمة سياستهم، والتنكيل بخصومهم، وطالما استخدموا بعض الضعفاء والمهازيل من المنسويين إلى علم

(١) من مقال للدكتور محمد عمارة فى مجلة منبر الإسلام ص ٥٥ بتصرف يسير عدد المحرم سنة ١٤٢١هـ يونيوسنة ٢٠٠٠م.

(٢) من كتاب تطور الفكر السياسى فى الإسلام د/ فتحية النبراوى د/ محمد نصر مهنا ٧٥/٢ بتصرف — ط دار المعارف الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤م بتصرف يسير.

الدين ليستصدروا منهم فتاوى ضد من يعارض سياستهم: الباطلة دينا والعاطلة دنيا.

### هل السياسة أمر منكر؟

«والسياسة من الناحية النظرية - علم له أهميته ومنزلته، وهى من الناحية العلمية مهنة لها شرفها ونفعها لأنها تتعلق بتدبير أمر الخلق على أحسن وجه ممكن.

نقل الإمام ابن القيم عن الإمام أبى الوفاء بن عقيل الحنبلى: أن السياسة هي الفعل الذى يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ما دامت لا تخالف الشرع. وذكر ابن القيم أن السياسة العادلة لا تكون مخالفة لما نطق به الشرع، بل هي موافقة لما جاء به بل هي جزء من أجزائه ونحن نسميها «سياسة» تبعا لمصطلحكم، وإنما هي عدل الله ورسوله<sup>(١)</sup>، وقد نوه علماءنا السابقون بقيمة السياسة وفضلها حتى قال الإمام أبو حامد الغزالي: «إن الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا، والملك والدين توأمان، فالدين أصل، والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع»<sup>(٢)</sup>.

وقد عرفوا الإمامة أو الخلافة بأنها: نيابة عامة عن صاحب الشرع وهو رسول الله ﷺ في «حراسة» الدين، و«سياسة» الدنيا به<sup>(٣)</sup>، فالخلافة حراسة وسياسة.

وقد كان النبي ﷺ سياسياً بجانب كونه مبلغاً ومعلماً وقاضياً، فقد كان هو رئيس الدولة، وإمام الأمة، وكان خلفاؤه الراشدون المهذبون من بعده سياسيين على نهجه وطريقته، حيث ساسوا الأمة بالعدل والإحسان، وقادوها بالعلم والإيمان<sup>(٤)</sup>.

أبعد هذا الاندماج وبعد هذه العلاقة الوطيدة بين الدين والسياسة يصح قول المغرضين أنه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين؟

(١) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية لابن القيم ص ١٣-١٥ ط السنة المحمدية.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ١٧/١ باب العلم الذى هو فرض كفاية ط دار المعرفة بيروت.

(٣) انظر: النظريات السياسية الإسلامية للدكتور. ضياء الدين الرئيس ص ١٢٥ الطبعة السادسة.

(٤) من فقه الدولة في الإسلام د/ يوسف القرضاوى ص ٩٨ بتصرف ط دار الشروق بالقاهرة الطبعة الثانية سنة

١٤١٩هـ، سنة ١٩٩٩م.

يقول الدكتور محمد سليم العوا حول هذه الدعوى:

«من الأمور التي احتدم فيها الجدل بين المفكرين في هذا العصر تلك المشكلة الخاصة بالعلاقة بين «الدين والدنيا» في الإسلام. أو بعبارة أخرى مشكلة علاقة الإسلام بالسياسة فبعض الناس يرى عدم جواز الخلط بين الدين والسياسة بحجة أن الذين يريدون إقامة سياسة الحكم في الدولة الإسلامية على أساس من تعاليم الإسلام يستغلون الدين لتحقيق أهداف سياسية وهذا الرأي والدعوى التي أسس عليها كلاهما لا يتسق مع منطق الإسلام بقدر ما يخالف حقائق تاريخه.

فأما عدم اتفاقه مع منطق الإسلام فلأن سياسة الدولة في الإسلام جزء من تعاليمه، والإسلام دين بقدر ما هو قانون وعقيدة بقدر ما هو نظام كامل للحياة وتفصيل ذلك مبسوط في موضعه من كتب الفقه وعلم الكلام والسياسة الشرعية والأحكام السلطانية فليس مما يتفق ومنطق الإسلام أن يفصل الحاكمون أو يقبل المحكومون الفصل بين تعاليم الإسلام وسياسة الدولة الإسلامية إذ ليست الثانية إلا فرعاً من الأولى.

وأما مخالفة هذا الرأي لحقائق تاريخ الإسلام فبيانها أن هذا التاريخ من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وحتى إلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا على يد الدكتاتور «مصطفى كمال أتاتورك» وأنصاره من يهود الدونمة لم يكن إلا تاريخ الدولة الإسلامية التي شادت حضارة من أعظم حضارات الدنيا إن لم تكن أعظمها على الإطلاق - من خلال نظام سياسى، حقق للناس بالإضافة إلى حريتهم وكرامتهم عدالة استطاعوا في ظلها أن يقوموا بأعباء الدعوة والدولة معاً وأن يقوموا بحمل مشعل الحضارة العالمية عدة قرون، وحينما يدعى بعض الناس اليوم أن العمل السياسى من دعاة الإسلام غير مقبول وأن الإسلام سلوك فردى وعمل حضارى - وتعاليم خلقية فحسب فإن دعواه تعنى الحكم بتخطئة المسلمين جميعاً على امتداد تاريخ الإسلام كله إذ لم يقل أحد خلال هذا التاريخ بفصل تعاليم الإسلام عن العمل السياسى، أو بحرمان فقهاء الإسلام وعلمائه ودعاته من العمل السياسى، فهل غابت عن هذه الأجيال التي لا يجد علماؤها حصر مبررات هذه الدعوى أم تبيينوها وتجاهلوها استغلالاً من جانبهم للدين في تحقيق أطماعهم السياسية .

اللهم إن الأمر لا هذا ولا ذاك ولكن علماء الأمة الإسلامية على طول تاريخها فقهوا من الإسلام ما لم يفقه أصحاب هذه الدعوى وأدركوا من حقائقه ما لا يدركون وبينوا في دراستهم وأثبتوا بعلمهم صواب ما فقهوا ونتائج ما أدركوا<sup>(١)</sup> ١-هـ.

وعلى ذلك فالذين يقولون بالفصل بين الدين والسياسة لا يعدو كلامهم على أن يكون تهمة جريئة، وطعنة طائشة، وأكذوبة مفضوحة يقصدون من ورائها إقصاء الدين عن كل مجالات الحياة، وحصره في دائرة المسجد فقط من خلال أداء ركعات خالية من القلب الحاضر.

يقول الدكتور يوسف القرضاوى:

«استمات الاستعمال وعلماءه ليثبتوا فكرة: أن الإسلام لا علاقة له بالسياسة ولا صلة له بالدولة، كما جاهد الدعاة المصلحون، ليعلموا المسلمين فكرة «شمول الإسلام» وبعبارة أخرى: ليعيدوا إليهم ما كان مقرراً وثابتاً طوال ثلاثة عشر قرناً من الزمان أى قبل دخول الاستعمار والغزو الفكرى إلى ديارهم وهو أن الإسلام يشمل الحياة كلها بتشريعه وتوجيهه: رأسياً منذ يولد الإنسان حتى يتوفاه الله. بل من قبل أن يولد، وبعد أن يموت، حيث إن هناك أحكام شرعية تتعلق بالجنين، وأحكام تتعلق بالإنسان بعد موته وأفقياً: حيث يوجه الإسلام المسلم في حياته الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية من أدب الاستنجاء إلى إمامة الحكم، وعلاقات السلم والحرب. وكانت نتيجة هذا الجهاد واضحة، هي وجود قاعدة ضخمة تؤمن بهذا الشمول وتنادى بالإسلام عقيدة وشرعية، ودينًا ودولة، في كل أقطار الإسلام.

وعلى ذلك فالإسلام الذى جاء به القرآن والسنة، وعرفته الأمة سلفاً وخلفاً، وهو إسلام متكامل لا يقبل التجزئة. إنه الإسلام الروحى، والإسلام الأخلاقى والإسلام الفكرى، والإسلام التربوى، والإسلام الجهادى، والإسلام الاجتماعى، والإسلام الاقتصادى، والإسلام السياسى. إنه ذلك كله، لأن له في كل هذه المجالات أهدافاً وغايات كما أن له فيها كلها أحكاماً وتوجيهات<sup>(٢)</sup> ١-هـ.

(١) في النظام السياسى، للدولة الإسلامية ١٢٠ بتصرف

(٢) فقه الدولة في الإسلام د/ يوسف القرضاوى ص ٢٣ بتصرف.

والمعلوم أن أتقى صحابة رسول الله ﷺ وأعظمهم أجراً في الدين وأقربهم حباً ومنزلة عند الله ورسوله، وأكثرهم طاعة لله وعبادة له، من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم كانوا هم أعظم رجال السياسة بعد وفاة النبي ﷺ، وتولوا جميعاً أخطر المناصب السياسية في دولة الإسلام وهي الخلافة والإمارة، فخير رجال الدين هم الذين أعظم رجال السياسة والقيادة فكيف يقال «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين» وكيف ينحى الدين عن أمور الحياة؟

ثم إن هذه التوسعات في رقعة الدولة الإسلامية وكذلك كثرة الفتوحات التي تمت خلال فترة خلافة هؤلاء الصحابة أليست ثمرة من ثمار جهادهم، وحسن سياستهم؟ أليس ذلك يدل على مشاركتهم الفعالة في أمور الحياة وحسن سياستهم لها بجانب كونهم أتقى عباد الله الله؟!!!

بعض المستشرقين يشهدون بأن الإسلام دين ودولة لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر:

لقد اعترف بعض المستشرقين أن الإسلام دين ودولة، وهو نظام متكامل ومنهاج حياة شامل ومع أنني أقرر أن واقع الدولة الإسلامية في ظل حياة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده يشهد بذلك إلا أنني أردت إيراد بعض أقوالهم وذلك من باب أن الفضل ما شهدت به الأعداء.

١- يقول الدكتور «فتزجرالد»<sup>(١)</sup>:

«ليس الإسلام «ديناً» فحسب ولكنه «نظام سياسى أيضاً» وعلى الرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير بعض أفراد المسلمين، ممن يصفون أنفسهم بأنهم «عصريون» يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين، فإن صرح التفكير الإسلامى كله قد بنى على أساس أن الجانبين متلازمان، لا يمكن أن يفصل أحدهما عن الآخر» أوهـ

٢- ويقول الأستاذ «نلليو»<sup>(٢)</sup>:

(١) muhammed an la -chm l.,P.

(٢) cited by sir T. Arnold in his Book: The caliphate. P١٩٨



لقد أسس «محمد» في وقت واحد: ديناً ودولة وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته» .

٣- ويقول الدكتور «شاخ»<sup>(١)</sup>:

«على أن الإسلام يعنى أكثر من دين: إنه يمثل أيضاً نظريات قانونية وسياسية وجملة القول أنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معاً».

٤- ويقول الأستاذ «ستروثمان»<sup>(٢)</sup>:

«الإسلام ظاهرة دينية سياسية: إذ أن مؤسسه كان نبياً. وكان سياسياً حكيماً أو «رجل دولة».

٥- ويقول الأستاذ «ماكدونالد»<sup>(٣)</sup>:

«هنا: أى فى المدينة تكونت الدولة الإسلامية الأولى، ووضعت المبادئ الأساسية للقانون الإسلامى».

٦- ويقول السير «توماس أرنولد»<sup>(٤)</sup>:

«كان النبي فى نفس الوقت رئيساً للدين ورئيساً للدولة»

٧- ويقول الأستاذ «جب»<sup>(٥)</sup>:

«عندئذ صار واضحاً أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل، له أسلوبه المعين فى الحكم، وله قوانينه وأنظمته الخاصة به» اهـ.  
فمن لم يكن يقنعه إلا الغربيين فها هي أقوالهم تحرس كل مكابر<sup>(٦)</sup>.

(١) Encycloaedia of socital science. Vol. VIII P. ٣٣٣.

(٢) The encyclopaedia of isam, iv P. ٣٥٠ Tion- Development of muslim the ology.  
Jursprudence, and canstitu,

(٣) al theorg, (New york . ١٩٠٣ P. ٦٧

(٤) The Caliphate oxford ١٩٢٤, p.٣٠.

(٥) Muhammed anism. ١٩٤٩, p.٣.

(٦) نقلا عن كتاب من فقه الدولة فى الإسلام ص ٢٧، ٢٨ بتصرف.



## الفصل الرابع

### سياسة النبي ﷺ مع غير المسلمين

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - حكم رسول الله ﷺ في المحاربين من أهل الكفر.
- ٢ - حكم رسول الله ﷺ في المسلم إذا كفر «ارتد» وأعلن الحراية.
- ٣ - أهل العهود.

## الفصل الرابع

### سياسة النبي ﷺ مع غير المسلمين

الإسلام دين قويم ومنهاج مستقيم، جاء ليخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام، جاء الإسلام في وقت كانت الإنسانية فيه ناكصة على أعقابها، وسادرة في ظلام حالك خيم على البشرية كلها.

كان الناس يعيشون وقتاً استشرى فيه الظلم في أرجاء المعمورة، حيث كان رعايا امبراطوريتي الفرس والروم يعانون من حكم استبدادي جائر يروجون الخلاص منه، كما لم تكن هناك حرية دينية تكفل للإنسان حق اعتناق أى دين يرتضيه أو مذهب يرتثيه، بل كانت الدولة البيزنطية - الروم الشرقية - في ذلك الوقت تموج بالانشقاقات الدينية والخلافات المذهبية، وقد حاولت أن تجبر رعاياها على اعتناق مذهبها الرسمي مما أدى إلى وقوع سلسلة من الاضطهادات الدينية، وكانت دولة الفرس تحارب كل حركة دينية تهدف إلى الإصلاح.

ولم يكن العرب أحسن حالاً من أولئك، فقد كانت القبائل العربية مختلفة النزعات أسيرة الشهوات، فاسدة العقيدة سيئة الأخلاق متعددة الاعتقادات.

وكان الفرد العربى أسير عاداته وتقاليده، يتبع دين آبائه وأجداده ويتعصب لمعتقده، يتخبط في جهله، ويتعثر في سيرة، ويردى في الظلمات قد استهوته الشياطين في الأرض حيران.

فأشرق نور الإسلام على هذه الظروف القاسية بعقيدته السمحة وأنواره الساطعة ليرسخ مبادئ العدل والمساواة، والتكافل الاجتماعى بين الناس، وقد حرص الإسلام أول ما حرص على الأخوة الإنسانية بين البشر، فأقر الوحدة الإنسانية مهما اختلفت الألوان وتباينت اللهجات.

وبعث نبي الإسلام ورسول السلام محمد ﷺ الذى جمع الله مضمون رسالته في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فأخذ النبي ﷺ يدعو الناس جميعاً إلى ترك عبادة الآلهة المتعددة إلى عبادة إله

واحد، هو الذى خلق الخلق ودبر أمور الكون قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا مَن بَالَهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وانتهج النبي ﷺ في دعوته أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة امتثالاً لأمر الله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] فأمن من آمن وكفر من كفر وعز على النبي ﷺ كفر بعض الناس بعد وضوح الحق وأراد أن يناظرهم ويبين باطلهم فبين الله تعالى له كيف يكون الجدال قال تعالى ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُم وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فقرب النبي ﷺ وجهات النظر بينه وبين أصحاب الديانات الأخرى بإخبارهم بأن إلهنا وإلههم واحد، واتبع في جدالهم أسلوب اللين والرفق والحوار الهادئ والمجادلة بالحسنى من خلال استخدام العقل والمنطق لعله يقنعهم بالدخول في الإسلام، وقد كان إقناع المشركين على اختلاف عقائدهم من الصعوبة بمكان، جعل النبي ﷺ يكاد يهلك نفسه لبطء الاستجابة لدعوة الحق والعدل والصواب فأنزل الله تعالى عليه قوله ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] - وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

ولقد حرص النبي ﷺ على هدايتهم إلى الإسلام، وجاهد بكل ما في وسعه حتى كادت تذهب نفسه في سبيل ذلك فأنزل الله عليه قوله تعالى ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

ولم يكن له ﷺ أن يكره أحداً على الدخول في الإسلام، لأن الله ﷻ قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد امتثل لأمر الله ﷻ الذى نهى عن إكراه الناس على الدخول في الإسلام. قال

تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمْعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ولما كانت الدعوة الإسلامية تقوم على الحرية الكاملة للناس في اعتقاد ما يريدون وعدم إجبارهم على الدخول في الإسلام كان نتيجة ذلك أن قام المجتمع الإسلامي قوياً واحتوى داخله عدداً كبيراً من أصحاب الديانات الأخرى، كاليهود والنصارى والمجوس والصابئة وغيرهم. والمعلوم أن النبي ﷺ عامل أصحاب الديانات الأخرى بالبر والقسط طالما أنهم كانوا مسالمين، ولم يقفوا في وجه الإسلام ويحاربوا أهله، أو يعوقوا مسيرة تقدمه قال تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

### ١ - حكم رسول الله ﷺ في المحاربين من أهل الكفر:

دعوة الإسلام أساسها الاختيار الحر منذ قام الإسلام وحتى نهاية الدنيا، فإذا بقى المشرك على شركة، وهادن المسلمين، ولم يحاربهم ولم يصددهم عن التبليغ، فله الأمن والسلام، أما إذا بارزهم بالحرب والصد والاعتداء، فلا بد من رده ومقاتلته حتى يرجع.

فالمحارب عدو باغ يشهر السلاح على المسلم، ومثله لا يتسامح معه ولا يهادن، وهذا ما طبقة النبي ﷺ مع المحاربين من أهل الكفر وكانت غزواته ﷺ تطبيقاً عملياً لهذا الحكم فقد قاتل النبي ﷺ خلاها كل عدو باغ أعلن الحراية على المسلمين وكان هذا القتال امثالاً لأمر الله تبارك وتعالى حيث يقول ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

### ٢ - حكم رسول الله ﷺ في المرتد وفيما إذا أعلن الحراية:

المرتدون قوم نكصوا على أعقابهم ورجعوا إلى الكفر بعد أن هداهم الله للإسلام فوقف النبي ﷺ منهم موقفاً صارماً فحكم بقتلهم وعاملهم بما يتناسب وأعمالهم. وقد بينت لنا السنة المطهرة جوانب من معاملات النبي ﷺ للمرتدين الذين أعلنوا الحراية ضد المسلمين يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا علي بن عبد الله

حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي حدثني يحيى بن أبي كثير قال حدثني أبو قلابة عن أنس رضي الله عنه قال: (قدم على النبي ﷺ نفر من عكل<sup>(١)</sup>، فأسلموا فاجتووا<sup>(٢)</sup>، المدينة فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا فصحوا فارتدوا، فقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل، فبعث في آثارهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل<sup>(٣)</sup>، أعينهم، ثم لم يحسمهم<sup>(٤)</sup>، حتى ماتوا<sup>(٥)</sup>).

وإنما فعل بهم النبي ﷺ ذلك: لأنهم فعلوا بالرعاة مثله، وقتلوه فجازاهم على صنيعهم بمثله وقيل: إن هذا كان قبل أن تنزل الحدود فلما نزلت نهى عن المثلة<sup>(٦)</sup>.

ولكى يكون الجزاء من جنس العمل لم يحسم النبي ﷺ أيدي المحاربين حينما قطعها وتركهم حتى هلكوا والسبب في ذلك أنهم فعلوا بالرعاة مثله. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا محمد بن الصلت أبو يعلى حدثنا الوليد حدثني الأوزاعي عن يحيى عن أبي قلابة ((عن أنس أن النبي ﷺ قطع العرنيين، ولم

(١) عكل: قال الأزهري: يقال رجال عاكل وهو القصير البخيل الميشوم وجمعه عكل وعكل: قبيلة من الرباب تستحم (معجم البلدان ٤/ ١٦١).

(٢) أى أصابهم الجوى: وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول، وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخوها. ويقال اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه وإن كنت في نعمة (النهاية «جوا») ١/ ٣١٨.

(٣) أى فقأها بحديدة محماة أو غيرها وقيل: هو فقؤها بالشوك وهو بمعنى السمر - والسمر: هو أن يحمى مسامير الحديد ثم يكحلهم بها (النهاية «سمر») ٢/ ٣٩٩.

(٤) لم يحسمهم: لم يقطع الدم عنهم بالكى (النهاية «حسم») ١/ ٣٨٦ وقال ابن حجر: الحسم: هو الكى بالنار لقطع الدم، حسمته فأنحسم كقطعته فأنقطع، وحسمت العرق معناه حبست دم العرق فمنعته أن يسيل وقال الداودي: الحسم هنا: أن توضع اليد بعد القطع في زيت حار (فتح الباري ١٢/ ١٣٠).

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الحدود ١٥ باب المحاربين من أهل الكفر والردة: ١٢/ ١٢٨ ح ٣٨٠٢ ومسلم في الصحيح كتاب القسامة ٢ باب حكم المحاربين والمرتدين ٦/ ١٦٧ ح ١٦٧١ وأبو داود في كتاب الحدود: ٣ باب ما جاء في المحاربة: ١٢/ ١٧، ١٦ ح ٤٣٥٦ والترمذي في كتاب أبواب الطهارة ٥٥ باب ما جاء في بول ما يؤكل لحمه (١/ ٢١٤ ح ٧٢) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح والنسائي في كتاب تحريم الدم باب تأويل قول الله ﷻ ﴿إِنَّمَا جُزَاءُ الَّذِينَ يَحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ ٧/ ٩٣ وابن ماجه في كتاب الحدود ٢٠ باب من حارب وسعى في الأرض فسادا ٢/ ٤٢٣ ح ٢٥٧٨ جميعهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦) قاله ابن الأثير في النهاية «سمل») ٢/ ٤٠٣.

يحسمهم حتى ماتوا»<sup>(١)</sup>

كما أن النبي ﷺ منع عنهم الماء حتى ماتوا وذلك بسبب خيانتهم وقتالهم للمسلمين ومحاربتهم لله ورسوله.

ويقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: «حدثنا موسى بن إسماعيل عن وهيب عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه قال: قدم رهط من عكل على النبي ﷺ كانوا في الصفة، فاجتووا المدينة فقالوا: يا رسول الله أبغنا رسلا، فقال ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله ﷺ، فأتوها فشربوا من ألبانها وأبوالها حتى صحوا وسمنوا وقتلوا الراعي واستاقوا الذود»<sup>(٢)</sup>، فأتى النبي ﷺ الصريخ<sup>(٣)</sup>، فبعث الطلب في آثارهم، فما ترجل<sup>(٤)</sup>، النهار حتى أتى بهم، فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم، ثم ألقوا في الحرة<sup>(٥)</sup>، يستسقون فما سقوا حتى ماتوا» قال أبو قلابة «سرقوا وقتلوا وحاربوا الله ورسوله»<sup>(٦)</sup>

وخلاصة القول في معاملة النبي ﷺ للمحاربين من أهل الكفر أنه: حكم بقطع أيديهم، وأرجلهم، وسمل أعينهم، كما سملوا أعين الرعاة، وتركهم حتى ماتوا جوعاً

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود ١٦ باب لم يحسم النبي ﷺ المحاربين من أهل الردة حتى هلكوا ١٢/ ١٣٠ ح ٦٨٠٣ ومسلم في كتاب القسامة ٢ باب حكم المحاربين والمرتدين ٦/ ١٦٩ ح ١٢ مكرر. وأبو داود في كتاب الحدود ٣ باب ما جاء في المحاربة ١٢/ ١٨ ح ٤٣٥٧ والترمذي في كتاب أبواب الطهارة ٥٥ باب ما جاء في بول ما يؤكل لحمه ١/ ٢١٤، ٢١٥ ح ٧٢ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب تحريم الدم باب تأويل قول الله ﷻ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ٧/ ٩٣، ٩٤ وابن ماجه في كتاب الحدود ٢٠ باب من حارب وسعى في الأرض فساداً ٢/ ٤٢٣ - ٤٢٤ ح ٢٥٧٨ جميعهم عن أنس رضي الله عنه.

(٢) الذود: من الإبل ما بين الثنتين إلى التسع، وقيل: ما بين الثلاث إلى العشر [النهاية «ذود» ٢/ ١٧١]

(٣) الصارخ: هو المصوت يعلمه بأمر حادث يستعين به عليه، أو ينعى له ميتاً، والاستصراخ: الاستغاثة، واستصرخته إذا حملته على الصراخ [النهاية «صرخ» ٣/ ٢١].

(٤) أي ما ارتفع النهار تشبيهاً بارتفاع الرجل عن الصبي [النهاية «رجل» ٢/ ٢٠٣].

(٥) الحرة: الأرض ذات الحجارة السود [النهاية «حرر» ١/ ٣٦٥].

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الحدود ١٧ باب لم يسق المرتدون المحاربون حتى ماتوا ١٢/ ١٣٠، ١٣١ ح ٦٨٠٤ ومسلم في كتاب القسامة ٢ باب حكم المحاربين والمرتدين ٦/ ١٦٨ ح ١١ مكرر كلاهما عن أنس رضي الله عنه وبقيّة التخریج كما ورد في الحديث السابق.



وعطشا كما فعلوا بالرعاة، بجانب أنه لما قطع أيديهم لم يحسمهم»<sup>(١)</sup> والمعلوم أن ذلك كان قبل نزول قول تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

فلما نزلت الآية كانت هي الحكم الفصل والقول الأخير في معاملة من حارب الله ورسوله<sup>(٢)</sup>

### ٣- أهل العهد:

- كان النبي ﷺ أوفى الناس عهدًا، لا ينقض الميثاق ولا يخون العهد، ويوفى بعهده مع الكفار، الذين هم من أشد الناس عداوة لدين الإسلام.
- ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، عقد معاهدة مع اليهود الذين كانوا يعيشون مع المسلمين في المدينة، وكان من بنود هذه المعاهدة:
- ١- أنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن.
  - ٢- وأن اليهود ينفقون مع المسلمين ماداموا محاربين.
  - ٣- وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.
  - ٤- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.
  - ٥- وأن بينهم النصر على من دهم يثرب<sup>(٣)</sup>.

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد للإمام ابن قيم الجوزية ٤/٤ بتصرف طبعة المكتب الثقافي بالأزهر - دار التقوى

للتراث الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠.

(٢) وللاستزادة في هذا الموضوع يراجع: كتاب أقضية رسول الله ﷺ تأليف الشيخ العلامة المحدث أبو عبد الله

محمد بن فرج المالكي القرطبي المولود سنة ٤٠٤ هـ والمتوفى سنة ٤٩٧ هـ طبعة دار الوعي بحلب الطبعة الثانية

جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م وينظر فتح الباري لابن حجر ١٢/١٢٩ وينظر تفسير ابن كثير ٢/٤٩-٥٤.

(٣) ينظر كتاب السيرة لابن هشام موضوع (الرسول يوادع اليهود) ٢/١٠٩ وينظر كتاب الوثائق السياسية للعهد

النبي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله ص ٥٩ وما بعدها.

وبينما كان النبي ﷺ يحرص على الوفاء بالعهد وينهى عن الغدر كانت اليهود تتحين فرصة وتنتظر أى ثغرة كى تنقض عهودها مع النبي ﷺ فعندما (خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر وذلك طبقاً لنصوص المعاهدة بين النبي ﷺ وبين اليهود فلما أتاهاهم رسول الله ﷺ قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلوا على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة فلما استلبث<sup>(١)</sup>، النبي ﷺ أصحابه، قاموا فى طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال رأيتُه داخلاً المدينة فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم<sup>(٢)</sup>، وهكذا لم يكن اليهود مخلصين فى عهدهم، ولم يدخلوا فى هذا العهد إلا ريثما يجدون لأنفسهم طريقاً آخر يضربون الإسلام من خلاله.

ولذلك عمل النبي ﷺ على إجلاء بنى النضير من بين المسلمين لأنهم لم يلتزموا بعهودهم، وأصبحوا يشكلون خطراً كبيراً على المسلمين داخل المدينة، فإذا كانت الجبهة الداخلية غير آمنة وإذا كان للمسلمين أعداء غادرين فى معقلهم الوحيد، فلا أمل للمسلمين فى نصر أو تقدم أو شعور بالأمن، وكذلك حاصرهم النبي ﷺ ستة أيام ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب، فطلبوا من النبي ﷺ أن يسمح لهم بالخروج

(١) أبطأ وتأخر عليهم [النهاية «لبث»] ٢٢٤/٤ بتصرف.

(٢) ذكره ابن إسحاق فى السيرة. موضوع: أمر إجلاء بنى النضير (السيرة النبوية لابن هشام ١٥٨/٣) وأخرجه من طريق ابن إسحاق البيهقى فى دلائل النبوة باب غزوة بنى النضير ٣/٣٥٤ وللحديث شاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما أخرجه البخارى فى الصحيح كتاب المغازى ١٤ باب حديث بنى النضير ومخرج رسول الله ﷺ فى دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ ٧/٤٠٩ ح ٤٠٢٨ وأبو داود فى كتاب الخراج والفئ والإمارة ٢٢ باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة ٨/١٨١ ح ٣٠٠٢.

من المدينة ومعهم ثرواتهم وكل ما يملكون إلا الدروع، فقبل النبي ﷺ منهم ذلك وخرجوا من المدينة حيث نزل بعضهم خيبر ونزل آخرون الشام.

ولم تقف اليهود عند هذا الحد ولكن الطوائف الأخرى من اليهود نقضت عهودها مع النبي ﷺ، وأخذت تؤلب المشركين على الإسلام والمسلمين، وذهب وفد من بنى قريظة منهم سلام بن أبي الحقيق النضرى، وحبي بن أخطب النضرى، وكنانة بن أبي الحقيق النضرى، وهوذة بن قيس الوائلى وغيرهم، فحزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش فى مكة فدعوههم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا (إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله)، ثم خرج أولئك نفر من يهود حتى جاءوا غطفان، من قيس عيلان فدعوههم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوههم على ذلك، فاجتمعوا معهم على حرب المسلمين. وبذلك تحالفت اليهود وقريش وغطفان لمحاربة النبي ﷺ فى غزوة الأحزاب، التى كانت من أشد ما عاناه المسلمون من ويلات، لقد جاعوا فيها حتى ربطوا الحجارة على بطونهم، وعاشوا فى مكان ضيق يحيط بهم الأعداء من كل جانب، ثم فى هذه الحالة الرهيبة- اتصل حبيى بن أخطب أحد سادة بنى النضير الذين هاجروا إلى خيبر بكعب بن أسيد سيد بنى قريظة بالمدينة، ودعاه أن ينقض عهده مع المسلمين وأن ينضم هو وجماعته بنوا قريظة إلى الأحزاب، واستجاب كعب إلى هتاف حبيى والأمل يراود الاثنين أن فى ذلك قضاءً نهائياً على المسلمين فقد أصبحوا ضعفاء أمام الهجوم الشامل عليهم من الخارج، ولم يبق إلا ضربة من داخل المدينة تنضم إلى هذه الضربات التى تنزل من الخارج فتقضى على الإسلام والمسلمين<sup>(١)</sup>، وقد صور القرآن الكريم حالة المسلمين أدق تصوير فقال: ﴿إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا \* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

والمعلوم أن نقض العهد من جانب أعداء الإسلام لم يحمل النبي ﷺ على

(١) السيرة النبوية لابن هشام موضوع: غزوة الخندق ٣ / ١٩١ بتصرف. والرسول والنصارى الرسول واليهود

للدكتور أحمد شلبى ص ٣٨ بتصرف طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠١م

أن يغير أسلوبه في الحياة وعلى الرغم من الشدائد التي كان يتعرض لها النبي ﷺ من جراء نقض الأعداء لعهودهم إلا أنه ﷺ كان يوفى بوعده ولا ينقض عهده ولا يأخذ أحداً بذنب أحد بل كان يقتصر في عقابه على الناقصين فقط وكان يعمل في إطار أوامر الله ﷻ حيث يقول ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

ويعلم أن الوفاء بالعهد صفة من صفات أولى الألباب من المؤمنين الصادقين الذين امتدحهم الله بقوله ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠] - وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مِنْ أَوفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦] وحرّم النبي ﷺ ظلم المعاهد أو انتقاص حقه أو قتله. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى حدثنا قيس بن حفص حدثنا عبد الواحد حدثنا الحسن بن عمرو حدثنا مجاهد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «(من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً)»<sup>(١)</sup>.

ولقد سجل لنا التاريخ الإسلامي أروع المواقف في جانب وفاء النبي ﷺ بعهوده لأعداء الإسلام، وهي مواقف وفاء والتزام لم يشهدها العالم من قبل، ففي غزوة الحديبية أبرم النبي ﷺ عهوداً بينه وبين المشركين وكان أكثرها فيه إجحاف وظلم للمسلمين، ولكن النبي ﷺ رأى أنه من السياسة أن يقبلها ولذلك التزم بها وطبقها بكل شروطها، وكان من بين هذه العهود (أنه من خرج من المشركين إلى محمد بدون إذن وليه رده عليهم، ومن خرج من عند محمد إلى المشركين لم يردوه عليه)، قال الإمام البخاري حدثني عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر قال أخبرني الزهري قال أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان - يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قال - فذكرنا حديثاً طويلاً وفيه .... فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله كيف

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجزية والموادعة ٥ باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم ٦/٣٢٨ ح ٣١٦٦ وأخرجه البخاري أيضاً في كتاب الديات ٣٠ باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم ١٢/٣١٠ ح ٦٩١٤ - والنسائي في كتاب القسامة/ باب تعظيم قتل المعاهد ٨/٢٤، ٢٥ - وأخرجه ابن ماجه في كتاب الديات ٣٢ باب من قتل معاهداً ٢/٤٦٤ ح ٢٦٨٦ - والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الجزية ٢٤ باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم ٩/٢٠٥ ح ١٨٧٢٣ جميعهم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف<sup>(١)</sup>، في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال: سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد قال فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبداً قال النبي ﷺ: فأجزه لي، قال: ما أنا بمجيزه لك قال بلى فافعل قال ما أنا بفعال قال مكرز بل قد أجزناه لك قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله<sup>(٢)</sup>.

فهذا رجل قد أسلم وعذب بسبب ذلك وجاء يستغيث بالنبي ﷺ وصحابته ولكن النبي ﷺ كظم غيظه وأوفى بوعده وأمر أبا جندل أن يرجع إلى الكفار مرة أخرى وقال له ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عليه عهد الله وإنا لن نغدر بهم»<sup>(٣)</sup>.

ولم يقتصر الأمر على أبي جندل وحده ولكن النبي ﷺ أوفى بوعده ورد كل من لحق به من المسلمين من غير إذن وليه. قال الإمام البخاري حدثني إسحاق أخبرني يعقوب حدثني ابن أخي ابن شهاب عن عمه أخبرني عروة بن الزبير أنه سمع مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة يخبران خبراً من خبر رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية - فذكرنا حديثاً طويلاً وفيه - فرد رسول الله ﷺ أبا جندل بن سهيل يومئذ إلى أبيه سهيل بن عمرو ولم يأت رسول الله ﷺ أحد من الرجل إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً<sup>(٤)</sup>. وبذلك أوفى النبي ﷺ بعهده ولم ينقض عهداً أخذه أو ميثاقاً أوجبه على نفسه.

(١) الرسف والرسيف: مشى المقيد إذا جاء يتحامل برجله مع القيد [النهاية «رشف» ٢/ ٢٢٢].

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الشروط ١٥ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط ٤٠١/٥ ح ٢٧٣٢، والإمام أحمد في المسند ٤/ ٣٢٣ كلاهما عن المسور ومروان رحمهما الله.

(٣) أخرجه أحمد في المسند قال: حدثنا يزيد بن هرون أنا محمد بن إسحاق بن يسار عن الزهري محمد بن مسلم بن شهاب عن عروة بن الزبير ومروان بن الحكم - فذكره - ٤/ ٣٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب المغازي ٣٥ باب غزوة الحديبية ٧/ ٥٦١ ح ٤١٨٠، ٤١٨١ والإمام أحمد في المسند ٤/ ٣٢٣ كلاهما عن المسور ومروان رحمهما الله.

ومما سبق يظهر تسامح الإسلام في مواقفه الكريمة مع غير المسلمين في عهود الأمان التي أعطيت لهم فكانوا يقيمون في بلادهم بناء على هذه العهود تحت مظلة الإسلام وكان الأمان يشكل القاعدة الإسلامية الأساسية بعد دخول المسلمين البلاد المفتوحة، وبمقتضى هذا الأمان أتيح لغير المسلمين بعض الحقوق والحريات<sup>(١)</sup>

ولأن الإسلام دين وفاء والتزام فقد اتخذ موقفاً حازماً مع من نقض العهد بعد إبرامه قال تعالى في معرض الحديث عن أصحاب العهود من المشركين ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَأِمَّا نَحْشَاكُمْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

(١) ينظر كتاب معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية للدكتورة ناريمان عبد الكريم ص ٢٩ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٧ م.

## الفصل الخامس أهل الذمة داخل ديار الإسلام

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- سياسة النبي ﷺ مع أهل الذمة.
- ٢- بعض الحقوق التي أعطاها النبي ﷺ لأهل الذمة.
- ٣- ضمان الوفاء بهذه الحقوق.
- ٤- بعض الحقوق الواجبة على أهل الذمة.

## الفصل الخامس

### أهل الذمة داخل ديار الإسلام

جرى العرف الإسلامى على تسمية المواطنين من غير المسلمين الذين يعيشون داخل المجتمع الإسلامى باسم «أهل الذمة» أو «الذميّين» وكانوا فى بداية الأمر يسمون بـ «الرعية أو الأعاجم» بمعنى أن العرب رعاتهم، ولكنهم عرفوا بعد ذلك، من خلال كتب الفقه الإسلامى باصطلاح «أهل الذمة».

والذمة تعنى العهد والأمان والضمان، كما هي تقرير بتوطين أهل الكتاب فى ديار الإسلام، وحمايتهم لدخولهم فى عهد المسلمين وأمانهم وإنما سمو بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله، وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا فى حماية الإسلام وفى كنف المجتمع الإسلامى آمنين مطمئنين فهم فى أمان المسلمين وضمانهم، بناء على «عقد الذمة» فهذه الذمة تعطى أهلها «من غير المسلمين» ما يشبه فى عصرنا «الجنسية» السياسية التى تعطىها الدولة لرعاياها. فيكتسبون بذلك حقوق المواطنين ويلتزمون بواجباتهم.

فالذمى على هذا الأساس من «أهل دار الإسلام» كما يعبر الفقهاء أو من حاملى الجنسية الإسلامية كما يعبر المعاصرون.

وعقد الذمة عقد مؤبد، يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم، وتمتعهم بحماية الجماعة الإسلامية ورعايتها، بشرط بذلهم «الجزية» والتزامهم أحكام القانون الإسلامى فى غير الشؤون الدينية، وبهذا يصيرون من أهل دار الإسلام<sup>(١)</sup>

وقد أشار القرآن الكريم إلى طوائف أهل الذمة، وحدد طبيعة معاملاتهم وعلاقاتهم بالمسلمين فى قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور ١١١/١٥ طبعة بيروت سنة ١٩٥٦، وينظر تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان، نقله إلى العربية أمير فارس. منير البعلبكي ص ١٠٨ طبعة بيروت سنة ١٩٦٩م وينظر كتاب غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى للدكتور يوسف القرضاوى ص ٧ طبعة دار غريب للطباعة بالقاهرة الطبعة الأولى رمضان ١٣٩٧هـ أغسطس ١٩٧٧م.



والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد  
[الحج: ١٧].

وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾  
[البقرة: ٦٢].

#### ١- سياسة النبي ﷺ مع أهل الذمة:

بعد أن مكن الله تعالى لنبيه ﷺ في الأرض، ووضع النواة الأولى للدولة الإسلامية في المدينة، بدأ ينظم حياة سكانها من المسلمين وغيرهم، وأيقن النبي ﷺ في الأيام الأولى بالمدينة أنه يعيش ومن معه على كوكب أرضي لا يحيون عليه وحدهم، وإنما يقاسمهم الحياة عليه أناس آخرون يعيشون عليه كما يعيشون، ويترددون بين جوانبه كما يترددون، ويأخذون في أسباب الرزق كما يأخذون، وفي كل الأحوال تكون بينهم وبين غيرهم علاقات لا يمكن أن يغفلها المسلمون، ولا يتغافلونها.

ولذلك كان النبي ﷺ رحمة مهداة إلى الخلق كافة لم يرغم أحداً على الدخول في الإسلام، ولم يقس على أحد من الذين كانوا يعيشون معه داخل المجتمع الإسلامي، ويدينون بدين آخر غير دينه، ولكنه راعى التعددية، وأعطى لغير المسلمين الحرية في اعتناق ما يريدون عملاً بمقتضى آيات القرآن الكريم التي راعت التعددية مثل قوله تعالى ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين \* إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمه ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [هود: ١١٨]، [١١٩] وقوله تعالى ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ [الأنعام: ٣٥] وقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وقوله تعالى ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ﴾ [الشورى: ٤٨] - وقوله تعالى ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ [الغاشية: ٢٢] والمعلوم أنه ﷺ كان يحرص على هداية الناس حرصاً يصل إلى حد المبالغة وذلك لما يعلمه من خطورة الكفر على صاحبه، وقد بلغ ﷺ في ذلك إلى حد أنه كان يعرض نفسه لخطر المشركين.

## ٢- بعض الحقوق التي أعطاها النبي ﷺ لأهل الذمة:

أولاً: حق الحماية:

أ- الحماية من الاعتداء الخارجي:

تكفل النبي ﷺ لأهل الذمة بهذا الحق ونص عليه في دستور المدينة. فقال ﷺ «وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ونص كذلك على أنه بينهم وبين المسلمين وغيرهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب»<sup>(١)</sup>.

وبمقتضى هذه العهود عاش أهل الذمة آمنين من أى اعتداء خارجي لأن النبي ﷺ تكفل بحمايتهم.

ب- الحماية من الاعتداء الداخلي:

وتكفل النبي ﷺ بحماية أهل الذمة من أى اعتداء يقع عليهم داخل المدينة ونص على ذلك أيضاً في دستور المدينة وذلك في المواد التالية:

١- أنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

٢- وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٣- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وإن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو آثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>.

وقال الإمام أبو داود رحمه الله تعالى: حدثنا سليمان بن داود المهري أنبأنا ابن وهب حدثني أبو صخر المدني أن صفوان بن سليم أخبره عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم ذنية<sup>(٣)</sup>، عن رسول الله ﷺ قال: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه<sup>(٤)</sup>، أو كلفه فوق طاقته<sup>(٥)</sup>، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة. موضوع: الرسول ﷺ يوادع اليهود (السيرة النبوية لابن هشام) / ١١١.

(٢) ذكره ابن إسحاق في السيرة. موضوع: النبي ﷺ يوادع اليهود (السيرة النبوية لابن هشام) / ١٦١ / ٢.

(٣) ذنية: أى لاصقى النسب (عون المعبود ٨ / ٢٣٤ شرح حديث ٣٠٥٠).

(٤) انتقصه - أى نقص حقه (عون المعبود ٨ / ٢٣٤).

(٥) كلفه فوق طاقته: أى في أداء الجزية أو الخراج بأن أخذ من لا يجب عليه الجزية أو أخذ من يجب عليه أكثر مما يطيق (عون المعبود ٨ / ٢٣٤).

حجيجه<sup>(١)</sup>، يوم القيامة<sup>(٢)</sup>.

وبهذا فقد أوجب النبي ﷺ الحماية للذمي وحرّم ظلمه أو الاعتداء عليه»

ج - حماية الأموال:

عمل النبي ﷺ على حماية أموال أهل الذمة حتى لا تكون مطمئناً لأحد وتكفل ﷺ بهذا الأمر، وأوصى بذلك في عهده لأهل نجران.

يقول: الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمته الله تعالى: حدثني أيوب الدمشقي: قال حدثني سعدان بن أبي يحيى عن عبيد الله بن أبي حميد عن أبي المليح الهذلي<sup>(٣)</sup>، «أن رسول الله ﷺ صالح أهل نجران» وكتب لهم كتاباً:

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«هذا ما كتب محمد النبي ﷺ لأهل نجران، إذ كان له حكمه عليهم: أن في كل سوداء وبيضاء وحمراء وصفراء وثمررة ورقيق، وأفضل عليهم<sup>(٤)</sup>، وترك ذلك لهم: ألفى حلة وفي كل رجب ألف حلة، كل حلة أوقية، مازاد الخراج أو نقص فعلى الأواقي فليحسب، وما قضوا من ركاب أو خيل أو دروع أخذ منهم بحساب<sup>(٥)</sup>، وعلى أهل

(١) أى محاجه ومغالبة بإظهار الحجة عليه (النهاية «حجج» ١ / ٣٤١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفتى والإمارة ٣٤ باب في الذمي الذي يسلم في بعض السنة هل عليه جزية ٨ / ٢٣٤ ح ٣٠٥٠ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الجزية ٢٤ باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئاً بغير أمرهم ٩ / ٢٠٥ ح ١٨٧٣١ كلاهما عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم.

(٣) هو الصحابي الجليل: أبو المليح بن أسامة بن عمير، أو عامر بن عمير بن جعيف بن ناجية الهذلي، اسمه عامر، وقيل زيد وقيل زياد مات سنة ثمان وتسعين وقيل سنة ثمان ومائة وقيل غير ذلك [الإصابة ٧ / ٣٨٤].

(٤) يعنى تفضل ومن عليهم بترك أموالهم بعد أن كان الحكم له عليهم.

(٥) أخذ منهم بحساب: يعنى إذا قضوا ما عليهم من خراج من هذه الأشياء المذكورة تؤخذ منهم بحسابها.

نجران مقرى رسلى<sup>(١)</sup>، عشرين ليلة مما دونها: وعليهم عارية ثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً، وثلاثين درعاً، إذا كان كيداً باليمين ذو مغدرة<sup>(٢)</sup>، وما هلك فما أعاروا رسلى فهو ضامن على رسلى حتى يؤدوه إليهم ولنجران وحاشيتها<sup>(٣)</sup>، ذمة الله وذمة رسوله، على دمائهم وأموالهم وملتهم وبيعهم ورهبانيتهم وأساقفتهم. وشاهدهم وغائبهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وعلى أن لا يغيروا أسقفاً من سقيفاه، ولا واقفها<sup>(٤)</sup>، من وقياه ولا راهباً من رهبانيتها وعلى أن لا يحشروا ولا يعشروا<sup>(٥)</sup>، ولا يطاء أرضهم جيش، ومن سأل منه حقاً فالنصف بينهم بنجران، على أن لا يأكلوا الربا فمن أكل الربا من ذي قبل فذمتى منه بريئة، وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين، ولا معنوف<sup>(٦)</sup>، عليهم. شهد بذلك عثمان بن عفان، ومعيقب وكتب.

قال أبو عبيد: الواقعة ولى العهد بلغتهم وهم بنو الحرث<sup>(٧)</sup>، أهـ

فتأمل هذه الوثيقة التى تفيض عدلاً ورحمة وحماية يقوم لم يؤمنوا بمن أعطاهم لهم ولكنهم كذبوه وحاربوه وآثروا عبادة الصليب على عبادة الله ﷻ.

(١) أى ضيافتهم وقراهم.

(٢) يعنى إذا حصل غدر من أهل اليمن واحتاج المسلمون أن يستعيروا منهم هذه الأشياء للحرب فعليهم أن يعيروهم إياها ثم ترد إليهم بعد الحرب وإذا تلف منها شيء ضمنه المسلمون.

(٣) يعنى ما تبعها من القرى والديساكر. (تعليق الشيخ محمد خليل هراس، على كتاب الأموال لأبى عبيد هامش ص ٢٠١ طبعة دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م).

(٤) الواقعة هو القيم على البيت الذى فيه صليب النصرى بلغة أهل الجزيرة - ويروى واهف ويروى وافه وهو بالفاء أصوب (النهاية «وفه» ٢١١/٥).

(٥) يحشروا يعنى يجلوا من أرضهم. ويعشروا بمعنى تؤخذ منهم العشور. (تعليق محمد خليل هراس على كتاب الأموال هامش ص ٢٠٢).

(٦) العنف هو المشقة والشدة والتوبيخ والتفريع واللوم [النهاية «عنف» ٣٠٩/٣].

(٧) كتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام باب كتب اليهود التى كتبها رسول الله ﷺ وأصحابه لأهل الصلح ٢٠١، ٢٠٢ طبعة دار الكتب العلمية بيروت الأولى سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م، وكتاب الخراج لأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم ص ٧٨ طبعة المطبعة السلفية الطبعة الخامسة سنة ١٣٩٦ هـ.

## ثانيًا: حق الأمن:

أعطى النبي ﷺ لأهل الذمة حق الأمن فحرم ترويعهم والاعتداء عليهم بأى وجه من الوجوه عملاً بقوله تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية ﴿وإن أحد من المشركين﴾. الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿استجارك﴾. أى استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أى القرآن تقرأه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ثم أبلفه مأمنه﴾. أى وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعملون أى إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عبادته<sup>(١)</sup>.

وبين النبي ﷺ أن الأمان حق ثابت للمشركين جمعياً يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: أخبرنا عبد الصمد بن النعمان قال حدثنا أسباط عن السدى عن رفاعة بن عامر حدثني أخي عمرو بن الحمق<sup>(٢)</sup>، صاحب النبي ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «من أمن رجلاً على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل وإن كان المقتول كافراً»<sup>(٣)</sup>.

فالنبي ﷺ كان له هدف سياسى من وراء تأمين المشركين وهو استمالة قلوبهم بمنحهم حق الأمن لعلهم يدخلون في دين الإسلام. ولذلك لما أعطى النبي ﷺ الأمان لرسول قريش في الحديبية ومنهم عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم واحداً بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين الشركين فرأوا من إعظام النبي ﷺ لهم ما بهرهم حيث إنهم لم يشاهدوا ذلك ولم يتعودوه من الملوك من

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٤.

(٢) عمرو بن الحمق بن كاهل، ويقال الكاهن بن حبيب بن عمرو بن القين بن رزاح بن عمرو بن سعد بن كعب بن عمرو الخداعى الكعبى سكن الشام، ثم كان يسكن الكوفة ثم كان ممن قام مع عثمان على أهلها وشهد مع على حروبه ثم قدم مصر ومات سنة خمس من الهجرة [الإصابة ٤/ ٢٦٣].

(٣) أخرجه البخارى في التاريخ الكبير ٣/ ٣٢٢ طبعة دار الكتب العلمية بيروت وذكره السيوطى في الجامع الصغير رقم ٨٢٧١ وأشار إليه بالصححة كما في فيض القدير ٦/ ١٩، ٢٠ ح ٨٢، ٧١ طبعة دار المعرفة بيروت.

أمثال كسرى وقيصر فلما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بذلك.

### ثالثاً: حرية التدين والعقيدة:

أباح النبي ﷺ للمشركين حرية الاعتقاد وعمل على صيانة هذه الحرية وحمايتها إلى أبعد الحدود، ولم يحمل أحداً من المشركين على ترك عقيدته، أو اعتناق غيرها، ولكنه أباح له أن يختار عقيدته ويمارس عبادته بكل حرية وأمان وذلك إن لم يقبل دعوة الإسلام.

وبلغت سماحة النبي ﷺ في هذا الجانب إلى الحد الذي جعله يترك وفد نصارى نجران يصلون داخل مسجده في المدينة متجهين إلى ناحية بيت المقدس (قال ابن إسحاق رحمته الله: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال: لما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الخبثات<sup>(١)</sup>، وجب وأرديه، في جمال رجال بنى الحارث بن كعب قال: يقول بعض من رأيهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» فصلوا إلى المشرق<sup>(٢)</sup>

فأى سماحة هذه وأى حرية تلك التي جعلت النبي ﷺ يسمح لهؤلاء الرهط بالصلاة ويتركهم يمارسون شعائهم داخل مسجده ويقف في حراستهم إلى أن ينتهوا من أداء عبادتهم كما صان النبي ﷺ لغير المسلمين معابدهم وأماكن عبادتهم وراعى حرمة شعائهم، وذلك امتثالاً لمنهج القرآن الكريم الذي جعل من أسباب الإذن في القتال حماية حرية العبادة والدفاع عن الأماكن التي تؤدي فيها وذلك في قوله تعالى ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ \* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله

(١) ثياب الخبثات: الخبثات جمع خبيرة والخبيرة من البرود ما كان موشياً مخططاً. يقال برد خبير. وبرد حبرة بوزن عتبة: على الوصف والإضافة وهو برد يمان (النهاية لابن الأثير ١/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة. موضوع: وفد نصار نجران عن محمد بن جعفر بن الزبير (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/ ١٨١ وأخرجه من طريق ابن إسحاق البيهقي في دلائل النبوة باب وفد نجران ٥/ ٣٨٢.

لقوي عزيز\* [الحج: ٣٩، ٤٠].

يقول ابن كثير رحمته الله في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾<sup>(١)</sup> أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض ولأهلك القوى الضعيف\* لهدمت صوامع\*. وهى المعابد الصغار للربان قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم وقال قتادة هي معابد الصائين وفي رواية عنه صوامع المجوس\* وبيع\*. وهى أوسع منها وأكثر عابدين فيها وهى للنصارى أيضًا قاله أبو العالية وقاتدة والضحاك بن صخر ومقاتل بن حيان وخصيف وغيرهم وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود وحكى السدى عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس اليهود ومجاهد إنما قال هي الكنائس والله أعلم وقوله ﴿وَصَلَوَاتُ﴾<sup>(٢)</sup> قيل هي كنائس اليهود وهم يسمونها صلوات وقيل معابد الصائين وقوله ﴿يَذْكُرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا﴾<sup>(٣)</sup>. قيل إن الضمير في قوله يذكر فيها عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات، وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا. وقال ابن جرير: الصواب لهدمت صوامع الربان وبيع النصارى وصلوات اليهود وهى كنائسهم ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب<sup>(٤)</sup>

يقول الإمام أبو داود: حدثنا مصرف بن عمرو الياشى، أخبرنا يونس، يعنى ابن بكير أخبرنا أسباط بن نصر الهمداني، عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشى عن ابن عباس قال: «صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفى حلة. النصف في صفر والنصف في رجب يؤدونها إلى المسلمين وعارية ثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمن كيد<sup>(٥)</sup>، ذات غدر [أو غدرة] على أن لا تهدم لهم بيعة، ولا يخرج لهم قس، ولا يفتنوا عن دينهم، ما لم يحدثوا حدثًا، أو يأكلوا الربا»<sup>(٦)</sup>.

(١) تفسير ابن كثير ٢٣٢/٣ بتصرف.

(٢) الكيد: الحرب [عون المعبود ٢/٢٢٤].

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفتى والإمارة: ٣٠ باب في أخذ الجزية ٨/٢٢٤ ح ٣٠٣٩، والبيهقى في السنن الكبرى كتابه الجزية: ١٩ باب لا تهدم لهم كنيسة ولا بيعة ٩/٢٠٢ ح ١٨٧١٥ كلاهما عن ابن عباس رحمتهما الله.

وبهذا أعطى النبي ﷺ لغير المسلمين حرية العقيدة وحق الدفاع عن أماكن العبادة.

#### رابعاً: حق الحياة:

الحياة منحة من الله تبارك وتعالى للإنسان، لا يملك أحد إزهاقها بغير إرادة الله يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ [ق: ٤٣].

وقد جعل الله العدوان على حياة فرد بدون حق عدوان على المجتمع كله وجعل القصاص من الجاني المعتدى إحياء للمجتمع كله يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ولذلك أعطى النبي ﷺ أهل الذمة حق الحياة فحرم دماءهم وجعلها معصومة، يقول الإمام البيهقي رحمه الله تعالى: عن الحسن بن عمرو عن مجاهد، عن جنادة بن أبي أمية عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «من قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا»<sup>(١)</sup>.

كما حرم النبي ﷺ قتل المعاهد الذمي وبين أن الذي يفعل ذلك لن يشم رائحة الجنة يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى في باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم. حدثنا قيس ابن حفص حدثنا عبد الواحد حدثنا الحسن حدثنا مجاهد «عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «من قتل نفساً معاهداً»<sup>(٢)</sup>، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الجزية ٢٤ باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئاً بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم وما ورد من التشديد في ظلمهم وقتلهم ٢٠٥/٩ ح ١٨٧٣٢. بلفظه وأخرجه بالفاظ متقاربة البخاري في كتاب الجزية والموادعة ٥ باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم: ٣٢٨/٦ ح ٣١٦٦، والنسائي في كتاب القسامة: باب تعظيم قتل المعاهد ٨/٢٤، ٢٥، وابن ماجه في كتاب الديات ٣٢ باب من قتل معاهداً ٢/٤٦٤ ح ٢٦٨٦ جميعهم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) المعاهد: من كان بينك وبينه عهد وأكثر ما يطلق في الحديث على أهل الذمة (النهاية «عهد») ٣/٣٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات ٣٠ باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم ٣١٠/١٢ ح ٦٩١٤ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه. وأبو داود في كتاب الجهاد ١٦٥ باب الوفاء للمعاهد وحرمة ذمته ٣٤٩/٧ ح ٢٧٥٧ بالفاظ متقاربة =



وجاء في رواية الإمام الترمذى رحمته الله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ألا من قتل نفسا معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر»<sup>(١)</sup>، بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وإن ريجها لتوجد من مسيرة سبعين خريفاً»<sup>(٢)</sup>.

فالمراد بالمعاهد في الحديث هو المعاهد من أهل الذمة ومن هنا نعلم أن النبي ﷺ نهى نهياً شديداً عن قتل الذمى ومنحه حق الحماية والحياة.

### ٣- ضمان الوفاء بهذه الحقوق:

لم تكن الحقوق التي أعطاها النبي ﷺ مجرد حبر على ورق، أو مجرد كلام أراد النبي ﷺ من ورائه استمالة قلوب المشركين فحسب ولكنه ﷺ تكفل للمشركون بهذه الحقوق وضمن لهم الوفاء بها. وقد سجلت صفحات التاريخ وفاءه ﷺ لكل من عقد له عهداً أو ميثاقاً.

ولقد علم النبي ﷺ المسلم كيف يراعى هذه الحقوق وينفذ أحكام الشريعة ووصاياها في هذا الشأن لا تمنعه من ذلك عواطف القرابة والمودة ولا مشاعر العداوة والشنآن. وأن يعمل في ظلال أوامر القرآن الكريم قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعلمون خبيراً﴾ [النساء: ١٣٥] وقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما

= عن أبي بكره رضي الله عنه، والترمذى في كتاب الديات ١١ باب ما جاء فيمن يقتل نفساً معاهدة ٤/ ٥٥١ ح ١٤٠٣ عن أبي هريرة وقال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح والنسائي في كتاب القسامة باب تعظيم قتل المعاهد ٨/ ٢٤ عن أبي بكره وابن ماجه في كتاب الديات ٢٣ باب من قتل معاهداً ٢/ ٤٦٤ ح ٢٦٨٦ عن عبد الله بن عمرو. والدارمي في كتاب السير ٦١ باب في النهي عن قتل المعاهد ٢/ ١٠٢ ح ٢٥٠٤ عن أبي بكره، والإمام أحمد في المسند ٥/ ٣٦، ٣٨ عن أبي بكره والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الجزية ٤ باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم ٩/ ٢٠٥ ح ١٨٧٣٤ عن أبي بكره.

(١) نقض عهده وذمامه (النهاية «خفر» ٢/ ٥٢).

(٢) أخرجه الترمذى في كتاب الديات: ١١ باب ما جاء فيمن يقتل نفساً معاهدة ٤/ ٥٥١ ح ١٤٠٣ عن أبي هريرة وقال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن وبقيّة التخريج مثل الحديث السابق.

تعملون ﴿المائدة: ٨﴾.

وهكذا عاش أهل الكتاب في أمن وأمان ورخاء واستقرار داخل المجتمع الإسلامي. وتكفل النبي ﷺ بحفظ أموالهم ودمائهم وأعراضهم وأوصى بهم خيرًا وعامل النصارى معاملة لم يعاملوها من أى أمة أخرى غير أمة الإسلام

### مقارنة بين الإسلام وغيره فى معاملة النصارى

«لما بعث المسيح عليه السلام وأعلن أنه ليس هناك شعب مختار وأنه لا أحظياء فى مملكة السماء وأن الله هو الخالق المحب لكل الأحياء وأنه لا يختص أحدًا بالرعاية دون أحد»<sup>(١)</sup>.

عند ذلك فجع اليهود فى عيسى عليه السلام، فقد انتظروه مسيحًا يسطر سلطان إسرائيل على العالم أجمع ولكن خابت آمالهم فيه<sup>(٢)</sup>

ولذلك سارعوا فأغروا به الحاكم الرومانى عندما شاهدوا بعض الضعفاء يؤمنون برسالته وذلك خوفًا من أن تنتشر مبادئه وأخذوا يطعنون فى نسب السيد المسيح وفى شخصه ورموه بأفدع الصفات

وهكذا بدأت مطاردة المسيح ودعوته ولجأ اليهود إلى العنف والقسوة واضطهاد المسيحيين بعد المسيح وفى حياته أيضًا<sup>(٣)</sup>

يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله اتفقت المصادر شرقية وغربية، دينية وغير دينية على أن المسيحيين نزل بهم بعد المسيح بلايا وكوارث جعلتهم يستخفون بديانتهم ويفرون بها أحيانًا ويصمدون للمضطهدين مستشهدين أحيانًا أخرى، وهم فى كلتا الحالتين لا شوكه لهم ولا قوه تحميهم وتحمى ديانتهم وكتبهم، وإنه فى وسط هذه الاضطهادات

(١) كتاب المسيحية للدكتور أحمد شلبى ص ٤٢، ٤٣ بتصرف، الطبعة الخامسة.

(٢) يسوع المسيح للأب بولس إلياس ص ٣٧.

(٣) ينظر كتاب العلمانية وأثرها فى أوربا للأستاذ الدكتور محمد رشاد عبد العزيز دهمش ص ٢٢ طبعة مطبعة الفجر

الجديد بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

يذكرون أنه دونت أناجيلهم الأربعة التي يؤمنون بها ودونت رسائلهم<sup>(١)</sup>، (ولعل أبشع حركات الاضطهاد التي عاناها المسيحيون تلك التي أنزلها بهم «نيرون» الطاغية عام ٦٨ م وكان يهوديًا) فقد ألقى بهم للوحوش الضارية<sup>(٢)</sup>، تنهش أجسامهم وأمر فطليت أجسام بعضهم بالقار<sup>(٣)</sup>، وأشعلت لتكون مصابيح بعض الاحتفالات التي يقيمها نيرون في حدائق قصره<sup>(٤)</sup>، واستمر هذا الاضطهاد حتى بلغ الذروة في عهد «دقلديانوس» (القرن الثالث الميلادي ٢٨٤ - ٣٠٥ م) حيث أمر بالقبض على الكهان ورجال الدين وقد استشهد الكثيرون بعد أن مزقت أجسامهم بالسياط والمخالب الحديدية، أو أحرقت بالنار، أو قطعت إربا، أو طرحت للوحوش الضارية ولقد سمي عصره بعصر الشهداء<sup>(٥)</sup>.

يقول الدكتور متى: وكان (دقلديانوس) هو الذي أمر بالاضطهاد الكبير الذي وقع على المسيحيين في القرن الرابع وقد نص مرسومه عام ٣٠٣ م على محو كنائسهم وحرق كتبهم وطرده كل من يشغل منهم وظيفة مدنية أو عسكرية من منصبه، وأمر بفرض جميع أنواع العقوبات باستثناء الإعدام - ولكن حتى الإعدام نفسه طبقه على مقياس واسع.

ثم يقول: واستمر الاضطهاد مدة عشر سنوات لا يعدلها شيء واستخدمت عبقریات السوء لابتكار وسائل جديدة للتعذيب<sup>(٦)</sup>.

ولما جاء النبي محمد ﷺ أقام الحق والعدل وعامل النصارى معاملة من أسمى ما يعامل الإنسان أخيه الإنسان. وتمتع النصارى في ظل دين الإسلام بحقوق وحریات لم يعهدوها من قبل حتى أن النبي ﷺ أوجب لهم حقوقاً ومنحهم إياها. ورفع عنهم

(١) محاضرات في النصرانية للشيخ أبي زهرة ص ٣٤ طبعة دار الفكر العربي الطبعة الثالثة.

(٢) التي اعتادت أكل اللحوم وصيد الفرائس [لسان العرب «ضرا» ٤/ ٢٥٨٣].

(٣) القار: هو الزفت [المعجم الوجيز «قير» ص ٥٢٢].

(٤) تاريخ الأقباط لزكى شنودة ١/ ١٠١ بدون طبعة.

(٥) كتاب الاضطهاد الديني في الإسلام والمسيحية للدكتور توفيق الطويل ص ٣٥.

(٦) تاريخ سوريا ٤/ ٣٦٧، ٣٦٨ ترجمة دكتور اليازجى نقلا عن العلمانية وأثرها في أوروبا للدكتور محمد رشاد

عبد العزيز ص ٢٣.

الظلم والجور وعاملهم برفق وعدل لم يعاملوا به من رجال الكنيسة أنفسهم، الذين عشقوا السلطة - والصولجان وأحبوا السيطرة والنفوذ، ودخلوا الحياة العامة لا بقصد الإصلاح وإنما ليستفيدوا من الجماهير الجاهلة. وامتلكت الكنيسة أجود الأرض دون أن تدفع لها ثمنًا لأنها موقوفة وكانت تجبى الأعشار من الشعب لتمتلى جيوب الأساقفة ورؤساء الأديرة دون مراعاة لفقير أو ضعيف، ولم تكتف الكنيسة بالسيطرة على أموال الشعوب المسيحية فقط. ولكنها هيمنت على كل ميادين البحث العلمى، وأصبح من يخالف رجال الكنيسة من أفراد الشعب فإن جزاءه المحاربة بالحرق وهو حى «أو رميه بالإلحاد، وكان سلاح الكنيسة الفتاك هو محاكم التفتيش<sup>(١)</sup>، الطاغية التي كان من أحكامها الحرمان والسجن والنفى والتعذيب الوحشى، ولقد قتل مائة ألف مسيحي بروتستانتى فى ليلة واحدة وبلغ ضحايا محاكم التفتيش فى خمسة قرون ما يزيد على تسعة ملايين نسمة<sup>(٢)</sup>.

#### ٤ - بعض الحقوق الواجبة على أهل الذمة:

##### أ- الجزية والخراج:

كل إنسان فى هذه الحياة فرض عليه من الواجبات كفاء ما وجب له من الحقوق. وهذه سنة الله فى خلقه منذ بدء الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولما أوجب الإسلام لغير المسلمين كثيرا من الحقوق وتكفل لهم بها، فرض عليهم بعض الواجبات لاعتبارات معينة سوف نتحدث عنها إن شاء الله تعالى ومن هذه الواجبات: الجزية، والخراج وهما حقان يأخذهما المسلمون من المشركين الذين يعيشون داخل دولة الإسلام ولا يؤمنون بدينها وقال تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [التوبة: ٢٩].

(١) إن المبدأ الذى اعتنقته محاكم التفتيش كان يقول: لأن يدان مائة برى زورًا وبهتانًا ويعانون العذاب ألوانا خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد (لمزيد من العلم ينظر قضية النزاع بين الدين والفلسفة للدكتور توفيق الطويل طبعة مكتبة مصر الطبعة الثانية).

(٢) ينظر كتاب مؤامرة فصل الدين عن الدولة للأستاذ محمد كاظم حبيب ص ٢٨.

معنى ﴿عن يد﴾. أى عن قهر لهم وغلبة. ومعنى ﴿وهم صاغرون﴾. أى ذليلون حقيرون مهانون<sup>(١)</sup>.

«والمعلوم أن أول ما بعث الله ﷺ به نبيه ﷺ الدعوة إليه بغير قتال ولا جزية، فأقام على ذلك بضع عشرة سنة بمكة ثم أذن لله في القتال لما هاجر من غير فرض له، ثم أمره بقتال من قاتله، والكف عمن لم يقاتله، ثم لما نزلت «براءة» سنة ثمان أمره بقتال جميع من لم يسلم من العرب: من قاتله أو كف عن قتاله إلا من عاهدة ولم ينقصه من عهده شيئاً فأمره أن يفى له بعهده، ولم يأمره بأخذ الجزية من المشركين وحارب اليهود مراراً ولم يؤمر بأخذ الجزية منهم، ثم أمره بقتال أهل الكتاب كلهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، فامثل أمر ربه فقاتلهم، فأسلم بعضهم، وأعطى بعضهم الجزية، واستمر بعضهم على محاربتهم، فأخذها من أهل نجران وأيلة، وهم من نصارى العرب، ومن أهل دومة الجندل، وأكثرهم عرب، وأخذها من المجوس، ومن أهل الكتاب باليمن، وكانوا يهوداً»<sup>(٢)</sup> ١. هـ.

والعرب في أخذ الجزية منهم كغيرهم<sup>(٣)</sup>.

ب- مقدار الجزية كما حددها رسول الله ﷺ :

لم يرد النبي ﷺ أن يشق على أهل الذمة في أمر الجزية ولكنه كان متسامحاً معهم في هذا الأمر فلم يكلفهم من الأمر ما لا يستطيعون ولم يحملهم فوق طاقتهم. فلما بعث معاذاً إلى اليمن لتحصيل الجزية أمره أن يأخذ من كل حالم دينار أو قيمته معافراً<sup>(٤)</sup>.

يقول الإمام أبو داود رحمته الله حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي وائل عن معاذ أن النبي ﷺ لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم يعنى محتلماً ديناراً أو عدله من المعافرى (المعافى) ثياب (ثياباً) تكون باليمن<sup>(٥)</sup>

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٥.

(٢) زاد المعاد في هدى خير العباد للإمام ابن قيم الجوزية ٤/ ٤٠، ٤١.

(٣) كتاب الأحكام، السلطانية للماوردي ص ١٨٣ طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

(٤) هي برود باليمن منسوبة إلى معافر وهي قبيلة باليمن (النهاية «عفر» ٣/ ٢٦٢٠).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفىء والإمارة ٣٠ باب في أخذ الجزية ٨/ ٢٢١ ح ٣٠٣٦ والترمذى في كتاب الزكاة ٥ باب ما جاء في زكاة البقر ٣/ ٢٢٢ ح ٦٢٣ وقال هذا حديث حسن والإمام أحمد في المسند ٥/ ٢٣٠، =

## ج - الحكمة من أخذ الجزية:

تؤخذ الجزية من المشركين لإثبات الصغار عليهم عملاً بقوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [التوبة: ٢٩]. (عن يد: أى عن قهر لهم وغلبة) (وهم صاغرون: أى ذليلون حقيرون مهانون)<sup>(١)</sup>.

ولقد أخذ النبي ﷺ الجزية من أهل الذمة مقابل عدة أشياء أخرى منها: أن الإسلام أوجب على أبنائه «الخدمة العسكرية» باعتبارها فرض عين أو فرض كفاية وناط بهم واجب الدفاع عن الدولة وأعفى من ذلك غير المسلمين وإن كانوا يعيشون في ظل دولته، ولم يأمر الإسلام غير المسلمين أن يقاتلوا تحت رايته لأنهم لم يؤمنوا بمبادئه فكيف يقاتلون تحت لوائه!! ولذلك فرض الإسلام على المواطنين من غير المسلمين أن يسهموا في نفقات الدفاع والحماية عن الوطن الذى يعيشون فيه وذلك عن طريق دفع هذه الجزية والمسلمون بجانب الدفاع عن الوطن بأنفسهم كانوا يسهمون في الحماية والدفاع بما يدفعونه من زكاة وصدقات، وحظى أهل الذمة بحماية المسلمين لهم ودفاعهم عنهم مقابل دفع هذا المبلغ الزهيد من المال ولم يكن غرض النبي ﷺ من تحصيل الجزية هو جمع الأموال أو زيادة حصيلتها في بيت مال المسلمين فقط، والدليل على ذلك أنه لم يفرض عليهم مبالغ كبيرة لا يستطيعون دفعها، ومن رحمته ﷺ بأهل الذمة. في أمر الجزية أنه لم يوجبها إلا على الرجال الأحرار العقلاء، ولم يوجبها على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد لأنهم أتباع وذراى، ولا جزية على الراهب المنقطع للعبادة في صومعته لأنه ليس من أهل القتال.

ووصلت سماحة رسول الله ﷺ في معاملة أهل الذمة إلى حد أنه كان يرضخ<sup>(٢)</sup>، لهم من الغنيمة بحسب غنائهم ولا يبلغ برضخ أحد منهم سهم فارس ولا راجل<sup>(٣)</sup>.

= ٢٣٣، ٢٤٧ وابن الجارود في المنتقى باب الجزية ص ٢٧٨ ح ١١٠٤ والشافعى في المسند في كتاب الجزية

ص ٢٠٩ جميعهم عن معاذ ﷺ.

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٥.

(٢) الرضخ: هو العطية القليلة [النهاية «الرضخ» ٢/ ٢٢٨].

(٣) ينظر كتاب الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٧٨، ص ١٨٣.

## الفصل السادس

### إبراز بعض جوانب العبقرية السياسية للنبي ﷺ في سياسة الخصوم والأتباع في السلم والحرب

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- الحديبية وبيان السياسة الحكيمة للنبي ﷺ .
- ٢- النبي ﷺ هو رسول السلام.
- ٣- عالمية الإسلام (مراسلة الملوك).
- ٤- سياسة النبي ﷺ مع المؤلفة قلوبهم.
- ٥- سياسة النبي ﷺ مع عرب القبائل من البدو ونحوهم.
- ٦- توجيه بعض السرايا لتأديب الأعراب.
- ٧- سياسة النبي ﷺ في استقبال الوفود.

## الفصل السادس

### إبراز بعض جوانب العبقرية السياسية للنبي ﷺ في سياسته

#### الخصوم والأتباع في السلم والحرب

عندما تقوم باستقراء سيرة النبي ﷺ تجد أنه قائد سياسى منقطع النظير، وتتجلى حسن سياسته ﷺ في صلح الحديبية، ذلك العمل السياسى الرائع، الذى بلغ فيه النبي ﷺ الغاية العظمى، والدرجة القصوى في سياسة الخصوم والأتباع.

«فرسول الله ﷺ تولى أعمالاً كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة في عموم مدلوله، ولكننا لا نعرف عملاً واحداً هو أدخل في أبواب السياسة، وأجمع لضرورها، وأبعد عن المشاركة في صفة القيادة العسكرية أو صفة الوعظ العلنى أو سائر الصفات التى اتصف بها عليه الصلاة والسلام من عهد الحديبية في مراحلها جميعاً منذ ابتداء بالدعوة إلى العمرة إلى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدي قريش.

ففى عهد الحديبية تجلّى تدبير النبي ﷺ في سياسة خصومه وسياسة أتباعه، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود»<sup>(١)</sup>.

فصلح الحديبية إذا ما درسناه كمثال يعبر عن نفسه ويدل دلالة واضحة على غيره تجلّى لنا فيه مدى التفكير الدقيق، والنظر المستقيم، والتخطيط المحكم والبراعة السياسية للنبي ﷺ.

ففى الحديبية حقق النبي ﷺ عدة مكاسب بالسلم لم تحققها الحروب في كثير من الأعوام.

فهو ﷺ رفع راية السلم في هذه العمرة منذ أن بدأها، لأنه بدأها بالدعوة إلى زيارة البيت الحرام، ولم تكن الدعوة قاصرة على المسلمين فحسب ولكنها شملت غير المسلمين من القبائل العربية التى تشترك مع المسلمين في تعظيم البيت الحرام وأراد ﷺ من وراء دعوة هذه القبائل تحقيق عدة مكاسب تعود بالنفع على الدعوة الإسلامية، ففى دعوة القبائل إلى المشاركة في العمرة مع المسلمين، استمالة لقلوب

(١) ينظر كتاب عبقرية محمد ﷺ لعباس محمود العقاد ص ٤٤ طبعة دار الشعب بالقاهرة.



هذه القبائل وتأليفا لنفوسها وإعلاناً لها أن دين الإسلام يتفق معها في تعظيم ما عظم الله، وتقديس هذه الأماكن كما تقدسها هذه القبائل، وبذلك يشعرها بأن هذا الدين لا يصطدم مع فطرتهم، ولا يتناقض مع ما جبلوا عليه من تولية الوجوه والقلوب نحو البيت العتيق.

وأراد النبي ﷺ بدعوة القبائل شن أكبر حرب إعلامية على قريش إذا قاموا بصدد هذه الجموع التي جاءت من كل فج عميق واجتمعت من كل صوب وحذب قاصدة زيارة البيت الحرام ورغبة منه ﷺ في السلام وإعلاناً لهذا المبدأ، بعث رسول الله ﷺ من «الحديبية» عثمان بن عفان، ليبلغ أشراف قريش أن المسلمين لم يأتوا للحرب وإنما جاءوا زائرين للبيت الحرام ومعظمين لحرمة وما عسى أن تفعله قريش بقوم جاءوا محرمين، قد قلدوا الهدى وأشعروه، سيفهم في أغمادها، يقصدون العمرة وتعظيم حرمة البيت الذي تعظمه العرب بأسرها!! وكأنه ﷺ أراد بإعلانه للسلام أن يرمى من طرف بعيد إلى تعظيم بيت الله الحرام، وأن يعلن عن حرمة هذا البيت لكل قاصد له مهما كانت نيته، أو قبيلته، وأن يعلن للأمم المعاصرة له والتي ستأتي من بعده أن هذا المكان حرم آمن وأنه ليس مباحاً ومن استحل حرمة فقد كفر كفراً بواحاً. والذي يدل على ذلك أنه ﷺ عندما سار بأصحابه حتى كان «بثنية المرار»<sup>(١)</sup>، بركت راحلته وامتنعت عن المسير فأخبرهم ﷺ عن سبب هذا الأمر الخطير.

يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثني عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرازق أخبرنا معمر قال أخبرني الزهري قال أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة<sup>(٢)</sup>، ومروان<sup>(٣)</sup>، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه - قالوا «خرج رسول الله ﷺ زمن

(١) ثنية المرار: مهبط الحديبية وهي طريق في الجبل تشرف على الحديبية (معجم البلدان ٩٩/٢)

(٢) هو الصحابي الجليل: المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي الزهري يكنى أبا عبد الرحمن وأمه عاتكة بنت عوف أخت عبد الرحمن ممن أسلمت وهاجرت وكان مولده بعد الهجرة بستين وقدم المدينة في ذي الحجة بعد الفتح سنة ثمان وهو غلام أيفع ابن ست سنين وكان يلزم عمر بن الخطاب وكان من أهل الفضل والدين ومات سنة أربع وستين [الإصابة ١١٩/٦].

(٣) هو الصحابي الجليل: مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، أبو عبد الملك ولد ﷺ بعد الهجرة بستين وهو أول من ضرب الدنانير الشامية التي يباع الدينار منها بخمسين وكتب عليها: ﴿قل هو الله أحد﴾. شهد الجمل مع عائشة ثم صفين مع معاوية ثم ولي إمرة المدينة لمعاوية =

الحديبية حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل<sup>(١)</sup>، فألحت<sup>(٢)</sup>، فقالوا: خلأت<sup>(٣)</sup>، القصواء<sup>(٤)</sup>، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق<sup>(٥)</sup>»، ولكن حبسها حابس الفيل<sup>(٦)</sup>، ثم قال والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة<sup>(٧)</sup>، يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها.....»<sup>(٨)</sup>.

ومما يدل كذلك على سياسة النبي ﷺ في حفاظه على حرمة البيت الحرام أنه أعلن عن حرمة مكة يوم فتحها، وشدد على حرمة سفك الدماء فيها. يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى شريح العدوى<sup>(٩)</sup>، أنه قال لعمر بن سعد<sup>(١٠)</sup>، وهو يبعث البعوث إلى مكة «أئذن لى أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ للغد من يوم الفتح، فسمعتة أذنأى ووعاه قلبى وأبصرته عينأى حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها

= ثم توجه إلى مصر فاستولى عليها ثم بغته الموت في شهر رمضان سنة خمس وستين [الإصابة ٦/ ٢٥٧].

(١) كلمة تقال للناقة إذا تركت السير (فتح البارى ٥/ ٤٠٨).

(٢) أى لزمتم مكانها من ألح على الشئ إذا لزمه وأصر عليه (النهاية ٤/ ٢٣٦).

(٣) الخلاء للنوق كالإلحاح للجمال، والحران للدواب يقال: خلأت الناقة، وألح الجمل وحرن الفرس (النهاية ٢/ ٥٨).

(٤) هي التي قطع طرف أذنأ (النهاية ٤/ ٧٥).

(٥) الطبع والسجية (النهاية ٢/ ٧٠).

(٦) هو فيل أبرهة الحبشى الذى جاء يقصد خراب الكعبة، فحبس الله الفيل فلم يدخل الحرم، وردد رأسه راجعاً من حيث جاء، يعنى أن الله حبس ناقة النبي ﷺ لما وصل إلى الحديبية فلم تتقدم ولم تدخل الحرم لأنه أراد أن يدخل مكة بالمسلمين [النهاية (حبس ١/ ٣٢٩)].

(٧) الخطة هي الحال والأمر والخطب (النهاية «خطط» ٢/ ٤٨).

(٨) أخرجه البخارى في كتاب الشروط ١٥ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط ٥/ ٤٠١ ج ٢٧٣٢، ٢٧٣١ والإمام أحمد في المسند ٤/ ٣٢٩ كلاهما عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

(٩) هو الصحابى الجليل: أبو شريح الخزاعى الكعبى خويلد بن عمرو وقيل عمرو بن خويلد أسلم يوم فتح مكة ونزل المدينة ومات سنة ثمان وستين ﷺ [الإصابة ٧/ ٢٠٤].

(١٠) عمرو بن سعيد بن أبى العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس المعروف بالأشدق تابعى لى إمرة المدينة لمعاوية، ولابنه قتله عبد الملك بن مروان سنة سبعين وهو من زعم أن له صحبة وإنما لأبيه رؤية [الإصابة ٤/ ٦٣٧].

دمًا، ولا يعضد<sup>(١)</sup>، بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ﷺ ولم يأذن لكم وإنما أذن لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب»، فقيل لأبى شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، أن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فأراً بدم، ولا فأراً بخربة<sup>(٢)</sup>،<sup>(٣)</sup> خربة: بلية.

وتطبيقاً منه ﷺ لمبدأ السلام الذي أعلنه منذ الوهلة الأولى لعمره الحديبية كان يتحاشى الاصطدام مع المشركين ويحول دون إراقة الدماء، لأنه خرج معتمرًا لا غازيًا يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه فكان لهذا السلام الذي أعلنه رسول الله ﷺ نتائج عظيمة عادت على المسلمين بالخير سنتكلم عنها في نتائج هذا الصلح إن شاء الله تعالى.

وكان ﷺ يريد بإعلانه للسلام تعظيم حرمة الشهر الحرام وهو شهر ذي القعدة الذي خرج ﷺ خلاله إلى مكة قاصدًا زيارة البيت الحرام، فأعلن رغبته السلمية في هذه الزيارة تعظيمًا لحرمت الله والأشهر الحرم

#### ١ - الحديبية وبيان السياسة الحكيمة للنبي ﷺ :

في شهر ذي القعدة في السنة السادسة من الهجرة قرر رسول الله ﷺ الخروج إلى مكة بصحبة جمع من المهاجرين والأنصار عددهم أربعمئة وألف<sup>(٤)</sup> صحابى لزيارة

(١) أى يقطع [النهاية «عضد» ٢٥١/٣].

(٢) الخربة: أصلها العيب والمراد بها هاهنا الذى يفر بشئ يريد أن ينفرد به ويغلب عليه مما لا تحيزه الشريعة والخارب: سارق الإبل خاصة ثم نقل إلى غيرها اتساعا وقيل: إن الخربة هي: الجنابة والبلى وقيل إنها خربة بالزال وهو الشئ الذى يستحيا منه أو من الهوان والفضيحة [النهاية «خرب» ١٧/٢ بتصرف].

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب جزاء الصيد: ٨ باب لا يعضد شجر الحرم ٥٢/٤ ح ١٨٣٢ ومسلم فى كتاب الحج ٨٢ باب تحريم مكة وصيدها وخلوها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد، على الدوام ١٣٤/٥ ح، ١٣٥٤ والبيهقى فى السنن الكبرى كتاب الجزية ٤٠ باب المهادنة على النظر للمسلمين ٢١٩/٩ ج ١٨٨٠٧ جميعهم عن أبى شريح العدوى.

(٤) اختلفت روايات الصحيح فى عدد الصحابة فى الحديبية والأرجح أنهم ألف وأربعمئة كما جاء فى حديث البخارى الذى يقول فيه: حدثنا علي حدثنا سفيان قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «قال لنا رسول الله ﷺ (أنتم خير أهل الأرض)، وكنا ألفاً وأربعمئة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة» =

البيت الحرام بقصد العمرة لأن المسلمين كانوا قد اشتاقوا إلى رؤية البيت والطواف به. «ففى السنة الثانية بعد عام ونصف عام من هجرته ﷺ عدل النبي ﷺ بقبلته عن المسجد الأقصى في مدينة القدس من فلسطين إلى المسجد الحرام، فجعل المسلمون وجهتهم في الصلاة بيت الله الحرام بمكة المكرمة.

وكان العرب يتوجهون إلى المسجد الحرام منذ مئات السنين، يحجون إليه في الأشهر الحرم ويقصدونه، ويعبد بعضهم الأصنام التي بداخله، ولكن المسلمين آمنوا بالله وكفروا بالجبث والطاغوت والأصنام إلا أنهم لم يكفروا بالبيت العتيق فلماذا لا يقصد المسلمون المسجد الحرام زائرين له معظمين حرمة ليرى العرب المجتمعون بمكة المكرمة قوتهم وليتحدثوا عن مكانة البيت الحرام في نفوسهم المؤمنة!! إن ذلك سيزيد في قوة المسلمين قوة، وسيجعل قلوب المشركين تهوى إليهم، وسيشعرون بأنهم يظلمون المسلمين عندما يمنعونهم من زيارة البيت، وسيخفف كل ذلك من حقدهم على المسلمين وبغضائهم لهم فلا تجتمع قلوبهم على حرب المسلمين أبدًا»<sup>(١)</sup>

كما كان هذا الخروج «للعمره» تحقيقاً للرؤيا الصادقة لرسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup> فلما انقضت ست سنوات من الهجرة كان المسلمون يتحرقون شوقاً لزيارة البيت الحرام وكان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك واحد منهم أن هذه الرؤيا سوف تتفسر هذا العام<sup>(٣)</sup>.

= تابعه الأعمش سمع سألماً سمع جابراً ألفاً وأربعمائة، والحديث أخرجه البخارى في كتاب المغازى ٣٥ باب غزوة الحديبية ٧/ ٥٤٧ ح ٤١٥٤ - عن جابر بن عبد الله ﷺ. ويرى الأستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعى: أن السبب في الخلاف بين الرواة: أن معظم المهاجرين والأنصار خرجوا مع النبي ﷺ ثم تلاحق آخرون في الطريق على أنه كان في جملتهم عدد من النساء والخدم والأتباع والصبيان الذين لم يبلغوا الحلم وكان عدد المهاجرين ثمانمائة والباقي من الأنصار (كتاب هدى السنة في الفتوحات الكبرى في الإسلام للأستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعى ص ١٥٧) طبعة مصر للخدمات العلمية بالقاهرة سنة ١٩٩٧ م.

(١) الرسول القائد للواء الركن محمود شيت خطاب ص ٢٦٩ طبعة دار الفكر الخامسة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩.

(٢) ينظر السيرة النبوية لابن هشام موضوع (أمر الحديبية ٣/ ٢٩٢).

(٣) ينظر تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠١.

## أ- أهداف الطرفين

### أولاً: أهداف المسلمين:

كان للنبي ﷺ عدة أهداف أراد تحقيقها من خلال الخروج إلى زيارة البيت الحرام منها:-

أراد الرسول ﷺ أداء النسك إقراراً لحق المسلمين في أداء عبادتهم، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكاً لأحد.  
إظهار تعظيم المسلمين للبيت الحرام عملياً، حتى تتأكد العرب من ذلك عن يقين لا يتطرق إليه شك.

إظهار قوة المسلمين لقريش ولغيرها من القبائل المجتمعة لزيارة البيت الحرام وإظهار شدة انضباط المسلمين وطاعتهم للرسول ﷺ وحرصهم على اتباعه والدفاع عنه وتعلقهم بالدعوة وحرصهم على الدفاع عنها وعن حماية حرية نشرها لتكون كلمة الله هي العليا.

### ثانياً: هدف المشركين:

صد المسلمين عن البيت الحرام، حتى لا تتحدث العرب عن دخول المسلمين إليه عنوة، فتقل هيبة قريش ومكانتها المرموقة بين القبائل العربية

### ب- النبي ﷺ يستخلف على المدينة ويخرج قاصداً العمرة

استخلف رسول ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم أو نميلة الليثي<sup>(١)</sup>، وخرج منها يوم الإثنين غرة ذي القعدة في السنة السادسة من الهجرة ومعه زوجته أم سلمة في ألف وأربعمائة ولم يخرج بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب<sup>(٢)</sup>.

(١) نميلة بن عبد الله بن فقيم بن حزن بن سيار بن عبد الله بن كاسب بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة الليثي الكلبى [أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير محمد بن أبي الحسن الجزرى ت ٦٣٠هـ / ٣٦٢/٥ طبعة دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٠م].

(٢) هي شبه الجراب يطرح فيه الراكب سيفه بغمده وسوطه وقد يطرح فيه زاده من تمر وغيره (النهاية «قرب» ٣٤/٤).

وتحرك رسول الله ﷺ ناحية مكة فلما كان بذى الحليفة<sup>(١)</sup>، قلد الهدى<sup>(٢)</sup>، وأشعره<sup>(٣)</sup>، وأحرم بالعمرة، تأكيداً للأمر، أنه لا يريد الحرب<sup>(٤)</sup>.

وبعد ذلك طبق النبي ﷺ مبدأ مهما من مبادئ النصر في الحرب تلك المبادئ التي استفاد منها أبرز القادة المحدثين بعده ﷺ وهو مبدأ «الاستطلاع» أو جمع المعلومات عن العدو، وقد دل تطبيق هذه المبادئ على بعد النظر السياسى، للنبي ﷺ فلما كان ﷺ بذى الحليفة بعث بين يديه عيناً له من خزاعة لكي يخبره عن قريش، وقام هذا الصحابي الجليل باستطلاع الأخبار وأوقف النبي ﷺ على موقف قريش ناحية المسلمين.

يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان قال سمعت الزهرى حين حدث هذا الحديث حفظت بعضه، وثبتنى معمر عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم - يزيد أحدهما على صاحبه - قال «خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط<sup>(٥)</sup>، أتاه عينه قال: إن قريشاً جمعوا لك جمعوا وقد جمعوا لك الأحابيش<sup>(٦)</sup>، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك<sup>(٧)</sup>».

(١) قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة. وهى ميقات أهل المدينة التي يحرمون عنده للحج (معجم البلدان ٣/٣٢٩).

(٢) وضع قلائد في أعناق الهدى: والهدى ما أهدى إلى البيت وتقرب به إلى الله (النهاية «قلد» ٤/٩٩) .

(٣) الإشعار: هو أن يشق أحد جنبى سنام البدنة حتى يسيل دمها ويجعل ذلك لها علامة تعرف بها أنها هدى (النهاية «شعر» ٢/٤٧٩) .

(٤) ينظر سيرة ابن هشام موضوع «أمر الحديبية» ٣١٢/٢٨٢.

(٥) غدير الأشطاط: موضع قريب من عسفان وهو بين مكة والمدينة وبينه وبين الجحفة ميلين (معجم البلدان ٤/٢١٢) .

(٦) الأحابيش: هم أحياء من القارة انضموا إلى بنى ليث في محاربتهم قريشاً، والتحيش: التجمع، وقيل: حالفوا قريشاً تحت جبل يسمى حبشياً فسموا بذلك وكانوا أقوياء شجعان (النهاية «حبش» ١/٣٣٠ بتصرف) .

(٧) أخرجه البخارى في كتاب المغازى ٣٥ باب غزوة الحديبية ٧/٥٦٠ ج ٤١٧٨، ٤١٧٩ والإمام أحمد في المسند ٤/٣٢٣ وعبد الرزاق في المصنف: غزوة الحديبية ٥/٣٣٠ ج ٩٧٢٠ طبعة المجلس العلمى الطبعة الثانية =

عند ذلك عمل النبي ﷺ على تقرير مبدأ مهم من مبادئ السياسة وحسن الإدارة وهو الشورى. فالنبي ﷺ كان لا يبرم أمراً إلا بعد المشاورة فاستشار أصحابه فقال في جزء من الحديث السابق «أشيروا أيها الناس علي أترون أن أميل إلى عيالم وذرارى<sup>(١)</sup>»، هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله ﷻ قد قطع عيناً من المشركين، وإلا تركناهم محرويين قال أبو بكر يارسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، قال: امضوا على اسم الله<sup>(٢)</sup>.

### ج- النبي ﷺ يأخذ بمشورة أبى بكر فى ترك القتال:

كان النبي ﷺ لا يستبد برأيه ولكن يجعل الأمر شورى ويحترم رأى أفراد جيشه ولذلك عدل عن رأيه وأخذ بمشورة أبى بكر فى ترك قتال المشركين: يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى حدثنى عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرازق أخبرنا معمر قال أخبرنى الزهرى قال أخبرنى عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالوا: «فذكرنا حديثاً طويلاً وفيه.... فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم<sup>(٣)</sup>، الحرب وأضررت بهم، فإن شاءوا ماددتهم<sup>(٤)</sup>، مدة ويخلوا بينى وبين الناس، فإن أظهر<sup>(٥)</sup>، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا<sup>(٦)</sup>، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد

= ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م والبيهقى فى كتاب الجزية ٤٠ باب المهادنة على النظر للمسلمين ٩/ ٢١٨ ج ١٨٨٠٧ جميعهم عن المسور ومروان رضي الله عنهما.

- (١) الذرارى: جمع ذرية: وهى اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى (البداية ٢/ ١٥٧)
- (٢) لفظ البخارى فى كتاب المغازى ٣٥ باب غزوة الحديبية ٧٠ / ٥٦٠ ج ٤١٧٨، ٤١٧٩.
- (٣) بلغت فيهم الجهد حتى أضعفتهم إما فى القوة وإما فى المال (النهاية «نك» ٥/ ١٣٧).
- (٤) أى جعلت لهم مدة طويلة أترك الحرب بينا وبينهم فيها (النهاية (مدد) ٤ / ٣٠٨، ٣٠٩ وفتح البارى ٥/ ٤١٢).

(٥) أنتصر وأغلب وأعلو عليهم (النهاية «ظهر» ٣/ ١٦٤ وفتح البارى ٥/ ٤١٢).

(٦) فقد جموا: أى استراحوا أو قوا (النهاية «جم» ١/ ٣٠١).

سألفتي<sup>(١)</sup>، ولينفذ الله أمره<sup>(٢)</sup>.

ولكن المشركين كانوا يرغبون في العدوان دائماً فقد أبت عليهم أنفسهم أن يتركوا المسلمين، ويخلوا بينهم وبين زيارة البيت الحرام: لأن المشركين نشأوا على العدوان والكبرياء والظلم، فعقدوا لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل على مائتي فارس مع قسم من المشاة.

د- خالد بن الوليد يخرج من مكة ليستطلع أخبار المسلمين ليصدهم عن بيت الله الحرام:

تقدم جيش خالد بن الوليد ليحول بين النبي ﷺ وبين مكة ورابط الجيش بكراع الغميم<sup>(٣)</sup>، في الطريق الرئيس الذي يوصل إلى مكة وقد حاول خالد بن الوليد صد المسلمين فقام بفرسانه إزاءهم يترآى الجيشان، وأراد المشركون أن يغدروا بالمسلمين، وذلك حينما رأى خالد بن الوليد المسلمين في صلاة الظهر يركعون ويسجدون فقال: لقد كانوا على غرة، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم، ثم قرر أن يميل على المسلمين، وهم في صلاة العصر ميلاً واحدة فصلى المسلمون صلاة الخوف ففاتت الفرصة لخالدًا.

ولما رأى النبي ﷺ أن خالد بن الوليد قد رابط على الطريق الرئيسي الذي يوصل إلى مكة كراع الغميم فكر ﷺ في تغيير خطته في السير (فقال: فيما رواه ابن إسحاق قال حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير عن مسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدثاه قالا: فذكرنا حديثاً طويلاً وفيه، فقال

(١) السالفة: صنعة العنق، وهما سالفان من جانبيه، وكنى بانفرادهما عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت وقيل: أراد حتى يفرق بين رأسى وجسدى (النهاية «سلف» ٢/ ٣٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشروط ١٥ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٥/ ٤٠١، ٤٠٢ ج ٧٣٢، ٧٣١، والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الجزية، ٤ باب المهادنة على النظر للمسلمين ٩/ ٢١٩ ح ١٨٨٠٧ كلهم عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رحمهم الله.

(٣) موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال (معجم البلدان ٤/ ٥٠٣) والميل: مقياس للطول قدر قديماً بأربعة آلاف ذراع وهو برى وبحرى فالبرى يقدر الآن بما يساوى ١٦٠٩ من الأمتار، والبحرى بما يساوى ١٨٥٢ من الأمتار (المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (مال) ص ٥٩٧).



رسول الله ﷺ «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها»<sup>(١)</sup>، قال ابن اسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رجلاً من أسلم قال: أنا يارسول الله فسلك طريقاً وعراً أجزل<sup>(٢)</sup>، بين شعاب<sup>(٣)</sup>.

وبذلك غير النبي ﷺ مساره وسلك طريقاً وعراً بين شعاب حتى يضل جيش قريش. قال ابن هشام: فأمر رسول الله ﷺ الناس فقال اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض<sup>(٤)</sup>، في طريق تخرجه على ثنية المزار - مهبط الحديبية من أسفل مكة - قال فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قفرة الجيش<sup>(٥)</sup>، قد خالفوا عن طريقهم رجعوا راكضين<sup>(٦)</sup>، إلى قريش<sup>(٧)</sup>، ولا ريب أن هذا تخطيط سياسى حكيم، وعمل عسكري رشيد من النبي ﷺ في عبوره طريقاً آخر حتى يتحاشى فرسان قريش، وكذلك استقراره في مكان يحظر فيه القتال، فضلاً عن كونه لونا من نظم الحرب المستحدثة في الإسلام، وبذلك ألجأ النبي ﷺ قريشاً إلى قبول أحد خيارين كل منهما أشد مرارة من الآخر بالنسبة لها إذ لا تستطيع قريش السماح للمسلمين بدخول مكة، ولا تستطيع أن تحاربهم في هذا المكان الذي لا تجوز الحرب فيه فأرغمهم النبي ﷺ إلى الوساطة والمفاوضة واللجوء إلى رفع راية السلام فأخذت الوساطة تلعب دورها للعثور على حل يرضى الطرفين.

#### هـ- اللجوء إلى سياسة المفاوضات:

أرسلت قريش بديل بن ورقاء الخزاعي ليعرف القصد الحقيقي من حضور المسلمين فأخبرهم النبي ﷺ أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومعظمًا لحرمة، فنقل بديل وأصحابه هذا الأمر لقريش، ونصحوهم بأن يخلوا بين

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع: أمر الحديبية (السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٣/٣) .

(٢) أى كثير الحجارة وقيل أجرد أى ليس فيه نبات (النهاية (جرد) ٢٥٧/١)

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع: «أمر الحديبية» (السيرة النبوية لابن هشام) ٢٨٣/٣ .

(٤) هو في اللغة كل نبت فيه ملوحة ترعاه الإبل وهو موضع قريب من اليمامة (معجم البلدان ٣٠٥/٢) .

(٥) أى غبار الجيش (النهاية «قتر» ١٢/٤) .

(٦) راكضين أى: مضطربين [النهاية «ركض» ٢٥٩/٢] .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام. موضوع «أمر الحديبية» ٢٨٣/٣ .

رسول الله ﷺ وبين البيت الحرام، ولكن قريشاً رفضت قبول هذه النصيحة، واتهمت بديلاً وأصحابه في ولائهم لهم وخاطبتهم بما يكرهون وقالوا (وإن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تحدث بذلك عنا العرب<sup>(١)</sup>)، ثم أرسلت قريش حليفها الحليس بن علقمة وكان يؤمئذ سيد الأحابيش وهو أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة، أرسلوه للوساطة والمفاوضة أيضاً وحين ذلك استغل النبي ﷺ بعث هذا المفاوض في الإعلان عن نيته السلمية، وفي استمالة قلوب الناس، والإعلان عن حقه في تعظيم البيت الحرام مثلما يعظمونه. ولقد كان النبي ﷺ يمتاز في سياسته بمعرفة وجهات أعدائه وميوهم، وهى سياسة يستطيع من يجيدها أن يستميل قلوب الناس وينزلهم على ما يريد، فلما رأى النبي ﷺ الحليس بن علقمة أمر ﷺ أصحابه أن يبعثوا الهدى في وجهه، لأن الحليس كان من قوم يعظمون الهدى فلما أطلقوا الهدى<sup>(٢)</sup>، أمامه. عاد إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، وأخبر قريشاً أن المسلمين ينوون العمرة لا سواها (فقالوا له اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك)<sup>(٣)</sup> فتلك سياسة حكيمة من النبي ﷺ في تعامله مع الحليس. فقد أنزله على ما يحب واستمال قلبه وجعله يؤمن بقصده وسماحة مبادئه، وضمه هو وقومه إلى جانبه، وهو من الأحابيش الذين تحسب لهم قريش ألف حساب، وسيأتى الكلام عن دورهم في الدفاع عن المسلمين فيما بعد.

ثم أرسلت قريش بعد ذلك رجلاً يعرف بالحكمة وقوة الرأي وهو عروة بن مسعود الثقفى فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فجلس بين يديه، وجاء في حديث البخارى السابق أن عروة قال للنبي ﷺ: أى محمد أرايت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح<sup>(٤)</sup>، أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى<sup>(٥)</sup>، فإنى والله لا

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة. موضوع: «أمر الحديبية» (السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٨٥).

(٢) هو ما يهدى إلى البيت الحرام من النعم لتنحر [النهاية] (هذا) ٥/ ٢٥٤.

(٣) ذكره ابن إسحاق في السيرة النبوية. موضوع: أمر الحديبية (السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٨٦).

(٤) أهلك أصله بالكلية [النهاية] «جوح» ١/ ٣١٢.

(٥) يعنى وإن تكن الغلبة لقريش لا آمنهم عليك [فتح البارى ٥/ ٤١٤].

أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً<sup>(١)</sup>، من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك فقال له أبو بكر امصص بظر اللات<sup>(٢)</sup>، أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال من ذا؟ قالوا أبا بكر قال: أما والذي نفسى بيده، لو لا يد لك عندي لم أجرك بها لأجبتك، قال وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة<sup>(٣)</sup>، قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر<sup>(٤)</sup>، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال له: أخريدك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قال المغيرة ابن شعبة فقال: أى غدر<sup>(٥)</sup>، ألسنت أسعى في غدرتك<sup>(٦)</sup>؟ وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال رسول الله ﷺ أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه قال فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إني ما رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهة وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون

(١) الأخلاط من الناس والرعا [النهاية «وشب»] ١٨٧/٥.

(٢) البظر: الهنة التي تقطعها الخافضة من فرج المرأة عند الختان [النهاية «بظر»] ١٣٨/١ واللات: اسم صنم كان لثقيف بالطائف [النهاية «لات»] ٢٢٠/٤.

(٣) هو الصحابي الجليل: المغيرة بن شعبة بن مسعود بن معتب الثقفي أسلم قبل الحديبية وولى أمره البصرة ثم الكوفة ومات ﷺ سنة خمسين على الصحيح [الإصابة ١٩٧/٦].

(٤) المغفر هو: ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه [النهاية «غفر»] ٣٧٤/٣.

(٥) أى يا غادر [النهاية «غدر»] ٣٤٥/٣.

(٦) قال ابن هشام: أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بنى مالك من ثقيف، فتهايج الحيان من ثقيف: بنوا مالك رهط المقتولين والأحلاف رهط المغيرة، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر [السيرة النبوية لابن هشام ٣٨٧/٣].

إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة<sup>(١)</sup>، رشد فاقبلوها<sup>(٢)</sup>.

### والنبي ﷺ يبعث مفاوضين إلى قريش:

أرسل النبي ﷺ خراش<sup>(٣)</sup>، بن أمية الخزاعي ليلبلغ أشراف قريش حقيقة ما جاء له، وحمله على بغير له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش<sup>(٤)</sup>، ومن هنا برز دورهم في الدفاع عن رسول الله ﷺ وأصحابه لأنه ﷺ استمال قلوبهم قبل ذلك.

وبعد الذي فعلته قريش مع خراش بن أمية كره النبي ﷺ أن تجرى الأمور على غير ما أراد فبعث عثمان بن عفان ليفاوض قريشاً ويكرر القول بأن رسول ﷺ لا يريد قتلاً وأنه يريد أداء النسك فقط ونزل عثمان بن عفان في جوار سعيد بن العاص حين دخل مكة وقد عرض عليه أهل مكة أن يطوف بالبيت ومع أنه كان يشاق إلى ذلك إلا أنه قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فبايع النبي ﷺ أصحابه بيعة الرضوان تحت الشجرة، وفيها أقسم المسلمون على الحرب حتى الموت أو النصر<sup>(٥)</sup>.

وقد أثنى الله على المتبايعين بقوله تعالى ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وهنا تبرز لنا بعض جوانب السياسة الحكيمة للنبي ﷺ وكيف أنه كان يحسب حساب كل أمر، فهو ﷺ قد اتخذ السلم وسيلة لتحقيق أهدافه الرشيدة، فلما لم ينفع السلم اتجه للحرب فعبأ الجيش واستعد للقتال على أعلى مستوى وبايع أصحابه على

(١) أمراً واضحاً في الهدى والاستقامة (النهاية «خطط») ٤٨/٢.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب الشروط ١٥ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٤٠٣/٥ ح ٢٧٣١، ٢٧٣٢ - وقد سبق تخريجه.

(٣) هو الصحابي الجليل: خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل بن منقذ بن عفيف بن كليب بن حبشية بن سلول الخزاعي ثم الكلبي شهد المريسيع والحديبية وخيبر وما بعدهم [الإصابة ٢/٢٦٩].

(٤) السيرة النبوية لابن هشام موضوع أمر الحديبية ٢٨٨/٣.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام. موضوع: رسول الله ﷺ يبعث عثمان بن عفان إلى مكة ٢٨٨/٣.

الموت وبلغ قريشاً أمر هذه البيعة، فردها هذا العمل الجريء إلى رشدها فأخذت تعيد النظر في موقفها وتفكر في أمرها على هدى وبصيرة  
ز- قريش تبعث إلى النبي ﷺ من يفاوضه:

أرسلت قريش سهيل بن عمرو<sup>(١)</sup>، على رأس وفد ليفاوض رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>، وهو الذي تم عقد الصلح معه بعد أن أحاطت غيوم كثيرة بالموقف، وبعد أن أصبحت الحرب على وشك الاندلاع.

### ح- كتابة شروط الصلح:

دعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب ليكتب شروط الصلح بين المسلمين والمشركين فقال له اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي ﷺ اكتب «بسمك اللهم» ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبد الله» فقال النبي ﷺ «والله إنني لرسول الله وإن كذبتُموني»<sup>(٣)</sup>.

ثم قال رسول الله ﷺ «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلاحاً على:

(١) سهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نضر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى، وأمه حبي بنت قيس بن ضبيس من خزاعة، وخرج سهيل بن عمرو من مكة إلى حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه فأسلم بالجعرانة، وأعطاه رسول الله ﷺ يؤمئذ من غنائم حنين مائة من الإبل، وقد روى سهيل عن النبي ﷺ أحاديث خرج إلى الشام ورابط بها حتى مات في طاعون عمواس بالشام سنة ثمانى عشرة من الهجرة ويكنى سهيل أبا يزيد (الطبقات الكبرى لابن سعد: تسمية من نزل مكة من أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم سهيل بن عمرو ٩/٦) ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

(٢) ينظر السيرة النبوية لابن هشام. موضوع: أمر الهدنة ٢٩٠/٣.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخارى في كتاب الشروط ١٥ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط ٥/٤٠٤ ح ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

١- وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض

٢- من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لن يردوه عليه

٣- أن بيننا عيبة مكفوفة<sup>(١)</sup>، وأنه لا إسلال<sup>(٢)</sup>، ولا إغلال<sup>(٣)</sup>،

٤- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

أن يرجع النبي ﷺ والمسلمون عنهم عامهم هذا، فلا يدخل عليهم مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجوا عنها فيدخلها النبي ﷺ بأصحابه فيقيم بها ثلاثًا. معهم سلاح الراكب، - السيوف في القرب - لا يدخلون بغيرها.

ولما فرغ النبي ﷺ من كتابة الشروط أشهد على الصلح رجالًا من المسلمين ورجالًا من المشركين: ومنهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف، وسهيل بن عمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمود بن مسلمة<sup>(٤)</sup>، ومكرز بن حفص<sup>(٥)</sup>، وهو يومئذ مشرك. وعلى بن أبي طالب وكتب وكان هو كاتب الصحيفة<sup>(٦)</sup>

(١) عيبة مكفوفة: أى بينهم صدر نقى من الغل والخداع، مطوى على الوفاء بالصلح والمكفوفة المشرجة المشدودة (النهاية «عيب» ٣/ ٣٢٧) •

(٢) الإسلال: السرقة الخفية يقال سل البعير وغيره في جوف الليل إذا انتزعه من بين الإبل، وهى السلة، وأسل: أى صار ذا سلة، وإذا أعان غيره عليه ويقال الإسلال الغارة الظاهرة. وقيل سل السيوف (النهاية «سلل» ٢/ ٣٩٢) (٣) الإغلال: الخيانة أو السرقة الخفية، وأغل وأسل معناه صار ذا غلول وسلة، ويكون أيضًا أن يعين غيره عليهما (النهاية «غلل» ٣/ ٣٨٠) •

(٤) هو الصحابي الجليل: محمود بن مسلمة بن سلمة الأنصاري شهد أحدًا والخندق والحديبية وخيبر وقتل يومئذ شهيدًا [الإصابة ٦/ ٤٢].

(٥) هو الصحابي الجليل: مكرز بن حفص بن الأخيف بن علقمة بن عبد الحارث بن منقذ بن عمرو بن بغيض بن عامر بن لؤى القرشي العامري قدم المدينة بعد الهجرة ولما أسر سهيل بن عمرو يوم بدر افتداه وحضر صلح الحديبية [الإصابة ٦/ ٢٠٦].

(٦) ينظر السيرة النبوية لابن هشام موضوع (أمر الحديبية ٣/ ٢٩١-٢٩٣) •

## ط- تأملات في شروط الصلح:

رأى أكثر الصحابة أن النبي ﷺ خضع لشروط قريش وأنهم كانوا قريبين من البيت الحرام فمنعتهم هذه الشروط من دخوله، ولذلك استاءوا لهذه النتيجة التي وصلت إليها المفاوضات واعتبروا أنفسهم مغلوبين أذلاء

لكن الناظر بحكمة إلى هذه الشروط، والمتلمس ما بين السطور وما وراءها يرى أن النبي ﷺ كان موفقاً غاية التوفيق في قبول هذه الشروط

وأن هذا السلام كان فتحاً مبيناً على المسلمين، لذلك أنزل الله عقب الانتهاء من هذا الصلح - قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] فالنبي ﷺ صنع بهذا السلام ما لم تصنعه الحروب في كثير من الأعوام، وتفهم الموقف وتعامل معه بكل كياسة وسياسة وحكمة فإن من الصراعات صراعات لا تجدى فيها السيوف ولا تفهم فيها إلا لغة الحوار والتفاوض وتكون فيها المواقف والكلمات أشد وقعاً من فعل (الصواريخ والدبابات)، ولكن المفاوضات فيها يجب أن يكون على درجة كبيرة من الدهاء والحنكة السياسية حتى يكسب الجولة لصالحه، طالما أنه يدافع عن الحق ويدور معه حيث دار.

## ي- لماذا تساهل النبي ﷺ في بنود العهد وأسلوب الصياغة؟

يقول الأستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعي: وافق النبي ﷺ على تغيير صيغة البسملة إلى: باسمك اللهم، كما أراد وفد قريش كما وافق على كشط ومحو وصفه بأنه رسول الله إلى: محمد بن عبد الله، كما وافقهم على اشتراطهم أن يرد إليهم من جاء من قريش إليه مسلماً، وهم لا يمنعون من ذهب إليهم من عنده ﷺ والحكمة في هذه الموافقات العسيرة على نفوس الصحابة، أنه ﷺ قال عندما بركت ناقته بالحديبية «والذي نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت» لقد أيقن النبي ﷺ باستحالة دخول الحرم عنوة وحرباً فلم يبق إلا التفاوض والتعاهد، ومهما تكن من معوقات فإن النصر مع الصبر، وإن دين الله ظاهر لا محالة، وإن الهدف من الوصول للبيت ما دام سيتحقق عن طريق التفاوض فهذا خير من الاصطدام والمقاتلة في حرم الله، على أنه ﷺ يشعر بقوة الحق وسطوة

الإسلام، ويعلم أن شمس الشرك آخذة في الأفول لا محالة<sup>(١)</sup>.

#### ك- مناقشة شروط الصلح:

المتأمل في شروط صلح الحديبية يرى أنها كانت فتحًا مبينًا للمسلمين. فما يتعلق بأمر محو البسمة وكتابة «باسمك اللهم»، وكذلك محو كلمة «محمد رسول الله» وكتابة «محمد بن عبد الله»، فقد رأى النبي الحكيم ﷺ أن هذا لا يضر المسلمين في شيء كما أنه لا يفيد المشركين في شيء، ولم يغير هذا الأمر من الحقيقة شيئًا فقد استمر محمد ﷺ رسول الله كما كان.

وأما الشرط الذى يقول: أن يرجع المسلمون هذا العام فلا يدخلوا مكة ويأتوا في العام الذى يليه، فهذا ليس فيه إضرار بالمسلمين لأن العمرة سنة تؤدى في أى عام، حتى أن الحج مع أنه فرض، لكنه يجب على التراخي فإن لم يؤد هذا العام فيؤد في العام الذى بعده - وذلك عند بعض المذاهب الفقهية<sup>(٢)</sup>.

#### ل- بقية الشروط كانت فتحًا مبينًا وعادت على المسلمين بالنفع والخير:

١- فموجب عقد هذا الصلح اعترفت قريش بكيان المسلمين ولم يعد النبي ﷺ وأصحابه مجرد ثائرين في - نظر قريش - وإنما أصبحوا هيئة معترف بها لها وجود، ولها حقوق وجلس المسلمين مع قريش على مائدة مفاوضات واحدة فيه اعتراف ضمنى بدولة الإسلام.

٢- ومن المكاسب التى حققها النبي ﷺ باختيار السلم في الحديبية، ضرب الإعلام القرشى في مقتل حيث إن قريشًا عبأت رأى العام في جزيرة العرب في ذلك الوقت أن محمدًا عدو للدين، وأنه لا يقدر البيت الحرام وهم يقصدون - لا يقدر

(١) ملحظ رشيد ورؤية علمية دقيقة للأستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعى في كتابه (هدى الكتاب والسنة في الفتوحات الكبرى في الإسلام) ص ١٨٣ طبعة مصر للخدمات العلمية للطبع والنشر بالقاهرة سنة ١٩٩٧م.

(٢) بهذا رأى قال الإمام الشافعى والإمام أحمد في رواية له رحمهما الله تعالى [المغنى ٣/ ٤٤٥، ٢٤٦] تأليف الشيخ العلامة أبى محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة ت ٦٢٠هـ وهما مشه الشرح الكبير للإمام شمس الدين عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة ت ٦٨٢هـ طبعة دار الغد العربى الأولى بدون تاريخ.



الأصنام التي نصبوها حول البيت الحرام - وبذلك غير المسلمون الحملة الإعلامية التي شنتها قريش عليهم واكتسبوا لصالحهم حيث إنهم أثبتوا للعالم من حولهم أنهم ليسوا كذلك بل إنهم ممن يعظمون البيت الحرام بدليل قصد العمرة وأن قريشاً هي التي تصدهم عن زيارة البيت الحرام.

٣- أعطت هذه الهدنة فرصة كبيرة للنبي ﷺ لنشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية لأنه أمن جانب قريش التي طالما هددت أمن المسلمين ووقفت عائقاً في سبيل نشر دعوة الإسلام) وأخذ النبي ﷺ يرأس كل ملوك الأرض ويدعوهم للدخول في الإسلام.

٤- ومن مكاسب الحديبية أيضاً كثرة دخول الناس في الإسلام مدة هذه الهدنة، حيث أمن الناس لا سيما المستضعفين منهم ظلم قريش ودخلوا في الإسلام، وقد أجمع المؤرخون على أن من دخلوا في الإسلام من تاريخ معاهدة الحديبية إلى فتح مكة - أى في أقل من سنتين - أكثر ممن دخلوا الإسلام في جميع السنين التي سبقت صلح الحديبية وهي تقدر بنحو عشرين سنة والدليل على ذلك: قال ابن هشام: إن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بستين في عشرة آلاف<sup>(١)</sup>، فانظر كم زاد عدد المسلمين في هذه الهدنة.

٥- أعطت هذه الهدنة للمسلمين فرصة ليتفرغوا لليهود بعد أن أمن المسلمون جانب قريش وبعد أن فرقت هذه المعاهدة بين اليهود وبين قريش فلم يعد هناك تعاون بينهم ضد المسلمين، ولذلك عمل المسلمون على التخلص من اليهود الذين لا عهد لهم، وانتهاز النبي ﷺ فرصة هذه الهدنة وغزا خيبر - في السنة السابعة من الهجرة - وانتصر على اليهود فيها.

٦- أظهر المسلمون لقريش خلال هذا الصلح مدى حبهم لنبيهم ﷺ وأنهم لا يسلمونه لأحد أبداً، وذلك من خلال الحوارات التي دارت بين أبي بكر والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما وبين عروة بن مسعود، وكذلك حينما امتنع عثمان بن عفان عن الطواف بالبيت الحرام بعد أن سنحت له الفرصة بعد طول اشتياق وأبى أن يطوف قبل أن

(١) ينظر السيرة النبوية لابن هشام موضوع «(نزول سورة الفتح)» ٢٩٦/٣.

يطوف به النبي ﷺ وهذا الترابط الوثيق بين النبي ﷺ وأصحابه أُرهب أعداء الله وأعطى المسلمين قوة وهيبة في أعين المشركين.

٧- نال المسلمون رضى الله وأطمأنوا بذلك من خلال «الحديبية» حيث إن الله ﷻ أخبر نبيه ﷺ بأنه راض عن المؤمنين قال تعالى في سورة الفتح التى أنزلها الله عقب الحديبية ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ [الفتح: ١٨].

وأخبر الله نبيه ﷺ بأن الذين بايعوه «بيعة الرضوان تحت الشجرة في الحديبية» إنما هم يبايعون الله قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وفي ذلك إقامة دليل من أكبر الأدلة على صدق رسالة النبي ﷺ ، وإخبار بأن طاعة الله مرتبطة بطاعة رسوله ﷺ وأنه ليس هناك طريق يوصل إلى الله إلا طريق محمد ﷺ قال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى ﴿ومن يبتع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [آل عمران: ٨٥].

٨- لما توقفت الحرب بين المسلمين والمشركين بموجب «صلح الحديبية» بدأ كثير من المشركين يفكرون في دين الإسلام وفي تعاليمه السمحة وذلك في جو هادئ بعيد عن الثورة والقلق والاضطراب الذى كان يحدث أثناء النضال قبل هدنة الحديبية، وبعد هذا التفكير بدأ كثير من أبطال قريش يدخلون في الإسلام ومن هؤلاء الأبطال: خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص حتى أن سهيل بن عمرو - رئيس وفد المشركين الذين فاوضوا النبي ﷺ في الحديبية - فكر في دين الإسلام كثيراً مدة الهدنة ودخل في الإسلام يوم فتح مكة وحسن إسلامه ثم كان من شهداء اليرموك.

٩- انضمام حلفاء جدد للمسلمين وذلك بموجب الشرط الذى يقول «وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد، وعهده دخل فيه» وعند ذلك توافقت خراعة فقالوا (نحن في عقد محمد وعهده<sup>(١)</sup>) وكان لخراعة دور بارز في الدفاع عن المسلمين وتقوية شوكتهم

(١) ينظر السيرة النبوية لابن هشام موضوع «أمير الحديبية ٣/ ٢٩٢» .

١٠ - في هذا الهدوء الذي أعقب العاصفة خطا التشريع الإسلامى خطوات مباركة ورسم هذا التشريع للمسلمين حياتهم في مختلف النواحي<sup>(١)</sup>

١١ - أنزل الله السكينة على عباده المؤمنين وزادهم إيماناً إلى إيمانهم وأخبرهم بأن جنوده معهم لن تتخلى عنهم يقول ابن كثير رحمته في معنى قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أى جعل الطمأنينة قاله ابن عباس رضي الله عنه وعنه الرحمة وقال قتادة: السكينة: أى الوقار في قلوب المؤمنين وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله وللرسول وانقادوا لحكمهما، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم<sup>(٢)</sup>، اهـ

قال تعالى في سورة الفتح التى نزلت بعد صلح الحديبية ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَهُوَ اللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] وقال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

١٢ - ربط الله على قلوب المؤمنين وزادهم شجاعة وقوة وقيناً وثقة بالنصر على الأعداء بعد هذا الصلح وكف أيدي الناس عنهم - قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَاتَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْيَارُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠].

كما وعد الله المؤمنين بالوصول على غنائم كثيرة بعد نصرهم على أعدائهم قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ [الفتح: ٢٠].

١٣ - اعتبر المسلمون أن إرجاع من يأتى إليهم مسلماً من قريش - بدون إذن وليه - إليها، في حين لا تلتزم قريش برد من يأتى إليها من المسلمين هزيمة واضحة، ورأوا أن هذا الشرط فيه ظلم وبعد عن العدالة وعدم تكافؤ. ولكن النبي العظيم ﷺ

(١) ينظر كتاب من السيرة النبوية العطرة «صلح الحديبية وشروطه ومناقشتها للدكتور أحمد شلبى ص ١٩ - طبعة

الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠١م

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ١٨٤.

أراح قلوب المسلمين وأوضح لهم موقفه الحكيم وجاء ذلك في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس، أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ فيهم سهيل بن عمرو فقال النبي ﷺ لعل: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فذكر حديثاً وفيه: فاشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لم نرده عليكم ومن جاءكم منا رددتموه علينا فقالوا: يا رسول الله. أنكتب هذا؟ قال: «نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً»<sup>(١)</sup>

وبذلك أخبر النبي ﷺ أصحابه أنه من خرج من المسلمين إلى قريش ولحق بهم بعد كتابة هذا العهد فلا خير فيه لأنه ارتد عن الإسلام فلا حزن عليه، ومن جاء إلى المسلمين فردّه المشركون فسوف -يجعل الله له فرجاً ومخرجاً في يوم من الأيام قرب أو بعد.

١٤ - ومن ثمار صلح الحديبية: أن الذين جاءوا من قريش مسلمين ورددهم النبي ﷺ سرعان ما أثبتت الأحداث أن هذا الشرط الذي يبدو فيه إجحاف بالمسلمين كان بمثابة الفتح عليهم لأن الذين ردهم رسول الله ﷺ دافعوا عن أنفسهم وأصبحوا خطراً على قريش نفسها ومن هؤلاء: أبو جندل بن سهيل بن عمرو<sup>(٢)</sup> وأبو بصير<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الجهاد والسير ٢٤ باب صلح الحديبية ٦/٣٧٧ ح ١٧٨٤ عن أنس وأخرجه بالفاظ متقاربة: البخاري في كتاب الصلح ٦ باب كيف يكتب «هذا ما صالح فلان ابن فلان فلان ابن فلان فتح الباري ٥/٣٧١ ح ٢٦٩٨، ٢٦٩٩ عن البراء بن عازب -والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الجزية ٤٠ باب المهادنة على النظر للمسلمين ٩/٢١٩ ح ١٨٨٠٧ عن المسور ومروان بن الحنفية.

(٢) أبو جندل بن سهيل بن عمرو، بن عبد شمس بن عبد ود بن نضر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي أسلم قديماً بمكة فحبسه أبوه وأوثقه في الحديد ومنعه من الهجرة، ثم أفلت بعد الحديبية فخرج إلى أبي بصير بالعيص فلم يزل معه حتى مات أبو بصير، فقدم أبو جندل ومن كان معه من المسلمين المدينة على رسول الله ﷺ فلم يزل يغزو ويجهاد في سبيل الله حتى مات بالشام في طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة في خلافة عمر بن الخطاب ولم يدع أبو جندل عقباً [الطبقات الكبرى لابن سعد: تسمية من نزل الشام من أصحاب رسول الله ﷺ ٧/٢٨٤ والإصابة ٧/٦٩]

(٣) أبو بصير: هو عتبة بن أسيد بن جارية بن أسيد بن عبد الله بن غيرة بن عوف بن ثقيف أبو بصير الثقفي حليف بنى زهرة مشهور بكنيته. متفق على اسمه، ثبت ذكره في قصة الحديبية عند البخاري، ولما كتب النبي ﷺ إلى =

يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثني عبدالله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر قال أخبرني الزهري قال: أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه - قالوا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية... فذكرنا حديثاً طويلاً وفيه فقال سهيل: وعلى أنه<sup>(١)</sup> لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا - قال المسلمون: سبحان الله - كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده<sup>(٢)</sup> وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلى، فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد، قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبداً، قال النبي ﷺ: فأجزه لي قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله<sup>(٣)</sup>.

وذلك لأنه أسلم بمكة فحبسه أبوه سهيل وأوثقه بالقيود حتى لا يهاجر إلى المدينة ويلحق بالمسلمين، فما أن علم بقدوم المسلمين للعمرة حتى هرب من سجنه وهو مقيد وأخذ يمشى في قيوده بصعوبة بالغة حتى ألقى بنفسه بين يدي النبي ﷺ وأخذ يصرخ ويستغيث بالمسلمين، فقال له النبي ﷺ: فيما رواه الإمام أحمد قال حدثنا يزيد بن هرون أنا محمد بن يسار عن الزهري محمد بن مسلم بن شهاب عن عروة ابن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالوا: فذكرنا حديثاً طويلاً فيه فقال

= أبي جندل وأبى بصير أن يقدموا عليه ورد الكتاب وأبو بصير يموت فمات وكتاب النبي ﷺ في يده فدفنه أبو جندل مكانه وصل عليه [الإصابة ٤/٤٣٣].

(١) اشترط سهيل على النبي ﷺ .

(٢) الرسف والرسيف: مشى المقيد إذا جاء يتحامل برجله مع القيد [النهاية (رسف) ٢/٢٢٢].

(٣) أخرجه البخارى في كتاب الشروط ١٥ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٥/٤٠٤ ح ٢٧٣١، ٢٧٣٢ عن المسور ومروان وأخرجه بالفاظ متقاربة الإمام مسلم في كتاب الجهاد والسير ٣٤ باب صلح الحديبية في الحديبية ٦/٣٧٧ ح ١٧٨٥، ١٧٨٤ عن أنس والأمام أحمد في المسند ٤/٣٢٥ عن المسور ومروان رحمهم الله .

رسول الله ﷺ : «يا أبا جندل ، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطينا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم»<sup>(١)</sup>.

ولما وصل النبي ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية لحقه رجل من المستضعفين، اسمه أبو بصير. وقد جاءت قصته في حديث البخاري الذي سبق ذكره. وفيه [٥٠٠] ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير، رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت، ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد<sup>(٢)</sup>، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإنني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب<sup>(٣)</sup> لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر<sup>(٤)</sup>، قال وينفلت منهم أبو جندل ابن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوه وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل: فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى ﴿وهو

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٢٥/٤ على المسور ومروان وذكره ابن إسحاق السيرة موضوع: أمر الحديبية (السيرة النبوية لابن هشام ٢٩٢/٣).

(٢) يعنى مات [النهاية «برد» ١/١١٥].

(٣) مسعرها وموقدها ومشعلها [النهاية «سعر» ٢/٣٦٧].

(٤) منطقة بالعيص: وهي موضع في بلاد بني سليم به ماء يقال له زنيان العيص وهو ناحية ذي المروة على ساحل البحر الأحمر بطريق قريش التي كانوا يسلكونها إلى الشام في تجارتهم [معجم البلدان، ٦/٢٤٨].

الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم<sup>(١)</sup>.  
 فها هي قريش لما لحق بها الضرر من هؤلاء الثائرين المسلمين استغاثت، بالنبي ﷺ وسألته بالله والرحم التي بينهما أن يؤوى إليه هؤلاء، وهكذا نزلت قريش عن شرطها التي أملتة وهي صاغرة وقبله المسلمون وهم كارهون.  
 ١٥ - أمر المهاجرات بعد الهدنة:

ومن مكاسب صلح الحديبية أن النساء لم يدخلن في شروط الصلح، وهذا الشيء لم يكن في حساب قريش، فعندما هاجرت أم كلثوم<sup>(٢)</sup>، بنت عقبة بن أبي معيط من مكة إلى المدينة بعد أن أسلمت، خرج أخوها عمارة والوليد يطلبان من رسول الله ﷺ أن يردها عليهم عملاً بنصوص صلح الحديبية، لكن النبي ﷺ رأى بفطنته السياسية الحكيمة أن نصوص الحديبية لا تنطبق على النساء، فلا ينبغي أن تعاد زوجة قد أسلمت تُنجر على الحياة تحت زوج مشرك. وسرعان ما أنزل الله ﷻ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ...﴾ [المتحنة: ١٠].  
 فقطعت هذه الآية كل تردد، وأبى الله أن يرددن إلى المشركين إذا هن امتحن<sup>(٣)</sup> بمحنة<sup>(٤)</sup>، الإسلام فعفرنوا أنهن إنما جئن رغبة في الإسلام - وبينت الآية أن إسلام زوجة وبقاء زوجها على الشرك يقطع حق الزوجية ويصبح من حق المسلمين أن يتزوجوا بها بعقد ومهر جديدين، فانظر إلى حسن سياسة النبي ﷺ لما احتجوا عليه في بعض نصوص المعاهدة وقيدوه ببعض الألفاظ - كما حدث في عدم إرجاعهم لأبي جندل بموجب

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط ١٥ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٥/

٤٠٦، ٤٠٥ ح ٢٧٣١، ٢٧٣٢. وقد سبق تخريجه. والآية التي في الحديث آية ٢٤ من سورة الفتح.

(٢) هي الصحابية الجليلة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط الأموية أسلمت قديماً وهي أخت عثمان لأمه وماتت في خلافة علي [الإصابة ٨/ ٢٩١].

(٣) ينظر السيرة النبوية لابن هشام موضوع «أمر الحديبية» ٣/ ٣٠٠.

(٤) المحنة: هي أن يأخذ السلطان الرجل أو المرأة فيمتحنهما [النهاية (معن) ٤/ ٣٠٤] والمعلوم أن النبي ﷺ امتحن المهاجرات في أمر الإسلام وأنهن ما خرجن إلا حبا لله ولرسوله كما جاء في الآية السابقة.

نصوص المعاهدة-أخرجهم النبي ﷺ واحتج عليهم وأخبرهم بأن النساء لم يرد ذكرهن في نصوص المعاهدة، فالنصوص مقصورة على الرجال في هذا الشرط بالذات.

١٦- اختيار السلم في الحديبية كان بأمر الله ﷻ لحكمة علمها الله سبحانه وخفيت عن المسلمين في ذلك الوقت ثم أفصح عنها الآية الخامسة والعشرون من سورة الفتح وقد أعجبني ملحظ رائع للأستاذ الدكتور أحمد شلبي حول هذه الآية. حيث يقول: وآية أخيرة نفتسبها من هذه السورة-يقصد سورة الفتح-توضح لنا السبب في عدم حدوث الحرب مع رجحان كفة المسلمين، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وتدلنا هذه الآية على أنه كانت هناك جموع من رجال مكة ونسائها دخلوا الإسلام سرّاً، ولم يستطيعوا أن يعلنوا إسلامهم وسط عناد قريش وقسوتها، ولو اشتعلت الحرب لكان من الممكن أن يصاب هؤلاء بسوء لأن المسلمين لم يعرفوا خبر إسلامهم، ولو أوقع بهم المسلمون بعض الأذى ثم عرفوا فيما بعد خبر إسلامهم فإن المسلمين يحسون بالعار والألم، ولو تميز هؤلاء من أولئك لكان من الممكن أن تقوم الحرب ويسلط الله فيها المؤمنين على الكافرين وهكذا شاء الله أن يكرم الجموع من أجل بعض الأفراد<sup>(١)</sup> اهـ.

١٧- كما أعطت سورة الفتح-التي أنزلها الله في أعقاب الحديبية الأمل للمسلمين في تحقيق رؤيا النبي ﷺ بدخول البيت الحرام وهم آمنون. قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧] وفعلاً أثبت الله للمؤمنين الأمن ونفى عنهم الخوف وذلك في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة حينما استقروا في مكة ثلاثة أيام.

١٨- كانت عمرة القضاء من ثمار صلح الحديبية، وفيها أعز الله المسلمين ودخلوا مكة آمنين، وانطلقت جموعهم تهتف بقوة وإيمان: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده،

(١) ينظر كتاب «(من السيرة النبوية العطرة)» صلح الحديبية: وشروطها ومناقشتها للدكتور أحمد شلبي ص ٢٦

بتصرف يسير طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠١م.



ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده ودوت هذه التلبية في أرجاء مكة وزلزلت قلوب المشركين فاهتزت ووصل هتاف المؤمنين إلى قلوب ذوى الألباب من قريش.

١٩- عمل النبي ﷺ على ادخال الرعب في قلوب المشركين حتى يهابوا المسلمين ويحسبوا لهم ألف حساب ولا يقدموا على محاربتهم بعد ذلك، وذلك من خلال أمر النبي ﷺ المسلمين أن يظهروا قوتهم للمشركين وذلك بالكشف عن مناكبهم، وفيه إظهار القوة والفتوة، وأمره ﷺ لهم بالمشى بسرعة في الأطواف الثلاثة الأولى حول الكعبة ليرى المشركون قوة المسلمين ونشاطهم وعافيتهم فتحدث للمسلمين قوة وهيبة وإجلالاً في قلوب المشركين وكان ذلك في عمرة القضاء التي هي من ثمار صلح الحديبية.

٢٠- أثبت النبي ﷺ لقريش ومن حولها من قبائل العرب أنه أوفى الناس عهداً، وأن المسلمين يمنعهم دينهم أن يغدروا، وذلك من خلال إرجاع النبي ﷺ أبا جندل وأبا بصير إلى المشركين مع أنهما مسلمان. وفي ذلك استمالة لقلوب ذوى الألباب من المشركين حتى يفكروا في هذا الدين القويم الذى لا يحابى أحداً في سبيل الوفاء بالعهد وإن كان ذا قربى.

٢١- لم يغنم المشركون من الحديبية إلا رجوع المسلمين في ذلك العام وصددهم عن زيارة البيت شريطة أن يعودوا لزيارته في العام القابل - السابع الهجرى - وهذا يدل على غطرسة قريش وكبريائها، ولا شك أن قريشاً سقطت في أعين القبائل لكونها تصد الناس عن زيارة البيت الحرام، بينما لم يخسر المسلمون شيئاً في رجوعهم عام الحديبية بدون عمرة، لأنهم قد منّ الله عليهم وحسبت لهم عمرة يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا عبدالله بن محمد بن أسماء حدثنا جويرية عن نافع «أن عبيد الله بن عبدالله<sup>(١)</sup>، وسالم بن عبدالله<sup>(٢)</sup>، أخبراه أنهما كلما عبدالله بن عمر...» وحدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا جويرية عن نافع «أن بعض بنى عبدالله قال له: لو

(١) عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى المدنى أبو بكر شقيق سالم ثقة من الثالثة مات سنة ست ومائة [تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى ص ٣٧٢ ط دار القلم بدمشق الطبعة الثالثة ١٩٩١/١٤٤١].

(٢) سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى أبو عمر أو أبو عبد الله أحد الفقهاء السبعة وكان ثبناً عابداً فاضلاً يشبه بأبويه في الهدى والسمت من كبار الثالثة مات في آخر سنة ست ومائة [تقريب التهذيب ص ٢٢٦].

أقمت العام، فإنني أخاف أن لا تصل إلى البيت. قال: خرجنا مع النبي ﷺ، فحالف كفار قريش دون البيت، فنحر النبي ﷺ هداياه وحلق وقصر أصحابه قال: أشهدكم أني أوجب عمرة فإن خلى بيني وبين البيت طفت، وإن حيل بيني وبين البيت صنعت كما صنع رسول الله ﷺ فسار ساعة ثم قال: ما أرى شأنهما إلا واحداً أشهدكم أني أوجب حجة مع عمرتي، فطاف طوافاً واحداً وسعيّاً واحداً حتى حل منهما جميعاً<sup>(١)</sup> ومما يدل على أن المسلمين حسبت لهم عمرة في الحديبية أيضاً: الأحاديث الصحيحة المروية عن أنس وعائشة وابن عمر وغيرهم رضي الله عنهم. ومنها ما يلي: يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى «حدثنا حسان بن حسان حدثنا همام عن قتادة سألت أنساً رضي الله عنه: كم اعتمر النبي ﷺ؟ قال أربع: عمرة الحديبية في ذي القعدة<sup>(٢)</sup>، حيث صدة المشركون، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة<sup>(٣)</sup>، حيث صالحهم، وعمرة الجعرانة<sup>(٤)</sup>، إذ قسم غنيمة -أراه-<sup>(٥)</sup> حنين، قلت: كم حج؟ قال: واحدة<sup>(٦)</sup>» وسقط من رواية حسان هذه العمرة الرابعة، ولهذا استظهر المصنف [البخاري] بطريق أبي الوليد التي ذكرها في آخر الحديث: حيث يقول: حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك حدثنا همام عن قتادة قال: «سألت أنساً رضي الله عنه فقال «اعتمر النبي ﷺ حيث ردوه، ومن القابل عمرة الحديبية، وعمرة في ذي القعدة، وعمرة مع حجته» وفي رواية أخرى للبخاري أثبت العمرة الرابعة أيضاً. حيث يقول: حدثنا هذبة حدثنا همام وقال: «اعتمر أربع عمر في ذي القعدة، إلا التي اعتمر مع حجته: عمرته من الحديبية، ومن العام المقبل،

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٣٥ باب غزوة الحديبية ٧/٥٦٣ ح ٤١٨٥ عن نافع رضي الله عنه. والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الجزية ٤٠ باب المهادنة على النظر للمسلمين ٩/٢١٩ ح ١٨٨٠٧ عن المسور ومروان رضي الله عنهما.

(٢) كان ذلك في العام السادس من الهجرة.

(٣) كان ذلك في العام السابع من الهجرة.

(٤) الجعرانة هي ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب [معجم البلدان ٣/١٠٩].

(٥) أراه- أي أظنه: [فتح الباري ٣/٧٣٤].

(٦) أخرجه البخاري في كتاب العمرة ٣ باب كم اعتمر النبي ﷺ ٣/٧٣٢ بأرقام ١٧٧٨، ١٧٧٩، ١٧٨٠.

ومسلم في كتاب الحج ٣٥ باب بيان عدد عمر النبي ﷺ وزمانه ٤/٤٩٤ ح ١٢٥٣، وأبو داود في كتاب

المناسك ٨٠ باب العمرة ح ١٩٩٢-٥/٣٦٧. والترمذي في كتاب الحج ٦ باب ما جاءكم حج النبي ﷺ ح

٨١٥-٣/٤٧٧ ح ٨١٥ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. جميعهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومن الجعرانة حيث قسم غنائم حنين وعمر مع حجته» وبذلك لم يخسر المسلمون من رجوعهم من الحديبية أى شىء.

٢٢- إن المتأمل فى أمر قبول النبي ﷺ لبنود صلح الحديبية يدرك الحنكة السياسية الحكيمة، والرؤية العسكرية العظيمة له ﷺ لأن دخول معركة مع قريش فى ذلك الوقت وذاك المكان لم يكن فى صالح المسلمين لأنه بذلك يوقع نفسه وجيشه بين عداوتين كبيرتين وعدوين لدودين، هما: المشركون فى مكة التى تقع جنوب الحديبية واليهود فى خيبر التى تقع شمال المدينة - وعلى ذلك فهى شمال الحديبية - فلما قبل النبي ﷺ شروط الصلح منع تحالف كفار مكة مع يهود خيبر، ولما رجع إلى المدينة انفرد بأحد العدوين - وهم اليهود - وفتح خيبر ولما نقضت قريش عهد الحديبية عاد ﷺ - بعد غزوة خيبر بعام - وفتح مكة، ولم يضيع جزءاً من الوقت فى غير خدمة الدعوة الإسلامية .

فها هي الحديبية خير دليل وشاهد ناطق على حنكة النبي ﷺ السياسية فقد تجلّى فيها بعد نظر النبي ﷺ وحسن سياسته لخصومه وأتباعه. وكيف أنه حقق بالسلام مغنم كثيرة، لم تكن لتحقق لو دقت طبول الحرب، ودارت رحاها.

## ٢- النبي ﷺ هو رسول السلام:

لم نر دولة فى العالم منذ بداية الحياة إلى الآن قدست السلام ودعت إليه مثلما قدسته ودعت إليه دولة الإسلام، فهى دولة دعا الله شعبها أن يدخلوا فى السلم كافة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً...﴾ [البقرة: ٢٠٨] وقد خاطب الله نبي السلام محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

يعنى وإن مال الأعداء إلى السلم، ورأيت منهم هذا الميل إليه، فاجنح لها. يعنى فمل إلى السلام بمجرد أن يميلوا إليه وتوكل على الله.

فالله ﷻ أمر نبيه ﷺ بالمبادرة إلى السلام بمجرد أن يشم من أعدائه رائحة الميل إلى السلام. حتى وإن كانت نياتهم غير خالصة فى هذا الميل إلى السلام، أو كانوا يريدون اكتساب بعض الوقت لإعادة التخطيط وزيادة التسليح من جديد، وإن كانت

نيات الأعداء غير خالصة وأرادوا أن يخدعونا فالله حسبنا، قال تعالى: ﴿وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بُنْصُرَهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ولذلك كان النبي ﷺ يحترم كل رغبة سلمية، ولا يتمنى لقاء العدو، يقول ذلك ويقرره ويكرره وتقييم لشواهد عليه ويأمر به أصحابه. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: وقال أبو عامر حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا»<sup>(١)</sup>.

والمطالع لموضوع خروج النبي ﷺ إلى «الحديبية» يرى أنه كان يرتدى ملابس الإحرام، وارتداء هذه الملابس كان بمثابة رفع راية السلام.

والنبي ﷺ خير من فهم معنى السلام، فكان يستخدمه بقدر الحاجة، وذلك حينما يرى الأعداء قد تركوا القتال ودعوا إلى السلام، وذلك استجابة لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ اعْتَرَفُواكُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

وإذا رأى أن الأعداء لم يتركوا القتال ولم يدعوا إلى السلام، فسرعان ما يعيد تعبئة جيشه ويرفع علم الجهاد من جديد، وذلك استجابة لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوا عَنْكُمْ وَلِقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مَبِينًا﴾ [النساء: ٦٠].

وهذا هو المفهوم من قوله ﷺ في الحديث السابق: «فإذا لقيتموهم فاصبروا».

فالسلام لا بد له من قوة تحميه، والله ﷻ تحدث عن السلام في سورة الأنفال ﴿وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا...﴾ عقب الحديث عن آيات الأمر بإعداد القوة ورباط الخيل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فيجب أن نراعى ذلك. فالسلام يكون من باب العفو عند المقدرة، فيجب أن تكون قوياً مسلحاً على أهبة الاستعداد للقتال في أى وقت، وعند ذلك لا يضيرك أن

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ١٥٦ باب لا تمنوا لقاء العدو ١٩١/٦ ح ٣٠٢٦ ومسلم في كتاب الجهاد والسير ٦ باب كراهة تمنى لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء ٢٨٨/٦ ح ١٧٤١ كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ترفع راية السلام إذا جنح لها الأعداء، والسلام في الإسلام لا بد أن يأتي من مصدر قوة لا من مصدر ضعف، لأنه إن جاء من مصدر ضعف فهو استسلام وليس سلاماً كما أنه لا يجوز أن نجعل السلام ذريعة لترك الجهاد فيكون ذلك ضعفاً ومهانة يقول تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد الآية ٣٥].

وقد أعجبني كلام اللواء الركن محمود شيت خطاب حول هذا المعنى حيث يقول: إن الحرب في الإسلام حرب دفاعية بكل ما في الكلمة من معنى، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد ولا يريدون من ورائها إلا حماية حرية نشر الدعوة وتوطيد أركان الإسلام في العالم، لأن الإسلام جاء للناس كافة لا لأمة من الأمم، ولا لشعب من الشعوب ولكنه جاء للعالم كله أملاً في تحقيق فكرة سامية، هي فكرة وحدة الإنسانية جمعاء، لهذا حث الإسلام على كل طلب للصالح يعرضه العدو ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

وقد يكون هذا العدو غير مخلص في طلبه هذا أو يقصد به كسب الوقت استعداداً لحرب أخرى، أو يكون يريد أن يخدع المسلمين مبيتاً الغدر بهم أو إلحاق الإضرار بمصالحهم العليا، ومع ذلك يحتم الإسلام النزول عند رغبات العدو السلمية يقول تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ولست أعلم ديناً غير الإسلام يجيز الموافقة على إقرار السلام فوراً دون قيد أو شرط بمجرد إقدام العدو على طلب إقراره مهما تكن الظروف والأحوال

ولكن فالسلام في الإسلام مادة وروح فهو لخير البشر على اختلاف أقطارهم، وألوانهم، ومللهم، بينما السلام عند أدعياء السلام مادة، لذلك فالسلام في غير الإسلام عرقلة لتسليح غيرهم وزيادة لتسليحهم من جهة وقتل وتشريد وتعذيب وفتك بأعدائهم من جهة أخرى بل إن السلام في الإسلام نور يضيء للناس كافة، والسلام عند أدعياء السلام لا يراد منه إلا نار تحرق وتدمر غيرهم من الناس. يقول تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] ومتى انتشرت فكرة السلام الإسلامى في العالم، ساد السلام الحقيقى وانتشرت في

ربوعه السعادة، والاطمئنان، وإلا فسيبقى في حرب باردة تارة وفي حرب دامية تارة أخرى، وستبقى البشرية في هلع دائم من ويلات الفتن والحروب<sup>(١)</sup>، ١٠ هـ.

وكان النبي ﷺ يدعو إلى السلم وإن قصد الأعداء المخادعة طالما أنه لم يعرف قصدهم ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ وهو فهم صحيح لروح السلم، لأنه ﷺ غير مأمور أن ينقب عما في قلوب الناس، أما عندما كانت تبدوا بعض بوادر الخيانة من الأعداء فكان ينبذ إليهم على سواء لأن الله لا يحب الخائنين. يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

### ٣- عالمية الإسلام: (مراسلة الملوك):

#### أ- مراسلة ملوك الأرض ودعوتهم إلى الإسلام:

لم يضع النبي ﷺ جزءاً من الوقت في غير مصلحة الدعوة الإسلامية وإنما كرس حياته وأوقاته لنشر دين الله في الأرض فحينما رجع النبي ﷺ من الحديبية انتهز فرصة الهدنة التي وقعت بينه وبين قريش وتفرغ لمراسلة كل ملوك الأرض ولنشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية.

وعلى الرغم من بعد هؤلاء الملوك عن المدينة المنورة وصعوبة الاتصال في ذلك الوقت إلا أن الله قيض لدينه رجالاً رباهم النبي ﷺ فتحملوا مشاق السفر وجابوا البلاد وقطعوا المفاوز من أجل توصيل كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء.

يقول الإمام الطبراني رحمه الله: حدثنا هاشم بن مرثد الطبراني ثنا محمد بن إسماعيل ابن عياش عن أبيه إسماعيل بن عياش حدثني محمد بن إسحاق عن محمد بن مسلم الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: إن الله ﷻ بعثني رحمة للناس كافة فأدوا عني يرحمكم الله ولا تختلفوا كما اختلف الخواريون على عيسى عليه السلام، فإنه دعاهم إلى مثل ما أدعوكم إليه، فأما

(١) الرسول القائد ص ١٣، ١٤ بتصرف.

من قرب مكانه فإنه أجاب وأسلم وأما من بعد مكانه فكرهه، فشكا عيسى ابن مريم ذلك إلى الله فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين وجه إليهم، فقال لهم عيسى بن مريم ﷺ: هذا أمر قد عزم الله لكم عليه فامضوا فافعلوا فقال أصحاب رسول الله ﷺ نحن يا رسول الله نؤدى عنك فابعثنا حيث شئت، فبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة<sup>(١)</sup>، إلى كسرى وبعث سليط بن عمرو<sup>(٢)</sup>، إلى هوزة ابن علي صاحب اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى صاحب هجر، وبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني جلندا ملكي عمان، وبعث دحية الكلبي<sup>(٣)</sup>، إلى قيصر، وبعث شجاع<sup>(٤)</sup> بن وهب الأسدي إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغسائي، وبعث عمرو بن أمية<sup>(٥)</sup>، الضمري إلى النجاشي فرجعوا جميعا قبل وفاة رسول الله ﷺ غير العلاء الحضرمي فإن رسول الله ﷺ توفي وهو بالبحرين<sup>(٦)</sup>.

وهكذا وصلت رسالة الإسلام إلى كل بقاع الأرض. وكانت سياسة النبي ﷺ في اختيار رسله أن يكونوا من الرجال الأقوياء الوجهاء حتى يتحملوا مشاق السفر وتقع لهم هبة وإجلال في قلوب من أرسلوا إليهم ولذلك أرسل النبي ﷺ كتاباً إلى

(١) هو الصحابي الجليل: عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي كان من قدماء المهاجرين شهد فتح مصر ومات بها في خلافة عثمان [الإصابة ٤/ ٥٧].  
(٢) هو الصحابي الجليل سليط بن عمرو بن عبد شمس العامري أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة واستشهد باليمامة [الإصابة ٣/ ١٦٢].

(٣) هو الصحابي الجليل: دحية بن خليفة بن فروة الكلبي أول مشاهدة الخندق وقيل أحداً ولم يشهد بدرًا وكان يضرب به المثل في حسن الصورة وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته مات في خلافة معاوية [الإصابة ٢/ ٢٨٤].

(٤) هو الصحابي الجليل شجاع بن وهب بن ربيعة بن أسد بن صهيب بن مالك بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد ابن خزيمة الأسدي كان من السابقين الأولين وهاجر إلى الحبشة وشهد بدرًا واستشهد باليمامة [الإصابة ٣/ ٢١٦].

(٥) هو الصحابي الجليل: عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله بن أمية الضمري صحابي مشهور أول مشاهدته بئر معونة، مات ﷺ في خلافة معاوية [الإصابة ٤/ ٦٠٢].

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٠ ح ١٣ عن المسور بن مخرمة وذكره ابن إسحاق في السيرة. موضوع خروج رسل رسول الله ﷺ الملوك (السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٣٢١).

هرقل - قيصر الروم مع الصحابي الجليل دحية الكلبي وكان أجمل الناس وجهًا  
ب- نموذج من كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك:

### نص كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم

يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال أخبرنا  
شعيب عن الزهري قال أخبرني عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن  
عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قریش  
فذكر حديثًا طويلاً وفيه.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما  
بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن  
توليت، فإن عليك إثم الأريسيين<sup>(١)</sup>

و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا  
وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> [آل  
عمران: ٦٤].

والمعلوم أن هرقل لما وصله الكتاب اعترف بأنه كتاب نبي ثم تمنى هرقل أن

(١) الأريسيين: يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: اختلفوا في المراد بهم على أقوال أصحها وأشهرها أنهم الأكارون  
أى الفلاحون والزراعون ومعناه: أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، ونبه هؤلاء على جميع  
الرعايا لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقيادًا فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا [شرح النووي على صحيح  
مسلم ج ١٧٧٣ - ٦/٣٥٢].

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب بدء الوحي ٦ باب - بدون ترجمة ٤٢/٧ عن أبي سفيان ومسلم في كتاب  
الجهاد والسير: ٢٦ باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه للإسلام ٦/٣٤٦ عن ابن عباس وأبو داود  
في كتاب الأدب ١٣١ باب كيف يكتب إلى الذمي - ١٤/٣٧ عن ابن عباس، والترمذي في كتاب  
الاستئذان ٢٤ باب ما جاء كيف يكتب إلى أهل الشرك - ٧/٤٦٢ عن ابن عباس. وقال أبو عيسى:  
هذا حديث حسن صحيح. والإمام أحمد في المسند ١/٢٦٣ عن ابن عباس رحمه الله.



لولم يتحمل عبء هذا التاج الإمبراطورى الذى يجذبه إلى بريق السلطان، ويكبله بأغلال الملك إذن لا بتغى بركة هذا النبي الكريم ﷺ بغسل قدميه الشريفتين<sup>(١)</sup>.

قال الإمام النووى: «ولا عذر له فى هذا لأنه قد عرف صدق النبي ﷺ وإنما شح فى الملك ورغب فى الرياسة فأثرها على الإسلام»<sup>(٢)</sup>.

فهرقل كاد يسلم ولم يفعل، وكان عقله مع الملك وقلبه مع الإسلام وعلى مثل هذا النحو كانت رسائل النبي ﷺ إلى كل ملوك وأمراء الأرض، فمنهم من آمن ومنهم من ظل على كفره.

#### ٤ - سياسية النبي ﷺ مع المؤلفة قلوبهم:

كان أعداء الإسلام كثيرين، وكان المسلمون يقعون بين عداوتين، عداوة داخل المدينة تقع عليهم من اليهود والمنافقين، والمشركين وعداوة من الخارج تقع عليهم من كل أصحاب الملل والديانات الأخرى وكان هؤلاء الأعداء جميعا يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتحينون أى فرصة للفتك بالمسلمين الذين كانوا قلة فى ذلك الوقت وسط عالم ملحد جاحد لا يفتأ يخطط لتدمير دولة الإسلام واستئصال شأفة المسلمين من على وجه الأرض.

لذلك رأى النبي ﷺ أنه من السياسة أن يتألف قلوب أعدائه لاسيما الذين يعيشون معه فى بلد واحد أو متاخمين لحدود الدولة الإسلامية فى المدينة.

فبعد انتهاء غزوة حنين جمع النبي ﷺ الغنائم فى موضع «الجعرانة» حتى يتفرغ لمطاردة الفارين من هوازن وثقيف فى غزوة حنين وحصار أهل الطائف، وبعد حوالى شهر من انتهاء الغزوة وبعد أن تخلى النبي ﷺ عن محاصرة الطائف قام بتوزيع الغنائم على المجاهدين وعلى المؤلفة قلوبهم، وبدأ بالمؤلفة قلوبهم، فأغدى عليهم، وأعطاهم أوفى العطاء وأجزله، فأعطى أبا سفيان مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة فقال: (وابنى معاوية) فأعطاه النبي ﷺ مثل أبيه، فقال: (وابنى يزيد) فأعطاه مثل ذلك

(١) خزائن الأنوار للأستاذ الدكتور عبدالرحمن الرفاعى ص ٢٠٧.

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ٦/ ٣٥٠ ح ١٧٧٣.

وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن كلدة - أخا بني عبد الدار - مائة بعير<sup>(١)</sup>، وهكذا أغدق النبي ﷺ العطاء للذين ما زالوا أحداث عهد بالإسلام استمالة لقلوبهم لأن كثيرًا من الناس يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، أما المسلمون الأولون فقد رأى النبي ﷺ أن لا يعطيهم من الغنائم، وأن يكلهم إلى ما في قلوبهم من إيمان ثابت ويقين راسخ، لأن إيمانهم أقوى من أن تؤثر فيه القضايا المادية. والمعلوم أن الأنصار كانوا ممن وقعت عليهم مغارم هذا الأمر فقد حرموا جميعًا أعطيات حنين حتى قال قائلهم: (لقى والله رسول الله قومه) فلما عتب الأنصار على النبي ﷺ في ذلك شرح لهم موقفه وأبدى لهم وجهة نظره، وقد روى الإمام البخارى حديثًا قال فيه: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب حدثنا الزهري قال أخبرني أنس بن مالك أن ناسًا من الأنصار قالوا لرسول الله ﷺ حين أفاء الله على رسوله ﷺ من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطى رجالًا من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشًا ويدعنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس: فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم، ولم يدع معهم أحدًا غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما كان حديث بلغني عنكم؟ قال له فقهاؤهم فأما ذؤوا آرائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا وأما أناس منا حديثه أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشًا ويترك الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: إني لأعطي رجالًا حديث عهدهم بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعوا إلى رجالكم برسول الله ﷺ، فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، قالوا بلى يا رسول الله، قد رضينا، فقال لهم: إنكم سترون بعدى أثره شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ على الخوض، قال أنس: فلم نصبر<sup>(٢)</sup>.

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة (السيرة النبوية لابن هشام) موضوع (قسم غنائم حنين ٤/ ١٢٠، ١٢١).

(٢) أخرجه البخارى في كتاب فرض الخمس ١٩ باب ما كان النبي ﷺ يعطى المؤلف قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ٦/ ٣٠٥، ٣٠٦ ح ٣١٤٧ ومسلم في كتاب الزكاة ٤٦ باب إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام ٤/ ١٦٢ ح ١٠٥٩ - والإمام أحمد في المسند ٣/ ١٦٦ - والبيهقى في السنن الكبرى كتاب قسم الفئ والغنيمة ٤٠ باب ما كان النبي ﷺ يعطى المؤلف قلوبهم وغيرهم من المهاجرين ٦/ ٣٣٧ جميعهم عن أنس رضي الله عنه.

ومما سبق تتضح لنا سياسة النبي ﷺ الحكيمة في معالجة بعض المشكلات التي تعترضه، وكيف استطاع بهذه الحكمة أن يتخلص من هذه المشكلة بأسلوب حكيم مقنع أَرْضَى به الأنصار رضوان الله عليهم.

#### ٥ - سياسة النبي ﷺ مع عرب القبائل من البدو ونحوهم:

الأعراب قوم غلاظ الطباع جفاة القلوب أخبر القرآن أن كفارهم ومنافقيهم أشد وأغلظ كفرا ونفاقا من غيرهم قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧].

كما أنهم أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ<sup>(١)</sup>.

وهذه القسوة والغلظة سمة غالبية على سكان البوادي كما أخبر بذلك النبي ﷺ. يقول الإمام أبو داود حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى عن سفيان قال حدثني أبو موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس ؓ أن النبي ﷺ قال: «من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتن»<sup>(٢)</sup>.

معنى قوله ﷺ (من سكن البادية جفا) أى صار فيه جفاء الأعراب أى غلظ طبعه وصار جافيا بعد لطف الأخلاق إذ يفقد من يروضه ويؤدبه<sup>(٣)</sup>.

وقيل معنى «جفا» أى: جهل. قال القاضي: جفا الرجل إذا غلظ قلبه وقسا ولم يرق لبر وصلة رحم وهو الغالب على سكان البوادي لبعدهم عن أهل العلم وقلة اختلاطهم بالناس، فصارت طباعهم كطباع الوحوش<sup>(٤)</sup>، اهـ.

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصيد ٤ باب في اتباع الصيد — ٨/ ٤٨ ح ٢٨٥٦، والترمذي في كتاب الفتن ٦٩ باب بدون ترجمة ٦/ ٤٤٩ ح ٢٢٥٦ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من حديث الثوري. والنسائي في كتاب الصيد والذبائح باب اتباع الصيد ٧/ ١٩٥، ١٩٦ والإمام أحمد ١/ ٣٥٧ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب آداب القاضي ٥ باب كراهية طلب الإمارة والقضاء ١٠/ ١٠١ ح ٢٠٢٥٢ جميعهم عن ابن عباس ؓ.

(٣) عون المعبود ٨/ ٤٨.

(٤) تحفة الأحوذى ٦/ ٤٤٩.

ولما كانت حالتهم هكذا احتاج الأعراب إلى سياسة خاصة في التعامل فكان النبي ﷺ يراعى فطرتهم، ويتعامل معهم بأسلوب يتماشى مع نظام حياتهم وما جبلوا عليه، فيحلم عليهم أحياناً كثيرة، ويميل إلى تأديب الشاردين منهم أحياناً أخرى، وكانت سياسته ﷺ معهم ما بين أخذ ورد وجذب وشد، ووعد ووعد، وإنذار وتبشير وتأميل وتخويف وذلك حسب ما تقتضيه الظروف، وتلمية الملابس فالنبي ﷺ كان واسع الصدر، رحيم القلب في معاملة الأعراب في بداية الأمر.

يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: «حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري ح وقال الليث: حدثني يونس عن ابن شهاب أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة «أن أبا هريرة أخبره أن أعرابيا بال في المسجد، فثار عليه الناس ليقعوا به فقال لهم رسول الله ﷺ دعوه وأهريقوا<sup>(١)</sup>، على بوله ذنوبا<sup>(٢)</sup>، من ماء - أو سجلا<sup>(٣)</sup>، من ماء - فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»<sup>(٤)</sup>.

ووصلت بالأعراب الغلظة والجفوة إلى حد لم يتحملة أحد، ولكن النبي ﷺ كان يحلم عليهم ويتألف قلوبهم، يبغي بذلك أن يهديهم إلى سواء الصراط، وأن يصنع

(١) الإراقة: هي صب الماء ويقال: هراق فتستعمل الهاء في «هراق» بدل من همزة أراق يقال أراق الماء يريقه، وهراقه يهريقه بفتح الهاء هراقه ويقال فيه: أهرقت الماء أهرقه، فيجمع بين البدل والمبدل [النهاية «هراق» ٢٦٠/٥].

(٢) الذنوب: الدلو العظيمة، وقيل لا تسمى ذنوبا إلا إذا كان فيها ماء [النهاية «ذنوب» ١٧١/٢].

(٣) الدلو الملقى ماء ويجمع على سجال [النهاية «سجل» ٣٤٣/٢، ٣٤٤].

(٤) أخرجه البخارى في كتاب الأدب ٨٠ باب قول النبي ﷺ «يسروا ولا تعسروا» ١٠/٦٣٢ ح ٦١٢٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه بألفاظ متقاربة الإمام مسلم في كتاب الطهارة ٣٠ باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها، ٢/١٩٣ ح ٢٨٤ عن أنس رضي الله عنه وأبو داود في كتاب الطهارة ١٣٧ باب الأرض يصيبها البول ٢/٣٢٦ ح ٣٧٦ عن أبي هريرة والترمذي في كتاب الطهارة ١١٢ باب ما جاء في البول يصيب الأرض وقال: هذا حديث حسن صحيح ١/٤٠٤ ح ١٤٧ عن أبي هريرة والنسائي في كتاب الطهارة باب ترك التوقيت في الماء ١/٤٧ عن أنس رضي الله عنه وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها ٧٨ باب الأرض يصيبها البول كيف تغسل ١/٢٢٤ ح ٥٢٨ عن أنس رضي الله عنه والدارمي في كتاب الطهارة ٦٢ باب البول في المسجد ١/١٨٦ ح ٧٤٠ عن أنس رضي الله عنه.

منهم رجالا يكون لهم أعظم أثر في نصرة دين الإسلام وتغيير مجرى التاريخ. والإمام البخارى يروى لنا حديثاً عن رسول الله ﷺ يظهر لنا جهل الأعراب على النبي ﷺ، وكيف كان يسوسهم بالعفو والصفح، يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال حدثني مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة «عن أنس بن مالك قال: كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه برذائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء<sup>(١)</sup>».

#### ٦ - توجيه بعض السرايا لتأديب الأعراب:

وبجانب هذه السماحة كان النبي ﷺ يميل أحياناً إلى تأديب بعض الأعراب إذا استدعى الأمر ذلك ووجد أنه لا بديل للردع والزجر وكان ﷺ يعتمد إلى هذا الأسلوب حينما يشعر بتهديد الأعراب لسيادة الدولة الإسلامية، ولذلك قاد النبي ﷺ عدة غزوات موجهة إلى بعض قبائل البدو حينما علم أنهم مصممون على التعرض للدولة الإسلامية والنيل منها ومن هذه الغزوات والسرايا على سبيل المثال:

##### أ- غزوة بنى سليم:

لما رجع النبي ﷺ من غزوة بدر في عقب شهر رمضان أو في شوال من السنة الثانية من الهجرة، قدم المدينة، ولم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم، وكان الهدف من هذه الغزوة مقاومة بنى سليم في عقر دارهم في «قرقرة الكدر<sup>(٢)</sup>»،

(١) أخرجه البخارى في كتاب اللباس ١٨ باب البرود والخبر والشملة ١٠/٣٣٣ ح ٥٨٠٩ وأخرجه أيضاً في كتاب فرض الخمس ١٩ باب ما كان النبي ﷺ يعطى المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ٦/٣٠٧ ح ٣١٤٩ عن أنس رضي الله عنه.

(٢) القرقرة: الأرض الملساء والكدر: طير في ألوانها كدرة: قاله السهيلي: ينظر البداية والنهاية لابن كثير ٣/٣٧٦ وقيل: القرقرة: الأرض المستوية والكدر: ماء لبنى سليم (النهاية «قرقرة» ٤/٤٨) وذكرها ياقوت الحموى في معجم البلدان ولم يحدد موضعها (معجم البلدان ٤/٣٧٠).

الواقعة على الطريق التجارية. بين مكة والشام وكان هناك هدف آخر أراد النبي ﷺ تحقيقه من غزو هؤلاء الأعراب، وهو فرض الحصار الاقتصادي على قريش من خلال سيطرته على هذه المنطقة الحيوية، والمعلوم أن النبي ﷺ انتهى به السير إلى أن بلغ ماء من مياه بنى سليم يقال له «الكدر» فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا وكان قد استعمل على المدينة حين خروجه سباع بن عرفطة الغفاري<sup>(١)</sup>، أو ابن أم مكتوم<sup>(٢)</sup>.

#### ب- غزوة ذات أمر:

وكانت هذه الغزوة في أوائل السنة الثالثة من الهجرة بقيادة النبي ﷺ، وكانت قبل نجد، وذلك لما علم النبي ﷺ أن جمعا من غطفان من بنى ثعلبة ومحارب تجمعوا بذى أمر يريدون حربه فخرج إليهم النبي ﷺ بعد أن استخلف على المدينة عثمان بن عفان، وكان الهدف من هذه الغزوة، القضاء على بنى ثعلبة ومحارب قبل التعرض بأطراف المدينة المنورة، وقد فرق النبي ﷺ جمعهم ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا<sup>(٣)</sup>.

#### ج- غزوة بنى لحيان:

وكانت بقيادة النبي ﷺ في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة، وكان الهدف منها عقاب بنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء الرجيع<sup>(٤)</sup>.

(١) هو الصحابي الجليل: سباع بن عرفطة الغفاري ويقال الكنانى استخلفه النبي ﷺ على المدينة حينما خرج لغزوة بنى سليم في شهر شوال من السنة الثانية من الهجرة واستعمله النبي ﷺ في غزوة دومة الجندل في شهر ربيع سنة خمس من الهجرة [الإصابة ٢٩/٣ بتصرف].

(٢) ينظر السيرة النبوية لابن هشام «موضوع غزوة بنى سليم بالكدر ٥/٣، وينظر البداية والنهاية لابن كثير «موضوع» غزوة بنى سليم سنة ثنتين من الهجرة ٣٧٦/٣.

(٣) ينظر السيرة النبوية لابن هشام. موضوع «غزوة ذات أمر ٧/٣ وينظر البداية والنهاية لابن كثير ٣/٤.

(٤) ينظر السيرة النبوية لابن هشام. موضوع غزوة بنى لحيان ٢٥١/٣ وينظر البداية والنهاية لابن كثير موضوع غزوة بنى لحيان ٨٣/٤.

## د- غزوة ذات الرقاع:

خرج النبي ﷺ يريد بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان في جيش قوامه أربع مائة راكب وراجل وكان ذلك بعد غزوة بنى النضير، وكان الهدف منها، القضاء على بنى ثعلبة وبنى محارب المحتشدين لغزو المدينة أولاً، ولأخذ ثأر شهداء المسلمين في بئر معونة ثانياً<sup>(١)</sup>.

هـ- غزوة دومة الجندل<sup>(٢)</sup>:

وكانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول سنة خمس من الهجرة بقيادة النبي ﷺ، وكان جيش المسلمين قوامه ألف راكب وراجل خرج بهم النبي ﷺ من المدينة بعد أن استعمل عليها سباع بن عرفطة الغفاري، قاصدا القبائل البدوية التي تقطن منطقة دومة الجندل، وكان الهدف منها منع القبائل البدوية التي تقطن منطقة «دومة الجندل» من قطع الطرق ونهب القوافل والقضاء على حشودها التي جمعتها لمهاجمة المدينة<sup>(٣)</sup>.

وبذلك استطاع النبي ﷺ أن يحمي الدولة الإسلامية من كيد عرب القبائل من البدو وغيرهم الذين حشدوا جموعهم للإجهاز على مقر الدولة الإسلامية في المدينة وهكذا مضت سياسة النبي ﷺ في معاملة الأعراب بين اللين تارة، والشدة تارة أخرى، مقدما بذلك أنجح الحلول لاحتواء الأزمات ومعالجة المواقف.

## ٧- سياسة النبي ﷺ في استقبال الوفود:

كان النبي ﷺ يستقبل وفود القبائل القادمة عليه في المدينة المنورة فيحسن

(١) ينظر السيرة النبوية لابن هشام موضوع غزوة ذات الرقاع في سنة أربع ١٧٢/٣ وينظر البداية والنهاية لابن كثير

موضوع غزوة ذات الرقاع ٨٥/٤.

(٢) عدها ابن الفقيه من أعمال المدينة سميت بدم ابن إسماعيل بن إبراهيم وهى على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ﷺ وقيل غير ذلك (معجم البلدان ٤٨٧/٢).

(٣) ينظر السيرة النبوية لابن هشام. موضوع «غزوة دومة الجندل» ١٨٤/٣ وينظر البداية والنهاية موضوع «غزوة دومة الجندل» ٩٤/٤.

استقبالهم، ويكرم وفادتهم، ويجادلهم بالتى هي أحسن، ويجلى لهم ما استشكل عليهم فهمه، ويدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وينزل على بعض رغباتهم التى لا تتعارض ودين الإسلام استمالة منه لقلوبهم حتى ينزع الغشاوة التى على أعينهم ويجلى ران قلوبهم لعلهم يدخلون ومن وراءهم فى دين الله أفواجًا.

وكان النبي ﷺ يهدف من وراء سياساته أن يؤمن الناس برب العالمين، ولذلك كان يستعمل من أمور السياسة ما يراه الأحسن والأنجح فى سبيل هداية الناس، وما يراه مناسبًا لطبيعة من يدعوهم إلى الإسلام، وساعده على ذلك ما وهبه الله له من قدرة على معرفة طبائع الناس، ومخاطبة كل قبيلة بلهجتها.

وقد سجلت لنا كتب الحديث والآثار والتاريخ ذكر وفادات العرب على رسول الله ﷺ وسوف أختار منها بمشيئة الله تعالى قصة وفد نصارى نجران، حينما قدموا إلى النبي ﷺ سنة تسع من الهجرة وهو فى المدينة المنورة ونبين من خلالها بعض الملامح السياسية الرشيدة للنبي ﷺ نحو هذا الوفد.

يقول الأستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعى:

لقد طار نأ رسالة سيدنا رسول الله ﷺ إلى أنحاء كثيرة من المعمورة، وتحدث الناس بهذا النبي الخاتم، وأقبلت الوفود من أطراف جزيرة العرب يستفسرون عن هذا النبأ العظيم، وكل وفد يحمل للنبي ﷺ من الأسئلة المشككة ما لا يمكن حله والإجابة عليه، إلا إذا كان المسئول نبياً ورسولاً وكان النبي ﷺ يجلى للسائلين غموض مسائلهم ومشكلاتهم كما سجل القرآن الكريم ذلك فى آياته الخالدة المقدسة كقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يَجْلِيهَا لَوْ قَتَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وقوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣] إلى غير ذلك من الأسئلة العويصة المأخوذة عن الكتب السماوية على اختلاف لغاتها وتأويلاتها وكان السائلون يختلفون فى ردود أفعالهم عند مواجهتهم رسول الله ﷺ فمنهم المؤمن المسارع للإيمان كسلمان الفارسى الذى امتحن رسول الله ﷺ بأمارات من كتب اليهود



تشهد لمن قامت به أنه نبي الله ورسوله الخاتم، ومنهم من كان يؤثر الدنيا على الآخرة، والفانية على الباقية، حرصاً على حظه من الدنيا، وتمسكاً بالوجاهة والرياسة وحب الصدارة، ومن هؤلاء وفد نصارى نجران، ومن الناس من كان يجحد هذا الحق المنير بل كان يعبئ النفوس والعقول لمعارضة دعوته ﷺ ومن ذلكم كسرى ملك الفرس الذي هاج وماج وصاح عندما وصله كتاب من رسول الله ﷺ يدعو وأتمته إلى الدخول في الإسلام، واللحاق بركب المؤمنين، فما كان منه إلا أن مدق رسالة رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> أ.هـ.

قال ابن إسحاق: قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران<sup>(٢)</sup>، ستون راكباً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم يثول<sup>(٣)</sup>، أمرهم، العاقب، أمير القوم وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيهم، واسمه عبد المسيح، والسيد، ثمالهم<sup>(٤)</sup>، وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل، أسقفهم<sup>(٥)</sup>، وخبيرهم<sup>(٦)</sup>، وإمامهم وصاحب مدراسهم<sup>(٧)</sup>.

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم، ودرس كتبهم، حتى حسن علمه في دينهم فكان ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس

(١) خزائن الأنوار للأستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعي ص ١٥٤، ١٥٥.

(٢) يقول الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الرفاعي: ورد في لسان العرب (٦/٤٣٥١ نجر) أن نجران بلد وهو من اليمن، كما ورد فيه أنه: موضع معروف بين الحجاز والشام واليمن. وهذا الثاني غلط، فإن نجران بلد يقع في الجنوب الغربي من الدولة السعودية الحديثة وهي بالنسبة لليمن تقع في شمالها من جهة الغرب فستان بينها وبين الشام، كما أن نجران تقع جنوب مكة وتبعد عنها نحواً من ألف كيلو متر (انظر الأطلس العربي ص ٣٤، ٣٥) من كتاب خزائن الأنوار (هامش ص ١٥٤).

(٣) أي يرجع (ينظر النهاية (ألى) (١/٦٣)).

(٤) الثمال: هو الملجأ والغياث وقيل هو المطعم في الشدة (النهاية (ثمل) (١/٢٢٢)).

(٥) أسقفهم: الأسقف: هو عالم رئيس من علماء النصارى ورؤسائهم، وهو اسم سرياني، ويحتمل أن يكون سمي به لخضوعه وانحنائه في عبادته (النهاية (سقف) (٢/٣٧٩)).

(٦) الخبر هو العالم (النهاية) (حبر) (١/٣٢٨).

(٧) المدراس: صاحب دراسة كتبهم (النهاية (درس) (٢/١١٣)).

وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم<sup>(١)</sup>.  
ويقول ابن إسحاق (وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال: لما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات<sup>(٢)</sup>، جيب وأردية<sup>(٣)</sup>، في جمال رجال بنى الحارث بن كعب. قال يقول بعض من رأيهم من أصحاب النبي ﷺ يؤمئذ: ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون فقال رسول الله ﷺ دعوهم فصلوا إلى المشرق)<sup>(٤)</sup>.

فانظر كيف تسامح النبي ﷺ مع وفد نصارى نجران، وكيف تركهم يصلون إلى بيت المقدس وهم داخل المسجد النبوي، وكأنه ﷺ يريد من وراء ذلك أن يبين لهم أن الأديان السماوية تنبع من معين واحد وأنها تشترك جميعًا في توحيد إله واحد، هو رب المشارق والمغارب قال تعالى ﴿فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَنَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].  
ومن تمام قصتهم أن النبي ﷺ جادلهم في دينهم بالتى هي أحسن وأجاب على كل ما استشكل عليهم فهمه من خلال سورة آل عمران التى أنزلها الله على رسول الله ﷺ لكى يجيب على أسئلة النصارى ويبين لهم حقيقة عيسى بن مريم ﷺ، ودعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة<sup>(٥)</sup>، ولكنهم امتنعوا فصالحهم النبي ﷺ على بعض الأموال يدفعونها وجعل لهم جوار الله وذمة نبيه ﷺ على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم ويبيعهم<sup>(٦)</sup>.



(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة. موضوع: أمر السيد والعاقب وذكر المباهلة (السيرة النبوية لابن هشام ١٨٠/٢)

(٢) الحبرات جميع حبير، والحبير من البرود ما كان موشيًا مخططًا وهى برود يمانية (النهاية (حبر) ١/٣٢٨ بتصرف).

(٣) جيب وأردية جمع جبة ورداء.

(٤) أخرجه ابن إسحاق في السيرة النبوية موضوع: أمر السيد والعاقب، وذكر المباهلة (السيرة النبوية لابن هشام ٢/١٨١ وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ذكر وفادات العرب على رسول الله ﷺ وفد نجران ١/٢٦٧).

(٥) المباهلة: الملاعنة، وهو أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالمين منا [النهاية «بهل»

[١٦٧/١].

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد: ذكر وفادات العرب ١/٢٦٨.

### الباب الثالث الإدارة المدنية والأعمال التنظيمية

- ويتضمن ستة فصول:
- الفصل الأول: الوزارة.
- الفصل الثاني: الإمارة.
- الفصل الثالث: السفارة.
- الفصل الرابع: ضبط الأسواق وما يتعلق بها من الموازين والمكاييل والتسعير والرقابة على عملية البيع والشراء.
- الفصل الخامس: القضاء وإقامة الحدود.
- الفصل السادس: تنمة في جوانب إدارية مهمة.

## الفصل الأول الوزارة

ويتضمن تمهيداً وثلاث نقاط:

- ١- تعريف الوزارة.
- ٢- أهمية الوزارة والحاجة إلى الوزير.
- ٣- النبي ﷺ والوزارة.

## الفصل الأول

### الوزارة

تمهيد:

لم يكن العرب في جزيرتهم يعرفون نظام الدولة الحديثة، الذى يعنى بالشئون العامة للدولة والمجتمع كالجيش والأسواق والعلاقات الدولية مع الدول الأخرى ونحو ذلك، وإنما كان الأسلوب القبلى البسيط هو الذى تدار به القبيلة.

وعندما بدأت دولة الإسلام تظهر فى المدينة بعد الهجرة، أخذ رسول الله ﷺ ينظمها ويضع لها قواعد الدولة الحديثة، من حيث القيادة والحكم والوزارة والإمارة ونحو ذلك، فكان النبي ﷺ على رأسها نبوة وحكومة، يعاونه فى الحكومة وزيرين جليلين هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

ثم كان له جملة من المستشارين كعلى وعثمان وأبى عبيدة رضي الله عنهم، على أنه فى الأمور الدقيقة كان يستشير أهل الخبرة والنظر من جماعة المهاجرين والأنصار، وعرفت دولة الإسلام لقب الوزير والأمير وقائد الجيش وأمير السرية، وولى المدينة عند خروج الصحابة للجهاد حيث كان يقوم على رعاية أهلها.

وسوف أتناول إن شاء الله تلك الألقاب والوظائف بالبيان مسترشداً فى ذلك بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف.

#### ١ - تعريف الوزارة:

الوزارة فى اللغة: مأخوذة من الفعل وزر، بفتح الواو وكسر الزاى ووزر بفتح الواو والزاى والوزر بفتحهما. هو الملجأ.

وأصل الوزر الجبل المنيع، وكل معقل وزر، وفى التنزيل: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١١].

والوزر فى كلام العرب: الجبل الذى يلتجأ إليه، وكل ما التجأت إليه وتحصنت به

فهو وزير، ومعنى الآية لا شيء يعتصم به من أمر الله.

والوزير: الحمل الثقيل.

والوزير: الذنب لثقله، وأوزار الحرب وغيرها: أثقالها، يقول تعالى ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

والوزير: حبا الملك الذى يحمل ثقله ويعينه برأيه، وقد استوزره وحالته الوزارة.

ووازره على الأمر: أعانه وقواه والأصل آزره.

ووزير الخليفة: معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره ويلتجئ إليه، وقيل لوزير السلطان وزير، لأنه يزر عن السلطان أثقال ما أسند إليه من تدبير المملكة<sup>(١)</sup>

وقال الماوردى<sup>(٢)</sup>، الشافعى رحمه الله:

اسم الوزارة مختلف فى اشتقاقه على ثلاثة أوجه:

أحدهما: أنه مأخوذ من الوزير وهو: الثقل لأنه يحمل عن الملك أثقاله.

الثانى: أنه مأخوذ من الوزير وهو الملجأ ومنه قوله تعالى ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١١] أى لا ملجأ فسمى بذلك لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته.

والثالث: أنه مأخوذ من الأزر، وهو الظهر، لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر، ولأى هذه المعانى كان مشتقا فليس فى واحد منها ما يوجب الاستبعاد بالأمور<sup>(٣)</sup>.

(١) لسان العرب لابن منظور «(وزير)» ١٤٥/٧، ١٤٦ طبعة مصورة عن طبعة بولاق. طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر بتصرف يسير.

(٢) الماوردى: هو على بن محمد بن حبيب البصرى المعروف «(بالماوردى)» (أبو الحسن) فقيه، أصولى، مفسر، أديب، سياسى، درس بالبصرة وبغداد وولى القضاء ببلدان كثيرة، ولد سنة ٣٦٤هـ وتوفى ببغداد سنة ٤٥٠هـ. من تصانيفه: الحاوى الكبير فى فروع الفقه الشافعى فى مجلدات كثيرة، تفسير القرآن الكريم، أدب الدنيا والدين، والأحكام السلطانية (انظر معجم المؤلفين ١٨٩/٧).

(٣) الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردى ص ٢٨ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان - وانظر كتاب الأحكام السلطانية للقاضى أبى يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلى المتوفى ٤٥٨هـ صححه وعلق عليه محمد=

## ٢ - أهمية الوزارة والحاجة إلى الوزير:

«الوزارة عمل إدارى تنظمى في غاية الأهمية، حيث إن الإمام أو الملك يحتاج إلى الوزير لكي يشد من أزره ويشاركه في الأمر، ويساعده في الحكم، ويكون مستشارة في الأمور، وينوب عنه حين غيابه أو مرضه، والله ﷻ قرن كلمة «وزير» في القرآن الكريم. يشد الأزر والإشراك في الأمر» قال تعالى على لسان موسى ﷺ: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي \* هَارُونَ أَخِي \* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي \* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

«فالوزارة إعانة أو معاونة، والوزير الشخص الذى يختاره رئيس الدولة ليساعده برأيه وقوته في إدارة شئون الدولة، لأنه لا يستطيع بمفرده القيام بما وكل إليه من أعمال وواجبات، لذا قامت الحاجة عنده للاستعانة بغيره... والوزارة أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة»<sup>(١)</sup>.

والوزارة في الإسلام تأتي بعد الخلافة من حيث الأهمية السياسية والإدارية، والوزير وسيط بين الخليفة وبين الرعية فهو من ناحية يعين الخليفة في تصريف شئون الدولة ومباشرة مهامها، كما أنه من ناحية أخرى يطلع الخليفة على أحوال الرعية بوجه عام، ونظام الوزارة نظام شرقى قديم لاسيما عند الفرس الساسانيين.

واختلف اللغويون في لفظ «وزير» أهو عربى أصلا أم أعجمى؟ ومهما يكن أصله فهو مذكور في القرآن الكريم، وعرفه المسلمون واستعملوه بمعناه إجمالا في صدر الإسلام.

قال ابن خلدون: «فكان ﷺ يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدولة وأحوالها في أيام كسرى، وقيصر والنجاشي، يسمون أبا بكر وزيره، وكذا عمر

= حامد الفتى ص ٢٩، الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ ط شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي القاهرة -

وانظر كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية تأليف أبى على بن طباطبا المعروف بابن القطقطا

- ص ١٣٥ ط دار صادر بيروت ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ م.

(١) النظام السياسى، في الإسلام د/ محمد عبد القادر أبو فارس. ص ٣١٨ بتصرف ط دار الفرقان عمان الأردن سنة

١٩٨٦ م.

مع أبي بكر، وعلى وعثمان مع عمر<sup>(١)</sup> .هـ.

وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون أيضًا:

«اعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمرًا ثقیلاً، فلا بد من الاستعانة بأبناء جنسه، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنة، فما ظنك بسياسة نوعه، ومن استرعاه الله في خلقه وعباده، وهو محتاج إلى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم، وإلى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بإمضاء الأحكام الوازنة فيهم، وكف العدوان عليهم بإصلاح سابلتهم<sup>(٢)</sup>، ثم إن الاستعانة إذا كانت بأولى القربى من أهل النسب والتربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من مجانسة خلقهم لخلقهم فتتم المشاكلة في الاستعانة قال تعالى ﴿وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿أَشْدُ بِهِ أَزْرِي﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿طه: ٢٩ - ٣٢﴾. ١٠هـ.

### ٣- النبي ﷺ والوزارة:

كانت الوزارة موجودة في عهد النبي ﷺ وإن لم تأخذ شكلها التنظيمي الذي عرف بعد ذلك، وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يعدان بمثابة وزيرين للنبي ﷺ والأحاديث النبوية الشريفة تدل على أن النبي ﷺ، قد أطلق هذا اللقب على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأحواله رضي الله عنه تدل على أنه استوزرهما، فلم يكن يبعثهما على السرايا وإنما كان يستبقيهما بالمدينة للمشاورة ومقابلة الوفود وغير ذلك والحديث التالي (من رواية الإمام الترمذي رحمته الله تعالى) يدل على أن لقب الوزير قد ظهر على نطاق واسع في العصر النبوي المبارك.

يقول الإمام الترمذي رحمته الله تعالى: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا تليد عن سليمان عن أبي الجحاف عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء، ووزيران من أهل الأرض فأما وزيراي من

(١) الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها تأليف د. إبراهيم أحمد العدوي. و، د/ عبد الحميد العبادي، ود. محمد مصطفى زيادة، ص ١٧، ١٨ ط نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) سابلتهم: طرقهم (النهاية) (سبل) ٣٣٨/٢.

(٣) المقدمة لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون ص ٢٥٧، ٢٥٩ بتصرف طبعة مطبعة التقدم سنة ١٣٢٩ هـ بالقاهرة.



أهل السماء فجبرائيل وميكائيل، وأما وزيراي من أهل الأرض فأبوبكر وعمر<sup>(١)</sup> وكان علي بن أبي طالب ﷺ أيضًا وزيرًا للنبي ﷺ يستشيريه في الأمور، ويكلفه ببعض الأعمال. يقول الإمام مسلم رحمه الله تعالى حدثنا يحيى بن يحيى التميمي وأبو جعفر، محمد بن الصباح وعبيد الله القواريري وشریح بن يونس كلهم عن يوسف بن الماجشون، حدثنا محمد بن المنكدر عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»<sup>(٢)</sup>

والمعلوم أن هارون كان وزيرًا لموسى عليه السلام قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥].

وقال تعالى ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي \* هَارُونَ أَخِي \* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي \* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الله إذا أراد بالحاكم خيرًا جعل له وزير صدق يعينه في أمره ويذكره إذا نسي.

يقول الإمام أبو داود رحمه الله تعالى حدثنا موسى بن عامر الممرى أخبرنا الوليد أخبرنا زهير بن محمد عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه الترمذی فی أبواب المناقب ١٧ باب بدون ترجمه (١٠/١٢٧ ح ٣٦٨٩) عن أبي سعيد الخدري وقال هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٤ باب من فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام واللفظ له - شرح النووي على مسلم ٨/١٨٧ ح ٢٤٠٤ والبخاري في فضائل الصحابة ٩ باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن عليه السلام ٧/٩٢ ح ٣٧٠٦ وفي كتاب المغازي ٧٨ باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة ٨/١٣٩ ح ٤٤١٦. والترمذی فی أبواب المناقب ٢١ باب مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام ١٠/١٧٣ ح ٣٧٣٣ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح جميعهم عن سعد بن أبي وقاص عليه السلام.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفئ والإمارة ٤ باب في اتخاذ الوزير (٨/١١٩، ١٢٠ ح ٢٩٣٠) والبيهقي في السنن الكبرى كتاب آداب القاضي ١٨ باب من يشاور ١٠/١١١ ح ٢٠٣٢٠. كلاهما عن عائشة رضي الله عنها.

ويقول الإمام النسائي رحمه الله:

أخبرنا عمرو بن عثمان قال حدثنا بقية قال حدثنا ابن المبارك عن ابن أبي حسين عن القاسم بن محمد قال سمعت عمتي تقول قال رسول الله ﷺ: «من ولى منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل هل وزيراً صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه»<sup>(١)</sup>. وعمّة القاسم هي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

ومن هذا يعلم أن منصب الوزارة كان معروفاً عند المسلمين منذ عهد النبي ﷺ. فقد جاء في الحديث المتقدم - حديث الترمذي - أن رسول الله ﷺ اتخذ أبا بكر وعمر وزيرين له ولما التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، واستخلف أبو بكر رضي الله عنه اتخذ وزيراً له هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم استمر عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى ابن أبي طالب رضي الله عنهم على هذا النهج يستوزرون أصحاب الرأي والمشورة والخبرة والحنكة السياسية تأسيساً بالنبي ﷺ.



(١) أخرجه النسائي في كتاب البيعة: باب وزير الإمام ١٥٩/٧ والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب آداب القاضي: ١٨ باب من يشاور ١١١/١٠ ح ٢٠٣١٩ كلاهما عن عائشة رضي الله عنها.

## الفصل الثانى

### الإمارة

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- تعريف الإمارة.
- ٢- أعمال الأمير ومسئوليته.
- ٣- النبي ﷺ والإمارة.
- ٤- أمراء النبي ﷺ .
- ٥- معايير اختيار الأمراء.
- ٦- النبي ﷺ يحذر من طلب الإمارة لمن لم يقدر عليها.
- ٧- النبي ﷺ يحذر عن طلب الإمارة ويبين شدة تبعاتها.
- ٨- توجيهات النبي ﷺ وتعاليمه للأمراء.
- ٩- النبي ﷺ يرسل أمراءه إلى اليمن ويوصيهم بالرفق واليسر.
- ١٠- وجوب طاعة الأمراء والصبر عليهم وعدم مفارقة الجماعة.
- ١١- توجيه الأمراء والقضاة والمعلمين إلى أنحاء شبه الجزيرة العربية.

## الفصل الثانى

### الإمارة

#### ١ - تعريف الإمارة:

الإمارة: منصب الأمير، ويراد بها أيضًا: جزء من الأرض يحكمه أمير<sup>(١)</sup>، وقد تكلم الإمام الماوردى على الإمارة من حيث تعريفها، وأقسامها، واختصاصاتها، وقسمها إلى عامة وخاصة، وذكر أنواع الإمارة الخاصة والعامة، والفرق بينهما ثم تكلم عن التقليد فى الإمارة فقال: «والتقليد فيها: أن يفوض إليه الخليفة إمارة بلد أو إقليم ولاية على جميع أهله، ونظرا فى المعهود من سائر أعماله فيصير عام النظر فيما كان محدودًا من عمل، ومعهودًا من نظر، فيشمل نظره فيه على سبعة أمور هي:

#### ٢ - أعمال الأمير ومسئوليته:

للاّمير عدة مهام لا يسعه ترك واحدة منها:

أولاً: النظر فى تدبير الجيوش وترتيبهم فى النواحي وتقدير أرزاقهم إلا أن يكون الخليفة قدرها فيزرها عليهم.

ثانيًا: النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

ثالثًا: جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منها.

رابعًا: حماية الدين ومراعاته من تغيير أو تبديل، والذب عن الحرم.

خامسًا: إقامة الحدود فى حق الله وحقوق الآدميين.

سادسًا: الإمامة فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها.

سابعًا: تسيير الحجيج.

وهناك عمل ثامن: وهو إن كان هذا الإقليم الذى يتولى إمرته ثغرًا متاخماً للعدو

(١) المعجم الوجيز (أمر) ص ٢٤.

كان عليه جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس<sup>(١)</sup> ١٠هـ.

### ٣- اهتمام النبي ﷺ والإمارة:

اهتم النبي ﷺ بالإمارة، اهتمامًا عظيمًا وكان يرسل أمراءه إلى الأمصار ويكلفهم بالمهام العظام، كنشر دعوة الإسلام وشرحها للناس، وتدريب أمر الجيش وترتيبه، وجباية الخراج، وقبض الصدقات، وإمامة الناس في الصلوات وإقامة الحدود، والفصل بين الناس في الخصومات بالحق والعدل.

ولا شك أن هذا لون إداري حضاري أقامه النبي ﷺ في الدولة الإسلامية، فكان ظاهرة جديدة في عالم الإدارة والسياسة الإسلامية، واطمأن النبي ﷺ من خلال هذا العمل على وجود روح الأمن والأمان داخل الأمصار الإسلامية، حيث إن الأمراء أقاموا الحق والعدل، واجتثوا جذور الفتن والخلافات التي كانت تقع داخل هذه الأمصار، وأوصلوا الحقوق إلى أصحابها، ونشروا دعوة الإسلام في مناخ مفعم بالحرية والاستقرار.

### ٤- أمراء النبي ﷺ :

قال ابن إسحاق (وكان رسول الله ﷺ قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان. فبعث عدى بن حاتم على طي<sup>(٢)</sup>، وصدقاتها وعلى بنى أسد وبعث مالك بن نويرة اليربوعي على صدقات بنى حنظلة، وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين<sup>(٣)</sup>). ١٠هـ.

وأمر النبي ﷺ بأذان بن ساسان من ولد بهرام جور على أهل اليمن كلها بعد موت كسرى، فهو أول أمير في الإسلام على اليمن وأول من أسلم من ملوك العجم ثم

(١) الأحكام السلطانية من ٣٥ بتصرف.

(٢) طي: جبل بنجد (معجم البلدان ٣/ ٢٦٥).

(٣) البحرين: اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان وقد عدها قوم من اليمن وقال أبو عبيدة بين البحرين واليمامة مسيرة عشرة أيام (معجم البلدان ١/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام - موضوع خروج الأمراء والعمال على الصدقات ٤/ ٢٢٣.

أمر رسول الله ﷺ بعد موت باذان ابنه شهر بن باذان على صنعاء<sup>(١)</sup>، وأعمالها ثم قتل شهر، فأمر رسول الله ﷺ عليها خالد بن سعيد بن العاص.

وولى رسول الله ﷺ المهاجر بن أبي أمية المخزومي كندة<sup>(٢)</sup>، والصدف<sup>(٣)</sup>، فتوفي رسول الله ﷺ ولم يسر إليها فبعثه أبو بكر ﷺ إلى قتال أناس من المرتدين فغير أبو بكر ﷺ وجهة هذا الوالى، لأنه أبا بكر احتاج إليه بشدة في قتال المرتدين حين ظهرت حركة الردة على الساحة الإسلامية بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة وفوجئ بها أبو بكر ﷺ في مستهل خلافته. فرأى أن القضاء على الردة، وتوطيد أركان الدولة الإسلامية وإخضاعها لمقر الخلافة في المدينة أمر لا بد منه، وهو أهم من إرسال الأمراء إلى كندة والصدف، فاستعان بالقائد العظيم - المهاجرين أبي أمية واستعمله فيما هو أصلح وأوفق في ظل تلك الظروف الطارئة.

وولى النبي ﷺ زياد بن أمية الأنصارى حضر موت<sup>(٤)</sup>، وولى أبا موسى الأشعرى زبيد<sup>(٥)</sup>، وعدن<sup>(٦)</sup>، والساحل، وولى معاذ بن جبل الجند<sup>(٧)</sup>، وولى أبا سفيان بن صخر نجران<sup>(٨)</sup>، وولى ابنه يزيد تيماء<sup>(٩)</sup>.

(١) صنعاء: موضعان أحدهما باليمن، وهى العظمى، وأخرى قرية بالغوطة من دمشق وبينها وبين عدن ثمانية وستون ميلاً وصنعاء قصبة اليمن وأحسن بلادها (معجم البلدان ٣/ ٤٢٥، ٤٢٦).

(٢) كندة: خلاف كندة باليمن اسم قبيلة فهو مسكن قبيلة كندة (معجم البلدان ٤/ ٤٨٢).

(٣) الصدف: خلاف باليمن منسوب إلى القبيلة (معجم البلدان ٣/ ٣٩٧).

(٤) حضر موت: ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر وحوها رمال كثيرة تعرف بالأحفاف وبها قبر هود عليه السلام وقيل: خلاف من اليمن بينه وبين البحر رمال (معجم البلدان ٢/ ٢٧٠).

(٥) زبيد: اسم واد به مدينة يقال الحصيب ثم غلب عليها اسم الوادى فلا تعرف إلا به، وهى مدينة مشهورة باليمن أحدثت في أيام المأمون وبإذاتها ساحل غلافقة وساحل المنذب، وهو علم مرتحل لهذا الموضع (معجم البلدان ٣/ ١٣١).

(٦) عدن: هي مدينة مشهورة على ساحل نهر الهند من ناحية اليمن، وهى منطقة تجارية وهى أقدم أسواق العرب (معجم البلدان ٤/ ٨٩).

(٧) الجند: من أعمال اليمن وهو أعظمها، وهى مسماة بجند بن شهران بطن من المعافر وبها مسجد بناه معاذ بن جبل عليه السلام وبين الجند وصنعاء ثمانية وخمسون فرسخاً (معجم البلدان ٢/ ١٦٩).

(٨) نجران: هي من مخاليف اليمن من ناحية مكة (معجم البلدان ٥/ ٢٦٦).

(٩) تيماء: بلد في أطراف الشام بين الشام ووادى القرى على طريق حاج الشام ودمشق [معجم البلدان ٢/ ٧٨].

وولى عتاب بن أسيد<sup>(١)</sup>، مكة وإقامة الموسم بالحج بالمسلمين سنة ثمان وله دون العشرين سنة.

وولى على بن أبى طالب: الأخماس باليمن والقضاء بها.

وولى عمرو بن العاص عمان وأعمالها.

وولى الصدقات جماعة كثيرة، لأنه كان لكل قبيلة وال يقبض صدقاتها فمن هنا كثر عمال الصدقات.

وولى أبا بكر إقامة الحج سنة تسع وبعث فى أثره علياً يقرأ على الناس سورة ((براءة)).

فقليل لأن أولها نزل بعد خروج أبى بكر إلى الحج، وقيل بل لأن عادة العرب كانت أنه لا يحل العقود ويعقدها إلا المطاع أو رجل من أهل بيته، وقيل أردفه به عوناً له ومساعداً، ولهذا قال الصديق: أمير أو مأمور؟ قال بل مأمور<sup>(٢)</sup>

#### ٥- معايير اختيار الأمراء:

الإمارة منصب صعب يحتاج إلى العلم والفهم، والقوة، والتقوى، والأمانة ويحتاج إلى الصبر وسعة الصدر.

والأمير هو نائب الخليفة أو الحاكم، فهو يتكلم بلسانه ويعبر عن رأيه ولذلك يحتاج إلى العلم وينبغى أن يكون على حظ وافر من الكياسة والسياسة وحسن عرض الأمور، وتبليغ دعوته الله إلى الناس بالأسلوب الأمثل.

ولذلك كان النبي ﷺ يتخري فى اختيار امرائه ويدقق كثيراً فى هذا الأمر ويستعمل الأتقى والأصلح، ويحذر من تولية غير الأكفاء ويمنع المحاباة فى هذا الأمر

(١) هو الصحابى الجليل: عتاب بن أسيد بن العيص بن أمية الأموى أبو عبد الرحمن أو أبو محمد المكي أسلم يوم الفتح واستعمله النبي ﷺ على مكة لما سار إلى حنين ومات ﷺ يوم مات أبو بكر [الإصابة ٤/٤٢٩].

(٢) السيرة النبوية لابن هشام موضوع (حج أبى بكر بالناس سنة تسع واختصاص النبي ﷺ على بن أبى طالب راضون الله عليه بتأدية أول براءة عنه وذكر براءة والقصص فى تفسيرها (٤/١٧٠ - ١٧٢) بتصرف وينظر زاد المعاد لابن القيم ١/٥٠، ٥١ ط المكتب الثقافى بالأزهر.

يقول الإمام الحاكم رحمه الله: أخبرني عبد الله بن محمد بن موسى العدل، ثنا محمد بن أيوب أنبأ يزيد بن عبد العزيز الطيالسي ثنا خالد بن عبد الله الواسطي عن حسين بن قيس الرحبي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «(من استعمل رجلاً من عصابة وفي تلك العصابة من هو أَرْضِي منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين)»<sup>(١)</sup>.

### الشروط التي كان النبي ﷺ يشترطها في الأمير:

#### ١ - أن يكون عالماً بكتاب الله ﷻ:

وهذا شرط أساسي لمن أراد القيام بهذا العمل الخطير، يقول الإمام مسلم حدثني زهير بن حرب حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثني أبي عن ابن شهاب عن عامر ابن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان<sup>(٢)</sup>، وكان عمر يستعمله على مكة فقال من استعملت على أهل الوادي: فقال: ابن أبدي<sup>(٣)</sup>، قال ومن ابن أبدي؟ قال: مولى<sup>(٤)</sup>، من موالي، قال فاستخلفت عليهم مولى. قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر أما إن نبيكم ﷺ قد قال «(إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين)»<sup>(٥)</sup>، قال تعالى ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

(١) أخرجه الحاكم في كتاب الأحكام ٩٢/٤ ح ٧٠٢٣ عن ابن عباس وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وحذفه الذهبي من التلخيص وأخرجه بالفاظ متقاربة الطبراني في الكبير ١١٤/١١ ورقمه ١١٢١٦ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب آداب القاضي ٢١ باب «(لا يولى الوالى امرأة ولا فاسقاً ولا جاهلاً أمر القضاء)» ١٠/١١٨ ح ٢٠٣٦٤ جميعهم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة وهى من مكة على مرحلتين (معجم البلدان ٤/١٢١، ١٢٢).  
(٣) ابن أبدي: هو عبد الرحمن بن أبدي الخزاعي مولى نافع بن عبد الحارث مختلف في صحبته استخلفه نافع بن عبد الحارث على أهل مكة أيام عمر وقال لعمر: إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض (تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٣/٣٣٥).

(٤) الموالى جمع مولى والمولى: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو الرب، والمالك، والسيد والمنعم، والمعتمد والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم والحليف، والصهر، والعبد والمعتمد والمنعم عليه وأكثرها قد جاءت في الحديث فيضاف كل واحد إلى ما يقتضيه الحديث الوارد فيه (النهاية (ولا) ٥/٢٢٨ بتصرف).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين ٤٧ باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ٣/٣٥٨ ح ٢٦٩، وابن ماجه في المقدمة: ١٦ باب فضل من تعلم القرآن وعلمه ١/١٢ ح ٢١٨ والدارمي في كتاب فضائل القرآن ٩ باب إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع آخرين ٢/٣١٦ ح ٣٣٦٥ جميعهم عن عامر بن واثلة.



## ٢- إن يكون قويًا أمينًا:

وإنما كان النبي ﷺ يشترط القوة في الأمير حتى تكون عنده المقدرة على مواجهة الصعوبات التي يتعرض لها فيقوم بأعباء الأمانة على أكمل وجه وأتمه. وأن يكون أمينًا على أموالهم وعلى أعراضهم قال تعالى ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وقال صاحب مصر ليوسف ﷺ حينما أراد توليته أمر الأموال والخزائن ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

وقال تعالى في صفة جبريل ﷺ رسول وحى السماء إلى النبي ﷺ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ \* ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ \* مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

والنبي ﷺ أبى أن يقلد أبا ذر ﷺ الإمامة لأنه رأى أنه لا يستطيع أن يتحمل تبعاتها يقول الإمام مسلم رحمه الله حدثنا عبد الملك بن شعيب بن الليث حدثني أبى شعيب بن الليث، حدثني الليث بن سعد، حدثني يزيد بن أبى حبيب عن بكر بن عمرو، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن أبى حنيفة الأكبر عن أبى ذر قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي<sup>(١)</sup>، وندامة<sup>(٢)</sup>، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»<sup>(٣)</sup>

يقول الإمام النووي رحمه الله:

«هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات، لاسيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً

(١) الخزي: هو الذل والهوان ومن معانيه أيضًا: الهلاك والوقوع في بلية [النهاية «خزا» ٢/ ٣٠ بتصرف يسير].

(٢) الندم هو المتحسر على ما فاتته - وقال الزنجشري، الندم بسكون الدال: هو الغم اللازم، إذ يندم صاحبه، لما يعثر عليه من سوء آثاره [النهاية «ندم» ٥/ ٣٦ بتصرف يسير].

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمامة: ٤ باب كراهية الإمامة بغير ضرورة ٦/ ٤٤٩ ح ١٨٢٥ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب أدب القاضي: ٤ باب كراهية الإمامة وكراهية تولي أعمالها لمن رأى من نفسه ضعفًا ١٠/ ٩٥ ح ٢٠١٢ كلاهما عن أبى ذر ﷺ.

لها، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه، ويندم على ما فرط<sup>(١)</sup>. اهـ.

٣- أن يحكم بكتاب الله: فإن لم يجد فبسنة رسول الله ﷺ فإن لم يجد فيجتهد رأيه ويعمل عقله ولا يقصر: وكان النبي ﷺ يشترط أن يكون الأمير صاحب فطنة، وعقل واع، ورأى سديد، وفكر صحيح، حتى إن تعرض لمسألة ليس فيها نص صريح من كتاب أو سنة قوله أو فعلية أو تقريرية فعليه أن يعمل عقله ويجتهد رأيه بشرط ألا يصطدم اجتهاده مع نص صريح أو عقل صحيح. يقول الإمام أبو داود: حدثنا حفص ابن عمرو عن شعبة عن أبي عون عن الحارث بن عمرو ابن أخي المغيرة بن شعبة عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟ قال أقضى بكتاب الله قال فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال فبسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد برأى<sup>(٢)</sup>، ولا آلو<sup>(٣)</sup>، فضرب رسول الله ﷺ صدره فقال (وقال) الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله<sup>(٤)</sup>.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٤٥٠).

(٢) الاجتهاد بذل الوسع في طلب الأمر وهو افتعال من الجهد: الطاقة والمراد به: رد القضية التي تعرض للحاكم من طريق القياس إلى الكتاب والسنة ولم يرد به الرأي الذي يراه من قبل نفسه من غير حمل على كتاب أو سنة [النهاية «جهد» ١/٣١٩، ٣٢٠].

(٣) بمد الهمزة متكلم من آل يالو. قال الخطابي معناه لا أقصر في الاجتهاد ولا أترك بلوغ الوسع فيه (عون المعبود ٩/٤٠٢).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب القضاء: ١١ باب اجتهاد الرأي في القضاء (٩/٤٠٢، ٤٠٣ ح ٣٥٨٩) والترمذي في كتاب الأحكام: ٣ باب ما جاء في القاضي كيف يقضى ح ١٣٢٧، وقال أبو عيسى هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندى بمتصل. (٤/٤٦١، ٤٦٢) والبيهقي في السنن الكبرى كتاب آداب القاضي ١٩ باب ما يقضى به القاضي ويفتى به المفتي ١٠/١١٤ ح ٢٠٣٣٩ جميعهم عن رجال من أصحاب معاذ بن جبل. وهذا الحديث وقع فيه خلاف كبير بين علماء الحديث بين مضعف ومحسن وأصحاب الرأي الأول يرون أن الحديث ضعيف لأن الحارث بن عمرو مجهول وشيوخه لا يعرفون، وقالوا كذلك أن أصحاب معاذ بن جبل غير مسلمين فلا تعرف أحوالهم ويرى أصحاب الرأي الثاني أن إسناده متصل لأنه جاء من طرق أخرى متصلة. وأرى: أن الحديث في حيز المقبول ويصح الاستدلال به والحديث يتقوى بما يلي:

= أولاً: أن الحديث له إسناد متصل من طريق آخر - قال أبو بكر الخطيب (وقد قيل إن عبادة بن أنس رواه عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ وهذا إسناد متصل ورجاله معروفون بالثقة. اهـ. ثانياً: أن الفقهاء وأهل العلم نقلوا هذا الحديث واحتجوا به وفي ذلك تقويه له يقول أبو بكر الخطيب أيضاً (أن أهل العلم قد نقلوه واحتجوا به فوقفتنا بذلك على صحته عندهم كما وقفنا على صحة قول رسول الله ﷺ: «لا وصية لوارث» وقوله في البحر «هو الطهور ماؤه والحل ميتة» وقوله: «الدية على العاقلة» وإن كانت هذه الأحاديث لا تثبت من جهة الإسناد ولكن لما نقلها الكافة عن الكافة غنوا بصحتها عندهم عن طلب الإسناد لها. فكذلك حديث معاذ لما احتجوا به جميعاً غنوا عن طلب الإسناد.

ثالثاً: أنه لا يتعارض مع نص صحيح آخر من كتاب أو سنة وعلى ذلك فهو في حيز المقبول.

رابعاً: كما أن الحديث سليم من ناحية المعنى ليس فيه تناقض.

خامساً: أن الحديث أصل في الاستدلال على صحة الاجتهاد، والاجتهاد أمر جائز (وقد جوز النبي ﷺ للحاكم أن يجتهد رأيه وجعل له على خطئه في اجتهاده الرأي أجراً واحداً إذا كان قصده معرفة الحق واتباعه، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتهدون في النوازل وقيسون بعض الأحكام على بعض ويعتبرون النظر بنظيره. وابن القيم قد بسط الكلام في ذكر اجتهادات الصحابة رضي الله عنهم فقال: وقد اجتهد الصحابة في زمن النبي ﷺ في كثير من الأحكام ولم ينههم كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر في بني قريظة فاجتهد بعضهم وصلاها في الطريق وقال لم يرد منا التأخير وإنما أراد سرعة النهوض فنظروا إلى المعنى واجتهد آخرون وأخروها إلى بني قريظة فصلوها ليلاً نظروا إلى اللفظ وهؤلاء سلف أهل الظاهر وأولئك سلف أصحاب المعاني والقياس).

سادساً: أن حديث معاذ رضي الله عنه أصل من أصول الاستدلال على صحة القياس، والقياس أمر جائز استعمله النبي ﷺ في بعض القضايا واستعمله الصحابة رضوان الله عليهم من بعده كما أنه مصدر مهم من مصادر التشريع الإسلامي وهو يعد في المرتبة الرابعة في ترتيب مصادر التشريع بعد القرآن والسنة والاجماع. يقول ابن القيم في آخر كلامه قال المزمي: الفقهاء من عصر رسول الله ﷺ إلى يومنا وهم جرا استعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم.

قال وأجمعوا بأن نظير الحق حق ونظير الباطل باطل فلا يجوز لأحد أن ينكر القياس لأنه التشبيه بالأمور والتمثيل عليها.

سابعاً: أن أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنهم الذين رووا الحديث: الظن بهم أن يكونوا خياراً عدولاً لأنهم أصحاب صحابي جليل، وهل يليق بمعاذ رضي الله عنه أن يصاحب غير الأتقياء العدول؟ وعلى فرض كون بعضهم غير عدول، فلا بد أن يكون من بينهم من يتصف بالعدالة والضبط لأنهم رفقاء لصحابي جليل: [يقول ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين بعد ذكر حديث معاذ رضي الله عنه هذا حديث وإن كان عن غير مسمين فهم أصحاب معاذ فلا يضره ذلك لأنه يدل على شهرة الحديث، وأن الذي حدث به الحارث بن عمرو عن جماعة من أصحاب معاذ لا واحد منهم، وهذا أبلغ في الشهرة من أن يكون عن واحد منهم لو سمي كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدقة بالمحل الذي لا يخفى؟ ولا يعرف في أصحابه منهم ولا كذاب ولا مجروح بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم لا يشك أهل العلم بالنقل في ذلك] اهـ وعلى هذا الأساس فإن هذا الكلام فيه رد=

## ٦- النبي ﷺ يحذر من طلب الإمارة لمن لم يقدر عليها:

الإمارة تحتاج إلى كثير من الجهد والاجتهاد وتقديم النصائح والتوجيهات إلى الناس فلا ينبغي لأحد أن يعرض نفسه لهذه المسؤولية إلا إذا وجد في نفسه المقدرة على القيام بهذه الأعباء لأنها أمانة في عنق كل أمير، وقد كان النبي ﷺ يقدر خطورة هذا العمل، وصعوبة القيام به فكان يحذر كل من أراد القيام به وهو يعلم أن عنده نوع

= على المضعفين للحديث في قولهم أن الحارث بن عمرو ومجهول وشيوخه لا يعرفون، وقولهم أن أصحاب معاذ ابن جبل غير مسلمين.

ثامناً: أن سلسلة إسناد الحديث فيه شعبة رحمته الله: وشعبة يقول عنه الإمام الذهبي رحمته الله: بعد أن عرفه بقوله: شعبة ابن الحجاج الحافظ أبو بسطام العتكي، قال عنه: هو أمير المؤمنين في الحديث، ولد بواسط، وسكن البصرة، سمع معاوية بن قرة والحاكم وسلمة بن كهيل، وعنه: غندر وأبو الوليد «الطيالسي» وعلى بن الجعد، له نحو من ألفي حديث، مات في أول سنة ١٦٠ هـ ثبت حجة، ويخطئ في الأسماء قليلاً (من كتاب الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة للإمام الذهبي ١١/٢ طبعة دار الكتب الحديث بعابدين).

ويقول عنه شيخ الإسلام ابن حجر في تهذيب التهذيب (قال أبو طالب عن أحمد شعبة أثبت في الحكم من الأعمش وأعلم بحديث الحكم، ولو لا شعبة ذهب حديث الحكم، وشعبة أحسن حديثاً من الثوري لم يكن في زمن شعبة مثله في الحديث ولا أحسن حديثاً منه).

وقال محمد بن العباس النسائي: سألت أبا عبد الله: من أثبت شعبة أو سفيان؟ فقال كان سفيان رجلاً حافظاً وكان رجلاً صالحاً وكان شعبة أثبت منه وأتقى رجلاً وسمع من الحكم قبل سفيان بعشر سنين وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه كان شعبة أمة وحده في هذا الشأن يعني في الرجال، وبصرة بالحديث وتثبته وتقوته للرجال وقال أبو داود الطيالسي: قال لي حماد بن سلمة: إذا أردت الحديث فالزم شعبة وقال حماد بن زيد: ما أبالي من خالفني إذا وافقني شعبة فإذا خالفني شعبة في شيء تركته وقال ابن مهدي: كان الثوري يقول: شعبة أمير المؤمنين في الحديث (تهذيب التهذيب لابن حجر ٥٠١/٢ باختصار).

ويقول ابن القيم: كيف وشعبة حامل لواء هذا الحديث وقد قال بعض أئمة الحديث «إذا رأيت شعبة في إسناد حديث فاشدد يدك به» اهـ [تحفة الأحوذى ٤/٤٦٢، ٤٦٣ - وعون المعبود ٩/٣-٤].

وعلى ذلك فالحديث يقويه أن في إسناده شعبة وقد نقلت كلام علماء الحديث في ضبطه وعدالته وصدقه وتثبته والمعلوم أن الحارث بن عمرو الذي دار حوله الجدل وقع في سلسلة الإسناد بعد شعبة وعلى ذلك فشعبة قد روى الحديث عن أبي عون الثقفي ورواه أبو عون عن الحارث بن عمرو فأظن أن شعبة لو علم في شيخه الكذب مارواه عنه وهو من هو في الحديث، وعلى ذلك فإن ما ذكرته عن هذا الحديث من باب التقوية له وذلك بشهادة العلماء والمتخصصين في هذا الشأن، وبهذا يكون الحديث في حيز المقبول يصلح الاستدلال به إن شاء الله. والله أعلم.

قصور يحول دون أدائه على أكمل وجه.

يقول الإمام مسلم رحمه الله تعالى: حدثنا أبو غسان المسمعي وإسحق بن إبراهيم ومحمد بن المثنى (قال إسحاق: أخبرنا وقال الآخرون: حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة، عن أبي المليح، أن عبيد الله بن زياد دخل على معقل بن يسار<sup>(١)</sup>، في مرضه فقال له معقل: إني محدثك بحديث لو لا أني في الموت لم أحدثك به سمعت رسول الله ﷺ يقول: «(ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد<sup>(٢)</sup>)، لهم وينصح، إلا لم يدخل معهم الجنة»<sup>(٣)</sup>).

يقول الإمام النووي رحمه الله: «وفي هذا الحديث وجوب النصيحة على الوالى لرعيته والاجتهاد فى مصالحهم، والنصيحة لهم فى دينهم ودنياهم»<sup>(٤)</sup>.

#### ٧- النبي ﷺ يحذر من طلب الإمارة ويبين شدة تبعاتها:

نبه النبي ﷺ على عظم مسئولية الولاية والإمارة، فبين أنها ليست تشريفا وإنما كلفة ومسئولية، لأن الوالى أو الأمير مسئول عن رعيته أمام الله تعالى وأمام جمهور المسلمين ومن ثم حذر النبي ﷺ من طلب الإمارة وبين أنها لا ينبغي أن تكون هدفا يسعى إليه، وكان ﷺ يسعى من وراء هذا التحذير إلى خلق الألفة، والمحبة بين الناس وإبعادهم عن تولى المناصب إذا كان الغرض الأساسى منها هو الظهور والشهرة والاستعلاء، والاستحكام، وحب السيادة والرياسة والزعامة فلو رغب النبي

(١) هو الصحابى الجليل: معقل بن يسار بن عبد الله بن معبر بن حراق بن أبى بن كعب بن عبد ثور بن هذمة بن لاطم بن عثمان بن عمرو المزنى أسلم قبل الحديبية وشهد بيعة الرضوان سكن البصرة ومات فى آخر خلافة معاوية [الإصابة ٦/ ١٨٤].

(٢) يعنى يجتهد لهم، والجهد بلوغ غاية الأمر، بلوغ الوسع والطاقة والمشقة [النهاية «جهد» ١/ ٣٢٠].

(٣) أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الإمارة ٥ باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر ح ١٨٢٩ مكرر شرح النووى على مسلم ٦/ ٤٥٣، ٤٥٤ - والبيهقى فى السنن كتاب السنن ٣٣ باب ما على الوالى من أمر الجيش ٩/ ٤١ ح ١٧٩٠١. وأبو عوانة فى مسنده كتاب الإيمان باب بيان المعاصي التى إذا قالها العبد أو عملها لم يدخل الجنة بمعصيته ١/ ٤٢ ط دار المعرفة بيروت جميعهم عن معقل بن يسار رحمه الله.

(٤) شرح النووى على مسلم ٦/ ٤٥٦.

ﷺ الناس في تولى هذا العمل وحثهم عليه لتقاتلوا عليه ولقامت المعارك والخلافات واشتعلت الفتن بين الناس في دولة الإسلام.

ولذلك كان النبي ﷺ لا يولى هذا الأمر من سأله أو حرص عليه وجد في طلبه يقول الإمام البخارى رحمه الله: حدثنا محمد بن العلاء حدثنا أبو أسامة عن بريدة عن أبي بردة «عن أبي موسى ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: أمرنا يا رسول الله وقال الآخر مثله، فقال: «إنا لا نولى هذا الأمر من سأله ولا من حرص عليه»<sup>(١)</sup>.

يقول ابن حجر ﷺ: «قال المهلب: الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج، وعظم الفساد في الأرض بذلك»<sup>(٢)</sup>.

ولما جاء الصحابى الجليل عبد الرحمن بن سمرة<sup>(٣)</sup>، يسأل النبي ﷺ الإمارة نهاه عن ذلك وبين له - وللأمة جمعاء - أن الذى يسألها ويحرص عليها ويجعلها هدفا يسعى إلى تحقيقه فأمره موكل إلى نفسه، دون معونة من الله تعالى وأن من نالها دون سعى أو مسألة فإن الله تعالى معينه عليها وموفقه فيها.

يقول الإمام البخارى ﷺ: حدثنا حجاج بن منهال حدثنا جرير بن حازم عن الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لى النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل

(١) أخرجه البخارى في كتاب الأحكام ٧ باب ما يكره من الحرص على الإمارة ١٣/ ١٥٥ وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة ٣ باب النهى عن طلب الإمارة بشرح النووى على مسلم ٦/ ٤٤٧ ح ١٧٣٣ وأبو داود بلفظ «لن نستعمل أولا نستعمل على عملنا من أراد في كتاب القضاء ٣ باب في طلب القضاء والتسرع إليه (٩/ ٣٩٢ ح ٣٥٧٦ والنسائى في كتاب آداب القضاة باب ترك استعمال من يحرص على القضاء ٨/ ٢٢٤ والبيهقى في السنن: كتاب آداب القاضى: ٥ باب كراهية طلب الإمارة والقضاء: ١٠/ ١٠٠ ح ٢٠٢٤٨ جميعهم عن أبي موسى ﷺ.

(٢) فتح البارى ١٣/ ١٥٥.

(٣) هو الصحابى الجليل: عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس العيشمى، له صحبة وكان إسلامه يوم الفتح وشهد غزوة تبوك مع النبي ﷺ ثم شهد فتوح العراق وهو الذى افتتح سجستان وغيرها في خلافة عثمان ثم نزل البصرة ومات بها سنة خمسين من الهجرة [الإصابة ٤/ ٣١٠].

الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها<sup>(١)</sup>، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خيراً<sup>(٢)</sup>.

قال ابن حجر ومعنى الحديث: أن من طلب الإمارة فأعطيتها تركت إعانته من أجل حرصه<sup>(٣)</sup>.

#### ٨- توجيهات النبي ﷺ وتعاليمه للأمرء:

كان النبي ﷺ يوجه الأمرء، ويعلمهم كيف يسرون في ولاياتهم، فيرسم الخطط، ويحدد المهمات، ويبين السياسة الرشيدة، والطريقة الحكيمة التي ينبغي على كل أمير أن يسير على نهجها حتى يؤدي مهمته بنجاح واقتدار.

وتبدو لنا سياسة النبي ﷺ الحكيمة في هذا الجانب من خلال كتابه لعمر بن حزم<sup>(٤)</sup>، حينما بعثه إلى بني الحارث بن كعب ليعلمهم شعائر الدين الإسلامي بعد أن أعلنوا إسلامهم عند رسول الله ﷺ ورجعوا إلى ديارهم.

قال ابن إسحاق وحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث.. فذكر حديثاً طويلاً وفيه: وقد كان رسول الله ﷺ بعث إليهم بعد أن ولي وفدهم عمرو بن حزم، ليفقههم

(١) وكلت إليها: يعنى ضمنت القيام بأمرها بمفردك بدون معونة من الله [النهاية «وكل» ٥/ ٢٢١].

(٢) أخرجه البخارى في كتاب الأحكام ٥ باب من لم يسأل الإمارة أعانته الله عليها ١٣/ ١٥٢ ح ٧١٤٦، وفي باب من سأل الإمارة وكل إليها ١٣/ ١٥٣ ح ٧١٤٧ ومسلم في كتاب الإمارة ٣ باب النهى عن طلب الإمارة والحرص عليها ٣/ ٤٤٦ ح ١٦٥٢ - وأبو داود في كتاب الخراج والفى والإمارة ٢ باب ما جاء في طلب الإمارة عون المعبود ٨/ ١١٧ ح ٢٩٢٧ - والترمذى في الإيمان والنذور ٥ باب ما جاء فيمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ٥/ ٨٨ ح ١٥٢٩ والإمام أحمد في مسنده ٥/ ٦٢ والدارمى في النذور والإيمان ٩ باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ٢/ ٣٨ ح ٢٣٤٦ والبيهقى في السنن في كتاب الإيمان ٦ باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه ١٠/ ٣١ ح ١٩٨٤١ - جميعهم عن عبد الرحمن بن سمرة ؓ.

(٣) فتح البارى ١٣/ ١٥٣.

(٤) هو الصحابى الجليل عمرو بن حزم بن زيد بن لؤذان الأنصارى شهد الخندق وما بعدها ومات ؓ في خلافة عمر بن الخطاب ؓ [الإصابة ٤/ ٦٢١].

فى الدين، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له كتابا عهد إليه فيه عهده، وأمره فيه بأمره.

### نص الكتاب النبوى

«بسم الله الرحمن الرحيم» هذا بيان من الله ورسوله، يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، عهد من محمد النبي رسول الله لعمر بن حزم، حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله فى أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله، وأن يبشر الناس بالخير، ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه، وينهى الناس، فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس الذى لهم، ويلين للناس فى الحق، ويشدد عليهم فى الظلم، فإن الله كره الظلم، ونهى عنه، فقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

ويبشر الناس بالجنة وبعملها، وينذر الناس النار وعملها، ويستألف الناس حتى يفقهوا فى الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته، وما أمر الله به، والحج الأكبر: الحج الأكبر، والحج الأصغر: هو العمرة، وينهى الناس أن يصلى أحد فى ثوب واحد صغير، إلا أن يكون ثوبا يثنى طرفه على عاتقيه، وينهى الناس أن يحتبى<sup>(١)</sup>، أحد فى ثوب واحد يفضى بفرجه إلى السماء، وينهى أن يعقص<sup>(٢)</sup>، أحد شعر رأسه فى قفاه، وينهى إذا كان بين الناس هيج<sup>(٣)</sup>، عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعواهم إلى الله ﷻ وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطفوا<sup>(٤)</sup>،

(١) الاحتباء: هو أن يضم الإنسان رجله إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره، ويشد عليها. وقد يكون الاحتباء باليدين عوض الثوب وإنما نهى عنه لأنه إذا لم يكن عليه إلا ثوب واحد ربما تحرك أو زال الثوب فتبدوا عورته (النهاية «حبا» ١/ ٣٣٥).

(٢) العقص: هو الشعر المعقوص، وهو نحو من المصفور وأصل العقص: اللي وإدخال أطراف الشعر فى أصوله (النهاية «عقص» ٣/ ٢٧٥).

(٣) هيج: إثارة وإزعاج واستنفار (النهاية «هيج» ٥/ ٢٨٦) بتصرف.

(٤) يقطفوا بالسيف: أى تقطع رؤوسهم بالسيف (النهاية «قطف» ٤/ ٨٤) بتصرف.



بالسيف حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوهرهم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ويمسحون برءوسهم كما أمرهم الله، وأمر بالصلاة لوقتها، وإتمام الركوع والسجود والخشوع، ويغسل<sup>(١)</sup>، بالصبح ويهجر<sup>(٢)</sup>، بالهاجرة حين تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة، والمغرب حين يقبل الليل لا يؤخر حتى تبدو النجوم في السماء والعشاء أول الليل، وأمر بالسعى إلى الجمعة إذا نودي لها، والغسل عند الرواح إليها وأمره أن يأخذ من المغنم خمس الله، وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار<sup>(٣)</sup>، وعشر ما سقت العين وسقت السماء، وعلى ما سقى الغرب<sup>(٤)</sup>، نصف العشر وفي كل عشر من الإبل شاتان وفي كل عشرين أربع شياة، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقرة تبيع<sup>(٥)</sup>، جذع<sup>(٦)</sup>، أو جذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة<sup>(٧)</sup>، وحدها، شاة فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيرًا فهو خير له وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلامًا خالصًا من نفسه، ودان بدين الإسلام، فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها، وعلى كل حال: ذكر أو أنثى، حر أو عبد، دينار واف أو عوضه ثيابا فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله، ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا، صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمته وبركاته<sup>(٨)</sup>.

(١) الغسل: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح (النهاية «غسل») ٣/ ٣٧٧.

(٢) الهجير: يعنى الظهر، والهجير والهاجرة: اشتداد الحر نصف النهار (النهاية «هجر») ٥/ ٢٤٦.

(٣) العقار: الضيعة والنخل والأرض ونحو ذلك (النهاية «عقر») ٣/ ٢٧٤.

(٤) الغرب: الدلو العظيمة التي تتخذ من جلد ثور (النهاية «غرب») ٣/ ٣٤٩.

(٥) التبيع: ولد البقرة أول سنة وبقرة متبع: معها ولدها (النهاية «تبع») ١/ ١٧٩.

(٦) الجذع: من أسنان الدواب وهو ما كان منها شابًا فتيًا، فهو من الإبل ما دخل في السنة الخامسة ومن البقر والمعز ما دخل في السنة الثانية وقيل: البقر في الثالثة ومن الضأن ما تمت له سنة وقيل أقل منها (النهاية «جذع») ١/ ٢٥٠.

(٧) السائمة: من الماشية هي الراعية أو المرسل في مرعاها (النهاية «سوم») ٢/ ٤٢٦.

(٨) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع كتاب رسول الله ﷺ لعمر بن حزم (السيرة النبوية لابن هشام) ٤/ ٢٢٠، ٢١٨، ٢١٧.

هذا بيان شامل من النبي ﷺ رسم فيه الطريقة التي ينبغي أن يسير عليها الأمير، فيأخذ بالحق ويبشر الناس بالخير ويأمرهم به ويحذرهم من الشر وينهاهم عنه، ويعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ويبين لهم أركان الإسلام من توحيد وصلاة وزكاة وحج وغير ذلك من الأركان، ويشرح لهم ما تحتويه هذه الأركان من فرائض وسنن ومندوبات، وهيئات ينبغي أن تكون عليها، وأوقات تؤدي خلالها وأمره أن يدعو الناس إلى ترك الدعوة إلى العصبية القبلية حتى تذوب الفوارق، وتندثر الأعراق، وتنصهر كل الطبقات في بوتقة الإيمان.

وأمره أن يدعو غير المسلمين إلى الدخول في الإسلام فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين. وعليهم ما على المسلمين وإن امتنعوا فلا إكراه في الدين.

وبذلك بين النبي ﷺ من خلال هذا الكتاب الجليل ما للأمير وما عليه تجاه رعيته، وأصبح هذا الكتاب مشعل هداية ينير الطريق لكل من تولى الإمارة.

#### ٩- النبي ﷺ يرسل أمراءه إلى اليمن ويوصيهم بالرفق واليسر:

حظيت بلاد اليمن بالنصيب الوافر من الأمراء في عهد رسول الله ﷺ حيث إنه أرسل إليهم الكثير من الأمراء وكان يوصيهم في خاصتهم بتقوى الله ومن معهم من المسلمين خيرًا، ويأمرهم بالرفق واليسر وحسن معاملة الناس وقد حفظ لنا رواة الأحاديث بعض الوصايا التي كان يوصي بها النبي ﷺ أمراءه على اليمن، فكانت هديًا قويماً، ومنهجًا مستقيمًا لكل ولادة الأمصار في كل زمان ومكان.

وكان معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري من أوائل الأمراء الذين بعثهم النبي ﷺ إلى اليمن وأمرهم أن يعلموا الناس شعائر الإسلام بكل رفق ويسر قال الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد عن زكريا بن إسحاق عن يحيى ابن عبد الله بن صيفي عن أبي معبد عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ بعث معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن فقال: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من

أغنيائهم وترد على فقرائهم»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن أوصى النبي ﷺ معاذ بن جبل ﷺ وحدد له مهام عمله، أمره أن يحسن معاملة الناس، هو وأبا موسى الأشعري ﷺ، وكان جهة معاذ العليا إلى صوب عدن، وجهة أبي موسى السفلى.

يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا موسى حدثنا أبو عوانه حدثنا عبد الملك عن أبي بردة قال: «بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهما على مخالف<sup>(٢)</sup>، قال واليمن مخالفان، ثم قال: «يسرا ولا تعسروا وبشرا ولا تنفرا» فانطلق كل واحد منهما إلى عمله، وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه كان قريباً من صاحبه....<sup>(٣)</sup> الحديث

قال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفي الحديث الأمر بالتيسير في الأمور، والرفق

(١) أخرجه البخارى في كتاب الزكاة ١ باب وجوب الزكاة (٣/ ٣٢٠ ح ١٣٩٥) وهذا اللفظ وفي ٤١ باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة (٣/ ٣٩٣ ح ١٤٥٨) وفي ٦٣ باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا (٣/ ٤٣٦ ح ١٤٩٦) وفي المظالم ٩ باب الالتقاء والحذر من دعوة المظلوم (٥/ ١٢٤ ح ٢٤٤٨) وفي ٦٠ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (٨/ ٧٩ ح ٤٣٤٧) وفي كتاب التوحيد ١ باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (١٣/ ٤٢٢ ح ٧٣٧، ٧٣٧٢) - ومسلم في كتاب الإيمان ٧ باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/ ٢٢٨ ح ٢٩، ٣١) وأبو داود في كتاب الزكاة ٤ باب في زكاة السائمة (٤/ ٣٤٤ ح ١٥٨١) والترمذى في كتاب الزكاة ٦ باب ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة (٣/ ٢٢٣ ح ٦٢٥) والنسائى في كتاب الزكاة: باب إخراج الزكاة من بلد إلى بلد (٥/ ٥٥) وابن ماجه في كتاب الزكاة ١ باب فرض الزكاة (٢/ ١٢٧ ح ١٧٨٣) والدارمى في كتاب الزكاة ١ باب في فضل الزكاة (١/ ٤٢٠، ١٦١٤)، والإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٣٣، ٥/ ٢٣٥) جميعهم عن ابن عباس.

(٢) المخلاف بلغه أهل اليمن هو الكورة والإقليم، وجمعه المخاليف، والمخلافان المذكوران في الحديث مخلاف خالف ومخلاف يام وهما قبيلتان من اليمن (ينظر النهاية (خلف) ٢/ ٧٠ وفتح البارى لابن حجر ٨/ ٧٩).

(٣) أخرجه البخارى في كتاب المغازى ٦٠ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (٨/ ٧٥ ح ٤٣٤١، ٤٣٤٢) عن أبي بردة ومسلم في كتاب الجهاد والسير ٣ باب الأمر بالتيسير وترك التنفير (٦/ ٢٨٣ ح ١٧٣٢). عن أبي موسى وأبو داود في كتاب الأدب ٢٠ باب في كراهة المرء ١٣/ ١٤٩ ح ٤٨٢٧ عن أبي موسى والإمام أحمد في المسند ٤/ ١٧ - والبيهقى في السنن الكبرى كتاب قتال أهل البغى ٩ باب تولية الإمام من ينوب عنه وإن لم يكن قرشياً ٨/ ١٥٤ ح ١٦٥٩٩ عن أبي موسى.

بالرعية، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشدة لئلا تنفر قلوبهم ولا سيما فيمن كان قريب العهد بالإسلام، أوقارب حد التكليف من الأطفال ليتمكن الإيمان من قلبه ويتمرن عليه»<sup>(١)</sup>. اهـ.

وكان النبي ﷺ يدعو لمن ولى من أمر المسلمين شيئاً فرفق بهم أن يرفق الله به، ويدعوا على من شق عليهم أن يشقق عليه.

يقول الإمام مسلم رحمه الله تعالى: حدثني هارون بن سعيد الأيلي حدثنا ابن وهب حدثني حرملة عن عبد الرحمن بن شماس قال: «أتيت عائشة أسأله عن شيء فقالت: فمن أنت؟ فقلت رجل من أهل مصر فقالت: «كيف كان صاحبكم لكم في غداكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئاً إن كان ليموت لرجل منا البعير، فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة، فقالت: أما إنه ليمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ، يقول في بيتي هذا: «اللهم من ولى من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»<sup>(٢)</sup>.

يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: «هذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس وأعظم الحث على الرفق بهم»<sup>(٣)</sup>. اهـ.

#### ١٠- وجوب طاعة الأمراء والصبر عليهم وعدم مفارقة الجماعة:

أمر النبي ﷺ الرعية بطاعة الأمراء، وحذر من عصيانهم، لأن مخالفة الأمراء تتسبب في وقوع الكثير من الفتن والخلافات التي تهدد أمن واستقرار الدولة الإسلامية.

(١) فتح الباري. ١٣/١٩٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ٥ باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن ادخال المشقة عليهم (٦/٤٥١ ح ١٨٢٨) والإمام أحمد في المسند ٦/٩٣، ٢٥٧، ٢٥٨ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب آداب القاضي ٤٨ باب القاضي لا ينهر الخصمين (١٠/١٣٦ ح ٢٠٤٦٦) جميعهم عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) شرح النووي على مسلم ٦/٤٥٥.

وربط النبي ﷺ بين طاعته وطاعة أمرائه فمن أطاعهم فقد أطاعه ومن عصاهم فقد عصاه.

يقول الإمام مسلم رحمه الله تعالى: حدثنا يحيى، أخبرنا المغيرة بن عبد الرحمن الحزامي عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «(من أطاعني فقد أطاع الله ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني)»<sup>(١)</sup>.

كما أوصى النبي ﷺ الرعية بالصبر على الأمراء، وعدم مفارقة الجماعة. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن الجعد أبي عثمان حدثني أبو رجاء العطاردي قال «سمعت ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «(من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية)»<sup>(٢)</sup>.

يقول الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى: والمراد بالميتة الجاهلية: حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال وليس له إمام مطاع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافراً بل يموت عاصياً، ويحتمل أن يكون التشبيه على ظاهره ومعناه أنه يموت مثل موت الجاهلي وإن لم يكن هو جاهلياً، أو أن ذلك ورد مورد الزجر

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ٨ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ٦/٤٦٣ ح ١٨٣٥. والبخاري في كتاب الجهاد والسير ١٠٩ باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به ٦/١٤٢ ح ٢٩٥٧ والبخاري أيضاً في كتاب الأحكام ١ باب قول الله تعالى «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» ١٣/١٣٧، ١٣٨ ح ٧١٣٧ - وأخرجه النسائي في كتاب البيعة / الترغيب في طاعة الإمام ٧/١٥٤. وابن ماجه في كتاب الجهاد ٣٩ باب ساعة الإمام ٢/٥٣٤ ح ٢٨٥٩ والإمام أحمد في المسند ٢/٩٣، ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٧٠ - والبيهقي في السنن الكبرى كتاب قتال أهل البغي ١٠ باب السمع والطاعة للإمام ومن ينوب عنه ما لم يأمر بمعصية ٨/١٥٥ ح ١٦٦٠٣ جميعهم عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن ٢ باب (قول النبي ﷺ سترون بعدى أموراً تنكرونها) ١٣/٩ ح ٧٠٥٤ ومسلم في كتاب الإمارة ١٣ باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ٦/٤٧٨، ٤٧٩ ح ١٨٤٨ عن أبي هريرة والدارمي. باب في لزوم الطاعة والجماعة ٢/١٠٨ ح ٢٥١٩ عن عبد الله بن عباس وأحمد في المسند ١/٣١٠، ٢٧٥. عن ابن عباس والبيهقي في السنن الكبرى كتاب قتال أهل البغي ١٢ باب الصبر على أذى يصيبه من جهة إمامه وإنكار المنكر من أموره بقلبه وترك الخروج عليه ٨/١٥٧ ح ١٦٦١٦ عن ابن عباس.

والتنفير وظاهرة غير مراد.

وقال ابن بطال: في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، وحجتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح فلا تجوز طاعته في ذلك بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها<sup>(١)</sup> أ.هـ.

وقال الإمام النووي: قوله ﷺ: «مات ميتة جاهلية» أي: على صفة موتهم من حيث هم فوضى لا إمام لهم<sup>(٢)</sup> أ.هـ.

حذر النبي ﷺ من مفارقة الجماعة لأنها مصيبة إذا حلت بقوم مزقتهم كل ممزق، ووقفت حجر عثرة أمام كل تقدم أو ازدهار لما يترتب عليها من تخريب البلاد، وتعذيب العباد، وقتل الأبرياء، وسفك الدماء، ونحن نرى ما يحدث في دولة الجزائر من مذابح شملت كل الطوائف، ومن فتن تموج بها البلاد كقطع الليل المظلم، القائم والقاعد فيها سواء.

وإن لم يعمل أهل الجزائر بهذا الحديث النبوي الشريف، ويهتدوا بهديه ويسيروا نحو لم الشمل ورأب الصدع وإنهاء الصراع فسوف يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي من فارق الجماعة وأشعل الفتنة.

#### ١١ - توجيه الأمراء والقضاة والمعلمين إلى أنحاء شبه الجزيرة العربية:

كان النبي ﷺ يحرص على انتشار الإسلام، وسيادة مبادئه، ونزول الناس على حكمه، ولذلك بعث الأمراء إلى معظم أنحاء الجزيرة العربية حتى تعلن كل القبائل ولاءها للإسلام وتعش في سعادة وأمن وسلام في ظل أحكام الإسلام التي يطبقها الأمراء تطبيقاً عملياً.

(١) فتح الباري لابن حجر ٩/١٣ بتصرف.

(٢) شرح النووي على مسلم ٤٨٢/٦.

«فإنه بعد أن قدمت وفود<sup>(١)</sup>، القبائل إلى مقر الدولة الإسلامية بالمدينة معلنة إسلامها أصبح على رسول الله ﷺ تنفيذ مهمتين غاية في الأهمية:

### المهمة الأولى:

تنظيم الإدارة في تلك المناطق التي أعلنت ولاءها للدولة الإسلامية وإيمانها بالدين الجديد.

### المهمة الثانية:

تثقيف أولئك الناس الذين دخلوا في الإسلام لأول مرة لأن العلم والوعى هما السند الأول الذي يشد عضد الدولة الإسلامية، ولذلك كان لابد من نشر الوعي الديني بين كافة الناس في دولة الإسلام حتى لا يبقى مسلم فيها إلا وهو يعرف أهداف الإسلام، وطرق الوصول إلى هذه الأهداف، وهو ما أقيمت الدولة الإسلامية من أجله أما تنظيم الإدارة فإنه أمر لابد منه في كل دولة، لأنه ما ساءت الإدارة في دولة من الدول إلا انتشر الظلم، وما انتشر الظلم في أمة إلا شحنت النفوس حقداً على الحاكم، وعمل الناس في الخفاء أو في الظاهر على إزالته<sup>(٢)</sup>، ولذلك اتسمت السنة التاسعة والعاشرة من

(١) ابتداء قدوم وفود القبائل العربية على رسول الله ﷺ في رجب سنة خمس من الهجرة وكان أول وفد قدم على النبي ﷺ في ذلك الوقت هو وفد «مزينة» (الطبقات الكبرى لابن سعد: موضوع: ذكر وفادات العرب على رسول الله ﷺ ٢٢٢/١) وقال ابن إسحاق: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه. قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة: أن ذلك في سنة تسع وأنها كانت تسمى سنة الوفود (السيرة النبوية لابن هشام. موضوع: ذكر سنة تسع، وتسميتها سنة الوفود ونزول سورة الفتح ١٨٥/٤) وقال ابن سيد الناس: ابتداء قدوم الوفود في هذنة الحديبية قبل غزوة خيبر حيث قدم وفد رفاعة الجزامي واستمر حتى منتصف شهر المحرم سنة إحدى عشرة حيث قدم وفد «النخع» وهم آخر وفد قدم على النبي ﷺ (ينظر كتاب السيرة النبوية المسمى: عيون الأثر في فنون الغازي والسير تأليف محمد ابن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس ٢٩٩/٢ - ٣٢٠ طبعة القدسي سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦) وللجمع بين الأقوال: أقول إن قدوم الوفود ابتداء من السنة الخامسة الهجرية ولكن الوفادات كانت على فترات متباعدة إلى أن جاءت السنة التاسعة من الهجرة فتتابعت الوفود حتى سميت هذه السنة بسنة الوفود، وبعد ذلك استمر قدوم الوفود إلى منتصف السنة الحادية عشرة.

(٢) قراءة سياسية للسيرة النبوية د/ محمد رواس قلعه جي ص ٢٩٨، ٣٠٢ بتصرف.

الهجرة بإرسال الكثير من الأمراء والمعلمين إلى أطراف الدولة الإسلامية، وكان من الذين أرسلهم النبي ﷺ معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما.

وبعث خالد بن الوليد رضي الله عنه في شهر ربيع الآخر، أو جمادى الأولى سنة عشر من الهجرة إلى بني الحارث بن كعب بن نجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم <sup>(١)</sup>.

وبعث رسول الله ﷺ المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة إلى صنعاء...، وبعث زياد ابن لبيد <sup>(٢)</sup>، أخا بني بياضة الأنصاري إلى حضرموت وعلى صدقاتها، وبعث عدى بن حاتم <sup>(٣)</sup>، على طيئ وصدقاتها، وعلى بني أسد، وبعث مالك بن نويرة <sup>(٤)</sup>، - قال ابن هشام: اليربوعي، - «على صدقات بني حنظلة، وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم، فبعث الزبرقان <sup>(٥)</sup> بن بدر على ناحية منها، وقيس بن عاصم <sup>(٦)</sup>، على ناحية، وكان

(١) السيرة النبوية لابن هشام: موضوع: إسلام بني الحارث بن كعب على يد خالد بن الوليد لما سار إليهم ٢١٥/٤ - والبداية والنهاية لابن كثير «باب بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ٩٤/٦.

(٢) هو الصحابي الجليل: زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر الأنصاري البياضي، شهد العقبة وبدرا وكان عامل النبي ﷺ على حضرموت وولاه أبا بكر قتال أهل الردة من كندة مات سنة إحدى وأربعين [الإصابة ٥٨٦/٢].  
(٣) هو الصحابي الجليل عدى بن حاتم عبد الله بن سعد بن الحشر بن امرئ القيس بن عدى الطائي ولد الجواد المشهور أبو طريف أسلم في سنة تسع وكان نصرانيا قبل ذلك وثبت على إسلامه في الردة وأحضر صدقه قومه إلى أبي بكر وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة، وشهد صفين مع علي ومات سنة ثمان وستين وهو ابن مائة وعشرين سنة [الإصابة ٤٦٩/٤].

(٤) مالك بن نويرة بن حمزة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع التميمي اليربوعي. استعمله النبي ﷺ على صدقات قومه فلما بلغته وفاة النبي ﷺ أمسك الصدقة وفرقها في قومه فقتله ضرار بن الأزور الأسدي صبيا بأمر خالد بن الوليد بعد فراغه من قتال الردة [الإصابة ٧٥٤/٥].

(٥) الزبرقان بن بدر بن امرئ القيس بن خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن مر التميمي السعدي وولاه رسول الله ﷺ على صدقات قومه فأدھا في الردة إلى أبي بكر فأقره ثم إلى عمر، عاش إلى خلافة معاوية ووفد على عبد الملك وقاد إليه خمسة وعشرين فرسا، ونسب كل فرس إلى أبائه وأمهاته، وحلف على كل فرس يمينا غير التي حلف بها على غيرها فقال عبد الملك: عجبى من اختلاف أيمانهم أشد من عجبى بمعرفته بأنساب الخيل [الإصابة ٥٥٢/٢].

(٦) هو الصحابي الجليل: قيس بن عاصم بن سنان بن منقر بن خالد بن عبيد بن مقاعس واسمه الحارث بن عمرو ابن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي المنقرى يكنى أبا على قدم على النبي ﷺ في وفد بني تميم فأسلم فقال رسول الله ﷺ «وهذا سيد أهل الوبر» وكان سيّدًا جوادا نزل البصرة ومات بها [الإصابة ٤٨/٥].



قد بعث العلاء بن الحضرمي<sup>(١)</sup>، على البحرين، وبعث على بن أبي طالب رضوان الله عليه إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم ويقدم عليه بجزيته<sup>(٢)</sup>.  
وبذلك كان رسول الله ﷺ قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان، وغطى معظم أنحاء الجزيرة العربية بالأمراء والدعاة.



(١) هو الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي. وكان اسمه عبد الله بن عماد بن أكبر بن ربيعة بن مالك بن عوف الحضرمي استعمله النبي ﷺ على البحرين وأقره أبو بكر وعمر مات سنة أربع عشرة وقيل سنة إحدى وعشرين [الإصابة ٤/ ٥٤١].

(٢) السيرة النبوية لابن هشام موضوع: خروج الأمراء والعمال على الصدقات ٤/ ٢٢٣.



## الفصل الثالث السفارة

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - الحاجة إلى السفارة.
- ٢ - بعض التقارير التي كان يقدمها السفراء.
- ٣ - مصعب بن عمير سفير جدير بالتعيين.

## الفصل الثالث

### السفارة

#### ١ - الحاجة إلى السفارة:

كان النبي ﷺ يرسل سفراءه إلى الأمصار ليعلموا الناس شرائع الإسلام ويفقهوهم في الدين، ويقرؤهم القرآن، ويؤموهم في الصلاة، ويخرجوهم من موروثات ألفوها إلى نظام جديد يشمل الحاضر والمستقبل ويعم القول والعمل، والخلق والسلوك.

وكان على رأس هؤلاء السفراء مصعب بن عمير أول سفير في الإسلام وهو سفير الإسلام إلى دار الهجرة أرسله النبي ﷺ مع وفد الأنصار بعد بيعة العقبة الأولى، لكي يعلمهم شعائر الإسلام ويشرح لهم تعاليمه. قال ابن إسحاق (فلما انصرف عنه القوم - أي بعد بيعة العقبة الأولى - بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي وأمره أن يقرءهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة: مصعب، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس بن أبي أمامة<sup>(١)</sup> اهـ.

والحقيقة أن مصعب بن عمير كانت له مهام سياسية سرية بجانب ما تقدم وهي: أولاً: الاطلاع بكل دقة على مجتمع المدينة المنورة وأحواله، ومعرفة حقيقة شعوره تجاه الدعوة والداعى، والتبذل الذي يطرأ على هذا الشعور، ومعرفة الصديق والعدو، ومن المؤتلف من الناس ومن المختلف، والعوامل التي تؤثر في تلك المدينة ليعود فيعطى رسول الله ﷺ الصورة الواضحة الصادقة لهذه المدينة التي توجهت أنظار النبي ﷺ إليها لتكون قاعدة لإقامة دولة الإسلام فيها وليخرج النبي ﷺ

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة موضوع «العقبة الأولى ومصعب بن عمير» (السيرة النبوية لابن هشام ٤١/٢).

وذكره الطبري في تاريخه ٥٥٩/١ عن ابن إسحاق وذكره ابن حجر في الفتح ٢٤٧/٧.

بتقدير صحيح للموقف فيها ليتصرف بسرعة وبدقة عندما يحين وقت الرحيل إليها. ثانيًا: إعداد المؤمنين من أهل المدينة لقبول بند (النصرة) الذي طواه النبي ﷺ مؤقتًا<sup>(١)</sup>. والمعلوم أن سفير الإسلام الأول «مصعب بن عمير» نجح في إقناع أسيد ابن حضير<sup>(٢)</sup>، وسعد بن معاذ بالدخول في الإسلام وهما سيذا قومهما في المدينة في ذلك الوقت ولما أسلما دخل قومهما في دين الله أفواجًا فإن سعد بن معاذ لما دخل في الإسلام أخذ حربته وانصرف إلى قومه وهم جلوس في ناديتهم وذلك بعد أن اغتسل وتطهر ونطق بالشهادتين - ثم أقبل على قومه قائلًا: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم قالوا: سيدنا (وأوصلنا) وأفضلنا رأيًا، وأيمنا نقيية<sup>(٣)</sup> قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: - أي أسعد ومصعب - فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة: فأقام عنده يدعوا الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون<sup>(٤)</sup>.

وهكذا نجح سفير الإسلام إلى دار الهجرة في إقناع الناس بالدخول في دين الإسلام، واستطاع أن يفتح أفئدة أهل المدينة بزهده وترفعه عن الدنيا وإخلاصه ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة فدخل أهل المدينة في دين الله تعالى أفواجًا.

(١) قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ٨٩ بتصرف.

(٢) هو الصحابي الجليل: أسيد بن الحضير بن سماك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل الأنصاري الأشهل كان من السابقين إلى الإسلام وهو أحد النقباء ليلة العقبة وكان ممن ثبت يوم أحد ومات ﷺ سنة عشرين [الإصابة ٨٣/١].

(٣) ميمون النقيية: أي منجح الفعال، مظفر المطالب والنقيية: النفس. وقيل الطبيعة والخلقة [النهاية «نقب» ٥/ ١٠٢].

(٤) ذكره ابن إسحاق في السيرة: موضوع إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير هههههههه (السيرة النبوية لابن هشام) ٤٦/٢ وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة باب ذكر العقبة الأولى وما جاء في بيعة من حضر الموسم من الأنصار رسول الله ﷺ على الإسلام ٤٣٧/٢.

### سفير النبي ﷺ ينجح في مهمته السياسية باقتدار:

كان مصعب بن عمير موفقاً غاية التوفيق في أداء مهمته على أكمل وجه فقد أداها بكل نجاح واقتدار مما كان له عظيم الأثر في تحقيق الهدف المنشود من إرساله.

«فقد رحل مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة مع الرهط الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإيمان، ومكث فيها عاماً كاملاً يصلى بالمسلمين إماماً، ويدعو الناس برفق وأناة إلى التوحيد ويعمق الإيمان في قلوب المؤمنين، ويغرس فيهم الفدائية، ويبين أن الإيمان إن لم تكتنفه سلطة تحميه فلن يستطيع أن يؤدي رسالته الإصلاحية في الحياة، وأن عليهم أن ينالوا شرف حماية الإيمان الذي حملوه في صدورهم، وحماية كل داع إليه، وبعد عام - وفي موسم الحج - راجع مصعب بن عمير إلى مكة المكرمة مع من خرج من أهل المدينة المنورة إلى مكة، ولقى مصعب رسول الله ﷺ ليلاً على انفراد ووضع بين يدي رسول الله ﷺ جميع المعلومات التي حصل عليها عن المدينة المنورة وأهلها، وأعلم رسول الله ﷺ أن المؤمنين من أهل المدينة أصبحوا على قناعة تامة بوجوب حماية رسول الله ونصرته.

وعلى ضوء هذه المعلومات التي وضعها مصعب بين يدي رسول الله ﷺ استطاع عليه الصلاة والسلام أن يخرج بتقدير دقيق للموقف<sup>(١)</sup>.

وأكثر شيء يدل على نجاح مهمة مصعب بن عمير هو دخول أهل المدينة في دين الله أفواجاً بعد أن عرض عليهم مصعب الإسلام وأقنعهم به وكذلك رجوع مصعب إلى مكة في موسم الحج بعد سنة من إرساله ومعه وفد من الأنصار يتكون من ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين جاءوا لمبايعة النبي ﷺ.

### ٢- بعض التقارير التي كان يقدمها السفراء:

قدم مصعب بن عمير بعض التقارير عن حالة سكان المدينة المنورة للنبي ﷺ فتعرف النبي ﷺ منها على أحوال البلاد والعباد:

(١) قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ٨٩.

وكانت جملة هذه التقارير أنه يتواجد في المدينة المنورة ثلاث فئات:

الفئة الأولى: العرب من أهل المدينة، وهذه الفئة قد استحكمت بينها العداوة وأكلتها الحروب.

الفئة الثانية: اليهود، وهي فئة غير مأمونة، قد امتلأت نفوسها حقدا على الدين الجديد - الإسلام - وهي تحاول إجهاضه بأساليبها الدنيئة، ولا أمل في اجتذاب هذه الفئة إلى حظيرة الدولة الإسلامية وإخلاص الولاء لها.

الفئة الثالثة: بعض المهاجرين الذين قدموا إلى المدينة المنورة قبل هجرة النبي ﷺ إليها وهي فئة أشد ما تكون ولاء للدولة التي ستقوم في المدينة ولكن الفقر قد خيم على هذه الفئة لأنها تركت كل ما تملك في مكة وتجمعت في المدينة لتساعد في بناء صرح الدولة الإسلامية على أرض المدينة المنورة.

وعلى ضوء هذه التقديرات:

رأى رسول الله ﷺ أن أمر الدولة الإسلامية التي ستقام في المدينة المنورة لن يستقيم مع اليهود إلا بالقوة لأنهم فئة حاكمة موتورة - ورأى أن قريشاً لن يروقها قيام الدولة الإسلامية في المدينة، علماً بأنه من أهداف الدولة الإسلامية محو الشرك واجتثاث جذوره، وهذا سيؤدي إلى الصدام المسلح بينها وبين السلطات التي تحمي الشرك. وبناء على هذا التقدير للموقف اتخذ رسول الله ﷺ قراراً على درجة من الخطورة والسرية وهذا القرار وإن كان قد ألمح إليه إلا أنه لم يفصح عنه في يوم من الأيام لئلا يتفش أمره ويتعذر تنفيذه، ويتلخص هذا القرار فيما يلي:

١ - إنجاح عملية الهجرة وهي تعنى تجميع القوة المسلمة في الأرض التي ستقام فيها دولة الإسلام.

٢ - معالجة الوضع الداخلي في المدينة المنورة للعرب الأنصار، ولل يهود، وللمهاجرين.

٣ - مجاهدة أعداء الدولة الإسلامية بعد استكمال الاستعداد لهذا الأمر الهام<sup>(١)</sup>.

(١) قراءة سياسية للسيرة النبوية ص ٨٩ بتصرف.

## ٣- مصعب بن عمير سفير جدير بالتعيين:

لقد كان مصعب بن عمير جديراً باختيار رسول الله ﷺ له ليكون سفير الإسلام إلى المدينة المنورة وكان لحكمته وفطنته المنبعثة من إيمانه القوى وقلبه الذكي الأثر البالغ في نشر الإسلام ودخوله بيوت الأنصار فكان عمله فتحاً لهذا البلد، فتح الله به القلوب التي هداها إلى الإيمان بهذا الدين الجديد وهياً الله به هذا البلد وأهله لنصرة رسوله واستقبال المهاجرين من المسلمين استقبالا اطمأنت به نفوس المهاجرين وعرفوا أنه قد صار لهم أخوة ينصرونهم، ويؤثرونهم على أنفسهم ويقفون معهم صفاء واحداً وقلبا واحداً فصاروا ككتيبة مؤمنة مجاهدة نسيجها المهاجرون والأنصار، وبدأت دولة الإسلام في المدينة المنورة بعد هجرة المؤمنين من أهل مكة ولحاق الرسول وصاحبه أبي بكر بهم وتشكلت معالم هذه الدولة بما عقده رسول الله ﷺ من عقود ومعاهدات ومن مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وقام مجتمع المسلمين على إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ومحبة رسوله والجهاد في سبيله ونصر الله المؤمنين وأعز جنده وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجح سفراء النبي ﷺ في تغيير مجرى حياة البلاد التي أرسلوا إليها، فأقاموا شعائر الدين، وحلّلوا الحلال، وحرّموا الحرام، ودعوا إلى دين الإسلام بالحكمة فدخل الناس في دين الله أفواجا.

وقد تكلمت عن مصعب بن عمير كواحد من السفراء وآثرت الحديث عنه بالذات لما كان له من عظيم الأثر في نشر دين الإسلام في المدينة المنورة وتهيئتها لتكون داراً للهجرة، ولأن سفارته مشهورة في كتب التاريخ والسير فضلاً عن أنه أول سفير في الإسلام.

(١) من مقال للدكتور عبد الرحمن العدوي في مجلة منبر الإسلام ص ٦٨ بتصرف. عدد المحرم سنة ١٤٢٠ هـ مايو لسنة ١٩٩٩ م.



#### الفصل الرابع

### ضبط الأسواق وما يتعلق بها من الموازين والمكاييل، والتسعير، والرقابة على عملية البيع والشراء

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - بناء الاقتصاد الإسلامي.
- ٢ - النبي ﷺ يقوم بتنظيم الأسواق وإدارتها (شروط البياعات الإسلامية).
- ٣ - تحريم بياعات الغرر والجهالة.
- ٤ - تحريم الخداع في البيع والشراء.
- ٥ - السماح في البيع والشراء.
- ٦ - الرقابة على الأسواق.
- ٧ - المكاييل والموازين.
- ٨ - التسعير ورأى الشرع في ذلك.
- ٩ - الرقابة على عملية البيع والشراء.
- ١٠ - سياسة النبي ﷺ أثناء الحصار الاقتصادي والمقاطعات.

### الفصل الرابع

#### ضبط الأسواق وما يتعلق بها من الموازين والمكاييل

#### والتسعير والرقابة على عملية البيع والشراء

##### ١ - بناء الاقتصاد الإسلامي:

حينما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وجد اليهود مسيطرين على اقتصادها، وكانت سوق بنى قينقاع في قلب المدينة هي السوق المقصودة والمعتمدة لدى سكان المدينة بالرغم من تحكم اليهود في بيعات الناس واحتكارهم للسلع واستغلال حاجة الناس لذلك فسرعان ما فكر النبي ﷺ في إنهاء هذا الوضع وأقام سوقاً إسلامية في التعامل وفي الإدارة، فأقبل الناس على السوق الإسلامية التي نظمها النبي ﷺ وأحكم إدارتها وهجروا سوق يهود بنى قينقاع، وبذلك استطاع النبي ﷺ أن يسيطر على اقتصاد المدينة ويتحكم فيه وأن يضرب اليهود في أدق اختصاصاتهم، ويجعلهم يتقهقرون في ذلك.

ولما فرغ النبي ﷺ من إقامة السوق الإسلامية أخبر المسلمين أنه لا خراج عليهم في هذه السوق يقول الإمام ابن ماجه حدثنا إبراهيم بن المنذر الجزامي ثنا إسحاق بن إبراهيم بن سعيد حدثني صفوان بن سليم حدثني محمد وعلى أنبا الحسن ابن أبي الحسن البراد أن الزبير بن المنذر بن أبي أسيد الساعدي حدثهما أن أباه المنذر حدثه عن أبي أسيد أن أبا أسيد حدثه أن رسول الله ﷺ ذهب إلى سوق النبط<sup>(١)</sup>، فنظر إليه، فقال: «ليس هذا لكم بسوق» ثم ذهب إلى سوق فنظر إليه، فقال: «ليس هذا لكم بسوق» ثم رجع إلى هذا السوق فطاف فيه، ثم قال: «هذا سوقكم فلا ينتقصن<sup>(٢)</sup>، ولا يضربن عليه خراج<sup>(٣)</sup>»،<sup>(٤)</sup>.

(١) اسم موضع لجبل معروف كانوا ينزلون بالبطائح بين العراقين [النهاية «نبط» ٩/٥ بتصرف].

(٢) أى لا يبطلن هذا السوق بل يدوم لكم [النهاية «نقص» ١٠٦/٥ بتصرف].

(٣) بأن يقال كل من يبيع ويشترى فعليه كذا [النهاية «ضرب» ٧٩/٣ بتصرف وينظر تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على سنن ابن ماجه ٢/٢٩٤].

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات ٤٠ باب الأسواق ودخولها ٢/٢٩٤، ٢٩٥، ٢٢٣٣ عن أبي أسيد وأخرجه بالفاظ متقاربة البلاذرى في فتوح البلاد: ما أقطع من أرض المدينة ص ٣٤ عن أم المؤمنين ميمونة والكتاب طبعة دار ابن خلدون بالإسكندرية.

## ٢- النبي ﷺ يقوم بتنظيم الأسواق وإدارتها (شروط البياعات الإسلامية):

أقام النبي ﷺ الاقتصاد الإسلامي على دعائم قوية وأسس متينة حتى لا يعتريه الضعف أو السقوط في يوم من الأيام، وقام النبي ﷺ بإدارة الأسواق الإسلامية على الطريق المستقيم والمنهاج القويم فأبطل بياعات الجاهلية ونظمها يقول الإمام البخاري رحمه الله حدثنا سعيد بن عفير قال حدثني الليث قال حدثني عقيل عن ابن شهاب قال أخبرني عامر بن سعد أن أبا سعيد رضي الله عنه أخبره «أن رسول الله ﷺ نهى عن المنابذة، وهي طرح الرجل ثوبه بالبيع إلى رجل قبل أن يقلبه أو ينظر إليه، ونهى عن الملامسة، والملامسة: لمس الثوب لا ينظر إليه»<sup>(١)</sup>

ومن البيوع التي أبطلها النبي ﷺ بيع جبل الحبل:

يقول الإمام البخاري رحمه الله حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع جبل الحبل، وكان بيعا يتبايعه أهل الجاهلية: كان الرجل يبتاع الجذور إلى أن تنتج الناقة ثم تنتج التي في بطنها»<sup>(٢)</sup>.

## ٣- تحريم بياعات الغرر والجهالة:

ومن البيوع التي أبطلها النبي ﷺ وحرّمها في سوق المسلمين بيع

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع ٦٢ باب بيع الملامسة ٤/٤٣٨ ح ٢١٤٤ عن أبي سعيد الخدري ومسلم في كتاب البيوع ١- باب إبطال بيع الملامسة والمنابذة ٥/٤١٣ ح ١٥١١ عن أبي هريرة والترمذي في كتاب البيوع ٦٩ باب ما جاء في المنابذة والملامسة ٤/٤٤٣ ح ١٣١٠ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب البيوع باب بيع الملامسة ٧/٢٥٩ وابن ماجه في كتاب التجارات ١٢ باب ما جاء في النهي عن الملامسة والمنابذة ٢/٢٧٢ ح ٢١٦٩ عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع ٦١ باب بيع الغرر وجبل الحبل ٤/٤٣٧ ح ٢١٤٣ ومسلم في كتاب البيوع ٣ باب تحريم جبل الحبل ٥/٤١٧ ح ١٥١٤- والترمذي في كتاب البيوع ١٦ باب ما جاء في بيع جبل الحبل ٤/٣٤٣ ح ١٢٢٩ وقال حسن صحيح والنسائي في كتاب البيع باب بيع جبل الحبل ٧/٢٩٣ والبيهقي في كتاب البيوع: ٨٥ باب النهي عن بيع جبل الحبل ٥/٣٤١ ح ١٠٨٦١ جميعهم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

الحصاة وبيع الغرر يقول الإمام مسلم رحمته الله تعالى: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن إدريس ويحيى بن سعيد وأبو أسامة عن عبيد الله ح وحدثني زهير بن حرب (واللفظ له).

حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله. حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيع الحصاة، وعن بيع الغرر<sup>(١)</sup>،<sup>(٢)</sup>.

معنى «بيع الحصاة» يقول الإمام النووي رحمته الله تعالى «أما بيع الحصاة ففيه تأويلات ثلاث: أحدها: أن يقول بعتك من هذه الأثواب ما وقعت عليه الحصاة التي أرميها، أو بعتك من هذه الأرض من هنا إلى ما انتهت إليه هذه الحصاة، والثاني أن يقول: بعتك على أنك بالخيار إلى أن أرمى بهذه الحصاة والثالث: أن يعجلا نفس الرمي بالحصاة بيعا فيقول إذا رميت هذه الثوب بالحصاة فهو مبيع منك بكذا.

وأما النهي عن بيع الغرر فهو أصل عظيم من أصول البيوع فهو بيع باطل ويدخل فيه مسائل كثيرة غير منحصرة كبيع الآبق والمعدوم والمجهول، وما لا يقدر على تسليمه، وما لم يتم ملك البائع عليه، وبيع السمك في الماء الكثير، واللبن في الضرع، وبيع الحمل في البطن، وبيع بعض الصبرة منها وبيع ثوب من أثواب، وشاة من شياة، ونظائر ذلك، وكل هذا بيعه باطل لأنه غرر من غير حاجة<sup>(٣)</sup>.

(١) بيع الغرر: هو ما كان له ظاهر يغر المشتري وباطن مجهول [النهاية «غرر» ٣/ ٣٥٥].

(٢) وأخرجه مسلم في كتاب البيوع ٢ باب بطلان بيع الحصاة والبيع الذي فيه غرر ٥/ ٤١٥ ح ١٥١٣ وأبو داود في كتاب البيوع ٢٥ باب في بيع الغرر ٩/ ١٨٠ ح ٣٣٧٤ وأخرجه الترمذي في كتاب البيوع ١٧ باب ما جاء في كراهية بيع الغرر ٤/ ٣٤٤ ح ١٢٣٠ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح والنسائي في كتاب البيوع باب بيع الحصاة ٧/ ٢٦٢. وابن ماجه في كتاب التجارات ٢٣ باب النهي عن بيع الحصاة وبيع الغرر ٢/ ٢٨٠ ح ٢١٩٤ والدارمي في كتاب البيع ٢٩ باب في بيع الحصاة، ٢٠ باب في النهي عن بيع الغرر ٢/ ١٢٤، ١٢١ ح ٢٥٥٤، ٢٥٦٣ والإمام أحمد في المسند ٢/ ٤١٦ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب البيوع ٥ باب من قال لا يجوز بيع العين الغائبة ٥/ ٢٦٦ ح ١٠٤١٧ جميعهم عن أبي هريرة.

(٣) شرح النووي على مسلم بتصرف يسير ٥/ ٤١٥، ٤١٦.

## ٤ - تحريم الخداع في البيع والشراء:

كما نهى ﷺ عن كل أنواع الخداع في البيع، يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن رجلاً ذكر للنبي ﷺ أنه يخدع في البيوع، فقال: إذا بايعت فقل لا خلافة»<sup>(١)</sup>،<sup>(٢)</sup>. ونهى النبي ﷺ أيضاً عن تغيير الناس وانتهاز الفرص في البيع. يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا الصلت بن محمد حدثنا عبد الواحد حدثنا معمر عن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «لا تلقوا<sup>(٣)</sup>، الركبان، ولا يبيع حاضر<sup>(٤)</sup>، لباد» قال: فقلت لابن عباس: ما قوله «لا يبيع حاضر لباد قال: لا يكون له سمسار»<sup>(٥)</sup>،<sup>(٦)</sup>.

(١) يعنى خداع [النهاية «خلب» ٥٨/٢].

(٢) أخرجه البخارى في كتاب البيوع ٤٨ باب ما يكره من الخداع في البيع ٤/٤١٣ ح ٢١١٧ ومسلم في كتاب البيوع ١٢ باب من يخدع في البيع ٥/٤٣٨ ح ١٥٣٣ - وأبو داود في كتاب الإجارة ٣٢ باب في الرجل يقول عند البيع لا خلافة ٩/٣١٣ ح ٣٤٩٧ جميعهم عن ابن عمر. والترمذى في كتاب البيوع ٢٨ باب ما جاء فيمن يخدع في البيع ٤/٣٧٠ ح ١٢٥٠ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. عن أنس رضي الله عنه والبيهقى في السنن الكبرى كتاب البيوع ٩ باب الدليل على أنه لا يجوز شرط الخيار في البيع أكثر من ثلاثة أيام ٥/٢٧٣ ح ١٠٤٥٧ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) معنى «تلقى الركبان» هو أن يستقبل الحضري البدوى قبل وصوله إلى البلد، ويخبره بكساد ما معه كذبا، ليشتري منه سلعته بالوكس وأقل من ثمن المثل، وذلك تغيير محرم [النهاية «لقا» ٤/٢٦٦].

(٤) الحاضر: المقيم في المدن والقرى. والبادى: المقيم في البادية. والمنهى عنه أن يأتى البدوى البلدة ومعه قوت يبغي التسارع إلى بيعه فيقول له الحضري: اتركه عندى لأعلى في بيعه فهذا الصنيع محرم لما فيه من الإضرار بالغير [النهاية «حضر» ١/٣٩٨].

(٥) السمسار: هو القيم بالأمر الحافظ له، وهو في البيع اسم للذى يدخل بين البائع والمشتري متوسطا لإمضاء البيع والسمسرة البيع والشراء [النهاية «سمسر» ٢/٤٠٠].

(٦) أخرجه البخارى في كتاب البيوع ٦٨ باب هل يبيع حاضر لباد بغير أجر (/ ٤٥٤ ح ٢١٥٨ - ومسلم في كتاب البيوع ٦ باب تحريم بيع الحاضر للبادى ٥/٤٢٤ ح ١٥٢١ - وأبو داود في كتاب الإجارة ١١ باب في النهى أن يبيع حاضر لباد ٩/٢٣٩ ح ٣٤٣٦ جميعهم عن ابن عباس والترمذى في كتاب البيوع ١٣ باب ما جاء في بيع حاضر لباد ٤/٣٣٥ ح ١٢٢٢ عن أبي هريرة وقال: حسن صحيح، والنسائى في كتاب البيوع: باب يبيع الحاضر للبادى ٧/٢٥٦ عن أنس وابن ماجه في كتاب التجارات ١٥ باب النهى أن يبيع حاضر لباد ٢/٢٧٤ ح ٢١٧٥ والإمام أحمد في المسند ٢/٢٣٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه جميعاً.

وكانت للنبي ﷺ سياسة حكيمة ومقاصد عظيمة من وراء تنظيم الأسواق على هذا النحو، فقد قام بتحريم هذه البياعات فضلاً عن تحريمه للغرر والخداع في البيوع حتى لا يظلم الناس، ولا تحدث المنازعات التي تؤدي بحياة كثير من التجار المسلمين، وحتى لا يتكالب الناس على الدنيا من خلال جريهم وراء مكاسب الأسواق غير مبالين إن كان كسبهم حلالاً أم حراماً، ونظم الأسواق الإسلامية وأدارها على هذا النحو أيضاً حتى لا يستغل الضعفاء ومحدودي الدخل ولا يتحكم التجار في أرزاقهم.

#### ٥- السماح في البيع والشراء:

وكان النبي ﷺ بجانب ذلك يأمر بالسماحة في البيع والشراء، ويأمر بالرحمة ومراعاة ظروف الناس حتى تعم البركة ويعيش المسلمون في رغد من العيش، يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا علي بن عياش حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف قال حدثني محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»<sup>(١)</sup>

#### ٦- الرقابة على الأسواق:

كان النبي ﷺ يتخذ من الرجال من يعاونه في إدارة الأسواق وكانت له أنشطة عملية داخل هذه الأسواق، حيث إنه كان يمر في الأسواق ويراقب عملية البيع والشراء، وإذا رأى منكراً غيره، وإن شعر بظلم رفعه فور وقوعه بواسطة رجاله الذين كانوا يعاونونه في ذلك يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا أبو ضمرة حدثنا موسى بن عقبة عن نافع حدثنا ابن عمر «أنهم كانوا يشترون الطعام من الركبان على عهد النبي ﷺ فيبعث عليهم من يمنعهم أن يبيعوه حيث

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع ١٦ باب السهولة والسماحة في البيع والشراء ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف ٤/٣٧٥ ح ٢٧٦ وأخرجه بألفاظ متقاربة والترمذي في كتاب البيوع ٧٦ باب «بدون ترجمة» ٤/٤٥٤، ٤٥٥ ح ١٣١٩، ١٣٢٠ وقال: هذا حديث: غريب صحيح حسن من هذا الوجه. وابن ماجه في كتاب التجارات ٢٨ باب السماح في البيع ٢/٢٨٤ ح ٢٢٠٣. والبيهقي في السنن الكبرى كتاب البيوع ١٠٧ باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف ٥/٣٥٧ ح ١٠٩٧٨ جميعهم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

اشتروه حتى ينقلوه حيث يباع الطعام»<sup>(١)</sup>

#### ٧- المكايل والموازين:

وكان النبي ﷺ يضبط المكايل والموازين ويدقق في هذا الأمر كثيراً، ويأمر باستيفاء الكيل، ورجحان الوزن، ويهتم بآلات الوزن، وأواني الكيل، ولرؤية سياسية حكيمة وإدارة مدنية رشيدة، أمر النبي ﷺ أن يكون الميزان المعتمد في السوق الإسلامي هو ميزان أهل مكة، وأن يكون المكيال المعتمد هو مكيال أهل المدينة.

يقول الإمام أبو داود رحمه الله تعالى: حدثنا عثمان بن أبي شيبة أخبرنا ابن دكين أخبرنا سفيان عن حنظلة عن طاوس عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الوزن وزن أهل مكة والمكيال مكيال أهل المدينة»<sup>(٢)</sup>.

والحكمة من هذا التوجيه النبوي القويم أن أهل مكة أهل تجارات فعهدهم بالموازين وعلمهم بالأوزان أكثر، والمكيال المعتمد مكيال أهل المدينة، لأنهم أصحاب زراعات فهم أعلم بأحوال المكايل<sup>(٣)</sup>.

وكان النبي ﷺ يأمر برجحان الوزن في كل الأسواق يقول الإمام أبو داود رحمه الله تعالى حدثنا عبيد الله بن معاذ أخبرنا أبي أخبرنا سفيان عن سماك بن حرب أخبرنا (حدثني) سويد بن قيس جلبت أنا ومخرمة العبدى بذاً من هجر فأتينا به مكة فجاءنا رسول الله ﷺ يمشى فساومنا بسر اويل فبعناه وثم رجل يزن بالأجر، فقال رسول الله ﷺ «زن وأرجح»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع: ٤٩ باب ما ذكر في الأسواق ٤/١٩٤ ح ٢١٢٣. والبيهقي في السنن الكبرى:

كتاب البيوع ٩٤ باب النهي عن تلقى السلع ٥/٣٤٨ ح ١٠٩١٩ كلاهما عن ابن عمر.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع: ٨ باب قول النبي ﷺ المكيال مكيال المدينة ٩/١٤٦ ح ٣٣٣٨ والنسائي في

كتاب البيوع باب الرجحان في الوزن ٧/٢٨٤ وذكره الطحاوي في مشكل الآثار باب بيان مشكل ما روى عن

رسول الله ﷺ من قوله الوزن وزن أهل مكة والمكيال مكيال أهل المدينة عن ابن عمر ٢/٩٩ والطبراني في

المعجم الكبير ١٢/٣٩٣ رقم ١٣٤٤٩ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب البيوع ١٧ باب أصل الوزن والكيل

بالحجاز ٦/٣١ ح ١١١٥٩ جميعهم عن عبد الله بن عمر.

(٣) ينظر عون المعبود شرح سنن أبي داود ٩/١٤٦.

(٤) أخرجه أبو داود في البيوع ٧ باب في الرجحان في الوزن والوزن بالأجر ٩/١٤٤ ح ٣٣٣٤ والترمذي في كتاب =

وحينما انتقل النبي ﷺ إلى المدينة وأقام السوق الإسلامية بها، أمر بإصلاح أمر الموازين والمكاييل يقول الإمام ابن ماجه حدثنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم ومحمد بن عقييل ابن خويلد قالا: حدثنا علي بن الحسين بن واقد، حدثني أبي، حدثني يزيد النحوي أن عكرمة حدثه عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخصب الناس كيلا، فأنزل الله سبحانه ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾<sup>(١)</sup>، فأحسنوا الكيل بعد ذلك<sup>(٢)</sup>، ويقول الإمام النسائي: أخبرنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا خالد عن شعبة قال أخبرني محارب بن دثار عن جابر قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة دعا بميزان فوزن لي وزادني»<sup>(٣)</sup>

### ٨- التسعير ورأى الشرع في ذلك:

التسعير: هو وضع السعر على المتاع، وقال الطيبي رحمه الله السعر القيمة ليشيع البيع في الأسواق بها<sup>(٤)</sup>

ومعناه: بيع السلعة بثمن المثل مع ربح يقتضيه العرف من غير إضرار بالبائع ولا المشتري<sup>(٥)</sup>.

ولقد وقفت الشريعة في شأن التسعيرة موقفا حكيما، ففي حال الرخاء وتوفر

= البيوع: ٦٦ باب ما جاء في الرجحان في الوزن ٤/٤٣٩ ح ١٣٠٥ وقال: حديث سويد حديث حسن صحيح والنسائي في كتاب البيوع باب الرجحان في الوزن ٧/٢٨٤ - وابن ماجه في كتاب التجارات ٣٤ باب الرجحان في الوزن ٢/٢٩٠ ح ٢٢٢٠ والدارمي في كتاب البيوع ٤٧ باب الرجحان في الوزن ٢/١٣٢ ح ٢٥٨٥ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب البيوع ١٥٠ باب المعطى يرجح في الوزن والوزان يزن بالأجر ٦/٥٤ ح ١١١٦٩ جميعهم عن سويد بن قيس.

(١) [المطففين: ١].

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات ٣٥ باب التوفى في الكيل والوزن ٢/٢٩١ ح ٢٢٢٣ عن ابن عباس ولم أجده عند غيره.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب البيوع باب الزيادة في الوزن ٧/٢٨٣، ٢٨٤ عن جابر ﷺ.

(٤) ينظر كتاب عون المعبود شرح سنن أبي داود ٩/٢٥٠.

(٥) كتاب حماية المستهلك في الفقه الإسلامي للدكتور رمضان على السيد الشرنباوى ص ٦٣ طبعة مطبعة الأمانة بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ.



السلع تركت الشريعة تحديد الأسعار للعرض والطلب حسب ما يتوافق عليه الناس، أما في حالة الشدائد كالحروب والمجاعات وقلة المعروض، فإن الشرع يفرض التسعير حماية للمشتريين، ويحرم التخزين والاحتكار ونحوها مما يضيق على الناس معاشهم.

والمعلوم أن النبي ﷺ امتنع عن تسعير السلع حينما طلب منه ذلك وكان هذا الامتناع أمراً محموداً ورأياً سديداً للنبي ﷺ لأن التسعير فيه إضرار بأحد المتبايعين، ومع أنه ﷺ قد امتنع عن التسعير إلا أنه عالج مشكلة ارتفاع الأسعار التي تصل إلى حد الإضرار وقام بحماية المستهلك من خلال إزالة كل الأسباب التي تؤدي إلى ارتفاع الأسعار كتحرير استغلال الناس، وتحريم الاحتكار، وتلقى السلع قبل أن تجيء إلى السوق، وكأمر التجار بالإنصاف والشفقة على الخلق والنصيحة لهم.

يقول الإمام أبو داود رحمه الله تعالى: حدثنا عثمان بن أبي شيبة أخبرنا عفان أخبرنا حماد بن سلمة أخبرنا (أنبأنا) ثابت عن أنس بن مالك وقتادة وحميد عن أنس بن مالك قال: «قال الناس: يا رسول الله غلا السعر فسر لنا قال (فقال) رسول الله ﷺ: ((إن الله هو المسعر<sup>(١)</sup>)، القابض الباسط الرازق (الرزاق) وإنني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم ولا مال»<sup>(٢)</sup>.

وقد رأى النبي ﷺ أن التسعير تحكم في أموال الناس، وقد يكون مظلمة، وأنه مناف لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] فالتسعير فيه إلزام البائع والمشتري فكيف يحصل التراضي.

(١) إن الله هو المسعر: أي أنه هو الذي يرخص الأشياء ويغليها فلا اعتراض لأحد عليه ولذلك لا يجوز التسعير [النهاية ((سعر)) ٢/٣٦٨].

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الإجارة ١٥ باب التسعير ٩/٢٥٠ ح ٣٤٤٨ والترمذي في كتاب البيوع ٧٣ باب ما جاء في التسعير ٤/٤٤٨ ح ١٣١٤ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه في كتاب التجارات ٢٧ باب من كره أن يسعر ٢/٢٨٣ ح ٢٢٠٠ والإمام أحمد في المسند ح ٢٥/٣ وابن حبان كتاب البيوع باب التسعير والاحتكار ٧/٢١٥ ح ٤٩١٤ طبعة دار الكتب العلمية الأولى ١٤٠٧، ١٩٨٧ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب البيوع: ١٤٣ باب التسعير ٦/٢٩ ح ١١١٤٣ جميعهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وكانت للنبي ﷺ وجهة نظر عظيمة وسياسة حكيمة في أمر امتناعه عن التسعير، فإنه ﷺ رأى أن الناس مسلطون على أموالهم، فلهم مطلق الحرية في التصرف في هذه الأموال، والتسعير فيه حجر عليهم، والنبي ﷺ كان يراعى مصلحة المسلمين جميعاً بدون تفرقة بين بائع أو مشتر، فليس نظره في مصلحة المشتري برخص الثمن أولى من نظره في مصلحة البائع بتوفير الثمن<sup>(١)</sup>.

والمعلوم أن السلع تخضع لقانون العرض والطلب، فقد يحتاج الناس لسلعة من السلع في وقت من الأوقات ولا يحتاجونها في وقت آخر، وقد يحتاج أهل بلد إلى سلعة لا يحتاج إليها أهل بلد آخر فلو سعر النبي ﷺ هذه السلع لألزم الناس بهذا السعر، ومن تعداه بالنقص أو الزيادة يكون مخالفاً ويقع في دائرة الحرام، وقد تسعر السلعة بسعر غال مع شدة احتياج أهل البلد إليها فيكون هذا إضراراً بالمشتري، وقد تسعر سلعة بثمان زهيد في بلد لا يحتاج أهلها إليها فيكون هذا إضراراً بالبائع لأن ثمنها لا يبلغ قيمة تكاليفها، فلهذا وغيره امتنع النبي ﷺ عن التسعير، ووضع قوانين أخرى من شأنها أن تجعل الأسعار مستقرة دائماً ليس فيها ظلم أو إجحاف للمتبايعين كتحرير الاستغلال والاحتكار والتحكم في أرزاق الناس كما أسلفت من قبل، وبالإضافة إلى ما سبق يبدو أن النبي ﷺ امتنع عن التسعير حينما ارتفعت الأسعار واشتكى إليه الناس من ذلك، لأن حالة الغلاء كانت طبيعية، وذلك لقلة الشيء وكثرة الخلق، ولم تكن حالة الغلاء التي عمت أسواق المسلمين نتيجة فعل فاعل، من تلاعب التجار بالأسعار أو بالاحتكار، وظلم المستهلكين وتواطؤهم عليهم.

#### ٩- الرقابة على عملية البيع والشراء:

أدار النبي ﷺ الأسواق الإسلامية على أوفق وأحسن ما تكون الإدارة، فكان يمر في الأسواق، فينهى عن بيعات الجاهلية التي فيها ظلم للناس، وينهى عن الغش واستغلال الناس، ويبين الحلال والحرام، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكل ذلك ثابت في أحاديث نبوية شريفة لو ذكرتها لطال الكلام وقد اخترت من بين جملة الأحاديث النبوية الشريفة حديثاً رواه الإمام مسلم وغيره فيه دلالة قوية على أن

(١) ينظر كتاب عون المعبود ٢٥١/٩، وكتاب تحفه الأخوذى ٤٤٩/٤.

النبي ﷺ كان يتعهد الأسواق ويصلح ما يراه فاسدا فيها ويراقب عملية البيع والشراء بكل دقة واهتمام.

يقول الإمام مسلم رحمه الله تعالى: حدثني يحيى بن أيوب وقتيبة وابن حجر جميعا عن إسماعيل بن جعفر قال ابن أيوب: حدثنا إسماعيل قال: أخبرني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ مر على صبرة<sup>(١)</sup>، طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللا فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء<sup>(٢)</sup>، يا رسول الله قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني»<sup>(٣)</sup>.

ومما سبق تتجلى لنا حكمة النبي ﷺ وسياسته الرشيدة في بناء السوق الإسلامي وتنظيمها تنظيمًا محكمًا.

#### ١٠ - سياسة النبي ﷺ أثناء الحصار الاقتصادي والمقاطعات:

مشكلة الحصار الاقتصادي مشكلة قديمة جديدة يستخدمها أعداء الإسلام لإرغام المسلمين وإخضاعهم لما يريدون ولإرجاعهم عما يريدون.

ففي بدء المحرم سنة سبع من البعثة قام المشركون بمقاطعة رسول الله ﷺ اقتصاديًا في شعب بني هاشم واتفقوا بينهم على أن يكتبوا صحيفة يتعاقدون فيها على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة تقديسًا لها وتوكيدًا على أنفسهم واستمر الحصار ثلاث سنوات كادحة - أي إلى السنة العاشرة من البعثة النبوية - ولم تترك

(١) الصبرة: الطعام المجتمع كالكومة وجعها صبر [النهاية (صبر) ١٩/٣].

(٢) أصابته السماء: أي المطر [شرح النووي على مسلم ١/٣٨٦].

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ٤٣ باب قول النبي ﷺ «(من غشنا فليس منا)» ١/٣٨٥ ح ١٠٢ مكرر وأخرجه بالفاظ متقاربة: أبو داود في كتاب الإجارة ١٦ باب النهي عن الغش ٩/٢٥١ ح ٣٤٤٩ وأخرجه الترمذي في كتاب البيوع ٧٤ باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع ٤/٤٤٩ ح ١٣١٥ وقال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب التجارات ٣٦ باب النهي عن الغش ٢/٢٩١ ح ٢٢٤، والإمام أحمد في المسند ٣٨/٢ والبيهقي في كتاب البيوع ٥٩ باب ما جاء في التدليس وكتمان العيب بالمبيع ٥/٣٢٠ ح ١٠٧٣٣ وابن حبان في كتاب البيوع باب ذكر الزجر عن غش المسلمين بعضهم بعضًا في البيع والشراء ٧/٢٠٣، ٢٠٤ ح ٤٨٨٥ جميعهم عن أبي هريرة.

للمسلمين سلعة تتسلل إلى أيديهم أو طعام يدخل بيوتهم وضيق الحصار على المسلمين وانقطع عنهم العون وقل الغذاء حتى بلغ بهم الجهد أقصاه. وجاعوا جوعاً شديداً حتى كان يسمع بكاء أطفالهم من وراء الشعب، وضاق الأمر حتى أكل الصحابة أوراق الشجر على قلته فتقرحت أشداقهم وكان الواحد منهم يضع كما تضع الشاة. ذكر السهيلي رحمته الله صوراً من آلام الصحابة فقال وكان فيهم سعد بن أبي وقاص، روى أنه قال: لقد جعت حتى أنى وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعت في فمي وبلعته وما أدري ما هو إلى الآن وفي رواية: أن سعداً قال: خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقة تحت البول فإذا قطعة من جلد بعير يا بسة فأخذتها وغسلتها ثم أحرقتها ثم رصفقتها<sup>(١)</sup>، وسفقتها بالماء فقويت بها ثلاثة<sup>(٢)</sup>.

والمعلوم أن النبي ﷺ تعامل مع هذا الموقف بكل روية وحكمة فأمر الصحابة بالهجرة إلى الحبشة أثناء الحصار<sup>(٣)</sup>، ولعل أعظم سياسة سلكها النبي ﷺ هو ومن معه رحمة بهم من التعذيب والمقاطعة في ذلك الموقف هي سياسة الثبات والتمسك بالمبادئ والاعتصام والصبر والذي صبرهم على ذلك هو شدة الإيمان بالله تعالى وإيثار الآخرة على الدنيا، وهوان الدنيا عندهم بجانب مرضاة الله تعالى، فلم يشذ منهم واحد ويخرج من الشعب المحاصر ويرجع إلى المشركين وينزل على رغباتهم ويعود لدينهم رغبة في الطعام وإنما كان المسلمون يداً واحدة مترابطين فأظهروا للمشركين اعتصاماً وقوة وأصبح للمسلمين في قلوب المشركين هبة ورهبة وأظهروا للمشركين أن أرواحهم وأولادهم تهون عليهم من أجل دين الإسلام وبفضل إيمان المسلمين بربهم وشدة تمسكهم بدينهم في أخرج اللحظات وأشد الأوقات أيد الله للمسلمين رجالاً<sup>(٤)</sup>، من المشركين قاموا بإنهاء هذا الحصار الظالم

(١) رصفقتها: شويتها على حجارة محماة على النار (النهاية «رصف») ٢/ ٢٣١ بتصرف.

(٢) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام تأليف الفقيه المحدث أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الحسن الخثعمي السهيلي ١٧٢/ ٢ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.

(٣) فقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٨٦ نقلاً عن رواية موسى بن عقبة.

(٤) منهم هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة والمطعم بن عدي (السيرة النبوية لابن هشام موضوع: حديث نقض صحيفة قريش ١/ ٣٠٦).

وسلط الله الأرضة<sup>(١)</sup>، على الصحيفة الظالمة فأكلتها وما وجدت فيها اسما لله إلا أبقتة وأكلت ما فيها من القطيعة والظلم والبهتان ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وخرج المسلمون من هذه المحنة على قساوتها وشدتها أقوى عزيمة وأعظم صبرا وأشد تمسكا بمبادئ الإسلام وتعلموا من ذلك كيف يستمرون في ثبات على طريق الهدى والرشاد والتقوى وعلى محاربة الشرك ومطاردته والقضاء عليه أينما كان أيقن، المسلمون من يومها أن الخزائن بيد الله وتحت مشيئته قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وأن المشركين ليست لهم السيطرة على أرزاق الناس قال تعالى ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَصِيطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧] وفي السنة التاسعة من الهجرة أمر الله المؤمنين أن يمنعوا المشركين من الحج بعد هذا العام قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. يقول الإمام البخاري رحمه الله حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث قال ابن شهاب حدثني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة أخبره ((أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه في الحجة التي أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذن في الناس أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان<sup>(٢)</sup>)).

ولما ورد هذا النهي قال الناس لتقطع الأسواق ولتهلك التجارة ليذهبن عنا ما كنا نصيب من فيها من المرافق، فلما خاف بعض المسلمين الفقر ظنا منهم أن مقاطعة المشركين سوف تهلك تجارتهم وتقلل مكاسبهم وتفقرهم أخبرهم الله أن الأموال بيده والغنى والفقر بمشيئته سبحانه فقال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

(١) السيرة النبوية لابن هشام موضوع: نقض صحيفة قريش ٣٠٦/١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحج ٦٧ باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك ٥٨٩/٣ ح ١٦٢٢ عن أبي

هريرة ومسلم في كتاب الحج ٧٨ باب لا يحج مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ١٢٦/٥ ح ١٣٤٧ عن أبي

هريرة والترمذي في كتاب التفسير باب معنى سورة التوبة ٤١٢/٨ ح ٣٠٩١ عن ابن عباس وقال أبو عيسى

هذا حديث حسن غريب والدارمي في كتاب المناسك ٧٤ باب لا يطوف بالبيت عريان ٥٢٧/١ ح ١٩١٩ عن

علي رضي الله عنه في علي والإمام أحمد في المسند ٣٩٩/٢ عن أبي هريرة.



## الفصل الخامس

### القضاء وإقامة الحدود

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - أهمية القضاء العادل في حياة الأمة واستقامتها.
- ٢ - بعض مبادئ وآداب القضاء التي وضعها النبي ﷺ .  
وتشتمل على ما يأتي:
  - أ- وجوب إزالة الشبه ودرء الحدود بالشبهات.
  - ب- إقامة الحق والعدل بين كل طبقات المجتمع.
  - ج- تحذير المتخاصمين من رفع القضايا الظالمة.
  - د- القضاء حالة الغضب.
  - هـ- التحذير من الحيف والجور في الحكم.
  - و- التحذير من أخذ الرشوة.

## الفصل الخامس

### القضاء وإقامة الحدود

كان النبي ﷺ أول قاض في الإسلام، يفصل بين الناس في الخصومات ويأمر بإقامة الحد على من استوجبه ويرد إليه الحكم في كل حدث أو اشتجار، وكان ﷺ إلى جانب ذلك يقوم بتبليغ دعوة الله على أكمل وجه فلم يتفرغ للقضاء فحسب، ولم يشغله الفصل في الخصومات وإقامة الحدود عن نشر دعوة الإسلام.

ولم يكن في المدينة قاض سواه ﷺ، وكان يقضى في قضايا كثيرة بين المسلمين كالسرقة والقتل والزنا والحقوق المالية والعينية، كما رفعت إليه قضايا كثيرة من اليهود فيما بينهم كالقتل، والزنا وحقوق الأموال، فكانت قضايا متعددة بنسبة عدد السكان، والقرآن والسنة يفيضان بتلك المسائل، وكم من آية نزلت في قضايا الناس، كقضية القصاص، والقتل، وقضية الظهار، وقضايا الملاعنة والسرقة والزنا وغيرها من القضايا وكان النبي ﷺ يقضى بين الناس بالحق والعدل، ولذلك كان قاضيا مطاعا ينزل الناس على أحكامه وينفذون أوامره لأنه يحكم بينهم بما أنزل الله، فأوجب الله على المسلمين طاعته ﷺ في كل ما حكم به، وجعل ذلك شرطا في إيمانهم يقول تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧] وقال تعالى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وكان الرجل الذي يظهر منه أدنى اعتراض على حكم النبي ﷺ ينسب إلى النفاق<sup>(١)</sup>، لأن النزول على أحكامه ﷺ من الواجبات الخصوصية له يقول الإمام

(١) عون المعبود ١٠/٥٣.



البخارى رحمه الله حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عروة أن الزبير كان يحدث أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا إلى رسول الله ﷺ في شراج<sup>(١)</sup>، من الحرة<sup>(٢)</sup>، كانا يسقيان به كلاهما فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك فغضب الأنصارى فقال: يا رسول الله أن كان ابن عمك<sup>(٣)</sup>، فتلون<sup>(٤)</sup>، وجه رسول الله ﷺ ثم قال: اسق ثم احبس حتى يبلغ الجدر<sup>(٥)</sup>، فاستوعى<sup>(٦)</sup>، رسول الله ﷺ حينئذ حقه للزبير، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى سعة له وللأنصارى فلما أحفظ الأنصارى رسول الله ﷺ استوعى للزبير حقه في صريح الحكم قال عروة قال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾<sup>(٧)</sup>. [النساء: ٦٥]. لما تخاصم الأنصارى والزبير ورفعا أمرهما إلى النبي ﷺ حكم بينهما بالعدل ولم يمل ناحية الزبير على حساب الأنصارى، لأنه ﷺ كان عادلاً في حكمه، لا يفرق بين قريب وغريب، فقال للزبير

(١) هو جمع شرج وهو مسيل الماء من الحرة إلى السهل وهى بالمدينة التى خوصم فيها الزبير عند رسول الله ﷺ [معجم البلدان ٣/ ٣٧٥].

(٢) والحرة: أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة [النهاية «حرر» ١/ ٣٦٥].

(٣) أن كان ابن عمك أى: فعلت هذا لكونه ابن عمك [شرح النووي على صحيح مسلم ٨/ ١١٩].

(٤) أى تغير من الغضب لانتهاك حرمت النبوة، وقبح كلام هذا الإنسان [شرح النووي على صحيح مسلم ٨/ ١١٩].

(٥) يبلغ الجدر: هو هاهنا المسناة وهو ما رفع حول المزرعة كالجدار، وقيل: هو لغة فى الجدار وقيل أصل الجدار [النهاية «جدر» ١/ ٢٤٦].

(٦) استوعاه كله [النهاية «وعا» ٥/ ٣٠٨].

(٧) أخرجه البخارى فى كتاب الصلح ١٢ باب إذا أنشأ الإمام بالصلح فأبى حكم عليه بالحكم البين ٥/ ٣٧٨ ح ٢٧٠٨ - ومسلم فى كتاب الفصائل ٣٦ باب وجوب اتباعه ﷺ ٨/ ١١٨ ح ٢٣٥٧ وأبو داود فى كتاب القضاء ٣١ باب فى القضاء ١٠/ ٥٣ ح ٣٦٣٤ والترمذى فى الأحكام ٢٦ باب ما جاء فى الرجلين يكون أحدهما أسفل من الآخر فى الماء ٤/ ٤٩٩، ٥٠٠ ح ١٣٦٣ والنسائى فى كتاب آداب القضاء باب الرخصة للحاكم الأمين أن يحكم وهو غضبان ٨/ ٢٣٨ وابن ماجه فى كتاب الرهون ٢٠ باب الشرب من الأودية ومقدار حبس الماء ٢/ ٣٨٤ ح ٢٤٨٠ والبيهقى فى السنن كتاب إحياء الموات ١٦ باب ترتيب سقى الزرع والأشجار من الأودية المباحة ٦/ ١٥٣ - والحاكم فى المستدرک کتاب معرفة الصحابة ذكر مناقب حواری رسول الله ﷺ وابن عمته الزبير بن العوام ٣/ ٣٦٤ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وحذفه الذهبى من التلخيص. جميعهم عن الزبير بن العوام رحمه الله.

اسق ثم أرسل الماء إلى جارك» إدلالاً على الزبير، ولعلمه بأنه يرضى بذلك ويؤثر الإحسان إلى جاره فلما قال الجار ما قال أمره أن يأخذ جميع حقه<sup>(١)</sup>

### ١ - أهمية القضاء العادل في حياة الأمة واستقامتها:

كان النبي ﷺ يهدف من وراء مباشرة القضاء وإقامة الحدود إلى المحافظة على أمن واستقرار المجتمع الإسلامي، من الداخل حتى لا تنتشر الخصومات التي تهدد أمنه وتعوق مسيرة تقدمه وتؤثر في دوره في قيادة العالم أو تؤثر في نشر الدعوة الإسلامية إلى كل أنحاء الأرض.

وفي إقامة الحدود تنظيم للمجتمع لكي يسير على الوجه المستقيم لأن إقامة الحدود موانع قبل الفعل زواج بعده - أي العلم بشرعيتها - يمنع الإقدام على الفعل كما يمنع العودة إليه.

وفي إيقاع العقوبة على المجرم تهذيب وتأديب له حتى لا يعود إلى الإجرام وإصلاح له حتى يعود عضواً صالحاً ينفع مجتمعه ويساعد في تقدمه وازدهاره، فإذا نظرنا في حد القصاص نجد أن النبي ﷺ كان يقيمه من أجل حقن الدماء والحفاظ على الحياة، قال تعالى ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ١٧٩] فالقصاص فيه حياة للأفراد وللمجتمع فمن علم أنه إن قتل يقتل امتنع عن القتل.

يقول ابن القيم: (لولا القصاص لفسد العالم وأهلك الناس بعضهم بعضاً ابتداءً واستيفاءً، فكان في القصاص دفعا لمفسدة الجراءة على الدماء بالجناية وبالاستيفاء)<sup>(٢)</sup> ١.هـ.

وأقام النبي ﷺ حد الزنا على الزاني زجراً له وردعاً لأمثاله لأن الزنا من أمهات الجرائم وكبائر المعاصي، لأنه بسبب الزنا تختلط الأنساب وتقع الخصومات وتنتشر الأمراض التي قد تودي بحياة الكثيرين؛ لذلك كان النبي ﷺ يحكم في الزنا

(١) شرح النووي على مسلم ٨/١١٩.

(٢) كتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١هـ ٢/١١٠.

بحكم الله فيقيم الحد ولا يقبل المقايضة بالمال أو غيره يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني<sup>(١)</sup>، رحمهما الله أنهما قالا «(إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر - وهو أفقه منه - نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي، فقال رسول الله ﷺ: «قل قال: إن ابني كان عسيفاً»<sup>(٢)</sup>، على هذا فزني بامرأته وإنني أخبرت أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائه شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم رد، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، اغد يا أنيس»<sup>(٣)</sup>، إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها، قال فغدا عليها، فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت»<sup>(٤)</sup>

وفي الحديث أن الصلح الفاسد يرد، وأن أخذ المال فيه باطل يجب رده، وأن الحدود لا تقبل الفداء<sup>(٥)</sup>.

(١) هو الصحابي الجليل: زيد بن خالد الجهني شهد الحديبية وكان معه لواء جهينة يوم الفتح ومات سنة ثمان وسبعين في المدينة [الإصابة ٢/٦٠٣].

(٢) عسيفاً: أى أجيراً [النهاية (عسف) ٣/٢٣٧].

(٣) هو الصحابي الجليل: أنيس الأسلمي ويقال أنيس بن الضحاك الأسلمي [الإصابة ١/١٣٨].

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الشروط ٩ باب الشروط التي لا تحل في الحدود - ٣٩٥، ٣٩٤/٥ ح ٧٢٤ ح ٢٧٢٥ - ومسلم في كتاب الحدود ٥ باب من اعترف على نفسه بالزنى ٦/٢١٤ ح ١٦٩٧، ١٦٩٨ وأبو داود في الحدود و ٢٥ باب في المرأة التي أمر النبي ﷺ برجمها من جهينة - ٩٩/١٢ ح ١٠٠، ٤٤٣٥ والترمذي في الحدود ٨ باب ما جاء في الرجم على الثيب - ٤/٥٩٠/٥٩١ ح ١٤٣٣ والنسائي في كتاب أدب القضاة باب صون النساء عن مجلس الحكم ٨/٦٣٣ وابن ماجه في الحدود ٧ باب حد الزنا ٢/٤١٣، ٤١٤ ح ٢٥٤٩ ومالك في الموطأ كتاب الحدود ١ باب ما جاء في الرحمة ٢/٢٧ ح ٦ - والدارمي في كتاب الحدود ١٢ باب الاعتراف بالزنا ٢/٢٧٢٢٦ ح ٢٣١٧، والبيهقي كتاب الحدود ٤ باب ما يستدل به على شرائط الإحصان ٨/٢١٣ ح ١٦٩٢٤. جميعهم عن

أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني.

(٥) شرح النووي على مسلم ٦/٢٢٣.

## أقام النبي ﷺ حد السرقة:

والمعلوم أن في قطع يد السارق عقوبة شديدة ولكنها شرعت لمصلحة الجماعة وطمأنيتها، ولتقارن بين بلد عمل بإقامة الحدود على المعتدين، وبين بلد ترك ذلك، فإننا سنجد بعدا كبيرا بين وجود الأمن والأمان في البلدين، فالدول والجماعات التي تقيم الحدود تنهأ بالأمان على النفوس والأعراض والأموال، أما التي تهمل الأخذ بشرع الله تعالى فإنها تقع في الاضطراب والفساد كما نرى في بلادنا، بل وفي البلاد المتقدمة شرقا وغربا من جنایات ترتكب على النفوس والأعراض والأموال.

«والذي يلمس كيف كان لإقامة الحدود الفضل في استتباب الأمن في البلاد التي تأخذ بها يأخذه العجب إذا علم أن بعض اللصوص في أوطاننا يرتكب عشرات من حوادث السرقة، ولا يجازى على كل بأكثر من حبس لمدة قد لا تزيد عن شهر أو أشهر قليلة»<sup>(١)</sup>.

## ٢- بعض مبادئ وآداب القضاء التي وضعها النبي ﷺ :

وضع النبي ﷺ عدة مبادئ هامة في القضاء لتتير الطريق أمام القضاة في كل عصر ومصر، ومن ذلك:

## أ- وجوب إزالة الشبه ودرء الحدود بالشبهات.

يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ وهو في المسجد فناده فقال: يا رسول الله إني زنيت فأعرض عنه، فلما شهد على نفسه أربعا قال: «أبك جنون؟ قال لا، قال اذهبوا به فارجوه»<sup>(٢)</sup>.

(١) السياسة الجنائية في الشريعة الإسلامية للدكتور أحمد فتحي بهنسي ص ٢٧٤ بتصرف طبعة دار الشروق بالقاهرة الطبعة الثانية سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام: ١٩ باب من حكم في المسجد حتى إذا أتى على حد أمر أن يخرج من المسجد فيقام ١٣/١٩١، ٨٩٢ ح ٧١٦٧ - ومسلم في كتاب الحدود ٥ باب من اعترف على نفسه بالزنى ٦/٢٠٨ ح ١٦٩١ كلاهما عن أبي هريرة وأبو داود في كتاب الحدود ٢٤ باب رجم ماعز بن مالك ٨٨/١٢ ح ٤٤٢١ عن جابر بن عبد الله والترمذي في كتاب الحدود ٥ باب ما جاء في درء الحد عن المعترف إذا رجع =

فالنبي ﷺ تركه حتى شهد على نفسه أربعاً ثم قال له «أبك جنون» وإنما فعل معه ذلك لأنه خشى أن تكون عنده شبهة فلما تيقن بعد الإقرار على نفسه أربع مرات أنه أصاب حداً أمر بإقامة الحد عليه.

### ب- إقامة الحق والعدل بين كل طبقات المجتمع:

أقام النبي ﷺ الحق والعدل بين جميع طبقات مجتمع المسلمين فقطع يد كل سارق بغير تفرقة بين شريف ووضيع أو غني وفقير يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا محمد بن مقاتل أخبرنا عبد الله أخبرنا يونس عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير «أن امرأة سُرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ففرغ قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ فقال: أتكلمني في حد من حدود الله؟ قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت، قالت عائشة فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ»<sup>(١)</sup>.

= ٤/ ٥٨٥ ح ١٤٢٩ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب آداب القضاة باب فضل الحاكم العادل في حكمه ٨/ ٢٢١ عن عبد الله بن عمرو وابن ماجه في كتاب الحدود ٩ باب الرحم ٢/ ٤١٥، ٤١٦ ح ٢٥٥٤ عن جابر بن عبد الله والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الحدود ٤ باب ما يستدل به على شرائط الإحصان ٨/ ٢١٤ ح ١٦٩٢٦ عن أبي هريرة.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٥٣ باب (بدون ترجمه) ٨/ ٣١/ ٣٢ ح ٤٣٠٤ - ومسلم في كتاب الحدود ٢ باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود ٦/ ٢٠١، ٢٠٢ ح ٤٣٦٥ - والترمذي في الحدود ٦ باب ما جاء في كراهية أن يشفع في الحدود ٤/ ٥٨٧، ٥٨٨ ح ١٤٣٠ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب قطع السارق باب ما يكون حرزاً وما لا يكون ٨/ ٧٥ - وابن ماجه في الحدود ٦ باب الشفاعة في الحدود ٤/ ٤١٢ ح ٢٥٤٧ والدارمي في كتاب الحدود ٣ باب الشفاعة في الحدود دون السلطان ٢/ ٢١ ح ٢٣٠٢ - والبيهقي في السنن الكبرى كتاب السرقة باب جماع أبواب القطع في السرقة ٨/ ٢٥٤ ح ١٧١٥٥ جميعهم عن عائشة.

وكان النبي ﷺ يقيم العدل في الحكم والقضاء، ويأمر الناس بالعدل ويرغبهم فيه ببيان الأجر العظيم الذي أعدّه الله للذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا. يقول الإمام مسلم رحمه الله تعالى: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب وابن نمير قالوا حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو - يعني ابن دينار - عن عمرو بن أوس، عن عبد الله بن عمرو قال ابن نمير وأبو بكر يبلغ به النبي ﷺ وفي حديث زهير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن رجلاً وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»<sup>(١)</sup>.

### ج- تحذير المتخاصمين من رفع القضايا الظالمة:

وكان النبي ﷺ يحذر المتخاصمين من رفع القضايا الظالمة فإن المحق يعرف أنه صاحب حق، والمبطل يعرف أنه على باطل.

يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا عبد الله بن سلمة عن مالك عن هشام عن أبيه عن زينب ابنة أبي سلمة عن أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»<sup>(٢)</sup>.

د- القضاء حالة الغضب:

وحذر النبي ﷺ القاضي من القضاء بين الخصوم في حالة الغضب، لأن الإنسان

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ٥ باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن ادخال المشقة عليهم ٦/ ٤٥١ ح ١٨٢٧ والنسائي في كتاب آداب القضاة: باب الحكم بالظاهر ٨/ ٢٢١، ٢٢٢ وابن أبي شيبة في مصنفه كتاب الجنة: باب ما ذكر في الجنة وما فيها مما أعد لأهلها ٨/ ٨١ جميعهم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ٢٠ باب موعظة الإمام للخصوم ١٣/ ١٩٢ ح ٧١٦٩ ومسلم في كتاب الأقضية ٣ باب الحاكم يحكم بالظاهر واللعن بالحجة ٦/ ٢٤٥ ح ١٧١٣ وأبو داود في كتاب القضاء ٧ باب في قضاء القاضي إذا أخطأ ٩/ ٣٩٥، ٣٩٦ ح ٣٥٨٠ والترمذي في كتاب الأحكام ١١ باب ما جاء في التشديد على من يقضى له بشئ ليس له أن يأخذه ٤/ ٤٧٢، ٤٧٣ ح ١٣٣٩ - والنسائي في كتاب آداب القضاة - باب الحكم بالظاهر ٨/ ٢٣٣ - وابن ماجه في كتاب الأحكام ٥ باب قضية الحاكم لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً ٢/ ٣٢٥ ح ٢٣١٧ - ومالك في الموطأ كتاب الأقضية ١ باب الترغيب في القضاء بالحق ٢/ ٥٥٣ ح ١ في باب، جميعهم عن أم سلمة رضي الله عنها.

إذا غضب خرج عن طبيعته وصار لا يتحكم في تصرفاته، فقد يخرج عن وجه الحقيقة ولا يعدل في حكمه إذا ألم به الغضب يقول البخاري رحمه الله تعالى حدثنا آدم حدثنا شعبه حدثنا عبد الملك بن عمير سمعت عبد الرحمن بن أبي بكره قال: «كتب أبو بكره إلى ابنه وكان بسجستان»<sup>(١)</sup>، - بأن لا تقضى بين اثنين وأنت غضبان، فإنى سمعت النبي ﷺ يقول: لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان»<sup>(٢)</sup>.

والحكم هنا هو الحاكم<sup>(٣)</sup>

قال المهلب: سبب هذا النهى أن الحكم حالة الغضب قد يتجاوز بالحاكم إلى غير الحق فمنع<sup>(٤)</sup> ١٠هـ

وقال العلماء: ويلتحق بالغضب كل حال يخرج الحاكم فيها عن سداد النظر واستقامة الحال كالشبع المفرط والجوع المقلق والهمل والفرح البالغ ومدافعة الحدث، وتعلق القلب بأمر ونحو ذلك، وكل هذه الأحوال يكره له القضاء فيها خوفاً من الغلط<sup>(٥)</sup>. وإنما اختص النبي ﷺ بالغضب بالذكر من بين هذه الأشياء لاستيلائه على النفس وصعوبة مقاومته بخلاف غيره<sup>(٦)</sup>.

هـ- التحذير من الحيف والجور في الحكم:

وحذر النبي ﷺ القضاة من الحيف والجور لأن هذا الأمر يوقع الشقاق

(١) سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة بينها وبين هراة عشرة أيام وهي جنوبى هراة، وهراة مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان [معجم البلدان ٣/ ١٩٠، ٥/ ١٨٠].

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ١٣ باب هل يقضى القاضى أو يفتى وهو غضبان ١٣/ ١٦٧ ح ٧١٥٨ ومسلم في كتاب الأفضية ٧ باب كراهة قضاء القاضى وهو غضبان ٦/ ٢٥٦ ح ١٧١٧ - والترمذى في كتاب الأحكام ٧ باب ما جاء لا يقضى القاضى وهو غضبان ٤/ ٤٦٧ ح ١٣٣٤ والنسائى في كتاب آداب القضاة باب ذكر ما ينبغى للحاكم أن يجتنبه ٨/ ٢٣٧، ٢٣٨ وابن ماجه في كتاب الأحكام ٤ باب لا يحكم وهو غضبان ٢/ ٢٣٤ ح ٢٣١٦ جميعهم عن أبى بكره.

(٣) فتح البارى ١٣/ ١٦٨.

(٤) فتح البارى ١٣/ ١٨٦.

(٥) شرح النووى على صحيح مسلم ٦/ ٢٥٦.

(٦) فتح البارى ١٣/ ١٦٨.

والكراهية بين الناس ويتسبب في هلاك الأمم والمجتمعات قال الإمام الترمذى حدثنا عبد القدوس بن محمد أبو بكر العطار حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا عمران القطان عن أبي إسحاق الشيباني عن ابن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ «الله مع القاضي ما لم يجر<sup>(١)</sup>، فإذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان»<sup>(٢)</sup>.

#### و- التحذير من أخذ الرشوة:

ونهى النبي ﷺ الحكام وولاة الأمور عن أخذ الرشوة، فمن أخذها استحق لعنة الله، لأنه بسببها يجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، فتضيع حقوق الفقراء والضعفاء. يقول الإمام أبو داود: حدثنا أحمد بن يونس أخبرنا ابن أبي ذئب عن الحارث ابن عبد الرحمن عن أبي سلمة عن عبد الله بن عمرو قال: «لعن رسول الله ﷺ الراشئ<sup>(٣)</sup>، والمرتشئ<sup>(٤)</sup>».

وهكذا وضع النبي ﷺ نظام القضاء حتى يقيم الحق والعدل بين الأمة في كل زمان ومكان<sup>(٥)</sup>.

(١) الجور: هو الميل والضلال [النهاية «جور» ١/٣١٣].

(٢) أخرجه الترمذى في كتاب الأحكام ٤ باب ما جاء في الإمام العادل - ٤/٤٦٤، ٤٦٥ ح ١٣٣٠ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمران القطان وابن ماجه في كتاب الأحكام ٢ باب التغليظ في الحيف والرشوة ٢/٣٢٣ ح ٢٣١٢ والبيهقى في السنن الكبرى كتاب آداب القاضي: ٤٦ باب إنصاف القاضي في الحكم وما يجب عليه من العدل ١٠/١٣٤ ح ٢٠٤٥١ جميعهم عن عبد الله بن أبي أوفى رضى الله عنه.

(٣) الراشئ: من يعطى الذى يعينه على الباطل. والمرتشئ: الآخذ. والرشوة: هي الوصلة إلى الحاجة بالمصانعة [النهاية «رشا» ٢/٢٢٦].

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الأحكام ٤ باب في كراهية الرشوة ٩/٣٩٢ ح ٣٥٧٧ والترمذى في كتاب الأحكام ٩ باب ما جاء في الراشئ والمرتشئ في الحكم ٤/٤٦٩، ٤٧٠، ١٣٣٦ عن أبي هريرة وابن ماجه في كتاب الأحكام ٢ باب التغليظ في الحيف والرشوة ٢/٣٢٣ ح ٢٣١٣ والإمام أحمد في مسنده ٢/٣٩٤ والبيهقى في السنن الكبرى كتاب آداب القاضي ٥٣ باب التشديد في أخذ الرشوة وفي إعطائها على إبطال حق ١٠/١٣٩ ح ٢٠٤٧٨. جميعهم عن عبد الله بن عمرو.

(٥) لمزيد من التفصيل يراجع كتب أقضية رسول الله للشيخ أبو عبد الله محمد بن فرج المالكي القرطبي المولود لسنة ٤٠٤ هـ والمتوفى ٤٩٤ هـ طبعة دار الوعي بحلب الثانية ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.



## الفصل السادس

### تتمتة في جوانب إدارية مهمة

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - البواب (وهو ما يعرف بمدير المكتب للرؤساء في عصرنا)
- ٢ - اهتمام النبي ﷺ بنهضة التعليم ومحو الأمية.
- ٣ - اتخاذ الخاتم شعاراً للدولة الإسلامية في المكاتبات والعهود.

## الفصل السادس

### تتمّة فى جوانب إدارية مهمة

١ - البواب (وهو ما يعرف بمدير المكتب للرؤساء فى عصرنا):

من الأمور التنظيمية فى إدارة رسول الله ﷺ للدولة: اتخاذ البواب وهذه المسألة من المسائل الخلافية التى طال الكلام حولها. واختلف العلماء فيها بين مثبت ومنكر، لاسيما وأنه قد وردت أحاديث صحيحة تثبت وجود بواب للنبي ﷺ، وأخرى تنفى ذلك.

ومن الأحاديث المثبتة لوجود البواب ما أخرجه البخارى فى الصحيح قال «حدثنا محمد بن مسكين أبو الحسن حدثنا يحيى بن حسان حدثنا سليمان عن شريك ابن أبى نمر عن سعيد بن المسيب قال «أخبرنى أبو موسى الأشعرى أنه توضعاً فى بيته ثم خرج فقلت لألزم من رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومى هذا، قال فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا: خرج ووجه هاهنا؟ فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس<sup>(١)</sup>، فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته فتوضأ فقمّت إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قفها<sup>(٢)</sup>، وكشف عن ساقيه، ودلاهما فى البئر. فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب فقلت لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت من هذا؟ فقال أبو بكر فقلت: على رسلك<sup>(٣)</sup>، ثم ذهبت فقلت يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن فقال ائذن له وبشره بالجنة. فأقبلت حتى قلت لأبى بكر: ادخل ورسول الله يبشرك بالجنة، فدخل أبو

(١) بئر أريس: هي بئر بالمدينة ثم بقاء مقابل مسجدتها ونسبت إلى أريس رجل من المدينة من اليهود عليها مال لعثمان بن عفان ؓ وفيها سقط خاتم النبي ﷺ (معجم البلدان ١/ ٣٤٥).

(٢) قف البئر هو الدلة التى تجعل حولها، وأصل القف ما غلظ من الأرض وارتفع وهو من القف: اليابس لأن ما ارتفع حول البئر يكون يابساً فى الغالب والقف أيضاً واد من أودية المدينة عليه مال لأهلها [النهاية «قف» ٩١/ ٤].

(٣) على رسلك: أثبت ولا تعجل [النهاية «رسل» ٢/ ٢٢٣].

بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القف ودلى رجله في البئر كما صنع النبي ﷺ وكشف عن ساقيه، ثم رجعت فجلست وقد تركت أخي<sup>(١)</sup> يتوضأ ويلحقني فقلت إن يرد الله بفلان خيراً يريد أخاه، يأت به فإذا إنسان يحرك الباب، فقلت من هذا؟ فقال عمر بن الخطاب. فقلت على رسلك ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقلت هذا عمر بن الخطاب يستأذن فقال ائذن له وبشره بالجنة فجئت فقلت: ادخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة، فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ في القف عن يساره ودلى رجله في البئر، ثم رجعت فجلست فقلت إن يرد الله بفلان خيراً يأت به، فجاء إنسان يحرك الباب فقلت من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان فقلت على رسلك، فجئت إلى رسل الله ﷺ فأخبرته فقال ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه، فجئته فقلت له ادخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبك فدخل فوجد القف قد ملئ، فجلس وجاهه من الشق الآخر قال شريك بن عبد الله قال سعيد بن المسيب: فأولتها<sup>(٢)</sup>، قبورهم<sup>(٣)</sup>.

ومن الأحاديث التي أثبت وجود بواب للنبي ﷺ أيضاً ما أخرجه البخاري بقوله: «حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤] وفي الحديث أن عمر بن الخطاب عندما ذهب إلى النبي ﷺ ليسأله هل طلق نسائه أم لا؟ ووجده قد اعتزل في المشربة<sup>(٤)</sup>، وجد غلاماً يقف بواباً

(١) أخي يتوضأ - يقول ابن حجر: كان لأبي موسى أخوان أبو رهم وأبو بردة وقيل إن له أخاً آخر اسمه محمد وأشهرهم أبو بردة واسمه عامر وقد خرج عنه أحمد في مسنده حديثاً (فتح الباري ٧/ ٤٥).

(٢) قال سعيد بن المسيب، يعني أن الثلاثة دفنوا في مكان واحد وعثمان في مكان بائن منهم وهذا من باب الفراسة الصادقة [شرح النووي على مسلم ٨/ ١٨٦].

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٥ باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً ٧/ ٣٤٤ ح ٣٦٧٤ ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ٣ باب من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه ٨/ ١٨٣ ح ٢٩ مكرر والترمذي في أبواب المناقب ١٩ باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه ١٠/ ١٥٧ ح ٣٧١٩ وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح. والإمام أحمد في المسند ٤/ ٥٠٠ جميعهم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) المشربة: هي الغرفة (النهاية «شرب» ٢/ ٤٥٥).

للنبي ﷺ يقول عمر: فخرجت فجئت إلى المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم فجلست معهم قليلاً ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة التي فيها النبي ﷺ فقلت للغلام له أسود: استأذن لعمر، فدخل الغلام فكلم النبي ﷺ ثم رجع، فقال كلمت النبي ﷺ وذكرتك له فصمت فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد فجئت فقلت للغلام: استأذن لعمر فدخل ثم رجع فقال قد ذكرت لك له فصمت فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر ثم غلبني ما أجد فجئت الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم رجع إلى فقال قد ذكرت لك له فصمت فلما وليت منصرفاً قال إذا الغلام يدعوني فقال قد أذن لك النبي ﷺ فدخلت على رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> الحديث.

ومن الأحاديث التي نفت وجود بواب للنبي ﷺ ما أخرجه البخاري قال: حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: اتقى الله واصبري، قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه فقل لها: إنه النبي ﷺ، فأنت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت: لم أعرفك، فقال، إنما الصبر عند الصدمة الأولى»<sup>(٢)</sup>، وعلى هذا فالأحاديث في هذا الشأن تدور بين الإثبات والنفي.

ويبدو لي أن النبي ﷺ كان يتخذ البواب عند الحاجة وفي بعض الأوقات دون

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ٣٨ باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها ٩/٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦ ح ٥١٩١ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه والنسائي في كتاب الصيام باب قبول شهادة الرجل الواحد على هلال شهر رمضان ٤/١٣٦ عن عائشة وأحمد في المسند ١/١٠٤ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ٣١ باب زيارة القبور ٣/١٨٤ ح ١٢٨٣ وفي الجنائز: ٤٢ باب الصبر عند الصدمة الأولى ٣/٢١٢ ح ١٣٠٢ وفي الأحكام ١١ باب ما ذكر أن النبي ﷺ لم يكن له بواب ١٣/١٦٢ ح ١٦٣٢ ح ٧١٥٤ ومسلم في كتاب الجنائز ٨ باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ٣/٤٩٨ ح ١٥ مكرر كلاهما عن أنس وأبو داود في كتاب الجنائز ١٣ باب ما جاء أن الصبر عند الصدمة الأولى ٤/٢٤، ٢٥ ح ١١٦٦ عن جابر بن عبد الله والترمذي في كتاب الجنائز ١٣ باب ما جاء أن الصبر في الصدمة الأولى ٤/٢٤ ح ٩٨٧ وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه. والنسائي في كتاب الجنائز باب الأمر بالاحتساب والصبر عند نزول المصيبة ٤/٢٢ والبيهقي في كتاب الجنائز ١٥٦ باب الرغبة في أن يتحلى بما أمر الله تعالى به من الصبر والاسترجاع ٤/٦٥، ٧٨. والإمام أحمد ٣/١٤٣ جميعهم عن أنس.

البعض وأنه لا تعارض بين الأحاديث، فالأحاديث التي أثبتت وجود بواب للنبي ﷺ صادقة وصحيحة الدلالة على أنه ﷺ كان يتخذ بواباً إذا استدعى الأمر وجوده، والأحاديث التي تنفي ذلك صادقة وصحيحة الدلالة على أنه ﷺ كان لا يتخذ البواب إذا لم يستدع الأمر وجوده والإمام المهلب جمع بين الأحاديث بقوله: «فالجمع بينها أنه إذا لم يكن في شغل من أهله ولا انفراد لشئ من أمره أنه ﷺ كان يرفع حجابيه بينه وبين الناس ويبرز لطالب الحاجة إليه»<sup>(١)</sup>.

وعلى ذلك «كان ﷺ إذا اشتغل بأمر نفسه اتخذ بواباً»<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا نعلم أن النبي ﷺ كان يتخذ البواب عند الضرورة حتى لا يدخل عليه أحد إلا بإذنه إذا كان يقضى حاجة نفسه خاصة أن أبواب البيوت لم يكن يومئذ عليها ستور.

وهناك أدلة كثيرة تؤيد أن النبي ﷺ كان يتخذ البواب منها:

١- ورود ألفاظ في الأحاديث السابقة، حديث أبي موسى، وحديث عمر تدل دلالة صريحة على أن النبي ﷺ اتخذ البواب في بعض الأوقات، ومن هذه الألفاظ قول النبي ﷺ لأبي موسى حينما كان يخبره أن أحد الصحابة يستأذن للدخول: فيقول له النبي ﷺ «أذن له» وفي حديث عمر: أنه كان يقول لغلام النبي ﷺ «استأذن لعمر» وبعد مرات قال الغلام لعمر رضي الله عنه «أذن لك النبي» وفي هذه الألفاظ دلالة صريحة على أن النبي ﷺ اتخذ البواب وأمره أن يؤدي عمله.

٢- وردت بعض الروايات لحديث أبي موسى تدل على أن النبي ﷺ أمره أن يعمل بواباً، وذلك في رواية الترمذي حيث يقول: حدثنا أحمد بن عبده الضبي حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري قال: انطلقت مع النبي ﷺ فدخل حائطاً للأنصار فقضى حاجته فقال لي: «يا أبا موسى أملك على الباب فلا يدخلن علي أحد إلا بإذن»<sup>(٣)</sup>، الحديث. وكذلك حديث البخاري الذي

(١) فتح الباري لابن حجر ١٣/٦٣.

(٢) (الترتيب الإدارية ١/٢٤).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب ١٩ باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه ١٠/١٥٧ ح ٣٧١٩ وقال أبو عيسى: =

أخرجه بقوله: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي عثمان عن أبي موسى ﷺ «أن النبي ﷺ دخل حائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط فجاء رجل يستأذن فقال: ائذن له وبشره بالجنة»<sup>(١)</sup> الحديث وفيما مر دلالة صريحة على أن النبي ﷺ أمر أبا موسى أن يكون بوابه. أما قول أبي موسى: «لأكونن بواباً للنبي ﷺ اليوم» الذي يصرح فيه أنه اختار ذلك وفعله من تلقاء نفسه» فيجمع بينه وبين الأحاديث التي أمره فيها صراحة أن يعمل بواباً بأنه لما حدث أبو موسى نفسه بأن يكون بواباً صادف أمر النبي ﷺ بأن يحفظ عليه الباب»<sup>(٢)</sup>.

وأما قول أبي موسى في بعض الروايات «ولم يأمرني» يعني أن أعمل بواباً كما جاء في رواية محمد بن جعفر عن شريك في الأدب»<sup>(٣)</sup>

فيجمع بين هذه الرواية وبين الأحاديث السابقة. بأنه لم يأمره أن يستمر بواباً وإنما أمره بذلك قدر ما يقضى حاجته ويتوضأ ثم استمر هو من قبل نفسه»<sup>(٤)</sup>. وهذا يؤيد كلامي وهو أن النبي ﷺ كان يتخذ البواب عند الحاجة ولأغراض مخصوصة.

وتحمل جملة «فلم تجد عنده بوابين» التي مرت في حديث أنس في خبر المرأة التي كانت تبكي عند القبر «على أن مرادها لم تجد بواباً في تلك الحالة حاضراً فلا ينافي أنه كان له من يدخل الناس عليه ﷺ»<sup>(٥)</sup> وقيل «معنى» لم تجد له بواباً: أي بواباً راتباً»<sup>(٦)</sup>.

= هذا حديث حسن صحيح. وقد سبق تخريجه كاملاً في الصفحة السابقة.

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٧ باب مناقب عثمان بن عفان ٦٧/٧ ح ٣٦٩٥ عن أبي موسى وقد سبق تخريجه كاملاً.

(٢) فتح الباري ٧/٤٥ بتصرف.

(٣) فتح الباري ٧/٤٥.

(٤) فتح الباري ٧/٤٥.

(٥) التراتيب الإدارية ٢٣/١.

(٦) فتح الباري ١٣/١٦٣.

وقيل لم تجد عنده بوايين «محمولاً على الأوقات التي يجلس فيها للناس ويكون ظاهراً لهم»<sup>(١)</sup>.

ومما يقوى أن النبي ﷺ كان يتخذ البواب، وإن هذا الأمر ليس فيه كبر وإذلال للناس - أن الصحابة رضوان الله عليهم الذين هم أشد الناس اتباعاً للنبي ﷺ اتخذ بعضهم بواباً ولم ينكر البعض الآخر عليه هذا الأمر فالخلفاء والأمراء والرؤساء لا يزالون يتخذون الحجاب - يعنى البواب - من لدن الصديق ﷺ فمن بعده، وقد ذكر بعض أهل السير والتاريخ اسم (شديد وشريف) مولى أبى بكر كان حاجبه، وكان (يرفا) حاجب عمر بن الخطاب ﷺ (وحران) مولى عثمان كان حاجبه وحجبه أيضاً (قائل) مولاه وحاجب علي ﷺ اسمه (قنبر) وكان قبله (بشر) مولاه أيضاً.

بل إن عمر بن الخطاب ﷺ لما قدم الشام وجد معاوية بن أبى سفيان والى عمر على الشام - قد اتخذ حاجباً واتخذ المراكب النقية والثياب الهائلة العلية وسلك ما سلكه الملوك فسأله عن ذلك فقال معاوية إنا فى أرض ونحن فيها محتاجون لهذا، فقال عمر: لا آمرك ولا أنهاك، فلو كان فيه غضاضة لنهاه عمر ﷺ<sup>(٢)</sup>.

ومما يؤيد أن النبي ﷺ كان يتخذ البواب. أن علماء الإسلام أيدوا هذا الأمر فى تعليقاتهم على الأحاديث السابقة وجمعوا بين الأحاديث على وجه يثبت اتخاذ البواب، واعتبر بعضهم أن اتخاذ البواب أمر لا غنى عنه لولى الأمر فى بعض الأوقات ومن أقوالهم: (أنه يستحب للإمام أن يتخذ بواباً عند الحاجة ليرتب الخصوم ويمنع المستطيل ويدفع الشرير)<sup>(٣)</sup>.

وقال بعضهم: إن أهمية اتخاذ البواب تكمن فى أن يطالع الحاكم بحال من حضر ولا سيما من الأعيان «لاحتمال أن يجئ مخلصاً والحاكم يظن أنه جاء زائراً فيعطيه حقه من الإكرام الذى لا يجوز لمن يجئ مخلصاً» وإيصال الخبر للحاكم بذلك إما بالمشافهة وإما بالمكاتبة.

(١) الترتيب الإدارية ٢٥ / ١ بتصرف.

(٢) ينظر التراتيب الإدارية ٢٦٢ / ٢ بتصرف.

(٣) فتح البارى ١٣ / ١٦٣.

واتفق العلماء على أنه يستحب أن يقدم البواب الأسبق فالأسبق حضوراً للدخول على الإمام ويقدم المسافر على المقيم ولا سيما إن خشى فوات الرفقة وأن من اتخذ بواباً أو حاجباً أن يتخذ ثقة عفيفاً أميناً حسن الأخلاق عارفاً بمقادير الناس»<sup>(١)</sup>

ونخلص مما سبق إلى القول:

بأن النبي ﷺ كان يتخذ البواب في بعض الأوقات ويستغنى عنه بالخدم أحياناً، ولم يتخذ البواب بقصد إذلال الناس أو حجبهم عنه أو إدخال البعض دون البعض وإنما اتخذه لتنسيق قضاء حوائج الناس حتى لا تتعارض المطالب أو تدخل النساء على الرجال، أو الرجال على النساء عند النبي ﷺ.

## ٢- اهتمام النبي ﷺ بنهضة التعليم ومحو الأمية:

اهتم النبي ﷺ بالعملية التعليمية اهتماماً بالغاً داخل الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، فكان ﷺ يعقد حلقات التعليم في المسجد النبوي فيعلم الصحابة أمور دينهم، وكل ما يتصل بحياتهم، وي طرح الأسئلة ويعقد المسابقات العلمية، كما حدث منه في سؤاله عن الشجرة التي لا يسقط ورقها يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا إسماعيل قال حدثني مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المسلم حدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسى أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييت، فقالوا يا رسول الله أخبرنا بها، فقال رسول الله ﷺ هي النخلة، قال عبد الله: فحدثت أبى بما وقع في نفسى، فقال لأن تكون قلتها أحب إلى من أن يكون لى كذا وكذا»<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر فتح الباري ١٣/١٦٣، ١٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم ٥٠ باب الحياء في العلم ١/٢٨٩ ح ١٣١ ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ١٥ باب مثل المؤمن مثل النخلة ٩/١٦٧-١٦٨ ح ٢٨١١ والترمذي في كتاب الأمثال ٤ باب ما جاء في مثل المؤمن القارئ للقرآن وغير القارئ ٨/١٤٠، ١٤١ ح ٢٨٦٧ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح وأحمد في المسند ٢/٣١، ١٢، ٦١ جميعهم عن ابن عمر رضي الله عنهما.



## اهتمام النبي ﷺ بمحو الأمية:

اهتم النبي ﷺ بمحو أمية المسلمين، وذلك عندما جعل تعليم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة هو شرط إطلاق الأسرى في بدر يقول ابن سيد الناس: (أسر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيراً وكان يفدى بهم على قدر أموالهم وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم فإذا حذقوا<sup>(١)</sup>، فهو فداؤه<sup>(٢)</sup>)

ويقول الإمام ابن سعد رحمه الله تعالى: أخبرنا محمد بن الصباح، أخبرنا إسرائيل عن جابر عن عامر قال: أسر رسول الله ﷺ يوم بدر سبعين أسيراً وكان يفادى بهم على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم، فإذا حزقوا فهو فداؤه<sup>(٣)</sup>

ويقول الإمام البيهقي رحمه الله تعالى: أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن عتاب العبدى، ثنا يحيى بن جعفر بن الزبرقان، ثنا علي بن عاصم، حدثنا داود بن أبي هند (ح) وأخبرنا محمد، حدثني علي بن عيسى، ثنا محمد بن المسيب، ثنا إسحاق بن شاهين، ثنا خالد بن عبد الله، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة قال فجاء غلام من أولاد الأنصار إلى أبيه فقال: ما شأنك قال: ضربنى معلمى قال: الخبيث يطلب بذحل<sup>(٤)</sup> بدر والله لا تأتیه أبداً<sup>(٥)</sup>.

(١) أى عرفوا وأتقنوا [النهاية «حذق» ١/ ٣٥٦].

(٢) كتاب السيرة النبوية المسمى عيون الأثر في فنون المغازى والشمال والسير تأليف محمد بن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس موضوع غزوة بدر الكبرى ١/ ٣٧٣ - طبعة القدس بالقاهرة سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: غزوة بدر ٢/ ١٦. عن عامر رضي الله عنه.

(٤) الذحل: طلب المكافأة بجنابة جنيت عليه من قتل أو جرح ونحو ذلك والذحل: العداوة أيضاً [النهاية «ذحل» ٢/ ١٥٥].

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى كتاب قسم الفئ والغنيمة ١٩ باب ما جاء في مفاداة الرجال منهم بالمال ٦/ ٣٢٢ ح ١٢٨٤٧. والحاكم في المستدرک کتاب قسم الفئ ٢/ ١٤٠ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي. كلاهما عن ابن عباس.

## ٣- اتخاذ الخاتم شعارًا للدولة الإسلامية في المكاتبات والعهود:

يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا على بن الجعد أخبرنا شعبة عن قتادة قال سمعت أنسًا رضي الله عنه يقول: «لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم قيل له: إنهم لا يقرؤون كتابًا إلا أن يكون محتومًا فاتخذ خاتمًا من فضة، فكأنى أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه محمد رسول الله»<sup>(١)</sup>

أمر اتخاذ الخاتم من الأمور الإدارية التنظيمية في الدولة الإسلامية اتخذها النبي ﷺ وكان يستخدمه في أمر توثيق الرسائل والكتب والمعاهدات والعقود حتى يضمن عليها طابع الجدية والاهتمام وفي الحديث السابق تتجلى لنا السياسة الحكيمة للنبي ﷺ من وراء اتخاذ الخاتم في استماله أعدائه والنزول على بعض رغباتهم التي لا تتعارض ومبادئ الإسلام. وكيف أنه ﷺ كان يسلك كل الطرق الصحيحة في سبيل تبليغ دعوة الإسلام الخالدة إلى جميع البلاد والعباد.

(١) أخرجه البخارى في كتاب الجهاد والسير ١٠١ باب دعوة اليهود والنصارى وعلى ما يقاتلون عليه ٦/١٣٣ ح ٢٩٣٨، والترمذى في كتاب الاستئذان ٢٥ باب ما جاء في ختم الكتاب ٧/٤٦٤ ح ٢٧١٨ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. كلاهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

## الباب الرابع السياسة والإدارة العسكرية

ويتضمن سبعة فصول:

الفصل الأول: فضل الجهاد في سبيل الله.

الفصل الثاني: الشورى وما لها من أهمية في السياسة النبوية.

الفصل الثالث: الاستطلاع والاستخبارات.

الفصل الرابع: التعبئة المعنوية وأهميتها في إحراز الهدف.

الفصل الخامس: عامل المباغتة والمفاجأة وأثره في إحراز النصر.

الفصل السادس: تنمة في سياسات عسكرية مهمة.

الفصل السابع: الإدارة العسكرية (إدارة الجيش) وبيان السياسة الحكيمة للنبي

ﷺ في هذا الأمر

## الفصل الأول

### فضل الجهاد في سبيل الله

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- النبي ﷺ يبين فضل الجهاد في سبيل الله.
- ٢- الجهاد لا يعدله شيء.
- ٣- فضل من يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله («التجارة الربحية»).
- ٤- أهداف الجهاد في الإسلام.

## الفصل الأول

### فضل الجهاد في سبيل الله

١ - النبي ﷺ يبين فضل الجهاد في سبيل الله:

حث النبي ﷺ المسلمين على الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، لما رأى قوى الطغيان والفساد والظلم قد استبدت بالمسلمين في ذلك الوقت، ورأى النبي ﷺ أنه لا بد أن تكون له قوة تساند رسالته، لأن دعوة الحق يجب أن تكون لها قوة تحميها من كل من أراد أن يمنع بلاغها إلى الناس، ولذلك حبب النبي ﷺ المسلمين في الجهاد، ورغبهم فيه بكل الوسائل، وذلك من أجل حماية حرية العقيدة، وإمكان نشر دين الله الحق إلى كل أهل الأرض.

والإمام البخاري رحمه الله تعالى حينما ترجم لأول باب من أبواب كتاب الجهاد والسير وصدر هذا الباب بآية جامعة من كتاب الله تعالى تتفق كل الاتفاق، وتتواءم مع ما جاء من أحاديث نبوية تدل على فضل الجهاد وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فإن الله ﷻ اشترى من المؤمنين أعز ما لديهم وهما الأنفس والأموال، وإذا باع الإنسان أعز ما لديه فلا بد أن تكون السلعة المشتراة تساوى أضعاف ما دفع، ولا شك أن السلعة تهون في سبيل الوصول إليها الأموال والأنفس، لأنها سلعة غالية جداً، فهي جنة الله التي يرجوها كل إنسان، والمسلمون يبذلون كل غال ونفيس في سبيل تحصيلها على اختلاف ألوانهم، وأوطانهم، كما أن هذه الآية، تخبرنا أنها سلعة بعيدة المنال، تحتاج إلى عمل موصول، وجهد مشكور، فطريقها ليس مفروشا بالورد والأزهار والرياحين، ولكنه مفروش بالأرواح والدماء، ولا بد من الجهاد وبيع النفس وإنفاق المال، وإخلاص الأعمال حتى يصل الإنسان إلى المنال.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

«يخبر الله تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوا في سبيله بالجنة وهذا من فضله وكرمه وإحسانه فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبده المطيعين له، ولذلك قال الحسن البصري وقتادة بايعهم الله فأغلى ثمنهم<sup>(١)</sup> وذكر ابن كثير في سبب نزول هذه الآية:

عن محمد بن كعب القرظي وغيره أنه قال: قال عبد الله بن رواحة<sup>(٢)</sup>، ﷺ لرسول الله ﷺ: يعني ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك قال: «الجنة» قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت الآية<sup>(٣)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أى سواء قتلوا أو قتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة<sup>(٤)</sup>.

وفي مثل هذا يقول الإمام مسلم رحمه الله تعالى: «وحدثني زهير بن حرب حدثنا جرير عن عمارة (وهو ابن القعقاع) عن أبي رزعة. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاداً في سبيل، وإيماناً بى وتصديقاً برسلى، فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذى نفس محمد بيده ما من كلم<sup>(٥)</sup>، يكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم لونه لون دم وريحه مسك والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ولكن لا أجد

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٩.

(٢) هو الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن الخزرج الأنصاري الخزرجي الشاعر المشهور كان أحد النقباء ليلة العقبة وشهد بدراً وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة [الإصابة ٤/ ٨٢].

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٩ - وأخرجه عن عروة مرسلًا البيهقي في دلائل النبوة باب ذكر العقبة الثانية ٢/ ٤٥٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٩.

(٥) كلم يكلم: أى جرح يجرح [النهاية «كلم» ٤/ ١٩٩ بتصرف].

سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل. ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل»<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهى التوراة المنزل على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن، المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد. هذا كقوله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم، والنعيم المقيم<sup>(٢)</sup> ١. هـ.

وبعد هذه الترجمة، وتفسير الآية التى وردت فيها صدر الإمام البخارى رحمه الله تعالى أول باب من أبواب كتاب الجهاد والسير بحديث شريف يدل على أن الجهاد من أفضل الأعمال يقول الإمام البخارى: حدثنا الحسن بن صباح حدثنا محمد بن سابق حدثنا مالك بن مغول قال سمعت الوليد بن العيزار ذكر عن أبى عمرو الشيبانى قال:

(١) أخرجه مسلم فى الصحيح كتاب الإمارة ٢٨ باب فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله ٧/ ٥٠ ح ١٨٧٦ والبخارى فى الصحيح كتاب الإيمان ٢٦ باب الجهاد من الإيمان ١/ ١١٦ ح ٣٦ وفى كتاب الجهاد والسير ٧ باب تمنى الشهادة ٦/ ٢١ ح ٢٧٩٧ وفى كتاب الجهاد والسير ١١٩ باب الجعائل والحملان فى السبيل ٦/ ١٥٢ ح ٢٩٧٢ والبخارى أيضاً فى كتاب فرض الخمس ٨ باب قول النبي ﷺ وأحلت لى الغنائم ٦/ ٢٦٧ ح ٣١٢٣ والبخارى أيضاً فى كتاب التمنى ١ باب ما جاء فى التمنى، ومن تمنى الشهادة ٣/ ٢٦٣ ح ٧٢٢٦، ٧٢٢٧ والنسائى فى السنن كتاب الجهاد باب ما تكفل الله ﷻ لمن يجاهد فى سبيله ٦/ ١٦ وابن ماجه فى السنن كتاب الجهاد ١ باب فضل الجهاد فى سبيل الله ٢/ ٤٩٢ ح ٢٧٥٣ ومالك فى الموطأ كتاب الجهاد ١ باب الترغيب فى الجهاد ٢/ ٣٥٥ والدارمى فى السنن كتاب الجهاد ٢ باب فضل الجهاد ٢/ ٥٥ ح ٢٣٩١ والإمام أحمد فى المسند ٢/ ٣٩٩ والبيهقى فى السنن الكبرى كتاب السير ١٤٨ باب فى فضل الجهاد فى سبيل الله ٩/ ١٥٧ ح ١٨٤٨٣ جميعهم عن أبى هريرة ؓ.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٩٩ بتصرف.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «سألت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله أى العمل أفضل؟ قال: الصلاة على ميقاتها، قلت: ثم أى؟ قال: ثم بر الوالدين، قلت ثم أى؟ قال: الجهاد في سبيل الله، فسكت عن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزداني»<sup>(١)</sup>.

يقول الإمام ابن حجر رحمته الله تعالى في شرحه للحديث الشريف بعد أن اختلفت أقوال العلماء حول أفضل الأعمال وأحبها إلى الله ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم، أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره، فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتمكن في أدائها، أى الصلاة أو الدعوة الإسلامية وقال ابن بزيمة: الذى يقتضيه النظر تقديم الجهاد على جميع أعمال البدن لأن فيه بذل النفس، إلا أن الصبر على الصلوات وأدائها في أوقاتها والمحافظة على بر الوالدين أمر لازم متكرر دائم لا يصبر على مراقبة أمر الله فيه إلا الصديقون<sup>(٢)</sup>.

## ٢- الجهاد لا يعدله شيء:

يقول الإمام البخارى رحمته الله تعالى: حدثنا إسحاق أخبرنا عفان حدثنا همام حدثنا محمد بن جحادة قال أخبرني أبو حصين أن ذكوان حدثه أن أبا هريرة رضي الله عنه حدثه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: لا أجده قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر<sup>(٣)</sup>، وتصوم ولا

(١) أخرجه البخارى في الصحيح كتاب الجهاد والسير ١ باب فضل الجهاد والسير ٦/٦ ح ٢٧٨٢ وأخرجه البخارى أيضاً في كتاب مواقيت الصلاة ٥ باب فضل الصلاة لوقتها ١٢/٢ ح ٥٢٧ ومسلم في الصحيح كتاب الإيمان ٣٦ باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ١/٣٥١ ح ١٣٧ والترمذى في كتاب أبواب الصلاة ١٢٧ باب ما جاء في الوقت الأول من الفضل ١/٤٥٩ ح ١٧٣ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح والنسائي في كتاب المواقيت باب فضل الصلاة لمواقيتها ١/٣٩٢ والإمام أحمد في المسند ١/٤١٠، ٤٣٩ جميعهم عن عبد الله بن مسعود.

(٢) فتح البارى ٢/١٤، ١٣ بتصرف.

(٣) أى لا تضعف (النهاية «فتر» ٣/٤٨٠ بتصرف).



تفطر؟ قال: ومن يستطيع ذلك؟ قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد ليستن<sup>(١)</sup>، في طوله فيكتب له حسنات<sup>(٢)</sup>.

بين لنا النبي ﷺ أن الجهاد لا يساويه شيء من فرائض الإسلام، فهل هناك أفضل من أن يجود الإنسان بنفسه وما له في سبيل الله؟

وبين لنا ﷺ أن مشقه الجهاد لا يتحملها إلا من صدق إيمانه، وخلصت نيته، وقويت عزيمته، وأن مثل المجاهد كمثل القائم الذي لا يفتر، والصائم الذي لا يفطر، وهل هناك أحد يتحمل هذه المشاق؟ وإن فرض وجوده فالمجاهد أفضل منه لأن عمله أشق، فضلا عن أنه يقوم بحراسة الدين والدفاع عنه أمام كيد المعتدين، حتى يتم له التمكين، وينعم المسلمون في ظل حراسة جنود الموحدين.

قال القاضي عياض: اشتمل هذا الحديث على تعظيم أمر الجهاد، لأن الصيام وغيره مما ذكر من فضائل الأعمال قد عدلها كلها الجهاد حتى صارت جميع حالات المجاهد وتصرفاته المباحة معادلة لأجر المواظب على الصلاة وغيرها، ولهذا قال ﷺ «لا تستطيع ذلك» وفيه أن الفضائل لا تدرك بالقياس وإنما هي إحسان من الله تعالى لمن شاء، واستدل به على أن الجهاد أفضل الأعمال مطلقا.

وقال ابن دقيق العيد: القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل لأن الجهاد وسيلة إلى إعلان الدين ونشره وإخماد الكفر ودحضه ففضيلته بحسب فضيلة ذلك والله أعلم<sup>(٣)</sup> اهـ.

(١) يستن في طوله: أي يمرح بنشاط (النهاية «سنن» ٢/ ٤١١ بتصرف) ٠

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الجهاد والسير ١ باب فضل الجهاد والسير ٧/ ٦ ح ٢٧٨٥ ومسلم في الصحيح كتاب الإمارة ٢٩ باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى ٧/ ٣٠ ح ١٨٧٨ والترمذي بالفاظ متقاربة في كتاب فضائل الجهاد ١ باب ما جاء في فضل الجهاد ٥/ ١٩٧ ح ١٦١٩ وقال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح والنسائي في كتاب الجهاد باب ما يعدل الجهاد في سبيل الله ﷻ ٦/ ١٩ والإمام أحمد في المسند ٢/ ٣٤٤ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب السير ٤٨ باب في فضل الجهاد في سبيل الله ٩/ ١٥٨ ح ١٨٤٨٨ جميعهم عن أبي هريرة ؓ.

(٣) فتح الباري لابن حجر ٨/ ٦ بتصرف.

٣- فضل من يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله «التجارة الربحية» :

أورد الإمام البخارى في ترجمته لهذا الباب آية جامعة من كتاب الله تعالى «يبين الله تبارك وتعالى لنا فيها كل تفاصيل هذه التجارة التى تنجى من العذاب الأليم، وترضى رب العالمين وتكون سببا في مغفرة الذنوب ودخول جنات النعيم، وذلك هو الفوز العظيم والنعيم المقيم.

قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم \* تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون \* يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾ [الصف: ١٠ - ١٢]. فيا لها من تجارة رابحة شوقنا الله في بدايتها إلى معرفتها بكل تفاصيلها، فاشترأت النفوس، وأصغت الأسماع، وتاقت القلوب إلى معرفة شروطها، وشروط من له الحق في دخولها والعمل تحت لوائها، فأخبرنا الله تعالى أن أول مسوغ من مسوغات العمل في هذه التجارة هو الأصل الأول في الدين القويم، وهو الإيمان بالله العظيم، والتصديق بكل ما جاء به رسوله الكريم، ثم تلاه شئ من الأهمية بمكان وهو الجهاد في سبيل الله في كل زمان ومكان، بالسيف والسنان، وهجرة الأوطان، وبيع النفس والمال وهما أعز ما يملكه الإنسان. ثم بين الله لنا أن الخير كل الخير موجود في العمل بهذه الأركان إن كنا نريد أن نعلم شرائع الإسلام وحقائق الإيمان.

وكان المسلمون أرادوا جنى ثمار هذه الأعمال فأعقبها الله ببيان خيرها ونفعها وثوابها وهى مغفرة الذنوب والفوز بجنة تجرى من تحتها الأنهار والاستقرار في مساكن طيبة في جنات عدن وذلك هو الفوز العظيم، والنعيم المقيم والصراط المستقيم.

يقول الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى: روى ابن أبى حاتم من طريق سعيد بن جبير «أن هذه الآية لما نزلت قال المسلمون: لو علمنا هذه التجارة لأعطينا فيها الأموال والأهلين، فنزلت ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون﴾ الآية.

وروى هو والطبرى من طريق قتادة قال «لولا أن الله بينها ودل عليها لتلهف

عليها رجال أن يكونوا يعلمونها حتى يطلبونها»<sup>(١)</sup>.

ويذكر الإمام ابن كثير رحمته الله تعالى سبب نزول هاتين الآيتين فيقول: جاء في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله ﻋﻠﻴﻪ ليفعلوه فأنزل الله تعالى هذه السورة ومن جملتها هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ويقول ابن كثير بعد ذلك: ثم فسر الله هذه التجارة العظيمة التي لا تبور والتي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال تعالى ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى من تجارة الدنيا والكد لها والتصدى لها وحدها ثم قال تعالى ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أى إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتم عليه غفرت لكم الذلات وأدخلتكم الجنات والمساكن الطيبات والدرجات العاليات ولهذا قال تعالى ﴿وَيَدْخُلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنُ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عِنْدَ ذَلِكَ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى نُحِبُّنَهَا﴾ [الصف: ١٣] أى وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها وهى ﴿نُصْرُ مَنْ اللَّهُ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] أى إذا قاتلتم في سبيله ونصرتكم دينه تكفل الله بنصركم. قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقال تعالى ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] وقوله تعالى ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.

أى عاجل فهذه الزيادة هي أن خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ونصر الله ودينه ولهذا قال ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>. [الصف: ١٣].  
وبعد ذلك يقول الإمام البخارى حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال حدثني عطاء بن يزيد الليثي أن أبا سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله أى الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، قالوا: ثم من؟ قال: مؤمن في شعب<sup>(٣)</sup> من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره<sup>(٤)</sup>.

(١) فتح البارى ٦/٨، ٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٣٦١ بتصرف.

(٣) الشعب: هو ما انفرج بين جبلين وليس المراد نفس الشعب خصوصا، بل المراد الانفراد والاعتزال وذكر الشعب مثالا لأنه خال عن الناس غالبا (شرح النووى على صحيح مسلم ٧/٤٢).

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد والسير ٢ باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله ٩/٦ =

وقد رويت في فضل الجهاد أحاديث كثيرة بين فيها النبي ﷺ فضل رجال باعوا أعز ما يملكون من أجل إعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام في كل بقاع الأرض، وأخلصوا في جهادهم النية لله فلم يقاتلوا من أجل الوطنية أو القومية أو لنيل جائزة دنيوية أو ليقال عنهم أنهم أشجع الناس، ولكنهم تركوا ديارهم، وأموالهم وأولادهم، وباعوا دنياهم لا زهدا فيها ولكن رغبة فيما أعد الله للمجاهدين من أجر وقد اقتضت على ما تقدم من أحاديث تبين بعض فضائل الجهاد حتى لا يطول الكلام.

#### ٤ - أهداف الجهاد في الإسلام:

حث رسول الله ﷺ أصحابه على الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله بعد أن أذن الله له بالقتال ولم يكن هذا الحث من رسول الله ﷺ لأصحابه على القتال إلا استجابة لأمر الله تعالى لأنه أنزل عليه قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] والتحريض هو الحث والطلب أى حثهم عليه وأمرهم به<sup>(١)</sup>.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند مواجهة العدو يقول الإمام مسلم رحمه الله تعالى: حدثنا أبو بكر بن أبى النضر وهارون بن عبد الله ومحمد بن رافع وعبد الله بن حميد وألفاظهم متقاربة قالوا حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان (وهو ابن المغيرة) عن ثابت عن أنس بن مالك قال بعث رسول الله ﷺ بسياسة<sup>(٢)</sup> عيناً<sup>(٣)</sup> ينظر ما صنعت عير<sup>(٤)</sup>، أبى سفيان فجاء وما فى البيت أحد غيرى وغير

= ح ٢٧٨٦ ومسلم فى كتاب الإمارة ٣٤ باب فضل الجهاد والرباط ٧/ ٤٠ ح ١٨٨٨ وأبو داود فى السنن كتاب الجهاد ٥ باب فى ثواب الجهاد ٧/ ١٣٣ ح ٢٤٨٢ والنسائى فى كتاب الجهاد باب فضل من يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله ١١/ ٦ جميعهم عن أبى سعيد الخدرى رحمه الله.

(١) تفسير ابن كثير ٣٣١/ ٢ بتصرف.

(٢) بسياسة: يقول الإمام النووى: هكذا فى جميع النسخ بسياسة وقال القاضى هكذا هو فى جميع النسخ قال: وكذا رواه أبو داود وأصحاب الحديث قال: والمعروف فى كتب السيرة «بسيس» وهو بسيس بن عمرو، ويقال: ابن بشر من الأنصار من الخزرج ويقال حليف لهم ويقول الإمام النووى: قلت يجوز أن يكون أحد اللفظين اسما له والآخر لقباً (شرح النووى على مسلم ٧/ ٤٥ بتصرف).

(٣) أى جاسوساً: واعتان له. إذا أتاه بالخبر (النهاية «عين» ٣/ ٣٣١).

(٤) عير أبى سفيان: هي الإبل والدواب التى تحمل الطعام وغيره من الأمتعة التى يتاجرون عليها (النهاية «عير» ٣/ ٣٢٩ بتصرف).

رسول الله ﷺ قال لا أدري ما استثنى بعض نسائه قال فحدثه الحديث (قال: فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: «إن لنا طلبة»<sup>(١)</sup>، فمن كان ظهره<sup>(٢)</sup>، حاضرا فليركب معنا» فجعل رجال يستأذنون في ظهرانهم<sup>(٣)</sup>، في علو<sup>(٤)</sup>، المدينة فقال لا إلا من كان ظهره حاضرا فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ (لا يقدم من أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه) فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري<sup>(٥)</sup>، يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال «نعم» قال بخ بخ<sup>(٦)</sup>، فقال رسول الله ﷺ «ما يحملك على قولك بخ بخ» قال لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال فإنك من أهلها فأخرج تمرات من قرنه<sup>(٧)</sup>، فجعل يأكل منهن ثم قال لأن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل<sup>(٨)</sup>.

ولقد حث رسول الله ﷺ أصحابه على القتال من أجل تحقيق أهداف سامية وسياسات حكيمة، وغايات نبيلة، ونتائج كريمة، ومن هذه الغايات ما يلي:

أولاً: ابتغاء رضوان الله تعالى: ومعنى ذلك أن يبذل المسلم دمه من أجل رضا

(١) أى الحاجة (النهاية) «طلب» ٣/ ١٣١.

(٢) الظهر: الإبل التي يحمل عليها وتركب (النهاية) «ظهر» ٣/ ١٦٦.

(٣) أى مركوباتهم (شرح النووي على مسلم ٧/ ٥٥).

(٤) علو المدينة: هي أماكن بأعلى أراضي المدينة (النهاية) «علا» ٣/ ٢٩٥ بتصرف.

(٥) هو الصحابي الجليل: عمير بن الحمام بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن سلمة الأنصاري الأسلمي شهد بدرا واستشهد بها [الإصابة ٤/ ٧١٥].

(٦) بخ. بخ: كلمة تقال عند المدح والرضى بالشئ وتكرر للمبالغة ومعناها: تعظيم الأمر وتفضيحه (النهاية) «بخ» ١/ ١٠١.

(٧) قرنه: أى جعبته (النهاية) «قرن» ٤/ ٥٥.

(٨) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الإمامة ٤١ باب ثبوت الجنة للشهيد ٧/ ٥٢ ح ١٩١٠ وأخرج جزء منه من أول قوله قوموا إلى جنة إلى آخر الحديث الحاكم في كتاب معرفة الصحابة باب ذكر مناقب عمير بن الحمام بن الجموح ٣/ ٤٢٦ وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي. والبيهقي في السنن الكبرى كتاب السير ٨ باب جواز انفراد الرجل والرجال بالغزو في بلاد العدو ٩/ ٩٩ ح ١٨١٩٧ جميعهم عن أنس رضي الله عنه.

ربه، والفوز بجنته، والإسلام حذر المسلم أن يقاتل لمغنم من مغنم الدنيا أو لسمعة يطلبها فيمدح ويثنى عليه لجهاده وبلائه في الحرب أو يقاتل حمية كقتال أهل الجاهلية، قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

ثانيًا: حرية نشر الدعوة الإسلامية:

إن الله تبارك وتعالى أمر رسوله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم وكل مسلم من بعدهم أن يبلغوا دين الإسلام، ويدعوا الناس إليه، ويوفروا لهم الحرية، في اختيار هذا الدين دون التعرض لهم بالأذى والاضطهاد فإذا وقف حاكم أو نظام أو دولة في وجه الدعوة فقد شرع الله القتال للمسلمين لحماية الدعوة وحماية المدعوين الذين اقتنعوا بالإسلام وآمنوا به لأن السلطة لا تقاوم إلا بالسلطة ولا بد في إخضاعها من القوة، قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]

ثالثًا: حماية المستضعفين من النساء والأطفال والشيوخ الطاعنين في السن والمرضى .

وغير ذلك ممن يحتاجون إلى الأمن والأمان ولا قدرة لهم على القتال، أو الدفاع عن أنفسهم، ولقد فرض الله القتال على المكلفين القادرين عليه ليحموا هؤلاء ويوفروا لهم الأمن، وهذا هو التكافل الأمني. إذ يتكافل الرجال الذين منحهم الله القوة والقدرة على القتال على حفظ أمن الضعفاء والمحافظة على حياتهم<sup>(١)</sup>، كما قال الله تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

قال الإمام الرازي في تفسيره: الآية تدل على أن الجهاد واجب، ومعناه لا عذر لكم في ترك المقاتلة، وقد بلغ حال المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من المسلمين إلى ما بلغ من الضعف، فهذا حث شديد على القتال وبيان العلة التي صار لها

(١) السيرة النبوية دراسة تحليلية ص ٢٧٣ بتصرف.

القتال واجبا، وهو ما في القتال من تخليص هؤلاء المؤمنين من أيدي الكفرة، لأن هذا الجمع إلى الجهاد يجرى مجرى فكك الأسير<sup>(١)</sup>.

رابعاً: الدفاع عن النفس والأموال والأوطان:

إن الأعداء يطمعون في أموال المسلمين، ويسعون لسفك دمائهم، واحتلال أوطانهم واغتصاب حقوقهم وإزلالهم وبنظرة على عالمنا يظهر لنا ما فعله الكافرون من استعمار بلاد المسلمين ونهب ثرواتهم، وإزلال شعوبهم، وتحقير دينهم وشريعتهم ومبادئهم.

ولا سبيل لدفع هذا الاعتداء على الأعراض والدماء والأنفس والأموال إلا بالقتال قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ١٠ / ١٨١ الطبعة الثانية نشر دار الكتب العلمية طهران.





## الفصل الثانى

### الشورى وما لها من أهمية فى السياسة النبوية

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - الشورى تحسم أمر دخول معركة بدر
- ٢ - مشورة سعد بن معاذ بإعداد مركز القيادة لرسول الله ﷺ .
- ٣ - الشورى تحسم قضية أسرى بدر.
- ٤ - الشورى واختيار موضوع القتال فى غزوة أحد.
- ٥ - رأى حكيم ومشورة صائبة لأحد الصحابة تحرز النصر للمسلمين.
- ٦ - النبي ﷺ يستشير أصحابه فى الحديبية.

## الفصل الثاني

### الشورى وما لها من أهمية فى السياسة النبوية

تمهيد:

يعد مبدأ التشاور من أهم المبادئ فى السياسة العسكرية والمدنية، لذلك حرص النبي ﷺ على الأخذ به، فتحقق له النصر فى حروبه، وجاءت النتائج على ما يحب الله ورسوله ﷺ .

ولم تقتصر الشورى على أن تكون وصفا امتدح الله به المسلمين فى قوله تعالى ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ \* وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَاءَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ \* وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٦-٣٨].

وإنما هي أمر من الله تعالى للنبي ﷺ حتى يقرر هذا المبدأ ويعمل على تحقيقه قال تعالى ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فالله ﷻ أمر نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه فى الأمر، وإن كانت آراؤهم لا تصل فى بعض الأحيان إلى درجة كبيرة من الصواب.

والمعلوم أن الآية السابقة نزلت فى أعقاب غزوة أحد، وكان رأى النبي ﷺ أن يبقى فى المدينة ولا يخرج منها لقتال المشركين، ولما استشار أصحابه كان رأى الأغلبية من الشباب والمتحمسين أن يخرجوا للملاقاة عدوهم فأخذ النبي ﷺ برأى الأغلبية وبعد أن انتهت الغزوة اتضح أن رأى النبي ﷺ كان هو الأصوب، وأن رأيهم جانب الصواب، ومع ذلك أمره الله تعالى أن يعف عنهم، وأن يستغفر لهم، وأن يشاورهم فى كل أمر يحتاج إلى مشاورة والأمر الإلهي ﴿وشاورهم فى الأمر﴾. بهذه الصورة، وفى هذه الظروف أمر قاطع لا يدع مجالا للشك فى أن الشورى مبدأ أساسى

من مبادئ النظام السياسى، الإسلامى، وأمر يجب مراعاته وقيمة عليا وواجب إسلامى يجب على الأمة المسلمة أن تستمسك به دائما، وتحت جميع الظروف.

ولأجل هذا الأمر الألهى ﴿وشاورهم فى الأمر﴾ كان النبي ﷺ أكثر الناس مشاورة للناس، وأكثر الرجال أخذا برأى الرجال، يقول أبو هريرة ؓ: «(ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ)»<sup>(١)</sup>.

فلم يستبد النبي ﷺ برأيه بل كان يشاور أصحابه فى كل أمر تطيبا لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه.

يقول الإمام ابن تيمية ؒ:

« لا غنى لولى الأمر عن المشاورة فإن الله أمر بها نبيه ﷺ فى قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ﴾ وذكر ابن تيمية حديث أبى هريرة السابق ثم قال: (وقد قيل: أن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه وليقتدى به من بعده، وليستخرج منهم الرأى فيما لم ينزل فيه وحى من أمر الحروب والأمور الجزئية وغير ذلك)» اهـ<sup>(٢)</sup>.

وكان النبي ﷺ مثالا يحتذى فى تقرير مبدأ الشورى، تعلم منه أعظم قادة العالم الذين جاءوا بعده ﷺ واستفادوا منه كثيرا على اختلاف أوطانهم، ودياناتهم وتباعد أزمانهم.

يقول عباس محمود العقاد فى معرض المقارنة بين النبي ﷺ وبين أبرع القادة المحدثين وهو «نابليون» فى مجال الخطط العسكرية - مع ملاحظة الفارق الكبير بينهما فالنبي ﷺ لا يدانيه رجل من العالم -.

«وكان نابليون معتدا برأيه فى الفنون العسكرية ولاسيما الخطط الحربية، ولكنه كان مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه فى مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال.

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الجهاد ٣٤ باب ما جاء فى المشورة بقوله: ويروى عن أبى هريرة تحفه الأحوزى ٥/

٣٠٨ وذكره الحافظ بن حجر فى فتح البارى ١٣/٤١٢.

(٢) كتاب السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية لابن تيمية ص ٢١٣ ط دار الإيمان بالإسكندرية.

ومحمد ﷺ كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه في خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول، ومن ذلك ما صنعه في بدر حين أشار عليه الحباب بن المنذر أن ينهض بالناس حتى يأتي أدنى ماء من القوم، ثم يغور الآبار ويبني حوضاً للشرب لا يصل إليه الأعداء.

وجاء في روايات كثيرة أنه عمل بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة، فحفر الخندق وعمل النبي ﷺ بيديه الكريمتين في حفره.

وقبول النبي ﷺ مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة، وسنة من سنن القواد الكبار، غير أننا نعتقد أنه ﷺ كان خليقاً أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسي بين أهل المدينة في إبان الهجمة عليها، لأنه عليه الصلاة والسلام كان شديد الالتفات إلى سد الثغور وحماية الظهور في جميع وقعاته، وفي وقعة أحد جعل الجبل إلى ظهره وأقام على الشعب الذي يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين رامياً مشدداً عليهم في التزام موقفهم.

والذي يفعل هذا في شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله في ثغرة مدينة، ولكر: المشاورة هنا هي المقصودة بالمضاهاة بين ما سبق إليه النبي ﷺ وما نبع فيه نابليون فهذه خصلة معهودة في كبار القواد ولا تقدح فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط: وابتكار الأساليب<sup>(١)</sup>.

#### ١- الشورى تحسم أمر دخول معركة بدر:

غزوة بدر تعد أول لقاء حقيقى بين قوى الإيمان والكفر، وأول صدام مسلح بين المسلمين والمشركين، والمعلوم أن الحروب تقرر مصير الشعوب فإما إلى النصر وإما إلى غير ذلك، ولذلك لم يشأ النبي ﷺ أن يأخذ قرار الحرب وحده وإنما أعطى فرصة للآراء أن تتحاور وتشتجر في محاولة للوصول إلى أوفق قرار حتى لا تكون هناك خسائر وإن وقعت فتكون قليلة لا تكاد تذكر.

(١) عبقرية محمد للعقاد ص ٢٩ طبعة الشعب.

وقد أسلفت أن النبي ﷺ حين بايع الأنصار بالعقبة اتفق معهم على أن ينصروه داخل المدينة على من دهمه من عدوه، فتخوف النبي ﷺ ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرة النبي ﷺ خارج المدينة وأنه ليس عليهم أن يخرج بهم النبي ﷺ لملاقاة الأعداء خارج بلادهم، ولذلك حرص النبي ﷺ على معرفة رأى الأنصار والمهاجرين فقال ﷺ «أشيروا على أيها الناس»<sup>(١)</sup>، فأخذ الصحابة يدلون بآرائهم ويعلنون عن حقهم في إبداء الرأى الذى يستشعرون فيه مصلحة الإسلام والمسلمين.

يقول ابن إسحاق فى السيرة:

«وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن، ثم قام المقداد<sup>(٢)</sup> بن عمرو فقال: يا رسول الله، امش لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾. [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد<sup>(٣)</sup>، لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به»<sup>(٤)</sup>.

ويروى الإمام البخارى حديثاً فى موقف المقداد ورأيه فيقول: حدثنا أبو نعيم

(١) ذكره ابن إسحاق فى السيرة موضوع: استشارة الأنصار (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/٢١٩ وأخرجه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جده مرسلًا: ابن أبى شيبه فى كتاب المغازى: غزوة بدر الكبرى ومتى كانت وأمرها ٧/٣٥٣، ٣٥٤ ح ٣٦٦٤٩ والكتب طبعة دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٥- وابن سعد فى الطبقات: غزوة بدر ٢/١٠ وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية موضوع: غزوة بدر العظمى ٣/٢٩٨ والحديث له شاهد عن ابن مسعود أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ٤ باب قول الله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ ٧/٣٥٢ ح ٣٩٥٢ وسأذكره إن شاء الله بعد هذا الحديث وشاهد آخر عن أنس رضي الله عنه أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير ٣٠ باب غزوة بدر ٦/٣٦٥ ح ١٧٧٩.

(٢) هو الصحابى الجليل: المقداد بن الأسود الكندى هو أبو عمرو بن ثعلبة بن مالك أسلم قديماً وهاجر الهجرتين وشهد بدرًا والمشاهد بعدها وكان فارساً يوم بدر حتى أنه لم يثبت أنه كان فيها على فرس غيره ومات سنة ثلاث وثلاثين فى خلافة عثمان [الإصابة ٦/٢٠٢].

(٣) برك الغماد: موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلى البحر وقيل بلد باليمن [معجم البلدان ١/٤٧٤]

(٤) السيرة النبوية لابن هشام موضوع: طريق المسلمين إلى بدر ٢/٢١٨.

حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال: «سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى ﴿أذهب أنت وربك فقاتلا﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعنى قوله»<sup>(١)</sup>.

### استشارة خاصة بالأنصار:

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس» وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس أي أغليبتهم وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إليها فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل» قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب المغازي ٤ باب قول الله تعالى: ﴿إِذَا تَسْتَعِيثُونَ رَبَكُمْ فَاسْتَجِبْ لَهُمْ﴾ (٧/٣٥٢ ح ٣٩٥٢ عن عبد الله بن مسعود - ومسلم في الصحيح كتاب الجهاد والسير ٣٠ باب غزوة بدر (٦/٣٦٥) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ شاور، حين بلغه إقبال أبي سفيان. قال: «فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عباد فقال: إيانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا: فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا» الحديث وقال ابن حجر في الفتح: ووقع في رواية مسلم أن سعد بن عباد هو الذي قال ذلك، وفيه نظر لأن سعد بن عباد لم يشهد بدرًا، ويمكن الجمع بينهما: بأن النبي ﷺ استشارهم في غزوة بدر مرتين: الأولى وهو بالمدينة أول ما بلغه خبر العير مع أبي سفيان وذلك بين في رواية مسلم ولفظه «أن النبي ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان». والثانية كانت بعد أن خرج كما في حديث ابن مسعود الذي سبق تخريجه في البخاري (فتح الباري ٧/٣٥٤ بتصرف) ٠ والإمام أحمد في المسند ١/٣٩٠-٤٢٨. والحاكم في المستدرک کتاب معرفة الصحابة: مناقب المقداد بن عمر والكندي وهو الذي قيل له ابن الأسود قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ٣/٣٩٢ وذكره ابن إسحاق في السيرة النبوية موضوع طريق المسلمين إلى بدر «السيرة النبوية لابن هشام» ٢/٢١٨ - وذكره ابن كثير في البداية والنهاية موضوع: «غزوة بدر العظمى» ٣/٢٩٨ جميعهم عن أنس رضي الله عنه.

ذلك عهدنا وموآثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله<sup>(١)</sup>.

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله ولكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»<sup>(٢)</sup>.

ويقول الإمام مسلم رحمه الله (حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس، أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه فقام سعد بن عباد فقال: إيانا تريد يا رسول الله والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا قال: فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا)<sup>(٣)</sup>.

يقول النووي في شرحه لهذا الحديث: (قال العلماء: إنما قصد ﷺ اختيار الأنصار لأنه لم يكن بايعهم على أن يخرجوا معه للقتال وطلب العدو، وإنما بايعهم على أن يمنعه ممن يقصده، فلما عرض الخروج لغير أبي سفيان أراد أن يعلم أنهم يوافقون على ذلك فأجابوه أحسن جواب بالموافقة التامة في هذه المرة وغيرها وفيه استشارة الأصحاب وأهل الرأي والخبرة)<sup>(٤)</sup>.

ولم تقتصر مشاورة النبي ﷺ أصحابه في قرار دخول الحرب أو عدم دخولها فحسب ولكنه كان يشاورهم في أدق تفاصيل المعركة كاختيار موقعها، ووقت بدايتها،

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) أورده ابن هشام في السيرة النبوية بدون إسناد ولعله اعتمد على إسناده في أول الحديث عن غزوة بدر (السيرة النبوية لابن هشام. موضوع: استشارة الأنصار ٢/٢١٩).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الجهاد والسير ٣٠ باب غزوة بدر ٦/٣٦٥ ح ١٧٧٩ عن أنس بن مالك رضي الله عنه وقد علق على الحديث في الصفحة السابقة.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٣٦٦.

والتخطيط لها، وكل ما يتعلق بها طالما أنه لم يكن هناك وحى يتعلق بهذه الجوانب. ومن ذلك أخذه بمشورة الحباب بن المنذر بن الجموح.

قال ابن إسحاق: فحدثت عن رجال من بنى سلمة أنهم ذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح<sup>(١)</sup>، قال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة» فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانفض بالناس، حتى تأتى أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور<sup>(٢)</sup>، ما وراءه من القلب<sup>(٣)</sup>، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأى» فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت وبني حوضا على القلب الذى نزل عليه فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية<sup>(٤)</sup>.

وفي قبول النبي ﷺ لهذه المشورة دلالة قوية على عمق إيمان النبي ﷺ بمبدأ التشاور. فهو ﷺ لم يجعل من هيبة النبوة سداً ذريعاً بينه وبين أصحابه يحول دون مشاورتهم في أخرج اللحظات وفي أصعب الأمور.

يقول الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الرفاعى في تعليقه على مشورة الحباب: «إن منطقة بدر كثيرة الآبار، ومعظم هذه الآبار في الجهة التى تلى المدينة من بدر

(١) هو الصحابى الجليل: الحباب بن المنذر بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصارى شهد بدرا ومات في خلافة عمر [الإصابة ١٠ / ٢].

(٢) أى نحفر الآبار ونعمقها ليجتمع فيها الماء، وغور كل شيء قعره يقال: غار الماء، وغور الماء: ذهب في العيون، وماء غور: غائر [لسان العرب «غور» ٥ / ٣٣١٢].

(٣) القلب جمع قلب وهى: البئر القديمة التى لا يعلم لها رب ولا حافر تكون بالبرارى تذكر وتؤنث وسميت قلبيا، لأنه قلب تراها، وقد يكون القلب مطويا، أى مبنيا بالحجارة أو غير مطوى ذات ماء أو غير ذات ماء [لسان العرب «قلب» ٥ / ٣٧١٥].

(٤) أخرجه ابن إسحاق في السيرة النبوية موضع نزول قريش بالعدوة والمسلمين ببدر (السيرة النبوية لابن هشام) ٢ / ٢٢٤ وابن سعد في الطبقات: غزوة بدر ١١ / ٢. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية موضوع: غزوة بدر العظمى (٣ / ٣٠٣).



ووادى يليل، وليس في الجهة التي تلى مكة من بدر إلا القليل من الآبار وهى معسكر قريش، ولذا فإن هذا الصحابى الجليل نظر في الموقع فوجد أن الأنسب أن يتقدم المسلمون للأمام حتى ينزلوا آخر موضع يمكن العسكر فيه من جهة المشركين حتى يستحوز المسلمون على العدد الأكثر من آبار بدر حيث تكون خلفهم، وهكذا يتوفر لهم عنصر هام من عناصر النصر والأمان ألا وهو الماء كما يحرم جيش المشركين من هذه الميزة لكن الصحابى الجليل في هذا الموقف المهيّب لم ينس الأدب العالى مع رسول الله ﷺ والإيمان التام أنه رسول الله ﷺ المنصور، الذى لا يتقدم ولا يتأخر إلا عن وحى رب العالمين، فقدم اقتراحه بهذا الأسلوب الرفيع، أى إن كان هذا الموقع الذى عسكر فيه النبي ﷺ والصحابة عن أمر ووحى العليم الخبير، إذن فلا رأى ولا اقتراح ولا افتئات على الله تعالى، فإن النص الشريف سواء من الله تعالى أو من رسوله ﷺ يجب أن يعمل به حرفياً، بلا سؤال عن كيف، ولم، ولماذا، بل يجب أن ينفذ على وجهه، أما إذا كان هذا المنزل الذى نزل فيه النبي ﷺ ومن معه اجتهاد منه ﷺ فحينئذ يمكن سلوك سبيل الاجتهاد والمشاورة والمفاضلة بين الآراء، فلما أجاب النبي ﷺ على الوجه الثانى عندئذ أبدى الحباب رضي الله عنه وجهة نظره بما يعتقد أن ذلك فيه مصلحة المسلمين وقد صوب رسول الله ﷺ رأيه، ورجع عن رأى نفسه الشريفة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وأمر الصحابة بالتقدم إلى أقرب نقطه في جهة العدو ليحرز معظم آبار المياه خلف جيش المسلمين ولقد كان اقتراحاً عظيماً فعندما نزل المطر في ليلة المعركة ملأ الآبار ماء مما كان له أثر حربى ونفسى جليل<sup>(١)</sup>.

٢- مشورة سعد بن معاذ بإعداد مركز القيادة لرسول الله ﷺ :

ولمزيد من التأكيد على تقرير مبدأ الشورى وكونه سياسة رشيدة اتبعها النبي ﷺ في سياسة الخصوم والأتباع، قبل النبي ﷺ مشورة سعد بن معاذ في إعداد مركز للقيادة ينزل فيه النبي ﷺ أثناء القتال في بدر.

(١) هدى الكتاب والسنة في الفتوحات الكبرى في الإسلام أ.د/ عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعى ص ٥٦، ٥٧ طبعة مصر للخدمات العلمية للطبع والنشر ١٩٩٧م.

قال ابن إسحاق رحمه الله:

حدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث: أن سعد بن معاذ قال: يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنا أقوام يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير ثم بنى لرسول الله ﷺ عريشا فكان فيه (١).

ومن الحديث السابق يتبين لنا مدى حرص الصحابة على حياة النبي ﷺ وخوفهم عليه، وكذلك رجحان رأى سعد بن معاذ وبراعة تخطيطه وقوة تفكيره، وكونه أهلا للشورى، وكذلك مدى حرص النبي ﷺ على استماع مشورة الصحابة، واحترام آرائهم، والعمل على تطبيقها والأخذ بها بعد تمحيصها، واختيار أصوبها، طالما أن هناك رأى صائب وفكر ثاقب وبصيرة واعية وحجة قوية وعقل مستنير.

### ٣- الشورى تحسم قضية أسرى بدر:

قضية الأسرى في بدر، كانت قضية جديدة على الساحة التشريعية الإسلامية في ذلك الوقت، فلم يتعرض لها المسلمون من قبل، لأنه لم يسبق للمسلمين أن كان لهم أسرى قبل بدر، ولم ينزل في شأنها من الله وحى لذلك لم ينه النبي ﷺ فيها القول لنفسه، ولكنه شاور أصحابه كما هو الشأن فيما لم يوجد فيه نص يقول الإمام مسلم: حدثنا هناد بن السرى حدثنا ابن المبارك عن عكرمة بن عمار حدثني سماك الحنفي قال سمعت ابن عباس يقول حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر فذكر حديثا طويلا وفيه قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى»؟ فقال أبو بكر يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة. موضوع: نزول قريش بالعدوة والمسلمين ببدر (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/

٢٢٥ وذكره ابن كثير في البداية ٣/ ٣٠٤ موضوع غزوة بدر العظمى / من طريق ابن إسحاق حدثني عبد الله بن

أبي بكر أنه حدث أن سعد بن معاذ - فذكره.

يهديهم للإسلام فقال رسول الله ﷺ «ما ترى يا ابن الخطاب»؟ قلت لا والله يا رسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل<sup>(١)</sup>، فيضرب عنقه، وتمكنى من فلان «نسيباً لعمر» فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها<sup>(٢)</sup>، فهوى<sup>(٣)</sup>، رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرنى من أى شيء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة» (شجرة قريبة من نبي الله ﷺ) - وأنزل الله ﷻ ﴿مَا كَانَ لَنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتُخَذَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾<sup>(٤)</sup>، فأحل الله الغنيمة لهم<sup>(٥)</sup>.

وأخذ النبي ﷺ بالمشورة التى فيها اليسر وعفا عن الأسرى وقبل منهم الفداء.

#### ٤ - الشورى واختيار موضع القتال فى أحد:

حينما وصل إلى النبي ﷺ نبا الجموع الغفيرة من جيوش المشركين، والتى اجتمعت لتكون يدا واحدة فى قتال المسلمين، عقد النبي ﷺ مجلس شورى لينظروا فى أمرهم. ورأى المسلمون جميعاً ضرورة التصدى لقريش وقتالها ومن حالفها ولكن أين

(١) هو الصحابى الجليل: عقيل بن أبى طالب بن عبد مناف القرشى الهاشمى أخو على وجعفر تأخر إسلامه إلى عام الفتح وشهد غزوة مؤتة ومات فى أول خلافة يزيد [الإصابة ٤ / ٥٣١].

(٢) أى أشرافها، وعظماؤها، ورؤساؤها الواحد منها صنديد والضمير فى (صناديدها) يعود على أئمة الكفر أو مكة (النهاية (صند) ٣ / ٥٥ بتصرف).

(٣) أى أحب ذلك واستحسنه (النهاية «هوا» ٥ / ٢٨٥ بتصرف).

(٤) الإثخان: هو المبالغة فى قتل الكفار (النهاية (ثخن) ١ / ٢٠٨ بتصرف).

(٥) [الأنفال: ٦٧-٦٩].

(٦) أخرجه مسلم فى الصحيح كتاب الجهاد والسير ٨ باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر وإباحة الغنائم ٦ / ٣٢٨ ح ١٧٦٣ عن ابن عباس ؓ والإمام أحمد فى المسند ١ / ٣٠ والبيهقى فى السنن الكبرى كتاب السير ٥٧ باب ما يفعله بالرجال البالغين منهم ٩ / ٦٨ ح ١٨٠٣٩ جميعهما عن عمر بن الخطاب ؓ.

تكون المواجهة؟ هل يخرج المسلمون إلى قتال المشركين خارج المدينة أم يقاتلونهم داخلها؟

كان رأى الأغلبية ضرورة الخروج للقاء المشركين خارج المدينة، ورأى النبي ﷺ أن يبقى داخل المدينة هو ومن معه.

ولم يعلن النبي ﷺ عن رأيه صراحة وذلك احتراماً لرأى الأغلبية التى رأت أن الخروج هو الأوفق والأصوب يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن عدى بن ثابت قال سمعت عبد الله بن يزيد يحدث عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال «لما خرج النبي ﷺ إلى غزوة أحد، رجع ناس من خرج معه، وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين: فرقه تقول نقاتلهم، وفرقه تقول: لا نقاتلهم، فنزلت ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾<sup>(١)</sup>، وقال: إنها<sup>(٢)</sup>، طيبة تنفى الذنوب كما تنفى النار خبث الفضة»<sup>(٣)</sup>.

ولم يكن النبي ﷺ يؤثر البقاء في المدينة لهوى في نفسه، ولكن كانت عنده حجة قوية في ترجيح البقاء على الخروج، وهى الرؤيا المنامية التى رآها النبي ﷺ قبيل غزوة أحد ورؤيا الأنبياء حق وصدق.

وسأنقل حديث هذه الرؤيا إن شاء الله من سنن الإمام الدارمى رحمه الله تعالى لأنه ذكر القصة كاملة يقول الإمام الدارمى رحمه الله تعالى: أخبرنا الحجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو الزبير، عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت كأنى فى درع حصينة، ورأيت بقرا ينحر، فأولت أن الدرع المدينة وأن البقر نفر<sup>(٤)</sup>، والله خير ولو

(١) [النساء: ٨٨].

(٢) مرجع الضمير في قوله ﷺ «إنها طيبة» على المدينة المنورة (ينظر فتح البارى لابن حجر ٤/١٠٨).

(٣) أخرجه البخارى في كتاب المغازى ١٧ باب غزوة أحد ٧/٤٣٩ ح ٤٠٥٠ وفي كتاب فضائل المدينة ١٠ باب المدينة تنفى الخبث ٤/١٢١ ح ١٨٨٤ وفي كتاب التفسير ١٥ باب «فما لكم في المنافقين فئتين» ٨/٣١٧ ح ٤٥٨٩ ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - وذلك في أول الكتاب ٩/١٣٥ ح ٢٧٧٦ والترمذى في كتاب تفسير القرآن ٥ باب ومن سورة النساء ٨/٣٢٢ ح ٣٠٢٨ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح والإمام أحمد في المسند ٥/١٨٤، ١٨٧، ١٨٨ جميعهم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٤) قوله ﷺ «وأن البقر نفر والله خير» قال النووى: نحر البقر هو قتل الصحابة رضي الله عنهم الذين قتلوا بأحد (شرح النووى على مسلم ٨/٣٨ في كتاب الرؤيا ٤ باب رؤيا النبي ﷺ).

أقمنا بالمدينة، فإذا دخلوا علينا قاتلناهم» فقالوا والله ما دخلت علينا في الجاهلية، أفتدخل علينا في الإسلام؟ قال: «فشأنكم إذا» وقالت الأنصار لبعض رددنا على النبي ﷺ رأي، فجاءوا فقالوا: يا رسول الله شأنك فقال: «الآن، إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته<sup>(١)</sup>، أن يضعه حتى يقاتل»<sup>(٢)</sup>.

ولقد أخذ النبي ﷺ برأى الأكثرية وأمر الناس بالاستعداد للخروج مع أن عددا كبيرا من الشيوخ ألقوا اللوم على الشباب وقالوا لهم: لقد استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، فسرعان ما ندّم الشباب وذهبوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله: إنا قد استكرهناك على الخروج فإن شئت أقمنا بالمدينة، ولكن أنى ذلك بعد الحزم والعزم على الخروج!!

لقد رأى النبي ﷺ أنه لا بد من الخروج، فلم يتراجع عن قرار ملاقات العدو خارج المدينة وذلك لسببين:

الأول: أنه ﷺ لو قعد بعد المشاورة لكان ذلك خارجا عن حدود ما يقتضيه مبدأ التشاور لاسيما في القضايا الحربية التي تحتاج مع المشورة إلى قدر كبير من الحزم والعزم. ثانياً: أنه ﷺ لو قعد لظن قوم أن الدافع في القعود إنما هو الضعف والاضطراب في الإرادة الذي ينبغي في الغالب من الخوف والحذر وبذلك تضعف همم الجيش، وتخور قواه، وتذهب هيئته، وتحطم معنوياته ولا يستطيع أن يصمد بعد ذلك أمام أعدائه، فلهذا وغيره رأى النبي ﷺ أنه لا بد من الخروج.

يقول الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس:

إن عدم تراجع النبي ﷺ عن التزام رأى الأكثرية الذي يخالف رأيه وقد عرض

(١) اللأمة: هي الدرع وقيل: السلاح، ولأمة الحرب: أداؤه (النهاية «لأمة» ٤/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه الدارمي في السنن كتاب الرؤيا ١٢ باب في رؤية الرب تعالى في النوم ١/ ٦١٠ ح ٢١٥٩ عن جابر بن عبد الله ﷺ واللفظ له. وأخرجه بالفاظ متقاربة عن أبي موسى ﷺ - أ- البخاري في الصحيح كتاب المغازي ٢٦ باب من قتل من المسلمين يوم أحد ٧/ ٤٦٤ ح ٤٠٨١. ب- ومسلم في الصحيح كتاب الرؤيا ٤ باب رؤيا النبي ﷺ بالفاظ متقاربة ٨/ ٣٥، ٣٦ ح ٢٢٧٢ ج- وابن ماجه في السنن كتاب تعبير الرؤيا ١٠ باب تعبير الرؤيا ٣/ ٣٨٤ ح ٣٩٢١ د- والإمام أحمد في مسنده ٣/ ٣٥١ وقد أثرت ذكر نصه عند الدارمي لأنه أتم سياقاً وأكثر فائدة.

الشباب عليه الرجوع: وضع أساس في الشورى، وهو أن للشورى وقتاً ولتنفيذ القرار وقتاً، فإذا ما خرجت الجماعة برأى من الآراء فينبغى أن يلتزم به ولا يتراجع عنه لهوى أو لغاية حتى وإن كان هوى نبي أو رسول فإن كان هواه لا يتطرق إليه الشك، فالمجاملة هنا لا تصلح»<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - رأى حكيم ومشورة صائبة لأحد الصحابة تحرز النصر للمسلمين:

خرج حبي بن أخطب بعد قتل بنى النضير إلى مكة يحرض قريشاً على حرب رسول الله ﷺ وخرج كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق يسعى في بنى غطفان ويحضهم على قتال رسول الله ﷺ على أن لهم نصف ثمر خير، فأجابه عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفذاري إلى ذلك، وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد فأقبل إليهم طلحة ابن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبو سفيان بن حرب بقريش فأنزلوا بمر الظهران<sup>(٢)</sup>، فجاءهم من أجابهم من بنى سليم مددا لهم فصاروا في جمع عظيم، فهم الذين سماهم الله تعالى الأحزاب<sup>(٣)</sup>.

ولما وصل نبأ هذا الجمع الحاشد إلى النبي ﷺ استشار أصحابه فأشار عليه سلمان الفارسي ﷺ بحفر الخندق.

يقول ابن حجر رحمه الله (ذكر أصحاب المغازي منهم أبو معشر قال: قال سلمان للنبي ﷺ: «إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا») فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين، فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه، وجاء المشركون فحاصروهم<sup>(٤)</sup>.

يقول الإمام البخاري رحمه الله:

حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق عن حميد سمعت أنساً رضي الله عنه يقول: «خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار

(١) السيرة النبوية دراسة تحليلية ص ٣٢٣ بتصرف يسير.

(٢) مر الظهران: قرية قرب مكة (معجم البلدان ٤/ ٦٣).

(٣) فتح الباري ٧/ ٤٨٤ - والطبقات الكبرى لابن سعد: غزوة رسول الله ﷺ الخندق وهي الأحزاب ٢/ ٥٠.

(٤) فتح الباري ٧/ ٤٨٤.

يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة، فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً<sup>(١)</sup>

وكانت مشورة سلمان فتحاً من الله تبارك وتعالى على المسلمين، لأن المسلمين لم يخرجوا من المدينة ولكنهم تحصنوا داخلها وكان عدد المشركين أضعاف عدد جيش المسلمين وعدتهم كذلك وكفتهم راجحة فلا بد أن يعرض النبي ﷺ نقص العدد بأن يختار موقعا حصينا يأوى إليه ويقاقل من داخله والمعلوم أن موقع المدافع المتحصن أقوى من موقع المقاتل المهاجم، لأن الثاني مكشوف للأول، سهل الإصابة بخلاف المتحصن فإنه غير مكشوف ويصعب إصابته، وكانت مشورة سلمان ﷺ صائبة أيضاً في اختيار موضع الخندق في الجهة الشمالية فبمجرد حفر الخندق أصبحت المدينة محصنة من جميع جهاتها حيث إن جميع جهات المدينة ومنافذها محصنة بالجبال الوعرة إلا الجهة الشمالية التي حفر فيها الخندق وكان أسلوب حفر الخنادق والقتال من ورائها أسلوباً جديداً لم تعهده العرب من قبل في قتالها وكان مفاجأة للمشركين فحطم معنوياتهم وألقى الرعب في قلوبهم.

٦- النبي ﷺ يستشير أصحابه في الحديبية:

خرج النبي ﷺ قاصداً زيارة بيت الله الحرام يوم الاثنين غرة ذي العقدة في السنة السادسة من الهجرة ومعه زوجته أم سلمة في ألف وأربعمائة ولم يخرج بسلام إلا سلاح المسافرين السيوف في القرب.

وتحرك هو والمسلمون في اتجاه مكة، فلما وصل إلى ذي الحليفة<sup>(٢)</sup>، قلد الهدى

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب المغازي ٢٩ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ٧/٤٨٧ ح ٤٠٩٩ عن أنس. ومسلم في الصحيح كتاب الجهاد والسير ٤٤ باب غزوة الأحزاب وهي الخندق ٦/٤١١ ح ١٨٠٣ عن البراء. والإمام أحمد في المسند ٣/١٧٢، ٢٧٦ عن أنس رضي الله عنه.

(٢) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، وهي ميقات أهل المدينة التي يحرمون عنده للحج. [معجم البلدان ٣/٣٢٩].

وأشعره وأحرم بالعمرة - تأكيداً للأمر - أنه لا يريد الحرب وإنما يريد زيارة البيت فقط وبعث بين يديه عينا من خزاعة يخبره عن قريش حتى إذا كان قريباً من عسفان أتاه عينه فقال: (إنى تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعاً وهم مقاتلون، وصادوك عن البيت).

عند ذلك عقد النبى ﷺ مجلساً للشورى كما هي عادته فى كل أمر لم ينزل فيه وحى فلم يكن يرم أمراً إلا بعد المشاورة. فاستشار أصحابه وفى ذلك يقول الإمام البخارى رحمه الله: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان قال سمعت الزهري حين حدث هذا الحديث حفظت بعضه، وثبتنى معمر عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يزيد أحدهما على صاحبه قالوا: «خرج النبى ﷺ عام الحديبية فى بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة وبعث عينا له من خزاعة وسار النبى ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه قال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلون وصادوك عن البيت وما نعوك، فقال «أشيروا أيها الناس على» أترون أن أميل إلى عيالمهم وذراى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله ﷻ قد قطع عينا من المشركين، وإلا تركناهم محرويين، قال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، قال: امضوا على اسم الله»<sup>(١)</sup>.

لقد كان رأى النبى ﷺ بعد وصول نبأ هذا الجمع الحاشد أن يذهب إلى ديار هؤلاء الأحابيش الذين تجمعوا لنصرة قريش على المسلمين، فيقاتل من بقى من الرجال ويسبى النساء، فإذا جاءوا لنجدتهم، تركهم النبى ﷺ وانفرد بقريش بعد أن انفص الأحابيش عنها، وقريش وحدها لا تستطيع صد رسول الله ﷺ عن البيت الحرام فقد أنهكتها الحرب، ولكن أبا بكر رضي الله عنه أشار على النبى ﷺ أن يمضى قدما إلى

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ٣٥ باب غزوة الحديبية ٧/ ٥٦٠ ح ٤١٧٨، ٤١٧٩ والإمام أحمد فى المسند ٣٢٨/ ٤ والبيهقى فى السنن الكبرى كتاب الجزية ٤٠ باب المهادنة على النظر للمسلمين ٩/ ٢١٨ ح ١٨٨٠٧ جميعهم عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.



بيت الله الحرام فإنه ما خرج لقتال ولا لحرب فإن بدؤا بالقتال رد عليهم المسلمون بالمثل فأخذ النبي ﷺ برأى أبى بكر وقال: «امضوا على اسم الله».

«لقد رأينا في عامة تصرفات الرسول ﷺ ما يدل على مشروعية الشورى وضرورة تمسك الحاكم بها وعمل النبي ﷺ هنا، يدل على طبيعة هذه الشورى والمعنى الذى شرعت من أجله، فالشورى في الشريعة الإسلامية مشروعة ولكنها ليست ملزمة، وإنما الحكمة منها استخراج وجوه الرأى عند المسلمين، والبحث عن مصلحة قد يختص بعلمها بعضهم دون بعض أو استطابة نفوسهم فإذا وجد الحاكم في آرائهم ما سكنت نفسه إليه على ضوء دلائل الشريعة الإسلامية وأحكامها، أخذ به وإلا كان له أن يأخذ بما شاء بشرط أن لا يخالف نصًّا في كتاب ولا سنة ولا إجماعًا للمسلمين<sup>(١)</sup>.

---

(١) فقه السيرة للبوطى ص ٢٣٧.



### الفصل الثالث

#### الاستطلاع والاستخبارات

ويتضمن تمهيدًا وإحدى عشرة نقطة:

- ١- سرية عبد الله بن جحش تستطلع أخبار قريش.
- ٢- النبي ﷺ يستطلع الأخبار بنفسه.
- ٣- التماس المزيد من الأخبار بواسطة نفر من الصحابة.
- ٤- الاستخبارات قبيل غزوة أحد.
- ٥- استخدام الاستخبارات للحصول على كثير من المعلومات.
- ٦- النبي ﷺ يحض الصحابة على استطلاع جيش المشركين في غزوة الأحزاب.
- ٧- الاستخبارات تكشف خروج قريش لصد النبي ﷺ عن المسجد الحرام في الحديبية.
- ٨- الاستخبارات تنقل للنبي ﷺ خبر نقض قريش لعهد الحديبية.
- ٩- الاستخبارات والهزيمة ثم النصر في حنين.
- ١٠- ماذا استفاد المسلمون من غزوة مؤتة؟
- ١١- عمل النبي ﷺ في جمع المعلومات عن أعدائه وأثر ذلك.

## الفصل الثالث

### الاستطلاع والاستخبارات

تمهيد:

من الملامح السياسية الرشيدة في غزوات النبي ﷺ، أنه كان يقوم باستطلاع أخبار العدو، ويحصل على المعلومات عنه قبل القتال، فلا يقاتل قوماً إلا بعد أن يعرف مكان رباطهم، ومقدار قوتهم، وعددهم، وعدتهم، حتى يقوم بالتخطيط للمعركة حسب ما هو واقع أمامه.

ولم تكن تمر شاردة ولا واردة إلا ويصل خبرها إلى رسول الله ﷺ عبر طريق آمن وفي إطار من السرية والكتمان، ووفق معلومات صحيحة ودقيقة.

وعلى أساس تلك المعلومات التي كان يحصل عليها النبي ﷺ عن جيش أعدائه كان يقدر متى، وأين، وكيف تبدأ المعركة؟ وباعتماده ﷺ على الله تعالى، ثم معرفة أخبار جيش العدو، كانت النتائج تأتي دائماً على ما يحب الله ورسوله، ولم تكن تحدث خسائر في جيش المسلمين، وإن وقعت فهي قليلة لا تكاد تذكر، لأن الأمر محسوب ومحسوب قبل بداية المعركة. ولما لهذا الجانب - وهو رصد أخبار العدو - من أثر عظيم في إحراز النصر كان النبي ﷺ يقوم به بنفسه أو بواسطة أصحابه في بعض الأحيان.

ولم يعد الاستطلاع أن يكون سبباً من أسباب النصر، عمل النبي ﷺ على الأخذ به في غزواته للمساهمة في صنع النصر المأمول فحسب، بل كان هو هدف السرية الأول في بعض الأحيان كسرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه إلى «نخلة» بين مكة والطائف.

وفي غزوة مؤتة دارت رحى الحرب بين المسلمين والروم، وانتهت وخرج المسلمون منها بغير غنيمة مادية وإنما كان استطلاع أخبار الروم ومعرفة أساليب قتالهم هو مغنم المسلمين الأول.

وفيما يلي بمشيئة الله تعالى أعرض بعض الأمثلة التطبيقية للملامح السياسية

الرشيده للنبي ﷺ إبان حياته في جانب رصد أخبار الأعداء.

#### ١ - سرية عبد الله بن جحش تستطلع أخبار قريش:

في شهر رجب على رأس سبعة عشر شهرا من الهجرة أرسل النبي ﷺ دورية استطلاعية بقوة قوامها اثنا عشر رجلاً من المهاجرين، كل اثنين يتعقبان بعيراً إلى بطن نخلة - وهو بستان ابن عامر الذي قرب مكة - وكانت بقيادة عبد الله بن جحش الذي أعطاه النبي ﷺ رسالة في حرزها وأمره ألا يفتحها إلا بعد مسيرة يومين، يقول الإمام البيهقي أخبرنا عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمرو قالوا: حدثنا أبو العباس: محمد ابن يعقوب، قال: حدثنا أحمد بن عبد الجبار قال: حدثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحاق قال: حدثنا يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش إلى نخلة فقال له: «كن بها حتى تأتينا بخبر من أخبار قريش ولم يأمره بقتال وذلك في الشهر الحرام وكتب له كتاباً قبل أن يعلمه أين يسير فقال: أخرج أنت وأصحابك حتى إذا سرت يومين فافتح كتابك وانظر فيه، فما أمرتك به فامش له ولا تستكرهن أحدًا من أصحابك على الذهاب معك، فلما سار يومين فتح الكتاب فإذا فيه: أن امض حتى تنزل نخلة - بين مكة والطائف - فتأتينا من أخبار قريش بما اتصل إليك منهم، فقال لأصحابه حين قرأ الكتاب. قال: سمعاً وطاعة، من كان منكم له رغبة في الشهادة فلينطلق معي فإنني ماض لأمر رسول الله ﷺ ومن كره ذلك منكم فليرجع فإن رسول الله ﷺ قد نهاني أن أستكره منكم أحدًا فمضى معه القوم»<sup>(١)</sup> الحديث.

ومن مضمون الرسالة يتبين لنا: أن معرفة أخبار قريش كان هو هدف السرية الأولى.

فإذا حصل النبي ﷺ على المعلومات عن قريش في غدوها ورواحها ونشاطها، واتصالها بقبائل العرب أمكنه ذلك أن يرتب أمره على التحوط من قريش - فإنه ﷺ كان يتوقع منهم غدره، وأمكنه أن يضع الخطط العسكرية المدروسة دراسة محكمة،

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل باب سرية عبد الله بن جحش ١٨/٣. عن عروة بن الزبير والطبراني في الكبير: ٢:

١٦٢ رقم ١٦٧٠ عن جندب بن عبد الله ؓ.

والمبنية على معلومات صحيحة ودقيقة والكفيلة بتحقيق أهدافها.

وقد حققت هذه السرية أهدافها، وجنى النبي ﷺ ثمارها، وأصبح يعرف كل تحركات قريش، وأخبار قوافلها، واستطاع المسلمون من خلال هذه السرية أن يعرفوا الموقف العام لقريش تجاه المسلمين بعد الهجرة، واستفاد منها المسلمون كثيرا في غزوة بدر التي وقعت بعد أقل من شهرين من إرسال هذه السرية.

وكان النبي ﷺ أرسلها تمهيدا وتوطئة لغزو قريش لأنه كان يتوقع منها الإغارة في أى وقت والذي يقوي هذا الاحتمال قول الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية عن هذه السرية: باب سرية عبد الله بن جحش التي كان سببها لغزوة بدر العظمى وذلك يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير<sup>(١)</sup>.

## ٢- النبي ﷺ يستطلع الأخبار بنفسه:

لما علم النبي ﷺ أنه لابد من وقوع صدام مسلح بينه وبين المشركين في بدر، أخذ النبي ﷺ يخطط تخطيطا دقيقا للقاء المرتقب، والد جهول العاقبة.

وأخذ يسير بخطى محسوبة لأنه أول لقاء حقيقى بين قوى الحق والباطل، ونتيجته سوف تترك أثرا في مصير المسلمين، فهم سائرون لا محالة إما إلى الانتصار أو إلى غير ذلك ولذلك استغاث النبي ﷺ بربه كثيرا حينما حمى الرطيس واشتد البأس، وأثير النقع في بدر، فرفع يديه إلى السماء، وأخذ يدعو الله ويلح في الدعاء.

يقول الإمام البخارى رحمه الله: حدثني محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا عبد الوهاب حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ﴿سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].<sup>(٢)</sup>

(١) البداية والنهاية لابن كثير: باب سرية عبد الله بن جحش ٢٨٥/٣.

(٢) أخرجه البخارى في الصحيح كتاب المغازي ٤ باب قوله تعالى: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم» ٣٥٤/٧ ح ٣٩٥٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما ومسلم في الصحيح كتاب الجهاد والسير ١٨ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم ٦/٣٢٧ ح ١٧٦٣ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه والترمذى في كتاب تفسير القرآن ٩ باب ومن سورة الانفال ٨/٣٩٩ ح ٣٠٨١ عن همر بن الخطاب وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب والإمام أحمد في المسند ١/٣٢٩ عن ابن عباس.

ولأهمية هذا اللقاء لم يشأ النبي ﷺ أن يقاتل جيشاً مجهول العدد والعدة، ولا يعرف مقدار قواته، ومكان رباطه، ومدى استعداداته، ولذلك قام النبي ﷺ باستطلاع أخبار جيش المشركين بنفسه.

قال ابن إسحاق: ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران<sup>(١)</sup>، فسلك على ثنانيا<sup>(٢)</sup>، يقال لها: الأصافر<sup>(٣)</sup>، ثم انحط منها إلى بلد يقال لها الدبة<sup>(٤)</sup>، وترك الحنان بيمين، وهو كتيب عظيم كالجلبل العظيم، ثم نزل قريباً من بدر، فركب هو ورجل من أصحابه قال ابن هشام: الرجل هو أبو بكر الصديق.

قال ابن إسحاق: كما حدثني محمد بن يحيى بن حبان: حتى وقفنا على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبراني ممن أنتم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك».

قال: أذاك بذاك؟ قال «نعم» قال الشيخ فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ﷺ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش فلما فرغ من خبره قال: فمن أنتم؟ فقال رسول الله ﷺ «نحن من ماء» ثم أنصرف عنه قال: يقول الشيخ: ما من ماء أمن ماء العراق<sup>(٥)</sup>

والذي يقرأ الحديث السابق قراءة متأنية يدرك السياسة الحكيمة للنبي ﷺ في حسن تقدير المواقف، وفي أخذ الحيلة والحذر، وإجادة أسلوب التعمية، وإخفاء الوجهة الحقيقية، وإتقان طريقة جمع المعلومات بسرية تامة، وذلك حينما بدأ بالسؤال

(١) ذفران: واد قرب واد الصفراء والذفر كل ريح نقية من طيب أو تنن (معجم البلدان ٦/٣).

(٢) الثنية: في الجبل كالعقبة فيه، وقيل: هو الطريق العالي فيه وقيل أعلى المسيل في رأسه (النهاية «ثنا» ١/٢٢٦).

(٣) الأصافر: أو الصفراء واد من ناحية المدينة وهو واد كثير النخل والزرع والخير وسلوكه النبي ﷺ غير مرة وبينه وبين بدر مرحلة [معجم البلدان ٣/٤٦٨].

(٤) الدبة: بلد بين الأصافر وبدر وقيل بين الروحاء والصفراء (معجم البلدان ٢/٤٣٨).

(٥) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع: استشارة الأنصار (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/٢٢٠ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٣/٢٦٤ والطبري في تاريخه ٢/٢٧.

عن جيش محمد وأصحابه حتى يبعد عن ذهن الأعرابي مجرد الشك في أن الذي يسأله قد يكون جاسوسا يسأل عن جيش قريش لصالح محمد أو يمت إليه بأي صلة فضلا عن أن يكون هو ذا، وهناك براعة سياسية أخرى في مجال الاستخبارات يدركها من أجال فكره أمعن نظره في تحليل هذا الحوار، وهى: أن النبي ﷺ بدأ بالسؤال عن جيش محمد حتى يدرك خبرة الأعرابي بالمكان ومدى مرتحلته ونزوله ومكان شعابه ووديانه ودروبه فلما أخبر الأعرابي النبي ﷺ بالمكان الذي يربط فيه جيش المسلمين وجاء توقعه مطابقا للواقع أيقن النبي ﷺ أن توقعات الأعرابي صادقة ودقيقة، وأنه يعرف كل شاردة وواردة تمر بالوادي فأخذ النبي ﷺ يخطط للمعركة في ضوء هذه المعلومات

### ٣- التماس المزيد من الأخبار بواسطة نفر من الصحابة الكرام:

كان النبي ﷺ يحصل على كثير من المعلومات عن أعدائه بواسطة نفر من أصحابه قال ابن إسحاق: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فلما أمسى بعث على ابن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه، إلى ماء بدر، يلتمسون الخبر له عليه كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير فأصابوا راوية<sup>(١)</sup>، لقريش فيها أسلم، غلام بنى الحجاج، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول ﷺ قائم يصلى، فقالا: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان، فضربوهما فلما أذلقوهما<sup>(٢)</sup>، قالوا: نحن لأبى سفيان فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجديته، ثم سلم، وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا، والله إنهما لقريش أخبراني عن قريش؟» قالوا: هم والله وراء هذا الكتيب<sup>(٣)</sup>، الذى ترى بالعدوة القصوى فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالوا: كثير قال: «ما عدتهم؟» قالوا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالوا: يوما تسعا ويوما عشرة، فقال رسول الله ﷺ:

(١) هي الإبل التى يسقى الماء عليها (النهاية «روى» ٢/ ٢٧٩).

(٢) يعنى بالغوا فى ضربهما (النهاية «ذلق» ٢/ ١٦٥ بتصرف).

(٣) الرمل الطويل المحدودب [النهاية «كتب» ٤/ ١٥٢].



«القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالوا: عتبة بن ربيعة، وشيبة من ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى بن نوفل، والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، ونبية ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبدود. فأقبل رسول الله ﷺ فقال: «هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها»<sup>(١)</sup>.

وبهذا حصل النبي ﷺ على كثير من المعلومات عن جيش قريش باستجواب الغلامين، وأصبح كأنه يرى جيش المشركين رأي العين.

«والم تأمل في هذه القطعة من التاريخ يقف على مدى احتياط رسول الله ﷺ في الأمور، والنهوض في أسبابها، واتخاذ الخطوات الملائمة لكل ما يعرض له، فبالرغم من وعد الله تعالى له بالظفر بإحدى الطائفتين: القافلة، أو جيش قريش، أى أنه ﷺ متيقن من إحراز العدو بعد أن أفلتت القافلة، إلا أنه بعث بعض الصحابة يجمعون له المعلومات عن العدو وقام بنفسه بهذا العمل، وتتجلى عبقريته ﷺ في استنباط المعلومات، والتفاصيل الدقيقة، من طريقة السؤال لشيخ العرب عندما التقى به هو وأبو بكر وكذلك من تحليل الجواب في كل هذا، وكيف أنه ﷺ لم يهجم على الشيخ بسؤاله عن قريش، وإنما بدأ بسؤاله عن محمد ﷺ وأصحابه، وذلك لثقة من صدق علمه ومعرفته أولاً، فإنه إذا صدق فيما يتصل برسول الله ﷺ فإن صدق يكون دليل صدق على ما يخبر به عن قريش، كما أن في طريقه السؤال عن أصحابه عن محمد وأصحابه تشجيع للشيخ على التصريح بما يعلم عن قريش، يعتقد حينئذ أن السائل مجرد عابر طريق لا يتصل بأحد الفريقين من قريش أو أصحابه، وفي جوابه ﷺ للشيخ عندما أجابه «نحن من ماء» دليل حرصه ﷺ على أن يبتعد عن الكذب أو الخداع واستمسكه بالصدق في أشد المواقف، حيث لم يتردد في نفسه أو لأبى بكر اسماً

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة. موضوع: غزوة بدر الكبرى (السيرة النبوية لأبي هشام) - ٢/ ٢٢١ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب السير ١٢٩ باب الأسير يستطلع منه خبر المشركين ١٢٩/ ٩ ح ١٨٤٣٨ وأخرجه الإمام مسلم مختصراً بالفاظ متقاربة في كتاب الجهاد والسير ٣٠ باب غزوة بدر ٣٦٦/ ٦ ح ١٧٧٩ عن أنس بن مالك ﷺ وقد أثرت نقله من ابن إسحاق لأنه أتم سياقاً وأكثر فائدة.

أو قبيلة غير اسمه أو نسبه، ولكن أجاب الشيخ بالصدق الذي لا يكشف أمرهما فإن الإنسان خلق من ماء.

وبالتأمل العميق في حال النبي ﷺ حيث قام يصلى لله تعالى، بيان لما كان عليه ﷺ من التجاء إلى الله تعالى، ومولاته له ﷺ لا سيما في مواطن الحاجة، وفيه أيضًا بيان لما كان عليه ﷺ من علو الهمة، وشجاعة القلب، ورباطة الجأش، فقد كان يوقن بأن لقاء العدو المتجبر لا ريب فيه، ومع ذلك فقد كان يطوي ذلك في دخيلة نفسه لا يبيدها لأصحابه إلا بقدر معلوم، لأن الحقيقة شديدة مزلزلة، فعصبة الصحابة قليلة العدد والعدة، لم تتأهب للقتال، ولم تكن قد استعدت لحرب أيا كانت، بله قريش التي لها من التاريخ والعراقة في البأس والسطوة ما لم يكن لأحد من قبائل جزيرة العرب، فهذا جيشها يئيه على جبال مكة ووديانها قوة وبأسا وسطوة وفخرا يتخلله شجعان مكة وفتيانها، يحلمون بالقضاء على دعوة الإسلام واستئصال المسلمين وكان رسول الله ﷺ يعلم أن القافلة فاتته، وأن الله تعالى قد أخرج جبابرة مكة ورؤوس الكفر فيها، ليدمرهم تدميرًا في يوم الفرقان، ولكنه كان يقدر مشاعر الإنسان، وطاقة النفس والقلب عند الصحابة فلم يكن لينذرهم عدوهم، أو يشيع فيهم بيانات القتال، شفقة على نفوسهم وإيمانهم، وحرصا على قلوبهم وعزائمهم، ولذلك عندما فرغ من صلاته قال لهم «إذا صدقاكم ضربتموها وإذا كذباكم تركتموها صدقا، والله إنهما لقريش»<sup>(١)</sup> .

ويقول عباس محمود العقاد في معرض المقارنة بين رسول الله ﷺ وبين (نابليون) في الحياة العسكرية ومدى تخطيطهما لها مع الفارق الكبير بينهما، فالنبي ﷺ بلغ الغاية العظمى والنهاية القصوى في كل جانب من جوانب حياته وذلك بخلاف (نابليون) يقول: ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون، وكانت دراسة النبي ﷺ في ذلك مضرب الأمثال، فلما رأى أصحابه يضرّبون العبدین المستقيين من ماء بدر، لأنهما يذكرا قريشًا ولا يذكرا أبا سفيان،

(١) هدى الكتاب والسنة في الفتوحات الكبرى في الإسلام للاستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعي ص

علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء، وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرف العدد سأل عن عدد الجزور التي ينحرونها كل يوم، فعرف قوة الجيش بمعرفة مقدار الطعام الذي يحتاج إليه، وكان صلوات الله عليه إنما يعول في استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس إلى العلم بفجاجة ودروبه، ويعقد ما يسمى اليوم (مجلس الحرب) قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع<sup>(١)</sup> أ.هـ.

وبعد استجواب الغلامين حصل النبي ﷺ على معلومات أخرى عن جيش قريش بواسطة الصحابين الجليلين بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء<sup>(٢)</sup>، وبموجب هذه المعلومات علم النبي ﷺ موعد وصول جيش قريش بعد أن علم مكان رباطه من الشيخ الأعرابي، وعلم عدده وقوامه من الغلامين، وبذلك يكون النبي ﷺ قد حصل على كل المعلومات التي يحتاج إليها عن جيش قريش والتي أفادته كثيرا في التخطيط لمعركة بدر.

يقول ابن إسحاق عن خبر الدورية الاستطلاعية التي عرف منها النبي ﷺ موعد وصول غير قريش «وكان بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء قد مضيا حتى نزلا بدرا، فأناخا إلى تل قريب من الماء، ثم أخذا شئاً لهما<sup>(٣)</sup>، يسقيان فيه، ومجدي بن عمرو الجهني على الماء فسمع عدي وبسبس جاريتين من جوارى الحاضر، وهما تتلازمان<sup>(٤)</sup>، على الماء، والملزومة تقول لصاحبتها: إنما تأتي العير غدا أو بعد غد، فأعمل لهما، ثم أقضيك الذي لك قال مجدي: صدقت، ثم خلص بينهما، وسمع ذلك عدي وبسبس، فجلسا على بعيرهما، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا<sup>(٥)</sup>».

(١) عبقرية محمد للعقاد ص ٣٠.

(٢) هو الصحابي الجليل: عدي بن أبي الزغباء واسمه سنان بن سبيع بن ثعلبة بن ربيعة بن زهرة بن بزييل الجهني حليف بني النجار شهد بدرا وما بعدها وتوفي في خلافة عمر [الإصابة ٤/ ٤٧٤].

(٣) الشن: الأسقية الخلقة (النهاية «شنن» ٢/ ٥٠٦).

(٤) تتلازمان: تمسك كل واحدة منهما بصاحبتها (النهاية «لزم» ٤/ ٢٤٨ بتصرف).

(٥) ذكره ابن إسحاق. موضوع: استشارة الإنصار (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/ ٢٢٢.

وبذلك حصل النبي ﷺ على كثير من المعلومات الصحيحة عن قريش وأصبح كأنه يرى جيش المشركين رأي العين وخطط للمعركة وهو على بصيرة من أمره.

#### ٤ - الاستخبارات قبيل غزوة أحد:

لقد كانت نتيجة غزوة بدر مؤلمة، ومريرة المذاق لأهل مكة، حيث إن اقتصادهم قد تعرض للخطر بسبب مطاردة المسلمين لقوافلهم التجارية بعد غزوة بدر.

والذى يدل على مدى قلقهم على مستقبلهم الاقتصادي قول صفوان بن أمية (إن محمداً وأصحابه قد عوروا<sup>(١)</sup>)، علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعهم، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هذه مالنا بقاء، وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة<sup>(٢)</sup> أ.هـ.

ولذلك صممت قريش على رد شرفها، والأخذ بثأرها، والانتقام لنفسها من المسلمين، فجعلت جموعاً غفيرة من ثقيف وكنانة وتأهبوا جميعاً لقتال المسلمين.

ولكن أنى لرسول الله ﷺ أن يعرف أخبار ذلك الجيش الكبير الذى أحاط أمر خروجه بسياج من السرية والكتمان وخيل إليه أنه لا يهزم من أى جيش مهما كان. فما السبيل إذن إلى وصول نبأ تلك الجموع التى كانت على أهبة الاستعداد للانتقام من المسلمين؟ فتلك مؤامرة حيكت بليل ونسجت خيوطها في الخفاء.

إن الأمل الوحيد في معرفة أخبار هذا الجيش هو «الاستطلاع ورصد الأخبار» وتلك سياسة عسكرية رشيدة طبقها النبي ﷺ في كثير من غزواته عندما كان على أهبة الاستعداد لملاقاة أعدائه فساعدته كثيراً في تحقيق النصر.

«ولقد استطاع النبي ﷺ أن يعرف ما أقدمت عليه قريش من رسالة سرية مكتوبة ومختومة أرسلها العباس إليه بواسطة رجل من بنى غفار واشترط عليه أن

(١) عوروا أى أفسدوا [لسان العرب «عور» ٤/ ٣١٦٤].

(٢) المغازي للواقدي ١٩٥، ١٩٦. وانظر كتاب السيرة النبوية دراسة تحليلية ص ٣٢٠.

يوصلها خلال ثلاثة أيام وكان نص الرسالة: «اصنع ما كنت صانعا إذا وردوا عليك وتقدم في استعداد التأهب» اهـ .

والناظر في هذا الموقف يدرك أسبقية النبي ﷺ في وضع رجال المخابرات التي ترصد كل ما يدور في ساحة المشركين، وتنقل أخبارهم بسرعة فائقة، ودقة متناهية إلى النبي ﷺ في المدينة، ولذلك أمر النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يبقى في مكة بعد أن أسلم لكي ينقل أخبار المشركين إلى النبي ﷺ فكان لا يغيب<sup>(١)</sup> عليه خبر بمكة إلا كتب به إليه<sup>(٢)</sup>.

ولقد تسلم النبي ﷺ الرسالة في قباء فعاد مسرعا إلى المدينة وجمع المسلمين واستشارهم في الأمر بعدما أخبرهم بما أقدمت عليه قريش من السير إليهم لقتالهم<sup>(٣)</sup>.

٥ - استخدام الاستخبارات للحصول على كثير من المعلومات:

رسالة العباس السابقة أطلعت النبي ﷺ على الموقف العام لقريش وحلفائها تجاه المسلمين وعرف منها أن جيش الأعداء تجهز لقتاله، وتحرك من مكانه.

ولكنه لم يعرف قوام هذا الجيش، من حيث العدد والعدة لكي يخطط للمعركة تخطيطا دقيقا بحسب ما لديه من إمكانيات.

ولذلك أرسل النبي ﷺ الحباب بن المنذر لكي يستطلع أخبار جيش المشركين بعد أن يأخذ بكل أسباب الحيلة والحذر من انكشاف أمره وذلك بالمبالغة في الاستخفاء والتحايل وهذا أمر جائر.

«فإنه يجوز للإمام أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين، بينهم وبين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم وأحوالهم وليتبينوا ما هم عليه من قوة في العدد والعدة، ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك، بشرط أن لا تنطوي الوسيلة على الإضرار بمصلحة هي أهم من مصلحة الإطلاع على حال العدو، وربما استلزمت الوسيلة

(١) يغيب: أى يخفى [النهاية «غبا» ٣/ ٣٤٢].

(٢) الاستيعاب ٢/ ٨١٢، سير أعلام النبلاء ٢/ ٩٩، الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٣١.

(٣) كتاب أنساب الأشراف تأليف أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذرى تحقيق محمد حميد الله ١/ ٣ - تصرف. طبعة مطابع دار المعارف بمصر ١٩٥٩.

تكتما أو نوعا من المخادعة والتحايل، وكل ذلك مشروع وحسن من حيث أنه واسطة لا بد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم»<sup>(١)</sup>.

وضرب لنا النبي ﷺ أروع الأمثال في المحافظة على همة المسلمين عالية حينما بعث الحباب بن المنذر لاستطلاع جيش قريش وقال له (إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى في القوم قلة) فذهب مستخفيا حتى تخللهم ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال له: ما رأيت؟ قال يا رسول الله رأيت عددًا حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا والخيل مائة فرس، ورأيت دروعا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع<sup>(٢)</sup>، اهـ. وبذلك رصد النبي ﷺ كل تحركات أعدائه وعلم عددهم، وعدتهم، وحافظ على الروح القتالية الوثابة لدى المسلمين، وخطط للمعركة على ضوء تلك المعلومات الصحيحة.

٦- النبي ﷺ يحض الصحابة على استطلاع جيش المشركين في غزوة الأحزاب:

رغب النبي ﷺ أصحابه في استطلاع جيش المشركين في غزوة الأحزاب وبشر الذي يأتيه بخبر القوم بمرافقته ﷺ يوم القيامة قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى: حدثنا زهير بن حرب وإسحق بن إبراهيم. جميعا عن جرير. قال زهير حدثنا جرير عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: كنا عند حذيفة<sup>(٣)</sup>، فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر<sup>(٤)</sup>، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا فلم يجبه منا أحد ثم قال:

(١) فقه السيرة النبوية للبوطي ص ١٦١.

(٢) مغازي الواقدي ص ٢٠٧ وموكب النور في سيرة الرسول لمحمد زكي بيضون ص ١٩٢ الناشر الكتاب العربي بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٨٠ م. والطبقات الكبرى: غزوة الرسول ﷺ أحدا ٢٨/٢.

(٣) هو الصحابي الجليل: حذيفة بن اليمان واسم اليمان حسيل ويقال حسل العيسى حليف الأنصار صحابي جليل من السابقين أعلمه رسول الله ﷺ بما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة وأبوه صحابي أيضًا استشهد بأحد ومات حذيفة في أول خلافة علي عليه السلام سنة ست وثلاثين [الإصابة ٤٤/٢].

(٤) القر: هو البرد (النهاية «قرر» ٣٨/٤).

«ألا رجل يأتينا بخير القوم جعله الله معى يوم القيامة؟» فسكتنا فلم يجبه منا أحد فقال «قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم» فلم أجد بداً، إذ دعاني باسمي، أن أقوم قال: «اذهب، فأتني بخبر القوم ولا تدعهم علي»<sup>(١)</sup>، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام<sup>(٢)</sup>، حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصلي<sup>(٣)</sup>، ظهره بالنار فوضعت سهما في كبد القوس فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله ﷺ «ولا تدعهم علي» ولو رميته لأصبت فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام فلما أتيت فأخبرته بخبر القوم، وفرغت، قررت فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى أصبحت فلما أصبحت قال: «قم يا نومان»<sup>(٤)</sup>.

٧- الاستخبارات تكشف خروج قريش لصعد النبي ﷺ عن البيت الحرام في الحديبية:

في العام السادس من الهجرة أراد النبي ﷺ زيارة البيت الحرام بمكة لأداء العمرة فحال المشركون دون وصوله ﷺ إلى البيت ولم يكن ﷺ يتوقع أن يصده المشركون عن زيارة البيت الحرام ولم يصل إليه ﷺ نبأ خروج المشركين لصده عما أراد وإرجاعه من حيث جاء.

فلما وصل النبي ﷺ إلى «ذي الحليفة» قلد الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة، وأرسل عينا من خزامة ليستطلع له أمر قريش يقول الإمام البخاري رحمه الله حدثنا

(١) ولا تدعهم علي: يعنى قريشاً والذعر: الفزع، يريد لا تعلمهم بنفسك وامش في خفية لئلا ينفروا منك ويقبلوا علي (النهاية «ذعر» ١٦١/٢).

(٢) في حمام: أصله من الحم وهو الحرارة أو مشتق من الحميم وهو الماء الحار (النهاية «حم» ٤٤٥/١ بتصرف) والمعنى: أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس، ولم يجد من تلك الرياح الشديدة شيئاً بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبي ﷺ وذهابه فيما وجهه له ودعائه ﷺ له، واستمر ذلك اللطف به ومعافاته من البرد حتى عاد إلى النبي ﷺ، فلما رجع ووصل عاد إليه البرد الذي يجده الناس، وهذه من معجزات رسول الله ﷺ (شرح النووي على صحيح مسلم ٣٨٧/٦).

(٣) يصلي ظهره بالنار: أى يذفته (النهاية «صلا» ٥١/٣).

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الجهاد والسير ٣٦ باب غزوة الأحزاب ٣٨٥/٦، ٣٨٦ ح ١٧٨٨ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب السير ١٣٠ باب بعث العيون والطلائع من المسلمين ١٤٨/٩ ح ١٨٤٤٢ كلاهما عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

عبد الله بن محمد حدثنا سفيان قال سمعت الزهري حين حدث هذا الحديث حفظت بعضه وتبتنى معمر عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم - يزيد أحدهما على صاحبه - قالا خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمره وبعث عينا له من خزاعة وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه قال: إن قريشًا جمعوا لك جموعا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت ومانعوك، فقال: أشيروا أيها الناس علي أترون أن أميل إلى عيالهم وذراي هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت فإن يأتونا كان الله ﷻ قد قطع عينا من المشركين وإلا تركناهم محروبين قال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه، قال: امضوا على اسم الله<sup>(١)</sup>.

وبعد أن علم النبي ﷺ أخبار قريش عن طريق الاستطلاع الذي قام به بشر<sup>(٢)</sup>، ابن سفيان العتكي استطاع أن يتفادى طريق قريش حتى لا يصطدم معهم فتقع معركة بينه وبينهم غير متكافئة في العدد أو العدة ولذلك قال ﷺ لأصحابه بعد وصول هذه الأخبار فيما رواه ابن إسحاق بقوله حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدثاه قالا: - فذكرا حديثا طويلا - وفيه. ثم قال ﷺ «(من رجل يخرج بنا على طريق غير التي هم بها؟ فقال رجل من بنى أسلم: أنا يا رسول الله فسلك بهم طريقا وعرا بين الشعاب<sup>(٣)</sup>».

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٣٥ باب غزوة الحديبية ٧/٥٦٠ ح ٤١٧٨، ٤١٧٩ والإمام أحمد في المسند ٤/٤٢٣ والإمام عبد الرزاق في المصنف: غزوة الحديبية ٥/٣٣٠ ح ٩٧٢٠ والإمام البيهقي في السنن الكبرى كتاب الجزية ٤٠ باب المهادنة على النظر للمسلمين ٩/٢١٨ ح ١٨٨٠٧ جميعهم عن المسور ومروان.  
(٢) هو الصحابي الجليل: بشر بن سفيان العتكي أرسله النبي ﷺ إلى مكة يتجسس الأخبار قبل عمرة الحديبية [الإصابة ١/٢٩٦].

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة النبوية موضوع: أمر الحديبية في آخر سنة ست (السيرة النبوية لابن هشام) ٣/٢٨٣.



## ٨- الاستخبارات تنقل إلى النبي ﷺ خبر نقض قريش لعهد الحديبية:

لم تمض إلا مدة يسيرة بعد صلح الحديبية حتى نقضت قريش عهدها مع النبي ﷺ حيث إنها مالأت بنى بكر وشاركت معهم في الاعتداء على قبيلة خزاعة الداخلة في حلف النبي ﷺ إذ باغتهم بإعمال السيف فيهم وهم غادون آمنون وعامتهم صبيان ونساء وضعفاء الرجال فالتجؤا إلى الحرم يحتمون به فقال أصحاب نوفل زعيم بنى بكر وقائدهم الغادر: يا نوفل إلهك إلهك قد دخلت الحرام، فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم، يا بنى بكر لعمرى إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تدركون ثأركم من عدوكم، ولا يتأخر أحد منكم بعد يومكم؟ إشارة إلى غلبة خزاعة على بنى بكر قبل الهدنة<sup>(١)</sup>.

وكل هذه الأحداث جرت ولم يعلم النبي ﷺ عنها شيئاً أثناء وقوعها فسارع عمرو بن سالم الخزاعي<sup>(٢)</sup>، بالتوجه إلى المدينة المنورة حاملاً أخبار نقض قريش وبنى بكر عهد الحديبية، فلما وصلها قصد المسجد، وقص على الرسول الله ﷺ وأصحابه ما أصاب خزاعة من بنى بكر وقريش في مكة وخارجها فأجابه الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام البيهقي بقوله أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر بن الحسن القاضي قال ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور ابن مخرمة - فذكرا حديثاً طويلاً - وفيه فقال رسول الله ﷺ: «نضرب يا عمر وبن سالم»<sup>(٣)</sup>.

(١) السيرة النبوية لابن هشام موضوع: ذكر الأسباب الموجبة المسير إلى مكة ٢٤/٤ - والسيرة النبوية دراسة تحليلية د/ محمد عبد القادر أبو فارس ص ٣٩٠.

(٢) هو الصحابي الجليل: عمرو بن سالم بن حصيرة بن سالم الخزاعي كان يحمل ألوية خزاعة يوم الفتح [الإصابة ٢٩٢/٥].

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الجزية ٥٥ باب نقض أهل العهد أو بعضهم العهد ٩/٢٣٤ ح ١٨٨٥٩ وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة في جماع أبواب فتح مكة حرسها الله تعالى باب نقض قريش ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ في الحديبية ٥/٧ وابن إسحاق في السيرة النبوية موضوع: خزاعة تستنجد برسول الله ﷺ ٢ السيرة النبوية لابن هشام ٢٨/٤.

وخرج بديل بنى ورقاء<sup>(١)</sup>، في نفر من خزاعه، حتى قدموا المدينة فأخبروا النبي ﷺ بما أصابهم فعزم الرسول ﷺ على فتح مكة<sup>(٢)</sup>.

وعلى أساس المعلومات الصحيحة التي حصل عليها النبي ﷺ قدر الأمر بعد تيقنه من نقض المشركين العهد، وخطط لفتح مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا.  
٩ - الاستخبارات والهزيمة ثم النصر في حنين:

حينما أصر مالك بن عوف على قتال المسلمين بعد فتح مكة وخرج في عشرين ألف مقاتل ومعه النساء والأطفال والإبل والحمير وسائر دواب القوم لتكون حافزا على القتال بزعمه.

ولما علم النبي ﷺ بما فعل مالك بن عوف من حشد القبائل لقتال المسلمين قرر ﷺ الخروج إلى هوازن وقتالها، وأخذ يعد العدة لذلك فوجد نقصا في الدروع والرماح فاستعار حاجته من الدروع من صفوان بن أمية<sup>(٣)</sup>، وقد بلغت مائة درع، واستعار ثلاثة آلاف رمح من نوفل بن الحارث<sup>(٤)</sup>،<sup>(٥)</sup>

ولما دبر النبي ﷺ السلاح اللازم لجيشه بعد وصول نبأ خروج هوازن لقتاله، أراد أن يعرف المكان الذي احتشدوا فيه فأرسل عبد الله بن أبي حدرد وأمره أن يأتيه

(١) هو الصحابي الجليل بديل بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة بن عبد العزى الخزاعي أسلم قبل الفتح وسكن مكة ومات قبل النبي ﷺ [الإصابة ١/ ٢٧٥].

(٢) السيرة النبوية لابن هشام موضوع: خزاعة تستنجد برسول الله ﷺ ٢٩/٢ بتصرف.

(٣) هو الصحابي الجليل صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح أبو وهب الجمحي حضر وقعة حنين قبل أن يسلم ثم أسلم وأذن له النبي ﷺ بالرجوع إلى مكة فأقام بها حتى مات أيام مقتل عثمان [الإصابة ٣/ ٤٣٢].

(٤) هو الصحابي الجليل: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ أسر يوم بدر وأفدى نفسه برماحه ثم أسلم بعدها ومات في خلافة عمر [الإصابة ٦/ ٤٧٩].

(٥) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٣/ ١٢٦، ١٢٧ بتصرف يسير. الناشر دار القلم بيروت وكتاب سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحى الشافعى المتوفى سنة ٩٤٢ هـ تحقيق عبد العزيز عبد الحق حلمي ٥/ ٤٦٣ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامى سنة الطبعة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ بالقاهرة - وينظر السيرة النبوية دراسة تحليلية ص ٤١٦.

بما سمع من مالك وما جمع من معلومات استقاها من مشاهداته وملاحظاته ففعل عبد الله ما أمره به النبي ﷺ وذهب ثم رجع وأخبر النبي ﷺ أنه سمع مالكا يقول لأصحابه: «إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقي قوماً أغماراً<sup>(١)</sup>، لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم، فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم من ورائكم ثم صفوا ثم تكون الحملة منكم، واكسروا جفون سيوفكم، فتلقونه بعشرين ألفاً مكسورة الجفون واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً<sup>(٢)</sup>».

ولما أخبر النبي ﷺ عن هوازن بمعلومات كافية عن مكان رباطها وعن عددها وعدتها، وكل تحركاتها وسكناتها خطط لها تخطيطاً محكماً وبشر المسلمين بالنصر على هوازن وأخبرهم أن أموالهم التي خرجوا بها لتكون دافعاً لهم على القتال سوف تكون غنيمة للمسلمين<sup>(٣)</sup>.

إخفاق المخبرات تسبب في هزيمة المسلمين في الصفحة الأولى من حنين:

(أرسل المشركون دوريات استطلاع لمعرفة اتجاه حركة المسلمين والمواضع التي وصلوها، وقوتهم، وقد كانت فائدة هذه الدوريات للمشركين كبيرة جداً لأنهم أنجزوا احتلال وادي حنين بشكل ممتاز قبل وصول المسلمين إليهم وباغتوا جموع المسلمين حين دخولهم فيه، ولولا دوريات استطلاعهم لما استطاعوا معرفة المواضع التي وصلها المسلمون فبنوا خطتهم على ضوء تلك المعلومات الصحيحة لكي يباغتوا المسلمين لذا فقد كان عمل دوريات استطلاع المشركين متميزاً.

إن واجب مقدمة الجيش المهم هو حماية «القسم الأكبر» والحصول على المعلومات عن العدو حتى لا تباغت قوات «القسم الأكبر». وفي حنين لم تنجز مقدمة المسلمين هذا الواجب أبداً، فهي لم تستطع معرفة

(١) الأغمار: هم الذين يرمون أنفسهم في الأمور المهلكة [النهاية «غمر» ٣/ ٣٨٤ بتصرف].

(٢) سبل الهدى والرشاد ٥/ ٤٦٣ - وكتاب المغازي لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي ٣/ ٨٩٣ - طبع في كلكتا سنة ١٨٥٦ م الناشر الجمعية الآسيوية في البنغال - وكتاب ذاد المعاد في هدى خير العباد للإمام ابن قيم

الجوزية فصل في غزوة حنين» ٢/ ٢٧٥ طبعة دار التقوى بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

(٣) السيرة النبوية دراسة تحليلية ص ٤١٧.

مواضع المشركين التي احتلوها في وادي حنين، واندفعت المقدمة بسرعة على غير هدى وبصيرة واندفعت وراءها قوات المسلمين لاعتقادها أن اندفاعها هذا أمين وغير خطر، إذ لو كان هناك خطر لما اندفعت المقدمة أو لاستطاعت القضاء عليه.

إن من أهم أسباب هزيمة المسلمين في الصفحة الأولى من معركة حنين، هو عدم قيام مقدمتهم بواجبها، فلم تحصل على المعلومات على مواضع العدو، ولم تمنع مباغتة العدو للقسم الأكبر.

وبذلك أخفقت مقدمة المسلمين يوم حنين في واجبها - وهو الاستطلاع - إخفاقاً ذريعاً على الرغم من أنها كانت بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه<sup>(١)</sup>. ثم في النهاية كان النصر حليف المسلمين بسبب ثبات النبي ﷺ.

#### ١٠ - ماذا استفاد المسلمون من غزوة مؤتة:

غزوة مؤتة<sup>(٢)</sup>، وقعت في جمادى الأولى سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ وكان سببها: أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسولا غيره، فاشتد ذلك عليه رضي الله عنه وندب الناس فأسرعوا وعسكروا بالجرف<sup>(٣)</sup>، وهم ثلاث آلاف<sup>(٤)</sup>، وأمر عليهم النبي ﷺ زيد بن حارثة يقول الإمام البخاري رحمته الله تعالى: أخبرنا أحمد بن أبي بكر حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن سعيد عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ: «وإن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة، قال عبد الله: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية»<sup>(٥)</sup>.

(١) الرسول القائد ص ٣٨٢، ٣٨٣ بتصرف.

(٢) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام وهي بأدنى البلقاء، والبلقاء دون دمشق (معجم البلدان ٨ / ١٩٠).

(٣) الجرف: موضع على ثلاث أميال من المدينة نحو الشام [معجم البلدان ٢ / ١٤٩].

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: سرية مؤتة ٩٧ / ٢.

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب المغازي ٤٤ باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٧ / ٦٣٢ ح ٤٢٦١ والبيهقي

في السنن الكبرى كتاب قتال أهل البغي ٩ باب جواز توليه الإمام من ينوب عنه وإن لم يكن قرشياً ٨ / ١٥٤ ح

١٦٥٩٦ كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنه.

وعقد لهم رسول الله ﷺ لواء أبيضا ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم رسول الله ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا فيها ونعمت وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم. ثم ودعهم رسول الله ﷺ، فلما خرجوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم فجمعوا لهم وقام فيهم شرحبيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف، وبلغ المسلمون أن هرقل جمع مائة ألف من بهراء ووائل وبكر ولخم وجزام، ولما رأى المسلمون هذه الجموع الغفيرة من جيوش الروم أقاموا ليلتين لينظروا في أمرهم وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضى فمضوا إلى مؤتة ووافاهم المشركون، فجاء منهم ما لا قبل لأحد به من العدد والسلاح، فالتقى المسلمون والمشركون فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل، وقاتل المسلمون معه على صفوفهم، حتى قتل طعنا بالرماح رحمته، ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب فنزل عن فرس له وقاتل حتى قتل رحمته ضربه رجل من الروم فقطعه نصفين، فوجد في أحد نصفيه بضعة وثلاثون جرحا<sup>(١)</sup>، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل رحمته ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد رحمته ففتح الله على يديه قال الإمام البخاري رحمته تعالى حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علفة عن أيوب عن حميد بن هلال عن أنس بن مالك رحمته قال: «خطب رسول الله ﷺ فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة ففتح الله عليه، وما يسرنى - أو قال: ما يسرهم - أنهم عندنا وقال: وإن عينيه لتذرفان<sup>(٢)</sup>،<sup>(٣)</sup>».

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: سرية مؤتة ٩٨/٢ باختصار.

(٢) ذرفت العين: أى جرى دمعها (النهاية «ذرف») ١٩٥/٢.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الجهاد والسير ١٨٣ باب من تأمر في الحرب من غير إمرة إذا خاف العدو ٦/٢١٨ ح ٣٠٦٣ وفي كتاب المغازي ٤٤ باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦٣٤/٧ ح ٤٢٦٢ والحاكم في كتاب المغازي والسرايا ٤٢/٣ ح ٤٣٥٤ وقال: وقد اتفق الشيخان على حديث حميد بن هلال عن أنس وذكر الحديث وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم. والإمام أحمد في المسند ١١٣/٣، ١١٨ - والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب قتال أهل البغي ٩ باب جواز تولية الإمام من ينوب عنه وإن لم يكن قرشيا ٨/١٤٥ ح ١٦٥٩٧. جميعهم عن أنس رحمته.

ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمته الله تعالى اختلاف أهل النقل في المراد بقوله ﷺ: «حتى فتح الله عليه» فهل كان هناك قتال فيه هزيمة للمشركين، أو المراد بالفتح انحيازه بالمسلمين حتى رجعوا سالمين؟ ثم ساق ابن حجر روايات تؤيد الرأي الأول، وروايات أخرى تؤيد الرأي الثاني ثم قال: ويمكن الجمع بين الروايات المختلفة بأن يكونوا هزموا جانباً من المشركين وخشى خالد أن يتكاثر الكفار عليهم فأنحاز بهم حتى رجع إلى المدينة.

وقال العماد ابن كثير: يمكن الجمع بأن خالداً لما حاز المسلمين وبات، ثم أصبح وقد غير هيئة العسكر، وتوهم العدو أنهم قد جاءهم مدد، فحمل عليهم خالد حينئذ فولوا فلم يتبعهم، ورأى الرجوع بالمسلمين هي الغنيمة الكبرى <sup>(١)</sup> ١٠٠هـ.

ويظهر لي: أن الله نصر المسلمين في هذه الغزوة وألقى الرعب في قلوب الروم فولوا مدبرين أمام جيش المسلمين مع أن المعركة كانت غير متكافئة من ناحية العدد والسلاح، إلا أن الله تعالى أتى بالفتح على يد خالد بن الوليد وذلك بفضلته تعالى، ثم بحيلة عسكرية دبرها خالد بن الوليد رضي الله عنه حينما أصبح فجعل مقدمة الجيش ساقة وميمته ميسرة فأنكر العدو حالهم وقالوا: جاءهم مدد فرعبوا وانكشفوا منهزمين.

ومما يؤيد أن المعركة انتهت لصالح المسلمين قول ابن حجر: وقع في المغازي لموسى بن عقبة - وهي أصح المغازي - ما نصه «ثم أخذه، يعنى اللواء عبد الله بن رواحة فقتل ثم اصطالح المسلمون على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين» <sup>(٢)</sup> ١٠٠هـ.

فالمسلمون وإن لم يرجعوا من هذه الغزوة بغنيمة مادية إلا أنهم رجعوا بغنائم تفوق ذلك في نظري، وهي إلقاء الرعب في قلوب المشركين والرجوع بالمسلمين دون خسائر تذكر كما أن معرفة أخبار الروم، ومعرفة أساليب قتالها كان هو مغنم المسلمين الأول.

(١) فتح الباري لأبن حجر ٦٣٥ / ٧ بتصرف.

(٢) المرجع السابق والجزء والصفحة.

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب:

كانت معركة مؤتة معركة استطلاعية أفادت المسلمين كثيرا في معرفة خواص قوات الروم، وأساليب قتالها، وخواص حلفائها من القبائل وأساليب قتالهم وقوتهم، فاستفادوا من هذه المعلومات في قتالهم بعد ذلك ضد الروم، ولا تعد خسائر المسلمين الطفيفة شيئا يذكر بجانب الفائدة العسكرية التي أفادوها من الإطلاع على خواص قوات الروم وحلفائها وتنظيمها وتسليحها وأساليب قتالها، مما كان له عظيم الأثر في المعارك التي خاضها المسلمون فيما بعد<sup>(١)</sup>. هـ.

١١ - عمل النبي ﷺ في جمع المعلومات عن أعدائه وأثر ذلك:

قلت إن معرفة أخبار العدو قبل ملاقاته أمر في غاية الأهمية، يسهم كثيرا في تحقيق النصر، لأنه من خلال جمع المعلومات عن جيش العدو يصبح القائد على بصيرة من أمره فيخطط للمعركة حسب إمكانياته ويعوض نقص عدده وعدته إن وجد بالتخطيط المحكم والتدبير السليم، ويتحاشى مفاجأة الأعداء له الأمر الذي قد يزيهله ويفقده رشده وينسيه صوابه.

وكان النبي ﷺ مثلاً يحتذى لكل قائد على مر التاريخ في هذا الميدان فقد عرف ﷺ وجهات أعدائه قبل وقت مبكر، واستطاع أن يقضي على تخطيطاتهم العدوانية قبل أن يستفحل أمرها، فلم يبرم يهود ولا القبائل أمرا إلا وعرف ما أبرموا فورا، واتخذ التدابير الحاسمة للقضاء على نياتهم العدوانية في عقر دارهم واستطاع في كل مرة أن يفرق شمل أعدائه قبل أن ينجزوا حشد قواتهم للتعرض بالمسلمين لقد كان الرسول ﷺ منتبها كل الانتباه لكل حركة داخلية وخارجية ولم يتهاون لحظة في جمع المعلومات، فلا عجب إذا كانت قراراته سريعة صحيحة ولا عجب إذا كانت خطته التي يرسمها استنادا إلى تلك القرارات الناجحة إلى أبعد حدود النجاح.

(١) الرسول القائد ص ٣٠٥ بتصرف يسير.

وكان يحصل على المعلومات عن العدو بواسطة دوريات القتال ولاستطلاع  
وبالعيون والأرصاد واستنطاق الأسرى، والاستطلاع الشخصي وباستشارة ذوي  
الرأى<sup>(١)</sup>.

---

(١) الرسول القائد ص ٤٣٦ بتصرف.



## الفصل الرابع

### التعبئة المعنوية وأهميتها فى إحراز الهدف

ويتضمن تمهيداً وثلاث عشرة نقطة:

- ١- تذكير الجنود بالجزاء الذى ينتظرهم.
- ٢- تثبيت الجنود بإخبارهم بأن الله تعالى معهم وأنه سوف يمدهم بقوته وملائكته.
- ٣- تهوين القائد للجنود من شأن العدو.
- ٤- إلقاء الرعب فى قلوب الأعداء.
- ٥- المعنويات فى بدر.
- ٦- ما حل بالمشركون من وهن ورعب.
- ٧- التعبئة المعنوية فى غزوة أحد.
- ٨- الهمة العالية فى غزوة بدر الثانية.
- ٩- النبي ﷺ يعمل على تحفيز هم المسلمين عند الاستعداد لغزوة الأحزاب («الخندي»)
- ١٠- مشاركة القائد جنوده فى كل موقف من مواقف القتال والاستعداد للمعارك.
- ١١- حرص النبي ﷺ على زلزلة نفوس أعدائه فى عمرة القضاء.
- ١٢- المعنويات عقب الانسحاب من مؤتة.
- ١٣- كيف استفاد قادة العالم من رسول الله ﷺ فى هذا الجانب.

## الفصل الرابع

### التعبئة المعنوية وأهميتها في إحراز الهدف

تمهيد:

اهتم النبي ﷺ برفع الروح المعنوية في نفوس جنوده اهتمامًا كبيرًا وذلك لما لها من أثر عظيم في إحراز النصر.

وكان ﷺ يرغب المسلمين في الجهاد والاستشهاد، فإن التأميل في النصر وحسن العاقبة هو بضاعة الأنبياء، ورجاء الأتقياء، فكان ﷺ يعمل على تحفيز الهمم وشحذ العزائم، من خلال إلقاء كلمات على جمهرة الجيش الذي أضحى على أهبة الاستعداد للملاقاة، ولعمري كم كانت تلك الكلمات محفزة، وتلك العبارات مشجعة بحيث لو سمعها الجبان لقاتل، والمدبر لقابل، والمسالمة لحارب، والفار لكر، والمتزلزل لاستقر

وعمد النبي - ﷺ - إلى ذلك لكثرة عدد أعدائه إزاء قلة عدد المسلمين ففي بعض الغزوات كان جيش الكفار يبلغ خمسة أضعاف جيش المسلمين، أو يزيد ومع ذلك كان المسلمون يقبلون على القتال بعقيدة راسخة، وإيمان ثابت، ومعنويات مرتفعة. فتنهار كثرة عدد المشركين أمام عزائم المسلمين الماضية

فإن مما يديم المعنويات هو وجود أهداف يؤمن بها الجنود بصورة خاصة والشعب بصورة عامة، وقد كانت أهداف المسلمين جميعًا حينذاك هي إعلاء كلمة الله والعمل على حرية نشر الدعوة الإسلامية بدون تدخل أحد ونشر لواء العدل والسلام بين الناس كافة، تلك الأهداف التي آمن بها المسلمون إيمانًا عميقًا وجاهدوا في سبيلها بكل ما يمتلكونه من غال ونفيس

كما أن صفات القيادة الحقة تخلق المعنويات وتديمها، فإذا كانت الأمة محظوظة تهيأ لها قائد عظيم حكيم شجاع يبعث الثقة الحقيقية في الأمة

«ولست أعرف قائدًا للأمة قديمًا أو حديثًا امتلك صفات القيادة الحقة كما امتلكها الرسول ﷺ إذ كان في صفاته ومزايه رجلًا يعادل أمة أو هو أمة تعادل رجلًا

كما يقولون.

فلا عجب أن يتحلى المؤمنون بالمعنويات العالية عندما كانوا ضعفاء أصبحوا أقوياء يسيطرون على شبه الجزيرة العربية كلها بدون منازع»<sup>(١)</sup>.

وكان القرآن الكريم هو السبب المباشر، والعامل الأول، الذى رفع معنويات المجاهدين المسلمين إلى عنان السماء، فعندما أنزله الله ﷻ على النبي ﷺ، أصبح المسلمون وقد تغلبوا على الخوف، والخور، والضعف، واليأس.

ومن الآيات الكريمة التى نزلت على النبي ﷺ فأخذ يتلوها على المسلمين مبينا لهم أن الغلبة لا تكون فى كثرة العدد والعدة فقط، وإنما النصر مع الصبر قوله تعالى: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وأخذ النبي ﷺ يعمل على تحفيز همم المسلمين من خلال ما يلى:

١ - تذكير الجنود بالجزاء الذى ينتظرهم:

ولا شك أن هذا الأمر يقوي عزمهم قال تعالى ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

فالله ﷻ أخبر المسلمين على لسان رسوله ﷺ فى هذه الآية أنهم طالما يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله، فلا بد من إحراز تقدم وسبق، إما شهادة وإما نصر، وكلاهما أمر محبوب ومحمود.

٢ - تثبيت الجنود بإخبارهم بأن الله تعالى معهم وأنه سوف يمددهم بقوته وملائكته:

قال تعالى فى معرض الحديث عن قتال الملائكة فى بدر فى أول لقاء مسلح بين المسلمين والكافرين، وأول صراع حقيقى بين قوى الحق والباطل ﴿إِذْ يوحى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنى مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتْنِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] وهذا فيه ما فيه من رفع معنويات المسلمين، ومن تأميل فى النصر يصل إلى حد اليقين، لأن المسلمين يشعرون

(١) الرسول القائد ص ٥٨ بتصرف.

بعد نزول هذه الآية أنهم يقاتلون في معية الله تعالى، وتحت لوائه، وأنهم ليسوا بمفردهم، وأن الله لن يتخلى عنهم وإنما سيمدّهم بعونه وقوته، وأنهم يقاتلون وسط الملائكة الذين هم خير جنود الله تعالى.

يقول ابن كثير رحمته الله في تفسير قوله تعالى ﴿إِذْ يُوْحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذه نعمة جليلة أظهرها الله تعالى لهم ليذكروها عليها وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، أوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا، وأنه تعالى معهم قال ابن إسحاق: حدثني من لا اتهم عن مقسم عن ابن عباس قال: ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددا ومدا لا يضربون<sup>(١)</sup>.

وقال غيره: قاتلوا معهم وقيل: كثروا سوادهم وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول: سمعت هؤلاء القوم يعنى المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً، فتقوى أنفسهم<sup>(٢)</sup>.

أقول: وفي القول السابق دلالة قاطعة على أن الملائكة كانوا يعملون على رفع معنويات المسلمين في الغزوات ويخبرونهم بنفوس المشركين المنهارة ومعنوياتهم المتحطمة ولا شك أن هذا الأمر كان يقوي المسلمين، ويرفع شأنهم، ويشد أزهرهم، ويقول ابن كثير في تفسيره (٢/٢٩٩) في معنى قوله تعالى ﴿سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّعْبَ﴾ أى ثبتوا أنتم المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك، سألتني الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي<sup>(٣)</sup> ١٠هـ.

### ٣- تهوين القائد لجنوده من شأن العدو:

كان النبي ﷺ يهون من شأن أعدائه في أعين أصحابه حتى يقوي عزيمتهم

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع شهود الملائكة وقعة بدر (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/٢٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٩ وينظر الطبقات الكبرى لابن سعد: غزوة بدر ١١/٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٩.

والمعلوم أن الله ﷻ أرى نبيه رؤيا في الليلة التي صبيحتها يوم بدر، وكان في هذه الرؤيا رفع لمعنويات نبيه ﷺ، حتى يحكيها لأصحابه فتقوى نفوسهم، ولكي يحرض المؤمنين على القتال: قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلا وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتا لهم.

وفي قوله ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ﴾ أى لجنبتهم عنهم واختلقتهم فيما بينكم. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أى من ذلك بأن أراكم قليلا<sup>(١)</sup>.

ولمزيد من العمل على رفع الروح القتالية عند المسلمين قلل الله أعداد جيش المشركين في أعين المسلمين حينما تراءى الجمعان، وجد الجد، وحى الوطيس، وجاءت ساعة الجد والحسم واللقاء.

يقول تعالى ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْتِمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤].

فلو رأى المسلمون الكافرين في هذا العدد الكثير لخارت قواهم، ووجلّت قلوبهم، خاصة إذا علقوا النصر على الحسابات المادية فقط بقياس نسبة الفارق بين عددهم وعدد جيش المشركين ولكن الله رحم قلوب تلك القلة التي تقاتل تحت لوائه، وأظهر عدد المشركين في أعين المسلمين قليلا وارتفعت همة المسلمين، وأقبلوا على المعركة بكل شجاعة وبسالة وإقدام وثبات.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية السابقة: وهذا أيضًا من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين فيجروهم عليهم ويطمعهم فيهم.

قال أبو إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قُلِّلُوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه فقال: كنا ألفاً<sup>(٢)</sup> ١.هـ.

يقول العقاد في معرض المقارنة بين رسول الله ﷺ وبين أحد القواد المحدثين

(١) المرجع السابق ٢/ ٣٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢٢.

(وهو نابليون) مع الفارق الكبير بينهما: وكان نابليون يقول إن نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد، والنبي ﷺ كان كثير الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الإيمان.

وربما بلغت نسبة هذه القوة إلى الكثرة العددية كنسبة خمسة إلى واحد في بعض المعارك مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح والركاب إلى جانب رجحانهم في عدد الجنود ومعجزة الإيمان هنا أعظم جدًا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة فالنبي ﷺ كان يحارب عربا بعرب، وقرشيين بقرشيين، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة فلا يقال هنا إن الفضل لقوم على قوم في المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والإيمان<sup>(١)</sup>..

#### ٤ - إلقاء الرعب في قلوب الأعداء:

من خصائص رسول الله ﷺ وأمته إلقاء الرعب في قلوب أعدائه وتلك الخصيصة تُعلي من شأن المسلم، وتميزه عن كل مقاتل غير مسلم. وإذا ما استقرأنا سنة النبي ﷺ نجد لها ثرية في هذا الجانب المهم من جوانب السياسة العسكرية الحكيمة للنبي ﷺ.

ومن أمثلة ذلك: ما جاء في حديث الإمام البخاري حيث يقول: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، فبينما أنا نائم أوتيت مفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي قال أبو هريرة وقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تنتثلونها<sup>(٢)</sup>.

يقول الإمام النووي: في قوله ﷺ «أوتيت مفاتيح خزائن الأرض» هذا من

(١) عبقرية محمد عباس محمود العقاد ٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ٩ باب قول النبي ﷺ «نصرت بالرعب مسيرة شهر» وقول الله ﷻ ﴿سَلَقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ ١٧٥/٦ ح: ٢٩٧٧ عن أبي هريرة ومسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة في ترجمة الكتاب ٥/٣ ح: ٥٢١ عن جابر بن عبد الله ﷺ والنسائي في كتاب الغسل والتميم باب التيمم بالصعيد ١/٢٠٩، ٢١٠ والإمام أحمد في المسند ٢/٢٦٤، ٤٥٥ عن أبي هريرة ﷺ.

أعلام النبوة، فإنه إخبار بفتح هذه البلاد لأمته، ووقع كما أخبر ﷺ والله الحمد والمنة وقوله «وأنتم تتثلونها» يعنى تستخرجون ما فيها، يعنى خزائن الأرض وما فتح على المسلمين من الدنيا<sup>(١)</sup>.

ويقول ابن حجر فى قوله ﷺ «نصرت بالرعب» زاد أبو أسامة «يقذف فى قلوب أعدائى».

وقوله فى شرحه لترجمة الباب الذى ورد تحته هذا الحديث قوله ﷺ «مسيرة شهر» مفهومه أنه لم يوجد لغيره النصر بالرعب فى هذه المدة ولا فى أكثر منها أما دونها فلا.

وإنما جعل الغاية شهراً لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه أكثر منه<sup>(٢)</sup> أهـ. فإذا ما أخبر النبي ﷺ أصحابه أن الله خوف منه أعداءه ولو كان بينه وبينهم مسيرة شهر فإن الصحابة رضوان الله عليهم تزداد ثقتهم بالله، ويقدمون على قتال أعدائهم بلا خوف ولا وجل موقنين أن الله أرهب أعداءهم وألقى الرعب فى قلوبهم من قبل أن يصلوا إليهم.

#### ٥ - المعنويات فى بدر:

كانت غزوة بدر هي أهم غزوة خاضها المسلمون لأنها أول معركة بين قوى الحق والباطل وأول تجربة خاضها الجيش المسلم وتعرف من خلالها على قوته واستعداداته ومعنوياته، والصحابة رضوان الله عليهم كانت لهم معنويات عالية أسفرت عن كثير من المواقف البطولية التى أظهرت فى ثناياها حرص المسلمين على القتال، وكان لذلك عظيم الأثر فى سرور النبي ﷺ وجدده ونشاطه.

يقول الإمام البخارى رحمه الله حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول

(١) شرح النووى ١٠/٣.

(٢) فتح البارى ٤٥٦/٢.

كما قال قوم موسى اذهب أنت وربك فقاتلا ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعنى قوله<sup>(١)</sup>.

ولما أراد النبي ﷺ أن يعرف رأي الأنصار لأنهم حينما بايعوه بالعقبة بايعوه على أن ينصروه داخل المدينة فقط ولأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، فقام سعد بن معاذ فقال وأحسن، ولما سمع النبي ﷺ قول سعد أخذ يبشر الصحابة بالنصر أو الشهادة، ويعمل على رفع الروح المعنوية عندهم فقال «سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني انظر إلى مصارع القوم»<sup>(٢)</sup>.

ورغبة منه ﷺ في رفع الروح القتالية عند أصحابه كان يدعو ويحثهم في الدعاء وقت القتال معلنا لأصحابه أن الله معهم وأنه مؤيدهم وناصرهم وأنه لن يتخلى عنهم، ثم يخبر أصحابه أن جمع الكفار سوف يهزم وأنهم سوف يولون الدبر فترتفع بذلك معنويات أصحابه.

يقول الإمام البخارى: حدثني محمد بن عبد الله بن حوشب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك فخرج وهو يقول «سيهزم الجمع ويولون الدبر»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه البخارى في كتاب المغازى ٤ باب قول الله ﷻ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَكُمْ﴾، إلى قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ٣٥٣/٧ ح ٣٩٥٢ وفى كتاب التفسير ٤ باب ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ٣٣٩/٨ ح ٤٦٠٩ عن ابن مسعود.

(٢) ذكره ابن إسحاق: في السيرة النبوية موضوع: استشارة الأنصار (السيرة النبوية لابن هشام) ٢٠/٢١٩ والحديث له شواهد منها حديث البخارى السالف وحديث مسلم الذى رواه عن أنس في كتاب الجهاد والسير ٣٠ باب غزوة بدر ٦/٣٦٦، ٣٦٥ ح ١٧٧٩.

(٣) أخرجه البخارى في المغازى ٤ باب قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ٣٥٤/٧ ح ٣٩٥٣ عن ابن عباس ومسلم في كتاب الجهاد والسير ١٨ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ٦/٣٢٧ ح ١٧٦٣ عن عمر بن الخطاب ﷺ والترمذى في كتاب تفسير القرآن: ٩ باب ومن سورة الأنفال ٨/٣٩٩ ح ٣٠٨ عن عمر بن الخطاب وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. والإمام أحمد في المسند ١/٣٢٩ عن ابن عباس.



يقول ابن حجر في الفتح في معنى قوله ﷺ «اللهم إني أنشدك» أى أطلب منك وعند الطبراني بإسناد حسن عن ابن مسعود قال: ما سمعنا مناشدا ينشد ضالة أشد مناشدة من محمد لربه يوم بدر «اللهم إني أنشدك ما وعدتني».

قال السهيلي: سبب اجتهاد النبي ونصبه في الدعاء أنه رأى الملائكة تنصب في القتال، والأنصار يخوضون أعمار الموت، والجهاد تارة يكون بالسلاح وتارة يكون بالدعاء، ومن السنة أن يكون الإمام وراء الجيش لأنه يقاتل معهم، فلم يكن ليربح نفسه، فتشاغل بأحد الأمرين وهو الدعاء<sup>(١)</sup>.

ويقول ابن حجر في قوله ﷺ «فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك» أى حسبك من القول فاتركه.

وقال الخطابي: لا يجوز أن يتوهم أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي ﷺ في تلك الحال، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقتة على أصحابه وتقوية قلوبهم، لأنه كان أول مشهد شهده فبالغ في التوجه والدعاء والابتهاال لتسكن نفوسهم عند ذلك، لأنهم كانوا يعلمون أن وسليته مستجابة، فلما قال له أبو بكر ما قال كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة، فلهذا عقب بقوله «سيهزم الجمع»<sup>(٢)</sup>.

وكان النبي ﷺ يعمل جاهدا على استمرار الروح الوثابة عند جنود المسلمين والذي يديمها: وجود أهداف يؤمن بها الجنود ويقاتلون من أجلها، وهل هناك هدف أسمى من إعلاء كلمة الله؟ ولذلك قاتل المسلمون من أجل هذا الهدف بكل صبر ومثابرة.

٦ - ما حل بالمشركين من وهن ورعب:

وعلى الجانب الآخر فقد كانت معنويات المشركين في أدنى درجات الانحطاط وقلوبهم في غاية الانكسار. لأن قوة الروح المعنوية القتالية عند المسلمين كانت

(١) فتح الباري ٧/ ٣٥٥.

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٥٥ باختصار.

تتفوق كثيرا على الروح المعنوية عند المشركين، يدل ذلك على هذا مواقف الصحابة من القتال بشجاعة والإقدام على ذلك، وأقوال الصحابة حين استشارهم الرسول ﷺ - في القتال كأبي بكر وعمر والمقداد وسعد بن معاذ رضي الله عنهم أجمعين تدل على ذلك أيضًا.

فقد قال المقداد: والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا من دونه حتى نبغته<sup>(١)</sup>.

نسمع من سعد بن معاذ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد.

وعلى الجانب الكافر:

ونسمع في جبهة المشركين ما يدل على ضعف الروح القتالية عندهم وخوفهم من الهزيمة.

لقد أرسلت قريش وهب بن عمير الجمحي ليحرز لها قوة المسلمين ففعل وقال يا معشر قريش - البلى يا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم<sup>(٢)</sup>.

فانظر إلى مدى الثبات الذي تحلى به جيش المسلمين ومنتهى الخوف والإحباط الذي خيم على جيش المشركين والسبب في وجود هذه الروح القتالية، والهمة العالية عند المسلمين أن النبي ﷺ حرص على القتال ورفع معنويات الجيش بالتبشير بالنصر والوعد بالجنة فقامت عزائم المسلمين وسرت فيهم روح قوية استمدوها من قائدهم الأعظم، ومعلمهم الأوحى وجعلت كل رجل منهم يعدل عشرة رجال في القتال<sup>(٣)</sup>.

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة موضع: طريق المسلمين إلى بدر ٢/٢١٩ وأخرجه ابن سعد في الطبقات غزوة بدر ١٠/٢ عن موسى بن عقبة.

(٢) أخرجه ابن إسحاق عن أبي إسحاق بن يسار عن أشياخ من الأنصار (السيرة النبوية لابن هشام) موضوع نزول قريش بالعدوة والمسلمين ببدر ٢/٢٢٦ وأخرجه ابن سعد في الطبقات: غزوة بدر ١١/٢.

(٣) قيادة الرسول ﷺ الحربية في الغزوات الإسلامية الأستاذ الدكتور/ رزق رزق عامر حسن ص ٣٣.

## ٧- التعبئة المعنوية في غزوة أحد:

ولقد اهتم النبي ﷺ بهذا الجانب في بداية التخطيط لغزوة أحد والدليل على ذلك:

أن النبي ﷺ أرسل الحباب بن المنذر ليستطلع جيش المشركين وقال له: إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى في القوم قلة، فذهب الحباب بن المنذر مستخفيا حتى تخلصهم ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال له ما رأيت؟ قال يا رسول الله رأيت عددا أحرزتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا والخيول مائة فرس، ورأيت دروعا ظاهرة حرزتها سبعمائة درع<sup>(١)</sup>

طلب النبي ﷺ من الحباب بن المنذر أن لا يحدثه أمام الجيش الإسلامي عن عدد جيش المشركين وعدتهم إذا كانوا متفوقين على المسلمين في هذا الجانب. وإنما طلب النبي ﷺ هذا الطلب من الحباب حتى لا يؤثر كلامه في معنويات المسلمين.

وفي أعقاب غزوة أحد اهتم النبي ﷺ بهذا الجانب وكان يعمل على أن تظل عزيمة المسلمين قوية وهمهم عالية عقب النكبات حتى لا يستبد اليأس بأصحابه فيقتل فيهم روح الإقدام والصبر وهما أعز ما يملكه المقاتل المسلم في ذلك الوقت، لقلة عددهم إزاء كثرة عدد المشركين.

وقبل عودة المشركين من أحد أشرف أبو سفيان على الجبل ونادى بكلمات أراد من ورائها إحباط المسلمين، ولكن النبي ﷺ لم يعطه هذه الفرصة وأمر المسلمين بالرد عليه حتى يزيع شبح الإحباط الذي خيم على جيش المسلمين في تلك الأوقات.

يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشا من الرماة وأمر عليهم عبد الله وقال لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تعينونا، فلما لقينا هربوا، حتى رأى النساء يشتددن<sup>(٢)</sup>، في

(١) انظر مغازي الواقدي ص ٢٠٧، وموكب النور ص ١٩٢ بتصرف.

(٢) أي يسرع عن المشي يقال: اشتد إذ أسرع [فتح الباري ٧/ ٤٣٢].

الجلبل، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله عهد إلى النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلًا، وأشرف أبو سفيان فقال أفي القوم محمد؟ فقال لا تجيبوه فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة قال لا تجيبوه فقال أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر فقال: كذبت يا عدو الله أبقي الله عليك ما يخزيك قال أبو سفيان أعل هبل<sup>(١)</sup>، فقال النبي ﷺ أجيبوه قالوا ما نقول؟ قال قولوا الله أعلى وأجل قال أبو سفيان لنا العزى<sup>(٢)</sup>، ولا عزى لكم فقال النبي ﷺ أجيبوه قالوا ما نقول؟ قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم قال أبو سفيان يوم بيوم بدر والحرب سجال<sup>(٣)</sup>، وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني<sup>(٤)</sup>.

ولقد عمد النبي ﷺ إلى مثل هذه الردود لأنه خاف أن يؤثر كلام أبي سفيان في معنويات المسلمين. يقول ابن القيم في تعليقه على هذا الكلام: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته، وبشره تعظيمًا للتوحيد، وإعلامًا بعزة من عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يغلب، ونحن حزبه وجنده، ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل قد روى أنه نهاهم عن إجابته وقال: «لا تجيبوه» لأن كلمهم<sup>(٥)</sup> لم يكن برد بعد في طلب القوم، ونار غيظهم بعد متوقدة، فلما

(١) هبل: كانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وكان هبل أعظمها وكانت صورته فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب - وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر وكان يقال له هبل خزيمة.

(٢) العزى: صنم أنثى والذي اتخذته على رواية ابن الكلبي هو ظالم بن أسعد وقيل إنها حجر أبيض وقيل: شجيرات، وكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية والأرجح أنها شجرة لأن النبي ﷺ - أمر خالد بن الوليد بقطعها بعد ما قويت شوكة الإسلام (كتاب تاريخ الفكر الديني الجاهلي أ.د/ محمد إبراهيم الفيومي ص ٤١٦، ٤١٩ بتصرف).

(٣) سجال: أى سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء. أى مرة هزيمة وأخرى نصر [لسان العرب «سجل» ٣/ ١٩٤٥ بتصرف].

(٤) أخرجه البخارى في الصحيح كتاب المغازى ١٧ باب غزو أحد ٧/ ٤٣١ ح ٤٠٤٣ والإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٩٣ كلاهما عن البراء بن عازب ؓ.

(٥) الكلم: هو الجرح [النهاية «كلم» ٤/ ١٩٩].

قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، حمى عمر بن الخطاب، واشتد غضبه وقال: كذبت يا عدو الله، فكان في هذا الإعلام من الإذلال والشجاعة، وعدم الجبن، والتعرف إلى العدو في تلك الحال ما يؤذنه بقوة القوم وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وأنه وقومه جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقى الله لهم ما يسوؤهم منهم، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وهله<sup>(١)</sup> بعد ظنه وظن قومه أنهم قد أصيبوا من المصلحة، وغيط العدو وحزبه، والفت في عضده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحدا واحدا، فكان سؤاله عنهم، ونعيمهم لقومه آخر سهام العدو وكيده، فصبر له النبي ﷺ حتى استوفى كيده، ثم انتدب له عمر، فرد سهام كيده عليه، وكان ترك الجواب أولا عليه أحسن، وذكره ثانيا أحسن وأيضا فإن في ترك إجابته حين سأل عنهم إهانة له، وتصغيرا لشأنه.

فلما منته نفسه موتهم، وظن أنهم قد قتلوا، وحصل له بذلك من الكبر والأثر ما حصل، كان في جوابه إهانة له وتحقير وإذلال<sup>(٢)</sup>.

#### ٨- المهمة العالية في غزوة بدر الثانية:

خرج النبي ﷺ في شعبان سنة أربع من الهجرة إلى بدر لميعاد أبي سفيان ولا أقول إن النبي ﷺ عمل على رفع الروح القتالية لدى المسلمين خلال هذه الغزوة حتى تكون عاملا مهما من عوامل النصر، فحسب ولكنه ﷺ خرج بجيشه بغرض رفع الروح الوثابة للمسلمين والقضاء على الإحباط الذي أصاب بعض المسلمين عقب غزوة أحد.

وكان هدف النبي ﷺ من هذه الغزوة: كسر نفوس قريش والتغلب عليها لإظهار قوة المسلمين للمشركين واليهود.

وأقام النبي ﷺ ببدر ثمانى ليال ينتظر أبا سفيان لأنه قال حينما أراد أن ينصرف من أحد هو ومن معه: إن موعدكم بدر للعام المقبل فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه فيما رواه ابن إسحاق قال فحدثني صالح بن كيسان أن رسول الله ﷺ قال:

(١) سهوه وغلطه [النهاية «وهل» ٥/ ٢٣٣].

(٢) زاد المعاد لابن القيم ٢/ ١٤٥ بتصرف يسير طبعة دار التقوى بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

«قل نعم هو بيننا وبينكم موعد»<sup>(١)</sup>.

وأوفى النبى ﷺ بوعدة وجاء لملااة المشركين فى بدر ولكن المشركين خارت قواهم، وارتعدت فرائصهم وتعلل أبو سفيان بعة واهية حتى يرجع بجيشه سالما فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جذب وإنى راجع فارجعوا، فرجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق<sup>(٢)</sup>، يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق<sup>(٣)</sup>.

وبعدها عاد المسلمون إلى المدينة بعد أن طال انتظارهم للمشركين، وقد محت غزوة بدر الآخرة كل أثر سئ لغزوة «أحد» داخل المدينة وخارجها، وأرهب المسلمون أعداءهم، واستعادوا ثقتهم بأنفسهم.

يقول الشيخ محمد الغزالى:

لم ينشط أبو سفيان للوفاء بالميعاد الذى ضربه عد مصرفه من أحد بل خرج من مكة متاثقلا يفكر فى عقبى القتال مع المسلمين وهو بع. لم يتخذ لهذا القتال أهبة التى يودها.

إن قومه هزموا فى بدر على كثرة عددهم ووفرة عدتهم، واستخلصوا النصر فى «أحد» بعد جهد فاشل.

ولولا الخطأ الذى وقع فيه جيش التوحيد، ما ظفرت قريش بهذه الغرة لذلك ما كاد أبو سفيان يقترب من «الظهران» حتى بدا له الرجوع فأخفى ذعره عن جيشه وتعلل بعة أخرى للرجوع.

وهكذا انسحبت قريش من المعركة المنتظرة، وسبب الرجوع هو النفسيات المنكسرة.

أما المسلمون فأنهم نفروا لملااة قريش على استعداد وحماسة حتى وصلوا إلى

(١) أخرجه ابن إسحاق فى السيرة موضوع: غزوة أحد (السيرة النبوية لابن هشام) ٥٨/٣.

(٢) السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير (المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية «ساق») ص ٣٣٠.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام موضوع: غزوة بدر الآخرة ١٧٩/٣.

ماء بدر فعسكروا حوله، يعلنون وفاءهم بكلمتهم، وتأهبهم إلى الحرب الموعودة. وظلوا ثمانية أيام يرتقبون مقدم أهل مكة، ويمسحون عن سمعتهم آخر ما تركت هزيمة «أحد» من غبار وكان ذلك في شعبان من السنة الرابعة للهجرة<sup>(١)</sup>

٩- النبي ﷺ يعمل على تحفيز همم المسلمين عند الاستعداد لغزوة الأحزاب ((الخندق)):

المعلوم أن قريشاً عاشت وقتاً عصيباً بعد النكسة التي تعرضت لها بسبب نكوصها في بدر الآخرة.

وأخذت تؤلب معظم قبائل العرب على المسلمين وتدعوهم إلى تكوين جيش كبير لا قبل للمسلمين به، لا في عدة ولا عدد حتى يستأصلوا شأفة<sup>(٢)</sup>، المسلمين عن طريق مشروع غزو المدينة وتعاهد مشركوا مكة مع يهود بنى النضير، وأهل غطفان، وكنانة وحلفائهم من أهل تهامة ولحق بهم بنو سليم، وبنو فذارة وبنو مرة، وبنو أسد. فكانت الأحزاب جيشاً جراراً اجتمعت فيه معظم قوى الكفر وتألب فيه الأعداء على المسلمين من الشرق والغرب وأحرق بهم الخطر من كل صوب وحذب.

فسرعان ما استخدم النبي ﷺ السلاح اللائق والموافق الذي يصيب فلا يخطئ، والذي لا ينفع غيره بديلاً في ذلك الوقت، وهو العمل على رفع الروح القتالية، والاهتمام بالتعبئة المعنوية لدى أفراد جيشه.

وأخذ يعمل في حفر (الخندق) مع أصحابه لحماية المدينة وعندما ألم بهم التعب والجوع، وكاد اليأس يصل إلى قلوب المسلمين لاسيما بعدما وصل نبأ هذا الجمع الحاشد أخذ النبي ﷺ يدعو للأنصار والمهاجرة ويرتجز أبياتاً من شعر عبد الله بن رواحه ﷺ أداها النبي ﷺ بصوته ولم تكن من لفظه ولا تأليفه.

وسرعان ما عملت هذه الأبيات عملها في إيجاد روح معنوية عالية أخذت تسرى

(١) فقه السيرة ص ٣٢٤ بتصرف.

(٢) شأفة الرجل: هي أهله وماله، وقيل: الشأفة: الأصل. واستأصل الله شأفته أى أصله أو أذهب الله (لسان العرب لابن منظور «شأف») ٢١٧٦/٤ بتصرف طبعة دار المعارف.

فى عروق المسلمين.

١٠- مشاركة القائد جنوده فى كل موقف من مواقف القتال والاستعداد للمعارك:

يقول الإمام البخارى رحمه الله: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق عن حميد سمعت أنساً رضي الله عنه - يقول خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة فقالوا مجيبين له.

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً<sup>(١)</sup>

ويقول الإمام البخارى أيضاً: حدثنى أحمد بن عثمان حدثنى شريح بن مسلمة قال: حدثنى إبراهيم بن يوسف قال حدثنى أبى عن أبى إسحاق قال سمعت البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر فسمعتُه يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا  
فأنزلن سَكينة علينا وثبت الأقدام إن لا قبينا  
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أيينا

قال: ثم يمد صوته بآخرها<sup>(٢)</sup>.

وعندما نقضت بنو قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ وتواطؤوا مع الأحزاب ضد رسول الله ﷺ وأصبحوا يشكلون خطراً على نساء المسلمين وصبيانهم داخل المدينة.

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى: ٢٩ باب غزوة الخندق وهى الأحزاب ٧/ ٤٨٧ ح ٤٠٩٩ عن أنس رضي الله عنه ومسلم فى الجهاد والسير: ٤٤ باب غزوة الأحزاب وهى الخندق ٦/ ٤١٢ ح ١٨٠٥ عن البراء رضي الله عنه.  
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى: ٢٩ باب غزوة الخندق وهى الأحزاب ٧/ ٤٩٧ ح ٤١٠٦ ومسلم فى كتاب الجهاد والسير: ٤٤ باب غزوة الخندق وهى الأحزاب ٦/ ٤١١ ح ١٨٠٣ كلاهما عن البراء رضي الله عنه.



وعندما اشتد بالمسلمين الخطب، وعظم البلاء، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن أخفى النبي ﷺ خبر نقض عهد بني قريظة، لأن إشاعة الخبر السيئ يؤثر كثيرا في نفوس المسلمين ولا سيما إذا كانوا على أهبة الاستعداد لملاقاة أعدائهم.

وتعامل النبي ﷺ مع الموقف بكل كياسة وسياسة، وحكمة قال ابن إسحاق فأرسل سعد بن معاذ بن النعمان، وسعد بن عباد بن ديلم، وعبد الله بن رواحة، وخوات<sup>(١)</sup>، بن جبير وقال لهم ﷺ: «انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقا فالحنوا لي<sup>(٢)</sup>، لحنا أعرفه، ولا تفتوا، في أعضاد الناس»<sup>(٣)</sup>، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس» فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فأقبلوا على النبي ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة، - أي كغدر قبيلتي عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه، - فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»<sup>(٤)</sup>.

وذلك موقف سياسى رشيد للنبي ﷺ حينما أمر الصحابة الذين أرسلهم ليتبينوا الخبر وأوصاهم أن يلحنوا بلحن لا يفهمه الناس إن كان الخبر حقا، وأن يتكلموا بوضوح إن كان الخبر كذبا وبذلك أبقي على الروح القتالية مرتفعة عند المسلمين حينما قال: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين».

(١) هو الصحابي الجليل: خوات بن جبير بن النعمان بن أمية بن الأوس الأنصاري شهد بدرًا وأحداً والمشاهد بعدها ومات سنة أربعين [الإصابة ٢/٣٤٦].

(٢) يقال: لحنت لفلان إذا قلت له قولا يفهمه ويخفى على غيره، لأنك تميله بالتورية عن الواضح المفهوم، ومنه قالوا: لحن الرجل فهو لحن إذا فهم وفطن لما لا يفطن له غيره (النهاية لحن) ٤/٢٤١.

(٣) لا تفتوا في أعضاد الناس: أي لا تضعفوا قواهم والعضد هو ما بين الكتف والمرفق وهو يكتن به عن القوة، وقد يطلق العضد على الجسد كله (النهاية «عضد») ٣/٢٥٢ بتصرف.

(٤) ذكره ابن إسحاق في السيرة موضوع: غزوة الخندق (السيرة النبوية لابن هشام) ٣/١٩٢ وأخرجه من طريق ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسل البيهقي في دلائل النبوة باب مجي الأحزاب ونقض بني قريظة ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق ٣/٤٢٩.

## ١١ - حرص النبي ﷺ على زلزلة نفوس أعدائه في عمرة القضاء:

كان النبي ﷺ يحرص على إلقاء الرعب والخوف في قلوب أعدائه باستظهار قوة المسلمين كما كان يعمل على رفع الروح المعنوية عند أفراد جيشه وكان ذلك واضحا جليا في عمرة القضاء.

يقول الإمام مسلم رحمه الله:

وحدثني أبو الربيع الزهراني. حدثنا حماد (يعني ابن زيد) عن أيوب، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس. قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة. وقد وهنتهم<sup>(١)</sup>، حمى<sup>(٢)</sup>، يثرب. قال المشركون: إنه يقدم عليكم غدا قوم قد وهنتهم الحمى. ولقوا منها شدة. فجلسوا مما يلي الحجر. وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا<sup>(٣)</sup>، ثلاثة أشواط. ويمشوا ما بين الركنين. ليرى المشركون جلدهم. فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم. هؤلاء أجلد من كذا وكذا. قال ابن عباس: ولم يمنع أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها، إلا الإبقاء عليهم<sup>(٤)</sup>.

وبهذا وقف المشركون على قوة المسلمين فسرعان ما ألم الإحباط بهم بعد أن رأوا أجساد المسلمين قوية صحيحة وبهذا أثرت عمرة القضاء في نفوس قريش تأثيرا بالغا فقد وقف كثير من المشركين عند دار الندوة بمكة، كما عسكر آخرون فوق الجبال والهضاب المحيطة بها ليشاهدوا دخول النبي ﷺ وأصحابه مكة والبيت الحرام آمنين ويشاهدوا سعيهم بين الصفا والمروة، يقول ابن إسحاق: وحدثني من لا

(١) وهنتهم: أى أضعفتهم [النهاية «وهن» ٥/ ٢٣٤].

(٢) حمى يثرب: مرض كان منتشرا بالمدينة حين هاجر النبي ﷺ إليها وقد حم أبو بكر وبلال في بداية الهجرة بهذا المرض [ينظر فتح الباري ١٠/ ١٦٣، ٤/ ١٢٥، ٣/ ٤٧٠].

(٣) الرمل: هو الإسراع في المشى وهذا المنكبين [النهاية «رمل» ٢/ ٢٦٥ بتصرف].

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الحج ٣٩ باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة ٥/ ١٣ ح ١٢٦٦ وأخرجه أيضا البخاري في كتاب المغازي ٤٣ باب عمرة القضاء ٧/ ٦٣٠ ح ٤٢٥٦ وأبو داود في كتاب المناسك ٥١ باب في الرمل ٥/ ٢٦٤ ح ١٨٨٢ والنسائي في كتاب الحج باب العلة التي من أجلها سعى النبي ﷺ بالبيت ٥/ ٣٣٠ والإمام أحمد في المسند ١/ ٣٧٣ جميعهم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

أثم عن ابن عباس: «ولما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام اضطبع<sup>(١)</sup>، بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة»<sup>(٢)</sup>، ثم استلم الركن ثم خرج يهول<sup>(٣)</sup>، ويهول أصحابه معه حتى إذا واره البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ثم هروا كذلك ثلاث أطواف ومشى سائرهما.

وفي الطواف بهذه السرعة أظهار لقوة المسلمين وتكذيب لإشاعات الضعف التي زعمتها قريش.

#### ١٢- المعنويات عقب الانسحاب من مؤتة:

أسلفت في غزوة أحد أن النبي ﷺ كان يحرص كل الحرص على رفع معنويات المسلمين لاسيما بعد النكبات التي يتعرض لها جيش التوحيد بعض الوقت، حتى لا يقتله اليأس، ويقف حائلا دون الوصول إلى ما يريد، وتكرر هذا الأمر مرة أخرى عقب الانسحاب الموفق من خالد بن الوليد قائد جيش المسلمين - في ذلك الوقت - من غزوة مؤتة.

لقد عاد الجيش من مؤتة منسحبا دون أن يحقق نصرا وخرج الشباب منفعلا يرمى العائدين بالتراب قائلا يا فرار فيقول الرسول ﷺ «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى»<sup>(٤)</sup>، إن الرسول الله ﷺ من موقع المسؤولية الأولى ينفي تهمة الفرار

(١) الاضطباع: هو أن يأخذ الإزار أو البرد فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن، ويلقى طرفه على كتفه الأيسر من جهتي صدره وظهره وسمى بذلك لإبداء الضبعين ويقال للإبط الضبع، للمجاورة النهائية «ضبع» ٧٣/٣ .  
(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع عمرة القضاء (السيرة النبوية لابن هشام) ٦/٤ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية موضوع: عمرة القضاء عن ابن إسحاق ٢٢٥/٤ والحديث له شاهد من حديث ابن عباس أخرجه مسلم وقد ذكرته قبل هذا الحديث.

(٣) الهرولة: السير بين المشى والعدو (النهاية «هروا») ٢٦١/٥ .

(٤) أخرجه ابن إسحاق في السيرة النبوية عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير موضوع عودة الجيش إلى المدينة في غزوة مؤتة (السيرة النبوية لابن هشام) ١٨/٤ . وأخرجه من طريق ابن إسحاق: البيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في غزوة مؤتة ٣٧٤/٤ وابن سعد في الطبقات الكبرى: سرية مؤتة: ٩٨/٢ جميعهم عن عروة ابن الزبير رضي الله عنه.

بل يؤكد للشباب أنهم الكرار أبداً.

فحيث عاد الجنود بأنفسهم صالحة لم يقتلها اليأس رغم فقدان قواد الجيش فهم مستعدون لجولة أخرى يستعيدون ما فاتهم، إن استمساكهم بمبادئهم وسط المعركة الطحون لونا من الانتصار، ولقد مهد للنصر المبين حين فتح المسلمون مكة دون مقاومة تذكر بعد عودتهم من مؤتة بأشهر قليلة. ولكن هذا النصر لم يأت عبثاً، وإنما كان نتيجة لازمة لإصرار المسلمين على موقفهم وقبولهم التحدي إزاء المشركين<sup>(١)</sup>

١٣ - كيف استفاد قادة العالم من رسول الله ﷺ في هذا الجانب:

(أهمية التعبئة المعنوية للجنود قديماً وحديثاً)

إن التعبئة المعنوية عامل مهم من عوامل النصر في الحرب وهو أمر لا يستغنى عنه أى جيش فى أى مكان وأى زمان وهو أمر اهتم به النبي ﷺ منذ أربعة عشر قرناً من الزمان. ولم ينجح أى قائد من القادة فى الحروب بعده ﷺ إلا بعد أن استفاد منه، وطبق مبادئه بكل دقة فى كل ميدان من ميادين القتال.

فلا قيمة لأى جيش مهما يكن ضخماً فى عدده، دقيقاً فى تنظيمه، مميزاً فى تسليحه ما لم تكن معنوياته عالية.

كان الجيش الإيطالى فى الحرب العالمية الثانية مجهزاً بأحدث الأسلحة وأشدّها فتكاً، وكان تنظيمه دقيقاً وعدده كبيراً، ولكن معنوياته كانت منهارة، فأصبح عبثاً ثقيلاً على الألمان، فكان الحلفاء يطلقون على المواضع التى يحتلها الإيطاليون تعبير: (الفراغ العسكرى)، لأنهم كانوا يستسلمون دون قتال كلما أحرق بهم الخطر الحقيقى أو الوهمى فكان وجودهم وعدم وجودهم سواء.

ولقد شجع الرسول ﷺ أصحابه قبل معركة (بدر) وفى أثناءها وقوى معنوياتها، حتى لا يكثرثوا بتفوق قريش عليهم فى العدد، فكانت معنويات المسلمين عالية فى تلك المعركة وفى المعارك التى بعدها.

حتى معنويات الصبيان الصغار منهم كانت عالية للغاية كما هو معلوم فى تسابق

(١) تأملات فى السيرة النبوية ٢٥٨ بتصرف.

ابنى عفراء لقتل أبى جهل. هل كان بإمكان المسلمين الانتصار في غزوة بدر والقيام بمطاردة المشركين بعد يوم من غزوة (أحد) والصمود في غزوة الأحزاب، والإقدام على غزوة (تبوك) لو لم تكن معنوياتهم عالية جدًا؟

وكما عمل الرسول ﷺ على رفع معنويات أصحابه بشتى الطرق والسبل، عمل على إنزال الوهن في قلوب أعدائه بشتى الطرق أيضًا، وكان لغزوة الحديبية و(عمرة القضاء) وغزوة (تبوك) عظيم الأثر في رفع الروح القتالية عند المسلمين وزلزلة نفوس أعدائهم.

إن (عمرة القضاء) فتحت قلوب أهل مكة لأنها حطمت نفوسهم، وغزوة الفتح فتحت أبواب مكة، كما أن نتيجة غزوة (تبوك) اندحار معنوى للروم، وبذلك اطمأن العرب إلى أن بإمكانهم مقاتلة الروم، وكانوا يظنون سابقا أن ذلك من المستحيلات. وقد استهدف الرسول ﷺ في كل غزواته تحطيم نفوس أعدائه، بل إنه كان يستهدف تحطيم النفوس أكثر مما يستهدف تحطيم القوى المادية، لأنه كان يطمح دائما في دعوة أعدائه إلى الهداية والصراط المستقيم، فيحرص على بقائهم أحياء طمعا في هدايتهم.

إن أكثر غزوات الرسول ﷺ كانت معارك يقصد من ورائها إلحاق هزيمة نفسية بالأعداء، ولا يقصد منها التأثير على الأرواح والممتلكات. ويجب أن لا ننسى هنا اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر في رفع همهم لاقتحام الأخطار بشجاعة خارقة، لأن ما قدر حتما سيكون، والشهيد في الجنة، وإنما هي إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة،<sup>(١)</sup> قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢].

(١) الرسول القائد ص ٤٦٨ بتصرف.



### الفصل الخامس

#### عامل المباغتة والمفاجأة وأثره في إحراز النصر

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - حرص النبي ﷺ على السرية في غزواته وأساليب التعمية على العدو.
- ٢ - إخفاء الخطط العسكرية.
- ٣ - المباغتة في المكان.
- ٤ - التعمية والإخفاء في التوقيت.
- ٥ - التفنن في تنظيم الجيش حسب حالة المعركة.
- ٦ - التفنن في الأساليب وطرائق القتال.

## الفصل الخامس

### عامل المباغته والمفاجأة وأثره في إحراز النصر

من الملامح السياسية الرشيدة في حياة النبي ﷺ - والتي أسهمت في إحراز النصر في الحروب: استخدام عامل المفاجأة والمباغته<sup>(١)</sup>، وهاك بعض الشواهد على ذلك:

١ - حرص النبي ﷺ على السرية في غزواته وأساليب التعمية على العدو: المعلوم أن المدينة المنورة كانت هي القاعدة الأساسية للمسلمين وكانت مليئة بالجواسيس التي ترصد كل حركات المسلمين وتنقلها إلى أعدائهم خارج المدينة، ومن هؤلاء: اليهود، والمنافقون وعيون قريش من الأعراب وعيون الروم من الأنباط<sup>(٢)</sup>، الذين اجتمعوا على كره المسلمين والكيد لهم بكل ما يستطيعون من الوسائل والأساليب ولذلك حرص النبي ﷺ - على إخفاء أنباء القتال وإخفاء استعداداته، فكان يستخدم أحياناً أسلوب التورية حتى تنقل «الأعين» الموجودة في المدينة أخباراً خاطئة إلى أعداء المسلمين وفي ذلك يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد أخبرنا عبد الله أخبرنا يونس عن الزهري قال: أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب ابن مالك يقال سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يقول «كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة

(١) المباغته: هي إحداث موقف لا يكون العدو مستعداً له. والكتمان من أهم الوسائل التي تؤدي إليها. والكتمان يتم إما بإخفاء الاستعداد أو إخفاء الوجهة أو باستعمال أسلحة جديدة. أو باستعمال الأسلحة الموجودة بطريقة جديدة ولذا فالمباغته أقوى العوامل وأعظمها أثراً في الحرب وإحراز النصر. وتأثيرها المعنوي عظيم جداً، وكذا التأثير النفسي لأنهما يحدثان شللاً في تفكير القائد الخصم وفي جنوده أيضاً.

ويمكن الحصول على المباغته، بكتمان الاستعداد للخطط الحربية وكتمان جسامات القوات الاحتياطية. وكذلك بالتنقل السريع للفرق من نقطة إلى أخرى تمهيداً لانزال الضربة على موضع لا يتوقعه العدو. ويمكن الحصول عليها أيضاً باستخدام الأرض الوعرة أو الصعبة أو عبور الموانع التي تعتبر غير قابلة للعبور وكذلك باستخدام أسلحة جديدة غير متوقعة أو أساليب تعبوية جديدة (الرسول القائد - ص ٤٥١ بتصرف).

(٢) الأنباط: جيل معروف كانوا ينزلون بالبطائح. وقيل شعب سامي كانت له دولة في شمال شبه الجزيرة العربية وعاصمتهم (سبع)، وتعرف اليوم بالبثراء (النهاية - «نبط») ٩/٥ المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (نبط) ص ٦٠٠.



يغزوها إلا وري بغيرها، حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاذاً واستقبل غزو عدو كثير فجلى للمسلمين أمره ليتأهبوا أهبة عدوهم وأخبرهم بوجهه الذي يريد»<sup>(١)</sup>.

يقول ابن حجر في معنى ترجمة البخاري رحمه الله لهذا الباب بقوله «باب من أراد غزوة فوري بغيرها» أما الجملة الأولى فمعنى «وري» ستر وتستعمل في إظهار شيء مع إرادة غيره، وأصله من الوري بفتح ثم سكون وهو يجعل وراء الإنسان لأن من توري بشيء كأنه جعله وراءه وقيل: هو في الحرب أخذ العدو على غرة» اهـ<sup>(٢)</sup>.

فاستخدام أسلوب المفاجأة سياسة عسكرية حكيمة أجاد النبي ﷺ استخدامها، فجنى ثمارها، وكانت سبباً مباشراً من أسباب النصر.

فمفاجأة العدو أمر يفقده صوابه، ويرهبه، ويجعله يعيد حساباته مرة أخرى. ولكن أنى له ذلك بعد فوات الأوان، فالجيش مائل «أمامه، ولا بد من التعامل مع الواقع الذي فرض عليه ولا سبيل له إلى التخطيط، أو تنفيذ المتفق عليه في ذلك الوقت الضيق، مما يجعله يقاتل بدون نظام أو إقدام، فيتحقق النصر لغيره.

## ٢- إخفاء الخطط العسكرية:

ومن الأساليب التي اتبعها النبي ﷺ في الحرب، استخدام الأوامر المكتومة والتي كانت تحفى عن أفراد الجيش وتحفى عن القائد نفسه فلا يطلع على ما فيها إلا بعد أن يسير مدة محددة من الزمان حددها له النبي ﷺ.

ومن أمثلة ذلك: ما حدث في سرية عبد الله بن جحش حينما أمره النبي ﷺ أن يسير إلى «نخلة» وأعطاه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين وبهذا يكون

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الجهاد ١٠٣ باب من أراد غزوة فوري بغيرها ١٣٨/٦ ح ٢٩٤٨. ومسلم في الصحيح كتاب التوبة ٩ باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبه ١٠٧/٩ ح ٢٧٦٩. واختصره الترمذي في كتاب تفسير القرآن ١٠ باب ومن سورة التوبة ٨/٤٢٩، ٤٣٠ ح ٣١٠٢ والإمام أحمد في المسند ٣/٤٥٦. والبيهقي في السنن الكبرى كتاب السير ١٣٣ باب من أراد غزوة فوري بغيرها ١٥٠/٩ ح ١٨٤٤٩ جميعهم عن كعب بن مالك ؓ.

(٢) فتح الباري ٦/١٣٩.

النبي ﷺ قد فوت على جواسيس المدينة معرفة وجهاته حتى لا ينقلونها إلى أعدائه. وكان مضمون الرسالة قول النبي ﷺ لعبد الله بن جحش: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل «نخلة» بين مكة والطائف فترصد<sup>(١)</sup> بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم»<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن سار عبد الله بن جحش اليومين أطلع على كتاب رسول الله ﷺ وأخبر أصحابه أن النبي ﷺ أمره ألا يستكره منهم أحدًا على المضي معه، فلم يتخلف منهم أحد، وبذلك حافظ النبي ﷺ على السرية التامة لخروج هذه السرية وفاجأ بها قافلة قريش، وكان النبي ﷺ يباليغ في الكتمان في بعض الحالات إلى الحد الذي يخفى فيه أمر خروجه إلى الغزوات عن أقرب الناس إليه، وعن أصدق أصدقائه، وأحب أزواجه وذلك حفاظًا منه على سير الأمور بسلام، ونجاح التخطيط بإحكام، ومن أمثلة ذلك: حينما أخفى النبي ﷺ وجهه في غزوة الفتح حتى لا تسرب أخبار جيش الفتح ومسيره عبر «الأعين» التي ترصد كل تحركات المسلمين وتنقلها لأعدائهم أولاً بأول.

يقول ابن إسحاق في السيرة النبوية: «وأمر رسول الله ﷺ بالجهاد وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ فقال: أى بنية أمرك رسول الله ﷺ أن تجهزوه؟ قالت: نعم فتجهز قال: فأين تريه يريد؟ قالت: لا والله ما أدري»<sup>(٣)</sup>، ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في

(١) رصده: تتبع حركاته أو قعد له على الطريق يرقبه (النهاية «رصد» ٢٢٦/٢ بتصرف - والمعجم الوجيز «رصده» ص ٢٦٦ بتصرف).

(٢) أورده: ابن إسحاق في السيرة - موضوع: سرية عبد الله بن جحش ونزول قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ (السيرة النبوية لابن هشام) ٢٠٦/٢ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية باب سرية عبد الله بن جحش ٢٨٥/٣ - وأورده الطبري في التاريخ ٢٠٢/٢ وقد سبق تخريجه كاملاً.

(٣) ذكره ابن إسحاق في السيرة النبوية موضوع الاستعداد لفتح مكة (السيرة النبوية لابن هشام) ٣١/٤ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية موضوع: غزوة الفتح الأعظم ٢٧٦/٤.

بلادها فتجهز الناس»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن إسحاق: «ونزل رسول الله ﷺ مر الظهران»<sup>(٢)</sup>، وقد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما رسول الله ﷺ فاعل»<sup>(٣)</sup>.  
وزيادة منه ﷺ في السرية التامة حين الخروج لفتح مكة أرسل سرية سرية بقيادة  
أبى قتادة بن ربيع الأنصاري<sup>(٤)</sup>، إلى بطن إضم في أول شهر رمضان سنة ثمان من  
مهاجر رسول الله ﷺ.

يقول ابن سعد: «لما هم رسول الله ﷺ بغزو مكة بعث أبا قتادة بن ربيع في  
ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم، وهى فيما بين ذى خشب وذى المروة، وبينها وبين  
المدينة ثلاثة برد»<sup>(٥)</sup>، ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب  
بذلك الأخبار<sup>(٦)</sup> اهـ.

وإنما فعل النبي ﷺ ذلك ليزيد في إسدال الستار الكثيف على وجهته الحقيقية.  
وكان قوام جيش المسلمين في فتح مكة عشرة آلاف مقاتل بقيادة النبي ﷺ ومع كثرة  
عدد أفراد الجيش وعظم قوته فقد بقى سر حركته مكتوما، لا تعرف قريش عنه شيئاً.

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة النبوية موضوع: الاستعداد لفتح مكة (السيرة النبوية لابن هشام ٣١/٤) وأخرجه.  
قوله «اللهم خذ العيون» إلى أخره البيهقي في دلائل النبوة باب نقض قريش ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ  
بالحدبية ١١/٥ عن موسى بن عقبة بألفاظ متقاربة وذكره ابن كثير في البداية والنهاية موضوع: غزوة الفتح  
الأعظم ٢٧٧/٤. وابن سعد في الطبقات: غزوة رسول الله ﷺ عام الفتح ١٠٢/٢ بدون إسناد.

(٢) مر الظهران: موضع على مسافة أربعة فراسخ من مكة (معجم البلدان ٤/٤٦٣).

(٣) ذكره ابن إسحاق في السيرة النبوية موضوع: خروج رسول الله ﷺ إلى مكة (السيرة النبوية لابن هشام ٣٤/٤)  
وذكره ابن كثير في البداية والنهاية موضوع: غزوة الفتح الأعظم ٢٨٢/٤ وأخرجه ابن سعد في الطبقات: غزوة  
رسول الله ﷺ عام الفتح ١٠٢/٢ والحديث له شاهد من حديث البخارى الذى رواه بسنده عن عروة بن  
الزبير في كتاب المغازى باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ٨/٨ ح ٤٢٨٠.

(٤) هو الصحابى الجليل: أبو قتادة بن ربيع الأنصاري هو الحارث ويقال عمرو أو النعمان بن ربيع بن بلدمة  
السلمى شهد أحدًا والمشاهد بعدها ولم يصح شهوده بدرا، ومات سنة أربع وخمسين [الإصابة ٣٢٧/٧].

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد: سرية أبى قتادة بن ربيع الأنصاري إلى بطن إضم ١٠١/٢.

(٦) ثلاثة برد: تساوى اثنا عشر فرسخا والفرسخ ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع (النهاية (برد ١١٦/١)).

وكانت قريش تعلم أن النبي ﷺ في حل من قتالها وذلك بعد أن نقضت عهدها معه ﷺ<sup>(١)</sup>، لكنها لم تكن تعرف متى، وأين، وكيف يلتقى الجمعان ويبدأ الفتح المرتقب.

والمعلوم أن النبي ﷺ استخدم في المباغته أساليب متعددة وهذه سياسة حكيمة وقيادة، رشيدة، فكان يدرس الموقف أمامه وحسب ما يحتمله الموقف ويتحقق له به النصر ينفذ خطة الغزوة.

فمثلا كان يستخدم المباغته في المكان مرة، ومرة أخرى يستخدمها في الزمان، وثالثة في الأسلوب، وذلك حسب ما تقتضيه طبيعة كل معركة وظروفها، وبذلك يكون النبي ﷺ طبق أسلوب المفاجأة للأعداء بكل حالاته، فكانت غزواته نماذج رائعة لتطبيق هذا الأسلوب القتالي الجديد.

### ٣- المباغته في المكان:

ومن أمثلة المباغته في المكان: غزوة بني لحيان الذين كانوا بناحية عسفان<sup>(٢)</sup>.

قال ابن هشام: حدثنا زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق المطلبي: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفرًا وشهري ربيع، وخرج، جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة - وذلك في السنة السادسة من هجرة ﷺ إلى بني لحيان يطلب بأصحاب الرجيع<sup>(٣)</sup>، خبيب بن عدي وأصحابا

(١) نقضت عهدها الذي أبرمته مع النبي ﷺ في صلح الحديبية وكان من شروط هذا الصلح: أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قرش وعهدهم دخل فيه، ودخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش، فخانت بنو بكر العهد وقتلت رجالا من خزاعة بمساعدة قريش فاستنجدت خزاعة برسول الله ﷺ وبذلك نقضت قريش عهدها هي وحلفائها. (ينظر السيرة النبوية لابن هشام موضوع: ذكر الأسباب الموجبة المسير إلى مكة ٢٤/٤).

(٢) عسفان: قرية بين المدينة ومكة على مرحلتين من مكة (معجم البلدان ١٢١/٤).

(٣) شهداء الرجيع: هم ستة من أصحاب النبي ﷺ غدرت بهم قبيلتي عضل والقارة فقد أتوا إلى النبي ﷺ سنة ثلاث من الهجرة وقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاما فابعث نفرا من أصحابك يفتقوننا في الدين ويعلموننا شرائع الإسلام فأرسل الصحابة معهم ولكنهم غدروا بهم وقتلوهم (السيرة النبوية لابن هشام. موضوع: ذكر يوم الرجيع ١٣٨/٣).

وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة<sup>(١)</sup>، اهـ.

فقد تحرك النبي ﷺ بجيشه ناحية الشمال باتجاه الشام، حتى لا تعرف قريش وبنو لحيان اتجاه حركته الحقيقية، فلما انتشرت أخبار حركة جيش المسلمين، وعرفوا أنه يسير ناحية الشمال، عاد النبي ﷺ بجيشه فجأة باتجاه بني لحيان فباغتهم في المكان وألقى الرعب في قلوبهم وشتت جمعهم حتى تفرقوا في رؤوس الجبال.

ومنها أيضًا، ما كان من أمر خروجه ﷺ إلى خيبر قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر<sup>(٢)</sup>، فبنى له فيها مسجدًا، ثم على الصهباء<sup>(٣)</sup>، ثم أقبل رسول الله ﷺ بجيشه، حتى نزل بواد يقال له الرجيع<sup>(٤)</sup>، فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ.

فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عيه، حتى إذا ساروا منقلة<sup>(٥)</sup>، سمعوا خلفهم في أموالهم وأهلهم حسا، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم. فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهلهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر<sup>(٦)</sup>.

فقد تحرك النبي ﷺ بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع وهو بين خيبر

(١) غرة: أى غفلة (النهاية «غرر» ٣/ ٣٥٥).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع: غزوة بني لحيان (السيرة النبوية لابن هشام) ٣/ ٢٥١. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية موضوع: غزوة بني لحيان ٤/ ٨٣. وأخرجه ابن سعد في الطبقات: غزوة رسول الله ﷺ بني لحيان ٢/ ٦٠.

(٣) عصر: هو جبل بين المدينة ووادي الفرع (معجم البلدان ٤/ ١٢٨).

(٤) الصهباء: هو اسم موضع بينه وبين خيبر روضة (معجم البلدان ٣/ ٤٣٥).

(٥) هو الموضع الذي غدرت فيه عضل والقارة بالسبعة نفر الذين بعثهم النبي ﷺ إليهم وهو ماء لهزيل قرب الهدأة بين مكة والطائف [معجم البلدان ٣/ ٣٣].

(٦) مرحلة من مراحل السفر [لسان العرب «نقل» ٦/ ٤٥٣٠].

(٧) ذكره ابن إسحاق في السيرة - موضوع منازل رسول الله ﷺ في خروجه إلى خيبر (السيرة النبوية لابن هشام) ٣/ ٣٠٤. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية من طريق ابن إسحاق موضوع - غزوة خيبر في أولها ٤/ ١٨١.

وغطفان ثم أرسل قوة صغيرة من جيشه إلى غطفان المتحالفة مع اليهود فأوهمهم بأنه يريد قتالهم، ثم عاد النبي ﷺ بمعظم جيشه إلى خيبر، وبهذه الخطة أوهم غطفان بأنه يريدهم، وأوهم يهود خيبر بأنه لا يريد قتالهم، فباغت الطرفين ومنع تعاونهما في قتال المسلمين.

والنبي ﷺ لجأ إلى هذه الأساليب من المراوغة والتعمية لكي يصل إلى أهدافه بأقصى سرعة وبأقل خسائر لأنه لو أعلن عن خروجه لتأهب له الأعداء ووضعوا له «الأكمنة» في الطرقات، ولحالوا بينه وبين ما يريد.

#### ٤ - التعمية والإخفاء في التوقيت:

واستخدم النبي ﷺ ذلك في غزوة بني قريظة: فقد تحرك ﷺ إليهم بسرعة فائقة ووصل إليهم في وقت لا يتوقعونه فأفقدهم صوابهم، وزلزل نفوسهم.

والمعلوم أن النبي ﷺ حث أصحابه على الإسراع إلى بني قريظة حتى يطبق مبدأ المفاجأة في الزمان تلك التي ساهمت كثيرا في التمكن من حصار بني قريظة.

يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء حدثنا جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدا منهم<sup>(١)</sup>.

ومن أمثلة المباغتة في الزمان أيضًا: مسير النبي ﷺ إلى يهود خيبر في هدوء، حتى وصل إليهم ليلاً، وهو وقت لا يتوقعون مجيء النبي ﷺ فيه، ففوت عليهم فرصة

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٣٠ باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة، ومحاصرته إياهم ٥٠٤/٧ ح ٤١١٩. ومسلم في كتاب الجهاد والسير ٢٣ باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين ٦/٣٤٠ ح ١٧٧٠. والبيهقي في السنن كتاب آداب القاضي ٢٢ باب اجتهد الحاكم فيما يسوغ فيه الاجتهاد ١٠/٢٠٣٧٠ جميعهم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. والقصة بكاملها في كتاب (السيرة النبوية لابن هشام) موضوع: غزوة بني قريظة ٣/٢٠٣. وكذلك في البداية والنهاية لابن كثير بعنوان (فصل في غزوة بني قريظة ٤/١١٨).

الاستعداد لملاقاته يقول الإمام البخارى رحمه الله: حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن حميد الطويل عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى خيبر ليلاً وكان إذا أتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم<sup>(١)</sup>، ومكاتلهم<sup>(٢)</sup>، فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس<sup>(٣)</sup>، فقال النبي ﷺ: خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين<sup>(٤)</sup>.

وفى قول أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ أتى خيبر ليلاً» دلالة على أنه باغتهم بمجيئه في ذلك الوقت - وهو وقت النوم والراحة والسكون -، فكيف يخطر ببالهم أنه سوف يأتي إلى ديارهم في ذلك الوقت الذي خيم فيه الظلام على كل شيء وفى قوله «فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم» دلالة على أن المباغته قد نجحت وأنهم لم يشعروا بقدوم النبي ﷺ وجيشه إلا في الصباح حينما خرجوا لكى يمارسوا أعمالهم كأي يوم عادى.

#### ٥ - التفنن في تنظيم الجيش حسب حالة المعركة (المباغته في الأسلوب):

استخدم النبي ﷺ أسلوباً جديداً في القتال لم تعرفه الأعداء من قبل وهو القتال بأسلوب الصف في بدر بدلاً من أسلوب الكر والفر، لأن أسلوب الصف أوفق من ناحية التنظيم، وأدعى إلى الثبات والصبر، ولأنه أسلوب امتدحه الله تبارك وتعالى وأخبر سبحانه بأنه يحب من يقاتل به قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ

(١) المساحى: جمع مسحاة وهى المجرفة من الحديد (النهاية «مسح» ٤/ ٣٢٨).

(٢) المكاتل: هو الذبيل الكبير قيل أنه يسع خمسة عشر صاعاً كأن فيه كتلاً من التمر: أى قطعاً مجمعة ويجمع على مكاتل (النهاية «كتل» ٤/ ١٥٠) وقال ابن حجر: المكاتل: هو القفة الكبيرة التى يحول فيها التراب وغيره (فتح البارى ٧/ ٥٧٨).

(٣) الخميس: الجيش، سمي به لأنه مقسوم بخمسة أقسام: المقدمة، والساقة والميمنة، والميسرة، والقلب، وقيل لأنه تخمس فيه الغنائم (النهاية «خمس» ٢/ ٧٩).

(٤) أخرجه البخارى فى الصحيح كتاب المغازى ٣٨ باب غزوة خيبر ٧/ ٥٧٨ ح ١٩٧. ومسلم فى كتاب الجهاد والسير ٤٣ باب غزوة خيبر ٦/ ٤٠٤ ح ١٨١٠. ومالك فى الموطأ كتاب الجهاد ١٩ باب ما جاء فى الخيل والمسابقة بينها، والنفقة فى الغزو ٢/ ٣٧٣ ح ٤٨ فى بابهِ والإمام أحمد فى المسند ٣/ ١١-١١١، ٤/ ٢٨. جميعهم عن أنس رضي الله عنه.

صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ [الصف: ٤] فكان النبي ﷺ يحرص على تسوية الصفوف لما لها من أثر عظيم في تحقيق النصر، ولأنه أسلوب لم تعهده الأعداء من قبل.

يقول ابن كثير في تفسير الآية السابقة من سورة الصف:

هذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجِهين أعداء الله في حومة الوغى يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر العالی على سائر الأديان.

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي ملتصق بعضه ببعض من الصف في القتال.

وقال قتادة في معنى قوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه؟ فكذلك الله ﷻ لا يحب أن يختلف أمره وأن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم»<sup>(٢)</sup>.

ومما يدل على قتال النبي ﷺ بأسلوب الصف ما رواه ابن إسحاق بقوله: حدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه: أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح<sup>(٣)</sup>، يعدل به القوم. فمر بسواد بن غزية<sup>(٤)</sup>. حليف بني عدى بن النجار - وهو مستنزل<sup>(٥)</sup>، من الصف فطعن في بطنه بالقدح وقال: استوي يا

(١) تفسير ابن كثير ٣٥٨/٤ والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٨/٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٥٩/٤ ط دار مصر للطباعة.

(٣) القدح هو السهم [النهاية «قدح» ٢٠/٤].

(٤) هو الصحابي الجليل: سواد بن غزية الأنصاري من بني عدى بن النجار ويقال سواده وقيل هو بلوى حليف

الأنصار شهد بدرا وأمره النبي ﷺ على خير [الإصابة ٢١٧/٣].

(٥) أي متقدم والتل الجذب إلى قدام [النهاية «نزل» ١٣/٥].



سواد، فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذني<sup>(١)</sup>، [قال]: فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال «استقد» قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد؟» قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير<sup>(٢)</sup>.

#### ٦ - التفنن في الأساليب وطرائق القتال:

كان حفر الخندق في غزوة الأحزاب مفاجأة في أساليب القتال لأن العرب لم تكن تعرف أسلوب حفر الخنادق للدفاع عن بلادها من قبل، وإنما استعمله النبي ﷺ بمشورة من سلمان الفارسي ﷺ لما وصل نبأ الجمع الحاشد إلى الرسول ﷺ - وهو نبأ جيش الأحزاب الذي أعدته قريش للقضاء على المسلمين بعد نكوصها في معركة «بدر الآخرة» - فاستشار النبي ﷺ أصحابه أئقيمون في المدينة أم يخرجون للقاء العدو؟ وبعد مناقشات دارت بين القادة وأهل الشورى اتفقوا على قرار قدمه الصحابي الجليل سلمان الفارسي ﷺ قال سلمان: «يا رسول الله إنا بأرض فارس كنا إذا حوصرنا خندقنا علينا»<sup>(٣)</sup>.

وكانت هذه خطة محكمة دقيقة لم تعرفها العرب من قبل، وأيد المجلس هذا الرأي واتخذ قراراً وأسرع الرسول ﷺ وأصحابه إلى تنفيذه، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً<sup>(٤)</sup>.

#### قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى:

حدثني قتيبة حدثنا عبد العزيز عن أبي حازم عن سهل بن سعد ﷺ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا، فقال

(١) سأله أن يقيده من نفسه أي يقتص منه [النهاية] (وقد) ١١٩/٤.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع: التقاء الفريقين في بدر ٢٢٩/٢ وأخرجه عبد الرزاق في كتاب الجمعة باب اعتماد رسول الله ﷺ على العصا ٣/١٨٤ رقم ٥٢٤٨ عن جعفر بن محمد عن أبيه - والكتاب طبعة المكتب الإسلامي الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(٣) فتح الباري ٧/٤٨٤.

(٤) قيادة الرسول ﷺ الحربية في الغزوات الإسلامية للأستاذ الدكتور رزق رزق عامر حسن ص ٨٥ الطبعة الأولى.

رسول الله ﷺ : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار»<sup>(١)</sup>.  
ومن صور المباغته في الأسلوب أيضًا:

استخدام النبي ﷺ بعض الأسلحة الجديدة التي لم تكن موجودة في الحروب من قبل، ولم يكن يعرفها أحد، وكان استخدامها والقتال بها مفاجأة كبيرة لأعداء الإسلام، وذلك كاستخدامه ﷺ المنجنيق<sup>(٢)</sup>، والدبابات<sup>(٣)</sup>، في حصار الطائف<sup>(٤)</sup>، في سنة ثمان من مهاجر ومما سبق يتبين لنا أن النبي ﷺ استخدم عنصر المفاجأة بأنواعه الثلاث، وحقق به النصر على أعدائه، وكان ﷺ هو المعلم الأول لكل قادة العالم في هذا الميدان.



(١) أخرجه البخارى فى الصحيح كتاب المغازى: ٢٩ باب غزوة الخندق وهى الأحزاب ٧/ ٤٨٦ ح ٤٠٩٨. ومسلم فى الصحيح كتاب الجهاد ٤٤ باب غزوة الأحزاب وهى الخندق ٦/ ٤١١ ح ١٨٠٣ عن البراء ؓ. والترمذى فى كتاب المناقب: باب مناقب سهل بن سعد ؓ ١٠/ ٢٦٨ ح ٣٨٦٥ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. والإمام أحمد فى المسند ٣/ ١٧٢، ٢٧٦، ٥/ ٣٣٢. والبيهقى فى السنن الكبرى: كتاب النكاح ١٣ باب كان إذا رأى شيئاً يعجبه قال: ليك إن العيش عيش الآخرة ٧/ ٤٨ ح ١٣٣٢ جميعهم عن سهل بن سعد ؓ.

(٢) المنجنيق: آلة من آلات الحصار، ترمى بها الحجارة، ويتألف المنجنيق بصورة عامة من عامود طويل قوى موضوع على عربة ذات عجلتين فى رأسها حلقة أو بكرة يمر بها جبل متين، وفى طرفه الأعلى شبكة فى هيئة كيس وتوضع حجارة أو مواد محترقة فى الشبكة، ثم تحرك بواسطة العامود والحبل فيندفع ما وضع فى الشبكة من القذائف ويسقط على الأسوار فيقتل أو يحرق ما يسقط عليه (المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية «جلق») ص ١١٢ والرسول القائد ص ٣٨٧.

(٣) الدبابة: آلة تتخذ من الجلود والخشب الثخين تتركب على عجلات ويدخل فيها الرجال، ويقربونها من الحصن لينقبوه وتقيهم ما يرمون به من فوقهم فهى عبارة عن قلعة متحركة يحتوى بها المشاة من نبال الأعداء (النهاية «دب» ٩٦/٢ بتصرف).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام. موضوع الطريق إلى الطائف ٤/ ١١٠ ومما يدل على استخدام المنجنيق فى القتال فى ذلك الوقت أيضًا ما ذكره ابن حجر فى سبب وفاة الصحابى الجليل المسور بن مخرمة ؓ حيث يقول ابن حجر ثم كان يعنى المسور مع ابن الزبير، فلما كان الحصار الأول أصابه حجر من حجارة المنجنيق فمات [الإصابة ٦/ ١٢٠].

## الفصل السادس

### تتمّة فى سياسات عسكرية مهمة

ويتضمن الموضوعات الآتية:

- ١ - سياسة النبي ﷺ مع من ينقل أخبار المسلمين إلى أعدائهم.
- ٢ - سياسة النبي ﷺ مع من تهرب من الجندية وتخلف عن الغزوات.
- ٣ - سياسة النبي ﷺ فى تجنب وقوع الفتن والانشقاقات لاسيما أثناء الغزوات.
- ٤ - اهتمام النبي ﷺ بأرض فلسطين.
- ٥ - إمارة أسامة وأبيه من قبله أعظم درس فى (الديمقراطية).

## الفصل السادس

### تتمتة فى سياسات عسكرية مهمة

١ - سياسة النبي ﷺ مع من ينقل أخبار المسلمين إلى أعدائهم:

مشكلة عملاء الاستخبارات كانت واحدة من المشاكل العويصة التي تعرض لها النبي ﷺ إبان حياته، ولا شك أنها مشكلة خطيرة جداً لأن (الجاسوس) الذي ينقل أخبار قومه إلى أعدائه يهدد أمن أمته واستقرارها ويتسبب في إلحاق الأضرار والهزائم بها، لأنه محسوب على قومه ويعيش معهم ولا يشك أحد في ولائه لهم لذلك لا ينكشف أمر خيانتة بسهولة ثم إن الأخبار التي ينقلها إلى أعدائه تكون مفصلة ودقيقة لأنه يعاين الأشياء ويعايشها ويعرف الظروف والملابسات ويعرف التي تضر والتي تنفع ويقف على مواطن الداء ومواقف الضعف بالنسبة لقومه ثم إنه مصدق عند من يعمل لحسابهم، فسرعان ما يخططون لحروبهم ضد قومه على ضوء المعلومات التي وصلت إليهم عن طريقه فتكون لهم الغلبة لأنهم يعرفون كل شيء عن أعدائهم، ولا يخفى عليهم شيء من أمر عددهم أو عدتهم أو أماكن رباطهم أو أماكن الأرصادة وغيرها وتشاء حكمة الله أن تقع حادثة تجسس في عهد النبي ﷺ والوحي ينزل والقرآن يتلى حتى تكون درساً عملياً تربوياً يتلقاه المسلمون في كل زمان ومكان وتظهر فيه حكمة النبي ﷺ وحسن سياسته للأمور يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا قتبية سعيد حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار قال أخبرني الحسن بن محمد أنه سمع عبيد الله بن أبي رافع يقول «سمعت علياً رضي الله عنه يقول «بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ»<sup>(١)</sup>، فإن بها طعينة»<sup>(٢)</sup>، معها كتاب فخذوه منها قال

(١) روضة خاخ: موضع بين مكة والمدينة بقرب حمراء الأسد [معجم البلدان ٢/ ٣٨٣].

(٢) الطعينة: مأخوذة من الطعن وهو الرحيل: وقيل سميت طعينة لأنها تركب الطعين التي تظعن براكبها وقال الخطابي سميت طعينة لأنها تظعن مع زوجها ولا يقال لها طعينة إلا إذا كانت في الهوج وقيل إنه اسم الهودج سميت به المرأة لركوبها فيه ثم توسعاً فأطلقوه على المرأة ولو لم تكن في هودج (فتح الباري ١٢/ ٣٦٨).

فانطلقنا تعادى<sup>(١)</sup>، بناخيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة قلنا لها أخرجى الكتاب قالت ما معى كتاب فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب<sup>(٢)</sup>، قال فأخرجته من عقاصها<sup>(٣)</sup>، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين<sup>(٤)</sup>، يخبرهم ببعض أمر<sup>(٥)</sup> رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ يا حاطب ما هذا؟ قال يا رسول الله لا تعجل عليّ إني كنت امرأة ملصقة<sup>(٦)</sup> في قريش يقول كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين من لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ أما إنه قد صدقكم فقال عمر: يا رسول الله، دعنى أضرب عنق هذا المنافق فقال: إنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل الله السورة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ إلى قوله ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾<sup>(٧)</sup>، [الممتحنة: ١].

- (١) أى الخيل تعدو وتتسابق وتتسارع فى العدو [النهاية «عدا» ٣/ ١٩٤].  
 (٢) أى ننزع ثيابك حتى تصيرى عريانة أو لا أترك عليك ثوبا إلا التمسنا فيه وفى ذلك تهديد لها فهم قد هددوها بالقتل أو لا فلما أصرت على الإنكار ولم يكن معهم ساعته إذن بقتلها هددوها بتجريد ثيابها فلما تحققت من ذلك خشيت أن يقتلوا حقيقة فأخرجت الكتاب من عقاصها (فتح البارى ١٢/ ٣٧٠ بتصرف).  
 (٣) أى ضفائرها [النهاية «عقص» ٣/ ٢٧٦].  
 (٤) وهم: سهيل بن عمرو العامرى وعكرمة بن أبى جهل المخزومى وصفوان بن أمية الجمحى.  
 (٥) الأمر الذى أخبرهم به هو: قال لهم فى الكتاب الذى أرسله «أما بعد يا معشر قريش فإن رسول الله جاءكم بجيش كالليل ويسير كالسيل فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده فانظروا لأنفسكم والسلام (فتح البارى ٧/ ٦٤٤).  
 (٦) أى حليفا وقد فسر بقوله: كنت حليفا ولم أكن من أنفسها أو كنت غريبا وكان حاطب حليفا لعبد الله بن حميد ابن زهير بن أسد بن عبد العزى واسم أبى بلتعة عمرو وقيل كان حليفا لقريش (فتح البارى لابن حجر ٧/ ٦٤٤ بتصرف يسير).  
 (٧) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ٤٦ باب غزوة الفتح ٧/ ٦٤٣ ح ٤٢٧٤ وفى ٩ باب فضل من شهد بدرًا ٧/ ٣٧٥ ح ٣٩٨٣ وفى كتاب التفسير ٦ سورة الممتحنة باب ﴿لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء﴾ ٨/ ٧٧٩ ح ٤٨٩ وفى كتاب استتابة المرتدين: ٩ باب ما جاء فى المتأولين ١٢/ ٣٦٦ ح ٦٩٣٩ ومسلم فى كتاب فضائل =

إن الذي يقرأ الحديث السابق يقول: لماذا لم يحاسب النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة على فعلته ويعاقبه أشد العقاب حتى يكون عبرة لكل من سولت له نفسه بعد ذلك أن يقوم بمثل هذا العمل الشنيع؟ ولكن المتأمل لظروف الحادثة وما يحيط بها يعلم أن النبي ﷺ تعامل مع الموقف بحكمة سياسية رشيدة فقدر المسألة تقديراً سليماً ووضع الأمر في نصابه الصحيح لأنه ﷺ حينما سأل حاطباً عن سبب نقله لأخبار جيش المسلمين أبدى حاطب حجة واضحة صدقها النبي ﷺ ورأى أنها عذر مقبول فلم يعاقبه لأنه صحابي جليل صادق النية صدرت منه فلتة ووقعت له كبوة لم يكن يقصد من ورائها نقل الأخبار والإضرار بالمسلمين صراحة وإنما أراد تقوية مركزه عند أهل مكة لأنه لا نسب له فيهم وليس له جوار أو شوكة تحمي أهله وقرابته في مكة، وذلك بخلاف المهاجرين الذين كانت لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم وأموالهم، ثم إن حاطباً كان من أهل بدر ولعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم كما أن وصول أخبار جيش المسلمين كانت ستنتقل إلى أهل مكة بواسطة مخبراتهم عبر أي طريق ثم إن وصول أخبار جيش المسلمين إلى قريش لا يفيدهم كثيراً فهو جيش لا قبل لهم به وإن وضعوا له ألف استعداد وحسبوا له ألف حساب لأن قريشاً قد أنهكتهم الحرب ورمتهم العرب عن قوس واحدة في ذلك الوقت كما أن الخبر الذي أرسله حاطب لم يكن يضر كثيراً لو وصل إلى المشركين ولم يقصد به الإضرار بدليل قول حاطب: فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده<sup>(١)</sup>، يقصد بذلك رسول الله ﷺ.

والمعلوم أن النبي ﷺ أدرك الأمر وانشغل بالأهم فأرسل علياً والزبير والمقداد لكي يلحقوا بالمرأة ويأخذوا الكتاب الذي معها وهكذا حال النبي ﷺ دون وصول الأخبار إلى قريش وأنهى القضية بسلام.

= الصحابة: ٣٦ باب فضائل أهل بدر ﷺ وقصة حاطب بن أبي بلتعة ٢٩٣/٨ ح ٢٤٩٤ وأبو داود في كتاب

الجهاد: ١٨ باب في حكم الجاسوس إذا كان مسلماً ٢٥٠/٧ ح ٢٦٤٧ والترمذي في كتاب تفسير القرآن: سورة

المتحنة ١٦٢/٩ ح ٣٣٠٥ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح - والإمام أحمد في المسند ٧٩/١،

١٠٥ جميعهم عن علي بن أبي طالب ﷺ.

(١) فتح الباري ٦٤٤/٧.

وما مضى كان حكم رسول الله ﷺ في أمر الجاسوس المسلم أما غير المسلم فقد أمر النبي ﷺ بقتله، لأنه يقصد الإضرار بالمسلمين لا محالة فلا هوادة معه. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى حدثنا أبو نعيم حدثنا أبو العميس عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه<sup>(١)</sup>، قال «أتى النبي ﷺ عين<sup>(٢)</sup>، من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انتقل<sup>(٣)</sup>، فقال النبي ﷺ: اطلبوه واقتلوه فقتلته فنقله<sup>(٤)</sup>، سلبه<sup>(٥)</sup>»<sup>(٦)</sup>.

٢- سياسة النبي ﷺ مع من تهرب من الجندية وتحلف عن الغزوات:  
انتهج النبي ﷺ مع هذا الصنف من الناس سياسية الاجتناب والمقاطعة ولا شك أنه عقاب نفسي أليم يخلو فيه الإنسان بنفسه فيلومها وتلومه ويجد نفسه منبوذا بين الناس، لا يعاملونه ولا يكلمونه وإن كلمهم لا يردون عليه.  
ولم يعاقب النبي ﷺ من تحلف عن الغزوات بعقاب جسدي أو مادي لأنه لم يرد في عقابه شيء والجهد فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي.  
ولم يترك النبي ﷺ من تحلف عن الخروج معه بدون عقاب حتى لا يركن الناس إلى ذلك ويعتادوه فيعزف البعض عن الجهاد ظناً منهم أنه لا بأس في ذلك ولا حرج فيقل عدد المجاهدين. وإنما عاقبه النبي ﷺ بعقوبة المقاطعة العامة وهي عقوبة أشد ما تكون على أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا يحرصون على صحبته

(١) هو الصحابي الجليل: سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي أبو مسلم وأبو إياس شهد بيعة الرضوان ومات سنة أربع وسبعين [الإصابة ٣/ ١٥١].

(٢) العين: الجاسوس (النهاية «عين» ٣/ ٣٣١) .

(٣) انتقل: أي فر (النهاية نقل ٥/ ١٠٠) .

(٤) فنقله: النقل هو الغنيم (النهاية «نقل» ٥/ ٩٩) .

(٥) سلبه: السلب هو ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون عليه ومعه من سلاح وثياب ودابة وغيرها (النهاية «سلب» ٢/ ٣٨٧) .

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير: ١٧٣ باب الحربى إذا دخل دار الإسلام بغير أمان ٦/ ٢٠٤ ح ٣٠٥١ وأبو داود في كتاب الجهاد: ١١٠ باب في الجاسوس المستأمن ٧/ ٢٥٤ ح ٢٦٥٠ كلاهما عن سلمة بن الأكوع رحمه الله .

وملازمته للاستفادة من علمه وعمله، والتبرك به، ولم تكن تطيب نفوسهم أن يتركوه وحده حتى أنهم كانوا يذهبون معه في شئونه الخاصة كقضاء الحاجة وغيرها.

وقد روى البخارى حديثاً نبوياً شريفاً عن السياسة الحكيمة للنبي ﷺ نحو كل من ترك الجهاد وأخلد للراحة والسكون واتبع الهوى.

يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بني حنينة عمى قال: سمعت كعب بن مالك<sup>(١)</sup>، يحدث حين تخلف عن قصة تبوك قال كعب: لم أنخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أنى كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حيث توائمتنا على الإسلام وما أحب أنى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى غيرها حتى كانت تلك الغزوة التي غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً<sup>(٢)</sup>، وعدواً كثيراً فجلى<sup>(٣)</sup> للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة<sup>(٤)</sup> غزوهم فأخبرهم بوجهه الذى يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لى أتجهز معهم فأرجع ولم أقص

(١) هو الصحابى الجليل: كعب بن مالك بن أبى كعب بن سواد بن غنم الأنصارى السلمى شهد العقبة وبايع وشهد أحداً وما بعدها وتخلف عن تبوك وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ومات ﷺ أيام قتل على بن أبى طالب ﷺ [الإصابة ٥/٦١٠].

(٢) المفاز والمفازة: البرية القفر والجمع مفاوز (النهاية «فوز» ٣/٤٧٨).

(٣) أى كشف وأوضح (النهاية «جلا» ١/٢٩٠).

(٤) الأهبة: ما يحتاج إليه في السفر والحرب (فتح البارى ٨/١٤٧).



شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجذ<sup>(١)</sup>، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا<sup>(٢)</sup> لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط<sup>(٣)</sup> الغزو وهممت أن أرتحل فأدرتهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ - فطفت فيهم، أحننني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً<sup>(٤)</sup> عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه براده<sup>(٥)</sup> ونظره في عطفه<sup>(٦)</sup> فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عنى الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبإيعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله فجثته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال تعالى فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك<sup>(٧)</sup>؟

(١) الجذ: هو الجد في الشيء والمبالغة فيه (فتح الباري ٨/ ١٤٧).

(٢) أي خرجوا من منازلهم وبلادهم (النهاية «فصل» ٣/ ٤٥١ بتصرف).

(٣) تفارط: أي فات وسبق، والفرط: السبق (فتح الباري ٨/ ١٤٧).

(٤) أي مطعوناً عليه في دينه متهمًا بالنفاق وقيل معناه مستحقراً (فتح الباري ١/ ١٤٨).

(٥) البرد: نوع من الثياب معروف والجمع أبراد وبرود، والبردة الشملة المخططة وقيل: كساء أسود مربع فيه صور تلسه الأعراب وجمعها برد (النهاية برد) ١/ ١١٦.

(٦) ردائه (النهاية «عطف» ٣/ ٢٥٧) وقال الإمام النووي والنظر في عطفه أي جانبه وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه (شرح النووي على مسلم ٩/ ١٠٨).

(٧) الظهر: هي الإبل التي يحمل عليها وتركب (النهاية «ظهر» ٣/ ١٦٦).

فقلت بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقممت وثار رجال من بنى سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقليل لهما مثل ما قيل لك، فقلت من هما؟ فقالوا مرارة بن الربيع العمرى<sup>(١)</sup>، وهلال بن أمية الواقفي<sup>(٢)</sup>، فذكروا لي رجلين قد شهدا بدرًا إلى فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فليشنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحبنا فاستكانا<sup>(٣)</sup>، وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب<sup>(٤)</sup>، القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت<sup>(٥)</sup> جدار حائط أبي قتادة<sup>(٦)</sup> وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمت عليه،

(١) هو الصحابي الجليل: مرارة بن الربيع الأنصاري الأوسي من بنى عمرو بن عوف شهد بدرًا [الإصابة ٦/٦٥].

(٢) هو الصحابي الجليل: هلال بن أمية بن عامر بن قيس بن عبد الأعلى بن عامر بن كعب بن واقف الأنصاري الواقفي شهد بدرًا وما بعدها [الإصابة ٦/٥٤٦].

(٣) أي خضعا (النهاية «سكن») ٢/٣٨٥.

(٤) أي أصغرهم سنا وأقواهم (شرح النووي على مسلم ٩/١١٠).

(٥) أي علوت سور الدار (فتح الباري ٨/١٥٠).

(٦) هو الصحابي الجليل: الحارث ويقال عمرو أو النعمان بن ربيع بن بلدمة السلمي الأنصاري شهد أحدًا وما=

فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ قال: أعلم، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار قال: فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى<sup>(١)</sup> من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطقق الناس يشيرون له: حتى إذا جاءنى دفع إليّ كتابا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيفة فالحق بنا نواسك<sup>(٢)</sup>، فقلت لما قرأتها وهذا أيضًا من البلاء فتيمنت<sup>(٣)</sup>، بها التنور<sup>(٤)</sup>، فسجرتة<sup>(٥)</sup>، بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال لا بل اعتزلها ولا تقر بها، وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك فقلت لا مرأتى الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدرينى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله: قد ضاقت على نفسى وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى<sup>(٦)</sup> على جبل سلع<sup>(٧)</sup> بأعلى

= بعدها ولم يصح شهوده بدرا ومات ﷺ سنة أربع وخمسين [الإصابة ٣٢٧/٧].

- (١) هم أهل الفلاحة وهذا النبطى الشامى كان نصرانيا (فتح البارى ١٥/٨).
- (٢) أى نشاركك فيما عندنا (شرح النووى على صحيح مسلم ١١٠/٩).
- (٣) أى قصدت (فتح البارى ١٥١/٨ شرح النووى على مسلم ١١٠/٩).
- (٤) التنور: ما يخبز فيه (النهاية «تنر» ١/١٩٩).
- (٥) أى أحرقتها، وأنت الضمير لأنه أراد معنى الكتاب وهو الصحيفة (شرح النووى على صحيح مسلم ١١٠/٩).
- (٦) أى أشرف واطلع (النهاية «وفا» ٢/٢١١).
- (٧) هو جبل معروف بالمدينة (شرح النووى على مسلم ١١١/٩).

صوته: يا كعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاه الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض<sup>(١)</sup> إليّ رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقانى الناس فوجا فوجا يهنونى بالتوبة يقولون: لتهنك<sup>(٢)</sup> توبة الله عليك قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إليّ طلحة<sup>(٣)</sup> بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور قال: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخير، فقلت يا رسول الله، إن الله إنما أنجانى بالصدق، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، فوالله ما أعلم أحد من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذبا وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت وأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩] فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبتة فأهلك كما

(١) سار به إلى [النهاية] «ركض» ٥٢٩/٢.

(٢) أى من الهناء وهو العطاء: ويطلق كذلك على كل أمر يأتى من غير تعب والتهتة خلاف التعزية (النهاية) «هنأ» ٢٧٧/٥ بتصرف.

(٣) هو الصحابى الجليل: طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمى، أبو محمد المدنى أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام استشهد يوم الجمل سنة ست وثلاثين [الإصابة ٥٢٩/٣].

هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٤ - ٩٦] قال كعب: وكنا تخلفنا نحن الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ<sup>(١)</sup>، رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: ١١٨] وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه<sup>(٢)</sup>.

### ٣- سياسة النبي ﷺ في تجنب وقوع الفتن والانشقاقات لاسيما أثناء الغزوات:

حينما انتهى النبي ﷺ هو ومن معه من عزوة بنى المصطلق بعد أن هزم الله الأعداء، وقتل من قتل منهم، ونفل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم، وبينما رسول الله ﷺ على الماء وردت واردة الناس، وكان مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجير له فازدحم مع أحد رجال الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ حليف الخزرج يا معشر الأنصار وصرخ أجير عمر يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول الذى خرج إلى الغزوة متظاهراً بالإسلام وانتهزها فرصة ليشعلها فتنة عمياء بين المهاجرين والأنصار فقال: (أو قد فعلوها - يعنى المهاجرين) قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك، وأما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم<sup>(٣)</sup>.

ولما أخبر النبي ﷺ بهذا الكلام، تعامل مع الموقف بحكمة حتى لا يستفحل

(١) أى أخره والإرجاء: التأخير (النهاية «رجا») ٢/٢٠٦.

(٢) أخرجه البخارى فى الصحيح: كتاب المغازى ٧٩ باب حديث كعب بن مالك ٨/١٤٠ ح ٤٤١٨ وأخرجه مختصراً فى كتاب التفسير ١٧ باب قوله تعالى ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ ٨/٤٢٣ ح ٤٦٧٦، ومسلم فى الصحيح: كتاب التوبة: ٩ باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٩/١٠٠ ح ٢٧٦٩. والترمذى مختصراً فى كتاب تفسير القرآن: ١٠ باب ومن سورة التوبة ٨/٤٢٩ ح ٣١٠٢ وقال أبو عيسى وقد روى هذا الحديث بغير هذا الإسناد. والإمام أحمد فى المسند ٣/٤٥٧، ٦/٣٨٧ جميعهم عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٣) ينظر السيرة النبوية لابن هشام موضوع غزوة بنى المصطلق ٣/٢٦٣.

الأمر، فيتنازع المهاجرون والأنصار فيفشلوا وتذهب ریحهم، ورأى النبي ﷺ أن أنسب الحلول في ذلك الوقت هو أن يشغل الناس عما حدث فمشى النبي ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى أذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما، وإنما فعل النبي ﷺ ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي وهنا تتجلى لنا سياسة النبي ﷺ في معالجة المواقف الصعبة، والمحن الشديدة بوضع حلول سريعة تجنبنا لوقوع الفتن.

#### ٤ - اهتمام النبي ﷺ بأرض فلسطين

قضية أرض فلسطين كانت من جملة القضايا التي اهتم بها النبي ﷺ حيث إنه أوصى بفتح هذه الأرض فتحاً عربياً إسلامياً، وكان ذلك في آخر عهده بالدنيا، وفي موقف ينشغل فيه كل إنسان بنفسه وبما هو مقدم عليه من شدة الموت وسكراته. وكأنه ﷺ كان يعلم ما سوف يحدث فيها في هذه الأيام من احتلال للأرض وتشريد للأهل فقد رأى النبي ﷺ أن أرض فلسطين ستشهد حروا كثيرة، وستكون مطمعا للغزاة على مر التاريخ لأنها أرض رسالات ونبوات وموطن كثير من الديانات، ولأنها أرض مباركة فيها مسجد تشد الرحال إليه فضلا عن أنه قبة المسلمين الأولى ومسرى رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]

ولذلك أمر النبي ﷺ بتعبئة جيش بقيادة الحب بن الحب أسامة بن زيد رضي الله عنه وأمره بالتوجه إلى أرض فلسطين، وكان جيش أسامة هو آخر الجيوش التي أعدها النبي ﷺ وهبها للقتال وأمر بإرسالها، وأسند قيادتها إلى غلام في السابعة أو الثامنة عشرة من عمره، وكأنه ﷺ أراد أن يبين لنا أن المسلم لابد أن يدافع عن دينه ومقدساته في أي سن كان، وأن أمر هؤلاء الأعداء هين طالما أننا رفعنا راية الجهاد وتوكلنا على الله تعالى ولم نجبن أو نضعف ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

يقول الإمام ابن سعد رحمته الله تعالى (لما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشر من الهجرة أمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لغزو الروم فلما كان من

الغد دعا أسامة بن زيد فقال سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فأغر صباحا على أهل أبي<sup>(١)</sup>، وحرقت عليهم وأسرع السير تسبق الأخبار فإن ظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع فلما كان يوم الأربعاء بدئ برسول الله ﷺ وجعه فحم وصدع فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده ثم قال: «اغز بسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله» فخرج بلوائه معقودا فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمي وعكس بالجرف فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة، منهم أبو بكر وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح<sup>(٢)</sup>، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد<sup>(٣)</sup>، وقتادة بن النعمان<sup>(٤)</sup>، وسلمة بن أسلم بن حريش<sup>(٥)</sup>، فتكلم قوم وقالوا يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين فغضب رسول الله ﷺ غضبا شديدا فخرج وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فما قاله بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ولئن طعنتم في إمارة أسامة لقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله وإيم الله إن كان خليقا للإمارة وإن ابنه من بعده خليقا للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إليَّ وإنهما لمخيلان لكل خير - أي لمظنة لكل خير - فاستوصوا به خيرا فإنه من خيركم ثم نزل فدخل بيته وذلك يوم السبت لعشر

(١) موضع بالشام من جهة البلقاء [معجم البلدان ١/ ١٠١].

(٢) هو الصحابي الجليل: عامر بن عبد الله الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي الفهري أبو عبيدة بن الجراح أحد العشرة المبشرين بالجنة أسلم قديما وشهد بدرا ومات شهيدا بطاعون عموس سنة ثمانى عشرة [الإصابة ٣/ ٥٨٦].

(٣) هو الصحابي الجليل: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى العدوي أحد العشرة المشهود لهم بالجنة كان من السابقين إلى الإسلام وشهد أحدًا والمشاهد بعدها ومات سنة خمسين [الإصابة ٣/ ١٠٣].

(٤) هو الصحابي الجليل: قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري الظفري شهد بدرا ومات سنة ثلاث وعشرين [الإصابة ٥/ ٥٤٩].

(٥) هو الصحابي الجليل: سلمة بن أسلم بن حريش بن عدى بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو ابن مالك بن الأوس الأنصاري الحارثي شهد بدرا وأرسله النبي ﷺ مع عمرو بن أمية بعد بدر ليقاتل أبا سفيان وقتل ﷺ يوم جسر أبي عبيد [الإصابة ٣/ ١٤٢].

خلون من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشر وفي ذلك قال الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا إسماعيل حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمارته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وإيم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده»<sup>(١)</sup>.

وجاء المسلمون الذين سوف يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ ويخرجون إلى المعسكر بالجرف وثقل رسول الله ﷺ فجعل يقول: «انفذوا بعث أسامة» فلما كان يوم الأحد اشتد برسول الله ﷺ وجعه فدخل أسامة من معسكره والنبي ﷺ مغمور وهو اليوم الذي لدوه فيه فطأ أسامة فقبله والنبي ﷺ لا يتكلم فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة قال أسامة فعرفت أنه يدعو لي ورجع أسامة إلى معسكره ثم دخل يوم الاثنين وأصبح رسول الله ﷺ مفيقاً فقال له «أغد على بركة الله فودعه أسامة وخرج إلى معسكره فأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب إذا رسول أمه أم أيمن قد جاءه يقول إن رسول الله ﷺ يموت فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة فانتهاوا إلى رسول الله ﷺ وهو يموت فتوفي حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة، ودخل بريدة بن الحصيب بلواء أسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله ﷺ فغرزته عنده، فلما بويح لأبي بكر أمر بريدة بن الحصيب أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ليمضي لوجهه فمضى بهم إلى معسكرهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي: ٨٧ باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد رحمه الله في مرضه الذي توفي فيه ٨/ ١٨٨ ح ٤٤٦٩ - ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ١٠ باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما ٨/ ٢١٠ ح ٢٤٢٦ والترمذي في كتاب المناقب ٤٠ باب مناقب زيد بن حارثة رحمه الله ١٠/ ٢٤٠ ح ٣٨٢٥ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح. وأحمد في المسند ٢: ٢: ١١٠ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب قتال أهل البغي ٩ باب جواز تولية الإمام من ينوب عنه وإن لم يكن قرشياً ٨/ ١٥٤ ح ١٦٥٩٦ جميعهم عن عبد الله بن عمر رحمه الله.



الأول، فلما ارتدت العرب كلم أبو بكر في حبس أسامة فأبى وكلم أبو بكر أسامة في عمر أن يأذن له في التخلف ففعل فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشر خرج أسامة فسار إلى أبني عشرين ليلة فشن عليهم الغارة وكان شعارهم «يا منصور أمت» فقتل من أشرف له وسبى من قدم عليه وحرق في طوائفها بالنار وحرق منازلهم وحرثهم ونخلهم فصارت أعاصير من الدخاخين وأجال الخيل في عرصاتهم وأقاموا يومهم ذلك من تعبئة ما أصابوا من الغنائم وكان أسامة على فرس أبيه سبحة وقتل قاتل أبيه في الغارة وأسهم للفرس سهمين وللفارسي سهمًا وأخذ لنفسه مثل ذلك فلما أمسى أمر الناس بالرحيل ثم أغز<sup>(١)</sup> السير فوردوا وادي القرى في تسع ليال ثم بعث بشيرا إلى المدينة بسلامتهم، ودخل على فرس أبيه «سبحه» واللواء أمامه يحمله بريدة بن الحصيب حتى انتهى إلى باب المسجد فدخل فصلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته وبلغ هرقل وهو بحمص ما صنع أسامة فبعث رابطة يكونون بالبلقاء، فلم يزل هناك حتى قدمت البعوث إلى الشام في خلافة أبي بكر وعمر عليهما السلام (٢).

#### ٥ - إمارة أسامة وأبيه من قبله أعظم درس في (الديمقراطية)

أراد النبي الكريم ﷺ - من خلال تأمير أسامة وأبيه أن يقدم للعالم أعظم درس في (الديمقراطية)، وترك المفاخرة بالأحساب والأنساب، فجعل زيد بن حارثة بعد أن حرر من الرق والعبودية - رئيسا للجيش وذلك في سرية مؤتة، فاستشهد فجعل ابنه أسامة قائدا للجيش بدلا من أبيه، مع وجود عدد من كبار المهاجرين، وعظماء الأنصار ليمنحهم درسا في وضع الرجل الصالح في المكان الذي يصلح له - ولو كان شابا - لكفايته الشخصية دون تفكير في حسب أو نسب أو

(١) أسرع في السير [النهاية (غزا) ٣/ ٣٤٧].

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: سرية أسامة بن زيد بن حارثة ١٥٤/٢ - ١٤٧. وينظر كتاب السيرة النبوية

المسمى عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير لابن سيد الناس ٢/ ٣٥٢ - ٣٥٤ طبعة القدسي

بالقاهرة سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

جاه أو سن أو لون أو عصبية أو طائفية وقد أوصى النبي ﷺ أسامة بما يجب أن يفعله حتى يعود ظافراً منتصراً<sup>(١)</sup>.



---

(١) عظمة الرسول ﷺ لمحمد عطية الإبراشي ص ٣١٥ بتصرف طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

الفصل السابع  
الإدارة العسكرية (إدارة الجيش)  
وبيان السياسة الحكيمة للنبي ﷺ في هذا الأمر

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- إعداد العدة والتأهب التام قبل الغزو والجهاد.
- ٢- توليه الأمراء على المدن أثناء الحروب.
- ٣- إعداد مركز القيادة.
- ٤- اتخاذ الحراس.
- ٥- أعمال الإسعاف في المعركة (التطبيب، ومداواة الجرحى، وسقاية الماء وقيام النساء بذلك).
- ٦- تقسيم الفئ والغنائم عقب السرايا والغزوات.
- ٧- الرضخ للعمال الذين يقدمون الخدمة للجيش.

## الفصل السابع

### الإدارة العسكرية (إدارة الجيش)

#### وبيان السياسة الحكيمة للنبي ﷺ في هذا الأمر

#### ١ - إعداد العدة والتأهب التام قبل الغزو والجهاد:

هذا الأمر يعد من الجوانب المهمة في سياسة النبي ﷺ العسكرية. فقد أيقن النبي ﷺ أن الدعوة الإسلامية لا بد أن تكون لها قوة تحميها وتساندها، وتدافع عنها، وتصد اعتداءات المعتدين عليها حيث إنها كانت تواجه قوى الظلم والطغيان، تلك التي تقف عقبة في سبيل وصولها إلى الناس وتحول بينها وبين انتشارها في مستوى العالم.

فكانت سياسة النبي ﷺ في هذا الجانب أن يعد العدة، وينظم الجيش الإسلامي، وأن يقوم بتسليحه وتدريب أفراده على القتال.

والمعلوم أن النبي ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة المنورة، كان يعلم أنه لا بد من وقوع قتال بينه وبين المشركين بعد هذا الإخراج، لأن الإخراج من الوطن ظلم.

فدرب النبي ﷺ أصحابه على القتال وأعد الجيش منذ وصوله إلى المدينة، ولكنه كان ينتظر الإذن من الله تعالى بالقتال، فشرع الله لهم القتال دفاعاً عن أنفسهم ورداً لشرفهم، وحماية لنشر الدعوة الإسلامية وتبليغها لكل أنحاء الأرض ورداً لكيد المعتدين الذين يقفون عقبة في سبيل وصول دعوة الدين الحق إلى كل أمم الأرض وكان الجهاد في ذلك الوقت من باب رد القتال بالقتال يقول تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] ويقول تعالى ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وإذا نظرنا في آيات الإذن بالقتال، نجد أن الله تعالى بدأها بطمئنة نفوس

المسلمين فيقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

ثم يقول ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿[الحج: ٣٩ - ٤٠] ونلاحظ بناء الفعل للمجهول «يقاتلون» فالمسلمون كانوا يقاتلون من كل الطوائف وهم لم يقاتلوا أحداً.

وهذا الأمر فيه ظلم للمسلمين ولذلك عبر الله عن ذلك بقوله: ﴿بأنهم ظلموا﴾. يعنى ظلموا من كل الطوائف، وذلك لأن المشركين قاتلوهم وأخرجوهم من أوطانهم.

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب «منذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ وهو يعمل جاهداً، في سبيل نشر الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وانتشار الدعوة معناه ازدياد قوة المسلمين، وإكمال حشدهم لاستخدام قواتهم في المكان والزمان المناسبين، وهجرته إلى المدينة من الناحية العسكرية، معناها: حشد المسلمين في منطقة واحدة ليكونوا تحت قيادة واحدة.

ولم يبدأ الجهاد في الإسلام، إلا بعد إنجاز حشد المسلمين، إذ أصبح المسلمون بدرجة من القوة يستطيعون معها الدفاع عن الإسلام.

لقد رأينا في «بيعة العقبة الثانية كيف انكشف للمشركين أمر هذه البيعة - وذلك بعد عقدها بأيام - وكيف أظهر الأنصار في حينه عدم اكتراثهم بخطر انكشاف بيعتهم قال العباس بن عباد للنبي ﷺ في الحديث الذي رواه ابن إسحاق قال: فأما معبد بن كعب بن مالك فحدثني في حديثه عن أخيه عبد الله بن كعب عن أبيه كعب بن مالك قال: فذكر حديثاً وفيه قال العباس بن عباد: «والله الذي بعثك بالحق، إن شئت، لنحملن على أهل «منى» غداً بأسيا فانا»<sup>(١)</sup>.

ولكن الرسول ﷺ كان أبعد نظراً وأعمق من أن تؤثر فيه العاطفة، فقال له: في

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة. موضع: «بيعة العقبة الثانية» (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/١٠.

الحديث الذى رواه الإمام البيهقى قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال حدثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردى قال حدثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال حدثنى معبد بن كعب بن مالك قال: فذكر حديثاً طويلاً وفيه: فقال رسول الله ﷺ إنا لم نؤمر بذلك ولكن ارفضوا<sup>(١)</sup> إلى رحالكم<sup>(٢)</sup>.

فلما أنجز الرسول ﷺ كل استعدادات حشد المسلمين في المدينة، وعاهد أهلها من يهود والمشركين، بدأ القتال - بعد إذن الله له - لأن قوات المسلمين حينذاك أصبحت من الناحيتين المادية كأمر التسليح والتدريب على القتال - والمعنوية قادرة على حماية الدعوة، وصيانة حرية الرأي<sup>(٣)</sup> اهـ.

وكان النبي ﷺ عند الغزوات يأمره مناديا فينادى بالجهاد، فيجتمع الجميع لأمره ﷺ لا يتخلف منهم أحد.

والمعلوم أن النبي ﷺ اهتم بأمر الجيش وإعداد العدة استجابة لأوامر ربه الذى أنزل عليه في كتابه، قوله جل شأنه ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أى مهما أمكنكم

وقوله تعالى ﴿تُرْهِبُونَ﴾ أى تخوفون.

وقوله تعالى: ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أى من الكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾. قال مجاهد يعنى بنى قريظة. وقال السدى: فارس. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ أى مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال<sup>(٤)</sup>

(١) ارفضوا: تفرقوا [النهاية «رفض» ٢: ٢٤٣].

(٢) أخرجه البيهقى في الدلائل باب ذكر العقبة الثانية وما جاء في بيعة من حضر الموسم من الأنصار رسول الله ﷺ

على الإسلام ٤٤٩/٢ عن كعب بن مالك ؓ.

(٣) الرسول القائد ص ٤٥٣ بتصرف.

(٤) تفسير ابن كثير ٣٢٨/٢، ٣٢٩ باختصار.

\* كيف أعد النبي ﷺ لملاقاة أعداء الإسلام:

فيما يلي نعرض - إن شاء الله تعالى - بعض جوانب الإعداد «المادى» التى رأى النبي ﷺ أنه لابد من وجودها فى جيش المسلمين لتساعد فى إحراز النصر:

أ- الأمر بالتسليح:

السلاح هو عدة المقاتل وهو من أقوى الأسباب المادية فى النصر، والمجاهد بغير سلاح كالطائر بدون جناح لا يقوى على السير فى غدو أو رواح.

ولذلك اهتم النبي ﷺ بأمر تسليح الجيش وجعل هذا الأمر من أهم صور الإعداد للجهاد إن لم يكن أهمها على الإطلاق ولأهمية هذا الأمر كان رسول الله ﷺ ينفق المال على شراء السلاح ويجعل النفقة على شرائه بعد النفقة على الأهل مباشرة يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن الزهرى عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر رضي الله عنه قال: «كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسول الله ﷺ مما لم يوجف<sup>(١)</sup> المسلمون عليه بخيل ولا ركاب<sup>(٢)</sup>، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة وكان ينفق على أهله نفقة سنته، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع<sup>(٣)</sup>، عدة فى سبيل الله<sup>(٤)</sup>».

ب- صناعة الأسلحة:

وكان النبي ﷺ يحث الصحابة على صناعة الأسلحة وامتلاكها لما لها من دور عظيم فى تحقيق النصر فى الحروب، يقول الإمام الترمذى رحمه الله تعالى: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن إسحاق عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين<sup>(٥)</sup>، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة:

(١) الإيجاف: سرعة السير وقد أوجف دابته يوجفها إيجافاً إذا حثها [النهاية «وجف» ١٥٧/٥].

(٢) الركاب: هي الرواحل من الأبل [النهاية «ركب» ٢٥٦/٢].

(٣) اسم لجميع الخيل [النهاية «كرع» ١٦٥/٤].

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد والسير ٨٠ باب المعجن ومن يترس بترس صاحبه ١١٥/٦ ح ٢٩٠٤ والبخارى فى كتاب التفسير ٤ باب ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه﴾ ٧٧٤/٨ ح ٤٨٨٥. عن عمر رضي الله عنه.

(٥) عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين بن الحارث بن عامر بن نوفل المكي النوفلى ثقة عالم بالمناusk من الخامسة [تقريب التهذيب ص ٣١٩].

صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به والممد به قال ارموا واركبوا، ولأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا، كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رمية بقوس وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق»<sup>(١)</sup>

يقول الإمام الحافظ أبي العلاء محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري رحمه الله تعالى قوله «ليدخل بالسهم الواحد» أى بسبب رمية على الكفار وقوله «يحتسب» أى يرجو به الأجر، والاحتساب يكون في الأعمال الصالحة وقوله «في صنعته» لذلك السهم أى عمله. وقوله «الخير» أى الثواب.

وقوله: «الرامي به» أى كذلك محتسباً، وكذا قوله «والممد به» من الإمداد، أى من يقوم عند الرامي فيناوله سهماً بعد سهم أو يرد عليه النبل من الهدف من أمدته بكذا أى أعطيته إياه.

«ارموا واركبوا» أى لا تقتصروا على الرمي مشاة واجمعوا بين الرمي والركوب. أو المعنى: اعلّموا هذه الفضيلة وتعلموا الرمي والركوب بتأديب الفرس والتمرين عليه كما يشير إليه آخر الحديث.

ولم يعتبر النبي ﷺ رمي القوس، وتأديب الفرس، وملاعبة الأهل من اللهو الباطل. ولكنه أخبر أن التدريب على الرمي وتأديب الفرس بنية الإعداد للجهاد من الحق وليس من اللهو الباطل.

فقال: «كل ما يلهو به الرجل المسلم» أى يشتغل ويلعب به «باطل» لا ثواب له. «إلا رمية بقوس» احتراز عن رمية بالحجر والخشب «وتأديبه فرسه» أى تعليمه إياه بالركض والجولان على نية الغزو<sup>(٢)</sup>.

وكان النبي ﷺ يهتم بصناعة الأسلحة وشرائها لأنها من القوى المادية التي

(١) أخرجه الترمذى في كتاب فضائل الجهاد ١١ باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، ٢١٣/٥ حديث ١٦٣٧ وقال أبو عيسى وهذا حديث حسن صحيح - وابن ماجه في كتاب الجهاد ١٩ باب الرمي في سبيل الله ٥١٦/٢ ح ٢٨١١ كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي حسين. وأخرجه ابن الجارود في المتقى باب تأديب الرجل فرسه وفضيلة الرمي ص ٢٦٦ ح ١٠٦٢ عن عقبة بن عامر الجهني.

(٢) تحفه الأحوذى بشرح جامع الترمذى ٥/٢١٣ بتصرف.



لا بد منها في الجهاد.

ولقد حث الإسلام على الاهتمام بناحيتين: القوة والرباط فأما القوة فتتناول العدد والعدة، وهذا يتسع لكل ما عرف ويعرف من حشد الرجال وإعداد آلات الحرب ووسائل القتال ومواد التموين والقضايا الإدارية الأخرى. وأما الرباط: فيتسع لكل ما عرف أيضًا من تحصين الحدود والثغور والأماكن الواهنة تجاه العدو، وتهيئة القوة الكاملة فيها لحمايتها.

ويهدف الإسلام بالحث على إعداد هاتين الناحيتين إلى تأمين السلم والاستقرار، وذلك لإرهاب العدو، حتى لا تحدّثه نفسه باستغلال ناحية من نواحي الضعف والتخاذل يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

كما يحث الإسلام على إنشاء المعامل الحربية لصناعة الأسلحة ويذكر بالحديد بصورة خاصة للاستفادة منه في الأغراض العسكرية يقول ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

إن الجهاد في الإسلام إنما يتوخى الاستعداد الدائم للدفاع عن الحق وحمايته، ولتكون لدى المسلمين قوة ضاربة يحسب لها ألف حساب قبل أن يقدم العدو على الإضرار بمصالح المسلمين العليا<sup>(١)</sup>.

وقد جعل النبي ﷺ صناعة الأسلحة واختيار أحسنها نوعاً من أنواع الجهاد في سبيل الله. وهى واجبة على فريق من المسلمين، لأن أمر الجهاد لا يقوم إلا بها، وما لا يتم الواجب وهو الجهاد - إلا به وهو السلاح فهو واجب.

فليس المجاهد في سبيل الله إذن هو المقاتل وحده، بل صانع الأسلحة، ومصممها، ومهيئها للقتال، فكل ذلك في سبيل الله، وكان لهذه الأحاديث أثراً كبيراً عند المسلمين فتوجه المجتمع الإسلامى كله بعد بدر إلى التعبئة والتسلح ولم يكن

(١) الرسول القائد ص ٨٤ بتصرف.

لدى المسلمين في بدر غير فرسين للمقداد والزبير رضي الله عنهما، وسبعين بعيراً، والسيوف في القرب فإذا هم في غزوة أحد وبعد مرور سنة على بدر تتضاعف الأفراس، فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبي بردة بن نيار<sup>(١)</sup>، رضي الله عنهما، وإذا في الجيش مائة دارع، وإذا الرماة سبعون يصدون هجوم الفرسان من مكة، أما الرماح والسيوف والأقواس فحدث ولا حرج.

قال تعالى في وصف السلاح الذي يجب أن يتخذ ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾. [الأنفال: ٦٠] فلا يكفي أن يكون السلاح للدفاع، ولا يكفي أن يكون للهجوم على العدو المباشر، بل لابد أن يكون سلاحاً رادعاً، ييث الرعب والإرهاب في قلب العدو<sup>(٢)</sup>.

وكان رسول الله ﷺ يلبس أردية الحرب حتى يقتدى به أتباعه في ذلك ويكون درساً عملياً عسكرياً لأنه بعد صناعة هذه الآلات لابد من الاستفادة منها.

يقول الإمام البخاري رحمته الله: حدثنا إسماعيل قال: حدثني مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر<sup>(٣)</sup>، فلما نزع جاء رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة فقال اقتلوه»<sup>(٤)</sup>.

ج- الأمر باختيار أفضل الأسلحة:

ومن السياسة العسكرية الرشيدة للنبي ﷺ أنه كان يأمر أصحابه باختيار أفضل

(١) هو الصحابي الجليل: أبو بردة بن نيار الأنصاري خال البراء بن عازب شهد بدراً وما بعدها ومات في خلافة معاوية بعد أن شهد مع علي رضي الله عنه حروبه كلها [الإصابة ٣٦/٧].

(٢) المنهج التربوي للسيرة النبوية لمنير محمد الغضبان ١٤/١٢٤، ١٢٥ بتصرف والكتاب طبعة مكتبة المنار. بالزرقاء، الأردن سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩١م.

(٣) هو ما يلبسه الدارع على رأسه من الزود ونحوه [النهاية (غفر) ٣/٣٧٤].

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب قتل الأسير، وقتل الصبر ٦/٢٠٠ ح ٣٠٤٤ ومسلم في كتاب الحج: ٨٤ باب جواز دخول مكة بغير إحرام ٥/١٤١ ح ١٣٥٧ وأبو داود في كتاب الجهاد: باب قتل الأسير ولا يعرض عليه ٧/٢٨٠ ح ٢٦٨٢ والترمذي في كتاب الجهاد باب ما جاء في المغفر ٥/٢٧٨ ح ١٦٩٣ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب مناسك الحج: باب دخول مكة بغير إحرام ٦/٢٠٠، ٢٠١ وابن ماجه في كتاب الجهاد ١٨ باب السلاح ٢/٥١٤ ح ٢٨٠٥ جميعهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الأسلحة التي تساعد المقاتل على تحقيق النصر.

يقول الإمام ابن ماجه رحمته الله حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة أنبأنا عبيد الله بن موسى، عن أشعث بن سعيد، عن عبد الله بن بشر عن أبي راشد، عن علي رضي الله عنه قال: كانت بيد رسول الله ﷺ قوس عربية<sup>(١)</sup>، فرأى رجلاً بيده قوس فارسية فقال: «ما هذه؟ ألقها وعليكم بهذه وأشباهها ورماح القنا، فإنهما يزيد الله لكم بهما في الدين، ويمكن لكم في البلاد»<sup>(٢)</sup>.

وقصد رسول الله ﷺ أن يستعمل الصحابة من الأسلحة ما اعتادوه وما يمكن لكل واحد منهم أن يستعمله ويمهر فيه.

د- تعلم الرمي:

الجندي الذي يحمل سلاحاً لا يجيد استخدامه كالمبصر الذي أغمضت عيناه لا يرى أمامه. ولذلك حث النبي ﷺ أصحابه على تعلم فنون القتال، بعد أن امتلكوا السلاح. والمعلوم أن الإنسان ابن زمانه ومكانه، ومن واجبه أن يوظف ما في يديه من أدوات ومعدات لخدمة أهدافه التي يسعى إليها، ويعمل جاهداً في سبيل تحصيلها حتى يعيش سعيداً آمناً في أوطانه، وفي عصر النبي ﷺ كان أسلوب «الرمي» في الحروب من أنجح أساليب القتال، يفعل ما لم تفعله المدافع والصواريخ والطائرات في هذه الأيام. ولهذا أمر النبي ﷺ بتعليمه، ودرب أصحابه عليه، وفسر القوة به ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾. يقول الإمام مسلم رحمته الله: حدثنا هارون بن معروف. أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن أبي علي، ثمامة بن شقي أنه سمع عقبة بن عامر<sup>(٣)</sup>

(١) قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي: قوله: «قوس عربية» القوس العربية ما يرمى بها النبل، وهي السهام العربية.

والفارسي: ما يرمى به البندق «القنا» جمع قناة وهي الرمح [سنن ابن ماجه ٣/ ١١٥].

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الجهاد: ١٨ باب السلاح- ٥١٥/ ٢ ح ٢٨١٠ وأبو دود الطيالسي ص ٢٣ رقم ١٥٤

كجزء من حديث والبيهقي في السنن الكبرى كتاب السبق والرمي ١ باب التحريض على الرمي ١٠/ ١٤ كجزء

من حديث رقم ١٩٧٣٦ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) هو الصحابي الجليل عقبة بن عامر الجهني كان قارئاً عالماً بالفرائض والفقه وهو أحد من جمع القرآن. شهد

الفتوح وكان هو البريد إلى عمر لفتح دمشق وشهد صفين مع معاوية ومات في خلافة معاوية [الإصابة ٤/ ٥٢٠].

يقول: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ «ألا إن القوة الرمي إلا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي»<sup>(١)</sup>.

قوله: ﴿ما استطعتم من قوة﴾ قال الطيبي: «(ما)» موصولة والعائد محذوف و«من قوة» بيان له، فالمراد هنا نفس القوة وفي هذا البيان والمبين إشارة إلى أن هذه العدة لا تستتب بدون المعالجة والإدمان الطويل، وليس شيء من عدة الحرب وأداتها أحوج إلى المعالجة والإدمان عليها مثل القوس والرمي بها، ولذلك كرر صلوات الله وسلامه عليه تفسير القوة بالرمي بقوله «(ألا)» للتنبيه «(إن القوة الرمي)»: أي هو العمدة<sup>(٢)</sup>.

ولأهمية الرمي كرر النبي ﷺ قوله: «(ألا إن القوة الرمي)» لزيادة التأكيد أو إشارة إلى الأحوال الثلاث من القلة والكثرة وبينهما فإنها نافية في جميعها<sup>(٣)</sup> ١. هـ.

والحديث ينوه بما لإصابة الأهداف من أثر حاسم في كسب المعارك.

والرمي أعم من أن يكون بالسهم أو بالرصاص أو بالقنابل أو المدافع. وبذلك بين لنا النبي ﷺ أن القوة كامنة في الرمي، وأمرنا بإتقان الرمي والتركيز في إصابة الأهداف حتى يتثنى لنا النصر ويقول الإمام البخاري رحمه الله، حدثنا عبد الله بن سلمة حدثنا حاتم بن إسماعيل عن يزيد بن أبي عبيد قال: سمعت سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون»<sup>(٤)</sup>، فقال النبي ﷺ ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان، قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فتد رسول الله ﷺ ما لكم لا ترمون؟ قالوا كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي ﷺ .

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإمارة ٥٢ باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسي ٧/٧٣ ح ١٩١٧ وأبو داود في كتاب الجهاد: ٢٤ باب الرمي ٧/١٥٤، ١٥٥ ح ٢٥١١ والترمذي في كتاب تفسير القرآن: ٩ باب ومن سورة الأنفال ٨/٤٠٢ ح ٣٠٨٣ وقال أبو عيسى: وقد روى بعضهم هذا الحديث عن أسامة بن زيد عن صالح بن كيسان عن عقبة بن عامر، وحديث وكيع أصح وصالح بن كيسان لم يدرك عقبة بن عامر، وقد أدرك ابن عمر. والدارمي في كتاب الجهاد ١٤ باب في فضل الرمي والأمر به ٢/٦١ ح ٢٤٠٤ والإمام أحمد في المسند ٤/١٥٧ جميعهم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) عون المعبود ٧/١٥٥.

(٣) تحفه الأخوذى ٨/٤٠٢ بتصرف.

(٤) أي يرمون بالسهم يقال: انتضل القوم، وتناضلوا: أي رموا للسبق (النهاية «نضل» ٥/٧٢).

«ارموا فأنا معكم كلكم»<sup>(١)</sup>.

قوله «فأنا معكم كلكم» المراد بالمعية معية القصد إلى الخير وفي الحديث التنويه بذكر الماهر في صناعته ببيان فضله وتطبيب قلوب من هم دونه. وفيه حسن خلق النبي ﷺ ومعرفته بأمور الحرب وفيه النذب إلى اتباع خصال الآباء المحموده، والعمل بمثلها، وفيه حسن أدب الصحابة مع النبي ﷺ<sup>(٢)</sup> وحرصا منه ﷺ على تدريب أصحابه على الرمي الذي كان يعد من أهم أسلحة ذلك العصر، وجعل ترك الرمي بعد تعلمه من العصيان، وقد يترتب عليه الخروج من أمة محمد ﷺ يقول الإمام مسلم رحمه الله حدثنا محمد بن ربح بن المهاجر. أخبرنا الليث عن الحارث بن يعقوب، عن عبد الرحمن بن شماسه، أن فقيما اللخمي قال لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين<sup>(٣)</sup>، وأنت كبير يشق عليك قال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه<sup>(٤)</sup>، قال الحارث فقلت لابن شماسه: وما ذاك؟ قال إنه قال: «من علم الرمي ثم تركه، فليس منا، أو قد عصي»<sup>(٥)</sup>.

وفي رواية ابن ماجه «من تعلم الرمي ثم تركه فقد عصاني» يقول الإمام النووي رحمه الله: «قوله ﷺ من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصي» هذا تشديد عظيم في نسيان الرمي بعد علمه وهو مكروه كراهة شديدة لمن تركه بلا عذر. ويقول عن كل ما

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ٧٨ باب التحريض على الرمي ٣/ ١٢٢ ح ٢٨٩٩ وابن ماجه في كتاب الجهاد ١٩ باب الرمي في سبيل الله ٢/ ٥١٦ ح ٢٨١١ والإمام أحمد في المسند ٤/ ٥٠ جميعهم عن سلمة بن الأكوع والحاكم في كتاب الجهاد ٢/ ٩٤ عن أبي هريرة وقال على شرط مسلم وأقره الذهبي والبيهقي في السنن الكبرى كتاب السبق والرمي ٣ باب لا سبق إلا في خوف أو حافر ١٠/ ١٧ ح ١٩٧٥٤ عن سلمة بن الأكوع. (٢) فتح الباري ٦/ ١١٣.

(٣) الغرض هو الهدف [النهاية «غرض» ٣/ ٣٦٥].

(٤) معاناة الشئ ملابسته ومباشرته والقوم يعانون ما لهم أي يقومون عليه [النهاية «عنى» ٣/ ٢٨٤].

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ٥٢ باب فضل الرمي والحث عليه - ٧/ ٧٣ ح ١٩١٩ وأبو داود في كتاب الجهاد ٢٤ باب الرمي ٧/ ١٥٣، ١٤٥ ح ٢٥٥. بالفاظ متقاربة والترمذي في كتاب الجهاد ١١ باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله ٥/ ٢١٣ ح ١٦٣٦ وليس فيه جملة «من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو عصي» ٥/ ١١٢ وقال أبو عيسى وهذا حديث حسن صحيح، والنسائي في كتاب الجهاد باب ثواب من رمى بسهم في سبيل الله رحمه الله بالفاظ متقاربة ٦/ ٢٦ وابن ماجه في كتاب الجهاد ١٩ باب الرمي في سبيل الله ٢/ ٥١٧ ح ٢٨١٤ والإمام أحمد في المسند ٤/ ١٤٤ جميعهم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

تقدم من الأحاديث التي يأمر فيها النبي ﷺ بالرمي ويحض عليه: فيها فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد في سبيل الله تعالى، وكذلك المشاجعة وسائر أنواع استعمال السلاح، وكذا المسابقة بالخيول وغيرها والمراد بهذا كله التمرن على القتال والتدريب، والتحذق فيه ورياضة الأعضاء بذلك<sup>(١)</sup>.

وما سبق من الأحاديث النبوية الشريفة يتضح لنا أن النبي ﷺ جعل تعلم الرمي طاعة لله تعالى يترتب عليها الثواب. وجعل تركه معصية يترتب عليها العقاب. «والتدبير الإلهي إذن يجعل من البيئة الإسلامية معسكراً تدريبياً يوحى كله بالجهاد والإعداد إلى حد يجعل من تعلم الرمي عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه بحيث لو نسى الرمي يوماً كان ذلك معصية ينبغي التوبة منها بالرجوع إلى إجادتها والتدريب عليها<sup>(٢)</sup> وفي ذلك من رياضة البدن، والتدريب الدائم وشحن الهمم ما يجعل المسلم في حالة جيدة صحياً وعسكرياً والمعلوم أن هذه التوجيهات نفذها الصحابة بكل دقة وأوصوا بها الناس بعد أن علموها أولادهم. فعلى الأمة أن تأخذ بكل مظاهر القوة المستطاعة وأن تعمل بهدى نبيها ﷺ في هذا الجانب الهام.

هـ- تعلم الفروسية وإعداد الخيل:

وهذا جانب هام من جوانب السياسة العسكرية الرشيدة للنبي ﷺ في إعداده للحرب وتأهبه التام قبل الغزو والجهاد.

يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا أبو نعيم، حدثنا زكرياء عن عامر حدثنا عروة البارقي<sup>(٣)</sup> أن النبي ﷺ قال: «الخيول معقود<sup>(٤)</sup> في نواصيها الخير إلى يوم

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٧/ ٧٤.

(٢) تأملات في السيرة النبوية د/ محمود محمد عمارة ص ١٤٤.

(٣) هو الصحابي الجليل: عروة بن الجعد ويقال: ابن أبي الجعد، وقيل اسمه أبو الجهد البارقي، وهو الذي أرسله رسول الله ﷺ ليشتري الشاة بدينار فاشترى به شاتين، وكان فيمن حضر فتوح الشام ونزلها ثم سيره عثمان إلى الكوفة وحديثه عند أهلها. سكن الكوفة وهو أول قاض بها [الإصابة ٤/ ٤٨٨].

(٤) أي ملازم لها كأنه معقود فيها (النهاية) (عقد ٣/ ٢٧١) والمراد بالناصية: الشعر المسترسل على الجبهة (فتح الباري ٦/ ٦٩).

القيامة: الأجر والمنعم»<sup>(١)</sup>.

يقول الإمام ابن حجر رحمه الله: إنه ﷺ ذكر بقاء الخير في نواصي الخيل إلى يوم القيامة، وفسره بالأجر والمنعم، والمنعم المقترن بالأجر. إنما يكون من الخيل بالجهاد، ولم يقيد ذلك بما إذا كان الإمام عادلاً فدل على أن لا فرق في حصول هذا الفضل بين أن يكون الغزو مع الإمام العادل أو الجائر.

وفي الحديث: الترغيب في الغزو على الخيل: وفيه أيضاً بشرى ببقاء الإسلام وأهله إلى يوم القيامة لأن من لازم بقاء الجهاد بقاء المجاهدين وهم المسلمون<sup>(٢)</sup>، أيضاً حث من رسول الله ﷺ على تعليم الفروسية وإعداد الخيل وإبراز لون معين من ألوان القتال لا ينزل من قيمة الألوان الأخرى، أو يؤخر منزلتها.

وحثاً منه ﷺ على رعاية الخيل لما لها من دور هام في الجهاد بين لنا الثواب العظيم الذي يترتب على احتباس الفرس في سبيل الله.

يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا علي بن حفص حدثنا ابن المبارك أخبرنا طلحة بن أبي سعيد قال: سمعت سعيد المقبري يحدث أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال النبي ﷺ: «(من احتبس فرساً في سبيل الله، إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريه وروثه<sup>(٣)</sup>، وبوله في ميزانه يوم القيامة)»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الجهاد والسير ٤٤ باب الجهاد ماض مع البر والفاجر ٦/٧٠ ح ٢٨٥٢ ومسلم في كتاب الإمارة: باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ٧/٢٢ ح ١٨٧٣ والترمذي في كتاب الجهاد: ١٩ باب ما جاء في فضل الخيل ٥/٢٨٠ ح ١٦٩٤ وقال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح والنسائي: في كتاب الخيل باب قتل ناصية الفرس ٦/٢٢١ وابن ماجه في كتاب الجهاد ١٤ باب ارتباط الخيل في سبيل الله ٢/٥٠٦ ح ٢٧٨٦ والدارمي في كتاب الجهاد ٣٤ باب فضل الخيل في سبيل الله ٢/٧١ ح ٢٤٢٦ والبيهقي في السنن كتاب قسم الفيء والغنيمة ٢٨ باب الإسهام للفرس دون غيره من الدواب ٦/٣٢٩ ح ١٢٨٨٧ جميعهم عن عروة البارقي رحمه الله.

(٢) فتح الباري ٦/٧٠.

(٣) الروث: رجيع ذوات الحافر (النهاية «روث») ٢/٢٧١.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ٤٥ باب من احتبس فرساً في سبيل الله ٦/٧١ ح ٢٨٥٣ والنسائي في كتاب الخيل باب علف الخيل ٦/٢٢٥ والإمام أحمد في مسنده ٢/٣٧٤ جميعهم عن أبي هريرة.

يقول الإمام ابن حجر رحمته الله: قوله: «وتصديقاً بوعده» أى الوعد الذى وعده به من الثواب على ذلك.

وقوله: «شبعه» بكسر أوله أى ما يشبع به وفى الحديث: جواز وقف الخيل للمدافعة عن المسلمين<sup>(١)</sup>

وبين النبي ﷺ ما للنية الحسنة من ثواب عظيم إذا فعل المسلم أى شيء من أمور الحياة ونوى به التقرب إلى الله.

يقول الإمام البخارى رحمته الله تعالى: حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخیل لرجل أجر، ولرجل ستر<sup>(٢)</sup>، وعلى رجل وزر<sup>(٣)</sup>، فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال لها فى مرج<sup>(٤)</sup>، وأروضة، فما أصابت فى طيلها<sup>(٥)</sup>، ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنه انقطع طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين<sup>(٦)</sup> كانت آثارها<sup>(٧)</sup>، وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى كان ذلك حسنات له، فهى لذلك أجر»، ورجل ربطها تغنياً<sup>(٨)</sup>، وتعففاً<sup>(٩)</sup>، ثم لم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى لذلك ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء لأهل

(١) فتح البارى ٦/ ٧١.

(٢) أى ساتر لفقره وحاله (تحفة الأحوذى ٥/ ٢١٢).

(٣) الوزر: الذنب والإثم (النهاية (وزر) ٥/ ١٧٩).

(٤) المرج: الأرض الواسعة ذات نبات كثير، تمرح فيه الدواب، أى تخرى وتسرح مختلطة كيف شاءت (النهاية «مرج» ٤/ ٣١٥).

(٥) الطول والطيل: الحبل الطويل يشدُّ أحد طرفيه فى وتد أو غيره والطرف الآخر فى يد الفرس ليدور فيه ويرعى، ولا يذهب لوجهه (النهاية «طول» ٣/ ١٤٥).

(٦) فاستنت شرفاً أو شرفين: أى عدت شوطاً أو شوطين (النهاية «شرف» ٢/ ٦٣).

(٧) آثارها: الأثر بقية الشيء (المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية (أثر) ص ٥).

(٨) تغنياً: أى استغناء عن الناس (فتح البارى لابن حجر ٦/ ٨٠).

(٩) تعففاً: أى عن السؤال، والمعنى أنه يطلب بتناجها أو بما يحصل من أجرتها من يركبها أو نحو ذلك الغنى عن الناس، والتعفف عن مسألتهم (فتح البارى ٦/ ٨٠).



الإسلام<sup>(١)</sup>، فهي على ذلك وزر، وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: «ما أنزل على فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة»<sup>(٢)</sup>، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾<sup>(٣)</sup>، [الزلزلة: ٧، ٨].

وفي الحديث بيان أن الخيل إنما تكون في نواصيها الخير والبركة إذا كان اتخاذها في الطاعة أو في الأمور المباحة وإلا فهي مذمومة.

وكانت استجابة المسلمين لأحاديث نبيهم ﷺ صادقة، فأخذوا يقتنون الخيل ويهتمون بها، ويعدونها للقتال على نية الجهاد وإعلاء كلمة الحق والدين، فكان عروة البارقي ﷺ يملك وحده سبعين فرسا معدة كلها للقتال يقول الإمام ابن سعد رحمته الله: «أخبرنا سعيد بن منصور قال: حدثنا سفيان عن شبيب بن غرقدة قال: رأيت عند عروة البارقي نحوا من سبعين فرسا»<sup>(٤)</sup>.

«تصور معي هذا الجهد الموصول في رعاية هذا الحشد من الخيل، والذي يشغل الرجل وأهله وولده وتساءل معي: كم يبقى من عمر هذه الأسرة تنفقه في ملذات الحياة؟ لا ريب أن المعركة ملأت حياتها إلى حد لم يعد في حياتها وقت للهو أو لعب حتى الغلمان الذين لا بد لهم من اللهو واللعب»<sup>(٥)</sup>

(١) نواء لأهل الإسلام: أى معاداة لهم (النهاية «نواء») ١٢٣/٥.

(٢) الفاذة: الجامعة في معناها (النهاية «فاذة») ٤٢٢/٣.

(٣) أخرجه البخارى في الصحيح كتاب المساقاة ١٢ باب شرب الناس وسقى الدواب من الأنهار ٥٧/٥ ح ٢٣٧١ وفي كتاب الجهاد والسير ٤٨ باب الخيل لثلاثة ٦/٧٩ ح ٢٨٦٠ عن جابر بن عبد الله الأنصارى ومسلم في كتاب الزكاة ٦ باب إثم مانع الزكاة ٤/٧٣ ح ٢٦ وأبو داود مختصراً في كتاب الزكاة ٣٢ باب في حقوق المال - ٥/٧٥ ح ١٦٥٥ والترمذى في كتاب فضائل الجهاد: ١٠ باب ما جاء في فضل من ارتبط فرساً في سبيل ٥/٢١٢ ح ١٦٣٦ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح - والنسائى في كتاب الخيل ٦/٢١٥ وابن ماجه في كتاب الجهاد ١٤ باب ارتباط الخيل في سبيل الله ٢/٥٠٦، ٥٠٧ ح ٢٧٨٨ ومالك في الموطأ كتاب الجهاد ١ باب الترغيب في الجهاد ٢/٣٥٦ جميعهم عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: في طبقات الكوفيين تسمية من نزل الكوفة من أصحاب رسول الله ﷺ ذكر عروة بن أبى الجعد البارقي ٦/١٠٨.

(٥) تأملات في السيرة النبوية ص ١٤٣.

و- الحرص على اقتناء أنواع معينة من الخيل:

كان النبي ﷺ يحرص على اقتناء أصناف معينة من الخيل يتوسم فيها القوة والصلابة والإقدام يقول الإمام أبو داود رحمه الله: حدثنا هارون بن عبد الله أخبرنا هشام ابن سعيد الطالقاني أنبأنا محمد بن مهاجر (المهاجر) الأنصاري حدثني عقيل بن شبيب عن أبي وهب الجشمي وكانت له صحبة قال قال رسول الله ﷺ: «عليكم بكل كميث<sup>(١)</sup>، أغر<sup>(٢)</sup>، محجل<sup>(٣)</sup>، أو أشقر<sup>(٤)</sup>، أغر محجل أو أدهم<sup>(٥)</sup>، أغر محجل»<sup>(٦)</sup>

والسبب في اختيار النبي ﷺ لهذه الأنواع من الخيل نعرفه من الحديث الشريف الآتي:

يقول الإمام أبو داود حدثنا محمد بن عوف الطائي أخبرنا أبو المغيرة أخبرنا محمد بن مهاجر أخبرنا (حدثني) عقيل بن شبيب عن أبي وهب قال رسول الله ﷺ: «عليكم بكل أشقر أغر محجل أو كميث أغر» فذكر نحوه قال محمد يعني ابن مهاجر وسألته: لم فضل الأشقر؟ قال: لأن النبي ﷺ بعث سرية فكان أول من جاء بالفتح صاحب أشقر<sup>(٧)</sup> أي فارس يمتطي حصانا أشقر.

وحرصا منه ﷺ على اقتناء أفضل أنواع الخيول يقول في الحديث الذي رواه

(١) الكميث: هو الذي في لونه الحمرة والسواد يستوى فيه المذكر والمؤنث [عون المعبود ١٧٦/٧].

(٢) الأغر: هو الذي في جبهته بياض كثير [النهاية «غرر» ٣/٣٥٤ بتصرف].

(٣) المحجل: هو الذي يرتفع البياض في قوائمه إلى موضع القيد، ويجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين لأنهما مواضع الأحجال وهي الخلاخيل والقيود ولا يكون التحجيل باليد واليدين ما لم يكن معها رجل أو رجلان [النهاية «حجل» ١/٣٤٦].

(٤) الأشقر: الأحمر والشقرة الحمرة الصافية والفرق بين الكميث والأشقر: بقترة تعلو الحمرة وبسواد العرف والذنب في الكميث [عون المعبود ١٧٦/٧].

(٥) الأدهم: أي الأسود [النهاية «دهم» ٢/١٤٦].

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ٤٤ باب فيما يستحب من ألوان الخيل ١٧٦/٧ ح ٢٥٤٠ عن أبي وهب الجشمي. وأخرجه النسائي في كتاب الخيل: باب ما يستحب من شية الخيل ٢١٩/٦ عن أبي وهب.

(٧) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ٤٤ باب فيما يستحب من ألوان الخيل ١٧٦/٧ ح ٢٥٤، والنسائي في كتاب الخيل: باب ما يستحب من شية الخيل ٢١٩/٦ كلاهما عن أبي وهب رضي الله عنه.

الإمام الترمذى، حيث يقول: حدثنا أحمد بن محمد حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب، عن على بن رباح، عن أبى قتادة الأنصارى، أن رسول الله ﷺ قال: «خير الخيل: الأدهم الأقرح»<sup>(١)</sup>، المحجل، الأرثم<sup>(٢)</sup>، طلق اليد اليمنى، فإن لم يكن أدهم فكفيت على هذه الشية»<sup>(٣)</sup>.

ورغبة منه ﷺ في اختيار أفضل أنواع الخيول، وهى التى تسهم فى تحقيق النصر المأمول، كره بعض الأنواع التى فيها قصور، لأنه لم يجد فيها نجابة.

وفى ذلك يقول الإمام الترمذى رحمه الله: حدثنا محمد بن بشار عن يحيى بن سعيد حدثنا سفيان حدثنا سلم وابن عبد الرحمن عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير عن أبى هريرة عن النبي ﷺ «أنه كره الشكال»<sup>(٤)</sup> فى الخيل»<sup>(٥)</sup>.

وفى هذا توجيه من النبي ﷺ لعامة المسلمين فى كل زمان ومكان إلى امتلاك أفضل أنواع الأسلحة التى تناسب عصورهم، وتساعدهم فى تحقيق النصر، وإنما أمر النبي ﷺ أصحابه باقتناء أنواع مخصوصة من الخيل والأقواس والسيوف لأنها كانت أفضل أنواع الأسلحة فى عصره وأشدّها ردعا لأعداء الإسلام فى ذلك الزمان.

(١) الأقرح: ما كان فى جبهته قرحة وهى بياض يسير فى وجه الفرس دون الغرة [النهاية «قرح» ٤/ ٣٦].

(٢) الأرثم: الذى فمه أبيض وشفته العليا [النهاية «رثم» ٢/ ١٩٦].

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب الجهاد: باب ما يستحب من الخيل ٥/ ٢٨٢، ٢٨٣ ح ١٦٩٦ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب وأبو داود فى كتاب الجهاد ٤٤ باب فيما يستحب من ألوان الخيل بالفاظ متقاربة ٧/ ١٧٦. ح ٢٥٤٠، ٢٥٤١. وابن ماجه فى كتاب الجهاد ١٤ باب ارتباط الخيل فى سبيل الله ٢/ ٥٠٧ ح ٢٧٨٩ والدارمى فى كتاب الجهاد: ٣ باب ما يستحب من الخيل وما يكره - ٢/ ٧٢ ح ٢٤٢٨ جميعهم عن أبى قتاده رضي الله عنه.

(٤) الشكال: هو أن تكون ثلاث قوائم منه محجلة وواحدة مطلقة، تشبيها بالشكال الذى تشكل به الخيل لأنه يكون فى ثلاث قوائم غالبا وقيل هو أن تكون الواحدة محجلة والثلاث مطلقة وقيل: هو أن تكون إحدى يديه وإحدى رجله من خلاف محجلتين وإنما كرهه لأنه كالمشكول صورة تفاؤلا ويمكن أن يكون جرب ذلك الجنس فلم يكن فيه نجابة وقيل إن كان مع ذلك أغرزالت الكراهة لزوال شبه الشكال والله أعلم [النهاية «شكل» ٢/ ٤٩٦].

(٥) أخرجه الترمذى فى كتاب الجهاد ٢١ باب ما يكره من الخيل ٥/ ٢٨٤ ح ١٦٩٨ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائى فى كتاب الخيل: باب الشكال فى الخيل ٦/ ٢١٩ كلاهما عن أبى هريرة رضي الله عنه.

## ز- اختيار أفضل العناصر البشرية وأقواها:

وهذه سياسة عسكرية حكيمة انتهجها النبي ﷺ لاختيار نخبة من أشجع الناس، وأصدقهم في قتال العدو، حتى يتحقق على يديها النصر، ولذلك اشترط فيها النبي ﷺ أن تحمل مؤهلات القتال، من القوة والجلد، والصبر على القتال والثبات فيه.

## ١- شروط القبول للجندية:

اشترط النبي ﷺ عدة شروط لا بد من توفرها في الجنود، بحيث لا يقبل في جيش المسلمين إلا من تنطبق عليه هذه الشروط. ومنها:

أولاً: الإسلام:

واشترط النبي ﷺ هذا الشرط: لأن الإنسان لا يمكن أن يقاتل بكل قوة وحماسة وشجاعة وإقدام إلا إذا قاتل من أجل العقيدة، أو قاتل من أجل تحقيق هدف سام يسعى إليه، وهدف المسلم في قتاله: هو تبليغ دين الله الحق إلى كل بقاع الأرض طالما أن هناك قوى طاغية تعوق طريقه وتحول بينه وبين نشر الدعوة الإسلامية.

ولذلك اشترط النبي ﷺ إسلام المقاتل، ونهى عن الاستعانة بالكافر مهما كان انتماءه يقول الإمام مسلم رحمه الله: حدثني زهير بن حرب حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن مالك ح وحدثنيه أبو الطاهر (واللفظ له) حدثني عبد الله بن وهب عن مالك بن أنس، عن الفضيل بن أبي عبد الله، عن عبد الله بن نيار الأسلمي عن عروة بن الزبير، عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر فلما كان بحرة الوبرة<sup>(١)</sup>، أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ جئت لأتبعك وأصيب معك قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله قال لا. قال فارجع فلن أستعين بمشرك» قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول: «تؤمن بالله ورسوله؟»

(١) حرة الوبرة: موضع على ثلاثة أميال من المدينة (معجم البلدان ٢/ ٢٨٨).

قال: نعم فقال له رسول الله ﷺ: «فانطلق»<sup>(١)</sup>.

ثانيا: البلوغ:

اشترط النبي ﷺ ألا يقل سن الجندي عن خمسة عشر عاما. وفي ذلك يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا عبيد الله بن سعيد حدثنا أبو أسامة قال حدثني عبيد الله قال حدثني نافع قال حدثني ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني ثم عرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني قال نافع: فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فحدثته الحديث فقال: إن هذا الحد بين الصغير والكبير، وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة»<sup>(٢)</sup>.

يقول ابن حجر: قوله: «أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد» فيه التفات أو تجريد إذا كان السياق يقتضي أن يقول: فلم يجزه لكنه التفت أو جرد من نفسه أولا شخصاً فعبّر عنه بالماضي ثم التفت فقال «عرضني».

وقوله: «وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة» أي يقدرها لهم رزقا في ديوان الجند وكانوا يفرقون بين المقاتلة وغيرهم في العطاء وفي الحديث: أن الإمام يستعرض من يخرج معه للقتال قبل أن تقع الحرب فمن وجده أهلا استصحبه وإلا

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ٥١ باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر ٦/٤٣٧، ٤٣٨، ١٨١٧ وأبو داود في كتاب الجهاد ١٥٣ باب في المشرک يسهم له ٧/٣٢٠ ح ٢٧٢٩ والترمذي في كتاب السير ١٠ باب ما جاء في أهل الذمة يغزون مع المسلمين هل يسهم لهم ٥/١٢٧ ح ١٥٥٨ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب والعمل على هذا عند بعض أهل العلم وابن ماجه في كتاب الجهاد ٢٧ باب الاستعانة بالمشرکين ٢/٥٢٣ ح ٢٨٣٢ والإمام أحمد في المسند ٦/٩٨، ١٤٩ والدارمي في كتاب السير ٥٤ باب قول النبي ﷺ إنا لا نستعين بمشرک ٢/٥٨ ح ٢٤٩٦ وابن الجارود في المتقى باب ترك الاستعانة بالمشرکين ص ٢٦٢ ح ١٠٤٨ جميعهم عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الشهادات ١٨ باب بلوغ الصبيان وشهادتهم ٥/٣٣٩ ح ٢٦٦٤ ومسلم في الصحيح كتاب الإمارة ٢٣ باب بيان سن البلوغ ٧/١٦ ح ١٨٦٨ وأبو داود في السنن كتاب الخراج والفئ والإمارة ١٦ باب متى يفرض للرجل في المقاتلة ٨/١٣٦ ح ٢٩٥٥ ولترمذي في السنن كتاب الجهاد ٣١ باب ما جاء في حد بلوغ الرجل ومتى يفرض له ٥/٣٠١، ٣٠٢ ح ١٧١١، وقال أبو عيسى حديث حسن صحيح غريب والنسائي في السنن كتاب الطلاق باب متى يقع طلاق الصبي ٦/١٥٥ وابن ماجه في السنن كتاب الحدود ٤ باب من لا يجب عليه الحد ٢/٤١٠ ح ٢٥٤٣ جميعهم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

رده، وقد وقع ذلك للنبي ﷺ في بدر وأحد وغيرها<sup>(١)</sup>.

وفي الحديث دليل على أن الصبي إذا بلغ خمس عشرة سنة دخل في زمن المقاتلة<sup>(٢)</sup>.  
وقد منع النبي ﷺ اشتراك الصبيان دون الخمسة عشرة سنة في الغزوات رحمة بهم، وذلك لضعف أجسامهم، ولعدم تحملهم مشاق الجهاد، ولقلة خبرتهم في فنون القتال.

ثالثاً: سلامة المجاهدين من العيوب والأمراض:

واشترط النبي ﷺ هذا الشرط لأنه يريد مقاتلاً قوياً يتحمل الصعاب ويسلك الجبال والهضاب. فلا يكون مريضاً مرضاً مزمناً يمنعه من مواصلة الجهاد، ولا يكون أعمى. أوبه عجز.

يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد الزهري قال حدثني صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سهل بن سعد<sup>(٣)</sup> الساعدي أنه قال: «رأيت مروان بن الحكم جالساً في المسجد فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أُملي عليّ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]. قال فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها عليّ فقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان رجلاً أعمى - فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض<sup>(٤)</sup> فخذي ثم سري عنه، فأنزل الله ﷻ ﴿غَيْرِ أُولَى الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥]<sup>(٥)</sup>.

(١) فتح الباري ٥/٣٣٩ بتصرف.

(٢) عون المعبود ٨/١٣٦.

(٣) هو الصحابي الجليل: سهل بن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي أبو العباس مات النبي ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة مات سنة إحدى وتسعين وعاش مائة سنة [الإصابة ٣/٢٠٠].

(٤) الرض: هو الدق (النهاية «رضي») ٢/٢٢٩.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ٣١ باب قول الله ﷻ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولَى الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] ٦/٥٥، ٥٦ ح ٢٨٣٢ ومسلم في كتاب الإمارة: ٤٠ باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين ٧/٥٠ ح ١٨٩٨ كلاهما عن زيد بن ثابت.

يقول الإمام النووي رحمته الله: «وفي الحديث دليل سقوط الجهاد عن المعذورين»<sup>(١)</sup> والمعلوم أن عجز ابن أم مكتوم كان ظاهرًا - العمى - حتى لا يتعلل بعض الناس فترك الجهاد بحجة المرض أو العجز، وقد ألحق الله أولى الضرر في الفضل بأهل الجهاد إذا صدقت نياتهم<sup>(٢)</sup>

رابعًا: الشجاعة والإقدام:

وهو أن يكون المقاتل شجاعا مقداما غير جبان، يقدم بوجهه ولا يولى دبره إلا متحرفا لقتال، أو متحيزًا إلى فئة.

وكان النبي ﷺ مضرب الأمثال في الشجاعة والإقدام، وكان قائدًا شجاعا يسير في طليعة جيشه حين تشتعل نار الحرب، ويهاب شواظها من لا يهاب. ومما يدل على شجاعته ﷺ وإقدامه، وعدم توليه ما حدث في غزوة حنين حينما خرج النبي ﷺ في شوال سنة ثمان من الهجرة إلى حنين وهو واديينه وبين مكة ثلاثة ليال وذلك بعد أن علم أن هوازن، وثقيف، ومدر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بنى هلال وغيرهم من قبائل العرب، قد اجتمعوا بأوطاس - وهو موضع بين مكة والطائف - وعزموا على قتال النبي ﷺ، فخرج إليهم النبي ﷺ في جيش قوامه اثنا عشر ألفا من المسلمين، عشرة آلاف من أهل المدينة وألفان من أهل مكة فقال أبو بكر: لا تغلب اليوم من قلة<sup>(٣)</sup>، وركن بعض الصحابة إلى قوتهم، وظنوا أنهم لن يغلبوا الكثرة عددهم، ولما حمى وطيس المعركة لم تغن عنهم قوتهم شيئا، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، وولت جمهرة الجيش مدبرة وتركت رسول الله ﷺ ولم يبق معه إلا نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته<sup>(٤)</sup>، وثبت النبي ﷺ وأخذ يجابه المشركين بكل

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٥١/٧.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٣٢٤/٨ بتصرف يسير.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: غزوة رسول الله ﷺ إلى حنين ١١٤/٢.

(٤) الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ هم: العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وأبو

سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وربيع بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو بكر، وعمر، وأسامة بن زيد،

وأيمن بن عبيد وقتل يومئذ رضي الله عنه أجمعين الطبقات الكبرى: غزوة رسول الله ﷺ إلى حنين ١١٥/٢ (والسيرة

النبوية لابن هشام) موضوع: ثبات رسول الله ﷺ وبعض أصحابه ٧٦/٤.

شجاعة وبسالة وصمود. يقول الإمام مسلم رحمته الله أو حدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو ابن سرح أخبرنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب قال: حدثني كثير بن عباس ابن عبد المطلب قال: قال عباس: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، أهداها له فروة بن نفاثة<sup>(١)</sup> الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق<sup>(٢)</sup> رسول الله ﷺ يركض<sup>(٣)</sup>، بغلته قبل الكفار قال عباس وأنا أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ ألفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان أخذ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ أى عباس ناد أصحاب ((السمة))<sup>(٤)</sup>، فقال عباس (وكان رجلاً صيتاً)<sup>(٥)</sup>، فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمة؟ قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي، عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يالبيك يالبيك قال: فاقتتلوا والكفار والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار قال ثم قصرت الدعوة على ابن الحارث بن الخزرج. فقالوا يا بني الحارث بن الخزرج يا بني الحارث بن الخزرج فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ ((هذا حين حمى الوطيس))<sup>(٦)</sup> قال ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: ((انهزموا ورب محمد)) قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فمازلت أرى حدهم كليلاً<sup>(٧)</sup>، وأمرهم مدبراً<sup>(٨)</sup>.

- (١) فروة بن عامر الجذامي أو ابن عمرو وهو أشهر أسلم في عهد النبي ﷺ وبعث إليه بإسلامه، وكان عاملاً للروم على من يليهم من العرب، فبلغ الروم إسلامه فطلبوه، فحبسوه ثم قتلوه [النهاية ٣٨٦/٥].
- (٢) طفق: يعني أخذ في الفعل وجعل يفعل وهي من أفعال المقاربة (النهاية «طفق» ١٢٩/٣).
- (٣) الركض: هو الضرب بالرجل والإصابة بها (النهاية «ركض» ٢٥٩/٢).
- (٤) السمة: هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية (النهاية «سمر» ٣٩٩/٢).
- (٥) صيتاً: أى شديد الصوت عاليه (النهاية «صيت» ٦٤/٣).
- (٦) الوطيس: التنور: وهي كناية عن شدة الأمر واضطرام الحرب (النهاية «حما» ٤٤٧/١).
- (٧) كليلاً: أى سيوفهم لا تقطع (النهاية «كلل» ١٩٨/٤ بتصرف).
- (٨) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الجهاد والسير ٢٨ باب في غزوة حنين ٦/٣٥٥ ح ١٧٧٥ عن عباس بن عبد المطلب، والإمام أحمد في المسند ١/٢٠٧ كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.



ولما ثبت النبي ﷺ وأقبل إليه المسلمون وحملوا على المشركين تغيرت صورة المعركة، وقذف الله في قلوب المشركين الرعب، وانهمزوا بفضل الله تبارك وتعالى وقوته، وأيقن المسلمون أن النصر بيد الله وحده، وأن الاعتزاز بالقوة لا يجدي، وأن كثرة العدد والعدد لا تغني عن عون الله وتأيدته، وفي أعقاب ذلك أنزل الله قوله: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ \* ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴿[التوبة: ٢٥، ٢٦].

والمعلوم أن السابقين الأولين من صحابه النبي ﷺ لم يفروا كلهم، والذي تسبب في فرار بعضهم أنهم قاتلوا وسط جماعة لم يستقر الإيمان في قلوبهم لحداثة عهدهم بالإسلام يقول الإمام النووي رحمه الله: قوله أى قول عباس بن عبد المطلب: فوالله لكان عطفهم، حين سمعوا صوتي، عطفة البقر على أولادها: فقالوا: يالبيك يالبيك.

قال العلماء: في هذا الحديث دليل على أن فرارهم لم يكن بعيداً، وأنه لم يحصل الفرار من جميعهم، وإنما فتحه عليهم من في قلبه مرض من مسلمة أهل مكة المؤلفة، ومشركيها الذين لم يكونوا أسلموا، وإنما كانت هزيمتهم فجأة لانصبابهم عليهم دفعة واحدة ورشقهم بالسهام. ولاختلاط أهل مكة معهم ممن لم يستقر الإيمان في قلبه، ومن يتربص بالمسلمين الدوائر، وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة فتقدم أخفاؤهم فلما رشقوهم بالنبل ولوا فانقلبت أولاهم على أخراهم إلى أن أنزل الله سكينته على المؤمنين كما ذكر الله تعالى في القرآن<sup>(١)</sup>. اهـ

## ٢- الإعفاء من الجندية:

أسباب الإعفاء من الجندية محصورة في الضعف، ويشمل الضعف: المرض المزمن، والعجز، والشيخوخة، وعدم القدرة على الإنفاق يقول تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٦/ ٣٦٠.

المُخْسِنِينَ مِنْ سَبِيلِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

«ولم يجعل الإسلام من أسباب الإعفاء من الجندية حمل الشهادات العلمية ولا الانتساب إلى الجامعات، ولا حفظ القرآن الكريم، ولا دفع البذل النقدي، ولا البنوة لحاكم كبير مما عهدناه في عصور الانحلال.

بل كان في عصر النبي ﷺ والعصور التالية له على عكس ذلك<sup>(١)</sup>.

وقد طمأن رسول الله ﷺ قلوب الذين حبسهم العذر عن الجهاد ببيان ثوابهم وأنهم غير محرومين من الأجر طالما أنهم لا يستطيعون القتال لما بهم من أضرار. يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا حماد وهو ابن زيد عن حميد عن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان في غزاة<sup>(٢)</sup>، فقال: إن أقواما بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر»<sup>(٣)</sup>.

يقول ابن حجر رحمه الله: والمراد بالعزر ما هو أعم من المرض وعدم القدرة على السفر وفي الحديث: أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العزر عن العمل<sup>(٤)</sup>.

#### ح - التدريب العالي:

من المعلوم أن التدريب على القتال لا يقل أهمية عن امتلاك السلاح واختيار أفضل العناصر البشرية قوة، وصلابة، وشجاعة، وإقدامًا، فالسلاح لا مزية في امتلاكه إن لم يحمله من تدرب على أعماله وأجاد استخدامه.

(١) الرسول القائد ص ٤٩ بتصرف.

(٢) في غزاة: الغزوة هي غزوة تبوك وقد أخبر النبي ﷺ بهذا الحديث بعد الرجوع منها كما جاء عن البخاري من طريق أحمد بن يونس عن زهير به (فتح الباري ٥٨/٦).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الجهاد والسيرة ٣ باب من حبسه العذر عن الغزو ٥٨/٦ ح ٢٨٣٩ عن أنس رضي الله عنه ومسلم في الصحيح كتاب الإمارة ٤٨ باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو أجز آخر ٦٥/٧ ح ١٨١١ عن جابر رضي الله عنه وابن ماجه في السنن كتاب الجهاد ٦ باب من حبسه العذر عن الجهاد ٤٩٦/٢ ح ٢٧٦٤ عن أنس ابن مالك رضي الله عنه.

(٤) فتح الباري ٥٩/٦.

«وتمشيًا مع توجيه الوحي وسياسة الواقع، وحفاظًا على حق الله وحق الحياة درب النبي ﷺ رجالًا على فنون الحرب، واشترك معهم في التمارين والمناورات والمعارك، وعد السعى في هذه الميادين خطوات إلى أجل القرب وأقدس العبادات، لعل بذلك يقل شوكة الكفر، ويكسر عن المسلمين أذاه<sup>(١)</sup>».

ورغب النبي ﷺ في تعلم الرمي باعتباره أحد الأسلحة المهمة في عصره وحذر من عقوبة تركه بعد تعلمه وفي ذلك يقول الإمام مسلم رحمته الله تعالى حدثنا محمد بن ربح المهاجر أخبرنا الليث عن الحارث بن يعقوب عن عبد الرحمن بن شماس<sup>(٢)</sup>، أن فقيما اللخمي قال لعقبة بن عامر: تختلف بين هذين الغرضين، وأنت كبير يشق عليك قال عقبة: لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ، لم أعانيه قال الحارث: فقلت لابن شماس وما ذاك؟ قال: إنه قال: «من علم الرمي ثم تركه، فليس منا، أو قد عصي<sup>(٣)</sup>».

يقول الإمام النووي رحمته الله تعالى: وفي الأحاديث فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد في سبيل الله تعالى، وكذلك المشاجعة وسائر أنواع استعمال السلاح، وكذا المسابقة بالخيول وغيرها والمراد بهذا كله التمرن على القتال، والتدرب والتحذق فيه، ورياضة الأعضاء بذلك.

وفي الحديث: تشديد عظيم في نسيان الرمي بعد علمه وهو مكروه، كراهه شديدة لمن تركه بلا عذر<sup>(٤)</sup>. اهـ

«وفي هذه الأيام تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريبًا عنيقًا ويتمثل

(١) فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٢٤٤.

(٢) عبد الرحمن بن شماس المهرى المصرى ثقة من الثالثة، مات سنة إحدى ومائة أو بعدها [تقريب التهذيب ص ٣٤٢].

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب الإمامة ٥٢ باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسي ٧/٧٣ ح ١٩١٩ وأبو داود في السنن كتاب الجهاد ٢٤ باب في الرمي ٧/١٥٣ ح ١٠٥١٠ والنسائي في كتاب الجهاد باب ثواب من رمى بسهم في سبيل الله ﷻ ٦/٢٦ وابن ماجه في كتاب الجهاد ١٩ باب الرمي في سبيل الله ٢/٥١٧ ح ٢٨١٤ والإمام أحمد في المسند ٤/١١٤ والدارمي في كتاب الجهاد ١٤ باب في فضل الرمي والأمر به ٢/٦٢ ح ٢٤٠٥ جميعهم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٧/٧٤.

ذلك في اجتياز موانع وعراقيل صعبة جدًا، وقطع مسافات طويلة في ظروف جوية مختلفة، وحرمان من الطعام والماء بعض الوقت، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها في الحرب ولقد تحمل جيش العسرة مشقات لا تقل صعوبة عن مشقات هذا التدريب العنيف إن لم تكن أصعب منها بكثير، فقد ترك الجيش المدينة في موسم نضج ثمارها، وحصاد خيراتها، ورغبوا عن كل ذلك في سبيل إحقاق الحق لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وقطعوا مسافات طويلة شاقة في صحراء شبه الجزيرة العربية صيفا، وتحملوا الجوع والعطش مدة طويلة<sup>(١)</sup>.

يقول الإمام ابن سعد رحمته الله تعالى: أخبرنا محمد بن حميد العبدى عن معمر بن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب في قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، [التوبة: ١١٧] قال: خرجوا في غزوة تبوك الرجال والثلاثة على بعير وخرجوا في حر شديد فأصابهم يوما عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ويشربون ماءها، فكان ذلك عسرة من الماء وعسرة من الطهر وعسرة من النفقة<sup>(٢)</sup>.

إن غزوة تبوك كانت تدريباً عنيقاً للمسلمين، كان غرض النبي ﷺ منه إعداد المسلمين إعداداً خاصاً لتحمل رسالة حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، وتكوين الدولة الإسلامية المترامية الأطراف فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوة اشترك فيها النبي ﷺ، فأراد أن يطمئن على كفاية جنوده قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى.

فانظر كيف كان النبي ﷺ سباقاً في ميدان تدريب الجنود وكيف استفاد منه العالم بأسره في هذا الميدان.

## ٢- تولية الأمراء على المدن أثناء الحروب

كان النبي ﷺ إذا خرج إلى غزوة ترك خلفه من يقوم بإدارة المدينة حتى يرجع، فيقوم هذا الأمير بإمامة الناس في الصلاة، ويحرس النساء والصبيان ويدير كل الأمور

(١) الرسول القائد ص ٤١٤.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات: غزوة رسول الله ﷺ تبوك ٢/١٢٦.

إلى أن يرجع النبي ﷺ، ولما خرج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك، ولي على بن أبي طالب أمر حراسة المدينة وإدارتها إلى أن يرجع يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا مسدد وحدثنا يحيى عن شعبة عن الحكم عن مصعب بن سعد عن أبيه: «أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال أتخلفنى فى الصبيان والنساء؟ قال ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدى»<sup>(١)</sup>.

وأمر النبي ﷺ أبا ذر الغفارى على المدينة أثناء خروجه لغزوة ذات الرقاع فى جمادى سنة أربع من الهجرة<sup>(٢)</sup>، وأمر عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول على المدينة أثناء خروجه لغزوة بدر الآخرة فى شعبان سنة أربع<sup>(٣)</sup>.

وأمر النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وحسان بن ثابت أثناء غزوة الخندق وأمرهما أن يحرسا النساء والصبيان، ويراقبا اليهود داخل المدينة ويقفا على مدى التزامهم بالوفاء بعهودهم مع المسلمين<sup>(٤)</sup>.

### ٣- إعداد مركز القيادة:

من الأمور الإدارية المهمة التى اتخذها النبي ﷺ أثناء الغزوات: اتخاذ مقر للقيادة تصدر منه الأوامر والتوجيهات:

والمعلوم أن اتخاذ «العريش» - مركز القيادة - كان فى غزوة بدر بمشورة من الصحابى الجليل سعد بن معاذ، ولما أشار على النبي ﷺ وسلم بهذه المشورة قبلها النبي ﷺ حتى تتوحد القيادة وتصدر الأوامر للجيش من جهة واحدة معلومة للجميع، وكذلك تتوفر الحماية اللازمة للنبي ﷺ داخل مركز قيادته لاسيما إذا قام بعض الصحابة بحراسته.

- 
- (١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ٧٨ باب غزوة تبوك وهى غزوة العسرة ٨/ ١٣٧ ح ٤٤١٦. ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة ٤ باب من فضائل على بن أبى طالب رحمه الله ٨/ ١٨٧ ح ٣١ مكرر. والترمذى فى كتاب أبواب المناقب ٢٠ باب مناقب على بن أبى طالب رحمه الله ١٠/ ١٧٣ ح ٣٧٣٣ جميعهم عن مصعب بن سعد عن أبيه.
- (٢) السيرة النبوية لابن هشام موضوع: «غزوة ذات الرقاع» ٣/ ١٧٣ بتصرف.
- (٣) السيرة النبوية لابن هشام موضوع: «غزوة بدر الآخرة» ٣/ ١٧٩ بتصرف.
- (٤) السيرة النبوية لابن هشام موضوع: «غزوة الخندق» ٣/ ١٩١ بتصرف.

«قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث: أن سعد بن معاذ قال: يا نبي الله ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخير ثم بنى لرسول الله ﷺ عريش، فكان فيه<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - اتخاذ الحراس

كان النبي ﷺ يتخذ الحراس أثناء الغزوات حتى يقوم بتأمين المكان الذي ينزل فيه الجيش أثناء راحته.

يقول الإمام أبو داود رحمه الله: حدثنا أبو توبة أخبرنا معاوية، يعني ابن سلام أنه سمع أبا سلام قال حدثني السلولى أبو كبشة أنه حدثه سهل بن الحنظلية<sup>(٢)</sup> «أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين فأطنبوا السير حتى كان (كانت) شية فحضرت صلاة عند رسول الله ﷺ - فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم<sup>(٣)</sup>، بضعتهم<sup>(٤)</sup>، ونعمهم وشائهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله وقال: تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله ثم

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع «نزول قريش بالعدوة والمسلمين بيد» (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/ ٢٢٥ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية موضوع «غزوة بدر العظمى - من طريق ابن إسحاق حدثني عبد الله ابن أبي بكر أنه حدث أن سعد بن معاذ فذكره ٣/ ٣٠٤.

(٢) هو الصحابي الجليل: سهل بن الحنظلية واسم أبيه الربيع، وقيل عبيد وقيل عقيب بن عمرو وقيل عمرو بن عدى - وهو الأشهر - الأنصاري الأوسى وقد بايع تحت الشجرة وشهد أحداً وما بعدها ثم تحول إلى الشام حتى مات في صدر خلافة معاوية بن أبي سفيان [الإصابة ٣/ ١٩٦].

(٣) هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفر العدد وأنهم جاءوا جميعاً لم يتخلف منهم أحد وليس هناك بكرة في الحقيقة وهي التي يستقى عليها الماء فاستعيرت في هذا الموضوع [النهاية «بكر» ١/ ١٤٩].

(٤) الظعن: النساء وواحدة ظعينة وأصل الظعينة: الراحلة التي يدخل بها ويظعن عليها: أي يسار وقيل للمرأة ظعينة لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظعن أو لأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت [النهاية «ظعن» ٣/ ١٥٧].

قال: من يحرسنا الليلة؟ قال أنس بن أبي مرثد<sup>(١)</sup>، الغنوي: أنا يا رسول الله قال: فاركب فركب فرسًا له وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه، ولا تغرن<sup>(٢)</sup>، (ولا يغرن) من قبلك الليلة، فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين، ثم قال: هل أحسستم فارسكم؟ قالوا يا رسول الله ما أحسنناه، فثوب<sup>(٣)</sup>، بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت (يلتفت) إلى الشعب حتى إذ قضى صلاته وسلم فقال: (قال) أبشروا فقد جاءكم فارسكم فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ وسلم وقال (فقال): إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت اطلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحدًا فقال له رسول الله ﷺ: هل نزلت الليلة؟ قال: لا إلا مصليا أو قاضيا حاجة (قاضي حاجة) فقال له رسول الله ﷺ: قد أوجبت فلا عليك أن لا تعمل<sup>(٤)</sup>، بعدها<sup>(٥)</sup>.

والمعلوم أن الصحابة قاموا بحراسة النبي ﷺ وأقرهم ﷺ على ذلك ومن هؤلاء الحراس: سعد بن معاذ الذي حرس النبي ﷺ يوم بدر حين نام في العريش، ومحمد بن مسلمة<sup>(٦)</sup>: حرسه يوم أحد، والزبير بن العوام حرسه يوم الخندق، ومنهم أيضًا أبو أيوب الأنصاري الذي حرسه ليلة عرسه بصفية رضي الله عنها قال ابن إسحاق: ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر أو ببعض الطريق وكانت التي حملتها لرسول الله ﷺ

(١) هو الصحابي الجليل: أبو مرثد الغنوي كنان بن الحصين، ويقال حصين بن كنان وقيل اسمه أيمن شهد بدرا وسكن الشام ومات سنة اثنتي عشرة من الهجرة [الإصابة ٦/٣٦٩].

(٢) أى لا يبيحنا العدو من قبلك على غفلة [النهاية «غرر» ٣/٣٥٥].

(٣) الثوب هنا معناه إقامة الصلاة [النهاية «ثوب» ١/٢٢٦].

(٤) أى لا ضرر ولا جناح عليك في ترك العمل بعد هذه الحراسة لأنها تكفيك لدخول الجنة [عون المعبود ٧/١٤٦].

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ١٧ باب في فضل الحرس في سبيل الله ﷺ ٧/١٤٥، ١٤٦ ح ٢٤٩٨ والحاكم في

كتاب الجهاد ٨٤/٢ وقال هذا الإسناد من أوله إلى آخره صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي والبيهقي في

السنن الكبرى كتاب السير ١٣١ باب فضل الحرس في سبيل الله ٩/١٤٩ ح ١٨٤٤٣ والبيهقي أيضًا في الدلائل

باب غزوة حنين وما ظهر فيها على النبي ﷺ من آثار النبوة ٥/١٢٥، ١٢٦ جميعهم عن سهل بن الحنظلية.

(٦) هو الصحابي الجليل: محمد بن مسلمة الأنصاري أسلم قديما على يد مصعب بن عمير وشهد بدرا وما بعدها إلا

غزوة تبوك فإنه تخلف عنها بإذن رسول الله ﷺ ومات بالمدينة سنة ست وأربعين [الإصابة ٦/٣٣].

ومشطتها، وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان<sup>(١)</sup>، أم أنس بن مالك فبات بها رسول الله ﷺ في قبة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد أخو بني النجار متوشحاً سيفه، يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ فلما رأى مكانه قال: مالك يا أبا أيوب؟ قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة وكانت امرأة قد قتلت أباهاً وزوجها وقومها، وكانت حديثه عهد بكفر فخفتها عليك فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني»<sup>(٢)</sup>.

ولأن الحراسة أمر لازم للإمام فقد قام قيس بن سعد بحراسة النبي ﷺ.

يقول الإمام البخاري: «حدثنا محمد بن خالد الذهلي حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري قال حدثني أبي عن ثمامة عن أنس بن مالك قال: إن قيس<sup>(٣)</sup>، بن سعد كان بين يدي النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير<sup>(٤)</sup>.

وقد حرس النبي ﷺ جماعة آخرون من الصحابة غير ما ذكرت فلما نزل قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَفْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. خرج على الناس فأخبرهم بها، وصرف الحرس»<sup>(٥)</sup>.

(١) هي أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنيم بن عدى بن الأنصارية الخزرجية النجارية أم أنس بن مالك اختلف في اسمها فقيل سهلة وقيل رملة وقيل رميلة وقيل رمينة وقيل مليكة والغميصة والدميمصاء، كانت تحت مالك بن النضر والد أنس في الجاهلية فغضب عليها وخرج إلى الشام ومات هناك فخطبها أبو طلحة الأنصاري، وهو مشرك فأمهرها بإسلامه (أسد الغابة ٧/ ٣٤٥٠).

(٢) ذكره ابن إسحاق في السيرة موضوع: بناء رسول الله ﷺ بصفية (السيرة النبوية لابن هشام) ٣/ ٣١٥، ٣١٦ وذكره ابن كثير في البداية ٤/ ٢١١.

(٣) هو الصحابي الجليل: قيس بن سعد بن عباد بن ديلم الأنصاري الخزرجي شهد المشاهد مع النبي ﷺ وكان يحمل راية الأنصار يوم الفتح، وشهد فتح مصر وشهد صفين مع علي ومات سنة خمس وثمانين [الإصابة ٥/ ٤٧٣].

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ١٢ باب الحاكم يحكم بالقتل على من وجب عليه دون الإمام الذي فوقه ١٣ / ١٦٤ ح ٧١٥٥. عن أنس بن مالك ؓ.

(٥) زاد المعاد في هدى خير العباد ١/ ٥١.



## ٥- أعمال الإسعاف في المعارك (التطبيب ومداواة الجرحى، وسقاية الماء وقيام النساء بذلك)

من الجوانب الإدارية المهمة التي وضعها النبي ﷺ وأحسن إدارتها أثناء الغزوات: اتخاذ النساء لمداواة الجرحى، وسقاية الماء في الغزوات.

يقول الإمام مسلم رحمه الله تعالى: حدثنا يحيى بن يحيى: أخبرنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأمر سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى»<sup>(١)</sup>.

يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: وفيه خروج النساء في الغزو والانتفاع بهن فيالسقى والمداواة ونحوهما، وهذه المداواة لمحارمهن وأزواجهن، وما كان منها غيرهم لا يكون فيه مس بشرة إلا في موضع الحاجة»<sup>(٢)</sup>. اهـ

فانظر كيف ولى النبي ﷺ هذا العمل للنساء لكي يدرنه ويقمن به لأنه عمل يحتاج إلى شفقة وحنان ولطف في المعاملة وهذا الصفات توجد في النساء أكثر من الرجال، ولا زالت الأمم والشعوب تولى هذا العمل للنساء في المستشفيات إلى الآن. وهذا دلالة على أن النبي ﷺ كان له السبق في وضع هذه الأعمال الإدارية الحربية الدقيقة وحسن إدارتها وأن المرأة كان لها دور مهم على عهد النبي ﷺ في تأدية بعض الأعمال التي تتناسب وفطرتها وأنها لم تكن حبيسة أو مسلووبة الإرادة كما يدعي بعض المغرضين.

## ٦- تقسيم الفئ والغنائم عقب السرايا والغزوات:

من الأمور التي أدارها النبي ﷺ وأحسن إدارتها تقسيم الفئ والغنائم بعد

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ٤٧ باب غزوة النساء مع الرجال ٦/٤٢٧ ح ١٨١٠ وأبو داود في كتاب الجهاد ٣٤ باب في النساء يغزون ٧/١٦٦ ح ٢٥٢٥٨. والترمذي في كتاب السير ٢٢ باب ما جاء في خروج النساء في الحرب ٥/١٥٠ ح ١٥٧٥ وقال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح. والإمام أحمد في المسند ١/٣٠٨ وأخرجه الشافعي في مسنده في كتاب الجزية ص ٢٠٧ جميعهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) شرح النووي على مسلم ٦/٤٢٨.

الانتهاء من الغزوات.

والفئ والغنائم: هما الأموال التي وصلت من المشركين أو كانوا سبب وصولها والفئ: هو مال وصل من المشركين عفوا من غير قتال ولا بإيجاف خيل فهو كمال الهدنة والجزية.

والغنيمة: هي الأموال المأخوذة من المشركين قهرا بعد القتال وإيجاف الخيل والرقاب<sup>(١)</sup>.

وكان رسول الله ﷺ يحكم إدارة هذه الأموال ويقسمها حسب شرع الله تعالى ومن سياسته ﷺ في أمر التقسيم أنه كان يؤخر هذا الأمر إلى أن تنتهي الحرب حتى يعلم بنهايتها تحقق النصر وحتى لا يتشاغل المقاتلة بأمر تقسيم الغنائم فيتحول النصر إلى هزيمة على نحو ما وقع في غزوة أحد فإذا ما انتهت الحرب سارع النبي ﷺ إلى تقسيمها. وكان ﷺ يقوم بتقسيم الفئ على وفق شرع الله تعالى ويتولى إدارة تقسيمه على نحو ما جاء في قوله تعالى ﴿ما آفأ الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذی القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل کى لا یكون دولة بین الأغنیاء منکم وما ءاتاکم الرسول فخذوه وما نهاکم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شدید العقاب﴾ [الحشر: ٧].

فكان ﷺ يقسم الخمس على خمسة أسهم متساوية:

السهم الأول: لرسول الله في حياته ينفق منه على نفسه وزوجاته ويصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين.

والسهم الثاني: سهم ذوی القربى، كان النبي يخصص به قرابته من بنى هشام وبنى عبد المطلب ابنا عبد مناف خاصة لا حق فيه لمن سواهم من قريش كلها يسوى فيه بين الصغار والكبار والأغنياء والفقراء ويفضل بين الرجال والنساء للذكر مثل حظ الأنثيين يقول الإمام البخارى رحمه الله حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن جبير بن مطعم قال «مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله فقلنا يا رسول الله أعطيت بنى عبد المطلب وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة فقال رسول الله ﷺ: «إنما بنوا المطلب وبنوا هاشم شيء واحد» قال

(١) الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص ١٦١

الليث: حدثني يونس وزاد قال جبير: ولم يقسم النبي ﷺ لبنى عبد شمس ولا لبنى نوفل وقال ابن إسحاق: عبد شمس وهاشم والمطلب أخوة لأم، وأمهم عاتكة بنت مرة، وكان نوفل أخاهم لأبيهم»<sup>(١)</sup>.

والسهم الثالث: كان النبي ﷺ يعطيه لليتامى من ذوى الحاجات.

والسهم الرابع: أعطاه للمساكين.

والسهم الخامس: لبنى السبيل وهم المسافرون من أهل الفئ.

وأما الأربعة أخماس الباقية:

ففيها قولان: أحدهما: أنه كان للجيش خاصة لا يشاركهم فيه غيرهم ليكون معداً لأرزاقهم.

والقول الثانى: أنه مصروف فى المصالح التى منها أرزاق الجيش وما لا غنى للمسلمين عنه<sup>(٢)</sup>.

### تقسيم الغنائم

كان النبي ﷺ يتولى إدارة تقسيم الغنائم بنفسه على وفق قوله تعالى، ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمتتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير﴾ [الأنفال: ٤١].

(١) أخرجه البخارى فى كتاب فرض الخمس ١٧ باب ومن الدليل على أن الخمس للإمام وأنه يعطى بعض قرابته دون بعض ما قسم النبي ﷺ لبنى المطلب وبنى هاشم» ٢٩٥/٦، ٢٩٦ ح ٣١٤٠. وفى كتاب المغازى ٣٨ باب غزوة خيبر ٥٩٩/٧ ح ٤٢٢٩. وأبو داود فى كتاب الخراج والفئ والإمارة: ٢٠ باب فى بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذى القربى ١٥٦/٨ ح ٢٩٧٦. والنسائى فى كتاب قسم الفئ ٧/١٣٠. والبيهقى فى كتاب قسم الفئ والغنيمة ٤٢ باب سهم ذى القربى من الخمس ٤/٣٤٠، ٣٤١ جميعهم عن جبير بن مطعم ؓ.

(٢) ينظر الأحكام السلطانية ص ١٦٣.

وكان النبي ﷺ إذا أراد قسمة الغنائم بدأ بأسلاب القتلى فأعطى كل قاتل سلب قتيله يقول الإمام البخارى، رحمه الله، حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أبي أفلح عن أبي محمد مولى أبي قتادة عن أبي قتادة رضي الله عنه قال «خرجنا مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة فرأيت رجلاً من المشركين علا رجلاً من المسلمين فاستدبرت حتى أتيتها من ورائه حتى ضربته بالسيف على حبل عاتقه، فأقبل على فضمنى ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلنى، فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله، ثم إن الناس رجعوا وجلس النبي ﷺ فقال: «من قتل قتيلاً له عليه بيعة فله سلبه<sup>(١)</sup>»،<sup>(٢)</sup>. وبعد أن يعطى النبي ﷺ القاتل سلب من قتله كان يقسم الغنائم على خمسة أخماس متساوية:

فكان يعطى الخمس الأول منها لمن سمي الله ﷻ في كتابه العزيز في آية سورة الأنفال التي سبق ذكرها، فيقسمه على خمسة على نحو ما أعطى أهل الفئ وذلك على النحو التالي:

السهم الأول: لرسول الله ﷺ ويصرف بعده للمصالح، والسهم الثاني لذوى القربى من بنى هاشم وبنى المطلب، والسهم الثالث لليتامى، والسهم الرابع للمساكين والسهم الخامس لبنى السبيل.

(١) السلب في الحديث، هو ما يأخذه أحد القرنين في الحرب من قرنه مما يكون عليه ومعه من سلاح وثياب ودابة وغيرها، وهو فعل بمعنى مفعول: أى مسلوب (النهاية في غريب الحديث «سلب» ٢/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه البخارى في كتاب فرض الخمس ١٨ باب من لم يخمس الأسلاب ومن قتل قتيلاً فله سلبه من غير أن يخمس، وحكم الإمام فيه ٦/ ٣٠١ ح ٣١٤٢، وفي كتاب المغازى ٥٤ باب قول الله تعالى ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ ٨/ ٤٥، ح ٤٦، ٤٣٢١. ومسلم في كتاب الجهاد والسير ١٣ باب استحقاق القاتل سلب القاتل ٦/ ٣٠١، ح ٣٠٢، ٤١ مكرر. وأبو داود في الجهاد ١٤٧ باب في السلب ليعطى القاتل ٧/ ٣٠٧، ٣٠٨، ح ٢٧١، والترمذى في السير باب ما جاء فيمن قتل قتيلاً فله سلبه ٥/ ١٣٤ ح ١٥٦٢ وقال الترمذى: وفي الحديث قصة مالك في الموطأ كتاب الجهاد ١٠ باب ما جاء في السلب في النفل ح ١٨ ٢/ ٣٦٣ والبيهقى في السنن الكبرى: كتاب قسم الفئ والغنيمة: ٩ باب السلب للقاتل ٦/ ٣٠٦. والشافعى في المسند في باب ومن اختلاف مالك والشافعى رحمه الله ص ٢٢٣ جميعهم عن أبي قتادة رضي الله عنه.

## ٧- الرضخ للعمال الذين يقدمون الخدمة للجيش

وكان النبي ﷺ يعطى أهل الرضخ<sup>(١)</sup>، من الغنيمة، وفي أحد أقوال العلماء أنه كان يقدمهم على أهل الخمس الأول، وأهل الرضخ هم: من لا سهم له من حاضرى الوقعة من العبيد والنساء والصبيان والمزمنين، وأهل الذمة يرضخ لهم من الغنيمة بحسب غنائهم ولا يبلغ برضخ أحد منهم سهم فارس ولا راجل، فلوزال نقص أهل الرضخ بعد حضور الوقعة لعتق العبد، وبلوغ الصبى وإسلام الكافر فإن كان ذلك قبل انقضاء الحرب أسهم لهم، ولم يرضخ، وإن كان ذلك بعد انقضائها رضح لهم ولم يسهم.

وبعد ما كان النبي ﷺ ينتهى من أمر سلب القتل، ويعطى أصحاب الخمس الأول خمسهم، ويعطى أهل الرضخ كان يتولى تقسيم الأربعة أخماس الباقية على من شهد الوقعة من أهل الجهاد: وهم الرجال الأحرار المسلمون الأصحاء يشترك فيها من قاتل ومن لم يقاتل، لأن من لم يقاتل عون للقاتل، وردء له عند الحاجة فهو وإن لم يقاتل فقد كثر سواد<sup>(٢)</sup>، المقاتلين<sup>(٣)</sup>.

وكان النبي ﷺ يقسم الأربعة أخماس على النحو التالى:

كان يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم، سهمان لفرسه وسهم له، وللراجل سهم يقول الإمام البخارى رحمه الله: حدثنا الحسن بن إسحاق حدثنا محمد بن سابق حدثنا زائدة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر للفارس سهمين وللراجل سهمًا قال: ففره نافع فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم فإن لم يكن له فرس فله سهم<sup>(٤)</sup>. ومعنى ذلك أنه كان يعطى للفارس ثلاثة أسهم، سهمان لفرسه وسهم له

(١) الرضخ: هي العطية القليلة: (النهاية «رضخ» ٢/ ٢٢٨).

(٢) كثر سواد المقاتلين يعنى: جماعة المقاتلين، أو أشخاص المقاتلين، قالوا وهو الشخص لأنه يرى من بعيد أسود

(ينظر النهاية «سود» ٢/ ٤١٨).

(٣) ينظر الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٧٨.

(٤) أخرجه البخارى فى المغازى ٣٨ باب غزوة خيبر ٧/ ٥٩٩ ح ٤٢٢٨ - ومسلم فى كتاب الجهاد والسير ١٧ باب

كيفية قسمة الغنيمة بين الحاضرين ٦/ ٣٢٦ ح ١٧٦٢ والترمذى فى كتاب السير ٦ باب فى سهم يلى ٥/ ١٢٠

ح ١٥٥٤ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح جميعهم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ويعطى للراجل، وهو الذى يمشى على رجليه سهما واحداً كما مر.  
يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبى أسامة عن  
عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ جعل للفرس سهمين  
ولصاحبه سهماً»<sup>(١)</sup>.

وجاء فى حديث الإمام مسلم الذى رواه بقوله: حدثنا يحيى بن يحيى وأبو كامل  
فضيل بن حسين كلاهما عن سليم قال يحيى أخبرنا سليم بن أخضر عن عبيد الله بن  
عمر حدثنا نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قسم النفل: للفرس سهمين  
وللرجل سهماً»<sup>(٢)</sup>.

يقول الإمام النووى رحمه الله فى تعليقه على هذا الحديث قوله: «إن رسول الله ﷺ  
قسم فى النفل للفرس سهمين، هكذا هو فى أكثر الروايات للفرس سهمين وللرجل  
سهماً وفى بعضها للفرس سهمين وللراجل سهماً بالألف فى الراجل وفى بعضها  
للفارس سهمين.

والمراد بالنفل هنا الغنيمة، وأطلق عليها اسم النفل لكونها تسمى نفلاً لغة،  
فإن النفل فى اللغة الزيادة والعطية وهذه عطية من الله تعالى، فإنها أحلت لهذه الأمة  
دون غيرها»<sup>(٣)</sup>.

وبذلك أحكم النبي ﷺ إدارة تقسيم الفئ والغنائم بالحق والعدل بين المسلمين  
حتى تصل الحقوق إلى أصحابها وتستمر روح الألفة والمودة بين المسلمين.



(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد والسير ٥١ باب سهام الفرس ٨٤/٦ ح ٢٨٦٣ عن ابن عمر رضي الله عنهما.  
(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير ١٧ باب كيفية قسمه الغنيمة بين الحاضرين - ٣٢٦/٦ ح ١٧٦٢. وأخرجه  
أيضاً: البخارى فى كتاب المغازى ٣٨ باب غزوة خيبر - ٥٩٩/٧ ح ٤٢٢٨، وأبو داود فى كتاب الجهاد ١٥٤  
باب فى سهمان الخيل ٣٢١/٧ ح ٢٧٣٠ والترمذى فى كتاب السير ٦ باب فى سهم الخيل. وقال أبو عيسى:  
حديث ابن عمر حديث حسن صحيح - ١٢٠/٥٠ حديث ١٥٥٤ وابن ماجه فى كتاب الجهاد ٣٦ باب قسمه  
الغنائم ٥٣١/٢ ح ٢٨٥ والدارمى فى كتاب السير ٣٣ باب فى سهمان الخيل ٨٩/٢ ح ٢٤٧٢ جميعهم عن ابن  
عمر رضي الله عنهما.

(٣) شرح النووى على مسلم ٥٩٩/٦.

## الباب الخامس

### العوامل التي ساعدت النبي ﷺ على النصر في الحروب

ويتضمن تمهيداً وثلاثة فصول:

الفصل الأول: القيادة العظيمة للنبي ﷺ .

الفصل الثاني: شجاعة جنود النبي ﷺ وإخلاصهم له وجبن أعدائه.

الفصل الثالث: الحرب العادلة.

## الباب الخامس

### العوامل التي ساعدت النبي ﷺ على النصر في الحروب

#### تمهيد

انتصر النبي ﷺ في حروبه وذلك لعدة أسباب أخذ النبي ﷺ بها، فقد كان ﷺ يأخذ بالأسباب، ويحسب للمعركة ألف حساب، ويخطط، ويدقق، ويتأمل، ويفكر، ويقدر الأمور تقديرًا صحيحًا، يأخذ بكل الأسباب المادية التي تعينه على النصر، وبعد ذلك كان يلجأ إلى ربه إذا عظم الخطب، واشتد الأمر، وحمى وطيس المعركة يناجى بالحاح ويتضرع ويطلب التضرع، ويقف ويطلب الوقوف، ويسرح نظره في السماء ويدعو ويلج في الدعاء حتى يسقط منه الرداء وهو يترقب إجابة الدعاء ونزول المدد من السماء. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثني محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا عبد الوهاب حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾»<sup>(١)</sup>، [القمر: ٥٤] ويقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عاصم ابن يوسف اليربوعي حدثنا أبو إسحاق الفزاري عن موسى بن عقبة قال: «حدثني أبو النضر مولى عمر بن عبيد الله، كنت كاتبًا له قال: كتب إليه عبد الله بن أبي أوفى<sup>(٢)</sup>، حين

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٤ باب قول الله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ ٣٥٤/٧ ح ٣٩٥٣ وأحمد في المسند ١/٣٢٩ كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هو الصحابي الجليل: عبد الله بن أبي أوفى واسمه علقمة بن خالد بن الحارث بن أبي أسيد بن رفاعة بن ثعلبة بن هوازن بن أسلم الأسلمي. شهد الحديبية والمشاهد بعدها ونزل الكوفة ومات بها سنة ثمانين وكان آخر من مات من الصحابة بالكوفة [الإصابة ٤/١٨].



خرج إلى الحرورية فقرأته فإذا فيه: إن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس فقال: «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال: اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»<sup>(١)</sup>.

فالنبي ﷺ كان ينتصر بتأييد الله له ثم بأخذه بعدة أسباب للنصر سوف نتحدث عن بعضها فيما يلي إن شاء الله تعالى.

(١) أخرجه البخارى في كتاب الجهاد والسير ١٥٦ باب لا تتمنوا لقاء العدو ١٩٠/٦ ح ٣٠٢٤، ٣٠٢٥ عن موسى ابن عقبة رحمته الله ومسلم في كتاب الجهاد والسير ٦ باب كراهة تمنى لقاء العدو ٢٨٨، ٢٨٩ ح ١٧٤٢ وأبو داود في كتاب الجهاد ٩٨ باب في كراهة تمنى لقاء العدو ٢٣٧/٧ ح ٢٦٢٨ والترمذى في كتاب الجهاد ٨ باب ما جاء في الدعاء عند القتال ٥/٢٦٤ ح ١٦٧٨ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب الجهاد ١٥ باب القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى ٢/٥١٠ ح ٢٧٩٦ جميعهم عن عبد الله بن أبى أوفى رحمته الله.

## الفصل الأول

### القيادة العظيمة للنبي ﷺ

#### ١ - تقدير الأمور تقديرًا صحيحًا:

كان النبي ﷺ يقدر الأمور تقديرًا صحيحًا ويسير نحو هدفه على بصيرة من أمره، ويحسب حساب كل خطوة قبل أن يخطوها، ويفكر في الأمر مليًا قبل الإقدام على أى عمل من الأعمال.

ففى غزوة بدر سأل النبي ﷺ غلامى قريش - اللذين جاءا يحملان الماء ووقعا فى قبضة بعض الصحابة - عن عدد جيش قريش فقالا لا ندرى فسألهما كم ينحرون من الإبل كل يوم فقالا يومًا تسعة ويومًا عشرة فعرف النبي ﷺ أن القوم ما بين التسعمائة إلى الألف واستدل النبي ﷺ بنظره الثاقب على معرفة عدد الجيش بمقدار ما ينحرون من الإبل، وأخذ النبي ﷺ يخطط لمعركة بدر وهو يضع نصب عينيه هذه المعلومات التى حصل عليها، فلا بد من إعمال العقل، والتخطيط المحكم حتى يعوض النقص العددي والعددي الذى كان فى جيش المسلمين

وفى غزوة أحد لما انسحب المشركون من المعركة تاركين وراءهم ثلاثة وعشرين قتيلًا أرسل النبي ﷺ علي بن أبى طالب فى آثار القوم لكى يراقبهم وقال له النبي ﷺ فى الحديث الذى رواه ابن إسحاق قال فحدثنى صالح بن كيسان أنه حدث: فذكر حديثًا طويلًا فيه: ثم بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فقال: «أخرج فى آثار القوم فانظر ما يصنعون، وماذا يريدون فإن هم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجذنهم فيها». قال على بن أبى طالب ﷺ: فخرجت فى آثارهم انظر ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه ابن إسحاق فى السيرة النبوية موضوع «غزوة أحد» (السيرة النبوية لابن هشام) ٥٨/٣، ٥٩ - وذكره ابن حجر فى فتح البارى ٤٢٨/٧ وذكره ابن كثير فى البداية ١٣٨/٤ والواقدي فى المغازى ٢٩٨/١ والطبرى فى تاريخه ٧١/٢.

ومن الحديث السابق يتبين لنا أن النبي ﷺ كان يقدر الأمور تقديرًا صحيحًا، لأن ركوب الإبل يدل على أن المشركين عازمون على قطع مسافات طويلة، وعلى ذلك فهم قاصدون مكة وركوب الخيل يدل على أنهم سيسIRON مسافة قصيرة وأنهم قريبون من أهدافهم وأنهم مستعدون للإغارة، وأقرب أهدافهم في ذلك الوقت هي المدينة المنورة. «ولقد عزم النبي ﷺ على تركهم إن أرادوا مكة وعلى مناجزتهم إن أرادوا المدينة، وذلك لأنهم إن عادوا إلى مكة فإن رسول الله ﷺ يكون قد خسر موقعة، وخسارة موقعة في تاريخ أمة لن يكون شيئًا، ولن يؤثر كثيرًا لأن من غير المعقول أن تؤسس دولة، وتبنى حضارة، وتسحق دول، وتبنى بلاد، ويتم ذلك كله دون خسارة. على أن هذه الخسارة التي تحملها المسلمون في أحد كانت بمثابة النار التي يذهب بها خبث الحديد، فهي محرقة ولكنها نافعة، لقد انتهت معركة أحد ولكن لتبدأ معركة جديدة، ففي نفس كل مؤمن صوت يصيح: هذا جزء من يخالف أمر الله وأمر رسوله، وهكذا جردت هذه المعركة من جموع المسلمين رجالًا يختلفون عن الرجال الذين خاض بهم رسول الله ﷺ معركة أحد، إنهم أكثر منهم تصميمًا على طاعة الله وطاعة رسوله، وأكثر عزمًا، وأراد النبي ﷺ أن يخوض بهؤلاء الرجال الجدد معركة جديدة هي «حراء الأسد» فخسارة معركة لبناء قلوب وتصحيح مسيرة شعب يعتبر أمرًا مقبولًا إلى حد بعيد أما إن توجهوا إلى المدينة فإن ذلك يعنى أن في نيتهم القضاء على النبي ﷺ ودعوته ودولته، إن ذلك يعنى أنهم أدركوا الأبعاد السياسية للمعركة إنهم إن فعلوا ذلك فقد أدركوا أن الأمر لن ينتهى بقتل عشرات من الرجال أو تقهقر جيش بكامله، بل لابد من تحطيم الدولة التي تجهز هؤلاء الرجال وتدفعهم إلى المعركة، وإذا ما تطور فهم المشركين للقتال بهذا الشكل فإن الأمر سيكون خطيرًا ولن يستسلم له النبي ﷺ وإذا ما صمم عليه المشركون فإن الموت خير للمسلمين من الحياة، إذ ما قيمة العيش في ظل حكم كافر لا يعترف لهم بدينهم، ولا يكفل لهم حق ممارسة شعائهم، ولذلك أقسم رسول الله ﷺ ليناجزهم إن أرادوا المدينة، وإنه لن يلقى السلاح حتى يحقق النصر، أو ينل الشهادة<sup>(١)</sup>.

(١) قراءة سياسية للسيرة النبوية ٥٦ بتصرف.

ومما سبق تتجلى لنا سياسة النبي ﷺ في مراقبة تحركات أعدائه ومعرفة نواياهم. وفي تقديره للأمور تقديرًا صحيحًا درس في التخطيط المحكم والتفكير الصحيح لكل قادة المسلمين

## ٢- عبقرية التخطيط:

كان النبي ﷺ يخطط للمعركة تخطيطًا صحيحًا قبل أن يدخلها، فينتخب الموقع المناسب للمعركة ويرغم الأعداء على القتال فيه، وينظم الخطط للقتال حسب ما تقتضيه طبيعة كل معركة.

وكان يختار أنسب الأزمان لبداية المعركة، وينتخب الأسلوب الذي يقاتل به ويحقق به النصر من أقصر الطرق.

وفي معركة بدر حسب النبي ﷺ حساب كل شيء ولذلك كان يسير بخطوات ثابتة نحو تحقيق النصر، فكان ﷺ يخبر أصحابه متى يهجمون على أعدائهم ويصوبون إليهم سهامهم، ومتى ينتقلون من القتال بهذا الأسلوب إلى أسلوب آخر أشد وقعًا وأكثر إيلا من سابقه في صفحة أخرى من صفحات القتال.

يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثني عبدالله بن محمد الجعفي حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا عبدالرحمن بن الغسيل عن حمزة بن أبي أسيد والزبير بن المنذر بن أبي أسيد عن أبي أسيد<sup>(١)</sup>، قال: «قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر: إذا أكثبوكم فارموهم، واستبقوا نبلكم»<sup>(٢)</sup>.

يقول الإمام ابن حجر في معنى قوله ﷺ «إذا أكثبوكم» أي: إذا قربوا منكم والمعنى إذا قربوا منكم فأمكنوكم من أنفسهم فارموهم ومعنى قوله: «واستبقوا نبلكم» فعل أمر بالاستبقاء أي طلب الإبقاء.

(١) هو الصحابي الجليل: مالك بن ربيعة بن البدن بن عامر بن عوف الخزرجي الأنصاري الساعدي شهد بدرا وأحدا وما بعدها وكان معه راية بنى ساعدة يوم الفتح ومات سنة ستين [الإصابة ٥/٧٢٣].

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب - بدون ترجمة وهو ما يتعلق ببدر أيضًا ٧/٣٧٦ ح ٣٩٨٤. وأبو داود في كتاب الجهاد ١١٧ باب في الصفوف ٧/٢٦١ ح ٢٦٦٠ والإمام أحمد ٣/٤٩٨ جميعهم عن أبي أسيد رضي الله عنه.

قال الداودي: معنى قوله «ارموهم» أى بالحجارة لأنها لا تكاد تخطئ إذا رمى بها في الجماعة قال: ومعنى «استبقوا نبلكم» أى إلى أن تحصل المصادمة كذا قال، وقال غيره: المعنى ارموهم ببعض نبلكم لا بجمعها

يقول ابن حجر والذي يظهر لى أن معنى قوله «واستبقوا نبلكم» لا يتعلق بقوله «ارموهم» وإنما هو كالبيان للمراد بالأمر بتأخير الرمي حتى يقربوا منهم، أى أنهم إذا كانوا بعيداً لا تصيبهم السهام غالباً فالمعنى: استبقوا نبلكم في الحالة التي إذا رميتم بها لا تصيب غالباً وإذا صاروا إلى الحالة التي يمكن فيها الإصابة غالباً فارموا<sup>(١)</sup> أهـ.

ومما سبق تبين لنا صورة رائعة من التخطيط العملي للنبي ﷺ في غزوة بدر حينما أمر أصحابه أن يصدوا هجمات المشركين وهم مرابطون في مواقعهم، ولقد بدأ النبي ﷺ المعركة برمي النبال من جانبه ولم يمهل أعداءه حتى يهاجموه وهذا الأسلوب أسهم كثيراً في تحقيق النصر، لأنه فرق جموع المشركين وأذهلهم وأفقدهم صوابهم، وبعد أن التحم الجيشان أمر النبي ﷺ أصحابه بإيقاف الرمي حيث إنه لا ينفع رمي النبال عند الالتحام.

وفي غزوة أحد، كان عدد المشركين أضعاف عدد المسلمين، ولذلك خطط النبي ﷺ للمعركة تخطيطاً محكماً وعوض الفارق بين القوتين في العدد والعدد باختيار جبل أحد حيث جعله خلف المسلمين ووضع عليه خمسين رامياً جعلهم خلف جيش المسلمين يرمون فرسان المشركين بالنبال ويمنعونهم من أى حركة التفاف على المقاتلين المسلمين.

يقول الإمام البخارى رحمه الله حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: «لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمر عليهم عبدالله وقال: لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تعينونا، فلما لقيناهم هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبدالله: عهد إلى النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب

(١) فتح الباري ٣٧٧/٧.

سبعون قتيلًا»<sup>(١)</sup>.

يقول ابن حجر في شرحه للحديث: قوله «وأمر عليهم» (عبدالله) هو عبدالله بن جبير، وعند ابن إسحاق أنه ﷺ قال لهم «انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا» قوله: «لا تبرحوا» في رواية زهير «حتى أرسل لكم» وقوله «وإن رأيتموهم ظهروا علينا» في رواية زهير «وإن رأيتمونا تحطفنا الطير» وفي حديث ابن عباس عند أحمد والطبراني والحاكم أن النبي ﷺ أقامهم في موضع ثم قال لهم «احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تتركونا».

وقوله «حتى رأيت النساء يشتددن» أى يسرعن في المشى يقال اشتد إذا أسرع وقوله «رفعن عن سوقهن» أى ليعينهن ذلك على سرعة الهرب<sup>(٢)</sup>.

وعندما عمل المسلمون بتعليمات النبي ﷺ رجحت كفتهم في بداية الأمر وظهرت بوادر النصر، وكادت المعركة تنتهي لصالح المسلمين حينما كانوا يسيطرون على الجبل، فلما فقدوا السيطرة عليه رجحت كفة الأعداء وقتلوا وجرحوا من جيش المسلمين أعدادًا لم يكن يتوقعها أحد، وما كان للمسلمين أن ينتصروا وهم يخالفون أمر نبيهم ﷺ.

وإذا تأملت حال رسول الله ﷺ، وهو ينظم صفوف أصحابه ويرتب صفوفهم ويضع الحماية اللازمة في مؤخرة المسلمين، ويأمر الرماة أن لا يغادروا أماكنهم مهما وجدوا من أمر إخوانهم المقاتلين حتى يتلقوا الأوامر منه ﷺ، فإذا تأملت ذلك اتضحت حقيقة بارزة ولاحت لك من ورائها ظاهرة هامة أخرى.

أما الحقيقة البارزة فهي البراعة العسكرية التي كانت تتصف بها قيادته ﷺ في الحروب، فقد كان في مقدمة المخططين لفنون القتال وطرائقه، ولا ريب أن الله تعالى قد منحه قيادة نادرة في هذا المجال.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ١٧ باب «عزوة أحد» ٧/٤٣١ ح ٤٠٤٣ وأبو داود في كتاب الجهاد ١٦ باب في الكمناء ٧/٢٦٠ ح ٢٦٥٩. والبيهقي في دلائل النبوة باب كيف كان الخروج إلى أحد ٣/٢٢٩، ٢٣٠ رقم

٢٦٦٢ طبعة دار الريان جميعهم عن البراء ؓ.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٧/٤٣٢.

ولكنى أقول: إن هذه العبقرية والبراعة إنما يأتى كل منهما من وراء نبوته ورسالته السماوية، فمركز النبوة والرسالة هو الذى اقتضاه ﷺ أن يكون قائداً بارعاً فى فنون الحرب وغيرها، كما اقتضاه أن يكون معصوماً بعيداً عن كل انحراف وخلل، وأما الظاهرة التى تلوح للمتأمل من خلال توصياته الدقيقة لأصحابه عامة، وللرماة خاصة فهى ظاهرة ذات علاقة وثيقة بما قد تم بعد ذلك من خروج بعض أولئك الرماة على أوامره ﷺ، فكأن النبي ﷺ قد استشف بفراصة النبوة أو بوحي من الله تعالى هذا الذى قد حدث فيما بعد، فراح يؤكد التوصيات والأوامر، وكأنه فى ذلك يجرى مع أصحابه مناورة حية مع عدو لهم هو النفس وأهواؤها وما تنطوى عليه من طمع فى المال والغنائم، والمناورة مهما كانت نتيجتها تفيد فائدة عظيمة، وربما كانت النتيجة السلبية أدعى للاستفادة من النتيجة الإيجابية<sup>(١)</sup>.

### ٣- الشجاعة الشخصية:

كانت شجاعة النبي ﷺ بارزة للعيان. عرف ذلك من خلال المعارك التى خاضها. ولا شك أن قراره بدخول معركة بدر وهو يعرف أن قوة أعدائه ثلاثة أضعاف قوته، يدل على شجاعة شخصية بارزة للنبي ﷺ لا سيما أن بدرًا تعتبر أول معركة حاسمة خاضها المسلمون، وكان ﷺ يباشر القتال فى بدر بنفسه، ويتقدم الصفوف وإذا اشتد الخطب، واحمرت الحديق، وحمى الوطيس، وعظم الخطب اتقى الصحابة بالنبي ﷺ فما يكون أحد منهم أقرب إلى العدو منه. ولقد حضر المواقف المشهورة والغزوات الكثيرة، وفر أشجع الأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح، راسخ لا يفر، مقبل لا يدبر، وما من شجاع على وجه الأرض إلا وقد أحصيت له فرة، وعرفت له زلة، وبدرت منه رعدة سواه ﷺ.

ولقد ثبت النبي ﷺ تجاه عشرة آلاف من قوات الأحزاب يوم غزوة (الخنديق) وقوات المشركين تحاصر المسلمين خارج المدينة، فى الوقت الذى نكثت فيه اليهود عهدها وأرادت الفتك بالمسلمين داخل المدينة.

(١) فقه السيرة للبوطى ص ١٧٩ بتصرف.

وفي غزوة حنين أخذ النبي ﷺ يجابه المشركين بنفسه ويصد سهامهم بعد أن ولت جمهرة الجيش عنه، ولولا شجاعته في هذا الموقف الذي يتصدع منه قلوب الشجعان للحق بالمسلمين أكبر اندحار.

يقول الإمام البخاري رحمه الله حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمع البراء - وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكبنا على الغنائم، فاستقبلنا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بزمامها<sup>(١)</sup> وهو يقول: «أنا النبي لا كذب» قال إسرائيل وزهير «نزل النبي ﷺ عن بغلته»<sup>(٢)</sup>.

ومما يدل على شجاعة النبي ﷺ التي لا تبارى. أن أهل المدينة فزعوا ذات ليلة، فانطلق الناس ناحية الصوت، وبينما لم يصل أحد منهم إلى مصدر هذا الفزع، إذ بالنبي ﷺ يتلقاهم راجعاً على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه بعد أن أمن مصدر الخوف يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا عمرو بن عون حدثنا حماد هو ابن زيد عن ثابت عن أنس قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا»<sup>(٣)</sup> وهو على فرس لأبي طلحة عري<sup>(٤)</sup>، ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال:

(١) زمام الناقة: هو حبل يوضع في أنفها لتقاد منه [النهاية (زمم) ٢/ ٣١٤ بتصرف].

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٥٤ باب قول الله تعالى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ٨/ ٤٠ ح ٤٣١٧. ومسلم في كتاب الجهاد ٢٨ باب في غزوة حنين ٦/ ٣٥٦، ٣٥٧ ح ١٧٧٦. والترمذي في كتاب الجهاد ١٥ باب ما جاء في الثبات عند القتال وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح ٥/ ٢٧٣، ٢٧٤ ح ١٦٨٧ والإمام أحمد ١/ ٢٦٤، ٢٨٠ ح ٤.

والبيهقي في السنن كتاب السير ١٤٤ باب الترجل عند شدة البأس ٩/ ١٥٥ ح ١٨٤٧٧ وابن الجارود في المتقى باب ما جاء في الصف للقتال والترحل ح ١٠٦٦ ص ٢٦٧ جميعهم عن البراء رضي الله عنه.

(٣) لم تراعوا: هي كلمة تقال عند تسكين الروح تأنيساً، وإظهاراً للرفق بالمخاطب [فتح الباري ١٠/ ٥٥٠].

(٤) عري: أي لا سرج عليه ولا غيره [النهاية (عرا) ٣/ ٢٢٥].



لقد وجدته بحرًا، أو إنه لبحر»<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - التحكم في النفس في حالتى النصر والإخفاق:

كانت نفسية النبي ﷺ لا تتبدل في حالتى النصر والإخفاق، وكان يسيطر على أعصابه ويتحكم في نفسه بدرجة كبيرة.

ولا شك أن القائد الذى لا تتمايل به نشوة النصر عندما يحقق ما يريد، ويكبح جماح غضبه عند الإخفاق يستطيع أن يسير برعيته في طرق آمن ويتخذ قراره بعد ذلك في جو هادئ بعيدًا عن الإثارة، لا يخالجه شعور بئأس أو ينتابه إحساس بإحباط أو قنوط أو يخالطه أدنى غرور فيتخذ قرارا سليما فيه صلاح العباد والبلاد.

ولقد رأيناه ﷺ كيف سيطر على أعصابه وتحكم في نفسه فلم تظهر عليه علامات الحزن والانكسار يوم أن أخفق الجيش في غزوة أحد، مع أن الأمر لم يكن سهلاً. وأخذ يعمل على رفع الروح المعنوية عند أصحابه في هذا الموقف العصيب، وذلك حينما أمر أصحابه أن يجيئوا أبا سفيان ويردوا سهام كيده ومظاهر فخره وشماته عندما أخذ يحطم معنويات المسلمين. يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: ((لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمر عليهم عبدالله وقال: لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تعينونا، فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبدالله: عهد إلى النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلاً، وأشرف أبو سفيان

(١) أخرجه البخارى في كتاب الأدب ٣٩ باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ١٠/٥٥١ ح ٦٠٣٣. ومسلم في كتاب الفضائل ١١ باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب ٨/٧٤ ح ٢٣٠٧. وأبو داود في كتاب الأدب ٨٨ باب فيما روى من الرخصة ١٣/٢٧٠ ح ٤٩٨٠. والترمذى في كتاب الجهاد ١٥ باب ما جاء في الثبات عند القتال ٥/٢٧٤ ح ١٦٨٩ وقال أبو عيسى هذا حديث صحيح. وابن ماجه في كتاب الجهاد ٩ باب الخروج في النفير ٢/٤٩٩ ح ٢٧٧٢ والإمام أحمد في المسند (٣/١٢٩، ١٤٧، ٢٦١)، والبيهقى في السنن الكبرى كتاب السير ١٦٢ باب الشجاعة والجن ٩/١٧٠ ح ١٨٥٦٠ جميعهم عن أنس رضي الله عنه.

فقال أفي القوم محمد؟ فقال لا تجيئوه فقال أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال لا تجيئوه فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: لا تجيئوه فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر فقال: كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: أعل هبل فقال النبي ﷺ: أجيئوه، قالوا ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: أجيئوه، قالوا: ما نقول؟ قال قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم، قال أبو سفيان يوم بيوم بدر والحرب سجال وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤنى»<sup>(١)</sup>.

كما أن نفسية النبي ﷺ لم تتبدل حالة النصر فلم يتكبر أو يتعال ولكنه ضبط نفسه في تلك الحالة: ومما يدل على ذلك دخوله مكة متواضعاً يوم الفتح ورحمته بأهلها وتواضعه لهم بعد دخولها مع أنه ﷺ كان في موقف يدعو إلى الفخر والمباهاة فها هي مكة أضحت خالية من الأصنام، وأذان التوحيد يرن في أرجائها، وأصبح المسلمون الذين عذبوا وشردوا وأخرجوا من ديارهم هم أصحاب الأمر والنهي، وأصبح السادة الحاكمون الجبارون يرجون العفو ويلتمسون المسامحة ومع كل ذلك «دخل النبي ﷺ مكة خاشعاً متواضعاً دخول الأنبياء الرحماء لا دخول الجبارين والمفترين، يقول الإمام الحاكم أخبرنا دعلج بن أحمد السجزي ثنا أحمد بن علي ثنا عبد الله بن أبي بكر المقدمي ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس: أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح، وذقنه على رحله<sup>(٢)</sup>. متخشعاً»<sup>(٣)</sup>.

خفف رسول الله ﷺ رأسه الشريفة غداة النصر العظيم، والفتح الممين، تواضعاً لله رب العالمين، وامتناناً وشكراً لما أتم عليه من نعمة وعزة وظهوراً»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ١٧ باب غزوة أحد ٧/٤٣١ ح ٤٠٤٣ عن البراء وقد سبق تخريجه.

(٢) الرحل: هو ما يوضع على ظهر البعير حتى يتمكن الراكب من الجلوس عليه مثل سرج الفرس، وإكاف الحمار [ينظر النهاية «رحل» ٢/٢٠٩].

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک كتاب الرقاق ٤/٣١٧ وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقال الذهبي في التلخيص على شرط مسلم.

(٤) هدى الكتاب والسنة في الفتوحات الكبرى في الإسلام للأستاذ الدكتور/ عبد الرحمن الرفاعي ص ٣٠٦.

وهكذا أحكم النبي ﷺ جماح النفس التي طالما تزهو وتتعاظم حالة النصر، ودخل مكة وهو خاشع، فلم يتعال على أهلها الذين أزلوه وأخرجوه منكسراً هو ومن معه.

##### ٥ - سبق النظر:

كان النبي ﷺ يحسب حساب كل شيء قبل أن يقدم عليه، ويفكر في كل الاحتمالات القريبة والبعيدة في كل أمر من أمور الحياة وكان ﷺ يتميز بسبق النظر في الأعمال العسكرية، ويرتب أموره ترتيباً صحيحاً، وكان ذلك واضحاً مشاهداً حينما قبل النبي ﷺ شروط صلح الحديبية، لأنه رأى بنظره الثاقب أن في قبولها نصر للمسلمين، وقد كان هذا الأمر فتحاً على المسلمين على نحو ما ذكرت في مكاسب صلح الحديبية وثمارها.

##### ٦ - الفراسة ومعرفة الوجهات وأثرها في حسن تقدير المواقف:

كان النبي ﷺ يعرف بفراسته الصادقة ميول أعدائه واتجاهاتهم وما تنطوى عليه نفوسهم، ويعاملهم وفق معرفته بهم، فكان يستميل قلوب المؤلفة قلوبهم بالمال بعد غزوة حنين لأنه علم أن علاج هؤلاء لا يكون إلا بالأموال قال صفوان بن أمية: «ما زال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم (حنين) وهو أبغض الخلق إلي، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه...»<sup>(١)</sup>.

وكان النبي ﷺ يعرف ما تنطوى عليه نفوس أعدائه ويعرف ما يكرهون وما يحبون، ولذلك قلد النبي ﷺ الهدى وأشعره وساقه أمام الحليس بن علقمة لأنه علم أنه من قوم يعظمون الهدى، فاستمال قلب الحليس وجعله يدافع عنه، بسبب هذا الصنيع<sup>(٢)</sup>. وكان النبي ﷺ يعرف إمكانات أصحابه ويكلف كل واحد منهم بما يتفق مع استطاعته، فكان ينجز مهمته بكل كفاية وإتقان وإحكام.

##### ٧ - الثقة المتبادلة بين القائد وجنوده:

كانت الثقة المتبادلة بين النبي ﷺ وأصحابه سبباً مهماً من أسباب النصر في

(١) ينظر إلى عطايه ﷺ في السيرة النبوية لابن هشام. موضوع (قسم غنائم حنين) ٤/ ١٢٢.

(٢) ينظر السيرة النبوية لابن هشام موضوع «قريش تبعث الحليس بن علقمة» ٣/ ٢٨٦.

الحروب، ولولا ثقته ﷺ في أصحابه؟ ما أقبل على غزوة بدر مع تفوق المشركين الظاهر في العدد والعدة ولولا ثقته الكبيرة في أصحابه ما قبل شروط صلح الحديبية التي كانت تنطوي على الإجحاف بحقوق المسلمين، ولولا ثقته بهم لرفضوا هذا الصلح لأنهم كانوا يرون أنهم ظلموا ظلمًا شديدًا من خلال وضع قريش هذه الشروط المتعنتة<sup>(١)</sup>.

## ٨- المحبة المتبادلة:

كانت هناك محبة متبادلة بين النبي ﷺ وأصحابه فكان يحبهم ويحبونه، ولقد أحب الصحابة رسول الله ﷺ لأن محبته من الدين وهي شرط من شروط الإيمان، ولو لم تكن محبته واجبة عليهم لأحبوه أيضًا، لأن النبي ﷺ يستحق كل حب واحترام وتعظيم.

«فقد كان ﷺ رؤوفًا رحيمًا بهم، يتعهد حاضرهم، ويسأل عمن غاب منهم، ويسلم عليهم، ويشمت عاطسهم، ويواسي فقيرهم، ويعين ضعيفهم، ويشاركهم في السراء والضراء، ويعود مريضهم، ويشيع ميتهم، ويكسو عاريهم، ويشبع جائعهم، ويرعى أراملهم، وأيتامهم، ويجالس فقرائهم وعبيدهم، ويوقر كبيرهم، ويرحم صغيرهم، ويحنك أطفالهم، ويبارك عليهم، ويداعب صبيانهم ليدخل السرور عليهم. ما رؤى ما ذا رجليه بينهم، ولا عابسًا في وجه أحد منهم، ولا استأثر عليهم بشيء لنفسه ولا لأهله، فكان لا يميز أهله بشيء. فهل رأيت في باب الحرص على الوقوف على أحوال الأمة، ورعاية مصالحها وتحصيل ما ينفعها، وإزالة شكواها، وقطع باب السعاية والوشاية بالرعية أبلغ من هذا؟ فلا عجب وهذا بعض ما كان يعامل به أصحابه أن أحبوه أكثر من حبهم أنفسهم، وأن فدوه بآبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأموالهم، حتى شهد بذلك الأصدقاء والأعداء<sup>(٢)</sup>.

ولقد أظهرت المواقف مدى حب الصحابة لنبيهم ﷺ وكيف أنهم كانوا

(١) ينظر شروط صلح الحديبية في السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٢٩١، ٢٩٢.

(٢) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد بن أحمد أبو شعبة ٢/ ٦٣٩ بتصرف.

يفدونهم بأرواحهم، ففي غزوة أحد، ضحى الصحابة بأرواحهم فداء لرسول الله ﷺ يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا عبد العزيز عن أنس رضي الله عنه قال «لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوب<sup>(١)</sup>، عليه بجحفة<sup>(٢)</sup> له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديداً النزع<sup>(٣)</sup>، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمر معه بجعبة<sup>(٤)</sup>، من النبل فيقول: انثرها لأبى طلحة، قال ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: بأبى أنت وأمى لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدماً<sup>(٥)</sup>، سوقهما تنقزان<sup>(٦)</sup>، القرب على متونهما تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملأناهما ثم تميئان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يدي طلحة إما مرتين وإما ثلاثاً<sup>(٧)</sup>».

وقال ابن إسحاق حدثني الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد عن محمود ابن عمرو بن يزيد بن السكن قال رسول الله ﷺ حين غشيه القوم: «(من رجل يشرى لنا نفسه؟)» فقام يزيد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار - وبعض الناس يقول: إنما هو عمارة بن زيد بن السكن - فقاتلوا دون رسول الله ﷺ، رجلاً ثم رجلاً، يقتلون دونه. حتى كان آخرهم يزيد أو عمارة فقاتل حتى أثبتته الجراحة، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه فقال رسول الله ﷺ: «(أدنوه مني)» فأدنوه منه، فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ<sup>(٨)</sup>.

(١) أى مترس عليه يقيه بها [النهاية «جوب» ١/ ٣١١].

(٢) أى بقوس [فتح الباري ٧/ ٤٤٦].

(٣) أى قوياً شديداً يجذب قوسه ويثب على فرسه بسرعة وقوة [النهاية «نزع» ٥/ ٤١ بتصرف].

(٤) الجعبة: الكنانة التى تجعل فيها السهام [النهاية ١/ ٢٧٤].

(٥) جمع خدمة وهى الخلاخيل وقيل الخدمة أصل الساق [النهاية «خدم» ٢/ ١٥].

(٦) أى يحملان القرب ويقفزان بها وثباً [النهاية «نقز» ٥/ ١٠٦].

(٧) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ١٨ باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [آل عمران: ٢٢٢] - فتح الباري ٧/ ٤٤٦ ح ٤٠٦٤ عن أنس رضي الله عنه.

(٨) أخرجه ابن إسحاق فى السيرة موضوع «غزوة أحد» (السيرة النبوية لابن هشام) ٣/ ٤٣. وأخرجه البيهقى فى

الدلائل باب تحريض النبي ﷺ أصحابه على القتال يوم أحد ٣/ ٢٣٤ والحديث له شاهد فى صحيح مسلم

كتاب الجهاد السير ٣٧ باب غزوة أحد ٦/ ٣٨٧ ح ١٧٨٩ ورواه بلفظ «(من يردهم عنا وله الجنة)» عن أنس رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: وترس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة<sup>(١)</sup>، بنفسه، يقع النبل في ظهره، وهو منحرف عليه حتى كثر فيه النبل<sup>(٢)</sup>.

قال ابن إسحاق وحدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخو بني عدى بن النجار قال: أنهى أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ [قوموا] فموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قتل، وبه سمى أنس بن مالك<sup>(٣)</sup> ولقد أظهرت المواقف أيضًا كيف كان حب النبي ﷺ لأصحابه الذين هم أفراد جيشه، ولقد ذرفت عيناه على شهداء مؤتة حزناً عليهم، يقول ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن أم عيسى الخزاعية، عن أم جعفر بن أبي طالب، عن جدتها أسماء ابنة عميس، قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه دخل على رسول الله ﷺ وقد دبغت أربعين مناً<sup>(٤)</sup>، قال ابن هشام: ويروى أربعين منية وعجنت عجيني، وغسلت بني ودهنتهم ونظفتهم قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «اثني بني جعفر» قالت فأتيتهم بهم فشممهم وذرفت عيناه، فقلت يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم أصيبوا هذا اليوم» قالت: فقممت أصيح، واجتمعت إلي النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: «لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم»<sup>(٥)</sup>.

(١) هو الصحابي الجليل: أبو دجانة الأنصاري اسمه سماك بن خرشة شهد بدرا واستشهد باليمامة [الإصابة ٧/ ١١٩].

(٢) ذكره ابن إسحاق في السيرة. موضوع: غزوة أحد (السيرة النبوية لابن هشام ٤٤/٣ وأخرجه من طريق ابن إسحاق البيهقي في دلائل النبوة باب تحريض النبي ﷺ أصحابه على القتال يوم أحد ٢٣٤/٣).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة. موضوع: غزوة أحد (السيرة النبوية لابن هشام ٤٦/٣).

(٤) أواني من الجلد المدبوغ يوضع فيها الأديم أو تكون معياراً للكيل أو الوزن [النهاية «منأ» ٤/ ٣٦٣ بتصرف والمعجم الوجيز «من» ص ٥٩٢ بتصرف].

(٥) أخرجه ابن إسحاق في السيرة. موضوع «حزن رسول الله ﷺ على جعفر وأصحابه» (السيرة النبوية لابن هشام ١٦/٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب الجنائز ٣٠ باب صنعة الطعام لأهل الميت. وليس فيه جملة «اثني بني جعفر» ٣١١/٨ ح ٣١٣، والترمذي في كتاب الجنائز ٢١ باب ما جاء في الطعام يصنع لأهل الميت وليس فيه =

## ٩ - قوة الشخصية:

تمتع النبي ﷺ بشخصية قوية جعلته محل هيبة لأصحابه وأعدائه ولقد هابه الناس، لأنه كان يعمل على إسعادهم وهدايتهم بكل جدية واهتمام، وكان متواضعاً رؤفاً، رحيماً، تهمة مصالح الناس أكثر من مصالحه الشخصية.

ومن المواقف التي تظهر قوة شخصية النبي ﷺ عند أصحابه وأعدائه ما شهد به عروة بن مسعود الثقفي الذي جاء يفاوض النبي ﷺ في الحديبية ورجع ينقل ذلك لقريش وفي ذلك يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى حدثني عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر قال أخبرني الزهري قال أخبرني عروة بن الزبير عن المسور ابن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منها حديث صاحبه. فذكرنا حديثاً طويلاً قالاه فيه: . ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه قال فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله ما رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيماً له وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها<sup>(١)</sup>.

## ١٠ - اللياقة البدنية:

النبي ﷺ كان صاحب بنية قوى، وقابلية بدنية قوية، فكان يخطط للمعركة،

= جملة «اتينى بنى جعفر» ٣٨/٤ ح ٩٩٨، وابن ماجة في كتاب الجنائز ٥٩ باب ما جاء في الطعام يبعث إلى أهل الميت وليس فيه جملة «اتينى بنى جعفر» ٦٣/٢ ح ١٦١، والبيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في غزوة مؤتة وما ظهر في تأمير النبي ﷺ أمراءها ٣٧٠/٤ من طريق ابن إسحاق. جميعهم عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه.  
(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط ١٥ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٥/٤٠٣ ح ٢٧٣١، ٢٧٣٢ عن المسور ومروان.

ويشارك في التنفيذ، ويقوم برحلات استطلاعية لرصد أخبار العدو، ويسافر مسافات طويلة أثناء الغزوات ويشارك أصحابه في الحراسة، وكل ذلك يتطلب قوة جسمانية عالية ومن المواقف التي تظهر قوة بنيان النبي ﷺ . مشاركته لأصحابه في حفر الخندق وكيف كان ينقل التراب معهم، وكيف كان يلجأ إليه أصحابه عند حفر الخندق كلما استعصت عليهم صخرة، فسرعان ما يحطمها، تحت وطأة مطرقة التي يهوى بها ساعده القوى. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا خلاد بن يحيى حدثنا عبدالواحد بن أيمن عن أبيه قال «أتيت جابرًا رضي الله عنه فقال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كيدة<sup>(١)</sup> شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كيدة عرضت في الخندق فقال أنا نازل، ثم قام وبطنه معسوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا ندوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكيدة، فعاد كثيرًا أهيل، أو أهيم...»<sup>(٢)</sup>.

### ١١ - الماضي الناصع المجيد:

إذا كان القائد صاحب ماضى ناصع، لم يعكره شيء يعاب به قام به في صباه، فإن ماضيه يكون عونًا له على إصدار أوامره بكل ثقة وعزة، ويجعل أفراد جيشه يطيعونه وينظرون إليه نظرة فخر وتقدير واعتزاز، ويتخذونه قدوة طيبة في حياتهم، ولا شك أن النبي ﷺ كان يتمتع بهذا الأمر فلم تصدر منه طول حياته هنة هينة تخذيه أو تجعله يظأطى رأسه كلما تذكرها ندمًا وخذيًا منها فلم يعرف عنه أنه شرب خمرًا قط، أو سجد لصنم، أو اقترف فاحشة أو انتهك عرضًا، كما أنه لم ينغمس فيما كان ينغمس فيه المجتمع الذي كان يعيش فيه حينئذ من اللهو، واللعب، والفجور، والميسر، ومصاحبة الفجار والأشرار، ومعاشرة القيان، والجرى وراء الملذات، على ما كان يتمتع به من فتوه وشباب، وشرف ونسب، وعزة قبيلة، وكمال وجمال وغيرها من وسائل الإغراء التي قادت غيره إلى الوقوع في الحرام. ولكنه ﷺ تمتع بماض ناصع مجيد. مشرف شهد به الأعداء قبل الأصحاب، فقد كانوا يلقبونه بالصادق الأمين لأنه

(١) كيدة: هي القطعة الشديدة الصلبة الصماء من الأرض [فتح الباري ٧/ ٤٨٩].

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٢٩ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب ٧/ ٤٨٨، ٤٨٩ ح ٤١٠١. عن جابر ابن عبد الله.



نشأ سليم العقيدة، صادق الإيمان، عميق التفكير، قوى العزيمة وكان أشرف الناس نسباً، لأن الله اصطفى من العرب كنانة واصطفى من كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفى من بنى هاشم بنى عبدالمطلب، فهو خيار من خيار من خيار، وهو أفضل قريش نسباً وأشرف العرب حسباً ﷺ يقول الإمام مسلم حدثنا محمد بن مهران الرازي ومحمد بن عبد الرحمن بن سهم جميعاً عن الوليد قال ابن مهران: حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي عن أبي عمار، شداد، أنه سمع وائلة بن الأسقع يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل. واصطفى قريشاً من كنانة. واصطفى من قريش بنى هاشم. واصطفاني من بنى هاشم»<sup>(١)</sup>.

## ١٢ - معرفة وتطبيق مبادئ الحرب:

عرف النبي ﷺ مبادئ الحرب بفطرته السليمة، بعد أن علمه ربه فأحسن تعليمه، وكان ﷺ يطبق مبادئ الحرب حسب ما يتفق وظروف كل معركة، ويرسى قواعد هذه المبادئ، من شورى، واستطلاع، واستخبارات، وتنظيم، وتسليح، وتقدير للأمور تقديرًا صحيحًا، فأعانه تطبيق هذه المبادئ بعد تأييد الله له على النصر في حروبه التي خاضها ﷺ ضد أعداء الدين الإسلامي.

فهذه بعض ملامح العظمة في حياة النبي ﷺ، وهذا قليل من كثير من العوامل التي أهلت النبي ﷺ إلى اجتياز كل معاركه بنجاح وإلى تحقيق النصر المؤزر<sup>(٢)</sup>.



(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ١ باب فضل نسب النبي ﷺ ٨ / ٤١ ح ٢٢٧٦ والترمذي في كتاب المناقب

٥٠ باب ما جاء في فضل النبي ﷺ ١٠ / ٦٠ ح ٣٦١٤ والإمام أحمد في المسند ٤ / ١٠٧ والبيهقي في السنن

الكبرى كتاب النكاح ١١٦ باب اعتبار النسب في الكفاءة ٧ / ١٣٤ ح ١٣٧٦٤ جميعهم عن وائلة بن الأسقع ؓ.

(٢) لزيادة من التفصيل في هذا الجانب ينظر كتاب الرسول القائد ص ٤٣٣ .



## الفصل الثاني

شجاعة جنود النبي ﷺ وإخلاصهم له وجبن أعدائه

ويشتمل على النقطتين الآتيتين:

١ - جنود أوفياء متميزون.

٢ - جبن الأعداء.

## الفصل الثاني

### شجاعة جنود النبي ﷺ وإخلاصهم وجبن أعدائه

#### ١ - جنود أوفياء متميزون:

جنود النبي ﷺ الذين شاركوا معه في غزواته، وخاضوا أغمار الموت، هم خير جنود الأرض على مر التاريخ، لأنهم كانوا يعلمون أن حياتهم رهونة بحياة هذا الدين، وأن ظهور دين الإسلام وانتشاره في ربوع الأرض هو مصدر عزهم وكرامتهم فكانوا يقاتلون بعقيدة راسخة، ومعنويات عالية، وضبط متين بجانب التدريب القوي، والتنظيم الصحيح، والتسليح الجيد.

ولذلك وصفهم الله بقوله: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فازره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيماً﴾ [الفتح: ٢٩] وكان جنود النبي ﷺ يطيعونه إلى أبعد الحدود. فها هو المقداد بن عمرو يعرب عما تحمل قلوب المهاجرين من طاعة وصدق وحب للنبي ﷺ عندما استشارهم في دخول أول صراع حقيقى بين قوى الحق والباطل في بدر. فيقول المقداد: «يا رسول الله، امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾» [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير.

ثم أعرب سعد بن معاذ سيد الأنصار عن طاعتهم المطلقة للنبي ﷺ فقال: قد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا، على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى

بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصبر في الحرب، صدق اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله»<sup>(١)</sup>.

ولقد حرص الجنود على اختلاف أعمارهم على المشاركة في صنع النصر المؤزر، وفي صد الأعداء الذين يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم، وكانوا يحرصون على الموت أكثر من حرص أعدائهم على الحياة.. وكان الصبيان يشاركون الكبار، لأن مصلحة المعركة عندهم فوق كل اعتبار. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال «قال عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر إذا التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتان حديثاً السن، فكأنني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي وما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، فقال لي الآخر سرّاً من صاحبه مثله، قال: فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء»<sup>(٢)</sup>.

وكان الواحد من هؤلاء الجنود يترك عروسه ليلة عرسه ويلبى داعي الجهاد، في أحسن ليلة من ليالي حياته ويشاء الله أن يموت شهيداً وهو على جنبه فتغسله الملائكة تكريماً له يقول الإمام الحاكم: فأخبرني أبو الحسين بن يعقوب الحافظ، أن محمد بن إسحاق بن إبراهيم، ثنا سعيد بن يحيى الأموي. حدثني أبي قال: قال ابن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله، عن أبيه عن جده ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عند قتل حنظلة<sup>(٣)</sup> بن أبي عامر بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث حين علاه شداد بن الأسود بالسيف فقتله فقال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم تغسله

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة. موضوع: استشارة الأنصار (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/ ٢١٩ وقد سبق تحريجه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ١٠ باب «بدون ترجمة» ٧/ ٣٧٨ ح ٣٩٨٨.

(٣) هو الصحابي الجليل: حنظلة بن أبي عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن الأوس الأنصاري الأوسى المعروف بغسيل الملائكة [الإصابة ٢/ ١٣٧].

الملائكة، فسألوا صاحبتة فقالت: إنه خرج لما سمع الهاتفة<sup>(١)</sup>، وهو جنب فقال رسول الله ﷺ لذلك غسلته الملائكة<sup>(٢)</sup>.

وكان هؤلاء الجنود يقدمون حياتهم فداء للنبي ﷺ لأنهم علموا أنهم وإن مات كثير منهم فإن هذا الأمر لن يضر الدعوة كثيراً، أما إن مات النبي ﷺ فهو الخسران المبين. ففي غزوة أحد، لما خالف الرماة أمر الرسول ﷺ ونزلوا عن الجبل، وكر المشركون عليهم، وأعملوا فيهم السيوف من الخلف، وتفرق من تفرق لهول الصدمة ومباغتتها، أقبل عباس بن عباد<sup>(٣)</sup>، الخزرجي رضي الله عنه في نفر من الخزرج يرفع صوته قائلاً: يا معشر المسلمين، الله ونيبيكم، هذا الذي أصابكم بمعصية نبيكم، فوعدكم النصر ماصبرتم، ثم نزع مغفره، وخلع درعه وقال لخارجة بن زيد<sup>(٤)</sup>: هل لك فيهما؟ قال: لا أنا أريد الذي تريد. فخالطوا القوم جميعاً، وعباس يقول: ما عذرنا عند ربنا إن أصيب رسول الله ﷺ ومنا عين تطرف؟ فيقول خارجة لا عذر لنا عند ربنا ولا حجة، فقاتل عباس حتى استشهد، أما خارجة فقد أخذت طعنات الرماح تمزق جسده، حتى أنهكته فوقع على الأرض، فمر عليه مالك بن الدخشم<sup>(٥)</sup>، فقال له: أما علمت أن محمداً قد قتل، فقال خارجة: فإن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت، لقد بلغ محمد فقاتل عن دينك، ثم استشهد ﷺ<sup>(٦)</sup>.

- (١) الهاتفة: هي الدعاء والنداء والصياح والمناشدة ومعناها: داعى الجهاد [النهاية ٤٣٤/٥].
- (٢) أخرجه الحاكم في المستدرک كتاب معرفة الصحابة: ذكر مناقب حنظلة بن أبي عامر ٢٠٥/٣ وقال: هذا صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبي في التلخيص، والبيهقي في كتاب الجنائز ٨٢ باب الجنب يستشهد في المعركة ١٥/٤ ح ٦٨١٤ والإمام أبو نعيم في الحلية: ذكر حنظلة بن أبي عامر ٣٥٧/١ جميعهم عن الزبير بن العوام رضي الله عنه. كتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ طبعة دار الفكر.
- (٣) هو الصحابي الجليل: العباس بن عباد الخزرجي الأنصاري شهد العقبة واستشهد بأحد [الإصابة ٦٣٠/٣].
- (٤) هو الصحابي الجليل: خارجة بن زيد بن أبي زهير بن مالك الأنصاري شهد بدرًا واستشهد يوم أحد [الإصابة ٢/٢٢٣].
- (٥) هو الصحابي الجليل: مالك بن الدخشم من بني عوف بن عمرو بن عوف الأنصاري الأوسي شهد بدرًا وهو الذي أسر سهيل بن عمرو [الإصابة ٧٢١/٥].
- (٦) ينظر كتاب إمتاع الأسماع لتقي الدين أحمد بن علي المقرئ ١٤٤/١ طبع على نفقة الشؤون الدينية بدولة قطر الطبعة الثانية.

ومن الأبطال المتميزين الذين أبلوا بلاء حسناً. طلحة بن عبيدالله، فقد قاتل في أحد قتالاً شديداً دفاعاً عن قائده رسول الله ﷺ حين انكشف عنه كثير من الناس، وكر المشركون على رسول الله ﷺ فأحذقوا به من كل ناحية، وصار يذب بالسيف من بين يديه ومن ورائه، وعن شماله، يدور حوله، يترس نفسه دون رسول الله ﷺ وإن السيف لتغشاه، والنبل من كل ناحية، وهو يتلقاها بجسمه، فلما رآه ﷺ يفعل ذلك قال: قد أوجب، أى قد أوجب لنفسه الجنة بقتاله وجهاده ودفاعه عن رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

ولذلك دانت الدنيا وفتحت الممالك أمام هؤلاء الجنود الذين سطوروا تاريخ الإسلام بدمائهم.

## ٢ - جبن الأعداء:

كان أعداء المسلمين ضعفاء النفوس مثبطوا العزيمة رغم كثرة عددهم وعدتهم، وذلك لأنهم لم يقاتلوا تحت لواء الله ﷻ، ولم يصبروا على القتال لأنهم لا غاية لهم من وراء القتال إلا الكبرياء والظلم وتحصيل المكاسب المادية قال تعالى: ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وكان أعداء المسلمين ضعفاء أيضاً لفساد النظام العسكرى عند قيادة القبائل العربية وكان الفرس والروم أسوأ حالاً من العرب لأن قيادتهم كانت وراثية على الأغلب، كما لم يكن هؤلاء الأعداء أهداف معينة يؤمنون بها ويضحون بأموالهم وأرواحهم في سبيلها كما كان يفعل المسلمون. ولكنهم كانوا لا يقبلون على القتال إلا بدافع الارتزاق أو بدافع الخوف من القادة والرؤساء.

ومن أسباب ضعف الأعداء أنهم قد ألم بهم الرعب واستولى عليهم الخوف وكانوا منشقين لا يكادون يجتمعون على أمر قال تعالى: ﴿لَا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ [الحشر: ١٤].

(١) المرجع السابق ١/١٤٢ وينظر كتاب السيرة النبوية لابن كثير ٣/٥٨، تحقيق مصطفى عبد الواحد طبعة مطبعة عيسى الحلبي وشركاه بالقاهرة سنة ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

وذلك بخلاف المسلمين الذين كانوا يجعلون الأمر شورى بينهم ثم يجتمعون على رأى واحد يكون له أبلغ الأثر في تحقيق النصر - ففي غزوة بدر اجتمع رأى المسلمين على القتال، أما المشركون فإنهم لما اطمأنوا على الحوض، حينما تركهم النبي ﷺ يردون الحوض في بدر بعثوا عمير بن وهب الجمحى<sup>(١)</sup>، فقالوا: احرز لنا أصحاب محمد، قال: فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاث مائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن امهلوني حتى أنظر اللقوم كمين أو مدد؟ قال: فضرب في الوادى حتى أبعد، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم، فقال ما وجدت شيئاً، ولكنى رأيت يا معشر قريش، البلى يا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم فلما سمع حكيم بن حزام<sup>(٢)</sup> ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي، قال: قد فعلت أنت عليّ بذلك، إنما هو حليفى فعليّ عقله وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية قال ابن هشام: والحنظلية أم أبى جهل، وهى أسماء بنت مخربة، أحد بنى نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم - فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره، يعنى أبا جهل [بن هشام] ثم قام عتبة [بن ربيعة] خطيباً، فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته،

(١) هو الصحابي الجليل عمير بن وهب بن خلف بن وهب بن حذاقة بن جمح القرشى الجمحى أسلم بعد بدر وأدرك أحدًا فشدها وما بعدها وشهد الفتح [الإصابة ٤/٧٢٦].

(٢) هو الصحابي الجليل: حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى الأسدى أبو خالد المكي، ابن أخي خديجة أم المؤمنين أسلم يوم الفتح وله أربع وسبعون سنة، ثم عاش إلى سنة أربع وخسين أو بعدها [الإصابة ٢/١١٢].



فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل درعاً له من جرابها، فهو يهينها [قال ابن هشام: يهينها] فقلت له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، للذي قال، فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جذور وفيهم ابنه، قد تخوفكم عليه. ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت تأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك. فقام عامر بن الحضري فأنكشف ثم صرخ: واعمره، واعمره، فحميت الحرب، وحقب أمر الناس، واثوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة.

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل «انتفخ والله سحره» قال: سيعلم مصفراً استه من انتفخ سحره، أنا أم هو؟

قال ابن هشام: السحر: الرثة وما حولها مما يعلق بالحلقوم من فوق السره وما كان تحت السرة فهو القصب، ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأسه، فما وجد في الجيش بيضة تسعه من عظم هامته، فلما رأى ذلك اعتجر<sup>(١)</sup> على رأسه ببرد له<sup>(٢)</sup>.

وكان كثير من المشركين يركنون إلى السكون ويخشون الخروج إلى قتال المسلمين في بدر بسبب الخوف الذي خيم عليهم، والرعب الذي ألم بهم قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح: أن أمية بن خلف كان أجمع القعود، وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً، فأتاه عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين

(١) الاعتجار: هو أن يلف العمامة على رأسه ويرد طرفها على وجهه، ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه [النهاية «عجر»]  
[١٨٥/٣].

(٢) السيرة النبوية لابن هشام موضوع «نزول قريش بالعدوة والمسلمين ببدر» ٢/٢٢٧، ٢٢٦.

ظهراني قومه، بمجمرة<sup>(١)</sup>، يحملها فيها نار ومجمر<sup>(٢)</sup>، حتى وضعها بين يديه ثم قال: يا أبا علي: استجمر، فإنما، أنت من النساء، قال: قبحك الله وقبح ما جئت به، قال: ثم تجهز فخرج مع الناس<sup>(٣)</sup>.

وهكذا اتسع الانشقاق في آراء المشركين واستبد بهم الرعب مما حول قوتهم ضعفاً وأمنهم خوفاً.

(١) هي التي يوضع فيها الجمر للبخور [النهاية «جمر» ٢/ ٢٩٣].

(٢) هو الذي يتبخر به [النهاية «جمر» ٢/ ٢٩٣].

(٣) ذكره ابن إسحاق في السيرة. موضوع: غزوة بدر الكبرى (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/ ٢١٤.

### الفصل الثالث الحرب العادلة

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- معنى الحرب العادلة.
- ٢- حروب الإسلام لم تكن مبادأة بالهجوم.
- ٣- بعض أدبيات الحرب العادلة في الإسلام.

### الفصل الثالث

#### الحرب العادلة

##### ١ - معنى الحرب العادلة:

الحرب العادلة: هي حرب توجه ضد شعب ارتكب ظلماً نحو شعب آخر ولم يشأ رفعه. ويشترط فيها أن تكون مطابقة للقواعد الإنسانية، وتكون لغرض تحقيق سلم دائم، ووجوب احترام حياة وممتلكات الأبرياء وحسن معاملة الأسرى والرهائن هذا هو معنى الحرب العادلة كما تنص عليه مصادر قوانين الحرب والحياد من القانون الدولي. وكما هو متفق عليه بين الدول والشعوب

فالحرب العادلة: حرب دفاعية لا عدوانية، تستهدف تحقيق سلام دائم، وأغراضها إنسانية، تحترم حياة الأبرياء وحقوقهم، وتعامل الأسرى والرهائن بالحسنى<sup>(١)</sup>.

وإذا ما قارنا شروط هذه الحرب العادلة، مع شروط الحرب في الإسلام قبل أربعة عشر قرناً وجدنا أن حروب الإسلام كانت أكثر عدلاً مما تنص عليه مصادر القانون الدولي في القرن الحادي والعشرين، فحروب الإسلام لا تثيرها العنصريات ولا حب الأعداء، وليست لأغراض مادية، أو استعمارية، ولكنها تدافع عن حرية الرأي والعقيدة، وتعمل على إيجاد مناخ آمن تنتشر فيه الدعوة الإسلامية في كل أنحاء الأرض وغزوات النبي ﷺ كانت تطبيقاً عملياً لكل شروط الحرب العادلة.

##### ٢ - حروب الإسلام لم تكن مبادأة بالهجوم:

ذاق المسلمون ألوان الظلم والقهر في مكة فهاجر بعضهم إلى الحبشة أولاً ثم هاجر المسلمون كلهم بعد ذلك إلى المدينة تخلصاً من هذا الظلم والعدوان، فارين بعقيدتهم تاركين خلفهم كل ما يملكون من أموال ومتاع، ومع كل هذا الظلم لم يشرع الله ﷻ لهم القتال، وبعد الانتقال إلى المدينة شرع الله القتال دفاعاً عن النفس ورداً

(١) الرسول القائد ص ٤٧٣ بتصرف يسير.

للظلم الذى وقع على المسلمين وضمناً لحرية انتشار الدعوة الإسلامية قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ \* أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ \* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَعٍ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٨ - ٤٠].

فالمسلمون فى بداية العهد كانوا هم المعتدى عليهم مع أنهم لم يكونوا قد اعتدوا على أحد، وكان النبى ﷺ يتحاشى وقوع الحرب، ويتعد عنها ما استطاع ولا يتمنى لقاء العدو أبداً وكان ﷺ يقول فيما أخرجه البخارى بقوله حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق هو الفزارى عن موسى بن عقبة عن سالم بن أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله وكان كاتباً له قال كتب إليه عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه فقرأته أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس خطيباً قال: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»<sup>(١)</sup>.

«والحديث واضح المعنى والدلالة فهو ﷺ ينهى الصحابة، والمسلمين عامة عن تمنى لقاء العدو، وهو يشعر أن جيش الصحابة كان فى غاية عدته وعتاده، فنهاهم النبى ﷺ عن الحرص على المناجزة، فإن النتائج قد تأتى على عكس المقدمات»<sup>(٢)</sup> والمعلوم أن حروب النبى ﷺ كانت حروب دفاع، وحينما اضطره الأعداء إلى الحرب وقعت منه على سبيل الدفاع ولم يبدأ النبى ﷺ القتال إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد أن أيقن أن الأعداء نكثوا عهودهم وأصروا على القتال، وكانوا على أهبة الاستعداد للمناجزة.

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد ١١٢ باب كان النبى ﷺ إذا قاتل لم يقاتل أول النهار ١٤٧/٦٠٠٠ ح وفى كتاب الجهاد ١٥٦ باب لا تمنوا لقاء العدو ١٩٠/٦٠٢٤، ٣٠٢٥ ح عن عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه. ومسلم فى كتاب الجهاد والسير ٦ باب كراهة تمنى لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء ٢٨٨/٦٠ ح ١٧٤١ عن أبى هريرة رضي الله عنه. وأبو داود فى كتاب الجهاد ٩٨ باب كراهية تمنى لقاء العدو ٢٣٧/٧ ح ٢٦٢٨ عن عبد الله بن أبى أوفى. والدارمى فى كتاب السير ٦ باب لا تمنوا لقاء العدو ٧٧/٢ ح ٢٤٤٠ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) كتاب خزائن الأنوار للأستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعى ص ٢٣٣.

ثم انتقلت الحروب في الإسلام بعد ذلك إلى طور القتال لحماية حرية نشر دين الله في الأرض. لأن كل تجارب التاريخ أثبتت أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين، وأن كل مبدأ لابد له من قوة تحميه وتضمن له جواً هادئاً ينتشر فيه، ولم يحتكم النبي ﷺ إلى القتال قط إلا في الأحوال التي أجمعت الأعراف الإنسانية على تحكيم القتال فيها.

وماذا على النبي ﷺ بعد أن أمن شبه الجزيرة العربية أن يخرج إلى بلاد الروم، وبلاد فارس، لينشر دعوته هناك، وكل همهم أن يؤمن الناس بها وأن ينشرها بينهم بسلام.

وماذا عليه ﷺ أن يدافع عن حرية انتشار الدعوة الإسلامية، ويقاوم كل سلطة تصده وتقف في طريقه وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه من السواد الأعظم الذي يقطن هذه البلاد ويعيش تحت وطأة الظلم والاستعباد لأن السلطة لا تدفع إلا بالسلطة، ولا غنى في إخضاعها عن القوة.

وماذا عليه أن يقاومهم بعد أن استنفذ كل السبل لهدايتهم، من دعوة إلى الدخول في الإسلام. ويكون لهم ما له وعليهم ما عليه، فإن أبوا فالجزية فإن امتنعوا فالقتال لأنه مأمور من رب هذا العالم - لا فرق فيه بين من هو عربي أو أعجمي، يقطن داخل الجزيرة أم خارجها - أن يبلغ رسالته إلى هؤلاء كلهم: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ومأمور أن يجاهد كل من كفر ونافق ولم يستجب لداعى الإسلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، و[التحریم: ٩].

ثم ماذا على النبي ﷺ أن يقاوم الكفار، وهو يعلم أنهم أكثر عدداً وعدة، فعدد المشركين كان يصل إلى عشرة أضعاف عدد المسلمين في بعض الغزوات ثم إن الباعث من وراء هذا القتال هو هداية هؤلاء الناس حتى يدين الخلق للإله الحق، فليس هناك غرض مادي يسعى النبي ﷺ لتحقيقه.

فالحروب التي خاضها النبي ﷺ كانت من أجل إحقاق الحق، وهداية الخلق والدفاع عن دين الإسلام، وحرية نشر عقيدته السمحة، ودفع كل من حال دون وصول دين الله الحق إلى كل أمم الأرض. والجدير بالذكر: إن غزوات النبي ﷺ لم تحدث فيها خسائر بشرية تذكر إذا ما قورنت بالحروب الأخرى التي دارت رحاها بدافع الاستعمار والاحتلال والظلم، وبهدف نهب أموال المستضعفين وإذلالهم. وإذا أردنا أن نعقد مقارنة بين غزوات النبي ﷺ وبين الحربين العالميتين وقتلى الحكومات من حيث عدد القتلى نجد بونًا شاسعًا وفرقًا واضحًا بينهما في الدوافع والأهداف أو الخسائر.

فقد وقعت الحربان العالميتان الكبريان في حوالى ثلاثين سنة (١٩١٤م-١٩٤٥م) بين أوروبا بعضها وبعض: ألمانيا وما انضم إليها من حلفاء وإنجلترا ومن كان معها من حلفاء في القارات المختلفة. هذه الحرب لم تكن كحروب العرب قبل الإسلام، ولا كالحرب بين الفرس والروم في أوائل الإسلام، ولا كالحرب بين المسلمين والمشركون في غزوات الرسول ﷺ التي بلغت سبعة وعشرين غزوة، وسرايا أصحابه التي كان عددها ستة وخمسين سرية، فقد كان كل حصيلة هذه الغزوات والسرايا لا يزيد عن أربعمائة شهيد وقتيل من المسلمين وغيرهم.

ولم تكن هذه الحرب كالحروب التي وقعت بين المسلمين والفرس أو الروم في أيام الفتح الإسلامي، ولا كالحروب التي نشبت بين الأوربيين والمسلمين فيما سمي بالحروب الصليبية، وإن سالت فيها دماء غزيرة، ولا سيما من المسلمين على أيدي الصليبيين. ولا كالحروب التي وقعت بين الأوربيين بعضهم وبعض خلال ما سموه القرون الوسطى، ولا سيما بين الكاثوليك والبروتستانت، وقد كانت حروبًا قاسية ومجازر رهيبة انتقم فيها بعضهم من بعض بشكل رهيب، وحقد أسود بغض، قل أن يوجد له نظير.

لقد كانت هاتان الحربان أشد وأنكى من ذلك كله بمئات المرات بل آلاف المرات، فقد استخدمت فيها أدوات حديثة لم يكن يملكها الإنسان القديم، واستبيحت فيها الحرمات والدماء، بما لم يعرف من قبل، واتسعت مساحتها حتى شملت العالم كله أو كادت.

وقد كان عدد القتلى في الحرب العالمية الأولى - حسب إحصاءاتهم أنفسهم - نحو تسعة ملايين (٩٠٠٠٠٠٠) قتيل.

أما الحرب العالمية الثانية - وقد تطورت فيها أسلحة القتل والدمار - فقد بلغ عدد القتلى نحو واحد وستين مليوناً من البشر (٦١٠٠٠٠٠٠).

وهذه تفاصيل الضحايا والقتلى في الحرب العالمية الثانية بالأرقام:

اسم الدولة	عدد القتلى
الاتحاد السوفيتي	٢٥,٥٦٨,٠٠٠
الصين	١١,٣٢٤,٠٠٠
ألمانيا	٧,٠٠٠,٠٠٠
بولندا	٦,٨٠٠,٠٠٠
اليابان	١,٨٠٠,٠٠٠
يوغسلافيا	١,٧٠٠,٠٠٠
رومانيا	٩٨٥,٠٠٠
فرنسا	٨١٠,٠٠٠
هذا بالإضافة إلى بريطانيا وبعض الدول الأخرى	
المجموع:	٦١ مليوناً

وهذه بعض الأرقام الناطقة بعدد القتلى خلال القرن المنصرم، المعبرة عما



اقترفته البشرية من جرائم شنيعة، في قرن الإنجازات العلمية:

فإضافة إلى ما تقدم هناك جرائم أخرى وقع فيها القتل ظلماً فمئذ عام ١٩٧١ إلى الآن وقعت ١١٠ مليون حالة إجهاض متعمد، ولا شك أنها جريمة اعتداء على إنسان حي، وإن يكن في المرحلة الجنينية، إلا أنه إنسان

وكذلك بلغ ضحايا مجاعة الستينيات ٢٧ مليوناً، والحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨ م بلغت ضحاياها تسعة ملايين، والحرب العالمية الثانية واحداً وستين مليوناً وبلغ قتل الحكومات خلال القرن الماضي مائة وسبعين مليوناً (دون الحروب) وهذه التفاصيل<sup>(١)</sup>:

البلد	السنة	العدد
الاتحاد السوفيتي	١٩١٧-١٩٨٧	٦١,٩١١,٠٠٠
الصين الشيوعية	١٩٤٩-١٩٨٧	٣٥,٢٣٦,٠٠٠
ألمانيا النازية	١٩٣٣-١٩٤٥	٢٠,٩٤٦,٠٠
الصين القومية	١٩٢٨-١٩٤٩	١٠,٠٧٥,٠٠٠
اليابان	١٩٣٦-١٩٤٥	٥,٩٦٤,٠٠٠
الثورة الشيوعية في الصين	١٩٢٣-١٩٤٩	٣,٤٦٦,٠٠٠

(١) أمتنا بين قرنين للدكتور يوسف القرضاوى ص ٤١ بتصرف طبعة دار الشروق بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٤٢١ هـ-٢٠٠٠ م

وكتاب شبهات وإجابات حول الجهاد في الإسلام للأستاذ الدكتور على جمعة ص ٨٥ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٤٢٣ هـ-٢٠٠٢ م

البلد	السنة	العدد
كمبوديا	١٩٧٥-١٩٧٩	٢,٠٣٥,٠٠٠
تركيا	١٩٠٩-١٩١٨	١,٨٨٣,٠٠٠
فيتنام	١٩٤٥-١٩٨٧	١,٦٧٨,٠٠٠
كوريا الشمالية	١٩٤٨-١٩٨٧	١,٦٦٣,٠٠٠
بولندا	١٩٤٥-١٩٨٧	١,٥٨٥,٠٠٠
باكستان	١٩٥٨-١٩٨٧	١,٥٠٣,٠٠٠
المكسيك	١٩٠٠-١٩٢٠	١,٤١٧,٠٠٠
يوغسلافيا	١٩٤٤-١٩٨٧	١,٠٧٢,٠٠٠
روسيا	١٩٠٩-١٩١٧	١,٠٦٦,٠٠٠
تركيا أتاتورك	١٩١٩-١٩٢٣	٨٧٨,٠٠٠
بريطانيا	١٩٠٠-١٩٨٧	٨١٦,٠٠٠
البرتغال	١٩٢٦-١٩٨٢	٧٤١,٠٠٠
أندونيسيا	١٩٦٥-١٩٨٧	٧٢٩,٠٠٠
دول أخرى	١٩٠٠-١٩٨٧	٢,٧٩٢,٠٠٠
المجموع	١٩٠٠-١٩٨٧	١٦٩,٢٠٢,٠٠٠

ومن خلال هذه الإحصائية نعلم أن غزوات النبي ﷺ والتي بلغ عددها سبعة وعشرين غزوة وسرايا أصحابه التي بلغت ستة وخمسين سرية بلغ عدد الشهداء والقتلى فيهم جميعاً أربعمائة شهيد وقتيل من المسلمين والمشركين وهو عدد لا يكاد يذكر إذا ما قورن بالحرب العالمية الأولى والثانية وقتلى الحكومات في القرن الماضي التي بلغ عدد القتلى فيها ما يقرب من مائة وسبعين مليوناً ومن ذلك نعلم أن النبي ﷺ كان رحمة مسداة ونعمة مهداة للبشرية كلها

### ٣- بعض أدبيات الحرب العادلة في الإسلام:

حروب الإسلام لم تنتهك فيها حرمة البشر، ولم يمثل فيها بالقتلى ولكنها كانت حروباً إنسانية، كرمت الإنسان، ومنع فيها قتل الأبرياء من الشيوخ والعجزة والنساء والصبيان، وروعت فيها حرمة المعابد والكنائس والرهبان وفيما يلي أعرض بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي أوصى فيها النبي الخاتم ﷺ بتعظيم الحرمات، وراعى فيها حقوق الإنسان

#### أ- الدعوة إلى الإسلام قبل القتال:

لم يبدأ النبي ﷺ حرباً من حروبه إلا بعد أن استنفذ كل السبل السلمية في سبيل هداية من حاربهم. قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد رضي الله عنه «سمع النبي ﷺ يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه فقاموا يرجون لذلك أيهم يعطى، فغدوا وكلهم يرجو أن يعطى، فقال: أين علي؟ فقيل: يشتكى عينيه، فأمر فدعى له فبصق في عينيه فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء، فقال نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم»<sup>(١)</sup> «<sup>(٢)</sup>.

(١) حمر النعم: هي الإبل الحمراء، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء وأنه ليس هناك أعظم منه [شرح النووي على مسلم ٨/ ١٩٤] ٠

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ١٠٢ باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة ٦/ ١٣٦ ح ٢٩٤٢ ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ٤ باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٨/ ١٨٩ ح ٢٤٠٦. والبيهقي في كتاب السير ٨٧ باب دعاء من لم تبلغه الدعوة من المشركين وجوباً ودعاء من بلغته نظراً ٩/ ١٠٦، ١٠٧ ح ١٨٢٣ جميعهم عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

ولقد بلغ النبي ﷺ في تعامله مع أعدائه أسمى درجات التسامح والرحمة وكان يحفظ للإنسان كرامته ويحترم حقوقه مهما بلغت عداوته، وكان يوصي بأعدائه خيراً، وذلك من خلال وصاياه لكل جيش كان على أهبة الاستعداد للقاء الأعداء، ودليل ذلك ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى حيث قال: حدثني عبدالله بن هاشم (واللفظ له). حدثني عبدالرحمن (يعنى ابن مهدي). حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة<sup>(١)</sup> عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهم ما أجاوبك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام. فإن أجاوبك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين. يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين. ولا يكون لهم في الغنيمة والفى شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجاوبك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تحفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تحفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا»<sup>(٢)</sup>.

(١) هو الصحابي الجليل: بريدة بن الحصيب أبو سهل الأسلمي أسلم قبل بدر وغزا مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة ومات سنة ثلاث وستين [الإصابة ١/١٨٦].

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ٢ باب تأمير الأمراء على البعث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها ٦/٢٧٩، ٢٨٠ ح ١٧٣١ وأبو داود في كتاب الجهاد ٩٠ باب في دعاء المشركين ٧/٢١٨، ٢١٩ ح ٢٦٠٩ - والترمذي في كتاب السير ٤٨ باب ما جاء في وصية النبي ﷺ في القتال ٥/١٩٣، ١٩٢ ح ١٦١٧ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح - وابن ماجه في كتاب الجهاد ٣٨ باب وصية الإمام ٢/٥٣٢، ٥٣٣ ح ٢٨٥٨ والدارمي في كتاب السير ٨ باب في الدعوة إلى الإسلام قبل القتال ٢/٧٨ ح ٢٤٤٢ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الجزية ٢ باب من يؤخذ منه الجزية من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ٩/١٨٤ ح ١٨٦٣١ جميعهم عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رحمه الله.

وهكذا أرسى النبي ﷺ قواعد العدل والرحمة في معاملة الأعداء، وبين أن الغرض من حروب الإسلام إنما هداية الناس وحماية حرية نشر دعوة الإسلام، كما بين أن الإسلام دين السماحة التي تصان فيها الكرامات وتبلغ فيها الرحمة أعلى الدرجات، مهما بلغت درجة العداء.

#### ب- النهي عن المثلة بجثث القتلى:

مع أن المشركين لم يعترفوا بهذا الأدب الإسلامي الرفيع ومثلوا بجثث شهداء المسلمين ومن بينهم حمزة بن عبد المطلب الذي استشهد في أحد فمثل المشركون بجثته فحزن عليه النبي ﷺ كثيراً إلا أنه ﷺ نهى عن المثلة وأمر بتكريم الأدمى وأمر بدفنه صوتاً لكرامته واحتراماً لأدميته مهما كانت ديانته.

يقول الإمام أبو داود رحمه الله تعالى: حدثنا عثمان بن أبي شيبة أخبرنا زيد:

يعنى ابن الحباب ح. وأخبرنا قتيبة بن سعيد أخبرنا أبو صفوان، يعنى المرواني عن أسامة عن الزهري عن أنس بن مالك المعنى: «(أن رسول الله ﷺ مر على حمزة وقد مثل<sup>(١)</sup> به فقال: لولا أن تجد صفية في نفسها لتركته حتى تأكله العافية<sup>(٢)</sup>)، حتى يحشر من بطونها، وقلت الثياب وكثرت القتلى فكان الرجل والرجلان والثلاثة يكفنون في الثوب الواحد»<sup>(٣)</sup>.

ولما رأى النبي ﷺ حمزة وقد مثل به قال، فيما أخرجه ابن إسحاق قال فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير. قال ﷺ «لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم». فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ

(١) جدد أنفه أو أذنه أو مذاكيره أو شيء من أطرافه وظهرت آثار هذه الأفعال عليه [النهاية «مثل» ٤/ ٢٩٤].

(٢) هي الطيور أو السباع التي تطلب رزقها وتقع على الجيف فتأكلها [النهاية «عفى» ٣/ ٢٦٦].

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز ٣١ باب في الشهيد يغسل ٨/ ٣١٥ ح ٣١٣٤ والترمذي في كتاب الجنائز ٣١ باب ما جاء في قتلى أحد وذكر حمزة ٤/ ٥٥ ح ١٠١٦ وقال أبو عيسى: حديث أنس حديث حسن غريب. لا نعرفه من حديث أنس إلا من هذا الوجه. والإمام أحمد في المسند ٣/ ١٢٨ والبيهقي في السنن كتاب الجنائز ٧٨ باب المسلمون يقتلهم المشركون في المعترك فلا يغسل القتلى ولا يصل على عليهم ٤/ ١٠ - والحاكم في المستدرک كتاب الجنائز ١/ ٣٦٥ ح ١٣٩ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقال الذهبي رواه عثمان بن عمر وروي عنه.

وغيظه على من فعل بعمه الحمزة بن عبدالمطلب ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن به مثله لم يمثلها أحد من العرب<sup>(١)</sup>.

ولما أراد النبي ﷺ أن يأخذ بثأر حمزة ويمثل بالمشركين حينما يمكنه الله منهم. نهاه الله عن ذلك. قال ابن إسحاق وحدثني بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي، وحدثني من لا أتهم عن ابن عباس أن الله ﷻ أنزل في ذلك، من قول رسول الله ﷺ، وقول أصحابه ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ \* وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧] - فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة<sup>(٢)</sup>.

ولم يقم النبي ﷺ في مقام قط أثناء الحروب إلا وينهى عن المثلة قبل أن يفارقه<sup>(٣)</sup>. يقول الإمام أبو داود حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معاذ بن هشام قال حدثني أبو قتادة عن الحسن عن الهياج بن عمران أن عمران أبى له غلام فجعل الله عليه لئن قدر عليه ليقطعن يده فأرسلني لأسأل له فأتيت سمرة بن جندب فسألته فقال كان رسول الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة...<sup>(٤)</sup>.

وكان النبي ﷺ يكرم قتلى المشركين في الغزوات فيأمر بدفنهم ولا يتركهم حتى تأكلهم السباع أو تخطفهم الطير. وقد أمر النبي ﷺ بدفن قتلى المشركين في بدر، وهذه آداب في الحروب لم يفعلها أحد سوى النبي ﷺ. يقول ابن إسحاق وحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب، فطرحوا فيها، إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه فملاها، فذهبوا ليحركوه، فتزائل [لحمه] فأقره وألقوا عليه ما غيبه من التراب

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة. موضوع «غزوة أحد» (السيرة النبوية لابن هشام) ٦٠/٣، وأخرجه من طريق

ابن إسحاق: الطبراني في الكبير ٦٢/١١، ٦٣ ح ١١٠٥١ عن ابن عباس رضي الله عنهما والبيهقي في الدلائل باب ما جرى

بعد انقضاء الحرب وذهاب المشركين في أمر القتل والجرحى ٢٨٢/٣ عن محمد بن كعب القرظي.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة موضوع «غزوة أحد» (السيرة النبوية لابن هشام) ٦١/٣.

(٣) ينظر السيرة النبوية لابن هشام موضوع «غزوة أحد» ٦١/٣.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ١٢٠ باب النهي عن المثلة ٢٦٤/٧ ح ٢٦٦٣. وأخرجه أحمد في المسند ١٢

وذكره ابن إسحاق في السيرة موضوع غزوة أحد ٦١/٣.

والحجارة. فلما ألقاهم في القليب، وقف عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا؟» قالت فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قومًا موتى، فقال لهم: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق»<sup>(١)</sup>.

### ج- تحريم قتل النساء والصبيان:

كان النبي ﷺ يحرم قتل الأبرياء العزل من السلاح، كالنساء والصبيان لأنهم ضعفاء لا ذنب لهم فيما يجرى. يقول الإمام البخارى «حدثنا أحمد بن يونس أخبرنا الليث عن نافع أن عبد الله ﷺ أخبره أن امرأة وجدت في بعض مغازى النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان»<sup>(٢)</sup>.

### د- النهى عن انتهاك حرمة البشر:

بالرغم من إيغال الأعداء في عداوتهم للنبي ﷺ إلا أنه نهى عن تعذيبهم بما يتنافى مع آدميتهم، فلم يعاملهم بقسوة شديدة، أو يعذبهم بعذاب فوق طاقة البشر كالتحريق بالنار؟ أو إتلاف الأعضاء.

يقول الإمام البخارى: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن بكير عن سليمان ابن يسار عن أبى هريرة ﷺ قال: «بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: إن وجدتم فلائنا وفلائنا فأحرقوهما بالنار، ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: إني أمرتكم

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة النبوية موضوع «طرح قتل قريش في القليب» (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/ ٢٤٢. وأخرجه من طريق ابن إسحاق الإمام أحمد في المسند ٦/ ٢٨٦، والحاكم في المستدرک کتاب معرفة الصحابة: ذکر مناقب أبى حذيفة ٣/ ٢٢٤ وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي جميعهم عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخارى في كتاب الجهاد والسير ١٤٧ باب قتل الصبيان في الحرب ٦/ ١٨١ ح ٣٠١٤ ومسلم في كتاب الجهاد والسير ٨ باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب ٦/ ٢٩١ ح ١٧٤٤ وأبو داود في كتاب الجهاد ١٢١ باب في قتل النساء ٧/ ٢٦٥ ح ٢٦٦٥- والترمذی في کتاب السير ١٩ باب ما جاء في النهی عن قتل النساء والصبيان ٥/ ١٤٤ ح ١٥٦٩ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه في کتاب الجهاد ٣٠ باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان ٢/ ٢٥٦ ح ٢٨٤١ والدارمی في کتاب السير ٢ باب في النهی عن قتل النساء والصبيان ٢/ ٨٦ ح ٢٤٦٢ جميعهم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

أن تحرقوا فلانًا، وفلانًا، وإن النار لا يعذب بها إلا الله: فإن وجدتموهما فاقتلوهما»<sup>(١)</sup>.  
هـ- حسن معاملة الأسرى:

عامل النبي ﷺ الأسرى معاملة حسنة فاقت كل ما تعارف عليه الناس من السماحة والرحمة واللين. روى الإمام ابن إسحاق عن نبيه بن وهب، أخو بني عبدالدار أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه، وقال «استوصوا بالأسارى خيرًا».

وبعد أن وضع النبي ﷺ هذه القاعدة العامة في التعامل مع الأسرى أصبح واجبًا شرعيًا على كل مسلم أن يعمل بوصية النبي ﷺ وأن يعمم هذه الخيرية. وحتى لا تكون هذه الخيرية صفة مطاطة تتحكم فيها رغبات الأفراد وميولهم مع تقادم العهد وضع النبي ﷺ قواعد صريحة وواضحة في كل ما يتصل بأمر الأسرى من مطعم، وملبس، ومأوى وغيرها، سوف نتحدث عنها فيما يلي إن شاء الله تعالى.

### ١- إطعام الأسرى

جاء في جزء من رواية ابن إسحاق السابقة عن نبيه بن وهب قال: «وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم، أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، في الأسارى، قال: فقال أبو عزيز مربى أخى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شديدك به فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك قال: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها. قال: فأستحيي فأردها [على أحدهم] فيردها عليّ ما يمسه»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخارى في كتاب الجهاد والسير ١٤٩ باب لا يعذب بعذاب الله ٦٦/ ١٨١ ح ٣٠١٦. عن أبى هريرة رضى الله عنه. وأبو داود في كتاب الجهاد ١٢٢ باب ما جاء في كراهية حرق العدو بالنار ٧/ ٢٦٨ ح ٢٦٧٠ عن حمزة الأسلمى رضى الله عنه. والترمذى في كتاب السير ٢٠ [بدون ترجمة] ٥/ ١٤٧ ح ١٥٧١ وقال أبو عيسى حديث أبو هريرة حديث حسن صحيح- وأخرجه الدارمى في كتاب السير ٢٤ باب فى النهى عن التعذيب بعذاب الله ٢/ ٨٥ ح ٢٤٦١ كلاهما عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) أخرجه ابن إسحاق فى السيرة موضوع «غزوة بدر» (السيرة النبوية لابن هشام) ٢/ ٢٥٠، ٢٥١.



ولقد امتدح الله الأبرار من عباده بعدة صفات منها: إطعام الأسرى فقال تعالى ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا\* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

## ٢- كسوة الأسرى

الكسوة مظهر من مظاهر المدنية فضلاً عن كونها ضرورة اجتماعية أوجبها الإسلام على الرجل والمرأة سواء كانوا أحراراً أو أسرى، ولذلك كان النبي ﷺ يأمر بستر عورات الأسرى احتراماً لأدميتهم وصوناً لكرامتهم.

قال الإمام البخاري حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا ابن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر أتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصاً، فوجدوا قميص عبد الله بن أبي، فكساه النبي ﷺ إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه» <sup>(١)</sup> (أى لعبد الله بن أبي عند دفنه).

## ٣- النهى عن تعذيب الأسرى

نهى النبي ﷺ عن تعذيب الأسرى رحمة بهم، وكان إذا وجد أسيراً مجروحاً أمر بمداواته والرفق به وكان يأمر أصحابه بحسن معاملة الأسرى ويحذرهم من تعذيبهم وذلك وفق قاعدة عامة وضعها النبي ﷺ بقوله: «لا تعذبوا عباد الله» <sup>(٢)</sup>. وهكذا سبق النبي ﷺ القوانين الدولية في معاملة الأسرى وحمى الأسير من الاعتداء والإهانة وأوصى به خيراً.

## و- النهى عن قتل الأسرى:

أخرج الإمام مسلم بسنده عن ابن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر - فذكر حديثاً طويلاً وفيه - ..... قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس فلما أسروا الأسرى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟»

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب الكسوة للأسارى ١٦٧/٦ ح ٣٠٠٨.

(٢) جزء من حديث أخرجه المهيمن في موارد الظمان كتاب العتق باب في التخفيف عن الخادم ٢٩٣/١ ح ١٢٠٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنى العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب»؟ قلت: لا والله يا رسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه وتمكنى من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوى رسول الله ﷺ إلى ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت»<sup>(١)</sup> فقد اخذ النبي ﷺ برأى أبى بكر وامتنع عن قتل الأسرى رحمة بهم وبذويهم.

#### ز- فداء الأسرى مقابل أموال يدفعونها أو خدمات يؤدونها:

كان النبي ﷺ يفدى الأسرى مقابل أموال يدفعونها حسب حالتهم من الغنى والفقر. ويجعل هذه الأموال قوة للمسلمين على المشركين، والمعلوم أن فداء الأسير بالمال فيه رحمة له ولطف به فالأموال لا تساوى شيئاً مقابل الحرية والعودة إلى الوطن والأهل.

وفى غزوة بدر استشار النبي ﷺ الصحابة رضوان الله عليهم فى أمر الأسرى وأخذ برأى أبى بكر لما فيه من الرحمة بالأسرى، وفدى بعضهم بالمال. وكان يفادى بهم على قدر أموالهم وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم فإذا حذقوا فهو فداؤه<sup>(٢)</sup>.

يقول الإمام مسلم رحمته الله تعالى: حدثنا هناد بن السرى. حدثنا ابن المبارك عن عكرمة بن عمار. حدثنى سماك الحنفى. قال: سمعت ابن عباس يقول حدثنى عمر بن الخطاب. قال: لما كان يوم بدر. ح وحدثنا زهير بن حرب (واللفظ له) حدثنا عمر بن يونس الحنفى حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا أبو زميل (هو سماك الحنفى) حدثنى عبدالله بن عباس. قال: حدثنى عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر ٠٠٠ قال أبو

(١) كتاب السيرة النبوية المسمى عيون الأثر فى فنون المغازى والشمال والسير موضوع غزوة بدر الكبرى ١ / ٣٧٣ بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر وإباحة الغنائم ٦ / ٣٢٨ ح ١٧٦٣ عن ابن عباس رضي الله عنه.

زميل: فحدثني ابن عباس قال: فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين. قال أبو زميل قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى» فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنوا العم والعشيرة. أرى أن تأخذ منهم فدية. فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ «ما ترى يا ابن الخطاب» قلت: لا. والله، يا رسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علينا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنى من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر: ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبيكان. قلت يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك. فإن وجدت بكاء بكيت. وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة» (شجرة قريبة من نبي الله ﷺ) وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾<sup>(١)</sup>، وأحل الله الغنيمة لهم<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان النبي ﷺ طيب القلب، رقيق الفؤاد، سهل التعامل، رحيم العقاب في معاملة هؤلاء الأسرى مع أنهم لم يعترفوا للنبي ﷺ بهذا الجميل. وأغاروا عليه بعد ثلاثة عشر شهراً فقط من الإفراج عنهم وأوقعوه في الحفرة وشجوه وكسروا رباعيته، وأصابوا ركبته في غزوة أحد. مع أنه أوصى بهم خيراً وأمر أصحابه أن يعاملوهم برفق حين أسرهم.

(١) [الأنفال: ٦٧-٦٩].

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ١٨ باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر وإباحة الغنائم ٦/٣٢٧ ح ١٧٦٣، وأبو داود في كتاب الجهاد ١٣١ باب فى فداء الأسير بالمال ٧/٢٨٣ ح ٢٦٨٧- والترمذى فى كتاب تفسير القرآن ٩ باب ومن سورة الأنفال ٨/٣٩٩ ح ٣٠٨١ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب والإمام أحمد ١/٣٠. والبيهقى فى السنن الكبرى كتاب قسم الفىء والغنيمة ١٩ باب ما جاء فى مفاداة الرجال منهم بالمال ٦/٣٢١ ح ١٢٨٤٣ جميعهم عن عمر بن الخطاب ؓ.

## ح- تبادل الأسرى:

كان النبي ﷺ يفدى أسرى المسلمين مقابل ترك أسرى المشركين، وفي تبادل الأسرى رحمة بالطرفين لأن الأسير المشرك وإن عومل معاملة حسنة من المسلمين إلا أنه يحب أن يرجع إلى أوطانه وأمواله ويرى أولاده، وفي تبادل الأسرى رحمة بالأسير المسلم أيضًا لأنه يعذب ويهان من قبل المشركين. يقول الإمام مسلم رحمه الله: حدثنا زهير بن حرب. حدثنا عمر بن يونس. حدثنا عكرمة بن عمار. حدثني إياس بن سلمة. حدثني أبي قال: غزونا فزارة وعلينا أبو بكر. أمره رسول الله ﷺ علينا فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرسنا، ثم شن الغارة فورد الماء، فقتل من قتل عليه، وسبى، وأنظر إلى عنق من الناس، فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل. فرميت بسهم بينهم وبين الجبل. فلما رأوا السهم وقفوا. فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بنى فزارة عليها قشع من آدم (قال: القشع القطع) معها ابنة لها من أحسن العرب. فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر. فنقلني أبو بكر ابنتها فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوبًا. فلقيني رسول الله ﷺ في السوق، فقال: «يا سلمة هب لي المرأة» فقلت يا رسول الله، والله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوبًا، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق. فقال لي: «يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك» فقلت هي لك، يا رسول الله فوالله ما كشفت لها ثوبًا، فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها ناسًا من المسلمين، كانوا أسروا بمكة»<sup>(١)</sup>.

## ط- المن على الأسير دون مقابل:

وكان النبي ﷺ يمن على بعض الأسرى ويطلق سراحهم دون فداء أو تبادل أسرى بأسرى، ففي غزوة حنين تشفع النبي ﷺ إلى المسلمين أن يردوا السبي من نساء وأبناء، واشترى السبي ممن أوارده إلا بمال. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى:

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ١٤ باب التنفيل وفداء المسلمين بالأسارى ٦/٣١٢، ٣١١ ح ١٧٥٥ وأبو داود في كتاب الجهاد ١٣٤ باب الرخصة في المدركين يفرق بينهم ٧/٢٩٢، ٢٩١ ح ٢٦٩٤. وابن ماجه في كتاب الجهاد ٣٢ باب فداء الأسارى ٢/٥٢٨ ح ٢٨٤٦. والإمام أحمد في المسند ١٦١٠٢، ١٦٠٧٠، ١٦٠٦٢. والبيهقي في السنن الكبرى كتاب السير ١٠٧ باب بيع السبي من أهل الشرك ٩/١٢٩ ح ١٨٣٣٠ جميعهم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

حدثني إسحاق حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن أخي ابن شهاب قال قال محمد بن شهاب وزعم عروة بن الزبير أن مروان والمصور بن مخرمة أخبراه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: معي من ترون، وأحب الحديث إليَّ أصدقه، فاخترتوا إحدى الطائفتين: إما السبي وإما المال. وقد كنت استأنيت بكم - وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف - فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: فإننا نختار سبينا فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين وإنني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: إنا لا ندرى من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم<sup>(١)</sup> أمركم، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا، هذا الذي بلغني عن سبي هوازن<sup>(٢)</sup>.

وكان فداء الأسرى بدون مقابل سبيًا من أسباب حب هؤلاء الأسرى للنبي ﷺ ودخولهم في الإسلام ووقوف بعضهم بجانب دولته يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا عبدالله بن يوسف حدثنا الليث قال حدثني سعيد بن أبي سعيد أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال ((بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير، يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على

(١) العرفاء: جمع عريف، وهو القيم بأمر القبيلة أو الجماعة من الناس يلي أمورهم ويتعرف الأمير منهم على أحوالهم [النهاية] عرف «٢١٨/٣».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٥٤ باب قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ ٨/٤٢، ٤١ ح ٤٣١٩ وأبو داود في كتاب الجهاد ٣١ باب في فداء الأسير بالمال ٧/٢٨٥ ح ٢٦٩٠، والإمام أحمد في المسند ٤/٣٢٦، والبيهقي في السنن الكبرى كتاب السير ٥٧ باب ما يفعله بالرجال البالغين منهم ٩/٦٤ ح ١٨٠٢٤ جميعهم عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رحمهم الله.

شاكراً، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان من الغد ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكراً، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ. والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليّ والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ، وأن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتكم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

ي - حسن معاملة السبي<sup>(٢)</sup>، والمن عليهم بدون مقابل:

السبايا هي أحد المغانم التي يمتلكها الجيش المنتصر، وتقسم بين أفراد الجيش عقب الانتهاء من الحروب، وعندما تقع السبايا في حوزة المجاهد لا يفرط فيها بأى شكل من الأشكال لأنها محبة إلى النفس، صعبة المنال.

وتعد السبايا أعظم شيء يفقده الجيش المهزوم فالفجعة فيها كبيرة والمصيبة فيها عظيمة لأنها أعز ما يملكه الإنسان وهو يدافع عنها بالسيف والسنان ويهجر من أجلها الأوطان.

وقد بلغ النبي ﷺ الغاية العظمى في الرحمة واللين والرفق بالسبايا فكان ﷺ لا يفرق بين المرأة وولدها عند بيع السبي رحمة بهما. يقول الإمام أبو داود رحمه الله تعالى:

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٧٠ باب وفد بني حنيفة، وحديث ثمامة بن أثال ٨/١٠٨ ح ٤٣٧٢ - ومسلم

في كتاب الجهاد والسير ١٩ باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه ٦/٣٣٠، ٣٣١ ح ١٧٦٥ وأخرجه أبو

داود في كتاب الجهاد ١٢٤ باب في الأسير يوثق ٧/٢٧٣ ح ٢٦٧٦ والإمام أحمد في المسند ٢/٤٥٢

والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الأسير ٥٧ باب ما يفعله بالرجال البالغين منهم ٩/٦٦ ح ١٨٠٣١

(٢) السبي: النهب وأخذ الناس عبيد وإماء والسبية: المرأة المنهوبة [النهاية «سبا» ٢/٣٤٠].

حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا إسحاق بن منصور حدثنا عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن الحكم عن ميمون بن أبي شبيب عن علي: «أنه فرق بين جارية وولدها، فنهاه النبي ﷺ ورد البيع»<sup>(١)</sup>.

ولم تقتصر رحمة النبي ﷺ بالسبايا على هذا الجانب فحسب ولكنه كان يمين عليهم بالفك دون مقابل - كما أسلفت - ففي غزوة حنين غنم المسلمون من سبي هوازن ستة آلاف من الزراري والنساء، فأصاب هوازن من البلاء ما جعلها تذهب إلى رسول الله ﷺ تسأله بالله والرحم أن يمين عليها بإطلاق سباياها فرفق النبي ﷺ بهم ومن عليهم وأعطاهم ما كان له ولبنى عبد المطلب من السبي<sup>(٢)</sup>، وشفع لهم عند بعض المسلمين، واشترى السبي ممن أبو رده إلا بمال. مع أن سيوف هوازن كانت لا تزال مبللة بدماء شهداء المسلمين.

وبهذا بلغ النبي ﷺ أعلى درجات التسامح والرفق والعدل والرحمة وسبق كل الأعراف والقوانين الدولية في حسن معاملة الأسرى، فياليتنا نجد من يعامل أسرانا مثل هذه المعاملة الحانية الرقيقة لكن غير المسلمين كفروا هذه النعمة وجحدوها وأحيوا معالم الجور وأماتوا سنن العدل في معاملة أسرى المسلمين، فما يحدث لأسرى المسلمين في سجون العراق، (وجوانتانمو) ليس بخاف على أحد من العالم. وبعد فهذه بعض الأسباب التي ساعدت على تحقيق النصر للنبي ﷺ في غزواته وذلك بعد تأييد الله تبارك وتعالى له - والجدير بالذكر أن هذه الأسباب ما زالت موجودة، وممكنة التحقق مرة أخرى، ولكننا نخلينا عنها فصرنا ذيولاً وأذلاء نأتمر ولا أمر لنا.

فالنبي ﷺ لا يزال قائداً قوياً حكيماً شجاعاً رحيماً وذلك موجود ومعروف في بطون كتب الحديث، وكتب السيرة والتاريخ، ولكن الأحاديث والآثار التي تتحدث عن الجوانب السياسية والإدارية في حياته ﷺ أهملت وأصبحت حبراً على ورق، تنتظر من يعمل بها ويخرجها إلى حيز التنفيذ، كما أن الحرب بيننا وبين أعداء الله ما زالت

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد ١٣٣ باب في التفريق بين السبي ٧/ ٢٩٠ ح ٢٦٩٣ عن علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) ينظر السيرة النبوية لابن هشام موضوع: أمر أموال هوازن وسباياها ٤/ ١١٦.

عادلة من جانبنا، فنحن وإن قاتلنا، لا نقاتل إلا من أجل حماية حرية ممارسة شعائر ديننا وحرية نشر شريعة الإسلام وتوضيحها إلى العالم، وإزالة الغبار الذي علق على أعين منكريها فجعلهم يرفضون سماع اسمها.

نقاتل ونحن لم نبدأ بالهجوم، ولم نصطنع أسباباً لإشعال الحروب، ولكننا ندافع عن شرفنا وأعراضنا ونحمي مقدساتنا، بخلاف الذين يقاتلون لهتك العرض، وزيادة مساحة الأرض، غير مباليين بأحد.

كما أن الأعداء ما زالوا ضعفاء وإن زاد عددهم وقويت أسلحتهم، فالقرآن لا يزال موجوداً بيننا ومازلنا نقرأ آياته، ولكننا أصبحنا وكأن أعيننا قد عميت عن آيات وعدنا الله فيها بالنصر، وأخبرنا فيها عن ضعف أعدائنا «يقول تعالى: ﴿كُتِبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] وقال تعالى: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وقال تعالى عن هيتنا في قلوب المشركين ومدى رعبهم وخوفهم منا: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ \* لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٣، ١٤].

ولكن السبب المهم الذي نفتقده بعد إهمالنا لتعلم الجوانب السياسية والعسكرية والإدارية في حياة النبي ﷺ والعمل بها هو أننا أصبحنا جنوداً غير متميزين وأول أسباب ضعفنا عدم توحد كلمتنا مع أن الله حذرنا من الشقاق والتنازع فقال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الأنفال آية ٤٦] -ريحكم: أى قوتكم- أما إذا تنازعنا ولم تتوحد كلمتنا وتفرقنا -كما هو حالنا- فإنهم سيقاتلوننا ويقتلوننا ما دما على حالنا من الفرقة والخوف والتكاسل أما إذا تأسينا بنبينا ﷺ ورجعنا إلى سالف عهدنا، وأصبحنا نحرص على الموت أكثر من حرص أعدائنا على الحياة، فإن النصر سيكون حليفنا، لأن الله يقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] ويقول تعالى ﴿فَإِنَّ جِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] فياليت قومي يعلمون.



## الباب السادس

### نماذج من نشاط الخلفاء الراشدين في حكوماتهم أسوة في سلوكهم بالنبي ﷺ

ويشتمل على تمهيد وأربعة فصول:

الفصل الأول: مظاهر من أنشطة الخليفة أبي بكر رضي الله عنه

الفصل الثاني: مظاهر من أنشطة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الفصل الثالث: مظاهر من أعمال عثمان بن عفان أمير المؤمنين إبان خلافته رضي الله عنه.

الفصل الرابع: مظاهر من أنشطة الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

## تمهيد

## أ- تعريف الخلافة:

الخلافة لغة: مصدر خلف. يقال خلف فلان فلانا إذا كان خليفته، ويقال خليفه في قومه، ومنه قوله تعالى ﴿اخلفني في قومي﴾ [الأعراف: ١٤٢] وخلفه أيضًا: جاء بعده. والخليفة هو السلطان الأعظم:

والجمع «الخلائف» جاؤا بعده على الأصل مثل كريمة وكرائم، وقالوا أيضًا «خلفاء» من أجل أنه لا يقع إلا على مذكر وفيه الهاء فجمعوه على إسقاط كظرف وظرفاء لأن فعيلة بالهاء لا يجمع على فعلان<sup>(١)</sup>، والخلافة أيضًا هي: الإمامة، والإمارة والخليفة هو المستخلف أو السلطان الأعظم<sup>(٢)</sup>.

والمعلوم أن هذه الكلمة وردت في كتاب الله تعالى وكان لها دلالات كثيرة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠] والمعنى هنا: «أى مصير في الأرض خليفة منكم» لأن الملائكة كانوا سكان الأرض، فخلفهم فيها آدم وذريته واستغنى بذكر آدم عن ذكر بنيه ويجوز أن يريد خليفة منى لأن آدم كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي، قال تعالى ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ [ص: ٢٦]<sup>(٣)</sup>.

واصطلاحًا: هي خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا<sup>(٤)</sup>. وقال الماوردي: الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا<sup>(٥)</sup>. وقال عضد الدين الإيجي: الخلافة هي: خلافة الرسول ﷺ في إقامة الدين،

(١) انظر لسان العرب لابن منظور «خلف» ٢/ ١٢٣٥.

(٢) المعجم الوجيز ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٣) الكشف. لجار الله الزمخشري ١/ ٢٧١ ط دار الحلبي.

(٤) المقدمة لابن خلدون ص ١٧٠، ١٧١ ط دار الشعب.

(٥) الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي ص ٥.

وحفظ حوزة الملة بحيث يجب اتباعه (أى الإمام) على كافة الأمة<sup>(١)</sup>.

ب- أهمية الخلافة ومنزلتها:

للخلافة فى الإسلام أهمية كبيرة ومنزلة سامية فهى الامتداد الطبيعى للسلطة السياسية فى الإسلام، ولو ترك الناس بدون خليفة يتولى أمرهم وينزلون على حكمه ورأيه المستند إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لشاعت الفوضى، وعمت البلوى، واشتعلت الفتنة، وتفرقت كلمة المسلمين.

«وللخلافة فى الإسلام منزلة عظمى لأن منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة الرسول ﷺ من المؤمنين، له عليهم الولاية العامة الكاملة، وله حق القيام على الدين، فيقيم حدوده وينفذ شرائعه وهو نظام مستحدث فى الإسلام يجمع فيه الخليفة السلطة الزمنية والروحية، ولهذا اعتبرت من فروض الكفاية كالجهد وطلب العلم فإذا قام بها من هو أهلها سقط الحرج عن الباقي، وإن لم يقم بها أحد خرج من الناس فريقان: أحدهما: أهل الاختيار حتى يختاروا إماماً للأمة.

والثانى: أهل الإمامة حتى ينتصب أحدهم للإمامة»<sup>(٢)</sup>.

والمعلوم أنه لما قبض رسول الله ﷺ شعر الصحابة بأهمية القيادة السياسية، ولذلك انشغلوا بأمر الخلافة قبل أن يقوموا بدفن النبي ﷺ يقول الدكتور محمد سليم العوا:

إن المسلمين قد قدموا مسألة اختيار رئيس للدولة على غيرها من الأمور بما فى ذلك إتمام دفن الرسول ﷺ يروى الطبرى فى سبب ذلك عن الصحابى سعيد بن زيد أن أصحاب رسول الله ﷺ «كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة»<sup>(٣)</sup> ودلالة هذا النص واضحة على مدى إحساس المسلمين بدولتهم التى أنشأها الرسول ﷺ وشعورهم بأن هذا الكتاب الجديد كيان الدولة أو الجماعة - يختلف عن كيانهم قبل

(١) المواقف وشرحه لعبد الدين الإيجى ٦٠٣/٣ طبعة القاهرة الأولى سنة ١٩٠٧ م.

(٢) الخلافة الراشدة والخلفاء الراشدون للدكتور محمد عبد العليم العدوى ص ١٧ ط مطبعة التقدم بطنطا بمصر سنة

١٩٨٧ م.

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ١٣/٣.

الإسلام، بحيث لا يحتمل أن يبقى ولو بعض يوم دون أن يكون له رئيس يقوم على شئونه العامة التي كان يمارسها الرسول ﷺ، فقد أدرك المسلمون فور وفاة الرسول ﷺ أن الوحدة السياسية والدينية التي أتمها ﷺ فشملت معظم أنحاء الجزيرة العربية توشك أن تنهار إذا لم يقض المسلمون أمرهم في مسألة رئيس الدولة، وأدركوا أن هذا الأمر لا يحتمل التأجيل حتى إلى أن يفرغوا من أمر دفن الرسول ﷺ، فكان هذا الوعي السياسي سببا في تجنب فتنة لو وقعت لم يكن ليعلم آثارها على الإسلام ودولته إلا الله تعالى<sup>(١)</sup> ١.هـ.

وأمة الإسلام عاشت في خير وأمن وسلام طوال مدة الخلافة الإسلامية، وهذا الخير والسلام والأمان والاستقرار مرهون بعودة هذه الخلافة مرة أخرى فاجتماع المسلمين على إمام واحد، وتحت راية واحدة هو مصدر عزهم وكرامتهم وسيادتهم على سائر أمم الأرض.

يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثني عبد الله بن أبي شيبه العبسي حدثنا ابن إدريس عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن جرير قال: (كنت باليمن فلقيت رجلين من أهل اليمن - ذا كلاع وذا عمرو<sup>(٢)</sup>، فجعلت أحدثهم عن رسول الله ﷺ فقال له ذو عمرو: لئن كان الذي تذكر من أمر صاحبك فقد مر على أجلي منذ ثلاث، وأقبلا معي، حتى إذا كنا في بعض الطريق رفع لنا ركب من قبل المدينة، فسألناهم، فقالوا: قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر والناس صالحون، فقالا: أخبره صاحبك أنا قد جئنا ولعلنا سنغود إن شاء الله، ورجعا إلى اليمن. فأخبرت أبا بكر بحديثهم قال: أفلا جئت بهم؟ فلما كان بعد قال لي ذو عمرو: يا جرير إن بك على كرامة، وإنني مخبرك خبرا: إنكم معشر العرب لن تزالوا بخير ما كنتم إذا هلك أمير تأمرتم<sup>(٣)</sup>، في آخر، فإذا كانت بالسيف كانوا ملوكا يغضبون غضب الملوك، ويرضون

(١) في النظام السياسي للدولة الإسلامية ص ٨١.

(٢) ذو كلاع اسمه إسميع ويقال: أيفع بن باكوراء ويقال ابن حوشب بن عمرو، وأما ذو عمرو فكان أحد ملوك اليمن وهو من حير أيضا وكانا عزمًا على التوجه إلى المدينة فلما بلغهما وفاة النبي ﷺ رجعا إلى اليمن ثم هاجرا في زمن عمر [فتح الباري ٨/ ٩٥].

(٣) تأمرتم: أي تشاورتم، أو أقمتم أميرا منكم عن رضا منكم أو عهد من الأول [فتح الباري ٨/ ٩٦].

رضا الملوك<sup>(١)</sup>

ويقول العلامة أبي الحسن الندوى:

لم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع هذه النواحي من هذا الدور دور الخلافة الراشدة فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل، وفي ظهور المدنية الصالحة كانت حكومة من أكبر حكومات العالم، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها، تسود فيها المثل الخلقية العليا وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم، وتزدهر فيها الأخلاق الفاضلة مع التجارة والصناعة، ويسير الرقى الخلقى والروحي اتساع الفتوح، واحتفال الحضارة فتقل الجنايات، وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها، ورغم دواعيها وأسبابها، وتحسن علاقة الفرد بالفرد، والفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعة بالفرد، وهو دور كمالى لم يحلم الإنسان بأرقى منه ولم يفترض المفترضون أزهى منه...»<sup>(٢)</sup> اهـ.

ج- خلفاء ساروا على الدرب فغيروا مجرى التاريخ:

قبل أن أدخل في الحديث عن بعض النماذج من حكومات الخلفاء الراشدين أريد أن أستهل الكلام بذكر نبذة قصيرة عن حياة هؤلاء الأبطال الذين ملؤوا الدنيا عدلاً وزهداً وهداية وعلماً وحملوا مشعل الهداية إلى معظم أنحاء الأرض.

ففى ظلال هؤلاء الخلفاء الذين ساروا على النهج النبوى العظيم تغير مجرى تاريخ الأمم فساد العدل، واضمحل الظلم، وانتشر الإسلام فى دول الظلم والكفر، وأصبح كالنور يضىء فى قاع صفصف عميق الأغوار بفضل نخبة من الرجال، رباهم النبي ﷺ على منهج الله تعالى فى القرآن والسنة.

«فقد ظهر المسلمون وتزعموا العالم، وعزلوا الأمم المريضة من زعامة الإنسانية التى استغلتها وأساءت سياستها وساروا بالإنسانية سيراً حثيثاً مترنماً عادلاً

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى: ٦٤ باب ذهاب جرير إلى اليمن: ٨/ ٩٤/ ٩٥ ح ٤٣٥٩ ولم أجده عند غيره من الجماعة.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين تأليف العلامة أبي الحسن الندوى ص ١٠٩ ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

وقد توفرت فيهم الصفات.

فمن صفاتهم التي أهلتهم لقيادة الأمم، وضمنت سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيادتهم:

أولاً: إنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية، فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم، لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم، ولا يخطبون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء، قد جعل الله لهم نورا يمشون به في الناس، وجعل لهم شريعة يحكمون بها بين الناس ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْنًا فَأَخْبَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ثانياً: أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خاتمية وتركية نفس، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر. بل مكثوا زمناً طويلاً تحت تربية النبي ﷺ وإشرافه الدقيق يزكيهم ويؤدبهم ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار على النفس، وخشية الله وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها. يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن العلاء حدثنا أبو أسامة عن بدير عن أبي بردة «عن أبي موسى عليه السلام قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: أُمِّرْنَا يا رسول الله، وقال الآخر مثله، فقال: إنا لا نولى هذا من سألناه ولا من حرص عليه»<sup>(١)</sup>.

ولا يزال يقرع سمعهم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب تهافت الفراش على الضوء، بل كانوا يتمنعون من قبولها، ويتخرجون ويشفقون من تقلدها فضلاً عن أن يرشحوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ٦ باب من سأل الإمارة وكل إليها ١٣٠/١٥٥ ح ٥٧١٤٩ ومسلم في كتاب الإمارة ٣ باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها ٦/٤٤٧ ح ١٧٣٣ كلاهما عن أبي موسى عليه السلام.

أنفسهم للإمارة، ويزكوا أنفسهم ويتطلعون إليها، وينفقوا الأموال سعيًا وراءها، فإذا تولوا شيئًا من أمور الناس لم يعدوه مغنما أو طعمة أو ثمنًا لما أنفقوا من مال أو جهد، بل عدوه أمانة في أعناقهم وامتحانًا من الله، ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ومسئولون عن الدقيق والجليل وتذكروا دائما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾ [النساء: ٥٨]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ خَلَاتْفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيهَا أَتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ثالثًا: أنهم لم يكونوا خدمة جنس، ورسل شعب أو وطن، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب، والأوطان لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاما، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم، ولم يخرجوا ليؤسسوا امبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم، إنما قاموا ليخرجوا الناس جميعا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. كما قال رباعي بن عامر في مجلس يزيد جرد: «الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام»<sup>(١)</sup>. فالأمم عندهم سواء والناس عندهم سواء، الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولم ييخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة نسبًا ولونًا ووطنًا بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد، وغواذى مذنة أثنى عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها.

وفي ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب - حتى المضطهدة منها في القديم - أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والرقى. وأن تساعد

(١) البداية والنهاية لابن كثير - موضوع «غزوة القادسية» ٧/ ٣٨ ط دار الحديث بالقاهرة.

العرب في بناء العالم الجديد. بل إن كثيرا من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين<sup>(١)</sup>



---

(١) ماذا خسر العالم بالانحطاط المسلمين ص ١٠٥ بتصرف.



## الفصل الأول

### مظاهر من أنشطة الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- التعريف بأبي بكر ﷺ.
- ٢- توليته خلافة المسلمين.
- ٣- عمر بن الخطاب ﷺ يرشح أبا بكر ﷺ للخلافة.
- ٤- تطبيق مبدأ البيعة (الأمة الإسلامية تختار الخليفة وتبايعه).
- ٥- البيان السياسي لأبي بكر (منهج الحاكم).
- ٦- بعض الأحاديث التي أشارت إلى خلافة أبي بكر ﷺ والتي أهلته لخلافة المسلمين.
- ٧- نماذج من حكومة أبي بكر الصديق ﷺ وما وقع في أيامه من الأمور الكبار.
- ٨- نماذج من الأمور الإدارية في حكومة أبي بكر ﷺ.
- ٩- وظائف ومهام إدارية وضعها أبو بكر ﷺ في عاصمة الخلافة.

## الفصل الأول

### مظاهر من أنشطة الخليفة أبي بكر ﷺ

#### ١ - التعريف بأبي بكر الصديق ﷺ:

أ - اسمه: يقول الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري رحمته الله: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا عبد الله بن أبي أسامة الحلبي، ثنا حجاج بن منيع، عن جده، عن الزهري قال: أبو بكر الصديق اسمه: عبد الله بن عثمان ابن عامر ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر<sup>(١)</sup>.

وقال الإمام السيوطي رحمته الله تعالى:

أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ اسمه: عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشي، التيمي، يلتقى مع رسول الله ﷺ في مرة<sup>(٢)</sup> وهو الجد السابع أ - هـ.

وأمه: أم الخير واسمها: سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة<sup>(٣)</sup>. قال النووي في تهذيبه: وما ذكرناه - من اسم أبي بكر (الصديق) عبد الله - هو الصحيح المشهور، وقيل: اسمه عتيق، والصواب الذي عليه كافة العلماء أن عتيقا لقب له لا اسم<sup>(٤)</sup>، وكان اسم أبي بكر في الجاهلية «عبد الكعبة» وقيل «عبد اللات»

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک: ٣١ كتاب معرفة الصحابة رحمته الله / باب أبو بكر بن أبي قحافة رحمته الله ٦٢ / ٣ ح ٤٤٠٣ وسكت عنه الحاكم والذهبي.

(٢) تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ص ٣٣ ط دار الجبل بيروت.

(٣) كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد / موضوع / من بنى تيم بن مرة بن كعب ٣ / ١٢٥.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي ١ / ١٨١ ط مصر.

وقيل «عبد العزى» فسماه النبي ﷺ في الإسلام «عبد الله»<sup>(١)</sup>

ب- لقبه: لقبه العتيق. يقول الإمام الحاكم: حدثنا أحمد بن كامل القاضي، ثنا عبد الله بن روح المدائني، ثنا شبابة، ثنا صالح بن موسى الطلحي عن معاوية بن إسحاق، عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: (من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر وأن اسمه الذي سماه أهله لعبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو حيث ولد فغلب عليه اسم عتيق)<sup>(٢)</sup>.

المشهور أن اسم أبي بكر عبد الله بن عثمان ويقال كان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة وكان يسمى أيضًا عتيقا واختلف هل هو اسم له أصلي أو قيل له ذلك لحسنه، أو لأن أمه كان لا يعيش لها ولدا فلما ولد استقبلت به البيت فقالت «اللهم هذا عتيقك من الموت» أو لأن النبي ﷺ بشره بأن الله أعنته من النار<sup>(٣)</sup>.

ولقب أيضًا بالصديق: يقول السيوطي رحمه الله تعالى:

وأما الصديق فقليل: كان يلقب به في الجاهلية، لما عرف منه من الصدق. ذكره ابن مسدي. وقيل: لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ فيما كان يخبر به<sup>(٤)</sup> أ- هـ ويقول الإمام الحاكم رحمه الله: «أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، ثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي ثنا محمد بن كثير الصنعاني، ثنا معمر بن راشد، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة ﷺ قالت: لما أسرى بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه وسمعوا بذلك إلى أبي بكر ﷺ فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق: قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه

(١) تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري ٣/ ٤٢٤ وما بعدها. ط. دار المعارف بمصر سنة ١٣٨٨ هـ. ١٩٦٨ م.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣١ كتاب معرفة الصحابة ﷺ / أبو بكر بن أبي قحافة ﷺ ٣: ٦٤ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي بأن صالح ضعفه والسند مظلم.

(٣) كتاب تحفة الأحوذى ١٠/ ١٠٦.

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي (أبو بكر الصديق ﷺ) فصل في مولده ومنشأه ص ٣٥.

بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سمي أبو بكر الصديق<sup>(١)</sup>.  
ولذلك لقب أبو بكر «بالصديق» لأنه بادر إلى تصديق النبي ﷺ ولازم الصدق في الأقوال والأفعال.

ج - كنيته: وكنيته في الجاهلية والإسلام «أبو بكر» وقيل أنه كنى بذلك لأنه كان يحتفظ بالبكور من الإبل بطرفه إلى أن يفصل بين المتخاصمين في القضايا ثم يسلمها للمستحقين.

وقيل: كنى بذلك: لتبكيه بالدخول في الإسلام.  
د - ذكر مولده ووفاته:

مولده: ولد بمنى بعد مولد النبي ﷺ بعامين ونصف تقريباً.  
وفاته: يقول الإمام الحاكم رحمه الله تعالى: (حدثنا أبو عبد الله الأصبهاني، ثنا محمد ابن عبد الله بن رسته، ثنا أبو أيوب سليمان بن داود المقرئ، ثنا محمد بن عمر الواقدي، ثنا محمد بن عبد الله بن أخي الزهري، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: توفي أبو بكر ﷺ ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وهو يومئذ ابن ثلاث وستين)<sup>(٢)</sup>.

هـ - نشأته: نشأ بمكة، وتربى فيها، في كنف اليسار والنعمة، ورعى الغنم في مراعيها ولم يخرج منها إلا للتجارة، وذلك حين شب وقوى وبلغ مبلغ الرجال<sup>(٣)</sup>.  
ويقول الإمام السيوطي رحمه الله: (وكان منشؤه بمكة، لا يخرج منها إلا للتجارة

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣١ كتاب معرفة الصحابة رحمه الله / أبو بكر بن أبي قحافة رحمه الله ٣: ٦٥ ح ٤٤٠٧ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأقره الذهبي. وابن سعد في الطبقات الكبرى ومن بنى تيم بن مرة ابن كعب / أبو بكر الصديق ٣٠ / ١٢٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣١ كتاب معرفة الصحابة رحمه الله: أبو بكر بن أبي قحافة رحمه الله ٣: ٦٣ وسكت عنه الحاكم والذهبي. وابن سعد في الطبقات الكبرى: ومن بنى تيم بن مرة بن كعب / أبو بكر الصديق ٣ / ١٥٠. وينظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣ / ٢٤٧ ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ م. والكامل في التاريخ، لأبي الحسن بن الأثير الجزري ٢ / ١٧٦ ط المطبعة الأزهرية بالقاهرة سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٣ م. والعبر في خبر من غير لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ١ / ١٣ ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م الطبعة الأولى.

(٣) كتاب الخلفاء الراشدون «عصر أبي بكر الصديق رحمه الله ص ١١ ط مطبعة الحسين الإسلامية بالقاهرة الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م».

وكان ذا مال جزيل في قومه ومروءة تامة، وإحسان وتفضل فيهم. كما قال ابن الدغنة: (إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتكسب المعدوم (وتحمل الكل) وتعين على نوائب الدهر وتقرى الضيف).

وكان من رؤساء قريش في الجاهلية وأهل مشاورتهم ومحبيهم وأعلم لمعالمهم، فلما جاء الإسلام أثره على ما سواه، ودخل فيه أكمل دخول وكان أبو بكر الصديق ﷺ أحد عشرة من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية والإسلام فكان إليه أمر الديات والغرم، وذلك أن قريشاً لم يكن لهم ملك ترجع الأمور كلها إليه، بل كان في كل قبيلة ولاية عامة تكون لرئيسها، فكانت في بني هاشم السقاية والرفادة، ومعنى ذلك أنه لا يأكل ولا يشرب أحد إلا من طعامهم وشرابهم...»<sup>(١)</sup> أي ممن قدم مكة حاجاً أو معتمراً.

و- إسلامه: تجمع معظم كتب الحديث والآثار والتاريخ أن أبا بكر ﷺ أول من أسلم من الرجال البالغين.

يقول الأستاذ الدكتور السيد أحمد حمور:

يقال: إن أبا بكر آمن بالنبي ﷺ زمن بحيرى الراهب حين مر به واختلف فيما بينه وبين خديجة حتى أنكحها إياه.

ويقول أيضاً: وأصح الأقوال أن أبا بكر كان مصاحباً للرسول ﷺ قبل النبوة فلما نبي عليه الصلاة والسلام كان هو أول من أسلم على يدى النبي ﷺ وأظهر إسلامه من بين الرجال البالغين<sup>(٢)</sup> اهـ.

وكان أبو بكر ﷺ من أقرب الناس لرسول الله ﷺ قبل البعثة وقد ساعد ذلك على تبكيه إلى التصديق وكان ﷺ يؤمن ببعثة نبي من أوسط العرب نسباً، لأنه كان قد اجتمعت عنده الدلائل على قرب ظهور هذا النبي وكان ينتظر خروجه ويؤمن بقرب ظهوره، وكان عند أبي بكر استعداد نفسى للإيمان بهذا النبي فور بعثته بدون تفكير أو تردد.

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى. موضوع: أبو بكر الصديق ﷺ، فصل في مولده ومنشئه ص ٣٧ بتصرف.

(٢) الخلفاء الراشدون (عصر أبي بكر الصديق ﷺ ص ١٣ نقلاً عن تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٤، والكامل لابن الأثير ٢/ ٢٢، ٢٣، ودليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد بن عسقلان الصدقي الشافعي المكي طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ص ٣٤٨ بتصرف.

يقول الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: (روى عن أبي بكر أنه قال: كنت جالسا بفناء الكعبة، وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعداً، فمر به أمية بن أبي الصلت، فقال: كيف أصبحت يا باغي الخير؟ قال: بخير قال: وهل وجدت؟ قال: لا فقال: كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله في الحقيقة بور. أما هذا النبي الذي ينتظر منا أو منكم، قال: ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبي ينتظر ويبعث قال: فخرجت إلى ورقة بن نوفل، وكان كثير النظر إلى السماء، كثير همهمة الصدر، فاستوقفته، ثم قصصت عليه الحديث فقال نعم يا ابن أخي، إنا أهل الكتب والعلوم، إلا أن هذا النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسباً - ولي علم بالنسب - وقومك من أوسط العرب نسباً قلت: يا عم وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له، إلا أنه لا يظلم، ولا يظلم، ولا يظالم، فلما بعث رسول الله ﷺ آمنت به وصدقته<sup>(١)</sup> - هـ.

وفي هذا الكلام دلالة على أن أبا بكر رضي الله عنه كان عنده سابق علم بقرب بعثة نبي من العرب وهياً نفسه للإيمان به عند ظهوره، ولذلك سرعان ما آمن أبو بكر بالنبي ﷺ فور بعثته.

يقول ابن إسحاق رحمه الله تعالى: وكان رسول الله ﷺ يقول، فيما بلغني: ((ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة<sup>(٢)</sup>)، وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم<sup>(٣)</sup> عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه<sup>(٤)</sup>)).

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي: أبو بكر الصديق رضي الله عنه. فصل في إسلامه ﷺ ص ٤١، ٤٢.

(٢) كبوة يعني: تأخيراً وقلة إجابة، أو لم تكن عنده كبوة: أي لم يتعثر أو ينكب على وجهه ولم تكن عنده سقطة (المعجم الوجيز ص ٥٢٦).

(٣) ما عكم عنه: يعني أبا بكر حين عرض عليه الإسلام أي ما تحبس وما انتظر ولا عدل [النهاية لابن الأثير «عمكم» ٣/ ٢٨٥].

(٤) ذكره ابن إسحاق في السيرة - في موضوع - ذكر من أسلم من الصحابة بدعوة أبي بكر رضي الله عنه (السيرة النبوية لابن هشام) ١/ ٢١٢ - ومن طريق ابن إسحاق أخرجه: البيهقي في الدلائل باب من تقدم إسلامه من الصحابة رضي الله عنهم وما ظهر لأبي بكر من آياته ٢٠/ ١٦٤ وابن كثير في البداية ١/ ١٠٨ وأيضاً في تفسيره ٤/ ٢٥٠ من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمي. قال: قال رسول الله ﷺ ..... ثم ذكره.

## ٢- توليته خلافة المسلمين:

تولى أبو بكر ﷺ خلافة المسلمين بعد موت النبي ﷺ مباشرة فقد أخذ المسلمون يفكرون في خلف له ﷺ قبل أن يواروا جثمانه الشريف.

ومن المعلوم أن الأنصار قد انحازوا إلى تولية سعد بن عبادَة واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة<sup>(١)</sup>، وأخذوا يفكرون في الخطوات العملية لاختيار خليفة للنبي ﷺ ينوب عنه في حراسة الدين وسياسة الدنيا على أن يكون هذا الخليفة منهم، ورشحوا لذلك سعد بن عبادَة الأنصاري. الخزرجي \* (وبينما كان أبو بكر ﷺ مشغولاً بأمر دفن النبي ﷺ أتاه آت فقال: إن هذا لحي من الأنصار مع سعد بن عبادَة في سقيفة بني ساعدة وقد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله ﷺ في بيته لم يفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله، قال عمر: فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه)<sup>(٢)</sup>

وقد ذكر عمر بن الخطاب ﷺ تفاصيل تولية أبي بكر ﷺ خلافة المسلمين في الحديث الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن عبد الله بن عباس.

ففي سنة ثلاث وعشرين من الهجرة كان عمر بن الخطاب ﷺ في موسم الحج وبينما هو يؤدي المناسك بلغه أن رجلاً يقول: لو قد مات عمر بايعت فلاناً- يقصد طلحة بن عبيد الله، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة<sup>(٣)</sup> فتمت، فغضب عمر ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس، فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغضبوهم أمورهم.

فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع

(١) سقيفة بني ساعدة: هي بالمدينة، وهي ظلة كانوا يجلسون تحتها، فيها بويع أبو بكر ﷺ، والسقيفة كل بناء سقف به صفة أو شبه صفة مما يكون بارزاً، وأما بنوا ساعدة فهم حي من الأنصار [معجم البلدان ٣/ ٢٥٩].

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (موضوع: أمر سقيفة بني ساعدة (٤/ ٢٨١).

(٣) أراد بالفتنة الفجأة ومثل هذه البيعة جديرة بأن تكون مهيجة للشر والفتنة فعصمهم الله من ذلك والفتنة: كل شيء فعل من غير روية وإنما بودر بها خوف انتشار الأمر وقيل أراد بالفتنة الخلسة أي الإمامة يوم السقيفة مالت إلى توليها الأنفس ولذلك كثر فيها التشاجر فما قلدها أبو بكر إلا انتزاعاً من الأيدي واختلاسا (النهاية «فلت» ٣/ ٤٦٧).

رعاع الناس وغوغائهم، وهم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن يحملوا كلامك على غير وجهه، فلا يعون ما تقول، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكناً، فيعى أهل العلم مقالتك ويضعونها على مواضعها الصحيحة.

فهذه نصيحة غالية قدمها عبد الرحمن بن عوف لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإن الحديث في موضوعات دقيقة لا ينبغي أن تذاع على عامة الجماهير حيث يوجد بينهم من لا يعقل ولا يفهم، ولا سيما في موسم الحج.

يقول الإمام البخاري رحمته الله تعالى:

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس قال: كنت أقرئ رجالاً من المهاجرين منهم عبد الرحمن بن عوف فبينما أنا في منزله بمنى وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجة حجها، إذ رجع إلى عبد الرحمن فقال: لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلانا، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة، فتمت، فغضب عمر ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس، فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغضبوهم أمورهم، قال عبد الرحمن فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس<sup>(١)</sup>، وغوغاءهم<sup>(٢)</sup>، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها<sup>(٣)</sup>، عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكناً، فيعى أهل العلم مقالتك، ويضعونها على

(١) رعاع الناس: أي غوغاؤهم وسقاطهم وأخلاطهم (النهاية «رعي» ٢/ ٢٣٥) •

(٢) أصل الغوغاء: الجراد حين يخف للطيران، ثم استعير للسفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر، ويجوز أن يكون

من الغوغاء: الصوت والجلبة، لكثرة لغطهم وصياحهم (النهاية «غوغ» ٣/ ٣٩٦) •

(٣) من أطار الشيء إذا أطلقه، وللسرخسي «يطيرها» بفتح أوله أي يحملونها على غير وجهها، ومثله لابن وهب

وقال يطيرها أولئك ولا يعونها أي لا يعرفون المراد بها (فتح الباري) ١٢/ ١٧٥ •



مواضعها. فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة، فلما كان يوم الجمعة عجلت الرواح حين زاغت الشمس حتى أجد سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل جالسا إلى ركن المنبر فجلست حوله تمس ركبتى ركبتة، فلم أنشب<sup>(١)</sup>، أن خرج عمر بن الخطاب فلما رأيته مقبلا قلت لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ليقولن العشية مقالة لم يقلها منذ استخلف فأنكر عليّ وقال: ما عسيت أن يقول ما لم يقل قبله. فجلس عمر على المنبر، فلما سكوت المؤذنون قام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإننى قائل لكم مقالة قد قدر لى أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدي أجلى، فمن عقلها ووعاها فيلحدث بها حيث انتهت به راحلته، ومن خشى أن لا يعقلها فلا أحل لأحد أن يكذب عليّ.

إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأنها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف، ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم أو إن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم، ألا ثم إن رسول الله ﷺ قال: لا تطرونى<sup>(٢)</sup> كما أطرى عيسى بن مريم وقولوا عبد الله ورسوله، ثم إنه بلغنى أن قائلا منكم يقول والله لو قد مات عمر بايعت فلانا، فلا يغترن امرؤ أن يقول إنما كانت بيعة أبى بكر فلتة وتمت ألا وإنها قد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها، وليس فيكم من تقطع الأعناق<sup>(٣)</sup>، إليه مثل أبى بكر، من بايع

(١) أى لم أتعلق بشئ غير ما كنت فيه والمراد سرعة خروج عمر (فتح الباري) ١٢/ ١٧٥.

(٢) الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه [النهاية «طرا» ٣/ ١٢٣].

(٣) وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبى بكر: قال الخطابى: يريد أن السابق منكم الذى لا يلحق فى الفضل لا يصل إلى منزلة أبى بكر فلا يطمع أحد أن يقع له مثل ما وقع لأبى بكر من المبايعه له أولاً فى المملأ اليسير ثم اجتماع الناس عليه وعدم اختلافهم عليه لما تحققوا من استحقاقه فلم يحتاجوا فى أمره إلى نظر ولا إلى مشورة أخرى وليس غيره فى ذلك مثله [النهاية «طرا» ٣/ ١٢٣] ٠

رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة<sup>(١)</sup>، أن يقتلا، وإنه قد كان من خبرنا حين توفي الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا علي والزبير ومن معهما واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلاً صالحاً فذكر ما تملاً عليه القوم فقالوا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار فقالوا: لا عليكم أن لا تقرّبوهم، اقضوا أمركم، فقلت: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجل مزمل<sup>(٢)</sup>، بين ظهرائهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عباد، فقلت: ماله؟ قالوا: يوعك<sup>(٣)</sup>، فلما جلسنا قليلاً تشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم - معشر المهاجرين - رهط وقد دفت<sup>(٤)</sup>، دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا<sup>(٥)</sup>، من أصلنا وأن يحضنونا<sup>(٦)</sup>، من الأمر فلما سكت أردت أن أتكلم - وكنت قد زورت<sup>(٧)</sup>، مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر - وكنت أدارى منه بعض الحد<sup>(٨)</sup>، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر على رسلك فكرهت أن أغضبه فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديته مثلها أو أفضل منها حتى سكت، فقال: ما ذكرتكم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم - فأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا - فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم

(١) أى خوفاً أن يقتلا (النهاية «تغرة» ١/ ١٩١) .

(٢) مزمل: مغطى مدثر [النهاية «زمل» ٢/ ٣١٣] .

(٣) أى يحصل له الوعك وهو الحمى [النهاية «وعك» ٥/ ٢٠٧] .

(٤) الدافة: القوم يسرون جماعة سيرا ليس بالشديد (النهاية «دفف» ٢/ ١٢٤) .

(٥) أى يقتطعوننا ويذهبوا بنا منفردين [النهاية «خزل» ٢/ ٢٩] .

(٦) أى يخرجونا [النهاية «حضن» ١/ ٤٠١] .

(٧) أى هيات وأصلحت والتزوير: إصلاح الشئ وكلام مزور أى محسن (النهاية «زور» ٢/ ٨/ ٣) .

(٨) الحد: هو الغضب (النهاية «حدد» ١/ ٣٥٣) .

أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسول إلى نفسى عند الموت شيئاً لا أجده الآن، فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك<sup>(١)</sup>، وعذيقها المرجب<sup>(٢)</sup>، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعته الأنصار، ونزونا على سعد بن عباد فقال قائل منهم: قتلتم سعد ابن عباد، فقلت: قتل الله سعد بن عباد فقال قائل والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبى بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا فإما بايعناهم على ما لا نرضى وإما نخالفهم فيكون فساداً، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه تغرة أن يقتلا<sup>(٣)</sup>.

وفى الحديث إشارة إلى التحذير من المسارعة إلى مثل ذلك حيث لا يكون هناك مثل أبى بكر لما اجتمع فيه من الصفات المحمودة من قيامه فى أمر الله، ولين جانبه للمسلمين، وحسن خلقه، ومعرفته بالسياسة، وورعه التام ومن لا يوجد فيه مثل صفاته لا يؤمن من مبايعته عن غير مشورة الاختلاف الذى ينشأ عنه الشر.

وفيه جواز إخبار السلطان بكلام من يخشى منه وقوع أمر فيه إفساد للجماعة ولا يعد ذلك من النسيمة المذمومة، لكن محل ذلك أن ييهمه صونا له وجمعا له بين المصلحتين، ولعل الواقع فى هذه القصة كان كذلك واكتفى عمر بالتحذير من ذلك ولم يعاقب الذى قال ذلك ولا من قيل عنه. وفيه أن العظيم يحتمل فى حقه من الأمور المباحة ما لا يحتمل فى حق غيره، لقول عمر «وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبى بكر» أى فلا يلزم من احتمال المبادرة إلى بيعته عن غير تشاور عام أن يباح ذلك

(١) جذيلها: تصغير جذل وهو العود الذى ينصب للإبل الجربى لتحك به وهو تصغير تعظيم أى أنا من يستشفى برأيه كما تستشفى الإبل الجربى بالاحتكاك بهذا العود [النهاية «جذل» ١: ٢٥١].

(٢) العذيق: تصغير العذق بالفتح وهى النخلة وهو تصغير تعظيم والرجبة هو أن تعمد النخلة الكريمة ببناء من حجارة أو خشب إذا خيف عليها لطولها وكثرة حملها أن تقع [النهاية «عذق» ٢: ١٩٧].

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الحدود ٣١ باب رجم الحبل من الزنا إذا أحصنت ١٢/١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣ ح ٦٨٣٠ والإمام أحمد فى المسند ١/٥٦، ٥٥ وفى السنن الكبرى قتال أهل البغى جماع أبواب الرعاة ١ باب الأئمة من قريش ٨/١٤٢ ح ١٦٥٣٥ جميعهم عن ابن عباس رضي الله عنه.

لكل أحد من الناس لا يتصف بمثل صفة أبي بكر<sup>٥</sup> وفيه أن من اطلع على أمر يريد الإمام أن يحدثه فله أن ينبه غيره عليه إجمالاً ليكون إذا سمعه على بصيرة. وفيه جواز الاعتراض على الإمام في الرأي إذا خشى أمراً وكان فيما أشار به رجحان على ما أراده الإمام. وفيه دليل على أن من خشى من قوم فتنة وأن لا يجيبوا إلى امتثال الأمر الحق أن يتوجه إليهم وينظرهم ويقيم عليهم الحجة.

وفيه أنه لا يكون للمسلمين أكثر من إمام.

وفيه أن على الإمام إن خشى من قوم الوقوع في محذور أن يأتيهم فيعظهم ويحذرهم قبل الإيقاع بهم.

وفيه إشارة ذوى الرأي على الإمام بالمصلحة العامة بما ينفع عموماً أو خصوصاً وإن لم يستشره، ورجوعه إليه عند وضوح الصواب.

واستدل بقول أبي بكر «أحد هذين الرجلين» أن شرط الإمام أن يكون واحداً<sup>(١)</sup>،

### ٣- عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشرح أبا بكر رضي الله عنه للخلافة:

يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام عن معمر عن الزهرى: «أخبرنى أنس بن مالك رضي الله عنه (أنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس على المنبر وذلك الغد من يوم توفى النبي ﷺ فتشهد وأبو بكر صامت لا يتكلم قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا، يريد بذلك أن يكون آخرهم، فإن ياء محمد ﷺ قد مات فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدى الله محمداً ﷺ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثانى اثنين، فإنه أولى الناس بأموالكم، فقوموا فبايعوه، وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بنى ساعدة. كانت بيعة العامة على المنبر، قال الزهرى عن أنس بن مالك: سمعت عمر يقول لأبى بكر يومئذ اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة<sup>(٢)</sup>».

(١) فتح البارى لابن حجر ١٨٣/٢.

(٢) أخرجه البخارى في كتاب الأحكام ٥١ باب الاستخلاف ١٣/٢٥٢ ح ٧٢١٩ عن أنس رضي الله عنه والبيهقى بالفاظ

متقاربة في كتاب قتال أهل البغى ١ باب الأئمة من قريش ٨/١٤٣ ح ١٦٥٣٦ عن عائشة رضي الله عنها.

وقد دارت مناقشات وردود ومجادلات بين المهاجرين والأنصار في أمر الخلافة عقب وفاة النبي ﷺ وانتهت بمبايعة أبي بكر خليفة للمسلمين.

#### ٤ - تطبيق مبدأ البيعة (الأمة الإسلامية تختار الخليفة وتبايعه):

كانت مبايعة أبي بكر للخلافة نموذجاً حياً ومثالاً يحتذى للتخليف ونظاماً حقيقياً يهتدى به في تولية أمر الخلافة بعد ذلك. ومبدأ المبايعة بهذا الشكل يعلن عن حق الأمة السياسي في اختيار من تراه صالحاً، فتعقد آمالها عليه.

يقول الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الفيومي:

من الأمور المهمة في التاريخ السياسي في الإسلام، أن نظام الحكم في الإسلام بنى منذ أول اختيار خليفة في الإسلام ليلى مقاليد أمر الأمة على «مبدأ البيعة» أى حق الأمة في اختيار الحاكم وإسقاطه، حقاً مشروعاً وهو مبدأ بات من السنن العملية التي استنهاصحابه رسول الله ﷺ وتم العمل بها، فلم ينحصر أمرها في أسرة مقدسة، أو حق موروث لبيت على بيت تتوارثه الأجيال كما حصل فيما بعد. ولم يدع الخلفاء الراشدون بأنهم ظل الله على الأرض. أو أنهم خلفوا النبي في النبوة والرسالة. وإنما هم قد خلفوه في الإمامة والقيادة، كما خلفوه في القضاء والحكم بين الناس ولم تكن فكرة وراثته النبوة موجودة إلا فيما بعد عند الشيعة التي كانت تقول بانتقال النور الإلهي إلى أولاد النبي من بعده، وانتقلت وراثته النبوة من مجالها النظري إلى أصل من أصول الاعتقاد لدى الشيعة.

وحين قام عمر بمبايعة أبي بكر، تدافع الناس من بعده يشهدون له ويشدون على يده بالمبايعة ليكون خليفة لرسول الله ﷺ، وكان أهم ما قاله في خطبته بعد أن صعد المنبر والصحابة ما زالوا ماكثين في المسجد: رفض الإشارة إلى مقولة الأنصار: «منا أمير ومنكم أمير» ولم يكن رفضه يحمل معنى التسلط والعنجهية الكاذبة، إنما كان تذكيراً لأسس بناء المجتمع الإسلامي التي أرساها الرسول ﷺ<sup>(١)</sup>.

(١) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي تأليف الأستاذ الدكتور / محمد إبراهيم الفيومي ص ٣٥، ٣٦ ط دار الشروق.

## ٥ - البيان السياسي لأبي بكر (منهج الحاكم):

بعد أن انتهت جماهير المسلمين من مبايعة أبي بكر الصديق ﷺ بالمسجد النبوي شرع الخليفة أبو بكر ﷺ يوضح لهم منهجه في الحكم ونظامه الذي سوف يسير عليه في كلمات قصيرة حملت معاني كثيرة:

(فتكلم أبو بكر، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحكم الله<sup>(١)</sup>).

«فتلك هي الخطبة الأولى لأبي بكر، خليفة المسلمين الأول، بعد توليته مقاليد الخلافة، لم تعلن عن حق مزعوم في الخلافة، أو أنه ظل الله على الأرض، أو أنها حكر على قبيلة معينة أو أسرة لها مظاهر التقديس. إنما الأمر في شأنها شورى بين المسلمين، وأن الأمة لها حق اختياره وانتخابه ولها حق المتابعة والتنبيه، «وما أنا إلا كأحدكم» وبناء على هذا الاختيار تقرر أركان النظرية السياسية في الإسلام. فقد سبق الإسلام إليها ولم تكن معروفة قبل لدى الإمبراطورية الرومانية أو الفارسية فهما معاً يشتركان في التميز الأسرى، وقدسية الإمبراطور، وأنه ظل الله على الأرض، وتوارث الحكم في أسرة مقدسة لها تميزها وشرفها وسؤدها.

وما تميزت به خطبة أبي بكر. كأول خطبة لأول خليفة، أنه وضع فيها ملامح سياسته، وحدد فيها أيضاً مفهوم الأمة، وأنها مشاركة في المسؤولية بالرجوع إليها بالمشورة، وأن كتاب الله حكم بينه وبينها، وأنه السلطة الأعلى «أطيعوني ما أطعت الله فيكم» وبيدها الحل والعقد. وذلك لم يكن واضحاً فيما سبق حكم الإسلام، سواء في

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة «موضوع» (حديث الثقيفة ٣/ ١٥٠ طبعة مؤسسة عز الدين «بيروت») وذكره

ابن كثير في البداية والنهاية. موضوع خلافة أبي بكر الصديق ﷺ وما فيها من الحوادث (٦/ ٢٩٤).

الامبراطورية الرومانية أو الفارسية. فإن طبقة معاونيهم هم فقط أصحاب الامتياز، ودونهم من الشعوب هم خدم وعبيد ورعايا ورعاغاً مواطنون من الدرجة الثانية، أو بالأحرى هم الأدوات للسادة أشرف الإمبراطوريتين يعرفهم الحاكم عند جباية الضرائب الباهظة، وخدم السادة، ومنهم الجيوش الحاشدة للإمبراطور، ومنهم الفداء<sup>(١)</sup>، ومنهم العبيد<sup>(٢)</sup>.

ومن مضمون هذا البيان السياسى الهام (برنامج الحاكم ومنهاجه) الذى استهل به أبوبكر الصديق خلافته. تستبين السياسة العامة له فى الرعية. فقد كشف للجماهير عن أنه قد تولى رئاسة الدين وسياسة الدنيا وهو كأحدهم. وعليهم معاونته إن أحسن معاملتهم والسيرة فيهم، وأن يقيموا معوجه إن أساء. وحضهم على الصدق وحذرهم من الكذب وأوضح لهم أن ضعيفهم عنده قوى وقويهم لديه ضعيف حتى يوقف كل واحد منهم عند حده بالتى هي أحسن وأفصح لهم عن سمو منزلة الجهاد. ورغبهم فيه فقد كان لا بد منه وقتئذ وأن الهوان والذل لمن يدع الجهاد. وأمرهم بطاعته كخليفة على المسلمين طالما أطاع الله والرسول فإذا عصيتهما فلا طاعة لى على الناس. وأنه مستعد للتخلي نهائياً عن منصبه، ثم أنهى البيان بأمره إياهم أن يقوموا إلى الصلاة. داعياً الله تعالى أن يرحمهم هذا وعقب الفراغ من ذلك كله انصرف الجميع لتدبير مراسم الجنازة ومواراة الجثمان النبوى الشريف).

وعلى أثر ذلك فإن جماهير المسلمين رغم فقدانهم نبيهم ﷺ يومئذ، فقد استشعروا بعد بذل البيعتين أنهم قد اجتازوا تلك الأزمة فى سلام. بوحى من إدراكهم للموقف الراهن. وتقديرهم للظروف الجديدة الطارئة التى وضعهم الإسلام فيها. وأنهم أصبح لهم الحرية التامة فى أن يختاروا من الحكام ومن أنظمة الحكم ما يتلاءم مع أحوالهم، وينسجم مع تطور حياتهم وأنهم قد اختاروا الرجل الذى توفرت فيه صفات القيادة الحكيمة والحميدة، والخلق الرفيع، وأول من حمل لقب خليفة رسول ﷺ لأنه خلفه فى رئاسة الدولة الإسلامية، ورعاية شئون المسلمين الدينية والدنيوية، والزود

(١) الفداء: فكاك الأسير (النهاية) (فدا) ٣ / ٤٢١).

(٢) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى ص ٣٦، ٣٧ بتصرف يسير.

عن حياض الدين الإسلامى الخفيف.

ومن هنا نعلم أن الخلافة واجبة شرعا وعقلا وأن تنصيب الإمام واجب بدليل مبادرة الصحابة المنجزة لمبايعة أبى بكر بالسقيفة ثم بالمسجد النبوى لما عهدوه من خلال الشرف والسؤدد، وتسليمهم النظر إليه فى أمورهم<sup>(١)</sup>.

٦- بعض الأحاديث التى أشارت إلى خلافة أبى بكر ﷺ والتى أهلته لخلافة المسلمين:

يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال سمعت القاسم بن محمد قال (قالت عائشة رضي الله عنها وأرأساه فقال رسول الله ﷺ: ذلك لو كان وأنا حى فأستغفر لك وأدعوك، فقالت عائشة: واثكلىاه، والله إنى لأظنك تحب موتى، ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرسا ببعض أزواجك، فقال النبى ﷺ: بل أنا وأرأساه، لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبى بكر وابنه فأعهد؛ أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنون. ثم قلت يا أبى الله، ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون)<sup>(٢)</sup> قوله «فأعهد» أى أعين القائم بالأمر بعدى<sup>(٣)</sup>.

ويقول الإمام مسلم رحمه الله تعالى: حدثنا عبيد الله بن سعيد. حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا إبراهيم بن سعد. حدثنا صالح بن كيسان عن الزهرى. عن عروة عن عائشة قالت: قال لى رسول الله ﷺ فى مرضه «ادعى لى أبا بكر، وأخاك حتى أكتب كتابا، فإنى أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى. ويأبى

(١) الخلفاء الراشدون، عصر أبى بكر الصديق ﷺ ص ٥٥، ٥٦ بتصرف.

(٢) أخرجه البخارى فى الصحيح كتاب الأحكام ٥١ باب الاستخلاف ١٢/٢٤٩ ح ٧٢١٧ ومسلم بالفاظ متقاربة فى كتاب فضائل الصحابة ١ باب من فضائل أبى بكر الصديق ﷺ ٨/١٦٣ ح ٢٣٨٧- والإمام أحمد فى المسند ٦/٢٢٨ والبيهقى فى السنن فى كتاب الجنائز ٨ باب المريض يقول وأرأساه أو إنى وجع أو اشتد بى الوجع ٣/٣٧٨ ح ٥٦٦٨ جميعهم عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) فتح البارى ١٣/٢٤٩.



الله والمؤمنون إلا أبا بكر»<sup>(١)</sup>.

يقول الإمام النووي رحمه الله: في هذا الحديث دلالة ظاهرة لفضل أبي بكر الصديق عليه السلام وإخبار منه ﷺ بما سيقع في المستقبل بعد وفاته. وأن المسلمين يأبون عقد الخلافة لغيره<sup>(٢)</sup>. ١-هـ.

ولقد أمر النبي ﷺ الناس أن يستشيروا أبا بكر بعد وفاته عليه السلام وأن يرجعوا إليه في أمورهم وفي هذا إشارة إلى خلافته وقيامه بحراسة الدين وسياسة الدنيا يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا الحميد بن محمد بن عبد الله قال: حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال «أتت امرأة للنبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك - كأنها تقول الموت - قال ﷺ: إن لم تجدني فأتني أبا بكر»<sup>(٣)</sup>.

والمعلوم أن النبي ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس حينما مرض ﷺ وفي هذا إشارة إلى أنه سينوب عن النبي ﷺ في إمامة الناس بعد ذلك.

يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا إسماعيل حدثني مالك عن هشام بن عروة عن أبيه «عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال في مرضه: مروا أبا بكر يصلي بالناس، قالت عائشة: قلت إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من

(١) أخرجه مسلم في الصحيح كتاب فضائل الصحابة ١ باب من فضائل أبي بكر الصديق عليه السلام ٨/١٦٣ ح ٢٣٨٧ - والبخاري بألفاظ متقاربة في كتاب الأحكام ٥١ باب الاستخلاف ١٣/٢٤٩ ح ٧٢١٧ والإمام أحمد في المسند ٣/٣٩٨ - والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب قتال أهل البغي ٨ باب في تنبيه الإمام على ما يراه أهلاً للخلافة بعده ٨/١٥٣ ح ١٦٥٨٨ جميعهم عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) شرح النووي على مسلم ٨/١٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب فضائل الصحابة: ٥ باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» ٧/٢٣ ح ٣٦٥٩ وفي كتاب الأحكام ٥١ باب الاستخلاف ١٣/٢٥٤ ح ٧٢٢٠ وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٢٤ باب بدون ترجمة ١٣/٤٠٣ ح ٧٣٦٠ ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ١ باب من فضائل أبي بكر الصديق عليه السلام ٨/١٦٣ ح ٢٣٨٦ والترمذي في كتاب المناقب ١٧ باب بدون ترجمة ١٠/١٢٤ ح ٣٦٨٥ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والإمام أحمد في المسند (٤/٨٢)، والبيهقي في السنن الكبرى كتاب قتال أهل البغي ٨ باب ما جاء في تنبيه الإمام على من يراه أهلاً للخلافة بعده ٨/١٥٣ ح ١٦٥٨٩ جميعهم عن جبير بن مطعم عليه السلام.

البكاء، فمر عمر فليصل، فقال: مرو أبابكر فليصل بالناس. فقالت عائشة فقلت لحفصة: قولي إن أبابكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل بالناس، ففعلت حفصة. فقال رسول الله ﷺ إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبابكر فليصل بالناس، فقالت حفصة لعائشة ما كنت لأصيب منك خيراً<sup>(١)</sup>.

٧- نماذج من حكومة أبي بكر الصديق ﷺ وما وقع في أيامه من الأمور الكبار:

ما أن بويع أبوبكر بالخلافة حتى تنكرت له الدنيا فما هي التي يعرف ووقعت في مستهل خلافته حوادث عظيمة ومشاكل كبيرة، تغلب عليها بإيمان ثابت، وعقل راجح، وقلب واع. وما لانت له قناة أو ضعفت له قوة.

« فلما بويع أبوبكر الصديق ﷺ وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه قال: ليتم بعث أسامة وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة، ونجم النفاق واشرب أعناق اليهود والنصارى، والمسلمون كانوا كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ »<sup>(٢)</sup>.

فالمهمة كانت شاقة جداً على أبي بكر ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ فكيف يمسك بزمام الأمور، ويسير بسفينة الإسلام إلى بر الأمان وينهى المحن التي تعرض لها بسلام؟

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٥ باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع ٣٣٩/١٣ ح ٧٣٠٣ ومسلم في كتاب الصلاة ٢١ باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر ٣٧٧/٢ والترمذي في كتاب المناقب ١٦ باب في مناقب أبي بكر وعمر كليهما ١٠/١٢٠ ح ٢٣٨٦ والنسائي في كتاب الإمامة: باب الإمام يصلي قاعدا ٩٩/٢- وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ١٤٢ باب ما جاء في صلاة رسول الله ﷺ في مرضه ١/٤٦٥ ح ١٢٣٢ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الصلاة ٣٣٣ باب من بكى في صلاته فلم يظهر من صوته ما يكون كلاماً له هجاء ٢/٢٥٠، ٢٥١ ح ٣٣٥٤ وأبو عوانة في مسنده كتاب الصلاة: باب بيان إباحة ترك الانتماء للإمام في الصلاة ٢/١١٤ جميعهم عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) تاريخ الطبري موضوع (ذكر الخبر عما جرى بين المهاجرين والأنصار في أمر الإمامة في سقيفة بني ساعدة ٣/١١٣).

فكان عليه أولاً أن يصمد في وجه المحاولات التي بذلت من أجل تمزيق وحدة الأمة الإسلامية وإشعال نار الفتنة بين أفرادها، وقد نجح أبو بكر ﷺ باقتدار في رآب الصدع، ولم شمل الأمة، ومن ثم حسم موضوع الخلافة وسياسة الأمة وأنهى القضية بسرعة ومهارة فائقتين.

وكانه عليه ثانياً أن يهدئ من روع الأمة التي مازالت مكلومة في مصاب لم تصب بمثله من قبل، وهو وفاة النبي ﷺ، حتى أن عمر بن الخطاب كان لا يكاد يصدق أن رسول الله ﷺ قد قبض. يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثنا سليمان بن بلال عن هشام بن عروة قال أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي ﷺ: «أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح<sup>(١)</sup>»، قال إسماعيل: يعنى بالعالية فقام عمر يقول والله ما مات رسول الله ﷺ قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسى إلا ذاك وليبعثه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله فقال: بأبى أنت وأمى طبت حياً وميتاً والذي نفسى بيده لا يذيقك الله الموتين أبداً ثم خرج فقال: أيها الخالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر<sup>(٢)</sup>.

فقام الصديق ﷺ وهدأ من روع الأمة بصبر القانع بقضاء الله وقدره، وبدرجة عظيمة من ضبط النفس خاطب الأمة:

«تقول السيدة عائشة: «فحمد الله وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله

(١) السنح: إحدى محال المدينة كان بها منزل أبى بكر الصديق ﷺ، حين تزوج مليكة وقيل حبيبة بنت خارجه - وهى في طرف من أطراف المدينة وبينها وبين منزل النبي ﷺ ميل - (معجم البلدان ٣/ ٢٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصحيح فضائل الصحابة: ٥ باب قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً» ٣٣/ ٧ ح ٣٦٦٧ والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب قتال أهل البغي ١ باب الأئمة من قريش ٨/ ٢٤٣ ح ١٦٥٣٧ كلاهما عن عائشة رضي الله عنها.

الشاكرين ﴿[آل عمران: ١٤٤] يقال فنشج<sup>(١)</sup>، الناس ييكون<sup>(٢)</sup>﴾.

وكان على أبي بكر ﷺ ثالثاً: أن يواجه موجة الردة العنيفة التي انفجرت في أنحاء الدولة الإسلامية والتي أعلنت رفضها للإسلام ومنعها للزكاة.

ثم كان عليه رابعاً: أن يواصل مسيرة الفتوحات الإسلامية التي بدأها النبي ﷺ، فيتم بعث أسامة بن زيد إلى بلاد الشام، وقد تعامل أبو بكر ﷺ مع هذه الأمور بكل حكمة وفطنة، وسياسة وكياسة تنم عن إيمان عميق بسمو المبادئ التي يدعو إليها، وتظهر إلى أي حد نجح الصديق ﷺ في السير على النهج في معالجة الأمور على وفق ما تعلم من قائده الأول رسول الله ﷺ، وسأتكلم فيما يلي عن إنفاذ جيش أسامة، وقتال أهل الردة ومانعي الزكاة بشئ من التفصيل باعتبارهم من النماذج المهمة في حكومة أبي بكر ﷺ.

أ- قضية استئناف بعث أسامة بن زيد ﷺ إلى الروم:

قضية بعث جيش أسامة بن زيد ﷺ كانت من جملة القضايا التي وقعت في مستهل خلافة الصديق ﷺ، فلما رجع النبي ﷺ من حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة أقام بالمدينة شهر المحرم ومعظم شهر صفر من العام الحادي عشر للهجرة النبوية الشريفة، وفي أواخر شهر صفر هذا، وقيل في المحرم قبله<sup>(٣)</sup>، قام النبي ﷺ بتجهيز جيش كان من بين أفراد الصديق، والفاروق وأمين الأمة أبو عبيدة وغيرهم من كبار الصحابة رضوان الله عليهم، وأسند قيادة الجيش إلى الحب بن الحب أسامة بن زيد، وعزم النبي ﷺ أن يدفع بهذا الجيش إلى مشارق الشام، فيؤدب الروم ومماليكهم من نصارى العرب ومن تسول لهم نفوسهم من بعض القبائل على طول الطريق الواصل بين الحجاز والشام أن يرتدوا عن الإسلام، وأراد النبي ﷺ أيضاً أن يأخذ

(١) النشيج: صوت معه توجع وبكاء كما يردد الصبي بكاءه في صدره [النهاية (نشج) ٥٢/٥، ٥٣].

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب فضائل الصحابة ٥ باب قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً ٧/٣٣ ح ٣٦٦٧». وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى كتاب قتال أهل البغي ١ باب الأئمة من قريش ٨/٢٤٥ ح ١٦٥٣٦.

كلاهما عن عائشة ﷺ.

(٣) كتاب العبر لابن خلدون ٢/٦١ طبعة المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٢ هـ.

بثأر شهداء غزوة مؤتة<sup>(١)</sup>، الذين كان من بينهم زيد بن حارثة والد أسامة قائد الجيش. وتجمع الجيش في الجرف<sup>(٢)</sup>، حسب تعليمات النبي ﷺ، ويومئذ ظهرت أعراض مرض موته ﷺ واستمرت قرابة أسبوعين وفي خلاهما كان القائد أسامة بن زيد يتردد بين معسكر الجيش بالجرف وبين منزل النبي ﷺ لزيارته إبان مرضه والاطمئنان عليه. فلما توفي النبي ﷺ تم تسريح الجيش مؤقتاً. حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً. قال ابن سعد أخبرنا أبو أسامة حماد بن أسامة قال: حدثنا هشام بن عروة قال: ومرض رسول الله ﷺ فجعل يقول في مرضه: «أنفذوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة» قال فسار حتى بلغ الجرف، فأرسلت إليه امرأته فاطمة بنت قيس تقول: لا تعجل فإن رسول الله ﷺ ثقيل<sup>(٣)</sup>، فلم يبرح حتى قبض رسول الله ﷺ، فلما قبض رسول الله ﷺ رجع إلى أبي بكر فقال: إن رسول الله ﷺ بعثنى وأنا على غير حالكم هذه، وأنا أتخوف أن تكفر العرب فإن كفرت كانوا أول من يقاتل، وإن لم تكفر مضيت، فإني معى سروات<sup>(٤)</sup>، الناس وخيارهم<sup>(٥)</sup>، أ-هـ.

فأسامة بن زيد توقع أمراً، سرعان ما وقع. فهو قد أعلن عن خوفه من أن ترتد العرب عن الإسلام بعد موت النبي ﷺ وأراد أن يستقر بجيشه قريباً من المدينة بعض الوقت، لكي يدافع عن المدينة إذا تطلب الأمر ولم يكن أسامة وحده هو الذي رأى هذا الرأي ولكن انضم إليه في رأيه جماعة من المسلمين فقالوا لأبي بكر: (رد هؤلاء، توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة)<sup>(٦)</sup>. والمعلوم أنه قد صعب الأمر واشتد الخطب على أبي بكر ﷺ.

يقول الإمام السيوطي رحمه الله:

(أخرج أبو القاسم البغوي، وأبو بكر الشافعي في فوائده، وابن عساكر عن

(١) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام (معجم البلدان ٥/ ٢٢٠).

(٢) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام (معجم البلدان ٢/ ١٢٨).

(٣) يعني مريض. فكلمة ثقل تطلق على المريض إذ اشتد مرضه (المعجم الوجيز ص ٨٥).

(٤) أي خيارهم وسرارة الوادي وسطه وخير موضع فيه (النهاية/ سرر ٢/ ٣٦٠).

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى في ترجمة أسامة بن زيد رحمه الله: ٥٠.

(٦) تاريخ الخلفاء للسيوطي (فصل فيما وقع في خلافة أبي بكر ﷺ ص ٨٧).

عائشة رضي الله عنها قالت: لما توفي رسول الله ﷺ اشرأب النفاق وارتدت العرب، وانحازت الأنصار، فلو نزل بالجلال الراسيات ما نزل بأبى لهاضها<sup>(١)</sup> <sup>(٢)</sup>.

ولكن أبابكر سرعان ما تعامل مع الموقف بكل صلابة وحكمة واستهل خلافته بعمل سياسى كان غاية في التوفيق والسداد، ينم عن إيمان راسخ وعقل واع وبصيرة نافذة، فأمر بإنفاذ بعث أسامة في التو واللحظة ولم تضعف له عزيمة أو تلن له قناة. فخطب في الناس قائلاً: .. والله لأن تخطفني الطير أحب إليّ من أن أبدأ بشئ قبل أمر رسول الله ﷺ <sup>(٣)</sup> ١-هـ.

وقال أيضًا: (والذى لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي ﷺ ما رددت جيشا وجهه رسول الله ﷺ ولا حللت لواء عقده) <sup>(٤)</sup> ١-هـ.

#### ب - حكومة أبى بكر تنجح في أول عمل لها:

والمعلوم أن جيش أسامة رضي الله عنه مضى حتى أغار، ثم رجعوا وقد غنموا وسلموا وأذهلوا الروم بهذا الجيش الذى أغار على أرضهم وانتصر عليهم دون أن يسقط منهم مجاهد واحد، مع أن قائد الجيش كان ابن سبعة عشر عاما وقيل كان ابن عشرين سنة<sup>(٥)</sup>. وقد أعجبنى كلام أستاذى، الأستاذ الدكتور السيد أحمد إبراهيم حمور حول النتائج والآثار التى ترتبت على بعث أسامة بن زيد حيث قال: (كان إنفاذ جيش أسامة على ضوء ما صمم الخليفة أبو بكر دون تردد من أعظم الأمور نفعا للمسلمين، إذ لاشك في نجاح العمل المؤسس على جميل التخطيط، وأمانة التنفيذ ودقة المتابعة). ومن هنا نلاحظ أن الخليفة الصديق منذ البداية قد رأى أنها معركة مصير، لذا يجب أن يصدق إيمان المؤمنين وأن ينفروا جميعا من أجل استئناف العمل الذى بدأه النبي ﷺ، ومقاتلة المرتدين حتى تدين لهم الأمم وتخضع لهم الدول ويدخل الناس

(١) معنى «لهاضها» أى لهدمها وكسرها ودكها فانقضت (لسان العرب (هضض) ٦ / ٤٦٧١).

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى (فصل فيما وقع في خلافته ﷺ ص ٨٦).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي. سير الخلفاء الراشدين ص ٣٢.

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى (فصل فيما وقع في خلافته ﷺ ص ٨٧).

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد: أسامة الحب بن زيد ٤ / ٥٤٠.

في دين الله أفواجًا.

يؤيد ذلك ما قيل حول النتيجة المبهرة من إنفاذ ذلك البعث - : (فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوة، لما أرسلوا هذا الجيش)، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه<sup>(١)</sup>، وأيقنوا بأنه في استطاعة المسلمين - برغم قلتهم - أن يردوا كيد كل متمرّد مهما بلغت كثرته وقوته.

والمعلوم أن إنجاز الخليفة الصديق ﷺ مسيرة ذلك البعث راجع إلى صدق إيمانه وقوة عقيدته، وعظم تمسكه بالدين وشدة حرصه على متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في تبليغ الدعوة وحمايتها، وإلى حزمه في جميع أموره، وحسمه المواقف بما يتناسب، وشدة حفاظه على الإسلام وأهله. وإبرازه عظمة هذا الدين الحنيف، والتفاني في نشره - بالتى هي أحسن - بين ربوع العالم، وأمام المحب والمبغض، والقاصي والداني، والملك والسوقة، وإذا كان من بين النتائج والآثار أن استئناف مسيرة ذلك البعث من أعظم الأمور نفعا للمسلمين. فإن منها - أيضًا - تنفيذ أمر الرسول ﷺ، بل وأمر خليفته أبي بكر من بعده، والانتقام لشهداء مؤتة وتأمين تخوم الدولة العربية الإسلامية التي بينها وبين دولة الروم الشرقية (البيزنطية) وعودة الهيبة للإسلام في تلك البقاع والأصقاع، واعتراف البدو على طول الطريق بين المدينة ومشارف الشام وإقرارهم باستتباب الأمر واستقراره للخليفة أبي بكر، وإرجاع الحيارى - المذبذبين المترددين - بين الإسلام والردة إلى صوابهم بثبوتهم على الإسلام وتقوية الروح المعنوية في المسلمين، وأصالة رأى الخليفة أبي بكر الذي كان من وقت لآخر يداخله السرور، ويغمره الفرح والحبور كلما فكر في تمسكه بأنفاذ بعث أسامة واستبقاء قائده (أسامة) في قيادته على الرغم من معارضته من بعض الصحابة، في الإنفاذ وفي الاستبقاء على السواء - والتمهيد لمهاجمة مانعي الزكاة، والمرتدين والمتنبئين فور الفراغ من مرحلة مقاومتهم وصدّهم عن مناطق المدينة، وعقب عودة أسامة وجيشه من مشارف الشام إلى دار الهجرة<sup>(٢)</sup> - هـ.

(١) الكامل لابن الأثير ٢/ ١٣٩ والبداية والنهاية لابن كثير (موضوع في تنفيذ جيش أسامة بن زيد ٢٩/ ٦).

(٢) الخلفاء الراشدون عصر أبي بكر الصديق ﷺ ٧٣-٧٥ بتصرف.

ج - قتال أهل الردة ومانعي الزكاة وأهميته في ضبط وتقويم النظام العام في دولة الإسلام:

كانت قضية أهل الردة ومانعي الزكاة من جملة القضايا التي وجه بها أبو بكر رضي الله عنه في بداية خلافته.

فحينما انتشر نبأ وفاة النبي ﷺ بالنواحي ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام ومنعوا الزكاة. وظهر فيهم متنبئين كذابين، وانتشرت حركة الردة في أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها، فارتدت اليمن والبحرين وعمان ومهرة وحضر موت، وارتدت قبائل من بني حنيفة وتنبا فيهم مسيلمة الكذاب وارتدت بنو أسد وغطفان وتنبا فيهم طليحة بن خويلد الأسدي<sup>(١)</sup>، كذلك ارتدت جماعات من بني سليم وهوازن وبني تميم وعبس وذبيان كما ارتدت قبيلة كلب وبني القين وغيرها.

وعلى ذلك فحركة الردة كانت عامة وشاملة وكان مقصد المرتدين هو مدينة رسول الله ﷺ انتهزت تلك القبائل خروج جيش أسامة بن زيد، وقدمت على المدينة تطلب من أبي بكر أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة.

فاشتد الأمر على أبي بكر، ونزل به ما لو نزل بالجبال الراسيات لسيرها وجعلها كالسراب لاسيما وأن جيش المسلمين قد غادر المدينة ولم يكن أمام أبي بكر ثمة اختيار سوى ما قرره وأعلنه، وهو أنه لا مهادنة مع العصاة الخارجين على أحكام الإسلام حتى ينصر الله دينه ويثبت أقدام المسلمين. ولم يعبأ الصديق رضي الله عنه برأي عمر ابن الخطاب الذي هم أن يثنيه عن قتال المرتدين حيث إنهم يقولون لا إله إلا الله،

(١) طليحة بن خويلد الأسدي تنبا في بني أسد وغطفان، وانضم إليه جديلة والغوث وكان في بزاحة، وهو ماء من مياه أسد، ولم يزل مقيما في كلب حتى مات أبو بكر وكان إسلامه هنالك حين بلغه أن أسد وغطفان وعامرا قد أسلموا، ثم خرج نحو مكة معتمرا في خلافة أبي بكر، ومر بجنابت المدينة فقبل لأبي بكر: هذا طليحة. فقال ما أصنع به؟ خلو عنه فقد هداه الله للإسلام، ومضى طليحة نحو مكة ففضى عمرته ثم أتى إلى عمر إلى البيعة حين استخلف فقال له عمر: أنت قاتل عكاشة وثابت - وكان طليحة قد قتل عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم حينما أرسلهما أبو بكر رضي الله عنهما مع خالد بن الوليد إلى قتال طليحة - فقال له عمر: والله لا أحبك أبدا. فقال يا أمير المؤمنين، ما تهم من رجلين أكرمهما الله بيدى ولم يهنى بأيديهما فبايعه عمر رضي الله عنه (تاريخ الطبري موضوع: بقية الخبر عن أمر الكذاب العنسي ٣/ ١٣١).



ومضى أبو بكر لوجهه بعزيمة أمضى من السيف وقد شرح الله صدره للحق.

يقول الإمام السيوطي رحمه الله:

أخرج الإسماعيلي عن عمر رضي الله عنه قال: (لما قبض رسول الله ﷺ ارتد من ارتد من العرب وقالوا: نصلى ولا نزكى، فأتيت أبا بكر، فقلت: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش، فقال: رجوت نصرتك وجئتني بخزلائك، جبارا في الجاهلية خوارا في الإسلام بماذا عسيت أن أتألفهم؟ بشعر مفتعل، أو بسحر مفترى؟ هيهات. مضى النبي ﷺ وانقطع الوحى، والله لأجاهد منهم ما استمسك السيف في يدي، وإن منعوني عقالا، قال عمر: فوجدته في ذلك أمضى منى وأحزم، وأدب الناس على أمور هونت على كثيرا من مؤنتهم حين وليتهم)<sup>(١)</sup> ١-هـ

وأخرج البخارى حديثا فيه تفصيل ما حدث في حركة الردة ومانعى الزكاة وما كان من عزم أبى بكر رضي الله عنه على قتالهم. قال رحمه الله: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ليث عن عقيل عن الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ((عن أبى هريرة قال: لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبى بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله، فقال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا<sup>(٢)</sup>، كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق)) قال ابن

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى فصل فيما وقع في خلافته ﷺ ٨٥ بتصرف. وتاريخ الإسلام للذهبي. سير الخلفاء الراشدين ص ٣٩ وينظر تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٣/ ٣٤١، ٣٤٢ وينظر كتاب قضية منع الزكاة بمناطق المدينة ومقاومة الصديق مانعها في فجر خلافته للأستاذ الدكتور/ السيد أحمد إبراهيم حمور ص ١١، ١٥، ٢٧، طبعة مطبعة الحسين الإسلامية بالأزهر.

(٢) العقال: هو الحيل الذى يعقل به البعير الذى كان يؤخذ في الصدقة، وقيل: أراد ما يساوى عقالا من حقوق الصدقة (النهاية ((عقل)) ٢٨/ ٣).

بكبر وعبد الله عن الليث «عناقا» وهو أصح<sup>(١)</sup>.

والمعلوم أن أبا بكر أقدم على قتال المرتدين ومانعى الزكاة لأنه استشعر الخطورة الكامنة في هذه الحركة وكان رأى الصديق ﷺ في قتال مانعى الزكاة غاية في التوفيق والحكمة، حيث إنه قد نجحت حكومته في اجتياز ثانى اختبار حقيقى لها في معالجة قضايا الأمة الإسلامية وفي التعامل معها بكل سياسة وكياسة وألمعية وذكاء. فقد قامت بانتصار أبى بكر في حروب الردة والوحدة السياسية الكاملة للأمة الإسلامية في جزيرة العرب، وأصبحت الجزيرة العربية كلها خاضعة لسلطان الخلافة ولأوامر الخليفة في المدينة وبدأت صفحة جديدة من تاريخ الإسلام السياسى، وإقامة سلطان الدولة الإسلامية.

وقد أعجبنى كلام الأستاذ قطب إبراهيم محمد حول نجاح أبى بكر ﷺ في إنقاذ الدولة الإسلامية من فتنة هوجاء بتصميمه على قتال مانعى الزكاة حيث يقول: (أصر الخليفة وصمم على مجاهدة الممتنعين عن أداء الزكاة فوفى بما وعد في خطابه الأول بطاعة الله ورسوله، وحمل بإصراره الإسلام والمسلمين من صدع كان سيحدث شروخا في عقيدة الإسلام وكان سيخل بتوازنات في المجتمع يحققها أداء الزكاة.

فعدم أداء الزكاة يهدم أحد أركان الإسلام الخمس، ويؤدى إلى عصيان الله بعدم طاعته فيما أمر به من أداء الزكاة، ومخالفة رسول الله فيما سنه من تطبيقات لأنواع الزكاة، ويعرض المخالفين لعقاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة، ولو استجاب لهم الخليفة الأول لتحمل أمام الله عاقبة إقرارهم لما طلبوا. وكان ذلك ذريعة للتهاون في أركان الإسلام الأخرى.

(١) أخرجه البخارى في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: ٢ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ١٣/٣١٣ ح ٧٢٨٤، ٧٢٨٥. ومسلم في كتاب الإيمان: ٨ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ..... (١/٢٣٢ ح ٣٢ وأبو داود في أول كتاب الزكاة - ٤/٣٠٥ ح ١٥٥٣). والترمذى في كتاب الإيمان: ١ باب ما جاء أمرت أن قاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ٧/٣٢٦ ح ٢٦٠٧ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح والنسائى في كتاب الزكاة باب مانع الزكاة ٥/١٤ والإمام أحمد في المسند ١٩، ٤٧/١. والبيهقى في السنن الكبرى كتاب قتال أهل البغى: ٢٧ باب ما جاء في قتال الضرب الثانى من أهل الردة بعد رسول الله ﷺ ٨/١٧٧ ح ١٦٧٣٠ جميعهم عن أبى هريرة ؓ.

وعدم أداء الزكاة يضيع حقاً قرره الله سبحانه وتعالى للفقراء والمساكين في أموال الأغنياء، ويضيع فرصاً كانت ستتاح للعبيد والإماء ليتمتعوا بالحرية كسائر المسلمين باعتبارهم من مصارف الزكاة وهو مصرف (وفي الرقاب) والامتناع عن أداء الزكاة كان أيضاً سوف يهدر مجالات لإمكانية إصلاح حال الغارمين الذين ركبهم الدين في عمل مشروع وعجزوا عن الوفاء، وقد ذكرهم الله جل وعلا ممن تؤدي لهم الزكاة وإذا كانت الزكاة تحقق التكافل الاجتماعي في المجتمع بين الأغنياء والفقراء، الأولون بما أعطوا والآخرين بما أخذوا، وتمنع الحسد والبغضاء بينهم، وتدعم المجتمع الإسلامي بما ينفق منها على المؤلفة قلوبهم فيألفون الإسلام والمسلمين ويمنعون عنهم حقدهم وشرورهم، وتعين المسلم الغريب المنقطع عن أهله وماله حتى يصل إلى بلده، فإن الامتناع عن الزكاة يخل بتوازن المجتمع لانعدام التكافل الاجتماعي، ولانحسار تآلف القلوب، ولانقطاع حبال التعاون بين الأفراد.

ثم إن بيت المال كانت ستقل موارده بسبب انقطاع حصيلة الزكاة من الممتنعين عن الأداء، وكان من الممكن أن يقتدى المستجيبون للأداء بالممتنعين لو أقر الخليفة الأول على امتناعهم، فإصرار الخليفة الأول على جهاد الممتنعين عن أدائها وفي الإسلام والمسلمين فتنة هو جاء كانت ستموج موج البحر<sup>(١)</sup> ١-هـ

#### ٨- نماذج من الأمور الإدارية في حكومة أبي بكر رضي الله عنه:

##### أ- راتب الخليفة:

كان أبو بكر رضي الله عنه يعمل تاجراً قبل أن يتولى الخلافة، فلما بوبع أصبح وعلى رأسه أثواب يريد أن يتجر بها حتى يكتسب ويطعم أولاده وبينما هو غاد في طريقه قابله عمر ابن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما فسألاه عن وجهته التي هو مولياها فأخبرهما عن قصده، ففرضوا له كل يوم نصف شاة - أي ثمن نصف شاة - أو شاة كل يومين نفقة طعام، وأما الكسوة، فما يغطي الرأس والبطن، يقول الإمام ابن سعد رضي الله عنه تعالى: ((أخبرنا مسلم بن إبراهيم قال: أخبرنا هشام الدستوائي قال: أخبرنا عطاء بن السائب

(١) السياسة المالية لأبي بكر الصديق تأليف قطب إبراهيم محمد ص ١٠٦، ١٠٧ بتصرف طبعة الهيئة المصرية

قال: لما استخلف أبو بكر أصبح غاديا إلى السوق وعلى رقبتة أثواب يتجر بها فلقبه عمر الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالا له: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق، قالوا: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالوا: له: انطلق حتى نفرض لك شيئا، فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر، شاة<sup>(١)</sup> وماكسوه<sup>(٢)</sup>، في الرأس والبطن، فقال عمر إلى القضاء، وقال أبو عبيدة إلى الفئى، قال عمر: فلقد كان يأتى عليّ الشهر ما يختصم إليّ فيه اثنان<sup>(٣)</sup>.

ولما فرض له الصحابة هذا الراتب أعلن للمسلمين أن حرفته كانت تكفيه وأنه سوف يأخذ راتبه من بيت المال بالمعروف كما فرض له، وسوف يحترف للمسلمين فيه. يقول الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثني إسماعيل بن عبد الله حدثني علي بن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما استخلف أبو بكر الصديق قال: لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلى وشغلت بأمر المسلمين، فسيأكل آل أبى بكر من هذا المال واحترف<sup>(٤)</sup>، للمسلمين فيه<sup>(٥)</sup>).

والمعلوم أن أبا بكر رضي الله عنه رد كل ما زاد في ماله إلى المسلمين في مرض وفاته يقول الإمام ابن سعد: أخبرنا وكيع بن الجراح وعبد الله بن نمير قالوا: أخبرنا الأعمش عن أبى وائل عن مسروق عن عائشة قالت (لما مرض أبو بكر مرضه الذى مات فيه قال: انظروا ما زاد في مالى منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة بعدى، قالت: فلما مات

(١) شطر شاة: أى نصف شاة (النهاية «شطر» ٢/ ٤٧٣) .

(٢) ما كسوه: أى الذى يكسو العورة كشأن الناس يومئذ.

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى باب ذكر بيعة أبى بكر ١٣٧/٣ وقال ابن حجر فى الفتح: «الحديث مرسل ورجاله ثقات» فتح البارى ٤/ ٣٧٢ . وأخرجه البيهقى فى السنن كتاب قسم الفئى والغنيمة ٥٣ باب ما يكون للوالى الأعظم ووالى الإقليم من مال الله وما جاء فى رزق القضاة وأجر سائر الولاة ٦/ ٣٥٣ ح ١٣٠٠٩ .

(٤) معنى قوله (واحترف للمسلمين فيه) الحرفة: الصناعة وجهة الكسب. وحريف الرجل: معاملته فى حرفته، وأراد باحترافه للمسلمين نظره فى أمورهم وتثمين مكاسبهم وأرزاقهم، يقال: هو يحترف لعياله ويحرف أى يكسب [النهاية (حرف) ١/ ٣٦٩].

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب البيوع: ١٥ باب كسب الرجل وعمله بيده: ٤/ ٣٧١ ح ٢٠٧٠ والبيهقى فى السنن الكبرى: كتاب قسم الفئى والغنيمة: ٥٣ باب ما يكون للوالى الأعظم ٦/ ٣٥٣ ح ١٣٠٠٦ كلاهما عن عائشة رضي الله عنها.

نظرنا فإذا عبد نوبى كان يحمل صبيانه، وناضح كان يسقى بستانا له، فبعثنا بهما إلى عمر فقال: رحمة الله على أبى بكر، لقد أتعب من بعده<sup>(١)</sup>، وبذلك يكون أبو بكر ﷺ أول خليفة فرض له رعيته راتب في بيت المال، وصار ذلك الأمر نظاما متبعا في إدارة حكومة الخلفاء من بعده.

### ب- تولية الأمراء على أقاليم الدولة الإسلامية

(ذكر عمال أبى بكر ﷺ):

لما اتسعت الدولة الإسلامية عن طريق الفتوحات شعر النبي ﷺ بحاجة المدن - لاسيما البعيدة عن المدينة المنورة - إلى إداريين وولاة يديرون شئونها ويتولون أمرها، ولذلك سرعان ما أرسل النبي ﷺ الأمراء إلى تلك المدن والأمصار الإسلامية.

ولما بويع أبو بكر ﷺ سار على نهج النبي ﷺ في هذا الأمر فأقر بعض الولاة وغير البعض.

وجعل من نفسه ﷺ حارسا وواليا على المدينة بجانب كونه الخليفة والرئيس العام للدين والدنيا خلفا للنبي ﷺ أقر عتاب بن أسيد الأموى على ولاية مكة وقد كان عتاب ﷺ كان واليا على مكة من قبل النبي ﷺ فأقره أبو بكر.

وولى المهاجر بن أبى أمية على صنعاء<sup>(٢)</sup>، وأقر عثمان بن أبى العاص على الطائف<sup>(٣)</sup>، ووجه زياد بن ليلى على اليمن. وولى يعلى بن أمية<sup>(٤)</sup>، على

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: باب ذكر وصية أبى بكر ١٤٣/٣ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) صنعاء: اسم يطلق على موضعين أحدهما باليمن وهى العظمى، وهى المرادة هنا والآخر قرية بالغوطة من دمشق وبينها وبين عدن ثمانية وستون ميلا وصنعاء قصبة اليمن وأحسن بلادها [معجم البلدان ٣/٤٢٥، ٤٢٦ بتصرف].

(٣) الطائف: هو وادى فج وهو بلاد ثقيف بينها وبين مكة اثنا عشرة فرسخا [معجم البلدان ٩/٤].

(٤) هو الصحابي الجليل يعلى بن أمية بن أبى عبيدة بن همام بن الحارث التميمي الحنظلي حليف قريش وهو الذى يقال له يعلى بن منية استعمله أبو بكر وعمر وعثمان وشهد صفين مع علي ومات ﷺ سنة بضع وأربعين [الإصابة ٦/٦٨٥].

خولان<sup>(١)</sup>، وعلى «الجند»<sup>(٢)</sup>، معاذ بن جبل، وعلى البحرين<sup>(٣)</sup> العلاء بن الحضرمي، وعلى نجران<sup>(٤)</sup>، جرير بن عبد الله<sup>(٥)</sup>، وعلى «جرش»<sup>(٦)</sup>، عبد الله بن ثور<sup>(٧)</sup>، وعلى «دومة» الجندال<sup>(٨)</sup>، عياض بن غنم الفهري<sup>(٩)</sup>، وعلى العراق المثنى بن حارثة<sup>(١٠)</sup>، وولى على الشام كلا من أبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة<sup>(١١)</sup>، ويزيد بن أبي سفيان كل قائد منهم على جند، وعلى الجميع سيف الله خالد بن الوليد القرشي المخزومي<sup>(١٢)</sup>.

- (١) خولان: خلاف من خاليف اليمن منسوب إلى خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة (معجم البلدان ٢/٤٠٧) والمخلاف: بلغة أهل اليمن: هو الكورة أو الإقليم أو الرستاق (فتح الباري لابن حجر ٨/٧٦).
- (٢) الجند: من أعمال اليمن وهو أعظمها وهو مسماة بجند ابن نهران بطن من المعافر وبها مسجد بناء معاذ بن جبل ﷺ وبين الجند وصنعاء ثمانية وخمسون فرسخا [معجم البلدان ٢/١٦٩] والجند: الثغر، والثغر: هو كل مدينة تكون على حدود الدولة مثل مدينة العريش في شمال شرق مصر، وشلاتين في جنوبها.
- (٣) البحرين: اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان، وقد عدها قوم من اليمن وبين البحرين واليمامة مسيرة عشرة أيام [معجم البلدان ١/٣٤٦، ٣٤٧].
- (٤) نجران: هي من خاليف اليمن من ناحية مكة [معجم البلدان ٥/٢٦٦].
- (٥) هو الصحابي الجليل: جرير بن عبد الله البجلي كان له أثر عظيم في فتح القادسية ثم سكن الكوفة ومات ﷺ سنة إحدى وقل أربع وخمسين [الإصابة ١/٤٧٥].
- (٦) جرش: خلاف من خاليف اليمن من جهة مكة وهي في الإقليم الأول وقيل: هي مدينة عظيمة باليمن وولاية واسعة (معجم البلدان ٢/١٢٦).
- (٧) هو الصحابي الجليل: عبد الله بن ثور أحد بني الغوث كان أميراً في الردة وكتب إليه أبو بكر لما مات النبي ﷺ أن يجمع إليه من أطاعة من العرب ومن استجاب له من تهامة حتى يأتيه أمره [الإصابة ٤/٣٣].
- (٨) دومة الجندل: من أعمال المدينة وهي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ﷺ (معجم البلدان ٢/٤٨٧).
- (٩) هو الصحابي الجليل: عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد الفهري هاجر الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة وشهد بدرًا وأحدا والخندق والمشاهد ومات ﷺ سنة عشرين وليس له عقب [الإصابة ٤/٧٥٧].
- (١٠) هو الصحابي الجليل: المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل بن شيبان الربعي الشيباني كان إسلامه وقدمه على النبي ﷺ سنة تسع وكان حسن الرأي ميمون النقية ومات سنة أربع عشرة [٥/٧٦٧].
- (١١) هو الصحابي الجليل: شرحبيل بن حسنة أسلم قديماً وولاه عمر ﷺ على ربع من أرباع الشام ومات في طاعون عمواس وهو ابن سبع وستين [الإصابة ٣/٣٢٨].
- (١٢) الكامل لابن الأثير ٢/١٧٦ - وتاريخ الإسلام للذهبي. سير الخلفاء الراشدين ص ٢٠.

ج- المهام التي كلف بها أبو بكر ﷺ الأمراء:

كانت المهام هي:

(أ) إمامة المسلمين في الصلوات.

(ب) القيام بجمع الصدقات والزكوات.

(ج) قيادة الجيوش.

(د) اختيار القضاة وتعيينهم في مختلف البلدان التي كانوا يتولون شئونها.

(هـ) الفصل في القضايا.

(و) إقامة الحدود.

وعلى هذا الأساس كان الوالى منهم إماما وأميرا وقاضيا ومنفذا يقوم بعمل رئيس الشرطة، وقد حدد أبو بكر الصديق ﷺ راتبا يوميا للأمير لا يتجاوز درهما واحدا، واستند أبو بكر ﷺ في ذلك إلى ما فعله النبي ﷺ مع عتاب بن أسيد ﷺ وإلى مكة في عصر النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر أستاذنا الأستاذ الدكتور السيد أحمد إبراهيم حمور أن أبا بكر لم يزد في الراتب اليومي للوالى على درهم واحد مع أنه مبلغ صغير لا يفي بحاجات الوالى لأن ميزانية الدولة الإسلامية في عصر أبي بكر لم تكن تسمح بزيادة الراتب<sup>(٢)</sup> أ.هـ.

وبذلك يكون أبو بكر ﷺ قد أحكم إدارة الدولة الإسلامية التي اتسعت رقعتها داخل شطرى جزيرة العرب شمالا وجنوبا وقبض على الأمور في الأمصار بإرسال هؤلاء الولاة الذين قد حدد لهم مهامهم.

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى للدكتور أبو زيد شلى ص ١٧٥، ١٧٦ الطبعة الثالثة بمطبعة

الاستقلال الكبرى بالقاهرة ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م.

(٢) الخلفاء الراشدون عصر أبي بكر الصديق ص ٢٦٦.

## ٩- وظائف ومهام إدارية أخرى وضعها أبو بكر ﷺ في عاصمة الخلافة

منها:

أ- تعيين نائب للخليفة في حال سفره: فقد استخلف أبو بكر قتادة بن النعمان<sup>(١)</sup> على المدينة ليكون نائباً عنه حينما ذهب أبو بكر إلى الحج<sup>(٢)</sup>.

ب- وظيفة الحاجب: والحجابه عمل إداري رأى أبو بكر أنه لابد منه وكان حاجبه مولاه سديد.

ج- وظيفة الكاتب: كان يكتب له زيد بن ثابت<sup>(٣)</sup>، وعلى بن أبي طالب، وعثمان ابن عفان وغيرهم.

د- وظيفة المؤذن: اختار أبو بكر مؤذناً هو سعد القرظ مولى عمار بن ياسر<sup>(٤)</sup>  
هـ- الوزارة والقضاء إبان خلافة أبي بكر: تكفل عمر بن الخطاب ﷺ بأمرى الوزارة والقضاء في عهد أبي بكر ﷺ فكان وزيره وقاضيه طوال عصر خلافته وكان عمر ﷺ أول قاض في الإسلام ولأه أبو بكر الصديق وقال له «اقض بين الناس فإنني في شغل» فظل عمر ﷺ عاماً لا يختصم إليه اثنان لسماحة الإسلام<sup>(٥)</sup>.

و- الإفتاء: عمل مهم ودقيق كان لابد منه أسنده أبو بكر إلى علي بن أبي طالب ﷺ<sup>(٦)</sup>.  
ز- بيت المال: كان أبو بكر ﷺ أول من اتخذ بيتاً للمال، حينما نمت الموارد في الدولة الإسلامية ولا شك أنه عمل إداري وحضاري مهم استحدثه أبو بكر في عاصمة الخلافة أخرج الإمام ابن سعد عن محمد بن هلال عن أبيه (أن أبا بكر كان له بيت مال

(١) هو الصحابي الجليل: قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري شهد بدرًا وسالت عينه يوم بدر ففرد بها النبي ﷺ فكانت أصح عينيه ومات في خلافة عمر فضلى عليه ونزل في قبره [الإصابة ٥/٤١٦].

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي - سير الخلفاء الراشدين ص ٢٠.

(٣) هو الصحابي الجليل: زيد بن ثابت بن الضحاك بن لؤذان الأنصاري النجاري أبو سعيد وأبو خارجه كتب الوحي وكان من الراسخين في العلم مات سنة خمس أو ثمان وأربعين [الإصابة ٢/٥٩٢].

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي. سير الخلفاء الراشدين ص ٢٠.

(٥) سيرة عمر بن الخطاب للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ص ٤٥ ط دار بن خلدون الإسكندرية وينظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣/٣٤٢، ٤٢٦.

(٦) تاريخ الطبري ٣/٤٢٦.



بالسج ليس يحرسه أحد، ف قيل له: ألا تجعل عليه من يحرسه؟ قال عليه قفل، فكان يعطى ما فيه حتى يفرغ، فلما انتقل إلى المدينة حوله فجعله في داره، فقدم عليه مال، فكان يقسمه على فقراء الناس فيسوى بين الناس في القسم، وكان يشتري الإبل والخيل والسلاح فيجعله في سبيل الله واشترى قطائف جمع قطيفة أتى بها من البادية ففرقها في أرامل المدينة، فلما توفي أبو بكر ودفن دعا عمر الأمراء ودخل بهم في بيت مال أبي بكر منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً لا ديناراً ولا درهماً<sup>(١)</sup>.

وكان أبو عبيدة بن الجراح يساعد أبا بكر ﷺ في إدارة بيت المال، فقد ولاه أبو بكر ﷺ أمانة الأموال يرصد حسابات الغنائم والفيء والزكاة والصدقة وكل الموارد، ويقسم على المستحقين بالقسطاس المستقيم. وعلى ذلك فإن أبا بكر ﷺ هو أول من اتخذ بيتاً للمال خلافاً لقول بعضهم أن عمر بن الخطاب هو أول خليفة اتخذ ذلك.

يقول الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: (قلت: وبهذا الأثر وهو حديث ابن سعد الذي تقدم ذكره يرد قول العسكري في الأوائل: إن أول من اتخذ بيت المال عمر ﷺ، وإنه لم يكن للنبي ﷺ بيت مال، ولا لأبي بكر ﷺ، وقد رددته عليه في كتابي الذي صنفته في الأوائل، ثم رأيت العسكري تنبه له في موضع آخر من كتابه، فقال: إن أول من ولي بيت المال أبو عبيدة بن الجراح لأبي بكر)<sup>(٢)</sup>.

#### ح- العطاء في حكومة أبي بكر ﷺ:

كان أبو بكر ﷺ يقسم الأموال التي ترد إلى بيت المال من الغنائم والفيء والجزية بالحق والعدل بين أصحاب النبي ﷺ، وبالرغم من أن الحركات الإسلامية تخطت شبه الجزيرة العربية وكثرت موارد بيت المال عن طريق الغنائم والفيء والجزية وغيرها إلا أن الموارد كانت محدودة ولا تزال في طور النمو، الأمر الذي جعل أبا بكر ﷺ يسوى في العطاء لا فرق عنده بين الكبير والصغير، والحر والعبد، والذكر والأنثى يقول

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ذكر وصية أبي بكر ﷺ ١٥٩/٣.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي (فصل في أولياته ﷺ ص ٩٣).

الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا ابن المنكدر سمعت جابرًا رضي الله عنه قال: (( قال لي النبي ﷺ لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا (ثلاثًا) فلم يقدم حتى توفي النبي ﷺ فأمر أبو بكر مناديا فنادى: من كان له عند النبي ﷺ عدة أو دين فليأتنا فأتيته فقلت إن النبي ﷺ وعدنى فحشى لي ثلاثًا))<sup>(١)</sup>.

والإمام أبو يوسف<sup>(٢)</sup>، رحمه الله تعالى ذكر هذا الحديث بشئ من التفصيل فقال: ((حدثني ابن أبي نجيح قال: قدم على أبي بكر رضي الله عنه مال، فقال من كان له عند النبي ﷺ عدة فليأت فجاءه جابر بن عبد الله فقال: قال لي رسول الله ﷺ: لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا يشير بكفيه، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: خذ فأخذ بكفيه ثم عده فوجده خمسمائة فقال: خذ إليها ألفا فأخذ ألفا ثم أعطى كل إنسان كان رسول الله ﷺ وعده شيئًا، وبقيت بقية من المال فقسمها بين الناس بالسوية على الصغير والكبير، والحر والمملوك والذكر والأنثى. فخرج على سبعة دراهم وثلث لكل إنسان. فلما كان العام المقبل جاء مال كثير هو أكثر من ذلك، فقسمه بين الناس فأصاب كل إنسان عشرين درهما، قال فجاء ناس من المسلمين فقالوا يا خليفة رسول الله إنك قسمت

(١) أخرجه البخارى: في كتاب الهبة ١٨ باب إذا وهب هبة أو وعد ثم مات قبل أن تصل إليه ٥/ ٢٧٠ ح ٢٥٩٨ وفي كتاب الشهادات ٢٨ باب من أمر بإنجاز الوعد، وفعله الحسن ٥/ ٣٥٥ ح ٢٦٨٣ وفي كتاب الكفالة ٣ باب من تكفل عن ميت دينًا فليس له أن يرجع ٤/ ٥٨٢ ح ٢٢٩٦، وفي كتاب فرض الخمس ١٥ باب ((بدون ترجمة)) ٦/ ٢٩٢ ح ٣١٣٧، وفي كتاب المغازي ٧٣ باب قصة عمان والبحرين ٨/ ١١٨ ح ٤٣٨٣، ومسلم في كتاب الفضائل ١٤ باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا وكثرة عطائه ٨/ ٧٩ ح ٢٣١٤ والترمذي في كتاب الأدب ٦٠ باب ما جاء في العدة ٨/ ٩٨ ح ٢٨٢٦، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، والإمام أحمد في المسند ٣/ ٣٠٧، والبيهقي في كتاب قسم الفئى والغنيمة: ٥ باب بيان مصرف أربعة أخماس الفئى بعد رسول الله ﷺ ٦/ ٣٠٢ ح ١٢٧٤٥ جميعهم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) هو: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حبيش بن سعد بن يجر بن معاوية الأنصارى الكوفى، ولد سنة ثلاث عشرة ومائة، وهو من أنبل تلامذة الإمام أبى حنيفة النعمان، وكان أبو يوسف محدثًا ثقة فعن محمد بن الحسن قال مرض أبو يوسف فعاده أبو حنيفة فلما خرج قال: إن يموت هذا الفتى فهو أعلم من عليها. وقال أحمد بن حنبل: أول ما كتبت الحديث اختلفت إلى أبى يوسف وكان أميل إلى المحدثين من أبى حنيفة ومحمد. وقال النسائى في طبقات الخنفية: وأبو يوسف ثقة، وقال أبو حاتم يكتب حديثه - توفي أبو يوسف يوم الخميس خامس من ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائة، وعاش تسعًا وستين سنة (سير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ٥٣٥ - ٥٣٨) .

هذا المال فسويت بين الناس ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم، فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم. قال فقال: (أما ما ذكرت من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك. وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه، وهذا معاش فالأسوة فيه خير)<sup>(١)</sup>، وعلى هذا فأبو بكر رضي الله عنه سوى بين الناس في العطاء دون أن يفضل أحداً على أحد.

---

(١) ذكره القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم في كتاب الخراج. فصل (كيف كان فرض عمر لأصحاب رسول الله ﷺ ص ٤٥ طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة - الطبعة الخامسة سنة ١٣٩٦ هـ.



## الفصل الثانى

### مظاهر من أنشطة الخليفة عمر بن الخطاب ؓ

ويشتمل على النقاط الآتية:

- ١- التعريف بعمر بن الخطاب ؓ.
- ٢- عمر بن الخطاب ؓ يتولى خلافة المسلمين.
- ٣- البيان السياسى لعمر بن الخطاب ؓ.
- ٤- الفتوحات فى عهد عمر بن الخطاب ؓ.
- ٥- عمال عمر ؓ على الأمصار التى فتحت إبان خلافته وقبلها.
- ٦- عمر بن الخطاب ؓ يرسم الطريق لولاته ويوصيهم بالمسلمين خيرًا.
- ٧- سياسة القضاء وتدبير الحكم فى حكومة عمر ؓ.
- ٨- تدوين الدواوين.
- ٩- سياسة عمر بن الخطاب ؓ فى توزيع الفئ على المسلمين.
- ١٠- رفض عمر ؓ تقسيم الأرض المفتوحة على المقاتلين وفرض الخراج عليها.
- ١١- نماذج من عدل عمر ؓ فى حكومته.
- ١٢- حكومة عمر ؓ تتخذ دارًا للدقيق.
- ١٣- عمر بن الخطاب ؓ وحذره من المظالم.
- ١٤- عمر بن الخطاب ؓ أول من أعطى أجازة للجنود.

## الفصل الثانى

### مظاهر من أنشطة الخليفة عمر بن الخطاب ؓ

#### ١ - التعريف بعمر بن الخطاب ؓ:

أ - اسمه ونسبه:

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوى أبو حفص أمير المؤمنين ؓ.

ب - كنيته: أبو حفص - يعنى أبا أسد.

ج - لقبه: الفاروق

وأمه، حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية. كذا قال ابن الزبير وروى أبو نعيم من طريق ابن إسحاق أنها بنت هشام أخت أبى جهل.

د - مولده وإسلامه:

يقول ابن سعد رحمته الله تعالى: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثنى أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ولدت قبل الفجار الأعظم الآخر بأربع سنين قال: وكان عبدالله بن عمر يقول: أسلم عمر وأنا ابن ست سنين<sup>(١)</sup>، وقيل: أنه ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة<sup>(٢)</sup>، وقال ابن سعد رحمته الله تعالى: أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا محمد بن عبد الله عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قال: أسلم عمر بعد أربعين رجلاً وعشر نسوة. فما هو إلا أن أسلم عمر فظهر الإسلام بمكة<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات: ومن بنى عدى بن كعب بن لؤى عمر بن الخطاب ٣/ ٢٠٤.

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ٤/ ٥٨٨ طبعة دار الجبل بيروت.

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات: ومن بنى عدى بن كعب بن لؤى عمر بن الخطاب ٣/ ٢٠٤.

هـ- وفاته: استشهد ﷺ في أواخر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.

و- وظيفته قبل الإسلام:

(كان عمر بن الخطاب ﷺ من أشرف قريش، وكان يعمل سفيراً في الجاهلية فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم - أو بينهم وبين غيرهم - بعثوه سفيراً أى رسولاً، وإذا نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافراً أو مفاخر<sup>(١)</sup>)

٢- عمر بن الخطاب ﷺ يتولى خلافة المسلمين:

تولى عمر بن الخطاب ﷺ خلافة المسلمين بعد أن اختاره أبو بكر ﷺ لتولى هذا الأمر، وبايعه المسلمون.

روى الإمام ابن سعد بسنده عن عبد الله البهي: (أن أبا بكر رضوان الله عليه لما اشتد به المرض دعا عبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب؟ فقال: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم مني فقال أبو بكر: وإن قال عبد الرحمن هو والله أعلم منك فيه، ثم دعا عثمان فقال: أخبرني عن عمر فقال: أنت أخبرنا به فقال: على ذلك يا أبا عبد الله؟ فقال عثمان اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله، فقال أبو بكر: يرحمك الله والله لو تركته ما عدوتك، وشاور معهما سعيد بن زيد، وأسيد بن الحضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار ﷺ وسمع بعض أصحاب النبي ﷺ فدخلوا على أبي بكر فقال له قائل منهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلاف عمر علينا وقد ترى غلظته فقال أبو بكر: أجلسوني، أبالله تخوفوني، خاب من تزود من أمركم بظلم أقول: اللهم استخلفت عليهم خير أهلك، أبلغ عني ما قلت من وراءك، ثم اضطجع ودعا عثمان بن عفان فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا هو عهد أبي بكر الصديق بن قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها وعند أول عهده بالآخرة داخلها فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينى ونفسى وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه، وإن بدل فلكل امرئ

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي (عمر بن الخطاب نسبه ومولده ص ١٢٧). وينظر كتاب سيرة عمر بن الخطاب للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ص ١٤، ١٣ دار ابن خلدون بالإسكندرية.

ما اكتسب والخير أدرت، ولا أعلم الغيب ﴿وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٢٧] والسلام عليكم ورحمة الله.

ثم أمر بالكتاب فختمه وخرج به مختوما فقال عثمان للناس: أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟ قالوا نعم ثم دعا أبو بكر ورفع يديه، وقال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة فاجتهدت لهم رأياً، فوليت عليهم خيراً وأحرصهم على ما أُرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر فأخلفني فيهم فهم عبادك<sup>(١)</sup> -هـ- وقد ذكرت قصة تولية عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلافة المسلمين، لأنه قد وقع كلام من بعض المغرضين حول هذه القضية فقالوا: إن عمر بن الخطاب لم يتول الخلافة بالانتخاب أو المبايعة العامة ولكنه تولى الخلافة بعهد من أبي بكر رضي الله عنه وهذا يخالف مبدأ المبايعة، وأسس اختيار الخلفاء عند المسلمين.

والمعلوم أن هذا الكلام باطل مردود على قائله، فإنه ما أراد به إلا إثارة الشبهات والفتن، ومحاولة تغيير وجه الحقيقة. والحقيقة الواضحة أن أبا بكر رضي الله عنه قد رشح عمر رضي الله عنه للخلافة، لأن عمر كان له في عهد النبي ﷺ سابقة لم ينلها إلا أبو بكر وهو؛ ألا وهي وزارته لرسول الله ﷺ، فقد وردت الآثار الصحيحة أن عمر رضي الله عنه كان أحد وزيرى رسول الله ﷺ ومستشاريه، وأن وحى السماء كان ينزل وموافقاً لآرائه.

فعمر رضي الله عنه كان أفضل الصحابة بعد أبي بكر، وأولاهم بشئون المسلمين بعد الصديق رضي الله عنه. والمتأمل في أمر عهد أبي بكر لعمر، يرى أن أبا بكر رضي الله عنه لم يستقل بنفسه ولكنه شاور الكثير من الصحابة في هذا الأمر من أمثال عبد الرحمن بن عوف، وعثمان ابن عفان، وسعيد بن زيد، وأسيد بن الحضير، وغيرهم من المهاجرين والأنصار، وأنه بذلك تأكد من إقرار الأمة لهذا الاختيار، ثم إن أبا بكر جعل عثمان بن عفان يكتب خطاب الاستخلاف بنفسه، فضلاً عن أن هذا الاختيار قد تم بمبايعة الجمهور لعمر بن

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات: ذكر وصية أبي بكر ١٤٩/٣ وأخرج جزءاً منه من أول قوله: ودعا عثمان بن عفان فقال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم إلى قوله: وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون البيهقي في السنن الكبرى كتاب قتال أهل البغى ٦ باب الاستخلاف ١٤٩/٨ ح ١٦٥٧٦.



الخطاب نهائيا بعد وفاة أبي بكر<sup>(١)</sup>.

كما أن أبا بكر اختار لهم الأصلح وأراد لهم الخير وخاف عليهم من الفتنة، وقد انعقد الإجماع على أن تولى الخلافة يمكن أن يقع بناء على نص من النبي ﷺ أو من الخليفة الشرعي السابق<sup>(٢)</sup>، وبذلك ينتهي الإشكال حول هذه القضية.

### ٣- البيان السياسي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

بعدما تولى عمر بن الخطاب خلافة المسلمين بين منهجه في الحكم من خلال خطبة له بين فيها منهج سياسته وطريقة سيره في الحكم، وأوصى فيها المسلمين أن يكونوا خير عون له على إقامة العدل، ومعرفة وجه الحق.

يقول الإمام الطبري رحمه الله: حدثني عمر قال: حدثني علي عن أبي معشر عن ابن المنكدر وغيره وأبي معاذ الأنصاري عن الزهري ويزيد بن عياض عن عبد الله بن أبي بكر وعلي بن مجاهد عن ابن إسحاق عن يزيد بن عياض عن عبد الله بن أبي إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الناس بالله ﷻ واليوم الآخر ثم قال: «يا أيها الناس إني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم، وأقواقم عليكم، وأشدكم استضلاعا<sup>(٣)</sup>، بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم، ولكفى عمر مهما محزنا انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم، كيف أخذها أو أضعها أين أضعها، وبالسير فيكم كيف أسير، فربى المستعان، فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله ﷻ برحمته وعونه وتأيدته، وقال أيضا (إن الله ﷻ قد ولاني أمركم وقد علمت أنفع ما بحضر تكم لكم، وإنني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند

(١) ينظر كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي ص ٧ طبعة دار الكتب العلمية بيروت وكتاب العقيدة العضدية، ص ٣٠٤ طبعة القاهرة عام ١٣٢٢ هـ ويراجع مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٣، وكتاب أصول الحكم في الإسلام للدكتور عبد الرازق أحمد السنهوري طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١١٩ سنة الطبع ٢٠٠٠ م.

(٢) كتاب المواقف للجرجاني ٨ / ٣٥١ طبعة القاهرة الأولى سنة ١٩٠٧ م.

(٣) أي أقواقم عليه وأنهمكم به [النهاية «ضلع»] ٩٧ / ٣ بتصرف.

غيره، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به، وإنني امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان الله ﷻ، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلفي شيئاً إن شاء الله، إنما العظمة لله ﷻ وليس للعباد منها شيء، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغير منذ ولي، أعقل الحق من نفسي وأتقدم، وأبين لكم أمري فأیما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلومة أو عتب علينا في خلق فليؤذني فإنما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سركم وعلا نيتكم، وحرما تكم وأعراضكم، وأعطوني الحق من أنفسكم، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلي فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة، وأنا حبيب إلى صلاحكم، وعزيز على عتبتكم، وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه، وإن الله ﷻ قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه ومطلع على ما بحضرتي بنفسي إن شاء الله، لا أكله إلى أحد، ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصيح منكم للعامة، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - الفتوحات في عهد حكومة عمر بن الخطاب ﷺ:

عهد الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، هو عهد الفتح الإسلامي الذهبي، فقد حالف النصر فيه أعلام المسلمين، فامتدت دولتهم حتى جاوزت أفغانستان إلى حدود الصين شرقاً، والأناضول<sup>(٢)</sup>، وبحر قزوين<sup>(٣)</sup>، شمالاً، وتونس<sup>(٤)</sup>، وما وراءها من أفريقيا الشمالية غرباً، وبلاد النوبة<sup>(٥)</sup>، جنوباً. وفي سنة أربع عشرة فتحت دمشق<sup>(٦)</sup>، ما

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤/٤١٧، ٤١٨.

(٢) هي تركيا حالياً.

(٣) بحر قزوين: قزوین مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخاً وإلى أبهر اثنا عشر فرسخاً (معجم البلدان ٤/٣٤٢).

(٤) تونس: مدينة كبيرة محدثة بإفريقيا (معجم البلدان ٢/٦٠).

(٥) النوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر (معجم البلدان ٥/٣٠٨، ٣٠٩).

(٦) دمشق: البلدة المشهورة قصبة الشام، وهي عاصمة سوريا الآن (معجم البلدان بتصرف ٢/٤٦٣).

بين صلح وعنوة، وحمص<sup>(١)</sup>، وبعلبك<sup>(٢)</sup>، صلحًا والبصرة<sup>(٣)</sup>، والأبلة<sup>(٤)</sup>، كلاهما عنوة. وفي سنة خمس عشرة كانت وقعة اليرموك<sup>(٥)</sup>، والقادسية<sup>(٦)</sup>، وفتحت فيها الأردن<sup>(٧)</sup>، كلها عنوة إلا طبرية<sup>(٨)</sup>، فإنها فتحت صلحًا. وفي سنة ست عشرة فتحت الأهواز<sup>(٩)</sup>، والمدائن<sup>(١٠)</sup>، وأقام بها سعد بن أبي وقاص الجمعة في إيوان كسرى، وهى أول جمعة جمعت بالعراق، وذلك في صفر، وفيها كانت وقعة جلولاء<sup>(١١)</sup>، وهزم فيها يزدجرد بن كسرى وتقهقر إلى الرى<sup>(١٢)</sup>، وفيها فتحت تكريت<sup>(١٣)</sup>، وفيها سار عمر ففتح

(١) حمص: بلد مشهور بين دمشق وحلب في نصف الطريق (معجم البلدان ٢/ ٢٠٣)

(٢) بعلبك: بلد قديمة فيها أبنية عظيمة بينها وبين دمشق مسيرة ثلاثة أيام (معجم البلدان ١/ ٤٥٣ بتصرف) .

(٣) البصرة: مدينة بالعراق، وهى موجودة إلى الآن (معجم البلدان ١/ ٤٣٠) .

(٤) الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة (معجم البلدان ١/ ٧٧) .

(٥) اليرموك: واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضى إلى البحيرة الممتنة، كانت به حرب بين المسلمين والروم في أيام أبى بكر الصديق ﷺ (معجم البلدان ٥/ ٤٣٤) .

(٦) القادسية: مكان بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا وبينه وبين العزيب أربعة أميال وبهذا الموضع كان يوم القادسية بين المسلمين بقيادة سعد بن أبى وقاص ﷺ والفرس في أيام عمر بن الخطاب ﷺ في سنة ١٦ هـ (معجم البلدان ٤/ ٢٩١) .

(٧) الأردن: هي أحد أجناد الشام الخمسة، وهى كورة واسعة منها الغور وطبرية وصور وعكا وما بين ذلك (معجم البلدان ١/ ١٤٧) .

(٨) طبرية: هي بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهى في طرف جبل، وجبل الطور مطل عليها وهى من أعمال الأردن في طرف الغور وبينها وبين دمشق ثلاثة أيام (معجم البلدان ٤/ ١٧) .

(٩) الأهواز: سبع كور بين البصرة وفارس لكل كورة منها اسم ويجمعهن الأهواز (معجم البلدان ١/ ٢٨٤) .

(١٠) المدائن: هي مجموعة مدائن أولها المدينة العتيقة ثم مدينة الإسكندر ثم طيسفون من مدائنهم، ثم أسفانير ثم مدينة يقال لها رومية فسميت المدائن بذلك وكان فتح المدائن كلها على يد سعد ابن أبى وقاص ﷺ في صفر سنة ١٦ هـ في أيام عمر بن الخطاب ﷺ (معجم البلدان ٥/ ٧٥) .

(١١) جلولاء: مدينة مشهورة بأفريقية بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلا (معجم البلدان ٢/ ١٥٦) .

(١٢) الرى: مدينة مشهورة وهى محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخا وإلى قزوین سبعة وعشرون فرسخا (معجم البلدان ٣/ ١١٦) .

(١٣) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل وهى إلى بغداد أقرب (معجم البلدان ٢/ ٣٨) .

بيت المقدس، وخطب بالجابية<sup>(١)</sup>، خطبته المشهورة، وفيها فتحت قنسرين<sup>(٢)</sup>، عنوة، وحلب<sup>(٣)</sup>، وأنطاكية<sup>(٤)</sup>، ومنبج<sup>(٥)</sup>، صلحاً، وسروج<sup>(٦)</sup>، عنوة، وفيها فتحت قرقيساء<sup>(٧)</sup>، صلحاً، وفي سنة سبع عشرة زاد عمر في المسجد النبوي، وفيها كان القحط بالحجاز وسمى عام الرمادة واستسقى عمر للناس بالعباس ﷺ وفي سنة ثمان عشرة فتحت جنديسابور<sup>(٨)</sup>، صلحاً، وحلوان<sup>(٩)</sup>، عنوة، وفيها فتحت الرها<sup>(١٠)</sup>، وسميساط<sup>(١١)</sup>، عنوة، وحران<sup>(١٢)</sup>، ونصيبين<sup>(١٣)</sup>، وطائفة من الجزيرة عنوة - وقيل: صلحاً والموصل<sup>(١٤)</sup>،

- (١) الجابية: قرية من أعمال دمشق قرب مرج الصفر في شمالي حوران (معجم البلدان ٢/ ٩١).
- (٢) قنسرين: مدينة بالشام كانت هي وحمص شيئاً واحداً وكان بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم وكان فتح قنسرين على يد أبي عبيدة بن الجراح ﷺ في سنة ١٧ هـ (معجم البلدان ٤/ ٤٠٣، ٤٠٤ بتصرف).
- (٣) حلب: مدينة عظيمة بالشام كثيرة الخيرات طيبة الهواء وبينها وبين دمشق مسيرة تسعة أيام (معجم البلدان ٢/ ٢٨٢ - ٢٨٤ بتصرف).
- (٤) أنطاكية: مدينة بالشام وهي قصبة العواصم من الثغور الشامية وهي من أعيان البلاد وأمهاتها (معجم البلدان ١/ ٢٦٦).
- (٥) منبج: بلد قديم من بلاد الشام بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ (معجم البلدان ٥/ ٢٠٥).
- (٦) سروج: بلدة قريبة من حران من ديار مضر (معجم البلدان ٣/ ٢١٦).
- (٧) قرقيساء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور في الفرات فهي مثلث بين الخابور والفرات (معجم البلدان ٤/ ٣٢٨).
- (٨) جنديسابور: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه (معجم البلدان ٢/ ١٧٠).
- (٩) حلوان: هي بلدة بالعراق وهي آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد (معجم البلدان ٢/ ٢٩١، ٢٩٠).
- (١٠) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ (معجم البلدان ٣/ ١٠٦).
- (١١) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم (معجم البلدان ٣/ ٢٥٨).
- (١٢) حران: مدينة مشهورة من جزيرة أقور وهي قصبة ديار مضر، بينهما وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم (معجم البلدان ٢/ ٢٣٥).
- (١٣) نصيبين: هي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها قرأها أربعون ألف بستان وبينها وبين الموصل ستة أيام (معجم البلدان ٥/ ٢٨٨).
- (١٤) الموصل: مدينة مشهورة عظيمة إحدى قواعد بلاد الإسلام وهي على محط الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى خراسان وهي على طريق دجلة (معجم البلدان ٥/ ٢٢٣).

ونواحيها عنوة وفي سنة تسع عشرة فتحت قيسارية<sup>(١)</sup>، عنوة وفي سنة عشرين فتحت مصر عنوة. وقيل مصر كانت صلحا إلا الإسكندرية فعنوة وفيها فتحت تستر<sup>(٢)</sup>. وفي سنة إحدى وعشرين فتحت الإسكندرية عنوة، ونهاوند<sup>(٣)</sup>، وبرقة<sup>(٤)</sup>، وغيرها، وفي سنة اثنتين وعشرين فتحت أذربيجان<sup>(٥)</sup>، عنوة وقيل: صلحا، والدينور<sup>(٦)</sup>، عنوة، وماسبذان<sup>(٧)</sup>، عنوة، وهمذان<sup>(٨)</sup>، عنوة، وطرابلس<sup>(٩)</sup>، المغرب، والرى وعسكر<sup>(١٠)</sup>، وقومس<sup>(١١)</sup>، وفي سنة ثلاث وعشرين كان فتح كرمان<sup>(١٢)</sup>، وسجستان<sup>(١٣)</sup>، ومكران<sup>(١٤)</sup>، من بلاد الجبل،

(١) قيسارية: بلدة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام (معجم البلدان ٤/ ٤٢١).

(٢) تستر: أعظم مدينة بخوزستان، وهي بين الكوفة والبصرة وهي إلى البصرة أقرب (معجم البلدان ٢/ ٢٩، ٣٠).

(٣) نهاوند: مدينة بالعراق، في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام وهي قريبة من أصبهان (معجم البلدان ٥/ ٣١٣).

(٤) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية واسم مدينتها انطابلس، وبين الإسكندرية وبرقة مسيرة شهر وبينها وبين الفسطاط (القاهرة) مائتان وعشرون فرسخا (معجم البلدان ١/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٥) أذربيجان: مدينة بالإقليم الخامس يتصل حدها من الشمال ببلاد الديلم (معجم البلدان ١/ ١٢٨).

(٦) دينور: مدينة قرب قرميسين وبينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخا [معجم البلدان ٢/ ٥٤٥].

(٧) ماسبذان: مدينة بينها وبين الرذ عدة فراسخ فتحت بعد حلوان على يد سعد بن أبي وقاص سنة ١٦ هـ (معجم البلدان ٥/ ٤٨) •

(٨) همذان: مدينة بالعراق وكانت أكبر مدينة في الجبال وكانت أربعة فراسخ (معجم البلدان ٥/ ٤١٠) •

(٩) طرابلس: مدينة على شاطئ البحر وهي على مسيرة ثلاثة أيام من موضع يعرف ببنى السابري وفي القبلة مسيرة يومين إلى حد هواره وغزاها عمرو بن العاص سنة ٢٣ هـ وهي عاصمة ليبيا الآن (معجم البلدان ٤/ ٢٥ بتصرف) •

(١٠) عسكر: مدينة مشهورة بخراسان فيها محلة تسمى عسكر (معجم البلدان ٤/ ١٢٢ بتصرف) •

(١١) قومس: هي كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي ذيل جبل طبرستان وأكبر ما يكون في ولاية ملكها وهي بين الرى ونيسابور، ومن مدنها المشهورة بسطام وبيار (معجم البلدان ٤/ ٤١٤) •

(١٢) كرمان: ولاية مشهورة ذات بلاد واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان (معجم البلدان ٤/ ٤٥٤، ٤٥٥ بتصرف) •

(١٣) سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة بينها وبين هراة عشرة أيام وهي جنوبى هراة (معجم البلدان ٣/ ١٩٠) •

وهراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان (معجم البلدان ٥/ ٣٩٦) •

(١٤) مكران: هي ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى وهذه الولاية بين كرمان من غربيها وسجستان من شماليها والبحر جنوبيها والهند في شرقيها (معجم البلدان ٥/ ١٨٠).

وأصبهان<sup>(١)</sup>، ونواحيها<sup>(٢)</sup>. ففي هذه المدة القصيرة. فتح عمر ﷺ كل هذه الفتوح، فلا عجب أن يذهل هذا الفتح عالم يومئذ .

ويدهش المؤرخين الذين فصلوا حوادثه، وحاولوا استقصاء أسبابه، فذكروا أن من هذه الأسباب: العقيدة الإسلامية التي رفعت معنويات المسلمين<sup>(٣)</sup>، (وكان هذا النجاح بفضل قيادة عمر الفذة التي أبهرت المؤرخين عبر التاريخ الإسلامي)<sup>(٤)</sup>

#### ٥ - عمال عمر ﷺ على الأمصار التي فتحت إبان خلافته وقبلها:

«كان عمال عمر بن الخطاب ﷺ في السنة التي قتل فيها وهي سنة ثلاث وعشرين من الهجرة: على مكة: نافع بن الحارث الخزاعي<sup>(٥)</sup>، وعلى الطائف: سفيان بن عبد الله الثقفي<sup>(٦)</sup>، وعلى صنعاء: يعلى بن منية حليف بنى نوفل بن عبد مناف، وعلى الجند: عبد الله بن أبي ربيعة<sup>(٧)</sup>، وعلى الكوفة: المغيرة بن شعبة، وعلى البصرة: أبو موسى الأشعري، وعلى مصر: عمرو بن العاص، وعلى حمص: عمير بن سعد<sup>(٨)</sup>، وعلى

(١) أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها وتعرف بشهرستان وبالمدينة، وهي مدينة فارسية، وكانت بالموضع المعروف «بجي» وفتحت في عهد عمر بن الخطاب ﷺ سنة تسع عشرة من الهجرة بعد أن فتحت نهاوند وذلك بقيادة عبد الله بن بديل الرياحي (معجم البلدان ١/ ٢٠٦ وما بعدها).

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ذكر استخلاف عمر ﷺ ٣/ ٢١٣، ٢١٤ وتاريخ الخلفاء للسيوطي (فصل في خلافته ﷺ ص ١٥٣ - ١٥٥) وتاريخ الإسلام للذهبي (سير الخلفاء الراشدين ص ٢٠)

(٣) كتاب الفاروق عمر. لمحمد حسين هيكل ٢/ ٢٠٠.

(٤) كتاب الفاروق القائد للواء الركن محمود شيت خطاب ص ٩٣ طبعة دار الفكر بيروت الطبعة الرابعة سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.

(٥) هو الصحابي الجليل: نافع بن عبد الحارث بن حباله الخزاعي أسلم في الفتح وأقام بمكة إلى أن مات بها [الإصابة ٤٠٨/٦].

(٦) هو الصحابي الجليل: سفيان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث الثقفي أسلم مع الوفد واستعمله عمر ﷺ على صدقات الطائف [الإصابة ٣/ ١٢٤].

(٧) هو الصحابي الجليل: عبد الله بن أبي ربيعة واسمه عمرو بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أبو عبد الرحمن المكي كان من مسلمة الفتح واستعمله عمر على الجند ومات ﷺ ليالي قتل عثمان وهو والد عمر ابن أبي ربيعة الشاعر [الإصابة ٤/ ٧٩].

(٨) هو الصحابي الجليل: عمير بن سعد الأنصاري الأوسي كان عمر يسميه نسيج وحده وهي كلمة تطلق على الفائق [الإصابة ٤/ ٣٨].

دمشق: معاوية بن أبي سفيان، وعلى البحرين وما ولاهما: عثمان بن أبي العاص الثقفي<sup>(١)</sup>، وعلى البصرة: كعب بن سور<sup>(٢)</sup>،<sup>(٣)</sup>.

٦- عمر بن الخطاب ﷺ يرسم الطريق لولاته ويوصيهم بالمسلمين خيراً: كان عمر بن الخطاب ﷺ يحرص على إقامة الحق والعدل في الأمصار كلها ولذلك كان يختار أفضل الرجال لمنصب الولاية، ويوصيهم أن يحسنوا معاملة الناس، وأن ينصفوا المظلوم ويأخذوا على يد الظالم.

يقول الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا إسماعيل قال حدثني مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه (أن عمر بن الخطاب ﷺ استعمل مولى له يدعى هنياً<sup>(٤)</sup>)، على الحمى فقال: يا هنى اضمم جناحك عن المسلمين، واتق دعوة المظلوم فإن دعوة المظلوم مستجابة، وأدخل رب الصريمة، ورب الغنيمة<sup>(٥)</sup>، وإياي ونعم ابن عوف ونعم ابن عفان، فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع، وإن رب الصريمة ورب الغنيمة إن تهلك ماشيتهما يأتني ببنيه فيقول: يا أمير المؤمنين، أفتاركهم أنا لا أبأ لك؟ فالماء والكلاء أيسر على من الذهب والورق، وإيم الله إنهم ليرون أنى قد ظلمتهم، إنها لبلادهم، فقاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام، والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً<sup>(٦)</sup>، أمر عمر ﷺ مولاه «هنى» أن يكفف عن ظلم الرعية وحزره من محابة بعض الناس دون بعض وذلك من

(١) هو الصحابي الجليل: عثمان بن أبي العاص الثقفي الطائفي أبو عبد الله أسلم في وفد ثقيف فاستعمله النبي ﷺ على الطائف ومات في خلافة معاوية بالبصرة [الإصابة ٤/ ٤٥١].

(٢) هو الصحابي الجليل: كعب بن سور بن أبي بكر بن عبيد بن ثعلبة الأزدي ولاء عمر قضاء البصرة وقتل يوم الجمل [الإصابة ٥/ ٦٤٥].

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤/ ٤٣١ طبعة عز الدين الأولى ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ .

(٤) هنى: مولى عمر بن الخطاب وعامله على الحمى - أى ما يحمى للخيال التى ترصد للجهد والإبل التى يحمل عليها في سبيل الله - شهد صفين مع معاوية ثم تحول إلى على لما قتل عمار (التهديب ٦/ ٤٩، فتح الباري ٦/ ٢١٤).

(٥) أى صاحب القطعة القليلة من الإبل والغنم [النهاية «صرم» ٣/ ٣٧ بتصرف].

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير ١٧٩ باب قول النبي ﷺ لليهود أسلموا تسلموا. قاله المقبرى عن

أبي هريرة ٦/ ٢١٣، ٢١٤ ح ٣٠٥٩.

خلال نهيته له أن يؤثر ماشية عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ويقدمها على سائر ماشية الناس في المرعى وخصها عمر بالذكر لأنهما من أغنياء الصحابة وعندهم نخل وزرع وتجارات تغنيهم عن الماشية حال هلاكها ولم يأمره بمنع ماشيتهما عن الرعى البتة وإنما أراد أنه إذا لم يسع المرعى إلا نعم أحد الفريقين فنعم المقلين أولى لأن نعمهم لو منعت من الماء والكأ لهلكت فيتطلب ذلك تعويضهم بصرف الذهب والفضة لسد خلتهم وربما عارض ذلك الاحتياج إلى النقد في صرفه في مهم آخر كما أن السواد الأعظم من أهل المدينة وبواديها لا يمتلك إلا القليل من النعم، وهم أهل البلاد الأصليين قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام فيجب مراعاة أحوالهم والعمل على مصلحتهم.

وروى الإمام ابن سعد بسنده عن الربيع بن زياد الحارثي أن عمر بن الخطاب كان يخاطب رعيته في الأمصار قائلا: «إني لم أستعمل عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم<sup>(١)</sup>، وليشتمو أعراضكم ويأخذوا أموالكم ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي ليرفعها إلي حتى أقصه منه<sup>(٢)</sup>». فقال عمرو بن العاص:

يا أمير المؤمنين أرايت إن أدب أمير رجلاً من رعيته أتقصه منه؟ فقال عمر: ومالي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه؟ وكتب عمر إلى أمراء الأجناد: لا تضربوا المسلمين فتزلوهم، ولا تحرموهم فتكفروهم<sup>(٣)</sup>، ولا تجمروهم<sup>(٤)</sup>، فتفتنوهم ولا تنزلوهم الغياض<sup>(٥)</sup>، فتضيعوهم<sup>(٦)</sup>.

(١) أبشاركم: أي ظاهر جلودكم (المعجم الوجيز (بشر) ص ٥٢٣).

(٢) أقصه منه: أخذ القصاص منه أو أمكنه من أخذ القصاص منه [النهاية «قصص» ٧٢/٤ بتصرف].

(٣) فتكفروهم: لأنهم ربما ارتدوا إذا منعوا عن الحق [النهاية (كفر) ١٨٧/٤].

(٤) تجمروهم: أي تحبسوهم في الثغور وتمنعوهم عن العود إلى أهلهم [النهاية (جر) ٢٩٢/١].

(٥) الغياض: جمع غيضة وهي الشجر الملتف، لأنهم إذا نزلوها تفرقوا فيها فتمكن منهم العدو [النهاية (غيض) ٤٠٢/٣].

(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات: ذكر استخلاف عمر عنها ﷺ، ٢١٣/٣.



## ٧- سياسة القضاء وتدبير الحكم، في حكومة عمر رضي الله عنه:

ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري على أهل البصرة وكتب إليهم كتابا قال فيه: (أما بعد: فإنني قد بعثت عليكم أبا موسى أميرا عليكم ليأخذ لضعيفكم من قويكم وليقاتل بكم عدوكم، وليدفع عن ذمتكم<sup>(١)</sup>، وليحصي لكم فيئكم<sup>(٢)</sup>، ثم ليقسمه بينكم، ولينقي لكم طرقكم).

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري كتابا بين له فيه سياسة القضاء وتدبير الحكم، ويعتبر كتاب عمر لأبي موسى رضي الله عنه من أجل الكتب في أدب القضاة وأصول الأقضية، ومناهج الأحكام، وهو كتاب يعبر أصدق تعبير عن سياسة عمر بن الخطاب في القضاء، ورغبته في إقامة العدل وإحقاق الحق بين الناس.

## نص الكتاب

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس، يعنى أبا موسى الأشعري. سلام عليك. أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة. فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لإنفاذ له آس<sup>(٣)</sup>، بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك<sup>(٤)</sup>، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة<sup>(٥)</sup> على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين الناس إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك أن ترجع

(١) ذمتكم: عهدكم وأمانكم (لسان العرب «ذمم» ٣/ ١٥١٧ بتصرف).

(٢) فيئكم: الفئ: هو ما حصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا جهاد (لسان العرب «فيا» ٥/ ٣٤٩٦).

(٣) آس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك. أى سو بينهم واجعل كل واحد منهم أسوة خصمه (لسان العرب (أسا) ١/ ٨٣).

(٤) الحيف: هو الميل في الحكم والجور والظلم (لسان العرب «حيف» ٢/ ١٠٧١).

(٥) البينة: يقال تبينت الأمر إذا تأملته وتثبتته وتأنيت فيه (لسان العرب «بين» ١/ ٤٠٦، ٤٠٧ بتصرف).

إلى الحق فإن الحق لا يبطله شيء، واعلم أن مراجعة الحق خير من التماهى فى الباطل. الفهم الفهم فيما يتلجلج<sup>(١)</sup>، فى صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة واعرّف الأشباه<sup>(٢)</sup>، والأمثال<sup>(٣)</sup>. ثم قس الأمور بعد ذلك، ثم اعمد لأحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. اجعل لمن ادعى حقًا غائبًا أمدًا ينتهى إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا استحلت عليه القضاء<sup>(٤)</sup>، والمسلمون عدول فى الشهادة إلا مجلودا فى حد، أو مجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا<sup>(٥)</sup> فى ولاء، أو قرابة، إن الله تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ويحسن الزجر فإنه من صلحت سريره فيما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للدنيا بغير ما يعلم الله منه شأنه الله فإن الله لا يقبل من عباده إلا ما كان خالصا. فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته؟ والسلام<sup>(٦)</sup>.

(١) اللجلجة: اختلاط الأصوات: وهو الذى يتردد فى الصدر عما لا نص فيه ظاهر (لسان العرب «الجلج» ٥/٤٠٠٠).

(٢) الأشباه: جمع شبه. وأشبهه ماثله والشبه: المثل (المعجم الوجيز «أشبه» ص ٣٣٤).

(٣) الأمثال: تماثل الشيطان تشابها، والمثل، الشبه والنظير (المعجم الوجيز «مثل» ص ٥٧٢، ٥٧٣).

(٤) استحل الشيء: اتخذ حلالا ومعناه أيضا أمضيت الحكم عليه (لسان العرب «حلل» ٢/٩٧٨ بتصرف).

(٥) الظنين: هو المتهم الذى تظن به الشبهة ومعنى «ظنينا فى ولاء» هو الذى ينتمى إلى غير مواليه ولا تقبل شهادته للتهمة (لسان العرب «ظنن» ٤/٢٧٦٣).

(٦) نص الكتاب موجود فى كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة للدكتور محمد حميد الله ص ٤٢٧، ٤٢٨ طبعة دار النفائس الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م - وقد نقله المؤلف من مصادر كثيرة - وأخرج الإمام مالك فى الموطأ جزءا من هذا الكتاب فى كتاب الأقضية باب ما جاء فى الشهادات ٢/٥٥٤ - والبيهقى فى السنن الكبرى كتاب آداب القاضى ٢٣ باب من اجتهد ثم رأى أن اجتهاده خالف نصا أو إجماعا أو ما فى معناه رده على نفسه وعلى غيره ١٠/١٢٠ ح ٢٠٣٧٢ والدارقطنى فى السنن كتاب الأقضية والأحكام / كتاب عمر ﷺ إلى أبى موسى الأشعرى ٤/٦٠٢ طبعة دار المحاسن للطباعة بالقاهرة. وفى الأحكام السلطانية للمارودى ص ٩١ - وفى الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم ٦/٤٠، ٤١ طبعة مصر - وفى أخبار القضاة لوكيع ١/٨٠ طبعة مصر، وفى بدائع الصنائع للكاسانى ٧/٩ طبعة مصر وقد أثرت النقل من كتاب الوثائق السياسية لمحمد حميد الله لأنه أتم سياقًا وأكثر فائدة فقد جمع روايات الكتاب من مصادر كثيرة وأكمل النقص فى بعضها وحققها وذكر الاختلافات التى بين الروايات وقال فى نهاية الكتاب: إن مصادرنا كثيرة، ورواه الرواة باللفظ أحيانا وبالمعنى أحيانا أخرى وكذلك اختلف مصححو المخطوطات فى قراءة الكلمات، ولذلك كثر اختلاف الروايات (الوثائق السياسية ص ٤٢٨، ٤٢٦).

وبذلك يكون عمر هو أول من استقضى القضية في الأمصار ووضع لهم منهاجا يسرون عليه ويهتدون به<sup>(١)</sup>

#### ٨- تدوين الدواوين<sup>(٢)</sup>:

تدوين الدواوين كان من الأمور الإدارية المهمة التي أنشأتها حكومة عمر بن الخطاب، فقد دون عمر الدواوين وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم العطاء. يقول الإمام ابن سعد رحمته الله تعالى: (أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني عائذ بن يحيى عن أبي الحويرث بن نقيذ: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشار المسلمين في تدوين الدواوين فقال له على بن أبي طالب تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال فلا تمسك منه شيئاً، وقال عثمان ابن عفان: أرى مالا كثيرا يسع الناس وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر، فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جندا، فدون ديوانا وجند جندا، فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل<sup>(٣)</sup>، وجبير بن مطعم وكانوا من نساب قريش، فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا فبدؤا ببنى هاشم ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه ثم عمر وقومه على الخلافة، فلما نظر فيه عمر قال: وددت والله إنه هكذا ولكن ابدؤا بقراءة رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله<sup>(٤)</sup>)

#### ٩- سياسة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في توزيع الفئ على المسلمين:

كان أبو بكر رضي الله عنه يقسم الأموال بين المسلمين بالتسوية على الصغير والكبير والحر والمملوك والذكر والأنثى لا يفضل أحداً على أحد، ويرى أن المسلمين إنما هم بنو الإسلام كأخوة ورثوا آباءهم فهم شركاء في الميراث تتساوى فيه سهامهم فجاءه

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي، موضوع: فصل في أوليات عمر رضي الله عنه ص ١٦ .

(٢) الديوان: هو مجتمع الصحف. وقال أبو عبيدة: هو فارسي معرب وقال ابن الأثير: هو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء

الجيش وأهل العطاء وأول من دون الديوان عمر بن الخطاب رضي الله عنه (لسان العرب (دون) ٢ / ١٤٦١، ١٤٦٢).

(٣) هو الصحابي الجليل: مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، كان من مسلمة الفتح وكان عالماً بأنصاب الحرم فبعثه عمر فجدها ومات سنة أربع أو خمس وخمسين وعاش مائة وخمس عشرة سنة [الإصابة ٦ / ٥٠].

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات: ذكر استخلاف عمر رضي الله عنه ٣ / ٢٢٤.

ناس من المسلمين وقالوا له يا خليفة رسول الله لو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم. فقال لهم، فيما أخرجه أبو عبيد قال: قال عبد الله بن صالح وحدثني الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب وغيره: أن أبا بكر كلم في أن يفضل بين الناس في القسم فقال: فضائلهم عند الله أما هذا المعاش فالتسوية فيه خير<sup>(١)</sup>.

ولما جاء عمر بن الخطاب إلى الخلافة، كان له رأى آخر في توزيع هذه الأموال ففضل بعض الناس على بعض ووزع الأموال وفق معايير أخرى رآها أفضل، فالرجل وبلاؤه في الإسلام والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وعناؤه في الإسلام والرجل وحاجته.

قال الإمام أبو يوسف رحمته الله: وحدثني أبو معشر قال: حدثني مولى عمر وغيره قال: (لما جاءت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفتوح وجاءت الأموال قال: إن أبا بكر رضي الله عنه رأى في هذا المال رأيا ولى فيه رأى آخر، لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه، وفرض للمهاجرين والأنصار من شهد بدرا خمسة آلاف خمسة آلاف، وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدرا أربعة آلاف أربعة آلاف، وفرض لأزواج النبي ﷺ اثني عشر ألفا إلا صفية وجويرية فإنه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف، فأبتا أن تقبلا، فقال لهما: إن فرضت لهن للهجرة، فقالتا: لا إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله ﷺ، وكان لنا مثله، فعرف ذلك عمر ففرض لهما اثني عشر ألفا، وفرض للعباس عم رسول الله ﷺ اثني عشر ألفا، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف، وفرض لعبد الله بن عمر ابنه - ثلاثة آلاف. فقال: يا أبت لم زدته علي ألفا ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي، فكان له ما لم يكن لي، فقال: إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وكان أسامة أحب إلى رسول الله منك، وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف خمسة آلاف، ألحقهما بأبيهما لمكانتهما من رسول الله ﷺ وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين، فمر عمر بن أبي سلمة فقال: زيدوه ألفا، فقال له محمد بن عبد الله بن جحش ما كان لأبيه ما لم يكن لأبائنا وما كان

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال باب التسوية بين الناس في الفئ ص ٢٧٦ ح ٦٤٩ عن يزيد ابن أبي حبيب. والكتاب طبعة دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

له ما لم يكن لنا. فقال: إني فرضت له بأبيه أبي سلمة ألفين وزدته بأمه أم سلمة ألفاً، فإن كان لك أمّاً مثل أم سلمة زدتك ألفاً. وفرض لأهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة، فجاء طلحة بن عبيد الله بأخيه عثمان ففرض له ثمانمائة فمر به النضر بن أنس فقال عمر: افرضوا له ألفين فقال طلحة: جئتكم بمثله ففرضت له ثمانمائة وفرضت لهذا ألفين. فقال: إن أبا هذا لقينى يوم أحد فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقلت: ما أراه إلا قد قتل. فسل سيفه وكسر غمده، وقال: إن كان رسول الله ﷺ قد قتل فإن الله حى لا يموت، فقاتل حتى قتل، وأبو هذا يرعى الشاء فى مكان كذا وكذا. فعمل عمر بهذا فى خلافته<sup>(١)</sup>.

وقال أبو يوسف: وحدثنى محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبى هريرة ؓ قال: (قدمت من البحرين بخمسائة ألف درهم فأتيته عمر بن الخطاب ؓ ممسياً فقلت يا أمير المؤمنين اقض هذا المال؟ قال: وكم هو؟ قلت خمسمائة ألف درهم. قال: وتدرى كم خمسمائة ألف؟ قال: قلت: نعم مائة ألف، ومائة ألف خمس مرات. قال: أنت ناعس، اذهب فبت الليلة حتى تصبح. فلما أصبحت أتيت فقلت: اقض منى هذا المال. قال: وكم هو قلت خمسمائة ألف درهم. قال: أمن طيب هو؟ قال قلت: لا أعلم إلا ذاك. قال عمر ؓ: أيها الناس إنه قد جاء مال كثير فإن شئتم أن نكيل لكم كلنا، وإن شئتم أن نعد لكم عددنا، وإن شئتم أن نزن لكم وزنا لكم. فقال رجل من القوم: يا أمير المؤمنين دون للناس دواوين يعطون عليها. فاشتهدى عمر ذلك، وفرض للمهاجرين خمسة آلاف خمسة آلاف، وللأنصار ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ولأزواج النبي ﷺ اثني عشر ألفاً. قال: فلما أتى زينب بنت جحش مالها قالت: غفر الله لأمر المؤمنين لقد كان فى صواحباتى من هو أقوى على قسمة هذا المال منى فقيل لها: إن هذا كله لك، فأمرت به فصب وغطته بثوب ثم قالت: لبعض من عندها أدخل يدك لآل فلان وآل فلان. فلم تزل تعطى لآل فلان وآل فلان حتى قالت لها التى تدخل يدها لا أراك تذكرينى ولي عليك حق فقالت: لك ما تحت الثوب. قال: فكشفت الثوب فإذا ثم خمسة وثمانون درهماً، قال: ثم رفعت يدها

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٤٥ بتصرف.

فقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بن الخطاب ﷺ بعد عامي هذا أبداً. قال: فكانت ﷺ أول أزواج النبي ﷺ لحوقاً به ﷺ. وذكر لنا أنها كانت أسخى أزواج النبي ﷺ وأعطاهن. وجعل عمر بن الخطاب ﷺ إلى زيد بن ثابت عطاء الأنصار فبدأ بأهل العوالي، فبدأ ببنى عبد الأشهل، ثم الأوس لبعدهم منازلهم ثم الخزرج حتى كان آخر الناس، وهم بنو مالك بن النجار، وهم حول المسجد).

وقال أبو ويسف أيضاً: وحدثني عبد الله بن الوليد المدني عن موسى بن زيد قال: (حمل أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب ﷺ ألف ألف فقال عمر: بكم قدمت؟ فقال بألف ألف. قال فأعظم ذلك عمر، وقال: هل تدري ما تقول؟ قال نعم، قدمت بمائة ألف ألف ومائة ألف حتى عد عشر مرات فقال عمر: إن كنت صادقاً ليأتين الراعي نصيبه من هذا المال وهو باليمن ودمه في وجهه)<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان عمر بن الخطاب ﷺ يميز بين الناس في العطاء على قدر سبقهم إلى الإسلام وبلائهم فلا يجعل المتأخر في الإسلام كالسابق إليه ويعطهم على قدر الفضل والنشاط في الجهاد والإقدام والشجاعة، وعلى ذلك فالتفضيل في العطاء اجتهاد من عمر بن الخطاب ﷺ راعى فيه مصلحة المسلمين، ولم يقصد بذلك مخالفة رأى الصديق في تقسيم هذه الأموال ولكنه رأى أن من العدل أن لا يجعل الكل في مرتبة واحدة من العطاء.

وأرى أن عمر بن الخطاب ﷺ مجتهد مأجور قد حالفه الصواب، ولم يخرج باجتهاده عن روح الشريعة.

والمعلوم أن المفاضلة في العطاء موجودة إلى يومنا هذا في كل بقعة من بقاع الأرض. «فالدول الحديثة تعطي رواتبها للعاملين فيها على أساس التفضيل بالأقدمية والكفاية والحاجة، ولهذا قسموا الوظائف إلى درجات بعضها فوق بعض، لكل درجة شروطها ومؤهلات ارتقائها. فالموظف القديم يعطى أكثر من الموظف الحديث والموظف الكفء قد يسبق القدماء في الارتقاء إلى الوظيفة الأعلى بموهبته وكفايته

(١) الخراج لأبي يوسف ص ٤٦ إلى ٥٠، وينظر كتاب الأموال للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام ص ٢٣٥: ٢٣٩ تحقيق محمد خليل هراس طبعة دار الكتب العلمية بيروت الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

ونشاطه وإبراز قدراته في العمل والعطاء. والموظف المتزوج ذو العيال يعطى ما لا يعطاه العزب، ومن لا عيال له على أن هناك حدًّا أدنى للكفاية المعيشية يجب أن يهيا للجميع على حد سواء<sup>(١)</sup>. وكثير من الفقهاء القدامى وافق عمر في اجتهاده ورأى أن رأيه في تقسيم الفئ هو الذى يصلح في زمانه ومن هؤلاء الفقهاء على سبيل المثال العلامة ابن نجيم الحنفى في كتابه (الأشباه والنظائر) عند كلامه عن قاعدة (تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة) ناقلا عن كتاب (القنية) في الفقه الحنفى من باب ما يحل للمدرس والمعلم. قال ما نصه: كان أبو بكر ﷺ يسوى بين الناس في العطاء من بيت المال، وكان عمر ﷺ يعطيهم على قدر الفضل والفقه والحاجة، قال: والأخذ بما فعله عمر ﷺ في زماننا أحسن<sup>(٢)</sup>.

#### ١٠ - رفض عمر ﷺ تقسيم الأرض المفتوحة على المقاتلين وفرض الخراج عليها:

عندما فتح سعد بن أبى وقاص بلاد فارس والعراق وكانت شاسعة المساحة كثيرة الخيرات إلى درجة أنها كانت تسمى «السواد» من كثافتها وخضرتها فكان يراها الرائي من بعيد كأنها كتلة سوداء، فطالب المقاتلون عمر بن الخطاب ﷺ أن يقسم بينهم الأرض المفتوحة باعتبارها غنيمة غنموها بسيو فهم كما قسم النبي ﷺ أرض خيبر على المقاتلين الذين فتحوها ومنهم عمر نفسه. ولكن عمر بن الخطاب ﷺ أبى أن يقسمها عليهم لاعتبارات أخرى رأى عمر أنها أوفق لمصلحة المسلمين الحاضرين واللاحقين.

قال الإمام أبو عبيد وأما ما جاء في ترك القسم فإن هشيم بن بشير حدثنا قال أخبرنا العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي قال: (لما فتح المسلمون السواد قالوا لعمر قسمه بيننا، فإنا افتتحناه عنوة، قال: فأبى وقال: فما لمن جاء بعدكم من

(١) السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٣٦ طبعة مكتبة وهبة

بالقاهرة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

(٢) الأشباه والنظائر / ١٢٤ بتحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، نشر مؤسسة الحلبي وشركاه.

المسلمين؟ وأخاف إن قسمته أن تفسدوا بينكم في المياه. قال: فأقر أهل السواد في أرضيهم، وضرب على رؤوسهم الجزية، وعلى أرضيهم الطسق<sup>(١)</sup>، ولم يقسم بينهم. قال أبو عبيدة في معنى الطسق: يعنى الخراج<sup>(٢)</sup>.

وقال أبو عبيد: وحدثني سعيد بن أبي سليمان عن عبد العزيز بن عبد الله بن سلمة حدثنا الماجشون<sup>(٣)</sup>، قال: قال بلال لعمر بن الخطاب في القرى التي افتتحتها عنوة: اقسمها بيننا وخذ خمسها فقال عمر: لا، هذا عين المال، ولكني أحبسه فيما يجرى عليهم وعلى المسلمين فقال بلال وأصحابه: اقسمها بيننا. فقال عمر: اللهم اكفني بلالا وذويه، قال: فما حال الحول ومنهم عين تطرف<sup>(٤)</sup>،<sup>(٥)</sup>.

وقال أبو عبيد حدثنا ابن أبي مريم عن ابن لهيعة: قال أخبرني يزيد بن أبي حبيب عن سمع عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة يقول: سمعت سفيان بن وهب الخولاني يقول: (لما افتتحت مصر بغير عهد<sup>(٦)</sup>)، قام الزبير فقال: يا عمرو بن العاص، اقسمها فقال عمرو: لا أقسمها فقال الزبير «لنقسمنها» كما قسم رسول الله ﷺ (خير) فقال عمرو: (لا أقسمها: حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن

(١) الطسق: ما يوضع من الوظيفة على الجربان من الخراج المقرر على الأرض، وهو فارسي معرب. وكتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى عثمان بن حنيف في رجلين من أهل الذمة أسلما: ارفع الجزية عن رأسيهما وخذ الطسق من أرضيهما. وفي التهذيب: الطسق: شبه الخراج له مقدار معلوم وليس بعربي خالص (لسان العرب: طسق) ٤ / ٢٦٧١).

(٢) أخرجه أبو عبيد في كتاب فتوح الأراضين صلحا، وسنتها وأحكامها باب فتح الأرض تؤخذ عنوة، وهي من الفئ والغنيمة جميعا ص ٦٢، ٦٣ ح ١٤٦.

(٣) الماجشون: بفتح الجيم وقيل بكسرهما الشين المعجمة المضمومة وبنون في آخره وهي كلمة فارسية لقب بها يعقوب بن أبي سلمة التميمي المدني ثم لقب بها أولاده وأولاد أخيه ومنهم الراوي عنه هنا وذهب السمعاني في الأنساب إلى أن هذا اللقب أطلق قبل ذلك على أبي سلمة والديعقوب (الأموال لأبي عبيد بتحقيق وتعليق محمد خليل هراس ص ٦٣).

(٤) لم يقصد عمر بن الخطاب ﷺ أن يدعو على بلال ومن معه بالموت، وإنما دعا الله أن يكفيه شر الخصومة معهم ولكن الله قدر لهم الموت.

(٥) نفس تخريج الحديث السابق ورقمه ١٤٧.

(٦) يعني أنها افتتحت عنوة بغير صلح.



دعها حتى يغزو منها جبل الحبلَة).

قال أبو عبيدة: أراه أراد: أن تكون فيثا موقوفا للمسلمين ما تناسلوا يرثه قرن بعد قرن، فتكون قوة لهم على عدوهم<sup>(١)</sup>.

وعلى ذلك فإن عمر بن الخطاب ﷺ امتنع عن تقسيم الأرض المفتوحة ورأى أن مصلحة المسلمين في عدم تقسيمها، حتى تكون هذه الأرض المفتوحة وقفاً على الأجيال القادمة، يتوارثونها جيلاً بعد جيل، فتكون لهم قوة على عدوهم والمعلوم أن عمر بن الخطاب أفصح عن رؤيته هذه في الأحاديث التي وردت في كتاب ((أبي عبيد)) فأعلن عن تبريره لموقفه بقوله في رواية أبي عبيد عن إبراهيم التيمي التي سبق ذكرها ((فما لمن جاء بعدكم من المسلمين)) يعني ماذا أترك للأجيال المتلاحقة بعدكم إن قسمتها عليكم، لا سيما من دخل في الإسلام بعد ذلك وذكر عمر بن الخطاب سبب عدم تقسيم هذه الأرض في حديث البخاري أيضاً. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثني محمد بن المثنى حدثنا ابن مهدي عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر ﷺ قال: (لولا آخر المسلمين، ما فتحت عليهم قرية إلا قسمتها كما قسم النبي ﷺ خيبر)<sup>(٢)</sup>.

وقال عمر بن الخطاب أيضاً في رده على من أنكروا عليه رفضه للتقسيم: ((تريدون أن يأتي آخر الناس ليس لهم شيء)). قال أبو عبيد حدثنا أبو الأسود عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب: أن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص - يوم فتح العراق

(١) أخرجه أبو عبيدة في كتاب فتوح الأرضين صلحا وسننها وأحكامها باب فتح الأرض تؤخذ عنوة ص ٦٣ ح

١٤٩ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب قسم الفئ والغنيمة ١٦ باب قسمه ما حصل من الغنيمة من دار وأرض

وغير ذلك من المال أو شيء ٣١٨/٦ ح ١٢٨٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ٣٨ باب غزوة خيبر ٦٠٧/٧ ح ٤٢٣٦ وأبو دواد في كتاب الخراج والفئ

والإمارة ٢٤ باب ما جاء في حكم أرض خيبر ١٩٧/٨ ح ٣٠١٨ والإمام أحمد في المسند ٣١/١ والبيهقي في

السنن الكبرى كتاب السير ١١٥ باب من رأى قسمة الأراضي المغنومة ومن لم يرها ١٣٨/٩ ح ١٨٣٩٠

جميعهم عن عمر ﷺ.

- أما بعد، فقد بلغنى كتابك أن الناس قد سألوا أن تقسم بينهم غنائمهم، وما أفاء الله عليهم. فانظر ما أجلبوا به عليك في العسكر من كراع<sup>(١)</sup>، أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرضين والأنهار لعمالها<sup>(٢)</sup>، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فإننا لو قسمناها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء<sup>(٣)</sup>.

كما أن عمر بن الخطاب أخذ برأى بعض الصحابة في امتناعه عن التقسيم من أمثال سعد بن أبي وقاص وعلي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم.

قال أبو عبيدة حدثنا إسماعيل بن جعفر عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن عمر: أنه أراد أن يقسم السواد<sup>(٤)</sup>، بين المسلمين فأمر أن يحصوا. فوجد الرجل يصيبه ثلاثة من الفلاحين<sup>(٥)</sup>، فشاور في ذلك. فقال له على بن أبي طالب رضي الله عنه: دعهم يكونوا مادة للمسلمين<sup>(٦)</sup>، فتركهم، وبعث عليهم عثمان بن حنيف، فوضع عليهم ثمانية وأربعين، وأربعة وعشرين، واثنى عشر<sup>(٧)</sup>.

وقال أبو عبيد حدثنا هشام بن عمار الدمشقي عن يحيى بن حمزة قال: حدثني

(١) الكراع: اسم لجميع الخيل (النهاية «كراع» ٤/ ١٦٥ ويعنى بذلك أيضًا ما حازوه وجمعوه من الأموال المنقولة كالسلاح والثياب وأنواع المال.

(٢) يعنى أقر أهلها عليها يعملون فيها ثم يكون خراجها للمسلمين بصرف في أعطيات الجند وفي غير ذلك من مصالحهم [تعليق محمد خليل هراس على كتاب الأموال ص ٦٤].

(٣) أخرجه أبو عبيد في كتاب فتوح الأرضين صلح باب فتح الأرض تؤخذ عنوة ص ٦٤ ح ١٥٠ عن يزيد بن أبي حبيب. (٤) السواد: من البلد قراه - والمراد أن يقسم خراج تلك البلاد بين المسلمين (المعجم الوجيز «ساد» ص ٣٢٧ بتصرف).

(٥) الفلاحين: الفلاح: محترف الفلاحة. والفلاحة: القيام بشئون الأرض الزراعية من حرث وزرع وري ونحو ذلك (المعجم الوجيز (فلح) ص ٤٧٩ بتصرف).

(٦) وكانت هذه فتوى موفقة من على رضي الله عنه إذ لو قسمت الأرض بينهم لشغلوا بها عن الجهاد وتفاسدوا على المياه كما قال عمر رضي الله عنه ولشغوا بالعمل فيها وجلبوا على أنفسهم عداوة أصحاب الأرض لهم [تعليق محمد خليل هراس ص ٦٤].

(٧) يعنى أنه جعل حد الخراج كحد الجزية التى تؤخذ من أهل الذمة (تعليق محمد خليل هراس على كتاب الأموال ص ٦٤).

تميم بن عطيّة العنسي قال أخبرني عبد الله بن أبي قيس قال: قدم عمر الجابية<sup>(١)</sup>، فأراد قسم الأرض بين المسلمين • فقال له معاذ ﷺ: والله إذن ليكونن ما تكره، إنك إن قسمتها صار الربع العظيم في أيدي القوم، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسدداً، وهم لا يجدون شيئاً، فانظر أمرا يسع أولهم وآخرهم<sup>(٢)</sup> اهـ .

وعلى ذلك فإن عمر بن الخطاب ﷺ جعل الأمر شورى بين المسلمين في هذه القضية المهمة ولم يضرب برأى غيره عرض الحائط .

ولم يخالف عمر بن الخطاب برأيه هذا آية الغنيمة ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ [الأنفال: ٤١] ومفهومها: أن الأربعة أخماس الباقية للغانمين، فهذه الآية من كتاب الله لا شك أنها قطعية الثبوت، شأن كل القرآن، فهو ثابت بالتواتر اليقيني الذي لا ريب فيه، ولكن هل هي قطعية الدلالة على أنها تشمل كل ما غنم من منقول ومن عقار حتى تشمل الأرضين والجبال والأنهار؟ لا يملك فقيه بصير بالقرآن وباللغة ودلالاتها أن يزعم أن الآية الكريمة تدل على ذلك دلالة قطعية، لأن حقيقة ما يغنمه الإنسان في الحرب: ما يحوزه بالفعل ويتولى عليه، وهذا معقول ومشاهد في الكراع والسلاح والثياب والنقود، والأدوات، ونحوها، مما يمكن أخذه وحمله ونقله. بخلاف الأراضي الشاسعة، والسهول الواسعة والجبال الشاخمة والأنهار العظيمة، فمن ذا الذي يقول: إنه حازها واستولى عليها إلا بضرب من التجوز والتوسع في الاستعمال اللغوي، وليس على الحقيقة<sup>(٣)</sup>.

كما أن عمر بن الخطاب حينما امتنع عن تقسيم الأرض المفتوحة بين المقاتلين

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران (معجم البلدان ٢/ ١٠٦).

(٢) أخرجه أبو عبيد في كتاب فتوح الأرضين صلحا وسننها وأحكامها: باب فتح الأرض عنوة وهي من الفئ والغنيمة جميعا ص ٦٤.

(٣) السياسة الشرعية للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٩٢ بتصرف.

لم يخالف بذلك سنة النبي ﷺ عندما قام بتقسيم أرض خيبر على المسلمين؛ لأن فعل النبي ﷺ لم يدل على الوجوب، بل على مجرد مشروعية الفعل. وإنما قسم النبي ﷺ أرض خيبر. لأن أرضها كانت محدودة لا يضر تملكها لفئة من الناس بمصالح الأجيال المتلاحقة بعدهم أما أرض الشام والعراق ومصر فكانت شاسعة المساحة، تؤثر في مصالح المسلمين لو استأثر بها بعض الناس دون بعض، كما أن النبي ﷺ قسم الأرض على المقاتلين في خيبر لأن أهلها يهود دخلاء على جزيرة العرب، وقد عاسوا في الأرض فسادا وأشعلوا الفتن، ونقضوا العهود وعاشوا يكيدون للإسلام والمسلمين فأراد النبي ﷺ أن ينهي وجودهم في جزيرة العرب لإحلال المسلمين مكانهم وهذا بخلاف ما كان عليه أهل الشام، فلهذا وغيره أبى عمر رضي الله عنه أن يقسم أرض الشام والعراق على المقاتلين فكان موافقا في هذا الأمر.

#### ١١ - نماذج من عدل عمر رضي الله عنه في حكومته:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرص على إقامة الحق والعدل بين الناس في كل الميادين. يقول الإمام ابن سعد رضي الله عنه تعالى: أخبرنا عارم بن الفضل قال: أخبرنا حماد ابن سلمة عن سعيد الجريري عن أبي نضرة عن الربيع بن زياد الحارثي<sup>(١)</sup> (أنه وفد إلى عمر بن الخطاب فأعجبته هيئته ونحوه فشكا عمر طعاما غليظا أكله، فقال الربيع: يا أمير المؤمنين إن أحق الناس بطعام لين ومركب لين لأنت. فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال: أما والله ما أراك أردت بها الله، وما أردت بها إلا مقاربتى، إن كنت لأحسب أن فيك ويحك هل تدري ما مثلي ومثل هؤلاء؟ قال: وما مثلك ومثلهم؟ قال: مثل قوم سافروا فدفَعوا نفقاتهم إلى رجل منهم، فقالوا له: أنفق علينا، فهل يحل له أن يستأثر<sup>(٢)</sup> منها بشيء؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: فكذلك مثلي ومثلهم. ثم قال: إني لم أستعمل عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم<sup>(٣)</sup>، وليشتُموا أعراضكم،

(١) الربيع بن زياد بن أنس بن الديان الحارثي أسلم ولم يقدم المدينة إلا أيام عمر وولاه عبد الله بن عامر سجستان سنة تسع وعشرين ففتحت على يديه [الإصابة ٢/٤٥٦].

(٢) الاستئثار بالشئ: الانفراد به (النهاية «أثر» ١/٢٢) .

(٣) أبشاركم: البشرة: ظاهر الجلد (النهاية «بشر» ١/١٢٩) .

ويأخذوا أموالكم ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له عليّ ليرفعها إليّ حتى أقصه<sup>(١)</sup>، منه. فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين أرايت إن أدب أمير رجلاً من رعيته أتقصه منه؟ فقال عمر: ومالي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه<sup>(٢)</sup>؟ وكتب عمر إلى أمراء الأجناد: لا تضربوا المسلمين فتزلوهم، ولا تحرموهم فتكفروهم<sup>(٣)</sup>، ولا تجمروهم<sup>(٤)</sup>، فتفتنوهم، ولا تنزلوهم الغياض<sup>(٥)</sup>، فتضيعوهم<sup>(٦)</sup>، من خلال هذا النص نعلم أن عمر ﷺ استدل للاقتصاص من عماله، بما فعله رسول الله ﷺ في غزوة بدر مع سواد بن غزية حينما نخسه بقضيب كان في يده، فطلب سواد القصاص من رسول الله ﷺ، فكشف له عن بطنه فقبل سواد بطن رسول الله ﷺ بين عمر ﷺ لعماله أنه ليس هناك أحد أكبر من الحق، فمن ارتكب ما يستوجب العقوبة عوقب لا فرق في ذلك بين الأمير والخدام. ونهى عمر ﷺ عماله عن إذلال الرعية وتحقيرها، وعن إهمال حقوقها، فإن ذلك يؤدي إلى يأس المواطن من رؤسائه ومن الحق والعدل.

## ١٢- حكومة عمر ﷺ تتخذ داراً للدقيق:

من المنشآت الحيوية المهمة التي أقامتها حكومة عمر بن الخطاب ﷺ وقامت بإدارتها، إنشاء دار الدقيق.

(١) أقصه: يقال: أقصه الحاك يقصه إذا مكّنه من أخذ القصاص، وهو أن يفعل به مثل فعله من قتل، أو قطع، أو ضرب أو جرح (النهاية «قصص» ٧٢/٤) •

(٢) وذلك في قصة سواد بن غزية التي رواها ابن إسحاق في موضوع: غزوة بدر الكبرى (السيرة النبوية لابن هشام ٢٢٩/٢) •

(٣) تكفروهم: لأنهم ربما ارتدوا إذا منعوا عن الحق (النهاية «كفر» ١٨٧/٤) •

(٤) تجمروهم: تجميرهم: أي جمعهم في الثغور وحبسهم عن العود إلى أهلهم (النهاية «حمر» ٢٩٢/١) •

(٥) الغياض: جمع غيضة وهي الشجر المتلف لأنهم إذا نزلوها تفرقوا فيها فتمكن منهم العدو [النهاية «غيض» ٣/٤٠٣].

(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ذكر استخلاف عمر ﷺ ٢١٣/٣ وأخرج جزءاً منه من أول قول عمر: إنى لم أستعمل عليكم عمالي إلى قوله: يقص من نفسه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الجراح ٢٥ باب ما جاء في قتل الإمام وجرحه ٤٨/٨ ح ١٦٠١٧.

يقول ابن سعد رحمته الله: «واتخذ عمر دار الدقيق، فجعل فيها الدقيق والسويق<sup>(١)</sup>، والتمر والذبيب وما يحتاج إليه يعين به المنقطع والضيف ينزل بعمر، ووضع عمر في طريق السبل<sup>(٢)</sup>، ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به»<sup>(٣)</sup>، أه وفي ذلك إعانة للمسلمين لا سيما الذين انقطعت بهم السبل حتى لا يتعرضوا للهلاك أو الاستغلال من جانب من ينتهزون الفرص. كما أن عملاً مثل هذا يعتبر نواة وعملاً رائداً في ذلك التاريخ العتيق لوزارة الاقتصاد والتموين، حيث يخزن بمخازنها بعض السلع المهمة التي تدعوا الحاجة إليها وقت المجاعات والحروب والجذب، وعمل السبل على الطريق كعمل الإسعاف والنجدة في الطريق الطويلة

### ١٣ - عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحذره من المظالم:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحذر من وقوع المظالم على رعيته، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب ولاته، ليكون قدوة لهم في إقامة الحق والعدل (عن الأحنف بن قيس<sup>(٤)</sup>)، قال: وفدنا إلى عمر رضوان الله عليه بفتح عظيم فقال: أير نزلتم؟ فقلت: في مكان كذا، فقام معنا حتى انتهينا إلى مناخ رواحلنا فجعل يتخللها ببصره ويقول: ألا اتقيتم الله في ركايبكم هذه؟ أما علمتكم أن لها عليكم حقاً؟ ألا خليتم عنها<sup>(٥)</sup>؟ فأحببنا التسرع إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين بما يسرهم، ثم انصرف راجعاً ونحن معه، فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين انطلق معي فاعدني<sup>(٦)</sup>، على فلان فإنه ظلمني قال: فرفع الدرة<sup>(٧)</sup>، فخفق

(١) السويق: مدقوق الحنطة والشعير، ويصنع منه طعام (المعجم الوجيز «ساق» ص ٣٣٠).

(٢) السبل: الطرق (النهاية «سبل» ٢/ ٣٣٩).

(٣) أخرجه ابن سعد الطبقات الكبرى: ذكر استخلاف عمر رضي الله عنه ٣/ ٢١٤.

(٤) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين التميمي السعدي واسمه الضحاك أدرك النبي ﷺ ولم يجتمع معه وقيل إنه دعا له شهد صفين ومات بالبصرة سنة سبع وستين [الإصابة ١٥/ ٧].

(٥) خليتم عنها: تركتموها وأرسلتموها لتستريح وترعى (المعجم الوجيز «خلال» ص ٢١٠ بتصرف) ويقول خلى عن الناقة من عقالها أي تركها لتستريح وترعى (النهاية «خلا» ٢/ ٦٧ بتصرف).

(٦) فاعدني: أعنى عليه وانصرني (المعجم الوجيز «عدا» ص ٤١٠ بتصرف).

(٧) رفع الدرة فخفق بها: والمخفقة هي الدرة: يعنى ضرب بها رأسه (النهاية «خفق» ٢/ ٥٦ بتصرف).

بها رأسه وقال: تدعون عمر وهو معرض لكم<sup>(١)</sup> حتى إذا اشتغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه أعدنى، أعدنى. فانصرف الرجل وهو يتذمره<sup>(٢)</sup>، فقال عمر: عليّ بالرجل فألقى إليه المخفقة فقال: امسك واضربني. قال: لا ولكن أدعها لله ولك. قال: ليس كذلك، إما تدعها لله وإرادة ما عنده، أو تدعها لي فأعلم ذلك. قال: أدعها لله قال: انصرف، ثم جاء يمشى حتى دخل منزله ونحن معه فافتتح الصلاة فصلى ركعتين، ثم جلس فقال: يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب المسلمين، فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غداً إذا أتيت؟ فجعل يعاتب نفسه معاتبة ظننت أنه من خير أهل الأرض<sup>(٣)</sup>.

ومن خلال هذا الأثر نرى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يخشى وقوع المظالم على الإنسان أو الحيوان، لذلك عاقب ولاته على رواحلهم، وأمرهم أن يتقوا الله فيها، وأن يراعوا حقها، وأن يتعهدوها بالطعام، ويتركوها تستريح بعض الوقت، ومع عظم المسؤولية التي ألقيت عليه لم يفته أن يتابع ويتعهد غير الغازين وخيلهم. ولقد كان التوفيق لحليفه رضي الله عنه في كل أموره مدة خلافته، لأنه بدأ بنفسه أولاً، هذه النفس التي كان يحاسبها حساباً عسيراً، على النقيض<sup>(٤)</sup>، والقطمير<sup>(٥)</sup>، فلا غرو كان صوته عالياً، وإرادته ماضية في محاسبة المنحرفين<sup>(٦)</sup>.

(١) معرض لكم: أى تدعونه وهو ظاهر لكم (النهاية (عرض ٢١٦/٣).

(٢) يتذمر: أى يجترئ عليه ويرفع صوته في عتابه. أو يتهدد (النهاية «ذمر» ١٦٧/٢).

(٣) سيرة عمر بن الخطاب للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى: الباب الأربعون (في حذره من المظالم ص ١٠٨، ١٠٩).

(٤) النقيض: نقرة صغيرة في ظهر النواة - أو في أصل النخلة - يقال: لا يساوى شروى نقيض: أى لا يساوى شيئاً (النهاية «نقر» ١٠٤/٥ بتصرف) والمعجم الوجيز «نقر» ص ٦٣٠ بتصرف).

(٥) القطمير: القشرة الرقيقة على النواة كاللغافة لها، والشئ الهين الحقيق (المعجم الوجيز (القطمير) ص ٥٠٩).

(٦) من فقه عمر بن الخطاب في المساءلة والعزل والتعيين للأستاذ الدكتور/ محمود محمد عمارة ٧٢ طبعة وزارة الأوقاف بالقاهرة سنة ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

## ١٤ - عمر بن الخطاب ﷺ أول من أعطى أجازة للجنود:

يقول الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: وروينا من غير وجه أن عمر بن الخطاب خرج ذات ليلة بالمدينة وكان يفعل ذلك كثيرا، إذ مر بامرأة من نساء العرب مغلقة عليها بابها وهي تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقني ألا خليل الأعاسبه  
فوالله لولا الله تخشى عواقبه لرحزح من هذا السرير جوانبه  
ولكني أخشى رقيباً موكلنا بأنفسنا لا يفتقر الدهر كاتبه  
مخافة ربي والحياء يصدني وأكرم بعلي أن تنال مراتبه

فقال عمر: مالك؟ قالت: أعزيت<sup>(١)</sup>، زوجي منذ أشهر، وقد اشتقت إليه فقال: أردت سوءاً؟ قالت: معاذ الله. فقال: فاملكي عليك نفسك. فإنما هو البريد<sup>(٢)</sup>، إليه، فبعث إليه، ثم دخل على حفصة فقال: إني سائلك عن أمر قد أهمنى فافرجيه<sup>(٣)</sup>، عني؟ كم تشتاق المرأة إلى زوجها؟ فخفضت رأسها واستحييت. قال: فإن الله لا يستحيي من الحق، فأشارت بيدها ثلاثة أشهر، وإلا فأربعة أشهر. فكتب عمر ألا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر وكتب إلى عماله بالغزو أن لا يغيب أحد أكثر من أربعة أشهر<sup>(٤)</sup>.

فهذه بعض النماذج القليلة لحكومة عمر بن الخطاب ﷺ، مصدر عز المسلمين وقوتهم منذ أن أسلم إلى أن توفي، وقد جعل من سيره في خلافته مثالا يحتذى به، وملاً الدنيا عدلاً، حتى أتعب كل من جاء بعده وأراد أن يسير على نهجه.

(١) أعزيت: أى أبعدت (النهاية «عزى» ٢٢٧/٣) وهى تخاطب عمر ﷺ لأنه أخرج زوجها للغزو.

(٢) أى الرسول إليه (النهاية «برد» ١١٦/١).

(٣) أى بينيه واكشفيه لى (المعجم الوجيز ص ٤٦٥ بتصرف).

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي: فصل فى نبذ من أخباره وقضاياه ﷺ ص ١٦٣/١٦٥، ١٦٦ بتصرف.



### الفصل الثالث

## مظاهر من أعمال عثمان بن عفان ؓ أمير المؤمنين إبان خلافته

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١- التعريف بعثمان ؓ.
  - ٢- توليته خلافة المسلمين.
  - ٣- قرار أهل الحل والعقد، ثم الدعوة إلى البيعة العامة.
  - ٤- أول بيان لعثمان ؓ بعد توليه الخلافة.
  - ٥- أول أعمال عثمان بن عفان ؓ.
  - ٦- عثمان ؓ يرسم الطريق لولاته ويوصيهم بالرعية خيرًا.
  - ٧- عثمان ؓ يوصي عمال الخراج ويحدد لهم خطة عملهم.
  - ٨- عثمان ؓ يرفع الظلم عن أهل الأمصار.
  - ٩- حزم عثمان ؓ في سياسة الأمة.
  - ١٠- أعطيات عثمان ؓ ورواتبه للمسلمين.
  - ١١- اتخاذه بعض الإجراءات الأمنية.
  - ١٢- وفاء حكومة عثمان ؓ بالعهود.
  - ١٣- رؤية جديدة في السياسة العسكرية لعثمان ؓ.
- (بعض الابتكارات المهمة لحكومة عثمان ؓ).

### الفصل الثالث

#### مظاهر من أعمال عثمان بن عفان ؓ أمير المؤمنين إبان خلافته

##### ١ - التعريف بعثمان بن عفان ؓ:

أ- نسبه: هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشي، الأموي (المكي ثم المدني) أبو عمرو، ويقال أبو عبد الله، وأبو ليلى.

ب- مولده وإسلامه: ولد في السنة السادسة من الفيل، وأسلم قديماً وهو ممن دعاه الصديق إلى الإسلام، فقد كان أبو بكر مؤلفاً لقومه، فجعل يدعو إلى الإسلام من يثق به فأسلم على يده، الزبير وطلحة وعثمان. فكان من السابقين إلى الإسلام. هاجر عثمان الهجرتين: الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة.

وتزوج رقية ؓ بنت رسول الله ﷺ قبل النبوة، وماتت عنده في ليالى غزوة بدر، فتأخر عن بدر لتمريرها بإذن رسول الله ﷺ، وضرب له بسهمه وأجره، فهو معدود في البدرين بذلك.

وجاء البشير بنصر المسلمين ببدر يوم دفنوها بالمدينة، فزوجه رسول الله ﷺ بعدها أختها أم كلثوم، وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة. قال العلماء: ولا يعرف أحد تزوج بنتى نبي غيره، ولذلك سمي ذو النورين. وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، أسلمت، وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم توأمة أبي رسول الله ﷺ فهي عمة رسول الله ﷺ أم عثمان هي بنت عمة النبي ﷺ.

ج- مناقبه: إن مناقب عثمان كثيرة جداً فهو أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، وأول المهاجرين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الذين توفي رسول الله - ﷺ - وهم عنهم راض، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن.

عن أبي ثور الفهمي، قال: قدمت على عثمان، فقال: لقد اختبأت عند ربي عشرًا: إني لرابع أربعة في الإسلام، وما تعتيت ولا تمنيت<sup>(١)</sup>، ولا وضعت يميني على فرجى

(١) ما تعتيت ولا تمنيت: العتو: هو التجبر والتكبر (النهاية «عنا» ٣/ ١٨١) • ولا تمنيت: أى ما كذبت والتمنى:

الكذب (لسان العرب «منى» ٦/ ٤٢٨٤).

منذ بايعت بها رسول الله ﷺ ولا مرت بى جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة. إلا أن لا يكون عندي فأعتقها بعد ذلك، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام قط.

د- وفاته: «قال الزبير بن بكار: قتل يوم الجمعة لثمان عشر خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين بعد العصر ودفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء في (حش كوكب) كان عثمان اشتراه فوسع به البقيع، وقتل وهو ابن اثنين وثمانين سنة وأشهر على الصحيح المشهور. وقيل دون ذلك، وزعم أبو محمد بن حزم أنه لم يبلغ الثمانين»<sup>(١)</sup>.

## ٢- توليته خلافة المسلمين:

عندما طعن عمر بن الخطاب ﷺ قال له الناس استخلف لنا، فأبى عمر بن الخطاب أن يتحمل هذه المسؤولية ويعين لهم شخصاً بعينه، فيسأل عنه أمام الله يوم القيامة إن هو بدل أو غير وأهمل مصالح المسلمين. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا محمد بن يوسف أخبرنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه «عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قيل لعمر ألا تستخلف؟ قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله ﷺ» «فأثنوا عليه فقال راغب وراهب<sup>(٢)</sup>، وددت أني نجوت منها كفافاً لآلى ولا علي، لا أتحمّلها حيّاً وميتاً»<sup>(٣)</sup>.

وعندما امتنع عمر بن الخطاب ﷺ أن يرشح شخصاً معيناً، ألح عليه بعض الناس أن يوصيهم في هذا الأمر حتى لا تحدث فتنة، يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى

(١) الإصابة لابن حجر: ترجمة عثمان بن عفان ﷺ ٤/٤٥٦-٤٥٩ وينظر تاريخ الخلفاء للسيوطي موضوع: عثمان ﷺ نسبه ومولده ص ١٧٥ وتاريخ الإسلام للذهبي (سير الخلفاء الراشدين) ص ١٤٩، ١٥٠.

(٢) راغب وراهب: يعني قولكم لي هذا القول إما قول راغب فيما عندي أو راهب مني وقيل أراد: إنني راغب فيما عند الله وراهب من عذابه فلا تعويل عندي على ما قلت من الوصف والإطراء (النهاية) «رغب» ٢/٢٣٧، ٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام: ٥١ باب الاستخلاف، ١٣/٢٥٠ ح ٧٢١٨- ومسلم في كتاب الإمارة ٢ باب الاستخلاف وتركه ٦/٤٤٤ ح ١٨٢٣- وأبو داود في كتاب الخراج والفئ والإمارة ٨ باب في الخليفة يستخلف ٨/١٢٤ ح ٢٩٣٧ والإمام أحمد في المسند ١/٢٧ والبيهقي في السنن الكبرى كتاب قتال أهل البغي ٦ باب الاستخلاف ٨/١٤٨ ح ١٦٥٧٠ جميعهم عن ابن عمر رضي الله عنهما.

حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن حصين عن عمرو بن ميمون قال: فذكر حديثاً طويلاً وفيه: ... فقالوا: أوصى يا أمير المؤمنين، استخلف، قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر - أو الرهط - الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض: فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء - كهيئة التغرية له - فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإنني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، وقال: أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن يعفى عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردة<sup>(١)</sup>، الإسلام، وجباة المال، وغيظ العدو، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشي<sup>(٢)</sup>، أموالهم، ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم...<sup>(٣)</sup>.

### ٣- قرار أهل الحل والعقد، ثم الدعوة إلى البيعة العامة:

وبعد ما دفن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اجتمع الرهط الذين عينهم عمر رضي الله عنه وتشاوروا في الأمر. يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء حدثنا جويرية عن مالك عن الزهري أن حميد بن عبد الرحمن أخبره «أن المسور بن مخرمة

(١) هو الصحابي الجليل: عمرو بن ميمون الأودي أبو عبد الله وقيل أبو يحيى أسلم في حياة النبي ﷺ ثم قدم المدينة وصحب ابن مسعود ومات سنة أربع وسبعين [الإصابة ١٥٤/٥].

(٢) الردء هو العون والناصر [النهاية «ردء» ٢/٢١٣].

(٣) حواشي الأموال هي صغار الإبل التي ليست بخيار أموالهم [النهاية «حشا» ١/٣٩٢].

(٤) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة: ٨ باب قصة البيعة والانفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه وفيه مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح الباري ٧/٧٧، ٧٥ ح ٣٧٠٠ عن عمرو بن ميمون وأحمد في المسند ١/٢٧ عن معدان بن أبي طلحة والبيهقي في السنن الكبرى كتاب قتال أهل البغي ٧ باب من جعل الأمر شورى بين المستصلحين له ١٥٠/٨ ح ١٦٥٧٨.

أخبره «أن الرهط الذين ولاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا فقال لهم عبد الرحمن: لست بالذي أنافسكم على هذا الأمر ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم، فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن فلما ولوا عبد الرحمن أمرهم فمال الناس على عبد الرحمن حتى ما أرى أحداً من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطاء عقبه، ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي حتى إذا كانت الليلة التي أصبحنا منها فبايعنا عثمان قال المسور: طرقتني عبد الرحمن بعد هجع من الليل، فضرب الباب حتى استيقظت فقال: أراك نائماً فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث لكثير نوم انطلق فداع الزبير وسعداً، فدعوتهما له، فشاورهما، ثم دعاني فقال: ادع لي علياً. فدعوته فناجاه حتى إبهار<sup>(١)</sup>، الليل ثم قام على من عنده وهو على طمع وقد كان عبد الرحمن يخشى من علي شيئاً ثم قال ادع لي عثمان فدعوته فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح فلما صلى للناس الصبح واجتمع أولئك الرهط عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد - وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر - فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال: أما بعد يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان فلا تجعلن علي نفسك سبيلاً فقال: أبايك على سنة الله ورسوله والخليفين من بعده فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس: المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون<sup>(٢)</sup>.

وفي الحديث السابق: دلالة على العمل في عهد عمر بالشورى ودلالة على جواز جعل الخليفة الأمر شورى بين عدد محصور أو غيره<sup>(٣)</sup>

وفيه دلالة على بطلان قول الرافضة وغيرهم أن النبي ﷺ نص على الإمامة في أشخاص بأعيانهم وفيها أن الجماعة الموثوق بديانتهم إذا عقدوا عقد الخلافة لشخص بعد التشاور والاجتهاد لم يكن لغيرهم أن يحل ذلك العقد وفي حديث المسور معان

(١) إبهار الليل: أي انتصف وبهرة كل شيء وسطه وقيل إبهار الليل إذا طلعت نجومه واستتارت والأول أكثر (النهاية «بهر» ١/١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ٤٣ باب كيف بايع الإمام الناس ١٣/٢٣٦، ٣٧. ح ٧٢٠٧ عن المسور بن مخرمة.

(٣) فتح الباري ١٣/٢٥١.

كثيرة منها:

١- تولية الخليفة لمن يخلفه.

٢- إقامة مجلس شورى للأمة ينظر في أمور المسلمين العظام

٣- قول عبد الرحمن بن عوف ﷺ يا علي إنني قد نظرت في أمر الناس... إلخ فيه دلالة قوية على تقدم عثمان على علي ﷺ في هذا الأمر وأن الجماهير قد رأت تخليف عثمان، ورضائه عن ذلك، ومبايعته وفي هذا إبطال لما ذهب إليه الشيعة الرافضة الذين يقولون ببطلان خلافة أبي بكر وعمر. وبعد إتمام تلك البيعة تولى عثمان بن عفان ﷺ خلافة المسلمين وقد قمت بنقل تفاصيلها من صحيح البخاري لأنها تعد نموذجاً حياً ومثالاً يحتذى به في طريقة الاستخلاف والمبايعة والاستفتاء العام في كل زمان ومكان.

٤- أول بيان لعثمان بن عفان ﷺ بعد توليه الخلافة:

لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كآبة فأتى منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وقال: إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أوتيتم صبحتم أو مستم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً؟ ألم تلفظهم أرموا بالدنيا حيث رمى الله بها فاطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً والذي هو خير فقال ﷺ (١)، ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا \* الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥-٤٦].

٥- أول أعمال عثمان بن عفان ﷺ:

أول عمل قام به عثمان ﷺ في مستهل خلافته تولية سعد بن أبي وقاص على

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٤/ ٤٣٢ طبعة مؤسسة عز الدين الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

الكوفة بعد أن عزل المغيرة بن شعبه ﷺ وإنما عمد عثمان إلى ذلك استجابة لوصية عمر بن الخطاب ﷺ فإن عمر كان قد قال: أوصى الخليفة من بعدى أن يستعمل سعد ابن أبي وقاص فإننى لم أعزله عن سوء وقد خشيت أنه يلحقه من ذلك فكان أول عامل بعث به عثمان ﷺ سعد بن أبي وقاص ﷺ على الكوفة وعزل المغيرة بن شعبه يومئذ بالمدينة فعمل عليها سعد سنة وبعض أخرى وأقر أبا موسى الأشعري على ولاية الكوفة سنوات<sup>(١)</sup>.

#### ٦ - عثمان بن عفان ﷺ يرسم الطريق لولائه ويوصيهم بالرعية خيرًا:

أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله حين استخلف ينص على أمرهم بحسن معاملة الناس ويبين المنهاج القويم الذى ينبغى لهم أن يعملوا به يقول عثمان ﷺ: «أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة. وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم. ثم تشنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم، وتأخذوهم بالذى عليهم. ثم العدو الذى تتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء»<sup>(٢)</sup>.

ثم كتب عثمان بن عفان ﷺ كتابا إلى أمراء الأجناد فى الفروج حدد فيه مهمتهم ونص الكتاب: (أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملا منا. ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير، ولا تبديل، فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون فإننى أنظر فيما أكرمنى الله النظر فيه، والقيام عليه)<sup>(٣)</sup>.

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٤/ ٤٣٢ • موضوع: «ولاية سعد بن أبي وقاص الكوفة».

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى. موضوع: كتب عثمان ﷺ إلى عماله وولائه والعام ٤٣٢، ٤٣٣ - وكتاب

الوثائق السياسية اليمنية للأكوع الحوالى ص ١٨٧، ١٨٨ طبعة بغداد سنة ١٩٧٦ م.

(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبرى. موضوع كتب عثمان ﷺ إلى عماله وولائه والعام ٤٣٣/ ٢.

## ٧- عثمان بن عفان ﷺ يوصي عمال الخراج ويحدد لهم خطة عملهم:

قال عثمان بن عفان ﷺ لعمال الخراج في أول كتاب كتبه إليهم: (أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به. والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم. والوفاء الوفاء. لا تظلموا اليتيم، ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم)<sup>(١)</sup>.

## ٨- عثمان ﷺ يرفع الظلم عن أهل الأمصار:

كتب عثمان بن عفان ﷺ كتاباً إلى أهل الأمصار أمرهم فيه بدفع المظالم إليه إذا وقعت على أحدهم مظلمة في أي بقعة من بقاع الدولة الإسلامية وهذا نص الكتاب «أما بعد فإنني أخذ العمال لموافاتي في كل موسم وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع عليّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته وليس لي ولعالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم. وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون وآخرون يضربون فيا من ضرب وشتم سرّاً من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم، فليأخذ بحقه حيث كان مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين<sup>(٢)</sup>، فلما قرئ كتاب عثمان في الأمصار، بكى الناس ودعوا لعثمان<sup>(٣)</sup>.

## ٩- حزم عثمان ﷺ في سياسة الأمة:

علق في أذهان بعض الناس أن عثمان بن عفان كان ليناً في حكومته يميل إلى اللين والهوادة، بل الضعف. وأنه كان لا يعبأ بما يفعله الولاة والقواد مما تسبب في سخط بعض أهل الأمصار عليه مما أدى إلى وقوع الفتنة التي أودت بحياته.

ولكن هذا الكلام لا يمكن أن يؤخذ على إطلاقه، فصحيح أن عثمان بن عفان كان رحيم القلب، محسناً إلى الرعية هادئ السمات وديعاً طيباً. وهذا أمر مطلوب، لا يعيب عثمان لأنها صفات حسنة كريمة، وهي طبيعة طبع عليها عثمان منذ ولادته،

(١) المرجع السابق والجزء والصفحة.

(٢) تاريخ الطبري ص ٢٩٤٤ طبعة ليدن.

(٣) الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ص ٥٣٠.



وليس في ذلك أى دلالة من قريب أو بعيد على أنه كان متساهلاً في حكومته، بل كان يرق قلبه وتذرف عيناه في المواقف الإنسانية الرحيمة التي يلين لها جانب كل من سلمت فطرته وصلحت سريره.

أما في أمور الحكم وإدارة الدولة، والحفاظ على سلطانها، وإقامة الشرع كان على الوجه الأكمل فيها، وتوطيد الفتوحات ومواقفه من الولاة والقواد فكان يأخذها بالعزم والحزم.

والناظر بعيني الحكمة في عهد عثمان رضي الله عنه يرى أنه قد اجتمعت عليه عدة أمور من شأنها أن يظهر لبعض الناس على أنه متساهل في حكومته: فقد تولى الخلافة في سن السبعين وهي سن لا تعينه على السفر إلى الأمصار وتفقد كل الأحوال بنفسه. كما أن خلافته جاءت بعد خلافة عمر الذي كان يمسك بزمام الأمور بكل قوة وحزم، ويعلو بدرته فوق رأس كل ظالم أو مبتدع أو منحرف عن طريق الجادة والحق.

والحقيقة الغائبة عن أذهان بعض الناس ممن ظنوا أن عثمان تساهل وحمله تساهله إلى الفتنة التي راح ضحيتها. أن عثمان وواجه في مستهل خلافته ظروف سياسية صعبة كان من شأنه أن يتعامل معها بأسلوب يناسبها فيلين تارة ويحزم أخرى. فالحقبة التاريخية لخلافة عثمان رضي الله عنه تغيرت بعض الشيء عن عهد عمر وكل مرحلة زمنية تتطلب أسلوباً مناسباً لها في إدارة الحياة والقيام على شئونها المختلفة، فالفتوحات في عهد عثمان قد كثرت واتسعت رقعة الدولة وترامت أطرافها، وانتشر الصحابة في أصقاع الأرض الذين كان يستعين بهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إذا حز بهم أمر.

ودخلت أجيال جديدة في الإسلام كانت حديثة العهد به وبتعاليمه فلم تنصهر قلوبها في بوتقة الإيمان بعد، ولم تكن حياتها على النسق الذي عاش عليه الصحابة الكرام فالديانة واحدة والطباع لا تزال مختلفة.

كما أن قوى الحقد والتآمر بدأت تنفث سمومها، وتؤثر في مجرى الأحداث ووجهت أول ضرباتها بطعن الفاروق عمر رضي الله عنه.

وفي وسط هذه الأمواج المتلاطمة في بحر الأحداث المتلاحقة، أحكم عثمان

قيادة سفينة الخلافة إلى بر الأمان ولم تضعف له قوة، أو تلن له قناة، أو تضعف له عزيمة، أو تنل هذه الأحداث من صبره، وحسن سياسته وإدارته لدولة الإسلام. فأخذ ينظر ويتبصر كل المستجدات والأحداث ويتعامل معها وفق منهج رآه مناسباً لها.

فتخير الولاية ورسم لهم طريق العمل على نحو ما أسلفت في الصفحات السابقة، وأمرهم أن يكونوا رعاة لا جبابرة وأمرهم بموافاته في كل موسم حتى يحاسبهم على كل ما صدر منهم، وكان يعزل بعض الولاة إذا استدعى الأمر ذلك، كما فعل مع سعد بن أبي وقاص<sup>(١)</sup>، لما تثار مع ابن مسعود<sup>(٢)</sup>، ومع الوليد بن عقبة<sup>(٣)</sup>، لما لفقت له تهمة شرب الخمر<sup>(٤)</sup>، فكان الولاية بسبب هذه المحاسبة يبذلون أقصى الطاقة في رعاية مصالح الناس وإقامة الحق والعدل بين أفراد الرعية. وكان يظهر حزم عثمان وصرامته في كل موقف استدعى ذلك، ولا يحتمل اللين والتسامح والهوادة.

(١) ذكر سبب عزل عثمان عن الكوفة سعدا واستعماله عليها الوليد: يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى «كتب إلى السري، عن شبيب عن سيف بن عمرو الشعبي قال: كان أول ما نزع به بين أهل الكوفة وهو أول مصر نزع الشيطان بينهم في الإسلام أن سعد بن أبي وقاص استقرض من عبد الله بن مسعود من بيت المال مالا فأقرضه فلما تقاضاه لم يتيسر عليه فارتفع بينهما الكلام حتى استعان عبد الله بأناس من الناس على استخراج المال واستعان سعد بأناس من الناس على استنظاره فافترقوا وبعضهم يلوم بعضاً. يلوم هؤلاء سعداً أو يلوم هؤلاء عبد الله واحتدم بينهما الأمر إلى أن قال عبد الله بن مسعود لسعد أذ المال الذي قبلك، فقال له سعد: ما أراك إلا ستلقى شراً هل أنت إلا ابن مسعود عبد من هزيل؟ فقال أجل والله إني لابن مسعود وإنك لابن حينة فقال أحد الجالسين: أجل والله إنكما لصاحبا رسول الله ﷺ ينظر إليكما، فطرح سعد عودا كان في يده - وكان رجلاً فيه حدة ورفع يديه وقال: اللهم رب السموات والأرض - فقال عبد الله ويلك قل خيراً ولا تلعن، فقال سعد عن ذلك: أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لا تخطئك، فولى عبد الله سريعا حتى خرج فلما وقع بين ابن مسعود وسعد هذا الخلاف ولم يقض سعد دينه لبيت المال غضب عليه عثمان وانتزع منه ولاية الكوفة وغضب على عبد الله وأخره واستعمل الوليد بن عقبة على الكوفة بدلا من سعد بن أبي وقاص وكان الوليد عاملا لعمر بن الخطاب على ربيعة بالجزيرة فقدم الكوفة فلم يتخذ لداره بابا حتى خرج من الكوفة (تاريخ الطبري / ٤ / ٤٣٦ بتصرف).

- (٢) تاريخ الطبري موضوع ذكر سبب عزل عثمان عن الكوفة سعدا واستعماله عليها الوليد ٤ / ٤٣٦ .
- (٣) هو الصحابي الجليل: الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية القرشي الأموي أخو عثمان لأمه أسلم يوم الفتح وتولى ولاية الكوفة سنة خمس وعشرين ومات في خلافة معاوية [الإصابة ٦ / ٦١٤].
- (٤) تاريخ الطبري موضوع ذكر سبب عزل عثمان ﷺ عن الكوفة سعدا وتوليته عليها الوليد ٤ / ٤٤٦ .

وفي السنة السادسة والعشرين من الهجرة أمر عثمان بتجديد أنصاب الحرم، وزاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه، وابتاع من قوم منازلهم التي تحيط بالحرم. وأبى آخرون فهدم عليهم ووسّع الأثمان في بيت المال، فصيحوا بعثمان فأمر بهم الحبس، وقال: أتدرون ما جرأكم عليّ؟ ما جرأكم عليّ إلا حلمي قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا به، ثم كلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد<sup>(١)</sup>، فأخرجوا<sup>(٢)</sup>، -أى من الحبس-.

وللأستاذ عبد الستار الشيخ كلام طيب حول هذه القضية حيث يقول: ولقد تجلّى حزم عثمان بن عفان ؓ عندما حاصره الخارجون عليه في داره وأرادوا منه أن يخلع نفسه من الخلافة، فتأبى وقال: (لم أكن لأخلع سربالاً سربلني الله)<sup>(٣)</sup>، وبعد ذلك. ألا فلنسأل الذين اتهموا عثمان باللين وعدم الحزم: هل رأوا منذ آدم ؑ إلى يوم الناس هذا عدا النبيين والمرسلين في طبائع البشر مثل هذا الموقف لرجل في مثل هذه السن؟ رجل يتكئ على شيخوخته الضعيفة، وقد نيف على الثمانين، وودع رحلة العمر وهو يرى أن دمه سيسفح ظلماً. بعد أن يقول كلمة (لا) فيجيب وكأن حزم السنوات الثمانين قد تجمع في قلبه تلك اللحظة المزلزلة ويقول (لا).

إنه رجل الخلافة الباهر، ورجل المسؤوليات، ورجل التضحيات، لقد كان هذا الحزم الفريد محبوباً في سربال الحياء، الذي تلفع به عثمان، وما كنا نراه إلا في تلك المواقف الباهرة كهذا الموقف العظيم ألا فليؤ بالخرى كل من يتهم عثمان ؓ بما لا يليق به، وليمض أمير المؤمنين شهيد إيمانه وعقيدته، وفضائله ومكارمه، وحزمه وعزمه وتصميمه ؓ وأرضاه<sup>(٤)</sup>.

(١) عبد الله بن خالد بن أسيد المخزومي تولى إمرة فارس من قبل زياد في خلافة معاوية واستخلفه زياد على البصرة لما مات فأقره معاوية [الإصابة ٤/ ٧١].

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٤٣٦.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات: ذكر ما قيل لعثمان في الخلع وما قال لهم ٣/ ٤٨.

(٤) الخلفاء الراشدون حياة ماجدة وأعمال خالدة تأليف: عبد الستار الشيخ ص ٣٥٤ بتصرف - طبعة دار القلم بدمشق الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م - وينظر خلفاء الرسول لخالد محمد خالد ص ٢٦٤ - ٢٦٧ طبعة دار ثابت.

## ١٠ - أعطيات عثمان ﷺ ورواتبه للمسلمين:

العطاء من الأمور التي أحكم عثمان إدارتها فقد كان عمر ﷺ فرض لكل إنسان عطاء من بيت المال، فلما جاء عثمان أقرهم على ما كانوا عليه أيام عمر وزادهم مائة وكان عمر ﷺ قد فرض لكل نفس من المسلمين في كل يوم من رمضان درهما من بيت المال يفطر عليه ولأمهات المؤمنين درهمين فلما تولى عثمان زادهم على ذلك (فالمعلوم أنه لما كثرت الفتوحات في عهد عثمان كثر الخراج وأتاه المال من كل وجه حتى اتخذ الخزائن وأدر الأرزاق وكان يأمر للرجل بمائة ألف بدرة في كل بدرة أربعة آلاف وافية<sup>(١)</sup>، وقال الطبري رحمه الله (أول خليفة زاد الناس في أعطياتهم مائة عثمان فجرت، وكان عمر يجعل لكل نفس منقوسة من أهل الفئ في رمضان درهما في كل يوم، وفرض لأزواج رسول الله ﷺ درهمين، درهمين فقيل له: لو صنعت لهم طعاما فجمعتهم عليه فقال: أشبع الناس في بيوتهم، فأقر عثمان الذي كان صنع عمر وزاد فوضع طعام رمضان فقال للمتعب الذي يتخلف في المسجد وابن السبيل والمعترين<sup>(٢)</sup>، بالناس في رمضان<sup>(٣)</sup>).

## ١١ - اتخاذه بعض الإجراءات الأمنية:

اتخذت حكومة عثمان بعض الإجراءات التي من شأنها أن يستقر الأمن في البلاد ويأمن الولاية من الاغتيالات.

فكان عثمان بن عفان ﷺ هو أول من حمى الحمى، وأول من اتخذ صاحب شرطة، وأول من اتخذ المقصورة في المسجد خوفاً أن يصيبه ما أصاب عمر ﷺ<sup>(٤)</sup>.

## ١٢ - وفاء حكومة عثمان ﷺ بالعهود:

كانت حكومة عثمان بن عفان تلتزم بما تعهدت به الحكومات التي قبلها فكانت توفى بالالتزامات وتزيد في وفائها.

وهذا بخلاف ما عليه الأمر في هذه الأيام حيث تستبدل الحكومة إذا كثرت وعودها ويأتون بحكومة أخرى تتملص مما وعدت به الحكومة التي قبلها، فإن طالبها

(١) ينظر تاريخ الإسلام للذهبي ص ١٧٩.

(٢) المعتزين هم الفقراء الذين يعتزلون الناس ولا يسألونهم (ينظر النهاية) (مع) ٣٤٢/٤ وينظر تفسير ابن كثير ٢٢٩/٣.

(٣) تاريخ الطبري ٤/٤٣٣ موضوع كتاب عثمان ﷺ إلى عماله وولاته والعامه ٤/٤٣٣.

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي (فصل في أوليات عثمان ﷺ) ص ٩٣.

أحد باستيفاء الوعود التي وعدت بها الحكومة التي سبقتها، قالوا: نحن حكومة جديدة لنا أفكار والتزامات جديدة.

لكن حكومة عثمان بن عفان ﷺ التزمت بعهودها المبرمة في عهد رسول الله ﷺ والشيخين من بعده. ومن أمثلة ذلك التزام حكومة عثمان بعهودها مع نصارى نجران فقد عاهدهم رسول الله ﷺ وقدر عليهم الخراج بالعدل والرحمة وأمنهم وحرم ظلمهم ولما جاء أبو بكر أوفى لهم بما عاهدهم عليه النبي ﷺ ولما تولى عمر الخلافة جاءوا إليه بعد أن أجلاهم عن نجران اليمن وأسكنهم بنجران العراق لأنه خافهم على المسلمين ولما سألوه عهود النبي ﷺ وعهود أبي بكر ﷺ كتب لهم: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين، وفاء لهم بما كتب لهم محمد النبي ﷺ وأبو بكر ﷺ) (أما بعد) فمن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فيوسقهم - وقيل فليوسعهم - من حرث الأرض. فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله وعقبة لهم مكان أرضهم، لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم. (أما بعد) فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة، وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرا بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا إلا من صنعهم البر، غير مظلومين ولا معتدى عليهم.

فلما قبض عمر ﷺ واستخلف عثمان أتوه في المدينة فكتب لهم إلى الوليد بن عقبة وهو عامله: (بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى الوليد ابن عقبة، سلام الله عليك، فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو) (أما بعد) فإن الأسقف والعاقب وسراة أهل نجران الذين بالعراق، أتوني فشكوا إلي وأروني شرط عمر لهم، وقد علمت ما أصابهم من المسلمين، وإنني قد خففت عنهم ثلاثين حلة من جزيتهم، تركتها لوجه الله تعالى جل ثناؤه، وإنني وفيت لهم بكل أرضهم التي تصدق عليهم عمر عقبي مكان أرضهم باليمن فاستوص بهم خيرا، فإنهم أقوام لهم ذمة، وكانت بيني وبينهم معرفة، وانظر صحيفة كان عمر كتبها لهم فأوفهم ما فيها، وإذا قرأت صحيفةهم فارددها عليهم. والسلام<sup>(١)</sup>.

(١) الخراج لأبي يوسف ص ٧٩، ٨٠.

## ١٣ - رؤية جديدة في السياسة العسكرية لعثمان ﷺ:

(بعض الابتكارات المهمة لحكومة عثمان ﷺ)

كان معاوية بن أبي سفيان قد ألح كثيرا على عمر بن الخطاب في غزو قبرس وركوب البحر لها، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: أن صف لنا البحر وراكبه فكتب: إنى رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير إن ركد خرق القلوب، وإن تحرك أراع العقول، تزداد فيه العقول قلة والسيئات كثرة، وهم فيه كدود على عود إن مال غرق، وإن نجا فرق، فلما قرأ عمر الكتاب كتب إلى معاوية: والله لا أحمل فيه مسلما أبدا<sup>(١)</sup>، ولما تولى عثمان الخلافة وجد أن مخاطر الروم قد كثرت، وإنهم يستطيعون أن يهاجموا المسلمين من جهة البحر حيث إنهم كانوا قد اتخذوا من جزيرة قبرس قاعدة لعدوانهم، وكان لهم أسطول بحرى ضخيم يساعدهم على الإغارة على المسلمين في أى وقت، ولم يكن للمسلمين أسطول يرد كيد الأعداء.

فلما ألح معاوية على عثمان ببناء أسطول، فكر عثمان في الأمر مليا فوجد أن بناء الأسطول البحرى الإسلامى أمر مهم لحماية السواحل الإسلامية من جانب ولكى يركب المسلمون البحر ويبلغون دعوة الله إلى من وراءه من جانب آخر.

فكان الأسطول البحرى سلاحا جديدا أدخله عثمان بن عفان ﷺ إلى العسكرية الإسلامية ودافع به كثيرا عن حدود دولة الإسلام. وكانت أول تجربة بحرية قام بها المسلمون، فتح قبرس بقيادة معاوية بن أبي سفيان<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان هذا مظهرا من مظاهر أنشطة الخليفة عثمان بن عفان ﷺ الذى واكب عصره وتعامل مع مستجداته بكل سياسة وحكمة وقوة وحزم بجانب أنه كان يسير على نهج النبي ﷺ والخليفين قبله. فرضى الله عنه ووفقنا إلى السير على نهجه.



(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى (فصل فى خلافته ﷺ) ص ١٨٣.

(٢) ينظر تاريخ الأمم والملوك للطبرى. موضوع: ذكر الخبر عن غزوة معاوية قبرس ٤٣٩/٤ طبعة مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

## الفصل الرابع

### مظاهر من أنشطة الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ

ويتضمن النقاط الآتية:

- ١ - التعريف بعلي بن أبي طالب ﷺ.
- ٢ - توليته خلافة المسلمين.
- ٣ - تفريق عماله على الأمصار.
- ٤ - بيت المال والمحافظة على أموال المسلمين.
- ٥ - حكومة علي ﷺ تلتزم بما التزمت به الحكومات التي سبقتها.
- ٦ - قضاء الإمام علي ﷺ وبرايعته في ذلك.
- ٧ - نموذج من إدارة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ.

## الفصل الرابع

### مظاهر من أنشطة الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ

#### ١ - التعريف بعلي بن أبي طالب ﷺ:

أ- نسبه: علي بن أبي طالب - واسم أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب واسمه شيبه - بن هاشم واسمه عمرو، بن عبد مناف، واسمه المغيرة، بن قصي، واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن نضر بن كنانة، أبو الحسن، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولدت هاشميا قد أسلمت وهاجرت.

ب- كنيته: كنيته أبو تراب، وكناه بها النبي ﷺ.

ج- مولده: ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح فربى في حجر النبي ﷺ، وكان أخو النبي ﷺ في المؤاخاة.

د- إسلامه: كان من أول الناس إسلاماً في قول كثير من أهل العلم، وأخرج أبو يعلى عن علي ﷺ قال: (بعث رسول الله ﷺ يوم الاثنين، وأسلمت يوم الثلاثاء، وكان عمره يوم أسلم عشر سنين، وقيل: تسع، وقيل ثمان، وقيل دون ذلك، قال الحسن بن زيد بن الحسن. ولم يعبد الأوثان قط لصغره).

هـ- مناقبه: مناقبه أكثر من أن تحصى، فهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة. وأحد السابقين إلى الإسلام وأحد العلماء الربانيين (كان ﷺ يقول: سلوني، سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليلاً أو نهار. وعلى ﷺ أحد الشجعان المشهورين، والزهاد المذكورين، والخطباء المعروفين وأحد من جمع القرآن وعرضه على النبي ﷺ شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا غزوة تبوك. فإن النبي ﷺ خلفه على المدينة أيامها).

و- وفاته: قتل علي بن أبي طالب ﷺ في ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، وكان عمره حين قتل ثلاث وستون، وقيل: أربع وستون، وقيل:



خمس وستون وقيل سبع وستون وقيل ثمان وستون<sup>(١)</sup>.

## ٢- توليه خلافة المسلمين:

يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى: حدثني جعفر بن عبد الله المحمدي قال: حدثنا عمرو بن حماد وعلي بن حسين قالا: حدثنا حسين عن أبيه عن عبد الملك بن أبي سليمان الفزاري عن سالم بن أبي الجعد الأشجعي عن محمد بن الحنفية قال: كنت مع أبي حين قتل عثمان رضي الله عنه فقام فدخل منزله فأتاه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل، ولا بد للناس من إمام ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله ﷺ، فقال: لا تفعلوا فإن أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً. فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، قال: ففى المسجد فإن بيعت لا تكون خفياً ولا تكون إلا عن رضى المسلمين، قال سالم بن أبي الجعد: فقال عبد الله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتى المسجد مخافة أن يشغب عليه، وأبى هو إلا المسجد فدخل المهاجرون والأنصار فبايعوه ثم بايعه الناس<sup>(٢)</sup>.

## ٣- تفريق عماله على الأمصار:

من الأعمال الإدارية المهمة التى قام بها على بن أبى طالب: تعيين العمال على الأمصار حتى يحكم إدارة الدولة. فبعث علي رضي الله عنه عثمان بن حنيف<sup>(٣)</sup>، على البصرة وعمارة بن شهاب<sup>(٤)</sup>، على الكوفة، وعبيد الله بن عباس<sup>(٥)</sup>، على اليمن، وقيس بن سعد

(١) الإصابة (ترجمة على بن أبى طالب رضي الله عنه ٥٧/٤، ٥٦٤) - وينظر تاريخ الإسلام للذهبي - سير الخلفاء الراشدين ص ٢٢٥، ٢٢٦ - وينظر تاريخ الخلفاء للسيوطي (على بن أبى طالب رضي الله عنه نسبه وكناه) ص ١٩٧.

(٢) تاريخ الطبري ٥٢٤/٤ موضوع: خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

(٣) هو الصحابي الجليل: عثمان بن حنيف الأنصاري شهد أحداً ومات بالكوفة في خلافة معاوية [الإصابة ٤/٤٤٩].

(٤) عمارة بن شهاب الثوري كانت له هجرة واستعمله علي بن أبى طالب رضي الله عنه على الكوفة [الإصابة ٤/٥٨٣].

(٥) هو الصحابي الجليل عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم يكنى أبا محمد وهو شقيق الفضل وعبد الله ولد قبل بدر استعمله علي بن أبى طالب على اليمن وحج بالناس سنة ست وثلاثين ومات سنة سبع وثمانين

[الإصابة ٤/٣٩٦].

على مصر، وسهل بن حنيف<sup>(١)</sup>، على الشام<sup>(٢)</sup>.

#### ٤ - بيت المال والمحافظة على أموال المسلمين:

كان علي بن أبي طالب ﷺ قد اتخذ بيتاً للمال، وولى زياد بن أبي سفيان أمر الخراج وبيت المال<sup>(٣)</sup>، وكان علي يكنس بيت المال ثم يصلى فيه، رجاء أن يشهد له أنه لم يحبس فيه المال عن المسلمين<sup>(٤)</sup>.

وعاش علي بن أبي طالب ﷺ مدة خلافته زاهداً في الدنيا يحافظ على أموال المسلمين.

قال أبو عمرو بن العلاء، عن أبيه، قال: خطب علي ﷺ فقال: يا أيها الناس، والله الذي لا إله إلا هو، ما رزأت - يعني ما أخذت - من مالكم قليلاً ولا كثيراً، إلا هذه القارورة، وأخرج قارورة فيها طيب. ثم قال: أهداها إلى دهقان<sup>(٥)</sup>.

يقول الإمام أحمد حدثنا حسن وأبو سعيد موسى بن هاشم قالنا ثنا ابن لهيعة ثنا عبد الله بن هبيرة عن عبد الله بن زريق أنه قال: دخلت على علي بن أبي طالب ﷺ يوم الأضحى فقرب إلينا خزيرة<sup>(٦)</sup>، فقلت: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط يعني الوز، فإن الله قد أكثر الخير. قال: يا بن زريق إني سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين يدي الناس»<sup>(٧)</sup>.

(١) هو الصحابي الجليل: سهل بن حنيف بن واهب الأنصاري الأوسى شهد بدرا وثبت يوم أحد ودافع عن النبي ﷺ وشهد الخندق والمشاهد بعدها وشهد صفين مع علي ومات سنة ثمان وثلاثين [الإصابة ٣/ ١٩٨].

(٢) المرجع السابق ٥٣١/٤ موضوع: تفريق علي عماله على الأمصار.

(٣) ينظر إلى تاريخ الطبري (تأمر ابن عباس على البصرة وتولية زياد الخراج) ٥٨٢/٤.

(٤) ينظر إلى تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢١٣.

(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ترجمة أمير المؤمنين علي ﷺ: زهده وتعبه ٨١/١، وينظر تاريخ الإسلام للذهبي ص ٢٤٤ والدهقان - رئيس القرية ومقدم الثناء وأصحاب الزراعة وهو معرب (النهاية «دهقان» ١٤٥/٢).

(٦) الخزيرة: لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذر عليه الدقيق، فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة، وقيل هي حسا من دقيق ودسم، وقيل: إذا كان من دقيق فهي حريرة. وإذا كان من نخالة فهي خزيرة (النهاية «خزر» ٢٨/٢).

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٧٨/١.

يقول الإمام أبو نعيم حدثنا أحمد بن جعفر بن مسلم ثنا أحمد بن أبي الحسن الصرقي ثنا يحيى بن يوسف الرقي ثنا عباد بن العوام، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، قال: دخلت على علي بالخورنق، وعليه سمل قطيفة، فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك فقال: إني والله ما أرزؤكم<sup>(١)</sup>، شيئاً وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من بيتي<sup>(٢)</sup>، قال ابن سعد أخبرنا الفضل بن دكين قال حدثنا الحر بن جرموز، قال رأيت علياً وهو يخرج من القصر وعليه إزار إلى نصف الساق، ورداء مشمر، ومعه درة له يمشى بها في الأسواق ويأمرهم بتقوى الله، وحسن البيع، ويقول: أوفوا الكيل والميزان، ولا تنفخوا اللحم<sup>(٣)</sup>.

٥ - حكومة علي ﷺ تلتزم بما التزمت به الحكومات التي سبقتها:

كان لأهل نجران عهد أخذوه على النبي ﷺ ثم التزم به أبو بكر ﷺ ثم التزم به عمر وعثمان مدة خلافتهم، ولما بويع لعل بالخلافة سار على نفس النهج والتزم بما فعله النبي ﷺ والخلفاء الثلاثة رضوان الله عليهم.

يقول الإمام أبو يوسف رحمته الله تعالى: فلما استخلف علي رضوان الله عليه وقدم العراق أتوه. فحدثني الأعمش عن سالم بن أبي الجعد قال: أتى أسقف نجران علياً ﷺ ومعه كتاب في أديم أحمر قال: أسألك يا أمير المؤمنين خط يدك وشفاعة لسانك - يعني لما رددتنا إلى بلادنا - قال فأبى علي ﷺ أن يردهم وقال: ويحك إن عمر كان رشيد الأمر قال: وكان عمر ﷺ أجلاهم لأنه خافهم على المسلمين وقد كانوا اتخذوا الخيل والسلاح في بلادهم فأجلاهم عن نجران اليمن وأسكنهم نجران العراق. قال: وكانوا يرون أن علياً لو كان مخالفاً لسيرة عمر لردهم. ثم كتب لهم علي ﷺ: ((بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين لأهل النجرانية، إنكم أتيتموني بكتاب من نبي الله ﷺ فيه شرط لكم على أنفسكم وأموالكم وإنني وفيت لكم بما كتب لكم محمد ﷺ وأبو بكر وعمر، فمن أتى عليهم من

(١) ما أرزؤكم شيئاً: يعني ما أخذت منكم شيئاً. ينظر (النهاية ٢/ ٢١٨ «رزأ»).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ترجمة أمير المؤمنين علي ﷺ: زهده وتعبده ٨٢/ ١.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ذكر لباس علي بن أبي طالب ٢٠/ ٣.

المسلمين فليف لهم ولا يضاموا ولا يظلموا ولا ينتقص حق من حقوقهم، وكتب عبد الله بن أبي رافع لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين منذ ولج رسول الله ﷺ المدينة<sup>(١)</sup>.

#### ٦ - قضاء الإمام علي ﷺ وبراعته في ذلك:

كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قاضياً بارعاً، يدقق في الأحكام، ويضع الأمور في نصابها الصحيح، ويقيم الحق والعدل بين الناس، وكان ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ له.

يقول الإمام الحاكم محمد بن علي بن حماد ثنا العباس بن الفضل الأسفاطى ثنا أحمد بن يونس ثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش، عن عمرو بن مرة عن أبي البحتري قال: قال علي ﷺ بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: فقلت يا رسول الله إني رجل شاب وأنه يرد علي من القضاء ما لا علم لي به قال فوضع يده على صدرى وقال «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه» فما شككت في القضاء أو في قضاء بعد<sup>(٢)</sup>.

ويقول الإمام الحاكم محمد بن علي بن حماد ثنا محمد بن موسى العدل، ثنا محمد بن أيوب أنبأنا إبراهيم بن موسى، ثنا عيسى بن يونس ثنا الأجلح عن الشعبي عن عبد الله بن الخليل عن زيد بن أرقم قال بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من أهل اليمن فجعل يحدث النبي ﷺ ويخبره فقال يا رسول الله أتى علياً ثلاثة نـ يختصمون في ولد وقعوا على امرأة في طهر واحد فقال لاثنين طيبا نفسا بهذا الولد قال أنتم شركاء متشاكسون<sup>(٣)</sup>، إني مقرر بينكم فمن قرع له فله الولد وعليه ثلثا الدية لصاحبيه فأقرع بينهم فقرع لأحدهم فدفع إليه الولد قال فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجزه<sup>(٤)</sup>، أو قال أضراسه<sup>(٥)</sup>.

(١) الخراج لأبي يوسف ص ٨٠، ٨١.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک: کتاب معرفة الصحابة ﷺ ذكر إسلام أمير المؤمنين علي ﷺ: ٣: ١٣٥ ح ٤٦٥٨ وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي.

(٣) مختلفون متنازعون (النهاية «شكس» ٢/ ٤٩٤).

(٤) النواجز من الأسنان: الضواحك وهي التي تبدو عند الضحك (النهاية «نجز» ٥/ ٢٠).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک في کتاب معرفة الصحابة ﷺ: ذكر إسلام أمير المؤمنين علي ﷺ: ٣: ١٣٦ ح ٤٦٥٩.

ومن روائع قضائه التي فصل فيها بين الناس بالحق والعدل ما رواه عبد الرزاق عن الثوري عن سليمان الشيباني عن رجل عن علي قال أتى رجل إليه فقال: زعم هذا أنه احتلم بأمي فقال: اذهب فأقمه في الشمس، فاضرب ظله<sup>(١)</sup>.

يقول الإمام عبد الله بن محمد بن أبي شيبه الكوفي العباسي: حدثنا أبو بكر قال حدثنا حفص بن غياث عن أبي جريح قال أتى علي برجل وشهد عليه رجلان أنه سرق فأخذ شيئاً من أمور الناس وتهدد شهود الزور وقال فلا أوتى بشاهد زور إلا فعلت به كذا وكذا قال: ثم طلب الشاهدين فلم يجدهما فخلى سبيله<sup>(٢)</sup>.

#### ٧- نموذج من إدارة أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

كان الإمام علي عليه السلام يمر بالأسواق فيصلح من شأنها ويضبط المكايل والموازين، ويراقب أمر البيع والشراء يقول ابن سعد رحمه الله تعالى: أخبرنا الفضل بن ركين قال: حدثنا الحر بن جرموز عن أبيه قال: «رأيت علياً وهو يخرج من القصر وعليه قطريتان<sup>(٣)</sup>، إزار إلى نصف السابق ورداء يأمر بحسن البيع ويقول: أوفوا الكيل والميزان ويقول لا تنفخوا اللحم»<sup>(٤)</sup>.

= وقال الحاكم هذا حديث حسن صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد زاد الحديث تأكيداً برواية ابن عيينة وقد تابع أبو إسحاق التبيعي الأملج في روايته وسكت عنه الذهبي في التلخيص ح ٤٦٥٩ المستدرک ٣/ ١٣٦. (١) أخرجه الإمام عبد الرزاق في المصنف كتاب الطلاق: باب الرجل يطلق في المنام أو يحتلم بأمر رجل ٦/ ٤١١، ٤١٢ ح ١١٤٢٦ - والكتاب تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي طبعة المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م وتاريخ الخلفاء للسيوطي موضوع (فصل في نبذ من أخبار علي وقضاياه) وكلماته عليه السلام ص ٢١٢، ١١٣.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبه في كتاب الحدود ١٢٧ باب في الرجل يشهد عليه شاهدان ثم يذهبان ٦/ ٦٥١ والكتاب طبعة دار الفكر بيروت سنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.

(٣) الثوب القطري: هو ضرب من البرود فيه حرمة ولها أعلام فيها بعض الخشونة وقيل هي حلل حياد تحمل من قبل البحرين وقال الأزهرى: في أعراض البحرين قرية يقال لها: قطر وأحب الثياب القطرية نسبت إليها. فكسروا القاف للنسبة وخففوا (النهاية «قطر» ٤/ ٨٠).

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ذكر لباس علي بن أبي طالب ٣/ ٢٠.

## وبعد

فهذه بعض النماذج من حكومات الخلفاء الراشدين بينت من خلالها أنهم ﷺ ساروا على نهج النبي ﷺ في كل أمور الحياة فأقاموا الحق والعدل وأحسنوا قيادة العالم فسادوا الدنيا بأسرها، ومن ثم يجب على المسلمين في كل بقاع الأرض أن يتخذوهم مثلاً صادقة ويسيروا على نهجهم حتى تعود إلى أمة الإسلام عزتها وكرامتها ويتحقق المجد الذي فقده المسلمون.

هذا والله أعلم.

## الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، والمبعوث  
رحمة للعالمين سيدنا محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.  
أما بعد:

فقد انتهيت بعون الله وتوفيقه من هذا البحث وقد أكد هذا البحث بعض  
جوانب العظمة في حياة الصادق المصدوق نبينا محمد ﷺ الذي يطالع سته، ويتعلم  
سيرته، وسيرة الخفاء الراشدين يكشف نقاط عن جوانب عظيمة مهمة في حياة النبي  
ﷺ وأصحابه غفل عنها كثير من الناس.

وقد وفقني الله تعالى إلى أن آخذ من جوانب العظمة النبوية بطرف ، وهو البحث  
في الجانب السياسي والإداري في حياة النبي ﷺ وخلفائه ، وهو أمر ليس بالسهل  
اليسير ، لأن الأمور السياسية لا تكون ظاهرة للعيان بل تحاط بكثير من الكتمان ،  
ولذلك تحتاج إلى كثير روية وإمعان ، ولكن ملاحظة ما بين السطور ، وما ترمى إليه  
الوقائع ، ودلالة مفهومها.

وقد توصلت بتوفيق الله تعالى من خلال دراستي لهذا الجانب المهم في حياة  
النبي ﷺ وخلفائه إلى نتيجة عامة مؤداها:

أن النبي ﷺ أرسى بقوله وعمله قواعد الإدارة الحكيمة والسياسة الرشيدة بما  
يضمن للأمة الإسلامية الأمن والسلام والرقى والسعادة في الدنيا والآخرة، وأن الخلفاء  
الراشدين رضي الله تعالى عنهم ساروا على نهجه ﷺ فملؤا الدنيا عدلاً وإيماناً ،  
وحضارة ورقياً.

وقد تفرع من هذه النتيجة العامة عدة نتائج فرعية لأهم الجوانب الإدارية  
والسياسية في حياة النبي ﷺ وحياة خلفائه ﷺ أجملها فيما يأتي:

١- أثبت البحث أنه قد توفرت في النبي ﷺ عدة مؤهلات أهلت لقيادته العالم

من مثل: رعيه ﷺ للأغنام تلك المهنة التي تعلم منها النبي ﷺ الصبر والقيادة، وقيامه ﷺ ببعض الرحلات التجارية التي وسعت آفاقه، وخلوته ﷺ بنفسه التي زادته صفاء و يقيناً، وحضوره ﷺ بعض الأحلاف والاجتماعات المهمة التي أفادته في المفاوضات وفض النزاعات بين الناس، وحضوره ﷺ بعض المعارك مما أفاده سياسياً وعسكرياً ثم كان تسليم الشجر والحجر عليه ﷺ ورؤاه الصادقة تأهيلاً من الله تعالى له لتسلم قيادة أمة الإسلام.

٢- أن النبي ﷺ كان له جوانب سياسية حكيمة في مكة فقد بنى الأمة فرداً فرداً وأعد القواعد البشرية لقيام دولة الإسلام وأحاط الدعوة بسياس من السرية حتى لا تقبر في مهدها، وأنه ﷺ كان يجيد فن مفاوضة الأعداء ويقنعهم بوجهته وعدالة موقفه.

٣- أن النبي ﷺ كانت له سياسة حكيمة حينما أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة والتي تمثل حق اللجوء السياسي في هذه الأيام - كما أن توقيتها كان مناسباً جداً حتى يخفف عن صحابته ما وقع عليهم من الأذى ولقد حقق من هذه الهجرة أهدافاً مهمة.

٤- أن النبي ﷺ كان يمهد للأعمال ويدرس المواقف والأمر دراسة دقيقة قبل الإقدام عليها ويحسب حساب كل الاحتمالات القريبة والبعيدة حتى لا يفاجأ بالأخطاء والفشل وحتى تأتي النتائج على ما يحب الله ورسوله وذلك ظاهر من خلال تمهيدته ﷺ لبناء الدولة الإسلامية خارج مكة ببيعتي العقبة الأولى والثانية.

٥- أن النبي ﷺ خطط للهجرة تخطيطاً دقيقاً وأخذ بكل الأسباب المتاحة التي تساعد على نجاحها وأحاطها بسياس من السرية والكتمان فتمت وكانت فتحة عظيمة على الإسلام وأهله وقد ظهرت سياسة النبي ﷺ الرشيدة وإدارته الحكيمة من خلال دراسته لموقع المدينة المنورة دراسة عسكرية واقتصادية واستراتيجية، وكذا في دقته في التخطيط واختيار العناصر البشرية وتوظيفها على أكمل وجه، وكذا في استخدام عناصر التمويه باستخدام الزمان والمكان والأشخاص والطرق.

٦- تأكدت سياسة النبي ﷺ الرشيدة وإدارته الحكيمة في إرسائه لقواعد إقامة الدولة الإسلامية في المدينة.



ومن أهم هذه القواعد:

أ- تقوية صلة الأمة بالله ﷻ.

ب- وتوطيد صلتها ببعضها.

ج- وتنظيم صلتها بالذين لا يدينون بدينها.

٧- أن النبي ﷺ كان له السبق في مجال تنظيم حياة الأمم والمجتمعات ولا سيما التي تعيش في موطن واحد على اختلاف معتقداتها إذ أوجب لكل طائفة حقوقاً وفرض عليها واجبات، وذلك من خلال وضع وثيقة سياسية عرفت بدستور المدينة ولعلها أقدم وأعرق وثيقة سياسية في العالم

٨- أن الدين والسياسة أمران متلازمان وأنهما كالوجهين للعملة الواحدة

٩- أن النبي ﷺ كان عادلاً ورحيماً إلى أبغ حد ممكن مع أهل الذمة حيث أوجب لهم حقوقاً كثيرة منها، حق الحرية والتدين، وحق الحياة، والأمن، وحماية الأموال والأعراض.... إلخ، وفي ذلك رد على من زعم ظلماً أن الإسلام دين إرهاب.

١٠- أن النبي ﷺ أحكم قيادة الخصوم والأتباع وكانت له سياسة عظيمة في تحقيق العدل والأمن والسلام وذلك من خلال إعلان السلم في عمرة الحديبية مما كان له عظيم الأثر والنفع للأمة الإسلامية وأن المكاسب التي حققها بالسلم لم تكن لتحقق لو دارت رحى الحرب.

١١- أن النبي ﷺ حقق مبدأ عالمية الإسلام فراسل كل ملوك وحكام الأرض في ذلك الوقت ودعاهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ولم يضيع من حياته المباركة نفساً واحداً أو أقل في غير خدمة الدعوة وبناء الدولة الإسلامية.

١٢- كانت للنبي ﷺ سياسة حكيمة في معاملة حديثي الدخول في الإسلام حيث تألف قلوبهم بما أغدقه عليهم من العطاء حتى إذا ما عايشوا تعاليم الإسلام عن قرب ملئت قلوبهم إيماناً فاستغنوا بهذه الذخيرة الإيمانية عن العطاء.

١٣- أن النبي ﷺ كانت له سياسة حكيمة مع عرب القبائل من البدو ونحوهم حيث كان يحلم عليهم تارة ويأخذهم بالشدة أحياناً أخرى حينما يستدعى الأمر ذلك

حتى لا يهددوا أركان دولة الإسلام في المدينة.

١٤- كان للنبي ﷺ سياسة حكيمة في استقبال الوفود فكان ﷺ يرد على أسئلتهم ويحلى لهم ما استشكل عليهم فهمه ويكرم وفادتهم ويستميل قلوبهم.

١٥- أن النبي ﷺ وضع أساس الإدارة المدنية فنظم أمر الوزارة والإمارة والسفارة وأمر القضاء وإقامة الحدود واتخاذ البواب، كما اهتم بنهضة التعليم في المدينة المنورة وكان يعمل على محو أمية المسلمين، وكان يتخذ بعض الأمور الإدارية التي لا بد منها في ذلك الوقت كاتخاذ الخاتم ليكون شعارا للدولة الإسلامية.

١٦- أقام النبي ﷺ كثيرا من جوانب السياسة والإدارة العسكرية التي لم يكن يعرفها أحد في ذلك الوقت فكان النبي ﷺ سابقا على كل قادة العالم في هذه الميادين ومن ذلك: إرسائه لمبدأ الشورى واهتمامه بالاستطلاع والاستخبارات، والتعبئة المعنوية للجنود وعنايته بمباغثة الأعداء ومفاجأتهم.

١٧- وكان للنبي ﷺ سياسة حكيمة في معالجة بعض المواقف التي كانت تطرأ على الساحة العسكرية في ذلك الوقت فكان يتعامل معها بحكمة ويضع لها أنجح الحلول، ومن ذلك: سياسته الحكيمة مع ما ينقل أخبار المسلمين إلى أعدائهم، ومع من تهرب من الجندية وتخلف عن غزوات، وسياسته في تجنب وقوع الفتن والانشقاقات أثناء الغزوات.

١٨- وضع النبي ﷺ أسس الإدارة العسكرية الناجحة والتي تساعد على النصر كإعداد العدة والتأهب التام قبل الغزو والجهاد، وكاهتمامه بأمر التسليح وصناعة الأسلحة واختيار أحسنها، وتعلم الرمي، وتعليم الفروسية وإعداد الخيل، واختيار أفضل العناصر البشرية وأقواها، والتدريب العالى لها، وتولية الأمراء على المدن أثناء الحروب وإعداد مراكز القيادة، واتخاذ الحراس، والتطبيب، ومداواة الجرحى وسقاية الماء، وتقسيم الفىء والغنائم عقب السرايا والغزوات.

١٩- أثبت البحث أن النبي ﷺ قائد عظيم تجمع فيه من صفات القيادة ما تفرق في كل قادة العالم على مر التاريخ وأنه ﷺ حقق النصر في غزواته بفضل تأييد الله تعالى له ثم باستجماعه لعدة صفات رئيسة ساعدته على تحقيق النصر وأهمها: أ- تقدير

الأمر تقديرًا صحيحًا. ب- سبق النظر. ج- عبقرية التخطيط. د- الشجاعة الشخصية. هـ- التحكم في النفس في حالتى النصر والإخفاق. و- الفراسة ومعرفة الوجهات. ز- الثقة المتبادلة بين النبي ﷺ وأصحابه. ح- المحبة المتبادلة. ط- قوة الشخصية. ي- اللياقة البدنية. ك- الماضى الناصع المجيد. ل- معرفة وتطبيق مبادئ الحرب.

وبهذا تحقق له النصر بالإضافة إلى شجاعة جنوده ﷺ وجبن أعدائه ، وكون الحروب التى خاضها ﷺ حروبا عادلة لم تنتهك فيها الحرمات أو تهتك فيها الأعراض ، ولم يكن فيها مثلة بجثث القتلى أو تعذيب للأسرى بل كان يعاملهم معاملة حسنة ويمن عليهم بالفك أحيانا وبدون مقابل.

٢٠- أثبت البحث أن الخلفاء الراشدين ﷺ ساروا فى حكوماتهم سيرا حثيثا على نهج النبي ﷺ واقتفوا أثره والتزموا فى حكوماتهم بكل ما التزمت به حكومة النبي ﷺ وابتكروا كثيرا من النظم الإدارية والسياسية التى تحتاجها دولة الإسلام فى ذلك الوقت بما حقق لأمة الإسلام النصر والظفر ونشر العدل والسلام فى كل بقاع الأرض وكان من جملة النظم الإدارية والسياسة التى ابتكرها الخليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺ ما يأتى:

تطبيقه لمبدأ البيعة ، وبيانه السياسى الذى حدد فيه منهجه فى الحكم ، ونجاحه فى أول قضايا واجهته داخل الدولة وخارجها ، أما خارج الدولة: فبعث جيش أسامة ابن زيد رضي الله عنه إلى الروم وانتصاره فى تلك الغزوات ، وأما داخل الدولة فقضاؤه على حركة الردة ومانعي الزكاة ، كما يضاف إلى جملة الأعمال الإدارية والسياسية فى حكومته ﷺ: وضع راتب للخليفة ، وتعيين نائب له فى حل سفره ، ووظيفة الحاجب ، والكاتب ، والمؤذن ، والمفتى ، وتأسيس بيت للمال ، وتنظيم العطاء ، وتقسيم الأموال على أفراد الأمة بالسوية

وكان من جملة النظم الإدارية والسياسة التى ابتكرها الخليفة عمر بن الخطاب ما يأتى:

\*- براعته فى سياسة القضاء وتدبير الحكم ، وتدوين الدواوين ، ورؤيته الجديدة

في توزيع الفىء على المسلمين ورفضه تقسيم أرض الفتوحات على المقاتلين وفرضه الخراج عليها حتى يحفظ لكل من يأتى بعد حقه فيها ، وإقامة الحق والعدل بين أفراد الرعية ووفائه والتزامه بالعهود التى أعطاهما النبي ﷺ وعمل بها الخليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺ ، واتخاذ دارا للدقيق والتي تعد بمثابة نواة لوزارة التموين فى عصرنا ، وريادته فى إعطائه إجازة للجنود.

\*- ومن جملة النظم الإدارية والسياسية التى ابتكرها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ: رسمه الطريق الصحيح لولاته ووصيته إياهم بحسن معاملة الرعية ، وسياسته الحكيمة فى توزيع العطاء على المسلمين ، واتخاذ بعض الإجراءات الأمنية كالحراسة وغيرها ، وبنائه للأسطول البحري الإسلامى

\*- ومن جملة النظم الإدارية والسياسية التى ابتكرها الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ﷺ: تنظيمه لبيت المال، ومحافظة على أموال المسلمين، والتزامه بما التزمت به الحكومات التى سبقته، وبراعته فى القضاء، وتنظيمه للأسواق وإدارته الناجحة لها وغير ذلك مما لا يحصى كثرة ولا يسعه البحث مما أرساه الخلفاء الراشدون ﷺ وختاما أقول:

لقد كان النبي ﷺ أجمل وأعظم من كل عبقرى ، وأجل من أى زعيم ، وأعظم من كل قائد ، وأبرع من كل سياسى ، وأحكم من أى إدارى ، وأشجع من أى بطل ، وأسمى من أى مصلح ، لقد جمع له من صفات هؤلاء أعظمها وخيرها وأفضلها وأعدلها وأرحمها ، وكان فوق هؤلاء جميعا ، لأنه نبي يوحى إليه ، ورسول يبلغ عن ربه ، وهذا مالا يدرك ولا ينال

وكانت سياسة النبي ﷺ فى خدمة الحق ، ونشر دعوة الإسلام إلى كل بقاع الأرض ، ولم تكن له حيل سياسية بقصد امتلاك الدنيا أو إذلال الناس ، وإنما كانت سياسة حكيمة وإدارة رشيدة من أجل تحقيق ما هو الأنفع للبشرية كلها ، وهذا ما سار عليه الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ .

\*- وأن أشهر قادة العالم قد استفادوا من النبي ﷺ فى سياسته لمجتمعاتهم ، وإدارتهم لها ، وأنهم لم يأتوا بجديد فى أمور السياسة ونظم الإدارة بل كان النبي ﷺ

سابقا عليهم في كل ميادين الحياة مع الفارق الكبير بينه ﷺ وبينهم.

\*- وأن الإسلام دين سماحة وإنصاف ، وأن النبي ﷺ أرسى قواعد العدل ، وراع التعددية واحترام الأديان الأخرى ، وكفل لغير المسلمين حرية الاعتقاد والتزم بحماية غير المسلمين داخل المجتمع الإسلامي ، وصيانة الأموال والأعراض

\*- وأن الإدارة أساسها الإسلام ، وأن المسلمين الأوائل هم الذين وضعوا قواعد الإدارة ونظمها ، وأن كل أمم العالم استفادت منهم استفادة كبيرة في هذا الميدان .

## التوصيات

أوصى المسلمين جميعاً أن يعودوا إلى سنة النبي ﷺ فيتدارسوها ويجعلوها  
منهاج حياتهم في حاضرهم ومستقبلهم ليسعدوا كما سعد سلفنا الصالح ﷺ.  
أوصى كل العاملين في حقل الدعوة الإسلامية أن يهتموا بدراسة الجوانب  
الإدارية والسياسية في حياة النبي ﷺ وخلفائه ويعلموها الناس ليلتزم كل مسلم  
بمنهج النبي ﷺ في تلك الأمور ، فما أحوجنا إلى التأسى بالنبي ﷺ في كل شئون  
الحياة ولا سيما في عصرنا هذا الذي تحكم في المسلمين من كانوا عالة عليهم في عصور  
الإسلام الزاهرة. والله تبارك وتعالى أعلم، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله  
وصحبه وسلم.



## ثبت المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم جل من أنزله.

ثانياً:

١- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان للأمر علاء الدين علي بن بلبان الفارسي  
ت ٧٣٩هـ تحقيق كمال يوسف الحوت ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى  
١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٢- الأحكام السلطانية والولايات الدينية لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب  
البصري البغدادي الماوردي ط دار الكتب العلمية.

٣- الأحكام السلطانية والولايات الدينية للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين  
الفراء الحنبلي ت ٤٥٨ ط مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

٤- الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم طبعة مصر.

٥- إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ت ٥٠٥هـ ط دار الريان  
للتراث بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٦- أخبار القضاة لوكيح طبعة مصر.

٧- الأدب المفرد للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦ تحقيق محمد  
عبد القادر عطا. ط دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٨- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل لمحمد ناصر الدين الألباني ط  
المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٩- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد البر. ت ٤٦٣هـ  
تحقيق علي محمد البجاوي طبعة دار الجبل بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

١٠- الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفى تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل طبعة

مؤسسة الحلبي وشركاه.

- ١١- الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ تحقيق على محمد البجاوي طبعة دار الجبل بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.
- ١٢- أصول الحكم في الإسلام د/ عبد الرازق أحمد السنهوري ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠ م.

١٣- الاضطهاد الديني في الإسلام والمسيحية للدكتور توفيق الطويل.

- ١٤- إمتاع الأسماع لتقى الدين أحمد بن علي المقریزی طبع في قطر الطبعة الثانية.

١٥- أمتنا بين قرنين د/ يوسف القرضاوي ط دار الشروق بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م.

١٦- الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام طبعة دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

١٧- أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى البلاذري تحقيق محمد حميد الله طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٩ م.

١٨- أهل الذمة في الإسلام د/ أس. ترتون ترجمة وتعليق د. حسن حبيش طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ م.

١٩- بدائع الصنائع للكاساني طبعة مصر.

٢٠- البداية والنهاية للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤ ط دار الحديث بالقاهرة الطبعة الخامسة ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

٢١- تاريخ الأقباط لزكي شنودة.

٢٢- تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ط دار القلم بيروت.

٢٣- تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي د/ أبو زيد شلبي طبعة مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة الثالثة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م.

٢٤- تاريخ الخلفاء للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١ ط دار



الجيل بيروت •

٢٥- تاريخ سوريا للدكتور اليازجي.

٢٦- التاريخ الكبير للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

٢٧- تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد لسعيد عبد العظيم طبعة مكتبة الإيمان بالإسكندرية ١٩٩٠م.

٢٨- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى لأبى العلاء محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري طبعة دار الفكر بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٢٩- تفسير القرآن العظيم للحافظ أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى ت ٧٧٤ ط دار مصر بالقاهرة.

٣٠- التفسير الكبير للرازي طبعة دار الكتب العلمية الطبعة الثانية.

٣١- تقريب التهذيب للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ ط دار الرشيد بسوريا الطبعة الثالثة ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٣٢- تهذيب الأسماء واللغات للإمام محي الدين يحيى بن شرف النووي ت ٦٧٦ ط مصر •

٣٣- تهذيب التهذيب للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢ ط.

٣٤- الجامع الصغير للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ت ٩١١.

٣٥- الجهاد والفدائية فى الإسلام لحسن أيوب ط مكتبة الإيمان بالإسكندرية ١٩٩٠م.

٣٦- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ت ٤٣٠ ط دار الفكر بيروت بدون تاريخ.

٣٧- حماية المستهلك فى الفقه الإسلامى د/ رمضان على السيد الشرنباصى ط مطبعة الأمانة بالقاهرة. الأولى ١٤٠٤هـ.

- ٣٨- حياة محمد ﷺ لمحمد حسين هيكل ط الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.
- ٣٩- الخراج للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم. طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ.
- ٤٠- الخلفاء الراشدون. عصر أبي بكر الصديق ﷺ للأستاذ الدكتور السيد أحمد إبراهيم حمور ط مطبعة الحسين الإسلامية بالقاهرة. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
- ٤١- الخلفاء الراشدون حياة ماجدة وأعمال خالدة لعبد الستار الشيخ ط دار القلم بدمشق الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
- ٤٢- خلفاء الرسول ﷺ لخالد محمد خالد ط دار ثابت.
- ٤٣- الخلافة الراشدة والخلفاء الراشدون د/ محمد عبد العليم العدوى طبعة مطبعة التقدم بطنطا ١٩٨٧م.
- ٤٤- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد بن عسقلان الصديقي الشافعي المكي ط دار الفكر بيروت.
- ٤٥- الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها د/ إبراهيم أحمد العدوى ود/ عبد الحميد العبادي ود/ محمد مصطفى زيادة ط نهضة مصر.
- ٤٦- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨ تحقيق د/ عبد المعطي قلعجي ط دار الريان للتراث الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٩٨م.
- ٤٧- الرسول القائد للواء الركن محمود شيت خطاب طبعة دار الفكر بيروت.
- ٤٨- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام لأبي القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله الخثعمي السهيلي ط مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.
- ٤٩- زاد المعاد في هدى خير العباد لابن قيم الجوزية ط دار التقوى للتراث الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- ٥٠- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحى

الشافعى ت ٩٤٢ تحقيق عبد العزيز عبد الحق حلمى ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٥١- السلسلة الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألبانى طبعة المكتب الإسلامى.

٥٢- سماحة الإسلام وحقوق غير المسلمين إعداد نخبة من كبار المفكرين ط وزارة الأوقاف بالقاهرة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٥٣- سنن ابن ماجه لأبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ت ٢٧٥ ط دار الحديث بالقاهرة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٥٤- سنن الدارقطنى للإمام على بن عمر الدارقطنى ت ٣٨٥ وبذيله التعليق المغنى على الدارقطنى لأبى الطيب شمس الحق العظيم آبادى تحقيق السيد عبد الله هاشم يمانى طبعة دار المحاسن بالقاهرة بدون تاريخ.

٥٥- سنن الدارمى للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ت ٢٥٥ ط دار الحديث بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٥٦- سنن النسائى للإمام أحمد بن شعيب النسائى ت ٣٠٣ ط دار الحديث ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٥٧- السنن الكبرى للإمام أبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى ت ٤٥٨ هـ تحقيق محمد عبد القادر عطا طبعة دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٥٨- السياسة الجنائية فى الشريعة الإسلامية د/ أحمد فتحى بهنسى طبعة دار الشروق بالقاهرة الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٥٩- السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية لأحمد بن عبد الحلیم بن تيمية ط دار الإيمان بالإسكندرية.

٦٠- السياسة الشرعية فى ضوء الشريعة ومقاصدها د/ يوسف القرضاوى طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٦١- السياسة المالية لأبى بكر الصديق تأليف قطب إبراهيم محمد طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م.

- ٦٢- سير أعلام النبلاء للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ت ٧٨٤ تحقيق شعيب الأرناؤوط وغيره ط مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الحادية عشرة ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.
- ٦٣- سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي لمحمد بن إسحاق بن يسار ت ١٥١ تحقيق محمد حميد الله ط معهد الدراسات والأبحاث بدون تاريخ.
- ٦٤- سيرة عمر بن الخطاب للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي طبعة در ابن خلدون.
- ٦٥- السيرة النبوية للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ت ٧٧٤ ط عيسى الحلبي بالقاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م.
- ٦٦- السيرة النبوية لابن هشام عبد الملك بن هشام المعافري ت ٢١٣ طبعة دار الحديث بالقاهرة الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.
- ٦٧- السيرة النبوية دراسة تحليلية د/ محمد عبد القادر أبو فارس طبعة دار الفرقان بالأردن الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
- ٦٨- السيرة النبوية المسمى عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لمحمد بن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس طبعة مكتبة القدس بالقاهرة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.
- ٦٩- شبهات وإجابات حول الجهاد في الإسلام للأستاذ الدكتور علي جمعة طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.
- ٧٠- صحيح مسلم بشرح النووي حققه وفهرسه حازم محمد وعماد عامر ط دار الحديث بالقاهرة الطبعة الثالثة ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.
- ٧١- الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد بن منيع الهاشمي ت ٢٣٠ تحقيق محمد عبد القادر عطا طبعة دار الكتب العلمية الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.
- ٧٢- الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية طبعة مكتبة المدني

بجدة.

٧٣- العبر لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون طبعة المطبعة الخيرية بمصر ١٣٢٢هـ.  
٧٤- العبر في خبر من غبر لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز  
الذهبي تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول ط دار الكتب العلمية الطبعة الأولى  
١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٧٥- عبقرية محمد ﷺ لعباس محمود العقاد ط دار الشعب بالقاهرة.  
٧٦- العلمانية وأثرها في أوروبا أ.د/ رشاد عبد العزيز دهمش طبعة الفجر الجديد  
بالقاهرة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٧٧- عون المعبود شرح سنن أبي داود للعلامة أبي الطيب شمس الحق العظيم  
آبادي مع شرح الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية ط دار الفكر ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.  
٧٨- الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل طبعة القاهرة.

٧٩- الفاروق القائد للواء الركن محمود شيت خطاب طبعة دار الفكر بيروت  
الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

٨٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ أحمد بن علي بن حجر  
العسقلاني ت ٨٥٢ ط دار الحديث بالقاهرة الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٨١- فتوح البلدان للبلاذري ط دار ابن خلدون بالإسكندرية.

٨٢- الفخرى في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية لأبي علي بن طباطبا  
المعروف بابن القطقطا طبعة دار صادر بيروت ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

٨٣- الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي أ.د/ محمد إبراهيم الفيومي ط دار  
الشرعية بالقاهرة.

٨٤- فقه السيرة لمحمد الغزالي دار الدعوة الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ-١٩٩٩م.

٨٥- فقه السيرة النبوية د محمد سعيد رمضان البوطي ط دار السلام الطبعة  
السادسة ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- ٨٦- فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوى ط دار المعرفة بيروت بدون تاريخ.
- ٨٧- قراءة سياسية للسيرة النبوية د/ محمد رواس قلعه جى ط دار النفائس الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.
- ٨٨- قيادة الرسول ﷺ الحربية فى الغزوات الإسلامية أ.د/ رزق رزق عامر حسن الطبعة الأولى.
- ٨٩- الكامل فى التاريخ لأبى الحسن بن الأثير الجزرى طبعة المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٣٠١ هـ ١٨٨٣ م.
- ٩٠- لسان العرب لجمال الدين أبى الفضل محمد بن مكرم بن منظور ت ٧١١ ط دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٩ م.
- ٩١- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلامة أبى الحسن الندوى ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.
- ٩٢- مؤامرة فصل الدين عن الدولة للأستاذ محمد كاظم حبيب.
- ٩٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى ت ٨٠٧ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- ٩٤- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة جمعها محمد حميد الله ط دار النفائس الطبعة الرابعة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.
- ٩٥- محاضرات فى النصرانية للشيخ محمد أبى زهرة ط دار الفكر الطبعة الثالثة.
- ٩٦- محمد ﷺ المثل الكامل تأليف أحمد جاد المولى تحقيق عبد الرحيم ماردينى ط مكتبة دار المحبة الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م.
- ٩٧- المستدرك على الصحيحين لأبى عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى ت ٤٥٠ ومعه خلاصة أقوال الذهبى فى التخليص تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.
- ٩٨- المسند للإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ت ٢٤١ ط مؤسسة قرطبة بالقاهرة

بدون تاريخ.

- ٩٩- مسند أبي داود الطيالسي للإمام أبي داود سليمان بن داود الطيالسي ت ٢٠٤ طبعة دار المعرفة بيروت بدون تاريخ.
- ١٠٠- مسند ابن أبي شيبة للحافظ أبي بكر عبد الله بن أبي شيبة ت ٢٣٥ تحقيق يوسف العزازي وأحمد فريد المزيدي ط دار الوطن بالرياض الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
- ١٠١- مسند أبي عوانة للإمام أبي عوانة يعقوب بن إسحاق الاسفرائيني ت ٣٠٦ تحقيق أيمن عارف الدمشقي ط دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.
- ١٠٢- مسند الحميدي للإمام عبد الله بن الزبير الحميدي ت ٢١٩، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ط عالم الكتب ومكتبة المتنبي بالقاهرة بدون تاريخ.
- ١٠٣- المسيحية د/ أحمد شلبي الطبعة الخامسة.
- ١٠٤- المصنف للإمام عبد الرزاق بن همام الصغاني ت ٢١١ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ط المكتب الإسلامي بيروت الثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.
- ١٠٥- المصنف في الأحاديث والآثار للحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ت ٢٣٥ تحقيق سعيد اللحام ط دار الفكر بيروت الأولى ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.
- ١٠٦- مشكل الآثار للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي ت ٣٢١ ط دار صادر بيروت الطبعة الأولى ١٣٣٣ هـ ٠٤.
- ١٠٧- معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية د/ ناريمان عبد الكريم طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ م.
- ١٠٨- معجم البلدان للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي ت ٦٢٦ تحقيق فريد عبد العزيز الجندی طبعة دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.
- ١٠٩- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ت ٣٦٠ تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي طبعة دار البيان العربي بالقاهرة الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ.

- ١١٠- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف تأليف مجموعة من المستشرقين مع مشاركة الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي طبعة ليدن بدون تاريخ.
- ١١١- المغازى لأبى عبد الله محمد بن عمر الواقدى طبع فى كلكتا سنة ١٨٥٦م طبعة الجمعية الآسيوية فى البنغال.
- ١١٢- المغازى لمحمد بن عمر الواقدى تحقيق د/ مارسان جوسند طبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦م.
- ١١٣- المغنى تأليف الشيخ العلامة أبى محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة ت ٦٢٠ هـ طبعة دار الغد العربى الطبعة الأولى بدون تاريخ.
- ١١٤- المقدمة لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون طبعة مطبعة التقدم بالقاهرة ١٣٢٩ هـ.
- ١١٥- المنتقى للحافظ أبى محمد عبد الله بن الجارود طبعة دار الجنان الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م.
- ١١٦- من فقه عمر بن الخطاب فى المساءلة والعزل والتعيين أ.د/ محمود محمد عمارة طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م.
- ١١٧- المنهج التربوى للسيرة النبوية لمنير محمد الغضبان طبعة مكتبة المنار بالزرقاء بالأردن ١٩٩١م.
- ١١٨- المواقف وشرحه لعضد الدين الإيجى طبعة القاهرة الطبعة الأولى ١٩٠٧م.
- ١١٩- موسوعة أطراف الحديث النبوى الشريف إعداد أبو هاجر محمد السعيد بسيونى زغلول طبعة دار الفكر بيروت ١٤١٤ هـ ١٩٩٤م.
- ١٢٠- موكب النور لمحمد زكى بيضون ط دار الكتاب العربى بيروت ١٣٨٩ هـ ١٩٨٠م.
- ١٢١- الموطأ للإمام مالك بن أنس ﷺ تخريج وتعليق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي طبعة دار الحديث بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩م.



١٢٢- النزاع بين الدين والفلسفة د/ توفيق الطويل طبعة مكتبة مصر بالقاهرة الطبعة الثانية.

١٢٣- نظام الحكومة النبوية المسمى الترتيب الإدارية للعلامة الشيخ عبد الحى الكتانى ط دار الكتاب العربى بيروت.

١٢٤- النظام السياسى فى الإسلام د/ محمد عبد القادر أبو فارس طبعة دار الفرقان بالأردن ١٩٨٦ م.

١٢٥- النهاية فى غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين أبى السعادات المبارك ابن محمد بن الأثير ٦٠٦ هـ تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود الطناحى ط دار الفكر بيروت بدون تاريخ.

١٢٦- هدى الكتاب والسنة فى الفتوحات الكبرى فى الإسلام أ د/ عبد الرحمن محمد عبد الله الرفاعى ط مصر للخدمات العلمية للطبع والنشر ١٩٩٧ م.

١٢٧- الوثائق السياسية اليمنية للأكوع الحوالى طبعة بغداد سنة ١٩٧٦ م.

١٢٨- يسوع المسيح للأب بولس إلياس.



## الفهرس

كلمة حق.....	٣
الإهداء.....	٧
شكر وتقدير.....	٩
أصل هذا الكتاب.....	١١
توطئة.....	١٢
المقدمة.....	١٣
الباب الأول العهد المكي النشأة البعثة الهجرة.....	٤١
الفصل الأول إعداد النبي ﷺ لتحمل الرسالة الخالدة وتأهيله ﷺ لها.....	٤٢
الفصل الثاني جوانب عملية في السياسة المكية.....	٥٧
الفصل الثالث الهجرة إلى الحبشة وحق اللجوء السياسي.....	٦٩
الفصل الرابع التمهيد لبناء الدولة الإسلامية خارج مكة ببيعتي العقبة الأولى والثانية.....	٧٥
الفصل الخامس الهجرة تخطيط وتنظيم.....	٨٧
الباب الثاني الإعداد لإعلان قيام دولة الإسلام وإعلان قيامها، وإبراز بعض الجوانب السياسية العظيمة للنبي ﷺ في تلك الفترة.....	١١١
الفصل الأول القواعد الأساسية التي قامت عليها الدولة الإسلامية.....	١١٢
الفصل الثاني إعلان قيام الدولة الإسلامية سياسياً.....	١٥١
الفصل الثالث دعوى ((لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين)) بين الحقيقة والباطل.....	١٥٤
الفصل الرابع سياسة النبي ﷺ مع غير المسلمين.....	١٦٥
الفصل الخامس أهل الذمة داخل ديار الإسلام.....	١٧٧

١٨٨.....	مقارنة بين الإسلام وغيره في معاملة النصارى
١٩٣.....	الفصل السادس إبراز بعض جوانب العبقرية السياسية للنبي ﷺ في سياسة الخصوم والأتباع في السلم والحرب
٢٣٧.....	الباب الثالث الإدارة المدنية والأعمال التنظيمية
٢٣٨.....	الفصل الأول الوزارة
٢٤٥.....	الفصل الثاني الإمارة
٢٦٩.....	الفصل الثالث السفارة
٢٧٥.....	الفصل الرابع ضبط الأسواق وما يتعلق بها من الموازين والمكايل، والتسعير، والرقابة على عملية البيع والشراء
٢٨٩.....	الفصل الخامس القضاء وإقامة الحدود
٢٩٩.....	الفصل السادس تنمة في جوانب إدارية مهمة
٣٠٩.....	الباب الرابع السياسة والإدارة العسكرية
٣١٠.....	الفصل الأول فضل الجهاد في سبيل الله
٣٢٣.....	الفصل الثاني الشورى وما لها من أهمية في السياسة النبوية
٣٤١.....	الفصل الثالث الاستطلاع والاستخبارات
٣٦٣.....	الفصل الرابع التعبئة المعنوية وأهميتها في إحراز الهدف
٣٨٥.....	الفصل الخامس عامل المباغتة والمفاجأة وأثره في إحراز النصر
٣٩٧.....	الفصل السادس تنمة في سياسات عسكرية مهمة
٤١٣.....	الفصل السابع الإدارة العسكرية (إدارة الجيش) وبيان السياسة الحكيمة للنبي ﷺ في هذا الأمر
٤٤٩.....	الباب الخامس العوامل التي ساعدت النبي ﷺ على النصر في الحروب
٤٥٢.....	الفصل الأول القيادة العظيمة للنبي ﷺ
٤٦٩.....	الفصل الثاني شجاعة جنود النبي ﷺ وإخلاصهم له وجبن أعدائه
٤٧٧.....	الفصل الثالث الحرب العادلة
٤٩٩.....	الباب السادس نماذج من نشاط الخلفاء الراشدين في حكوماتهم أسوة في سلوكهم بالنبي ﷺ
٥٠٧.....	الفصل الأول مظاهر من أنشطة الخليفة أبي بكر الصديق
٥٤٣.....	الفصل الثاني مظاهر من أنشطة الخليفة عمر بن الخطاب

---

٥٧١.....	الفصل الثالث مظاهر من أعمال عثمان بن عفان أمير المؤمنين إبان خلافته
٥٨٥.....	الفصل الرابع مظاهر من أنشطة الخليفة علي بن أبي طالب
٥٩٣.....	الخاتمة
٦٠٠.....	التوصيات
٦١٣.....	الفهرس

